الأصالة

مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية



الأصالة

مجلة ثقافية
تصدرها وزارة
التعليم الأصلي
والشؤون الدينية
مرة كل شهرين

رئيس التحرير



عثمان شبوب

السنة الثالثة
العدد 14 و 15
ربيع 2 ـ جمادى 1
جمادى 2 ـ رجب
1393 هـ
ماى ـ جوان
جويلية ـ اوت
1973 م

صورة الغلاف :

جامع كشاوة بريشة الرسام أبى بكر صحراوى

الادارة والتحرير :

I2 ، نهج على بومنجل ـ الجزائر

تليفون : 74-88-64

الحساب الجارى : 09 04 39

صندوق البريد : 63

قيمة الاشتراك السنوى :

فى الجزائر : 12 د ج

فى الخارج : ما يعادلها

مضافا اليها أجرة البريد الجوى

الاشتراك للطلبة : 10 دنانير

تبة . سنطينة ـ الجزائر

عدد خاص

فهرس العدد

الافتتاحية

انما الامم...

احتفلت الجزائر منذ أسابيع قليلة بالعيد الحادى عشر لاستعادة استقلالها واسترجاع سيادتها بعد كفاح طويل .

وهى الآن بصدد اعادة البناء ، وتدارك قرون من الجمود والركود ، أعقبها أكثر من قرن وربع من الاستعمار القائم على الثلاثى المشؤوم ، الذى حدده أرسطو منذ أكثر من ألفى عام ، وهو الفقر ، والجهل ، والمرض .

واذا كانت الجزائر قد استردت حريتها وثرواتها المادية ، واذا كانت اليوم فى طريق التغلب على هذا الثلاثى المشؤوم ، فان هناك جانبا واحدا لم تستكمل فيه تحررها وانعتاقها ، وهو لا يقل أهمية عن أى جانب من جوانب البناء ، وهو الوجه الروحى الاخلاقى ، الذى هو الاسمنت الروحى للمجتمعات والامم .

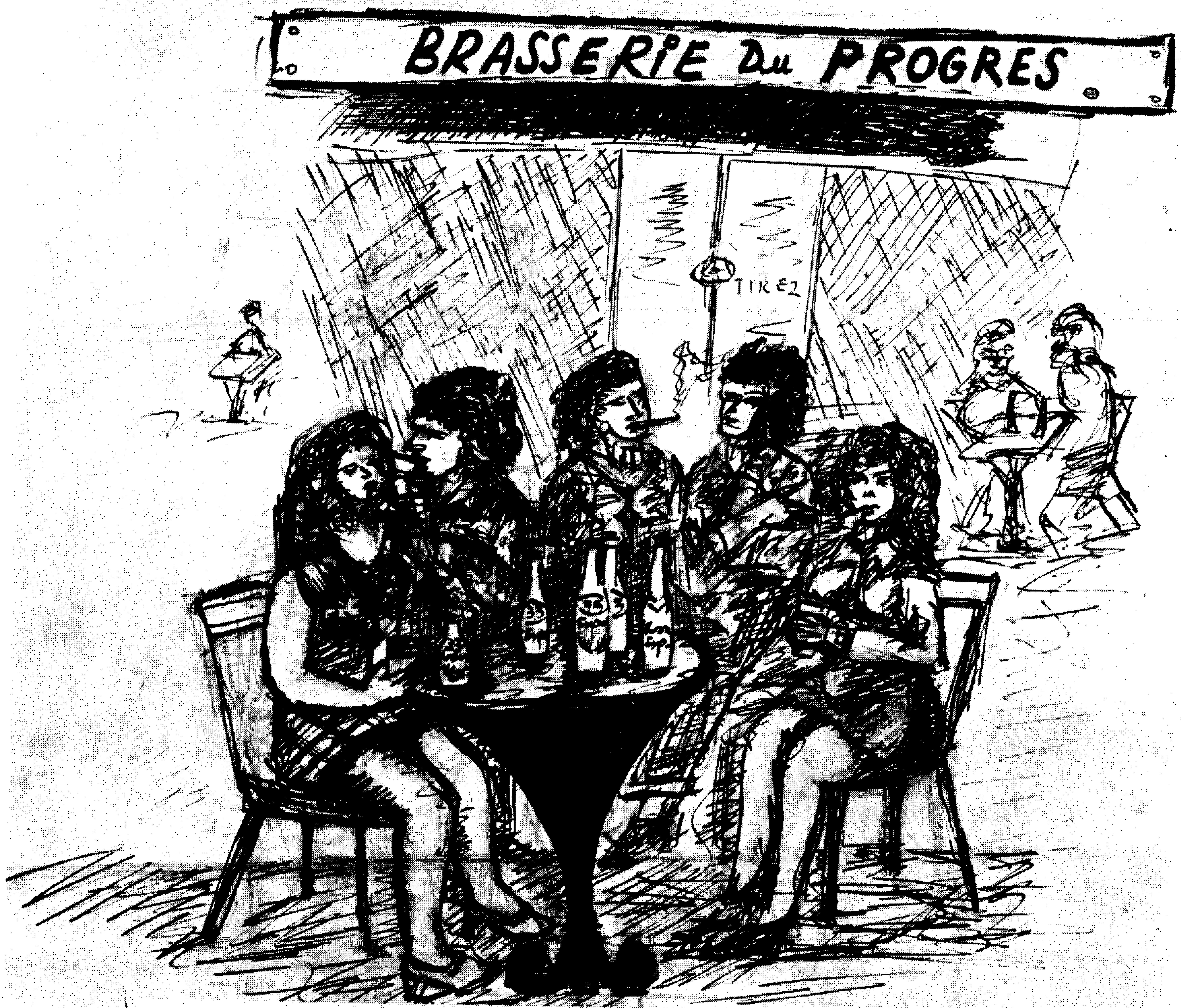
فهو الذى يعزز ، بل يضمن وحدتها وتماسكها ، ويجعلها تتخلص من كل ما يكون قد علق بها من عادات سيئة مستوردة، وتحصن نفسها ضد كل غزو فكرى، يسترجع بيد ما سلمه بأخرى عن كره ومضض .

والجزائر فى هذا ليست وحدها من بين اخواتها . ولكن ليس هذا طبعا بعزاء أو تخفيف للنفس مما يحز بها من توجسات ، ويقضها من تخوفات ، من ان ينطبق عليها من قريب او بعيد ذلك البيت المعروف فى هذا السياق :



مساواة ! وحرية ! وتفتح على العالم الأوسع !

Egalité !... Emancipation ! Ouverture sur le Monde, le Vaste Monde



انفتاح وانبطاح... والشباب عماد المستقبل!
33 خبَّاطة!

(انمـا الامـم الاخلاق ما بقيت   فان هـم ذهبت أخلاقهـم ذهبوا !)

لقد أوضحت هذا كله باسهاب في جريدة المجاهد اليومية التي تصدر بالفرنسية بتاريخ 29 سبتامبر 1970 ، ويجده القارىء في هذا العدد بلغته الاصلية (ويلخص معناه هذان الرسمان بريشة ابن شهيد يتيم الام) ، وخاطبوا الناس بما يفهمون !

وحيث ان هذه المصيبة عامة شاملة لمختلف ديار الاسلام ، ونحن في ملتقى للتعرف على الفكر الاسلامي ، وهي التي تعاني ما تعاني بدرجات متفاوتة في هذا المجـال ، فلتجد فيه جميع البلدان الاسلامية انذارا وتحذيرا ، ونداء وتذكيرا ، فكلنا في الهـم شرق ، وليس بين بلداننا في هذا فرق !

واذا لم توجد في بعض البلدان الاسلامية هذه النماذج ، فقد رأينا أبناءها وبناتها هـكذا في الخارج !

فالبناء المادي ، اذا لم يكن هناك حس حاد بالشرف ، لن يكون الا عملاقا من خزف! هكذا رسبت أمم قبلنا ، وعانيناه بأندلس ، والذكرى تنفع المؤمنين !

مولود قاسم نايت بلقاسم

منشورات

وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية

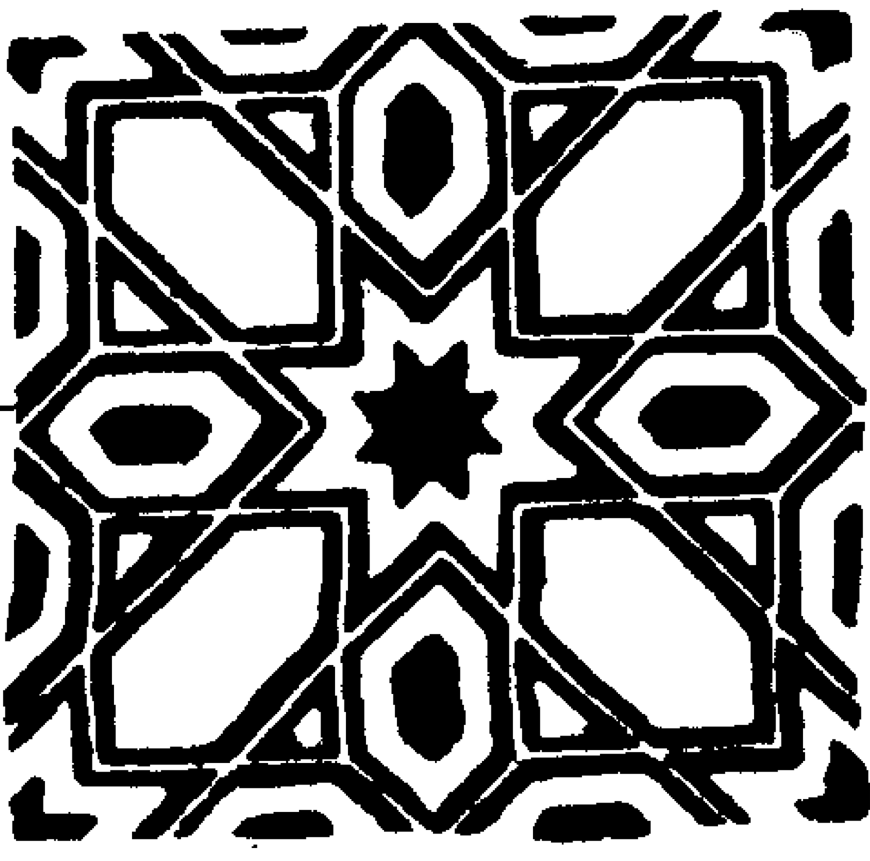
صدر اخيرا كتاب

الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي
باللغة العربية

ويحتوي على خمسة مجلدات



انتظروا الترجمة الفرنسية كاملة



منهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر

د. أبو القاسم سعد الله

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

يذكر السيد بيربروجر ، اول رئيس (للجمعية التاريخية الجزائرية) ، ان الفرنسيين قد شرعوا فى ادخال نظمهم العلمية والادبية والفنية الى الجزائر منذ ١٨٣٠ . وتروى الصحيفة الرسمية (المرشد الجزائرى Moniteur algérien التى اسسها االفرنسيون سنة ١٨٣٢ ، انه قد وجدت آنئذ مدرسة للطب ، وجمعية خيرية تقوم بنشاطها فى (جامع السيدة) ، كما شرع فى انشاء مكتبة عمومية . ومن بين هذه النظم العلمية ايضا الدراسات التاريخية . ففى سنة ١٨٣١ اذن بيرتزين ، قائد الجيش الفرنسى ، للسيد شهافى الذى كان عالما اثريا ، بالتنقيب عن الآثار فى المنازل والحدائق العامة (١) .

وفى دراستنا لمنهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر سنقصر حديثنا على الفترة الواقعة بين ١٨٣٠ ــ ١٩٥٤ مع بعض الاشارات للعهد العثمانى (١٥٠٠ ــ ١٨٣٠) كلما اقتضى الامر ذلك .

انظر التعاليق فى آخر البحث

مجالات البحث عند الفرنسيين :

ورغم جهل الفرنسيين أول الامر بواقع الجزائر وتاريخها ، ورغم انشغالهم بعمليات الحملة والاحتلال وافتقارهم فى البداية الى الذوق الثقافى ، فانهم اتجهوا فى البحث ثلاث مجالات فى نفس الوقت :

١ ــ نشر الاثار السابقة عن الجزائر ٠

٢ ــ انشاء اللجان «العلمية» ومنح الرخص للافراد للقيام بعمليات البحث والجمع والتعريف بالاثار التاريخية فى البلاد ٠

٣ ــ تكوين الجمعيات المختصة ، والصحف والدوريات التى تحفظ المكتشفات التاريخية وتعتنى وتعرف بها المهتمين ٠

وفى نطاق المجال الاول نشروا منذ ١٨٣٠ كتب الرحلات والانطباعات التي كتبها الاروبيون عن الجزائر خلال العهد العثمانى ، مثل شيلروشو وبانانتى ورونودو وهايدو وفانتوردى بارادى ٠ كما نشروا غزوات عروج وخير الدين مترجمة عن النسخة العربية واهتموا (بالزهرة النيرة) وبالوثائق العربية لحملة شارل الخامس على الجزائر ٠ وعادوا الى كتب المؤرخين والرحالة العرب وشرعوا ايضا فى نشرها ، جزئيا او كليا كابن خلدون ، والبكرى والعياشى وحسن الوزانى (ليون الافريقى) ، وغيرهم ٠ ومن جهة اخرى نشروا مراسلات دايات الجزائر مع حكام فرنسا ، ومذكرات وتقارير القناصل والجواسيس الفرنسيين امثال دوبوا ــ تانفيل ، وبوتان وكيرسى ٠ واهتموا بارشيف الغرفة آلتجارية بمرسيليا وبتقارير الشركات الفرنسية التى توالت على ما كان يسمى (بحصن فرنسا) ٠ وبالاضافة الى ذلك ابدوا عناية بالوثائق العثمانية التى وجدوها فى الجزائر والتى ضاع كثير منها ساعة الفوضى التى سادت دخولهم الجزائر (٢) ٠

وبخصوص المجال الثانى (انشاء اللجان العلمية) ، نجد ان اللجنة الافريقية ، التى زارت الجزائر سنة ١٨٣٣ بقصد التحقيق فى مصير الجزائر ، تنهى اعمالها بتقارير ومحاضر غنية عن الجزائر فى مختلف المجالات ، ولا سيما الاقتصادية والاجتماعية ٠ وفى ١٨٣٧ انشأت وزارة الحربية لجنة باسم (اكتشاف الجزائر العلمى) ٠ وقد قامت بنشر دراسات هامة فى عدة اجزاء عن الآثار والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة والتاريخ وعلم السلالات ٠ وكذلك قام العديد من الافراد يبحثون وينشرون اعمالهم فى التاريخ المحلى ، عن اللهجات ، والطرق والنظم ، وطبائع السكان ، والزوايا ، والحياة القبلية والمدن الخ ٠ وقد ظهرت من ذلك مجموعة من الدراسات والانطباعات التى كتبها عسكريون سنتحدث عن دورهم بعد قليل (٤) ٠

اما المجال الثالث (الجمعيات والصحف) فقد ظهر هو الاخر منذ بداية الاحتلال ٠ فمنذ ٢٦ جوان ١٨٣٠ ولدت الصحافة بالجزائر فى سيدى فرج ٠ ولعلها لم تكن صحافة بالمعنى الدقيق للكلمة ، لان أول جريدة حقيقية اسسها الفرنسيون فى الجزائر هى «المرشد الجزائرى» ٠ وكانت تهتم بالاضافة الى القرارات والاعلانات الرسمية ، بالتاريخ المحلى واخبار المسلمين وحركات الاهالى ، وكان على رأسها السيد بيروبرجر الذى

كان له دور فى ادخال كثير من عوامل الحضارة الاوربية الى الجزائر. ثم صدرت جريدة (الاخبار) سنة ١٨٣٩ ، وكانت هى الاخرى تهتم بالابحاث التاريخية الى جانب كونها جريدة سياسية اخبارية . وقد اهتمت أيضا (المبشر) التى ظهرت ١٨٤٧ بالاخبار المحلية وان كانت قليلة ، ولا سيما فى عهدها الاول .

غير ان تأسيس (جمعية قسنطينة للاثار) (٥) سنة ١٨٥٢ قد ادى الى ظهور الدوريات المتخصصة فى الدراسات التاريخية والاثرية . فقد كانت هذه الجمعية تصدر منذ عامها الاول (تقويما Annuaire تحول فيما بعد الى (مجموعة Recueil من الدراسات والملاحظات المتعلقة بتاريخ المنطقة . وبوحى من الحاكم العام راندون ظهرت فى مدينة الجزائر سنة ١٨٥٦ (الجمعية التاريخية الجزائرية) (٦) التى اصدرت (المجلة الافريقية (R.A) وهى المجلة التى اصبحت بعد مائة سنة ونيف مرجعا لاغنى عنه للباحثين فى تاريخ الجزائر فى مختلف عصوره . ولم تحن سنة ١٨٧٨ حتى ظهرت فى وهران أيضا (جمعية وهران الاثرية) . وقد اصدرت بدورها (نشرة Bulletin تضم ابحاث اعضائها ومراسليها عن تاريخ المنطقة . وكل هذه الدوريات استمرت طويلا واثرت البحث التاريخى فى الجزائر وظهر على صفحاتها جم من العلماء الذين كرسوا اوقاتهم لجمع المعلومات عن التاريخ المحلى .

والى جانب هذه الدوريات والجمعيات ظهرت مكتبة ومتحف الجزائر فقد ظهرت اول نواة (مكتبة مدينة الجزائر) سنة ١٨٣٥ ولم تبدأ فى العمل فعلا الا خلال سنة ١٨٣٨ . وبوحى من بريسون المتصرف المدنى ، اضيف الى المكتبة (متحف اثرى) . واصبحت المكتبة والمتحف منطلقا للباحثين فى تاريخ الجزائر يجدون فيهما المخطوطات العربيةو المطبوعات والاثار التى هى عدة المؤرخ . والملاحظ ان اول مقر للمكتبة والمتحف هو (دار الحاج عمر) ، صهر الداى حسن باشا وكانت هذه الدار على الطراز الاندلسى الجزائرى الجميل . وكانت تتكون من طابقين خصص الطابق الثانى للمكتبة ، وكان يضم اربع قاعات ثلاث منها للكتب والرابعة للمطالعة . والقاعة الاخيرة مقسمة الى جناحين واحد للمطالعين الاروبيين والثانى للمطالعين الجزائريين . والملاحظ ان الجناح الاول كان يحتوى على الكتب المتعلقة بالجزائر والتى كانت مطلوبة اكثر من غيرها .

اما المتحف فكان فى الطابق الاول من الدار وكان يضم ايضا اربع قاعات ، خصصت ثلاث منها لعرض وحفظ التحف والاشياء الثمينة والخطوط والالات والاثار والاسلحة والحيوانات الخ . اما القاعة الرابعة منه فقد خصصت لدرس اللغة العربية الذى كان يقوم به السيد بريسنى . وبالاضافة الى مكتبة ومتحف مدينة الجزائر توسعت المكتبات العسكرية التى كانت تتبع الحاميات فى المدن التى وقع احتلالها ، كما تكونت متاحف اخرى مثل متحف شرشال الذى تكون فى الشهور الاولى للاحتلال والذى تخصص تقريبا فى حفظ الاثار الرومانية التى اولاها الفرنسيون اهتماما خاصا (٧) .

دوافع البحث فى تاريخ الجزائر :

انطلق الفرنسيون فى كتابتهم تاريخ الجزائر من عدة معطيات اهمها : كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة ، وكونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا ، وكونهم مسيحيين قبضوا

على زمام شعب مسلم . وهذه المعطيات ، متفرقة ومجتمعة ، هي التي قررت نوعا من (الحتمية التاريخية) عندهم ، وهي التي حددت منهجهم الذي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين . ولعل تلك المعطيات هي التي ما زالت تتحكم في الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم .

وكانت هناك دوافع كثيرة دفعت الفرنسيين الى الاهتمام بالتاريخ الجزائري . فهناك اولا الرغبة في التعرف على شعب وقع في قبضة الحضارة الاوروبية . وكانت هذه الحضارة تحمل معها الى الجزائر كل ادوات الغزو الفكري . فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة ، وبالمستشرقين الذين يدعون معرفة الاسلام وتاريخه ، وبالتراجمة الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية الاوروبية أو من الذين جاؤوا من الشام ومصر بعد ان ارتبطوا بالحضارة الاوروبية عقب حملة نابليون (٨) .

وهناك ثانيا دافع السيطرة والاحتلال ، ولا يمكن ان يتحقق ذلك الا بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها . ومن اجل ذلك استعان الفرنسيون ايضا بالكتاب الجزائريين ونذكر على سبيل المثال ما كتبه العنترى وابن المبارك عن تاريخ قسنطينة بوحي من بواسوني ، وما كتبه محمد بن علي التلمساني عن علماء وهران وتلمسان بوحي من عامل وهران الفرنسي . وماترجمه ونشره ابن ابي شنب والحفناوي وغيرهما بتحريض من الحاكم العام جونار وجملة من الباحثين الفرنسيين .

وهناك ثالثا دافع الفضول العلمي . فقد احتلت الجزائر في وقت كان فيه *العقل الاروبي* (الديكارتي) جامحا يتطفل على ميادين المعرفة ويجوب افاق الحياة يكتشف اسرارها ويذوق لذاتها ويحاول السيطرة على المجهول والمخيف منها . بينما العقل الشرقي (الجزائري) كان ما يزال راكدا قابعا . ومع سيادة العقل الاروبي ظهرت فكرة التمايز والتفاضل بين الشعوب فاصبح هناك علماء يؤمنون بافضلية الشعوب الاروبية على الشعوب غير الاروبية ، وينادون بضرورة «تمدين» هذه الاخيرة بواسطة الاولى ، وهم يطالبون بذلك لا على انه تمنيات وآمل ولكن على انه (رسالة حضارية) لا بد من القيام بها والعمل من اجلها . وسنرى ان كتاب التاريخ الجزائري من الفرنسيين كانوا من دعاة هذا المذهب .

وهناك اخيرا دافع الدين فقد احتلت الجزائر بعد صراع شديد بينها وبين اروبا المسيحية دام ثلاثة قرون . والاروبيون يطلقون على ذلك عهد القرصنة (٩) ، وهو في الواقع كان الفصل الثاني من عهد الحروب الصليبية . ولذلك اهتموا بتاريخ الجزائر اولا لمعرفة اسرار العهد المشار اليه ، وثانيا لتحطيم المعنويات التي قد تحدث تغييرا جذريا بعد نجاح الاحتلال . وسنرى انهم اهتموا بالدراسات الاسلامية والطرق الصوفية ورجال الدين ذوي النفوذ الروحي ، تمشيا مع هذا الاتجاه . كما شاركت الكنيسة ، بواسطة رجال التبشير ووسائلها المعنوية والمادية في تبني هذا الاتجاه (١٠) .

ويمكن ان نقسم فترات البحث في تاريخ الجزائر الى عهدين كبيرين هما : عهد المؤرخين

العسكريين وعهد المؤرخين المختصين او الجامعيين . وسندرس فيما يلي اهم ما تميز به كل عهد من الاهمامات ، واشهر رجال كل عهد .

عهد المؤرخين العسكريين ١٨٣٠ ـ ١٨٨٠ :

يطلق المؤرخ ستيفان غزال على هذا العهد اسم (المدرسة الجزائرية القديمة)(١١) فى كتابة التاريخ . ذلك ان الذين تولوا كتابة تاريخ الجزائر ، الاقتصادى والسياسى والادارى خلال هذا العهد هم كتاب عسكريون بالمهنة او تراجمة عسكريون وقد ظلت الادارة الفرنسية فى الجزائر عسكرية من ١٨٣٠ الى ١٨٧١ (باستثناء سنتى ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠) . وان هناك مناطق من الجزائر ظلت عسكرية الى قيام الثورة . ولذلك فانه يمكن ان يقال بان الحكم الفرنسى فى الجزائر كان حكما عسكريا بالنسبة للجزائريين حتى عندما كان حكما مدنيا بالنسبة للاروبيين المقيمين بالجزائر. ذلك ان الادارة الفرنسية قد اعتمدت فى (الشؤون الاهلية) على ضباط كانوا يتكونون تكوينا خاصا ثم تسند اليهم وظيفة محلية محددة كان يطلق عليها اسم (المكتب العربى) . وشيئا فشيئا اصبحت (المكاتب العربية) هى فى الواقع الحكومة المحلية التى تباشر تسيير شؤون الجزائريين . وقد اختلفت ادارة شؤون الاروبيين من عهد الى عهد . ولكنها بالنسبة للجزائريين ظلت تعتمد على (المكاتب العربية) حتى ١٨٧١ . وعند ما تحولت الادارة العليا الى ادارة مدنية فى عهد الجمهورية الثالثة اصبح الجزائريون خاضعين لاجراءات لا تختلف عن مزيج من الادارة العسكرية والبوليسية .

ومن هنا لا نستغرب ان يتولى العسكريون وهم الذين كانوا على صلة مباشرة بالجزائريين كتابة تاريخ محكوميهم . فخلال العشر سنوات الاولى من الاحتلال ظهر كتاب عسكريون امثال كاريت ، وبيليسى وهانوتو ، وديلامار ، وغيرهم. وقد شارك هؤلاء فى «اللجنة العلمية» التى اشرنا اليها (١٨٣٧) والتى كونتها وزارة الحربية لاكتشاف الجزائر ومعرفة احوال اهلها الماضين. وهكذا كتب كاريت عن القبائل الجزائرية وعن العلاقات الاقتصادية بينها ، وكتب بيليسى دى رونو كتابه (اخبار الجزائر) الذى ارخ فيه للثمانى عشرة سنة الاولى من الاحتلال . كما كتب هانوتو عن لهجات ونظم الجزائريين ، وجمع ديلامار وثائق عديدة عن الآثار والخطوط . يضاف اليهم البارون دى سلان الذى ترجم تاريخ ابن خلدون وجغرافية البكرى وغيرهما ، واختص الضابط بروسلار بالخط العربى . وقام فورنيل بكتابة تاريخ شمال افريقية فى العصور الوسطى اما لاكروا فقد نشر دراسات عن الاستعمار والادارة الرومانية فى افريقية . ومن كتاب هذا العهد ايضا بيربرجر الذى ملأ (المجلة الافريقية) بمقالاته عن اخبار الجزائر سواء التى جمعها مباشرة او التى ترجمها عن كتاب مسلمين مثلما فعل مع رحلة العياشى .

واذا كان هؤلاء قد التفوا حول (اللجنة العلمية) فان هناك جماعة اخرى من الباحثين العسكريين قد التفوا حول مشروع (لوحة عن وضع المنشات الفرنسية فى الجزائر) وقد ظهر من هذا المشروع الضخم سبعة عشر مجلدا ، بين سنوات ١٨٤٣ ـ ١٩٦٤ . وفيه دراسات احصائية وغوص فى حياة السكان . ورغم قدم العهد فان هذه المجادات ما تزال مرجعا للباحثين . ومن كتاب هذا العهد شارل فيرو ، والاسكندر بيلامار، وآرنو ، وولسن ايسرتهازى ، ورويان ، وترملى

ولويس رين ، وغيرهم . وبالاضافة الى مشروع (اللوحة) تجمع هؤلاء حول (جمعية قسنطينة للآثار) و (الجمعية التاريخية الجزائرية) ومجلتيهما . وقد امدوا هذه المنشآت بالدراسات والمذكرات عن القبائل وزعمائها والطرق والاثار والتواريخ المحلية . واللهجات والنظم والشخصيات السياسية التي لعبت دورا في تاريخ الجزائر كالامير عبد القادر ، والحاج احمد وبومعزة ، وبوبغلة ، والحوادث الهامة كالمعارك والثورات ، ودور بعض العائلات والطرق الصوفية ، ولا نكاد نجد تاريخا لحروب الامير ، ونزاع الحاج احمد مع خصومه في الزيبان وحوادث جرجرة ، وثورات أولاد سيدى الشيخ وثورة ١٨٧١ ونحوها الا بالعودة الى كتابات بيلامار ، وزيروكا ، وروبان ، ورين وتروملى ، ودوماس ، ودونوفو ، واضرابهم (١٢) .

وقد اعتمد هؤلاء فى كتاباتهم على المصادر الاهلية فى غالب الاحيان . وهذه المصادر على نوعين مكتوبة وشفوية . ومن المصادر المكتوبة وثائق العائلات الكبيرة ، وعقود الملكية، ومذكرات رجال العلم الجزائريين . اما المصادر الشفوية التى اعتمدوا عليها اكثر من الاولى ، فقد جعلتهم يسجلون قصصا واحداثا من مختلف المشارب والانواع (١٣) ، وقد ساعدت الادارة هؤلاء الباحثين بجمع ما تفرق من الوثائق العربية والتركية التى وجدها الفرنسيون ساعة دخولهم الجزائر ، وفى هذه الوثائق معاهدات ، ودفاتر حساب ، وسجلات عسكرية ، وعقود وأوراق ادارية ، فقد انشئت (ادارة الدومين) ووضعت تلك الوثائق فى قسمها العربى الذى اسندت ادارته الى السيد ديفو وظل ديفو ٢٥ سنة كمحافظ للارشيف العربى ، ونشر خلال ذلك وثائق هامة عن تاريخ الجزائر الدينى ، والعسكرى ، والبحرى (١٤) . ورغم ان اعمال هؤلاء الباحثين العسكريين كانت تعتمد الجمع ، ولا سيما من المصادر الشفوية والمشاهدات الشخصية ، فانها قد تركت للمؤرخين اللاحقين أرضية يبدأون منها ومنافذ يطلون منها على احوال الجزائريين الذين لم يكونوا يعرفون عنهم الا القليل .

عهد المؤرخين الاختصاصيين ١٨٨٠ ـ ١٨٥٤ :

بتأسيس جامعة الجزائر يبدأ عهد جديد من كتابة تاريخ الجزائر عند الفرنسيين . ففى سنة ١٨٨٠ صدر قانون بانشاء (المدارس العليا) فى الجزائر ، وهى التى اصبحت بعد حوالى ثلاثين سنة (١٩٠٩) جامعة الجزائر ، وكانت المدارس العليا تضم مدرسة الآداب ، ومدرسة الطب ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة العلوم ، وقد تكاثفت جهود أساتذة الجامعة مع جهود رؤساء الجمعيات التاريخية والاثرية التى سبق ذكرها ، وكتاب الدوريات العلمية ، وأساتذة التاريخ فى الثانويات ونتج عن هذا التكاثف اهتمام خاص بتاريخ الجزائر ، ولكن ميلاد المدارس العليا تصادف مع موجة الاستعمار العنيفة التى بلغت ذورتها بالنسبة للجزائر فى الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال ، وتعكس الدراسات التى ظهرت خلال هذا العهد مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار ، أو مدى ذاتية المؤرخ عندما يرتبط بمصلحة وطنه ويضحى فى سبيل ذلك بقيم البحث واخلاق العلم ، ذلك ان كتابات هذا العهد كانت تعمل على تبرير الاستعمار والتاريخ له . وتعمل فى النهاية على انجاحه واستمراره (١٥) .

وتصادف ميلاد جامعة الجزائر ايضا مع احتلال فرنسا لتونس واهتمامها بقضية المغرب الاقصى ، وبذلك اتسعت رقعة البحث لدى مؤرخى هذا العهد واصبحوا يتناولون فى كثير من الاحيان تاريخ شمال افريقية بصفة عامة ، ويربطون بين مصالح فرنسا فى الاقطار الثلاثة ، ويضاف الى ذلك منطقة الصحراء التي دخلت اهتمامات الابحاث الفرنسية خلال هذا العهد ايضا ، ولا غرابة ان نجد بعض التراجمة والباحثين الذين (تدربوا) فى الجزائر قد اصبحوا عاملين فى تونس والمغرب أيضا ، ولا غرابة أيضا أن تتكون سنة ١٩٣٥ (اتحادية الجمعيات العلمية لشمال افريقية) وقد اصبحت تجتمع كل سنة فى احدى مدن المغرب العربى لتنسق جهودها وتتذاكر فى خططها وتتبادل الخبرات والمعلومات وتلقى خلال ذلك الابحاث والدراسات ، وخلال هذا العهد ولد أيضا (معهد الدراسات الشرقية بالجزائر) ١٩٣٣ الذى اخذ على عاتقه الاهتمام بالحياة العربية الاسلامية لماضى الجزائر بالذات وقد تولى كبر أموره السيد جورج مارسى ثم هنرى بيريس المعروف بتعصبه ضد الجزائريين ، كما ولد سنة ١٩٤٠ (معهد الابحاث الصحراوية) .

بدأ اذن العهد الجديد من اهتمام الفرنسيين بتاريخ الجزائر خاصة وماضى شمال افريقية عامة (بعد احتلال تونس والاستعداد للمغرب) عندما فتحت مدرسة الآداب العليا (كلية الآداب فيما بعد) مجال التدريس والبحث فى تاريخ المغرب العربى وافريقية ، ولما كانت الابحاث تهدف الى خدمة الادارة الاستعمارية سواء فى الجزائر أو فى غيرها من أجزاء افريقية ، فان تسهيلات وتشجيعات مادية ومعنوية قد توفرت للاساتذة سواء اثناء وجودهم على كرسى التدريس أو اثناء تنقلاتهم بحثا عن المعارف والمصادر . وتذكر المصادر أن هؤلاء الاساتذة قد تنقلوا كثيرا وبعيدا وركبوا فى سبيل هدفهم الاحصنة والبغال وحتى الجمال (١٦) . ومن الاساتذة الجامعيين الذين برزوا خلال هذا العهد السيد ماسكرى ، الذى لم يختص بموضوع بعينه ورينى باسى الذى اختص بالدراسات اللغوية واللهجات المحلية ، ودوتى الذى كرس جهوده للابحاث الاجتماعية ، وجورج ايفير الذى اهتم بتاريخ الاحتلال ، وستيفان غزال الذى تخصص فى تاريخ شمال افريقية القديم ، ومارسيل ايمريت الذى اهتم بالنواحى الاجتماعية والاقتصادية للاهالى خلال العهد الفرنسى ، وياكونو الذى تناول قضايا الاستعمار والمكاتب العربية ، ويضاف الى هؤلاء عدد من المهتمين بتاريخ شمال افريقية فى فرنسا نفسها أمثال شارل اندرى جوليان (تاريخ شمال افريقية) وما نصو (التاريخ الادبى لافريقية المسيحية) ، وكانيا (الجيش الرومانى الافريقى) وديل (افريقية البيزنطية) .

وخلال هذا العهد انشئت عدة مصالح ساعدت هؤلاء المؤرخين الاختصاصيين على أداء مهمتهم ففى سنة ١٨٨٠ تاسست (مصلحة الآثار التاريخية)بالجزائر، وهى التى قامتببعث مدينتى جميلةوتيمقاد الرومانيتين ، وفى باريس تاسست سنة ١٨٨٣ (لجنة افريقية الشمالية) التى كانت مهمتها بعث الوثائق والخطوط والنقوش الاثرية. وفى عهد جونار تاسست سنة ١٩١٥ لجنة بالجزائر عهد اليها بنشر مراسلات ومذكرات رجال العهد الفرنسى فى الجزائر وعلاقات الاهالى معهم ، وضمن هذا المشروع صدرت

مراسلات كلوزيل وروفيقو وفوارول وديرلون وآثار بوتان كما صدر كتاب (الجزائر فى عهد الامير عبد القادر) لا يمريت ، وفى عهد جونار أيضا اعطيت الاشارة لتشجيع الدراسات الاسلامية فقام محمد بن أبى شنب بنشر رحلتى ابن عمار والورتلانى ، وتحقيق كتب قديمة كعنوان الدراية للغبرينى ، والبستان لابن مريم ، وبغية الرواد ليحى بن خلدون ، وقام الحفناوى بوضع قاموس تراجمه (تعريف الخلف برجال السلف) وتولى لوسيانى (الذى كان مسؤول الشؤون الاهلية فى نفس الفترة) التعريف بآثار رجال الدين المسلمين كالسنوسى وعبد الرحمن الاخضرى ٠

وعندما حان الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال تجند هؤلاء المؤرخون فى اللجان التى كونتها (الحكومة العامة) عندئذ لوضع دراسات تركيبية عن تاريخ الاستعمار فى الجزائر وعن جهود فرنسا الحضارية فيها ، مع نظرة نقدية شاملة لما تحقق فى ميدان الكتابة التاريخية حتى ذلك العهد ، وقد خرجت من هذا الجهد مجموعة من الابحاث اصبحت تعرف (بمجموعة المائة سنة) وهى تشمل ميادين التاريخ ، والآثار والجغرافية ، والفنون ، وغيرها ، وهذا اللقاء بين المؤرخين الفرنسيين فى جامعة الجزائر وبين الحكومة العامة يبرهن من جديد على مدى تواطىء هؤلاء المؤرخين مع الادارة الاستعمارية وخدمتهم لاغراضها ٠

وبحلول سنة ١٩٥٦ احتفلت (الجمعية التاريخية الجزائرية) ومجلتها (المجلة الافريقية) بمرور مائة سنة أيضا على ميلادها ، وقد قدم عدد من المؤرخين الجامعيين والباحثين دراسات هامة عن تقدم الكتابة التاريخية خلال سنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٥٦ ٠ ونذكر من بين هذه *الدراسات* عن الفترة التى نكتب عنها مقالة ياكونو التى تناول فيها تقييم ما كتب منذ الاحتلال ، وجزءا من مقالة روجى لؤثورنو عن (العصور الوسطى والعهود الحديثة) ، وهما بحثان غنيان بالآراء والملاحظات والمراجع ، وفى نفس الوقت يبرهنان على مدى ما وصلت اليه الكتابة التاريخية الفرنسية عن الجزائر ، ومن جهة أخرى نلاحظ أن البحثين كتبا فى بداية أحداث الثورة الجزائرية ولذلك لا نستغرب ان ينتهى لوتورنو الى القول بأن «البحث التاريخى عن الجزائر المسلمة ما يزال بعيدا عن الانتهاء (١٧)» وان ينتهى زميله ياكونو الى القول بأنه لا توجد دراسة شاملة عن سياسة فرنسا الاسلامية فى الجزائر ولا عن التحول الذى أصاب الاهالى بتأثر الاستعمار(١٨) ٠ والواقع أن المؤرخين الفرنسيين فى الجزائر قد درسوا تاريخ الحملة والاحتلال والاستعمار ، ولكنهم لم يدرسوا تطور المجتمع الجزائرى ولا سياسة بلادهم نحو الجزائريين ٠

مواقف المؤرخين الفرنسيين من قضايا التاريخ الجزائرى :

رغم بحث الفرنسيين عن المصادر الاهلية فانهم كثيرا ما شككوا فى قيمتها واتهموها بالتجريدية والمبالغة ، بل نادى بعضهم بعدم الاعتماد عليها ، فقد ادعى وليام مارسى انه يجب الاعتماد فى كتابة تاريخ الجزائر خلال العهد العثمانى على المصادر الاوروبية ووثائق الا رشيف الرسمية والتجارية (١٩) ، وهو فى هذا يقتدى برأى دى سلان الذى شك فى صحة اخبار

العرب عن المغرب (٢٠) . ووافقه فى هذا الادعاء استيفان غزال حيث قال عن العهد الاسلامى (من الفتح العربى الى ١٥٠٠) أن الباحث فيه يدخل فى «ظلام دامس» لعدم وجود الوثائق الصحيحة والمعاصرة ، وقال ان الباحث لا يجد سوى بعض الحوادث المتأخرة وغير المنقودة وبعض التسجيلات للاحداث لكنها تسجيلات مرتبطة بالنظم العسكرية وغير نزيهة . ولم يستثن غزال من هذا الحكم سوى ابن خلدون ، لذلك نادى ايضا بالاعتماد على رحلات الاوروبيين وارشيف الدول الاوروبية . وقد وقف نفس الموقف من المصادر الاهلية خلال العهد العثمانى ، فقال ان المؤلفين العرب لم يكتبوا عن السادة (يعني الاتراك) وعلاقاتهم بالاوروبيين والسلطان ، لذلك رأى ايضا الاعتماد ، لدراسة هذا العهد ، على الارشيفات الاوروبية ، والارشيف التركى ، والرحلات الاوروبية (٢١) ، والواقع ان الذى سبق الى هذا الرأى هو دى غرامون الذى رفض فى كتابه عن تاريخ الجزائر العثمانية الاعتماد على المصادر الاهلية لعدم الثقة فيها .

ومع هذا الموقف المجحف من المصادر الاهلية ، فان الفرنسيين قد عملوا كما لاحظنا سابقا على ترجمة الآثار العربية عن الجزائر فى شتى العصور ، ولا يكاد يوجد مخطوط رحلة أو وثيقة أو مجموعة رسائل أو سجلات حكومية الاترجموها كاملة أو مجزأة ، ويطول بنا الحديث لواستعرضنا هنا كل الاعمال التى قاموا بها فى هذا الصدد، ويكفى ان نحيل القارىء الى الدراسة القصيرة ، لكنها مفيدة ، التى قام بها السيد هنرى ماسى بعنوان (الدراسات العربية فى الجزائر من ١٨٣٠ – ١٩٣٠) وهى الدراسة التى اخرجها بمناسبة الاحتفال المئوى بالاحتلال ، وكذلك الدراسة التى قام بها السيد كور بعنوان (ملاحظات عن كراسى اللغة العربية) فى الجزائر ونود أن نلاحظ ان الفرنسيين لم يكتفوا بما قام به مترجموهم فى نشر الدراسات الاسلامية العربية عن الجزائر ، بل استعملوا ، كما اسلفنا ، بعض المثقفين الجزائريين لنفس الغرض أيضا ، ومن هؤلاء محمد بن أبى شنب ، والعنترى ، والحاج صادق ، وصوالح ، واسماعيل حامد ، ويكفى ان نذكر فى هذا الصدد ترجمات الفرنسيين للكتب التالية : (تاريخ باشوات الجزائر) لابن المفتى ، و (الزهرة النيرة) للتلمسانى ، و (غزوات عروج وخير الدين) لمجهول ، و (الحلل السندسية) و (عجائب الاسفار) لابى رأس الناصرى ، و (بهجة الناظر) للمشرفى ، و (رحلة الباى محمد الكبير) لابن هطال ، و (رحلة الورتلانى) ، و (رحلة ابن عمار) ، و (كشف الرموز) لابن حمادوش ، و (تاريخ قسنطينة) لابن المبارك ، و (مذكرات) حمدان خوجة ، و (مذكرات بوضربة و (مذكرات) سى عزيز بن الشيخ الحداد ، و (مذكرات) الحاج احمد باى قسنطينة ، و (تاريخ بنى زيان) للتنسى ، و (تاريخ العدوانى) ، و (الفارسية) لابن قنفذ وغيرها . بالاضافة الى العديد من الوثائق والرسائل والشعر الملحون، وكتب الفقه والنحو والاصول .

واذا كان هؤلاء المؤرخون قد اهتموا بالطرق الصوفية ورجالها وبكتب الفقه والاصول كمصادر للتفكير الاهلى ، فانهم وقفوا موقفا مشبوها من الاسلام، ذلك اننا لا نجدهم يعترضون على استيلاء الادارة الاستعمارية على ضم الاوقاف الى الدولة (الدومين) ولا على تحويل المساجد الى كنائس ،

ولا على تهديم بعضها ، حتى باسم الآثار والحرص على (الوجه الافريقى) للجزائر ، وقد اكثروا فى كتاباتهم من استعمال عبارات «الاسلام الجزائرى» و «الاسلام الجزائرى الجديد» وهم يعنون الاسلام كما يمارسه الجزائريون الذين يتهمونهم بانهم لم يعتنقوه عن وعى ولم يمارسوه عن عقيدة ، وانما هو عندهم نوع من التقاليد الموروثة والفولكلور الذى يظهر فى المناسبات ، ويتجلى هذا الموقف من نعت الفتح العربى (بالغزو العربى) ، ومن التركيز على احداث تاريخية خاصة كحادثة الكاهنة مع حسان بن النعمان ، وحادثة كسيلة وعقبة بن نافع ٠ وعندما تحدثوا عن هجرة بنى هلال تحدثوا عنها «كغارة ذئاب» ، حسب تعبير ستيفان غزال ، على المغرب قصد فرض لغتهم ودينهم على السكان، وقد تأسف هذا الكاتب على أن الرومان قد اخطأوا عندما لم يحولوا السكان فى شمال افريقيا الى «مسيحيين لاتينيين (٢٢) ٠

ويعزو هؤلاء المؤرخون شدة مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسى لا الى الروح الوطنية والنفور من حكم الاجنبى وانما لضيق الافق والتعصب الدينى (٢٣) ، أما ايميل قوتى فقد اطلق اسم « القرون الغامضة » على عهد الامارات الاسلامية فى الجزائر والمغرب من الفتح العربى الى مجىء العثمانيين ، ويتصل بهذه النقطة اعتناؤهم « بقديسى الاسلام » فى الجزائر فقد نشر دوتى كتابا بعنوان (الاسلام الجزائرى) ونشر ترو ملى كتابا بعنوان (قديسو الاسلام الجزائرى) واهتم دونوفو ولويس رين وكولانى (بالمرابطين والاخوان) ودرس اغسطين بيرك (المرابطين والعلماء) ، واخرج مارسيل بودان دراسة عن احمد بن يوسف المليانى ، وهلم جرا٠

والكتابات التى كتبها الفرنسيون عن الامير عبد القادر كثيرة ، ولكنها لا تخرج فى *اغلبها* عن الحط من دوره الوطنى ، وجعله شخصا متعصبا دينيا فى البداية وصديقا لفرنسا فى النهاية ، وهذا الموقف يلخصه بصراحة كتاب بول أزان المسمى (الامير عبد القادر من التعصب الاسلامى الى القومية الفرنسية) ذلك ان أسناد دور المدافع الوطنى للامير يبطل عمل فرنسا فى الجزائر ، والغريب أن مؤرخا مختصا مثل جورج ايفير الذى تناول الامير وعصره فى عدة مناسبات يقول عن الامير انه لم يكن بطل جنسية عربية فى الجزائر لانها لم توجد ، ولم يكن سياسيا مجددا يهدف الى ادخال الحضارة الاوروبية على مواطنيه الذين كانوا (نصف برابر) ولكنه كان مرابطا طموحا اراد ان يحل نفسه محل الاتراك ، واستغل لتحقيق ذلك الهدف غفلة الفرنسيين ونسبه الشريف وشجاعته الشخصية ، ويضيف ايفير أن الامير قلد الاتراك فى ادارتهم لانها كانت تصلح للاهالى، فملأ خزانته بالمال مثلهم (الاتراك) واعتمد على حكم القوة ، وقد اخذت فرنسا هذا النظام أيضا وطبقته على الاهالى ولكنها جعلته (اكثر انسانية) وينهى ايفير حكمه على الامير بقوله انه لم يأخذ من الحضارة الاوروبية الوسائل المادية التى تجعله يتخلص بسهولة من اعدائه المسلمين والمسيحيين على السواء (٢٤) ، ولم يكن بول ازان وأندرى جوليان (٢٥) اقل قسوة فى الحكم على الامير من ايفير ٠ ونفس الموقف فى الواقع يقفه هؤلاء المؤرخون من زعماء المقاومة الوطنية ، فلا الحاج احمد ولا المقرانى ولا الحداد ولا بوبغلة ، ولا حمدان خوجة قد وجد من هؤلاء دارسا نزيها يحكم له أو عليه ، دون الارتباط المسبق بخدمة المصلحة الاستعمارية ، ذلك أن

الهدف البعيد لهؤلاء المؤرخين هو تجريد الجزائريين من «ابطالهم» كما حاولوا تجريدهم من اسلامهم الحق ، واتهامهم بالايمان « باسلام جزائرى » هو اقرب الى الخرافة منه الى العقيدة الراسخة الواعية .

واذا كان المؤرخون العسكريون يعرفون فى الغالب اللغة العربية التى استفادوا منها ونقلوا عنها ، فان المؤرخين الاختصاصيين الذين يفترض فيهم البحث فى تاريخ الجزائر معرفتها ، كانوا يجهلونها فلا ايفيرولا غزال ، ولا ايمريت ولا ياكنو كانوا يتقنون اللغة العربية ـ لغة الشعب الذى يكتبون عنه ـ ومذ هنا اعتمدوا فى فهم (الروح الاهلية) على ترجمات الصنف الاول من المؤرخين وعلى خريجى (مدرسة بيريس) من الجزائريين الذين كانت مهمتهم سواء كانوا تراجمة عسكريين أو شرعيين أو معلمين ، ترجمة المصادر الاهلية للفرنسيين .

ويتبين من هذا أن اللغة العربية لم تكن محل ثقة عند المؤرخين الفرنسيين (لانهم انتقدوا مصادرها) كما أنها لم تكن أداة تاريخ عندهم ، وهم بذلك يصدقون على وجهة نظر الدوق دى روفيقو الذى اعلن سنة ١٨٣٢ عندما كان قائدا أعلى للجيش الفرنسى فى الجزائر قائلا ان هدفنا هو أن نحلّ الفرنسية محل العربية بنشرها بين الاهالى عن طريق السلطة والادارة ، ولا سيما اذا أقبل الجيل الجديد على التعلم فى مدارسنا (٢٦) .

وقد اكدت هذا الاعلان الرسمى جريدة (المرشد الجزائرى) فى فاتح سنة ١٨٣٢ عندما كتبت تقول ان هدفنا هو أن يعرف الاهالى لغتنا لا ان يعرفوا لغتهم ، فالعربية ليست مفيدة لنا الا فى علاقتنا بهم ، أما الفرنسية فهى لا تفتح لهم باب العلاقات معنا فقط ولكنها بالنسبة اليهم هى المفتاح الذى يدخلون به الى كتبنا واساتذتنا ، أى الى العلم نفسه ، وقد لخصت هذه الجريدة الموقف بقولها : ان ما بعد تعلم العربية ليس سوى اللغة اما ما بعد تعلم الفرنسية فهو جميع المعارف الانسانية (٢٧) .

وقد اكدت سنوات الاحتلال المتلاحقة على هذا الاتجاه ، ولذلك لا نستغرب ان لم يستعمل المؤرخون الفرنسيون فى الجزائر اللغة العربية فى مصادرهم ، باستثناء بعض الترجمات كما لاحظنا ، بل انهم لا يكادون يعودون ، فى تناولهم للعهد الفرنسى ، حتى الى ما كتب باللغات الاوروبية الاخرى عنه ، وقد لاحظنا انهم يلجأون الى هذه اللغات فى العهود السابقة لسنة ١٨٣٠ لعدم ثقتهم فى المصادر العربية عن الجزائر .

والمتتبع لانتاج هؤلاء المؤرخين يجدهم يتناولون كل الموضوعات تقريبا ما عدا (الشعب الجزائرى) واذا ما اطلقت هذه العبارة (الشعب الجزائرى) عندهم فهم يعنون بها السكان الاوروبيين بالجزائر ، اما السكان الاصليون فهم (أهليون) وهو تعبير يشعر الجزائريين بالذلة والصغار ، لانه لا يطلق الا على من كانوا غير مواطنين ، أى غير المتساويين مع الآخرين فى الحقوق والواجبات ، وبهذا المعنى ظل مؤرخو العهد الاستعمارى يكتبون ، فغطوا ميادين الحملة والاحتلال والاستعمار والجيش الفرنسى ، والادارة والتشريعات والهجرة الاوروبية والاقتصاد ، واللهجات المحلية والطرق الصوفية .. الخ ، الا (الشعب الجزائرى) أو الوطنية الجزائرية (٢٨) .

وهذا فى الواقع هو النقص الفادح فى الكتابات التاريخية الفرنسية عن الجزائر الذى ظل الى قيام الثورة ، بدون تدارك · وقد اشرنا سابقا الى ملاحظة ياكونو الذى كان يكتب سنة ١٩٥٦ · ومن جهة اخرى اعترف جورج ايفير سنة ١٩٣٠ انه قد كتب الكثير عن الجزائر منذ مائة سنة ولكن الكتابات التاريخية الموضوعية قليلة وسطحية ، وكثير منها عبارة عن نقل عما سبقها (٢٩) · غير أن ستيفان غزال الذى كان يكتب فى نفس السنة تمنى أن يرى علماء يكتبون تاريخا عن الاسلام فى شمال افريقيا ، وتاريخا عن المنشآت الاسبانية والبرتغالية فى شمال افريقيا أيضا ، وتاريخا كاملا عن الاحتلال الفرنسى ، وتاريخا عن الاستعمار الفرنسى فى الجزائر (٣٠) · هذه اذن هى تمنيات المؤرخ الفرنسى بعد مائة سنة من الاحتلال · والذى يلاحظ على هذه التمنيات ان صاحبها لم يقترح كتابة تاريخ اى جانب من جوانب المجتمع الجزائرى (سياسيا ، اقتصاديا ، ثقافيا) · ولكن الذين واصلوا الرسالة بعد ١٩٣٠ لم يخرجوا عن هذا الاطار الذى تمناه لهم ستيفان غزال ·

بعض الاستنتاجات :

ومما سبق يتضح ان الفرنسيين قد كتبوا الكثير عن الجزائر وتناولوا تقريبا كل فرع من فروع المعرفة الخاصة بها · كما انهم ادخلوا تكنيكا جديدا فى البحث ، واستعملوا طريقة النقد الحديثة للمصادر ، وتوصلوا الى جمع آثار ومخطوطات ووثائق كثيرة عن الجزائر وحفظوها فى المتاحف والمكتبات والارشيفات وانشأوا الجمعيات العلمية ، وعقدوا اللقاءات والمؤتمرات التى يكشفون خلالها عن اكتشافاتهم ويتبادلون الخبرات والمعلومات ويوثقون الصلات فيما بينهم· وبالاضافة الى ذلك اسسوا الصحف والدوريات التى كانت تنشر ما توصلوا اليه من نتائج وما جمعوه من مواد · وكانت الادارة العامة للجزائر تمدهم بالمال وتوفر لهم امكانيات الانتقال والاتصال والاطلاح ، وتساهم فى تجمعاتهم وفى جمعياتهم وفى طبع انتاجهم · كما كانت الجامعات والمعاهد الفرنسية فى فرنسا تساهم هى الاخرى بامكانياتها البشرية والعلمية والمعنوية فى دفع عجلة البحث الذى يقوم به الفرنسيون بالجزائر· وكانت الحكومة الفرنسية ايضا تغطى نشاطهم وتفتح امامهم مجالات العمل وتشجع على عمل اللجان وتحي مغامرات الافراد من أجل البحث لانها فى الواقع هى المستفيدة فى نهاية المطاف ·

ولكن هؤلاء الكتاب والباحثين لم يكونوا مؤرخين بالمعنى الاختصاصى الدقيق للكلمة · كان معظمهم من الهواة ومن كتاب الثقافة العامة والانطباعات والمذكرات ، والتقارير الرسمية · وقد رأينا انهم فى الفترة الاولى كانوا ضباطا عسكريين يجمعون بحماس شديد كلما تقع عليه ايديهم من مصادر مكتوبة أو شفوية ، ومن آثار قديمة وحديثة · وهدفهم من ذلك الوصول الى فهم السكان الذين يحكمونهم وليس هدفا علميا · وكانوا يحصلون على تلك المصادر بالاغراء تارة وبالقوة تارة اخرى وبالضغط مرة ثالثة · وتذكر الكتابات انبيربروجر كان يتبع الجيش حيثما توجه ، وعندما تحتل مدينة يأخذ هو المخطوطات العربية من الزوايا والجوامع والمكتبات الخاصة ويعود بها الى العاصمة (٣١) · كما تذكر المصادر أن الجزائريين كانوا يضطرون الى بيع مخطوطاتهم وآثارهم وتحفهم اثناء شهر رمضان الذى تكثر فيه المطالب الاقتصادية (٣٢) ·

وكان بعض الباحثين الفرنسيين قد حصل على جواز مرور من الحاكم العام ليجمع المعلومات والكتب من مكتبات الزوايا فى الصحراء · وكان الاهالى يخافون فيقدمون ما عندهم عندما تطلب منهم سلطات المكاتب العربية ذلك · ولعل بعضهم كان يفعل ذلك تملقا وتقربا ايضا ، وهكذا توفرت للباحثين الفرنسيين العسكريين مصادر اهلية استفادوا منها كثيرا فى حكمهم للشعب الجزائرى ·

ونفس الظاهرة تنطلق على كتاب العهد الثانى · فاذا استثنينا بعض المؤرخين الاختصاصيين الذين تميزت كتاباتهم بالتحليل والنقد والمقارنة ، فان معظم الذين يطلق عليهم (مؤرخو الجزائر) لم يكونوا فى الواقع مؤرخين وان كانوا باحثين بالمعنى الواسع للكلمة · اخذ مثلا ايميل قوتيى الذى كتب (القرون الغامضة) والذى كتب تاريخ الاستعمار الفرنسى حتى سنة ١٩٣٠ · انه لم يكن مؤرخا بالمعنى الدقيق· بل كان كاتبا عاما فى قضايا الاستعمار والمستعمرات · وكان اساس اهتمامه الجغرافية وطبقات الارض ونحو ذلك· وخذ مثلا آخر جوزيف ديبارسى الذى كتب الكثير عن عادات وتقاليد الشعب الجزائرى ، انه لم يكن مؤرخا هكذا ايضا وانما اهتم اثناء تدريسه بالبليدة ، بالنواحى الفولكلرية الجزائرية ، فركز على هذا الجانب وجمع منه مواد كثيرة فى العقائد الشعبية والخرافات ونحوها · وقد كان هدف هؤلاء ، كما كان هدف أولئك، هو مساعدة الادارة الاستعمارية الفرنسية فىالجزائر لكى تسيطر على مقاليد الجزائريين وبالطبع الدعاية للثقافة والوجود الفرنسى بين الجزائريين من جهة وبين الاجانب من جهة أخرى ·

ويمكننا تلخيص النواحى الايجابية فى أعمال المؤرخين الفرنسيين بالجزائر فى النقاط التالية· (١) جمعهم المصادر والآثار وحفظها فى المكتبات والمتاحف والسهر عليها والاستفادة منها · (٢) نشر كثير من الآثار العربية الاسلامية فى لغتهم ، واحيانا فى نصها الاصلى ، وبذلك ساعدوا على بقائها ومكنوا الباحثين منها · (٣) استخدام التقنية الحديثة فى البحث كتصيف المواد حسب الاختصاص ، وتنظيم الفهارس ، والكاتالوق ، والتنظيم الا بجدى ، ومصطلح الفترات الزمنية والتصوير ، وما الى ذلك ·(٤) استعمال وسائل البحث وتشجيع الباحثين ، وشيوع التضامن العلمى بينهم وتبادل الخبرات عن طريق نشر الدوريات والكتب وعقد الملتقيات والمؤتمرات ، وتبادل الزيارات ، وتوفير المادة الضرورية لجمع المعلومات ونشرها باقرب الطرق (٥) · وأخيرا نقد المصادر والوقوف منها موقف الشك والتحفظ وهذه النقطة وان كانت ايجابية اذا نظرنا اليها كظاهرة من ظواهر البحث الحديث الا انهم طبقوها خصوصا على المصادر العربية ـ الاسلامية ، فاصبحت وكانها ظاهرة غير علمية فى هدفها رغم ان اساسها علمى واضح ·

اما النواحى السلبية عندهم فيمكن حصرها ايضا فى النقاط التالية : (١) اهمالهم للشعب الجزائرى فى تناولهم لتاريخ الجزائر· لقد كتبوا عن الجزائر كمنطقة جغرافية من العالم تداولت عليها الدول والشعوب من الفنيقيين حتى الفرنسيين · وليس هناك فى نظرهم «شعب» أو «أمة» أو «كيان» أو «مجتمع متماسك» وانما هناك قبائل متنافرة متنابزة تخوض حروبا مستمرة ، ولا تخضعها الا القوي كالرومان والاتراك

والفرنسيين · هذه هى «فلسفة» الفرنسيين فى كتابتهم تاريخ الجزائر وهم لم يطبقوا هذه «النظرية» على عهدهم الذى يبدأ من سنة ١٨٣٠ ، ولكن على جميع عهود تاريخ الجزائر تبريرا لوجودهم · (٢) مجاراة المؤرخين ، عسكريين واختصاصيين، للسلطة ، ولا سيما الادارة الاستعمارية ووزارة الحربية التى كانت مسؤولة عن الجزائر ، وخضوعهم لالحاح وضغط المعمرين ، ونستطيع القول ان هؤلاء المؤرخين كانوا «اصوات» السلطة العسكرية فى الفترة من ١٨٣٠ الى ١٨٧١ و «اسواط» الادارة خلال الفترة المدنية الممتدة من ١٨٧١ ـ ١٩٥٤ · وهذه (التبعية) للسلطة قد اعمتهم عن الحقيقة وجعلت اعمالهم التاريخية تفقد روح البحث المجرد، واصبحت تتميز «بالطابع الرسمى» الضيق· (٣) وهذه الظاهرة جعلتهم يركزون فى كتاباتهم على التاريخ الاقتصادى والادارى والعسكرى جريا وراء الاستعمار والادارة (عسكرية ومدنية) وتحركات الجيش وقواده · فاذا ماتناولوا قضية دينية او قبلية او نحو ذلك فانما ذلك من أجل محاولة السيطرة على اصحابها كما فعل دونوفو بالنسبة للطرق الصوفية مثلا · وبذلك اهمل تاريخ الجزائريين السياسى والثقافى والاجتماعى ·(٤) اهتم الفرنسيون بالعهد ١٨٣٠ ـ ١٩٥٤ وكتبوا عن رجاله وسياستهم وتغير الحكومات الفرنسية واثر ذلك على الجزائر ، وعن الهجرات الاروبية· الخ · ويأتى فى المرتبة الثانية من اهتمامهم تاريخ الرومان فى الجزائر وتاريخ المسيحية فيها ، وأخيرا تاريخ البيزنطيين فيها ايضا ، اما تاريخ العرب والمسلمين ، تاريخ العهد الذى تحرر فيه السكان من القيود الاجنبية واصبحوا فيه احرارا يؤسسون اماراتهم ويديرون شؤونهم بانفسهم فقد ظل عندهم «عهدا غامضا» ، حسب تعبير قوتى · وكذلك فعلوا مع العهد العثمانى فى الجزائر· وهو العهد الذى قويت فيه شوكة الجزائر وتوحدت فيه جغرافيا وسياسيا وتمركزت ادارتها·

هذه ، اذن بعض نقاط القوة وبعض نقاط الضعف التى تميزت بها الكتابات الفرنسية عن تاريخ الجزائر خلال الفترة من١٨٣٠ الى ١٩٥٤· وانى اعترف بان هذه دراسة تفتقر الى مزيد من التعميق ، لانها فى الواقع اقرب الى المدخل منها الى الدراسة الكثيفة المركزة ·



التعـــــاليــق

١) بيريروجر فى مقدمة المجلة الافريقية (١٨٥٦ ـ ١٨٥٧) ، ص ٤ ٠

٢) وليام مارسى فى كتاب «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ، باريس ، ١٩٣١ ، ص ١٦٣ ٠

٣) انظر عنها كتابى «تاريخ الجزائر الحديث ـ بدايـة الاحتلال» ، القاهـرة ، ١٩٧٠ (معهد البحوث والدراسات العربية) ٠

٤) ستيفان غزال فى كتاب «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ، ص ٧ ـ ٨ ٠

٥) يعود الفضل فى تأسيسها الى الضابط كروللى ، والضابط بروسلار ، وشيربونو ، أستاذ العربية٠

٦) أول مكتب لها كان يتكون من بيربروجر (رئيسا) وعضوية دى سلان ، ودونوفو (كلاهما عسكرى) وبريسنى (كاتب عام) استاذ اللغة العربية ٠

٧) بيربروجر فى مقدمة «المجلة الافريقية» (١٨٥٦ ـ ١٨٥٧) ، ص ٤ ـ ٦ ، انظر كذلك «لوحـة عـن وضع المنشآت الفرنسية» (مجلد ١٨٤٦ ـ ١٨٤٩) ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧٠

٨) مثل جورج غروى ، وجونى فرعون ٠ انظر شارل فيرو «مترجمو الجيش الافريقى» وكذلك هنـرى ماسى «الدراسات العربية فى الجزائر» (١٨٣٠ ـ ١٩٣٠) فاصلة من «المجلـة الافـريقية» ٣٥٦ ـ ٣٥٧ (١٩٣٣) ، ص ١ ـ ٣ ٠

٩) يقول الفريد بيل ان حكومة الاتراك فى الجزائر كانت حكومة قراصنة ، جعلت القرصنة البحريـة نظاما لها ٠ وكان اعضاؤها اتراكا أو مرتدين مسيحيين ٠ وكان اسلامهم «خفيفـا» ٠ انظـر «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ص ١٩٤ ٠

١٠) منذ السنوات الاولى للاحتلال كانت صحيفة(المرشد الجزائرى) تتحدث عن تأثير الكنيسة على الجزائريين ٠ وسنة ١٨٤١ كون (دوبوش) رئيس كنيسة الجزائر جمعية باسم (جمعية سان أو غسطين) ٠

١١) انظر «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ص ٧ ـ ٨٠

١٢) بالاضافة الى انهم عسكريون فانهم أصلا لم يكـونوا مهتمين بالدراســات الجزائرية ٠ غـير أن وحدة الهدف ووحدة العمل ، وكذلك الزمالة ، جعلتهـم يتكاتفون وينتجون ٠ انظر غبريال اسكـير ، «الجمعية التاريخية الجزائرية» فى «المجلة الافريقية» (١٨٥٦ ـ ١٩٥٦) ، ص ١٩٨ ٠

١٣) وليام مارسى «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ، ص ١٦٦ ٠ ينتقد الكاتب المصادر الاهلية بانها تفتقر الى الضبط التاريخى ، فهى حسب رأيه تصف احداثا مضى عليها من ٥٠ الى ٢٥٠ سنة ٠

١٤) نفس المصدر ، ص ١٦٣ ٠ يقول الكاتب ان ديفو لم يكن فوق النقد وان بعض الوثائق التى كـان يشرف عليها وجدت تباع اثنـاء حياته ٠

١٥) بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال (١٩٣٠) انعقد فى الجزائر المؤتمر الوطنى الثانى للعلوم التاريخية· وكان ذلك بتأييد من الحكومة العامة بالجزائر · وقد تراسه السيد كوفيل رئيس اللجنة الفرنسية للعلوم التاريخية · وكان المؤتمر الوطنى الاول قد انعقد فى باريس سنة ١٩٢٧ · وفى خطبة الافتتاح التى حضرها الحاكم العام السيد بورد ، قال كوفيل ان انعقاد المؤتمر بالجزائر لا يعنى فقط الاحتفال بحادث عسكرى مجيد (يعنى نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر) ولكنه يعنى ايضا الاعتراف بماقامت به فرنسا فى الجزائر منذ مائة سنة انظر «المؤتمر الوطنى الثانى للعلوم التاريخية» (الجزائر ١٩٣٢) ، ص ٨ ·

١٦) انظر غزال (تاريخ ومؤرخو الجزائر) ، ٩ ·

١٧) لوتورنو (المجلة الافريقية) (١٨٥٦ ــ ١٩٥٦) ، ص ١٤٣ ·

١٨) ياكونو ــ نفس المصدر ، ص١٨٣

١٩) وليام مارسى ، «تاريخ ومؤرخو الجزائر» ، ص ١٦١ ·

٢٠) نفس المصدر ، ص ١٧٤ ·

٢١) غزال ، نفس المصدر ، ص ٦ ــ ٧ ·

٢٢) نفس المصدر ، ص ٥ ·

٢٣) الفريد بيل ، نفس المصدر ، ص ١٩٦ ·

٢٤) جورج ايفير ، نفس المصدر ، ص ٢٩٠ ·

٢٥) انظر مقالى «الاستاذ جوليان والتاريخ الجزائرى» المعرفة (الجزائرية) ، عدد جوان ١٩٦٥ ص ١٠ ــ ٢٣ ·

٢٦) ماسى «الدراسات العربية فى الجزائر ، ص ٤ ·

٢٧) (المرشد الجزائرى) عدد ٥٢ ، تاريخ ١٩ جانفى (يناير) ، ١٨٣٣ ·

٢٨) يجب ان نستثنى بعض كتابات جوليان ، ونوشى ، واجرون ·

٢٩) جورج ايفير «التاريخ ومؤرخو الجزائر » · ص ٢٦٧ ·

٣٠ غزال ، نفس المصدر ، ص ١٦ ·

٣١) انظر «المجلة الافريقية» (١٨٥٦ ــ ١٩٥٦) ، ص ١٩٥ وما بعدها ·

٣٢) انظر «لوحة عن وضع المنشآت الفرنسية» فى الجزائر» (سنوات ١٨٤٦ ــ ١٨٤٩) ، ص ١٩٦ ·

ملحـق (١)

اللجان والجمعيات التى اهتمت بتـاريخ الجزائر

١) لجنة التحقيق المعروفة باسم (اللجنة الافريقية) سنــة ١٨٣٣ .

٢) لجنة اكتشاف الجزائر العلمى (اصدرت ١٧ مجلدا) سنــة ١٨٣٧ .

٣) جمعية قسنطينة الاثرية (لها مجلة) سنة ١٨٥٢

٤) المفتشية العامة للاثار التاريخية والمتاحف الاثرية سنــة ١٨٥٤ .

٥) الجمعية التاريخية الجزارئية (لها مجلة) سنــة ١٨٥٦ .

٦) اكاديمية هيبون (عنابة) (لها مجلة) سنة ١٨٦٣ .

٧) جمعية وهران الاثرية (لها مجلة) سنة ١٨٧٨ .

٨) مصلحة الاثار التاريخية بالجزائر سنة ١٨٨٠

٩) المدارس العليا (منها مدرسة الاداب العليا) سنة ١٨٨٠

١٠) الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر وشمال افريقيا (لها مجلة) سنة ١٨٩٦

١١) جامعة الجزائر (منها كلية الاداب) سنة ١٩٠٩

١٢) لجنة جونار لنشر الوثائق التاريخية (نشرت مراسلات ووثائق) سنة ١٩١٠

١٣) لجنة التحضير للاحتفال المئوى بالاحتلال (نشرت المجموعة المئوية) سنة ١٩٢٥

١٤) معهد الدراسات الشرقية بالجزائر (له مجلة) سنة ١٩٣٣

١٥) اتحادية الجمعيات العلمية فى شمال افريقية (نشرت ابحاثها السنوية) سنة ١٩٣٥

١٦) معهد الابحاث الصحراوية بالجزائر (له مجلة) سنة ١٩٤٠

١٧) جمعية اصدقاء تلمسان القديمة سنة ؟ ١٩

١٨) جمعية تبسة لما قبل التاريخ والاثار سنة ؟ ١٩

١٩) الجمعية التاريخية والجغرافية لمنطقة سطيف سنة ؟ ١٩

ملحـق (٢)

الجمعيات العضوة فى «اتحادية الجمعيات العلمية بشمال افريقية» عام تاسيسها سنة ١٩٣٥ بالجزائر

عن الجزائر :

- اكاديمية هيبون (عنـابة)
- مركز دراسات الاستعمار المقارن
- معهد الدراسات الشرقية
- الفرع الجزائرى للجمعية الفرنسية الفزيائية
- جمعية قسنطينة الاثرية
- الجمعية الاثرية والسياحية لتغاست (سوق اهراس)
- جمعية جغرافية مدينة الجزائر
- جمعية وهران للجغرافية والاثـار
- جمعية التاريخ الطبيعى لمدينة الجزائر
- الجمعية التاريخية الجزائريـة
- الجمعية التاريخية والجغرافية لمنطقة سطيف
- جمعية اصدقاء تلمسان القديمة

عن تـونس :

- معهد قرطـاج
- جمعية سـوسة الاثرية

عن المغـرب :

- مراكز الدراسات القضائية المغربية
- لجنة دراسات المياه الجوفية
- جمعية الدراسات الاقتصادية والاحصائية
- جمعية المغرب الجغرافية
- جمعية التاريخ الطبيعى بالمغـرب

ملحق (٣)

الاسماء الاجنبية الواردة فى البحث

ملاحظة : تسهيلا للباحثين الذين يريدون الاهتداء بهذا البحث ، اضع هنا قائمة بالاسماء الاجنبية بالحروف اللاتينية حسب الترتيب الابجدى · ولم اشأ ان اثقل البحث بذكر الاسماء بالحرفين العربى واللاتينى فى ثناياه ·

آرنو .... Arnaud
ازان .... Azan, P.
باسى .... Basset, R.
بيرتزين (قائد عام الجيش) .... Berthezène
بيرك .... Berque, A.
بيلمار .... Bellemare
بيربروجو .... Berbrugger,
بريسنى .... Bresnier
بريسون .... Bresson
بروسلار .... Brosselard
بودان .... Bodin
بواسونى .... Boissonnet
بوتان .... Boutin
كانيا .... Cagnat
كاريت .... Carette
شارل ٥ .... Charles V
كلوزيل قائد عام الجيش وحاكم عام) . Clauzel

كوبلانى .... Coppolani
كور .... Cour, A.
دوماس .... Daumas
ديرلون (حاكم عام) .... D'Erlon
ديلامار .... Delamare
دونوفو .... De Neveu
دي سلان .... De Slane
ديل .... Diehl
ديبارمى .... Desparmet J.
دوفو .... Devoulx
ديبوا ـ تانفيل .... Dubois-Thanville
ايميريت .... Emerit, M.
فيرو .... Feraud, Ch.
فورنيل .... Fournel
قوتى .... Gautier, E.F.
غرامون .... Grammont (de)
غزال .... Gsell

هانوتو	Hanoteau
هايـدو	Haedo
جونار (حاكم عـام)	Jonnart
جوليان	Julien, Ch. A.
لاكروا	Lacroix, N.
لوتورنو	Letournou
لوسياني	Luciani
مارسي ، جورج	Marçais, G.
مارسي ويليام	Marçais, W.
ماسكارى	Marsquary
ماسي	Masset, H.
مونصـو	Monceaux
كيرسي	Kercy
باناني	Pannanti
بيليسي	Pellissier (de Reynaud)
بيريس	Pérès, H.
راندون (حاكم عام)	Randon
رونودو	Renandot
ريـن	Rinn, L.
روبـان	Robin
روفيقو	Rovigo
شيـافي	Sciavi
سيروكـا	Seroka
شيلر	Sholer
شـو	Shaw
ترملي	Trumelet
فانتور دى بارادى	Venture de Paradis
فوارول (حاكم عام)	Voirol
ويلسن ـ ايسترهازى	W. Esterhazy
ياكونو	Yacono, X.
ايفير	Yver, G.

النظـريات التاريخـيّة بين

التفسـير والتحـريف

عبد المجيد مزيان

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

انه لمن ادعاءات عصرنا أن نستأثر دون أبنـاء العصور الاخرى بالتحليقات النظرية على التاريخ ونؤكد لانفسنا أننا فهمنا المخطط العام للمسـيرة البشرية واكتشفنا الانسانية كانها الكائن النوعي الموحد الذي رسمت له غريزته الحيوية أهدافا تزعم انه من الممكن النظر اليها في آفاق المسـتقبل البعيـد .

وكم من تخليط وقع في مثل هذا الموقف بين معقولية التاريخ وسحرية الخيال . ولقد أصبح من الواجب الاكيد على الناقد ان يتحذر اليوم من مؤرخي الاحداث الجزئية الذين يفككون التاريخ قطعا قطعا حتى لا تعني أي قطعة أي شيء ، بقدر ما يتحذر من بعض فلاسفة التاريخ الذين يجولون في عالم ما وراء التاريخ كمن ينظر الى الارض من أبعاد السماء .

لقد تساوت في السخف نظرية « تاثير انف كليوباترا » في تاريخ العالم ونظرية المعقولية المسبقة لكل التاريخ . ولقد تاه باسكال في جزئيات الوجوه والانوف بدعوى التفكير الدقيق بقدر ما تاه هيجل في تتبع مخطط خيالي مشترك بين الله والناس لتحديد أهداف الوجود .

ليس للتاريخ عقلانية مستقلة عن الاحداث التاريخية نفسها ، وليست الاحداث شظايا مشتتة لا يمكن جمعها . وهذا الاعتبار هو الذي يفرض علينا أن نحدد معقولية التاريخ في نظريات لها قيمتها كأداة لفهم الاحداث ، على شرط ان لا تصبح هذه النظريات عقيدة فلسفية مستقلة بذاتها ، وعلى شرط ان نقول بنسبيتها في الزمن وفي مختلف المجتمعات . إن مهمة النظرية التاريخية هي أن تفسر الاحداث وتعقلن التطورات والارتباطات وليست مهمتها لذاتها . وما من نظرية الا ولها وجهان : انها صالحة مادامت أداة للمعقولية، وهي فاسدة حينما تدعي الاطلاق والتسلط على كل عصر وكل زمن، وهي فاسدة أيضا حينما تجر الى سهولة التصورات واختصار البحث في العلاقات المتشعبة الدقيقة .

من قبيل التصورات المختصرة تلك النظرية التي يمكن ان نسميها نظرية « الاستدجان » عند توينبي . وملخصها ما يلي :

ان الحالة الذهنية التي يكتسبها الانسان من سلوكه المعاشي تبقى متوغلة فيه . وقد تسيطر عليه حينما ينتقل من وضعية اقتصادية واجتماعية بدوية الى وضعية حضارية . فتتفتق هذه الذهنية عن انتقال صوري بينما محتوى السلوك يبين أن الذهنية لم تتغير جذريا وانما بقي صاحبها محافظا عليها ، رغم التحول السطحي الظاهر .

وتطبيق هذه النظرية ان البدوي الذي يسكن المدينة مثلا يبقى محافظا على معايير المعاش البدوي رغم مظاهر التحضر السطحية .

ولنا في التاريخ ، فيما يدعي توينبي خير مثال عن صحة هذه النظرية : فلناخذ المجتمع التركي كنموذج للبدو الذين مروا بمراحل حضارية مختلفة المستويات . ان الترك كانوا في آسيا الصغرى يربون المواشي . وقد تعودوا على ترويض الطبيعة الحيوانية من الاسهل فالاصعب حتى مرنوا على « تدجين » أنواع مختلفة من الشاة والمعز الى الكلاب الى الخيل الى الابل . وحضارتهم كحضارة كل من في وضعيتهم من البدو انما هي حضارة كلها تربية وترويض للحيوان . ومن الطبيعي في ذهنيتهم أن يحاولوا تطبيق هذه الرياضة أو قل هذه التقنية التي هي تقنيةالتربية

على أعلى حيوان في سلم الوجود ألا وهو الانسان • ان الترك شرعوا في استدجان البشر بمجرد ما تحولوا الى الحياة الحضارية أي بعد تسلطهم العسكري على البلاد الاسلامية ، وقد وصلوا باستدجانهم هذا مرتبة المنظومية والاتقان حينما بدأوا في الاستيلاء على بعض المناطق الغير الاسلامية •

ولقد كان مآل هذه الحضارة ابتداء من الفترة، الاتقانية في النظام ان اخضعت كل وجودها لهذه الظاهرة التي هي ظاهرة استدجان البشر •

وكانت الحلقة التي تجول فيها هذه الحضارة منحصرة في اختطاف البشر لتربيتهم في الثكنات، للهجوم على بشر آخرين ، الاختطاف ، للهجوم، في دور وتسلسل عقيم ، عبر الاجيال • فالانكشاري أو المملوك ربي على أن يكون « كلب حراسة » تماما ككلب الحراسة الذي يرعى القطيع ، والشعوب المحتلة ربيت على أن تكون شياها يستخرج منها المعاش • وأثرت سلوكات « كلب الحراسة » في كل من الطبقة الحاكمة والحارسة على السواء وتحجرت بذلك الحضارة تحجرا سريعا أدى بها الى الانحطاط • فاتقان ظاهرة الاستدجان للبشر من ترويض طبقة منهم على أن تكون بمنزلة « الكلاب » وترويض طبقة أخرى على أن تكون بمنزلة « الشياه » ، وتعميم هذه التقنية هو سبب هلاك السلطنة العثمانية ، لانها رجعت بالانسان الى مستوى الاتقانوالتحجر الذي عرفه النحل والنمل ملايين السنين قبل ان يتأنسن الانسان فوق الارض •

واذا أردنا ان نتصور صحة هذه النظرية كما يظن توينبي فما علينا الا أن نرجع الى النماذج الاجتماعية التي أتانا بها التاريخ • ان المجتمعات الحربية كلها من نمط واحد : انها تصل بالنظام العسكري الى مستوى الاتقان وما تلبث الحراسة التي هي وظيفة هذا النظام ان تخنق الوظائف الاخرى خنقا . فاذا تأملنا سبارتا مثلا وجدنا مجتمعها قوى النظام ولكنه قفر حزين لا فن فيه ولا فكر ، ولا اختراع • هكذا كانت المجتمعات الآسيوية في القرون الوسطى وهكذا كانت الفاشية في القرن العشرين • وما يلبث المجتمع الحربي أن يصاب بالترف الاقتصادى والمالىلتكرار هجوماته ولاشتداد حراسته • وسرعان ما تتحول « كلاب الحراسة » اذا جاعت ، الى ذئاب ضارية ترتمي على القطيع أكلا وتقتيلا ، ويتدهور الاقتصاد والعمران ، وتنعدم الغاية التي كانت ترمي اليها وظيفة الحراسة وهي الحرب الخارجية للسلم الداخلي ويضطر المجتمع الى تقتيل « كلاب الحراسة » الآكلة للقطيع ويتبادل القتل ويعم ، ويفنى هذا النوع من الحضارة في مناظر كابوسية كلها موت وخراب وقفار ، وجيف ونسور ، وحزن رهيب •

هذا ملخص نظرية الاستدجان • وانها لنظرية جذابة ولا أنكر انني أحببتها لقوتها الشعرية وليتها كتبت بأسلوب دانتي لتكون جزءا رائعا من رحلته الى الجحيم •

وليس الجانب الشعرى الخيالى هو الوجه الوحيد الذى يحبب الينا هذه النظرية ، اذا قرأناها

مسرعين • بل نقول ان لها قوة المعقولية المريحة التي تفسر لنا جزءا كبيرا من تاريخ الانسانية ، وهو تاريخ المجتمعات الحربية في جميع الفترات والبقاع • وهي أيضا مفتاح لفهم لغز الانحطاط الحضاري الذي أتعبتنا مجهودات التحليل بشأنه ولم نصل بعد فيه الا لنتائج تقريبية لا تؤدي الى الاقتناع • وأما اذا نظرنا الى هذه الفكرة من حيث التماسك ، فانها في الظاهر متماسكة وقوية لانها تربط ربطا وثيقا بين الاقتصاد والتفكير والسلوك في صيرورة الحضارات • اننا هنا بصدد حضارة بدوية ارتقت الى مستوى الاتقان وكانت جل تحولاتها في اتجاه واحد ، مع تحسن مستمر في هذا الاتجاه : من أسفل الى أعلى ، من تربية الحيوان الى تربية البشر وهو قمة الاتقان • ولكن ليس بعد قمة الاتقان النظامي الا التحجر ، والتحجر الاجتماعي هو الانحطاط بالذات • تكأننا بصدد المعقولية العلمية التي لا تتقبل النقاش ، وكان النظرية توحي هنا بقانون النشوء والارتقاء والفناء الذي يسيطر على الكائنات الحية، والمجتمع كائن حي ممتاز •

اني لمعترف أن هذه النظرية كان في الامكان أن تقنعني اقناعا كليا وأن لا افكر في مناقشتها في يوم ما لو تناولت نموذجا حضاريا مثل سبارتا ، والمانيا النازية مثلا ، ولكني بدأت أشعر بعدم صحتهالانها تناولتتاريخ بلادي وتفسير حضارتي بطريقة تثير الاحساس وتثير الشكوك في نفس الحين • وان اعترافي هذا يحتوى ضمنيا على تمسكي بسبق منهجي وهو اعتقادي بأن النظريات التاريخية صورة واضحة للعقيدة التي ينتمي اليها أصحاب هذه النظريات • فالبحث عن الاصول العقائدية لكل نظرية تاريخية يعد اذا من الخطوات الاولى في سبيل النقد التاريخي •

انه لا يصعب على أي باحث ان يلمس فينظرية الاستدجان موقفا عقائديا تحركه عواطفالبغضاء للانظمة العسكرية ، ويحركه التمسك بذلك النوع من الحرية الاقتصادية الذي يسيطر على العالم الغربي منذ ثلاثة قرون •

لماذا ننتبه الى نوع واحد من الاستدجان ولا ننتبه الى أنواع الاسترقاق النازلة بالانسان ؟ ولماذا ننتبه الى تربية البشر في الثكنات العسكرية ولا ننتبه الى استعبادهم في المصانع التي هي سجون عصر التكنولوجيا ؟ ذلك لاننا ندرك كوارث الآخرين وتمنعنا عقيدتنا النابعة من مجتمعنا عن ادراك تناقضاتنا وتدهور حضارتنا • ان المجتمعات البشرية عاشت كلها على أنظمة استرقاقية منذ أقدم عصور التاريخ • ولم يكن من حظ البدو ان اخذوا بنظام الاسترقاق أكثر من غيرهم من المجتمعات • فلو سلمنا ان العرب باستعمالهم المماليك ، والترك باستعمالهم الانكشارية ، كانوا النموذج الاكثر بروزا لهؤلاء البدو الذين تجرأوا على تربية البشر كما تربى الحيوانات لسلمنا بموقف خاطىء في بدايته ، وذلك لسببين • أما السبب الاول فلأن جيوش المرتزقة وأنظمة الارتزاق كانت من الانظمة المعروفة المشهورة في مختلف الحضارات وفي

مختلف العصور . وكانت مستويات الاتقان في هذا النظام عديمة العلاقة بالاصل البدوي او الاصل المدني للمجتمعات . ان قرطاجنة العريقة في الحضارة مثلا قد وصلت بنظام الارتزاق الى حد لا يستهان به من الاتقان النظامي . وأما السبب الثاني فيرجع الى التغافل عن ظاهرة التحول الاجتماعي والانتقال من حال الى حال . ان النظام السياسي الذي يستعمل الارتزاق ويدقق له الوسائل والقوانين ، هو النظام الذي قد تعود على الحياة الحضرية وصار عاجزا عن حراسة ممتلكاته الا بوسائل الاستدجان . فالعرب المستعملون للمماليك او الترك المستعملون للانكشارية انما هم أبناء مجتمعات قطعت كل علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية والذهنية مع البداوة الاولى . والخطأ هنا في التخليط بين الاجيال وعدم الانتباه الى التحولات الجذرية التي فصل بينها .

هذا ولا ينتبه أصحاب هذه النظريات المختصرة الى حقيقة ظاهرة اتخاذ المماليك جندا وحرسا في العالم الاسلامي . انها تختلف عن الرق كل الاختلاف . ان المملوك يحارب من أجل أسياد ظاهريين . وانه في عالم طغت عليه الحروب وشتى الاصطدامات السياسية لهو السيد الحقيقي لانه يحمل السلاح . ولو قارنا بين المرتبة الشرفية التي كان يحظى بها الخلفاء ووضعية المملوك الذي كان يضغط بكل قوة سلاحه ونظامه العسكري على الاحداث ، لرأينا ان السلطة الفعالة كانت بيد المملوك . من المماليك قواد حرب ، وأمراء أساطيل ، وملوك بكل ما في معنى الملك من قوة وسلطان . ولا تعني هذه الملاحظة اننا نحبذ النظام الذي كانت تسوده مثل هذه العلاقات ولكننا نريد أن نثبت ان الاستدجان كثيرا ما يقع لصالح المماليك لانهم يتصرفون في أصحاب السلطة الشرفية تماما كما يتصرف الحاكمون في محكوميهم، من تنصيب ، وعزل ، وقتل ، ومراقبة شديدة على سلوكاتهم العمومية . ولم يمر دهر طويل على هذه الظاهرة الحضارية حتى أصبحت قضية الدولة هي قضية المماليك . هم الحريصون على كيانها ، والصامدون في وجه أعدائها ، والمستميتون في سبيل عقيدتها . وليس هذا السلوك من قبيل سلوك العبيد أو المستدجنين ، أو المرتزقة التقليديين .

ومن تمويهات نظرية الاستدجان انها تعمد الى قانون الاحياء لتقرن بين الاتقان والانحطاط . كأن المجتمع حيوان كبير يخضع لقانون النشوء والارتقاء والفناء . وليس الاتقان النظامي فيما تزعم النظرية الا من حظ المجتمعات الحربية ، واسرافها في الاتقان والآلية هو الذي يجرها الى الهاوية لانها تقضي على روح الاختراع . أو لم يلاحظ المؤرخون ان ما يسمى بالاتقان النظامي انما هو حالة تحجر يكون قد سبقها الانحطاط الحقيقي منذ أجيال ؟ فآلية الانظمة سواء في أجهزة الادارات أو أجهزة الجيوش انما هو انكماش يدل على روح التقليد وعدم القدرة على الاختراع ، وعدم تفهم الصيرورة التاريخية التي تفرض دوام التجديد .

وليس التحجر والانحطاط من حظ المجتمعات العسكرية وحدها •

لا يعنينا كثيرا أن نعـــدد الادلة التاريخية على فساد مثل هذه النظرية ، بقدر ما يهمنا ان نفكك أجهـــزتها الى العناصر العقائدية والعاطفية التى ركبت منها • هل يمكن لفيلســوف ومؤرخ يؤمن بمزايا الحرية الاقتصادية التى يعيش عليها مجتمعه أن ينظر الى العالم الخارجي نظرة استحسان ؟

ان التسلط العسكرى ، والاستبداد فى الحكم ، والرق ، والبداوة الغاشـمة ، والبــــدائية كلها ظواهر اجتماعية وتاريخيـــة لا يمكن بزعمهم ، أن توجد لها النماذج الا خارج الغرب •

ولقد سبق لهيجل ان التمس رمـزا للحكـــم المستبد فلم يلمسه الا فى النوع الآسيوى، وحينما أراد ان ينوه بالبناء السياسى الامثل فلم يجده الا فى النظام الاوروبى المشبع بالعقيدة الفلســـفية الجامعة بين الفكر الغربى وروحانية المســيحية • ولنقف قليلا عند الاسترقاق •

اذا كان لابد من البحث عن نوع من الاستدجان، واتقان النظام فيه فليس هناك نموذج اجتـماعى وتاريخى يمثل هذه الظاهرة أحسن من الاقطاعية الغربية التى عاشت عليها أوروبا عدة قرون • ان الحاق البشر بالارض وتشـــييئهم فى المعاملات المتعلقة بها ، ومنعهم من التملص منها ، والاحتكار الطبقى لكل النشاطات المتعلقة بالزراعـة ، لمـن الاتقان الدقيق للنظام الاسترقاقى • فهـــل كان اقطاعيو العالم الغربى ، وأعوانهم من رجـــــال الكنيسة بدوا قد وصلت بهم البراعة فى تربيـــة المواشى الى البراعة فى تربية رقيق الارض ؟ وهل جر هذا الاتقان الدقيق لنظام الاســـترقاق الى انحطاط العالم الغربى ، أم أدت به الاسرافات فى تشديد النظام الى الثورة والنهوض ؟

وهل يمكن ان نلمس الاستدجان واتقان نظـام استغلال الانسان للانسان وهو الامتداد العصرى للاسترقاق ، فى غير الانظمة الرأســـمالية التى استعانت اليوم بالتكنولوجيا لتدقيق أجهزة ذلك الاستغلال ؟

واننا لنعجب فى مثل التصنيفات التى يأتى بها فلاسفة التاريخ المتشبعون بعقيدة الغرب الرأسمالى أن يجعلوا بعض المجتمعات الاسلامية نماذج للنظام الحربى ، ويتغافلون فى كل مرة عن الالتـفات الى النماذج العسكرية التى يأتى بها الغرب •

لقد كان من الممكن ان ناخذ المجتمع الانجليزى فى عصر الاستعمار كنموذج لاتقان النظام الحربى وسيطرته على جميع الاجهزة السياســية الموجودة آنذاك • أليست سياسة التوسع المســـــتمر ، وتوطيد النظام فى المستعمرات عبارة عن اتقـــان دقيق لفنية الحـــروب ؟ واذا أردنا ان نكشف عن منظومية الحرب وطغيانها على باقى النشــــاطات الحضارية فى المجتمعات فلا احسن من المجتمعات الغربية لاعطائنا نماذج واضحة صريحة عن هـــذه الظاهرة • ولننظر الى التـــاريخ القريب : فمن الامبراطورية النمساوية الى بروسيا الى فرنســـا البونابرتية ثم الاستعمارية الى أمريكا فى عصرنا هذا الى دولة صهيون ، انها كلها مجتمعات تقدس الحرب وتهىء لها الاســـباب ، وتعممها تعميما

جنونيا وتسعى لابادة الآخـــرين ، وتتفنن فى استخدام الفكر واستدجان المحاربين ، والعلماء ، والمهندسين حتى تسخر كل الطاقات المادية والفكرية فى سبيل الحروب . فأين غريزة الراعى فى مثل هذا النظام العســـكرى الذى يسهر على تربية الجيوش واتقان اجهزتها ؟ ولماذا لا يمكن ان نتكلم عن التحجر والانحطاط فى مثل هذه الحال ؟

اننا نلمس من هذه المقارنات أهمية العقيـــدة كمحرك للنظرية التاريخية • ولسنا ندعى التحليل النفسانى لصاحب النظرية فنقول ان العقيـــدة تحركه بكيفية لا شعورية وتجعله يعشو عن كوارث مجتمعه ويحلق بفكره فوق مجتمعات الآخرين • بل نرى انه فى عقيدته ونظرياته ذو التزام صريح بفلسفة مجتمعه بكل ما لها من جوانب سياسـية وأخلاقية وتطبيقية •

اننا نرى من خلال الحكم على النظام والاتقـان بالعقم والتحجر موقفا شـــعوريا وأخلاقيا يجعل صاحبه مبالغا فى مقت كل حضارة لا تؤمن بالحرية والاختراع • ولو تصورنا الحاسة الحضـارية فى المجتمع الامثل ، حسبما يوحيه علينا هذا الموقف، لتصورناها عبارة عن تجسس فى الظلام ، واختراع مستمر ، وقدرة دائمة على التكيف مع الظروف • هكذا يمكننا أن نلخص كل مواقف الفلســـــفة التجريبية العملية التى ظهرت فى العالم الانجليزى الامريكى منذ القرن الماضى • ولا يظنن الباحث فى تاريخ الافكار ان هذه الفلسفة نبعت الى الوجود من أدمغة المفكرين وبمحض الاختيار المطلق ، بل ليس من الممكن ان نغفل عن ربطها بفكرة الحـرية الاقتصادية التى تدعو الى تشـــجيع المبادرات ، والتفتح على الاكتشاف والاختراع ، والتقليل من الانظمة المضيقة على حرية الافراد • ويمكننا ان نقول بعبارة اخرى ان هذه الفلســـفة ليست الا عبارة عن عقيدة المجتمع الذى نبعت منـــه وانها تحتـــوى ضمنيا على تناقضاته الاقتصــــادية والاجتماعية • انها تمثل الحرية الفردية لصـــالح أفراد فى طبقة ، ولكنها تمثل الحجـــر وتمتين النظام والحراسة الشرطية والعسـكرية على باقى الطبقات ، وعلى الشعوب التى تعترض حـــرية « الافراد المخترعين » • انه لا يمكن مع هـــذا الالتزام الشعورى واللاشعورى بالعقيدة أن نؤمن بمعقولية النظريات التاريخية مهما ظهر منها من تماسك وقوة بناء •

يقول ماركوز فى كتابه عن « الانســـان ذى البعد الوحيد » ان معقولية التاريخ هى الممكن فى حدود الحتمى • ونجيبه نحن أبناء العالم الثـالث بأن الحتمى أضخم مما يتصوره المؤرخون.ان تصارع الحضارات يفرض علينا الدخول فى تيار العراك ، ونحن ملزمون بالتجهيز لهذا العراك من اتقـــان لوسائل الحرب ، وتحرر مستمر • وليست عظمة بعض الحضارات فى عالم اليوم الا بناء يرتكز على استغلال الشعوب والضغط عليـــها وانزالها الى مرتبة الخضوع وفقدان الوعى . الذى بواســـطته يمكن تفهم حدود الممكن والحتمى فى كل انجـــاز حضارى • هذه حالة مضيقة لحدود الممكنات • ان بعض المجتمعات بنت عظمتها على حساب مجتمعات أخرى • وليس هناك امكان بالنسبة لهؤلاء وهؤلاء

الا التمادى فى الصراع واعداد العدد له من الطرفين ، الاقوياء للمحافظة والزيادة فى القوة ، والضعفاء للتخلص من الضغوط والاستغلال . فكأن الممكن ضاق حتى أصبح هو الحتمي بالذات .

وبناء على هذا الاعتبار نقول ، ان تعميم الانظمة العسكرية واتقانها بالوسائل التكنولوجية ، وخلق الحروب المتسلسلة ، وجدلية الصراع المستمر ، أمر محتوم فى عالم اليوم ، سواء للمحافظة أو للتحرر . وترجع مسؤولية هذا الوضع الى الحضارات البورجوازية لان الحضارات الاخرى عبارة عن ردود فعل وأجوبة على تحديات العظمة والطغيان للعالم الغربي . ومن العجب ان خالقي حتمية الحروب يدافعون ظاهرا عن الحرية والسلم . لسنا ندعى حينما نتكلم عن ضخامة الحتمي وتحديد نطاق الممكن ، بأن الارادة البشرية لن تتجاوز هذا الوضع . ولكنها ستتجاوزها بالقضاء على التوازن الحالى الذى يفرض بقاء بعض البشر فى الخمول ، ليصعد البشر الآخرون الى النجوم . وهذه هى رسالة الثورات . لكل مجتمع حريته وسلمه . ان حرية الشعوب الضعيفة وسلمها هى أن يرفع عنها كابوس الضغط والاستغلال ، وان حرية المجتمعات القوية وسلمها هى ان لا يتغير أى شيء . كل شيء نسبى كما نرى فى ميدان التاريخ : ان الفكرة نسبية ويختلف مفهومها من مجتمع الى مجتمع ، وان النظرية التاريخية نسبية لا تتعدى صفة الاداة لفهم وضعية محدودة فى الزمن ، وان التحليل والنقد الذى يسلطه المؤرخون على المجتمعات يحتوى على مواقف مذهبية مهما كانت مظاهر المعقولية فى النقد والتحليل .

ما المقصود العملي من هذا العرض ؟ وما هى أغراضه بالنسبة لتاريخنا ؟ يمكننا تلخيص الاجوبة فى بعض النقط :

1) ان كل ما كتب عن تاريخ بلادنا وأمتنا يمكن مراجعته وتفسيره من جديد ، كما يمكن ازالة جميع التخريفات النظرية والخيالية التى الصقت بهذا التاريخ .

2) يجب ان يكون النقد التاريخي جذريا ، لاسترجاع الواقع . وأن ينتبه الناقد الى الالتزام العقائدى الذى يحرك المؤرخين

3) ليس المقصود من النقد التاريخي هو ابطال نظريات الاجانب للدفاع عن حضارتنا والانتصار لمذاهبنا . بل يجب ان يكون النقد التاريخي نقدا ذاتيا أيضا ، وأن ينبه الناقد الى واقع مجتمعنا بالاضواء التى لا تتوفر عند الآخرين ، وذلك للمساهمة عن طريق التوعية الفكرية فى انجازات التاريخ الحاضر الحى . وذلك للاعتبار الآتى :

4) ان التاريخ هو قبل كل شيء ما ينجز ، وأما ما يكتب فهو فى الغالب تصوير ذاتى أكثر منه عقلانى لاحداث وظواهر تجزئى الواقع وتصبغ عليه ألوانا من العقائد والشعورات .

وأقول بهذا الصدد لاخوانى الذين تذهب نفسهم حسرات على سوء نية المؤرخين الذين يزيفون تاريخ أمتنا بأن التاريخ ليس ضميرا انسانيا شموليا الا فى ميدان الانجاز لانه هو الباقى الملموس الذى تشاهده الاجيال ، وأما كل ما يكتب فيمكن نقضه بمكتوب جديد .

الدفاتر التركية والعربية في الجزائر

د. عبد الجليل التميمي
استاذ بكلية الآداب
جامعة تونس

يتمتع فن التاريخ (1) هذه السنوات باهتمام المسؤولين في المغرب العربي ، فكثيرا ما نسمعهم ينوهون بعلم التاريخ داعين المؤرخين المغاربة الى كتابة تاريخنا القومي وتنقيته من الافتراءات والاخطاء والتشويه الذى لحقه واصابه على يد المؤرخين الغربيين ، ذلك ان هذا الميدان كان وقفا عليهم يوجهونه حسب ارائهم ، ومعتقداتهم،

1) هذه الدراسة هي خلاصة للمقدمة التى وضعتها لكتابنا المخطوط : « فهرس موجز للوثائق العربية والتركية » والذى نامل ان ينشر قريبا باللغتين العربية والفرنسية

ومخططاتهم ، ومن المؤسف ان يكـــون هـــؤلاء المؤرخون خاضعين لعدد من الاحكام المسبقة على تاريخ شعوبنا بتركيزهم البحث على فترات دون فترات وعلى اشخاص دون آخرين وعلى فنون دون اخرى ، من ذلك الاهتمام المفرط بتاريخ المغـرب قبل الفتح العربى واكسائه اهمية خاصة وكذلك فترة الاحتلال الفرنسى ، اما الفترات الاخرى ، فقد عرفت ارتفاعا ونـــزولا حسب اهتمامـات المختصين وتكوينهم العلمي وسير ابحاثهم .

ولقد شعر عدد من المؤرخين الفرنسيين بعدم تـوازن الدراسات التاريخيــة وحتمية الاهتمام بما يسمونه « بالعصور المظلمة » حتى تستكمـل الفجوات الخطيرة التى يشعــر بها كــل باحث لتاريخ المغرب العربى .

من ذلك يجمع المؤرخون الفرنسيون ان الحلقة المظلمة والمجهولة من تاريخ المغرب ، على الرغـم من قربها التاريخى ، هى فترة العهد العثمانى ، **اذ الدراسات التى نملكها تكــاد تكـون نادرة ومعلوماتنا العامة قد استمدت مـن انطباعـــات** الرحالة الاوروبيين ومن تقارير قناصل الــــدول الاجنبية ، اما وثائق الدول المغربية العربيـــــة والتركية ، فلم يقع الاهتمام بها ولم تفهرس ولم يتم استغلالها ، وعلى هذا الاساس لا يمكننا اليوم التصدى لكتابة هذا التاريخ ، دون ان نقـــوم بعملية اولية للكشف عـــن كنوزنــا الوثائقية والمخطوطات والعمل على فهرستها لنتحسس مدى غناها واهميتها . ونشرها ان امكن ، ومن هنا تاتى اهمية نشر الفهارس مهما كانت موادها ، ذلـك ان عمل الباحث اليوم يقوم على اساس الفهارس والبيبيوغرافيا ، فضلا عن نشر الوثائق نفسها ، ولا بد اذا اردنا للمدرسة التاريخية المغربيـــة الناشئة ، الشمول والنجاعة والجدية والعلميـة من توفير مثل هذه الادوات لنغـــذى دراساتنا ونكسبها القيمة العلمية الثابتة .



ولنا ان نتساءل ما مرد عدم الاهتمام الـذى اظهرته المدرسة التاريخية الفرنسية تجاه تاريخ الجزائر خلال الثلاثة قرون من وجود العثمانيـين بالبلاد ؟

يعلل المؤرخون الفرنسيون سبب ذلك الى عدم **استغلال وثائق ودفاتر الحكام العثمانيين والمحررة** باللغتين العربية والتركية والتى استولت عليها الحكومة الفرنسية يوم ان احتلت الجزائر مـــع اوائل الربع الثانى من القرن الماضى ، وقد نادى هؤلاء المؤرخون بضرورة الاهتمام بهاته الدفاتـر وفهرستها (2) لتكون اساسا ومنطلقا لدراســة

(2) A) BUSQUET, Raoul, *Le fonds des Concessions d'Afrique et l'Organisation du Gouvernement Général de l'Algérie,* pp. 385-401, in, la Révolution Française, Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, 28e année, 405, Paris, Novembre 1908.

B) DELPHIN, G, *Histoire des Pachas d'Alger de 1515 à 1745,* extrait d'une chronique indigène traduit et annoté, pp. 161-233, in, Journal Asiatique, Paris, Avril, Juin, 1922.

C) DENY, Jean, *A propos du fonds arabo-turc des Archives du Gouvernement Général de l'Algérie,* pp. 375-378, in, Revue Africaine, 1e trimestre, 1921, Alger, 1921.

ولاية الجزائر ، ذلك انه لا سبيل الى دراسة تاريخ بلد ما ، دون ان نضع يدنا على وثائق الدولة الرسمية ومراسلاتها وقوانينها الادارية والمالية والاجتماعية والعسكرية التى سنتها . والتى تعتبر العمود الفقرى لاى محاولة جادة لسبر الابعاد التاريخية والحضارية للبلد المعنى والمراد دراسته .

ان الجزائر كسائر الولايات المرتبطة بمركز الامبراطورية العثمانية قد عرفت نشاطا حثيثا تجاريا وعسكريا فيحوض البحر الابيض المتوسط فى العصر الحديث ونتج عن ذلك وفرة الوثائق الرسمية . ولا ادل على ذلك من هاته المراسلات التى تمت بين الجزائر والباب العالى وانتظامها ، وبين الجزائر وسائر الدول الاوروبية حيث احتفظت لنا دور وثائقها بالنسخ الاصلية التى كان قد اوفدها حكام الجزائر الى رؤسائها ، ويمكن لنا ان نقرر بالنتيجة ان الدولة الجزائرية كانت لديها دفاتر وثائقها الرسمية المتعلقة ببيت المال والتجارة الخارجية والداخلية والضرائب والاحباس وما يتعلق بالانكشاريين ، بالاضافة الى مراسلاتها السياسية مع جميع الدول .

ونظرا الى عدم استعمال كل هاته المراجع الاساسية ، يمكننا ان نقرر على ضوء ذلك ، ان العهد العثمانى بالجزائر كما هو الحال بالنسبة لتونس وليبيا لم يدرس ، وان الابحاث القليلة التى تناولت بعض المسائل المتفرقة لا يمكن اعتبارها اساسية ، اذ هى تكتسى قيمة نسبية هذا ما يعترف به مؤرخو الغرب على اختلاف نزعاتهم وتكوينهم العلمى .

ودون ان نتعرض الى السرد التاريخى لمصير الوثائق الرسمية وهذا ما فصلناه فى مقدمة مخطوطنا ، نلاحظ ان الدفاتر العربية والتركية التى نجت من الضياع تتألف من حوالى 500 دفتر تضم 42 الف ورقة مخطوطة تقريبا ، سنحاول اعطاء بعض الاشارات حول مختلف موضوعات محتوياتها .

تجارة واقتصاد ولاية الجزائر

ان الدراسات التاريخية التى تناولت تجارة بلاد الجزائر مع دول البحر الابيض المتوسط قليلة وعليه تكاد تكون معرفتنا بهاته المواضيع شبه معدومة .

فمثلا تكاد تتركز معظم الدراسات التى ظهرت عن القرن السابع والثامن عشر حول القرصنة واسترقاق الاسرى المسيحيين وفديتهم، الشيء الذى جعل بعض المؤرخين يذهبون الى الاعتقاد ان القرصنة تشكل الصناعة الوطنية

D) MARÇAIS, William, *Un siècle de recherche sur le passé de l'Algérie Musulmane,* p. 163, in, Histoire et Historiens de l'Algérie, Paris, 1931.

E) EMERIT, Marcel, *l'Algérie à l'époque d'Abdelkader,* Paris, 1948.

F) YACONO, Xavier, *L'Algérie depuis* 1830, p. 162, in, Revue Africaine, centenaire de la Société Historique Algérienne, 1856-1956, Alger, 1956.

G) MANTRAN, Robert, *Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie,* pp. 243-248, in Annuaire de l'Afrique du Nord, 1962, Aix-en-Provence - Paris, 1963.

(3) والمورد الرئيسي للبلاد ، وهو راى خاطىء •

ان نظرة سريعة لمحتويات هاته الدفاتر تفند بصورة لا مجال للشك فيها ، بطلان هذا الراى، فالدولة الجزائرية عرفت حركة تجارية نشيطة مع موانىء الشرق مثل ازمير وسالونيك واسكندرية (4) وطرابلس بسوريا وطرابلس الغرب وتونس والمغرب الاقصى . وكذلك مع موانىء الدول الاوروبية وخاصة مع مرساى وكان لداي الجزائر وكلاء له في عدد من هذه الدول •

ان هاته الدفاتر تذهب الى ابعد من اعطاء صورة مصغرة على هاته التجارة ، بل على العكس من ذلك ، تسمح لنا بتقييم تجارة الجزائر تقييما تقريبيا بما توفره من معرفة صادرات وواردات البلاد ومقادرها مع ذكر اسعارها • ولا ننسى ان الجزائر لعبت دورا متكاملا مع وضعية البحر الابيض المتوسط مع كل من مالطة والبندقية ومرساى وصقلية وغيرها من الموانىء ، وانه اذا اريد كتابة تاريخ الجزائر الاقتصادي والتجارى للمائتى سنة التى سبقت الاحتلال الفرنسى ، لا بد من دراسة الدفاتر العربية والتركية اولا ثم تكملتها بدراسة دور الوثائق بايطاليا وخاصة صقلية(5)والبندقية والغرفة التجارية بمرساى(6) Chambre de Commerce de Marseille وارشيف استنبول ودار الوثائق التونسية •

الادارة الجزائرية في عهد الاتراك

ان هذا الحقل من الدراسات لم يهتم به الباحثون الا نادرا وتكاد تكون معرفتنا لاصول الادارة العثمانية بالجزائر قد استمدت من الرحالين الاوروبيين امثال لوجيبي دو طاسي (Lougier de Tassy) وبيصونال (Peysonnel) وديفنتان (Desfontaine) وبوارى(Poiret)وفنتور دو برادي(Venture de Paradis) شو (Shaw) وغيرهم ، وقد وصفوا الادارة وتركوا لنا انطباعاتهم التى لا تخلو مطلقا من الاهمية (7) على الرغم من ان اكثرهم كان يحقد على الاتراك ، واصفين اياهم بالبربرية والقرصنة وقد تبع هؤلاء عدد من المؤرخين خاصة في القرن التاسع عشر وهم الذين حاولوا دراسة هذا الموضوع وتبنوا احكامهم ونتائجهم (8) •

كانت الادارة التركية بالجزائر خلافا لما يعتقد ادارة محكمة التنظيم وجد دقيقة ، اذ كان الدايات بالاستعانة بعدد من الوزراء والموظفين والمسؤولين قد تمكنوا من تسيير مختلف شؤون البلاد ،

(3) ESQUER, Gabriel, *Le Commencement d'un empire : la prise d'Alger*, p. 11, Alger, 1923.
نلاحظ ان القرصنة شكلت بالنسبة للقرن السابع عشر موردا للجزائر العاصمة ، خلافا لمقاطعات ولاية الجزائر الثلاث التى كانت تعتمد على التجارة والصيد عموما

(4) GIRARD, P.S., *Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Egypte*, pp. 299-305, t. 17, in, *Description de l'Egypte*, l'Edition, Paris, 1924.

(5) TRASELLI, Carmelo, *Les sources d'archives du trafic maritime en Sicile*, pp 106-119, in, *Les sources de l'histoire maritime en Europe du moyen âge au XVIII*e *siècle*, Paris, 1962.

(6) CARRIERE, Charles, *Les sources provençales de l'histoire de l'économie maritime à l'époque moderne*, pp. 227-243, in, *Les sources de l'histoire maritime en Europe du moyen âge au* XVIIIe siècle, Paris, 1962.

(7) COLOMBE, Marcel, *L'Algérie Turque*, pp. 99-123, in *Initiation à l'Algérie*, Paris, 1937.

(8) BOYER, Pierre, *Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger*, pp. 297-316, in, Revue historique, Avril-Juin, 1966.

فالدولة كانت تتبع نظاما دقيقا لجباية الضرائب مثل العشر والمعونة والغرامة واللزمة وغيرها (9) كما كانت الدولة تميز القبائل الغنية من الفقيرة وفي بعض الاحيان كانت تسجل عـدد افراد القبائل واملاكهم الشخصية (10) وعدد الحيوانات التي يملكونها ومداخيل المحصولات الزراعية (11) وكان جمع الضرائب وتوزيعها يتم على اساس نسبى للثروات والمحصولات ، كما ان هاته الدفاتر احتفظت لنا بتفاصيل كاملة للاداءات المفروضة على الواردات والصادرات ونشاط الجمارك وضرائب الشرطة على الاسواق اليومية والاسبوعية وكذلك الضرائب على تجارة اليهود ، كما نجد ايضا معلومات اخرى حول كميات الذهب والفضة التي اخذت من خزينة الدولة ليقع تحويلها الى عملة نقدية للتداول . ثم عجز الميزانية التي ترتب عنه تخفيض العملة في كثير من المرات . (12)

تمكننا مثل هذه المعلومات من دراسة كل المظاهر الادارية والاجتماعية لحياة الدولة الجزائرية ، وتكون منطلقا لدراسات مفصلة ودقيقة ، كما ان هاته الدفاتر العربية والتركية ، تسمح لنا ايضا بالقيام باحصاء تقريبى لبعض القبائل وتوفر لنا معلومات مشجعة لعلاقات الجزائر ببقية البايلكات الثلاثة والاحداث الداخلية والمعارك التى شنتها الدولة ضدالقبائل الثائرة التى ترفض تسديد الاداء كما نجد تسجيلا دقيقا لتعيين الموظفين وتاريخ ذلك ثم عزلهم وتاريخ من عوضهم واسمائهم ، كما نجد معلومات عن الهدايا التى ترفع لدار السلطان والضرائب (الدنوش) التى يحملها بايات ولاية الجزائر الى الداى مرتين كل سنة اثناء فصل الربيع والخريف وكذلك ما يقدمه الاغاوات والامراء وسائر القبائل من اداء وهدايا الى دار السلطان.

ومن جهة اخرى نأمل ان تساعدنا هاته الدفاتر على تحديد بعض الوظائف الادارية وتعددها واختصاصات كل منها واسماء القائمين عليها . على ان الباحث يجد بعض الاشارات والمعلومات التاريخية المفيدة لعلاقات الدولة الجزائرية مع الامبراطورية العثمانية وعدد كبير من دول البحر الابيض المتوسط وخاصة مع جاراتها .

والواقع اننا لا نستطيع التعرض لكلمحتويات هاته الدفاتر ، فهذه لمحة سريعة استوجبها التعريف بها وبمحتوياتها .

يذكر لنا السيد بواير ان معلوماتنا عن الجزائر لم تتقدم منذ السنة التى نشر فيها قرامن Gremont Histoire d'Alger sous la domination Turque سنة 1881 كتابه التالى :
يبدو لنا ان عمل قرامن ومرسيى Mercier الذين يعدان من انصار المدرسة التاريخية والمستندة فى اغلبها على اساس الاحداث السياسية الفاصلة Histoire événementielle هما فى نظرنا على الرغم من محاولتهماالمجدية يخضعان لمعطيات والكار مسبقة وخاطئة عن الجزائر اثناء الحكم التركى

9) ان الضرائب التى كانت مفروضة على المواطنين بالجزائر هى اقل بكثير واخف وطاة من الضرائب التى فرضها البايات الحسنيون وحكامهم على رعايا البلاد التونسية والذين ضربوا اسوا الاسئلة على آبتزاز اموال المواطنين بالقوة

10) راجع الدفتر رقم 4 من القسم الثانى الموجود بارشيف الرئاسة بالجزائر

11) راجع الدفتر رقم 13 من القسم الثانى الموجود بارشيف الرئاسة بالجزائر

12) لقد تعرضنا بشىء من التفصيل فى المقدمة الى ذلك ، خصوصا ما كان متعلقا منها فى الربع الاول من القرن الماضى

الاحبـــاس

تعتبر الاحباس من اهم المشاريع الخـيرية التى اوجدها المجتمع الاسلامى ، ذلك ان المحبس لشىء يملكه لفائدة النفع العام كان مدفوعا فى ذلك بحبه للخير والتقرب لمرضاة اللـه ورحمة بالفقراء وحبا للعلم ، وعليه انشئت المساجد وشيدت المعاهد العلمية والخيرية والزوايا والملاجىء والتكايا ، وقد تزاحم الحكام والاغنياء فى تحقيق ذلك .

وقد تعددت فى مدينة الجزائر خاصة فضلا عن قسنطينة ووهران ، الاملاك المحبسة ، حيث كانت مداخيلها ذات قيمة كبيرة سمحت بالقيام بعدد من المشاريع الخيرية والتعليمية مثل الاهتمام بالطلبة ومساعدتهم وصرف مبالغ كبيرة للاساتذة والقائمين على شؤون التعليم ورعاية السقايات ومساعدة فقراء الولاية وتخصيص قسم من مداخيل الاحباس لفقراء الحرمين الشريفين (13) والمرابطين والاندلسيين والشرفاء ودار الانكشاريين وفدية الاسرى المسلمين الذين وقعوا فى اسر المسيحيين الى غير ذلك من المشاريع التى تكتسى طابعا خيريا وانسانيا .

ان الدفاتر العربية والتركية تسمح لنا بالقيام باحصاء تقريبى لمداخيل الاحباس نقدا ومحاصيل ومعرفة مصادرها ونوعيتها والمبالغ المتأتية عن كرائها ، كما تمكننا من تحديد ممتلكات الافراد والقاء بعض الاضواء على المعطيات الاولية للحياة الفلاحية وبعض الاسعار العامة ، كما نجد بعض الاحصائيات لمصاريف الدولة العامة على الاحباس كالترميم مثلا ، ومن جهة اخرى نجد سجلا بالمبالغ المرسلة الى الحرمين الشريفين او الموزعة على فقراء الجزائر او المودعة فى بيت المال مع ذكر تصفية الحسابات مع الوكلاء القائمين على جمع مداخيل الاحباس ، وبالتالى تعد هاته المصادر مصدرا لدراسة طبقات المجتمع والفروق الموجودة بينها ، ذلك ان هذا النوع من الدراسات لم يجلب اليه الباحثون ولا بد اذا اريد الاهتمام بهذا الحقل من الدراسات من استغلال وثائق الاحباس الثرية والمتضمنة عددا من المعطيات الاقتصادية والمالية والاجتماعية قل ان توفرها لنا الوثيقة التاريخية السياسية الصرفة .

الانكشاريون

ان الدفاتر الموجودة بالمكتبة الوطنية بالجزائر والتى يبلغ عددها 35 دفترا تمكننا من تعميق معرفتنا بفيلق الانكشاريين ومختلف وحداتهم ومرتباتهم واسماء الثكنات العثمانية التى كانوا يقيمون بها ، كما نجد فى عدد من الدفاتر الاخرى والموجودة برئاسة الوزراء بالجزائر اسماء الانكشاريين الذين جندوا من الامبراطورية العثمانية وتاريخ وصولهم وعددهم .

(13) JANSSENS, Gérard Busson de, *Contribution à l'étude des habous algériennes*, p. 27, étude dactylographiée.
يذكر المؤلف ان الاحباس المسجلة فى الجزائر باسم الحرمين الشريفين تبلغ ثلاثة ارباع الاحباس جميعها : نستطيع حصر نسبة ذلك بالضبط غير اننا نـرى ان الاحباس باسم مكة والمدينة كانت بالفعل تتمتع باعل نسبة فى ذلك

ولدراسة ادارة الاتراك بالجزائر ، لابد من الاهتمام بفيلق الانكشاريين وطريقة حياتهم والنظم العسكرية التى كانوا يخضعون لها حتى يكون اهتمامنا بتاريخ الجزائر اثناء الحكم التركى اكثر تبصرا ووعيا ٠

لغة الدفاتر

حررت اكثر الدفاتر باللغة العربية وبخط مغربى تختلف جودته ورداءته من دفتر لآخر ٠ اما الدفاتر الهامة فقد حررت بلغة تركية وهو ما اصطلح عليه «بالعثمانية» وهى صعبة القراءة وكثيرة الاخطاء ، ولا بد ان نتصور ان موظفى الاتراك القائمين على الشؤون المالية والادارية لم يكونوا يتمتعون بثقافة واسعة ٠ ومن هنا نعلل كثرة اخطائهم ورداءة اسلوبهم ٠

لقد هدفنا بهذا العرض السريع لمحتويات هاته الدفاتر ، لفت الباحثين العرب والاجانب لوجود هاته الدفاتر وغناها واهميتها دون ان ندعى اننا احطنا بكل شىء ، وكفانا مسؤولية اننا وفرنا اطارا ومادة جديدة للبحث العلمى التاريخى ٠ (14)



14) لقد فصلنا فى المقدمة التى وضعتها للفهرس المخطوط ، الظروف والملابسات التاريخية التى لازمت هاته الدفاتر الى ان نقلت الى فرنسا قبيل الاستقلال ، ولم تسترجع الى الجزائر الا سنة 1965 بعد ان احتفظت الادارة الفرنسية بنسختين منها على شكل ميكروفيلم ، اودع احدها بالارشيف الوطنى بباريس تحت رقم 15 وسلم الثانى الى الارشيف الوطنى باكس آن بروفانس بنفس الرقم الباريسى

اما اصول هذه الدفاتر فقد احتفظت بارشيف رئاسة الوزراء بالجزائر ، هذا وقد تاكد لدى ان قسما من اصول هاته الدفاتر لم تسلم بعد الى الجزائر !



«قصر باردو بالعاصمة»

البولونيون وتاريخ المغرب الوسيط

د. ابراهيم فخار

استاذ محاضر فى تاريخ المغرب
عميد كلية الآداب
جامعة قسنطينة

تقديم

يتسم العصر الحديث الذى تنوعت فيه الدراسات بالمنهجية العلمية فى أغلب أنواع المعرفة وبالتخصص الدقيق فى كل علم أو فن بحيث انه صار لكل علم وكل مجال من مجالات المعرفة منهجيته الخاصة وعلماؤه المتخصصون .

اما فى مجال التاريخ العربى عامة والمغربى خاصة فقد اتسمت كتابة المؤرخين الاوروبيين بعدم التعقل والتبصر أولا ثم بالمبالغة والغلو فى المناهج العلمية أو الرياضية ثانيا .

اما بالنسبة لمؤرخى الاسلام فى العصر الوسيط عامة فقد اتسمت دراستهم للتاريخ بمناهج البحث الأدبى والاسرائيليات ثم بالتحيز وعدم الالتزام ، الأمر الذى يحتم علينا ان نعيد النظر من جديد لا فيما كتب عن تاريخ المغرب الوسيط فحسب بل وحتي بالنسبة للتاريخ الاسلامى العام ؛ فتاريخ الاسلام والهجرة يحتاج الى مراجعة وغربلة وتاريخ الشام تلزم اعادة النظر فيه ، وتاريخ بغداد تنبغى دراسته على ضوء روح العصر الذى كتب فيه ، وكذا الأمر بالنسبة لتاريخ شمال افريقيا (قديمه وسيطه وحديثه) فهو فى اشد الحاجة الى ثورة شاملة لكنها ثورة هادئة وهادفة يكون الغرض منها : 1) اعادة الاحداث التاريخية الى وضعها الطبيعى أى ابعاد جميع الخرافات وروح العصبية التى طبع بها ·

2) وضع هذه الاحداث حسب العصور فى جوها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى تبلورت فيه حتى نتمكن من تفسير هذه الاحداث واخضاعها لقانون العلية ·

3) جعل التاريخ المغربى العام فى شخصيته الخاصة به كتاريخ شعب وأمة تعيش – جغرافيا – بمنطقة معينة وتخضع لنواميس تتأثر بها وتؤثر فيها ·

4) وبعد اضفاء طابع الشخصية المغربية على تاريخ هذه المنطقة نضع هذا التاريخ المغربى البارز الشخصية فى الاطار العام المشترك بين تواريخ الشعوب عامة ، ابتداء من تاريخ الاسلام والمسلمين فى المغرب والقارة الافريقية الى ربط هذا التاريخ المغربى الافريقى بتاريخ الشعوب الاسلامية دون النظر الى مهبط وحيها أو مسقط رأسها اذ يوجدحتى اليوم فىأقطار الارضمسلمون يستشهدون من أجل نصرة الاسلام كما ان هناك اسلاما تنتهك حرماته دون أن يحرك أتباعه الجغرافيون أى ساكن ·

واعتقد ان هذه الخطوة الأولية أمر ضرورى,واذا اقترنت هذه الخطوة ببعض الشروط الحتمية فقد نحقق بعض النجاح ونقدم خلال عشرين عاما تاريخا لا تظهر فيه روح المؤرخ بقدر ما تظهر الصورة الحقيقية الحية للشعب أو الوطن الذى أرخ له أو عنه بحيث تذوب شخصية المؤرخ ضمن المجموعة التى يؤرخ عنها وينتمى اليها ويكتب من أجلها ·

وهذه الشروط فى رأينا هى :

1) جمع كل الوثائق والمخطوطات المهربة والتى لها صلة بتاريخ المغرب بصفة عامة (2) ·

2) ابعاد كل ما كتبه المؤرخون الغربيون المتعصبون عن المغرب والجزائر ، واذا استخدم ما كتبوه فيكون استعمال هذه الكتابات للرد عليها ودحض الشبه ·

3) استخدام ما كتبه المؤرخون والباحثون الذين يحدوهم الصدق فى العمل والجدية فى البحث والتجرد للعلم ليس غيره ·

4) توحيد المجهودات وتنسيق العمل بين ابناء المغرب المتخصصين فى التاريخ وذلك مثل تأسيس مؤسسة علمية على مستوى مغربى تعنى

بتاريخ المغرب وشؤون مجتمعه ، اصدار مجلة مغربية للتاريخ . واخيرا تبادل الآراء في القضايا التاريخية التي يشترك فيها ككل .

هذه بعض الاقتراحات التي هي مجرد رأي يمكن ان تناقش ويضاف اليها أو يعدل فيها ، المهم هو انه حان الوقت للنظر في هذا الجانب الهام سيما اذا عرفنا ان هناك أناسا يدعون البحث والتعمق فيه . وجدوا الطريق ممهدة الى وثائقنا المكتوبة منها والمروية على حد سواء ، فتسللوا أولا الى عقول البسطاء فاعتمدوها مصدرا لكتابة تاريخهم المغرض ، ودخلوا المكتبات العامة والخاصة فهربوا كنوزها وتسربوا الى أقسام الوثائق باسم العلم وعالمية الثقافة فابتزوها ثم ادعوا فيما بعد انهم – دون سواهم – اعرف بتاريخ بلادنا وهم اقدر على فهم التاريخ وربطه بقانون العلية والاسباب والمسببات وهم يرمون من كل هذا تشويه الشخصية الوطنية وتجريدها من كل مقومات الحضارة والرقي .

البولونيون .

انصافا للعلم والحقيقة لا نريد أن ننسى أولائك الذين انصفوا تاريخ العرب والمغرب والاسلام ، وظلوا مغمورين طيلة نصف قرن كامل .

لقد حاول البولونيون ان يدرسوا تاريخ المغرب على ضوء الوثائق والمخطوطات ووضعوا مبدا لهم هو تخليص الدراسات التاريخية المغربية من الشوائب التي علقت بها ، هذه القاعدة هي التي اعتمدتها المدرسة البولونية عندما تصدت لدراسة تاريخ المغرب أو تقديم بحوث عن المغرب .

فالبولونيون (أقصد منهم المؤرخين المحدثين أو المعاصرين) عندما ارادوا دراسة تاريخ المغرب لجؤوا الى مصدر واحد هام في نظرهم هو النصوص وكل كتابة عندهم لا تعتمد النصوص التاريخية المغربية أو ما كتبه المغاربة انفسهم تعد لغوا وهراء

غير ان الملاحظ في هذه المدرسة البولونية التي ظهرت أواخر القرن الثامن عشر ومطلع هذا القرن هو انها اهتمت بتاريخ المغرب اهتماما كبيرا وجمعت خلال ثلاث وثمانين عاما اعز واغلى وانفس ما يملكه المغرب من وثائق ومخطوطات .

وقد يتبادر الى الذهن سؤال أو أسئلة .

ما علاقة البولونيين بتاريخ المغرب الوسيط ؟

ولماذا عنى البولونيون بهذا القسم من افريقيا الشمالية سيما ليبيا وتونس والجزائر واخيرا امتدت جذور هذه الدراسة بحكم الترابط والموقع الجغرافي الاستراتيجي امتدت الى جنوب المغرب الاقصى فموريتانيا ثم النيجر ومالي وتشاد وتركزت خصوصا حول أودغشت وتمبكتو وتادمكت .

وما هي طبيعة الدراسات وفرع التاريخ المغربي الذي أهتم به البولونيون ؟

هل توجد وثائق ومخطوطات مغربية في بولونيا الكبرى ؟

كل هذه الاسئلة وغيرها هي موضوع دراستنا هذه .

حسب ما توصلت اليه من دراسة عميقة وبعد اتصالات مباشرة وعمل مع البولونيين في بولونيا تبين ان اكتشاف البولونيين لتاريخ المغرب يرجع

الى العقد الثامن من القرن التاسع عشر ذلك ان الرائد البولونى الاول الذى تعرف على هذا المغرب فى الفترة المذكورة هو دى كالاسنتى موتيلانسكى الذى كان ترجمانا عسكريا فى خدمة الجيش الفرنسى ، ولكنه اذا كان قد وضع خبراته كترجمان فى خدمة الجيش الفرنسى فقد سخر مواهبه الى م تاريخ المغرب وارساله مباشرة الى بولونيا بدل فرنسا .

ولقد كانت مساعى موتيلانسكى الاولية تتلخص فى الخطوات التالية :

1) جمع اكبر ما امكن جمعه من الوثائق والمخطوطات المغربية سيما التى لها صلة بصحراوات المغرب وعلاقتها الاقتصادية مع افريقيا الغربية والوسطى .

2) محاولة التعرف على عادات الشعب وتقاليده واخلاقه مع دراسة الانظمة الاجتماعية التى تسيره

3) تمتين الصلة مع اعيان المغرب من علماء وشيوخ ورؤساء القبائل ، وبحكم معرفة الرجل العميقة لعدة لغات منها العربية التى يملك زمامها والبربرية التى يتقنها والفرنسية التى يجيدها والانجليزية التى درسها ، بحكم هذه المعرفة استطاع ان يضمن لمسعاه النجاح .

4) توطيد العلاقة بينه وبين الاب دى فوكولد الذى كان منزويا فى اعماق صحراء الجزائر ، وفى ظل الرحمة الكنائسية والحماية الفرنسية استطاع الاثنان ان يستجليا مجاهل هذه الصحراوات العامرة المغمورة .

وفى خلال مدة عشرين عاما (1880 — 1900) كون موتيلانسكى نواة أولى لمكتبة مغربية تجمع عينات من الوثائق والمخطوطات ، اعقبها بمذكرات عن مشاهدته وملاحظته حول سكان الصحراء عامة .

هذه المجموعة كلها ارسلت الى مدينة لفوف (3) البولونية السوفياتية واصبحت تحمل اسم « مجموعة موتيلانسكى » (4) .

وهذه الوثائق والدراسات التى تضمها مكتبة جامعة لفوف هي :

1) سيرة ابن الصغير المالكى (القرن الثامن الهجرى) فى سيرة أئمة بنى رستم بتاهرت، ترجم الى الفرنسية وقدم عام 1905 كبحث فى المؤتمر العالمى الرابع عشر للمستشرقين المنعقد فى الجزائر .

2) الحملة الاسبانية ضد جزيرة جربة (تونس) فى مطلع القرن السادس عشر .

3) لهجات سكان أغدامس (دراسة فى علم الصوتيات واللسانيات) 1904 .

4) جبل نفوسة وصف اجتماعى وديموغرافى للجبل وسكانه متبوع بهوامش وتعاليق عن النطق ومخارج الحروف واللغة والتراكيب . باريس 1898 .

5) نصوص لغوية تتعلق بسكان جربة الحومة أجيم صدغيان والغ والمحبوبين .

6) مؤلفات الاباضية ، درست وجمعت عام 85 — 1886 . (5)

7) العقيدة الاباضية مترجم الى الفرنسية ، وقدم الى المؤتمر المذكور اعلاه .
8) مدينة القرارة منذ نشأتها مترجم الى الفرنسية ، واهم ما في « مدينة القرارة » .

التعليق الذى اضفاه موتيلانسكى على هذه الترجمة 1885 .

9) أصول العادات الاجتماعية وقواعد السياسة لسكان مدينة غرداية،دراسة تدخل ضمن التعاليق السالفة الذكر .

10) ابراهيم بن سليمان الشماخي تراجم
11) اسم الجلالة فى اللغة البربرية (6) .

هذا ما استطعنا حصره بالنسبة لهذه المجموعة الموتيلانسكية التى توجد خارج الجزائر . وكانت مكتبة جامعة الجزائر تضم مجموعة أخرى منذ 1925 تحمل اسم موتيلانسكى . الا ان زيقمونت سموقورزفسكي البولونى ورفيق موتيلانسكيفند فى رده العنيف على مرسيل مرسييه (7) الزعم القائل بان مجموعة أخرى قيمة ولا تقدر كان قد جمعها موتيلانسكى ثم اختفت وظهرت فجأة فى احدى الجامعات بامريكا دون ذكر اسم هذه الجامعة ويقول سموقورزفسكى فى دراسته ورده المذكور (8) : ان مرسيل مرسييه يجهل وجود مجموعة موتيلانسكية من المخطوطات فى حوزة الاستاذ قتنير الالمانى الذى تنازل عنها لصالح جامعة لفوف فى الاتحاد السوفيتى (9) .

وهذه المجموعة كما ذكرها سموقورزفسكى مترتبة على النحو التالى :

1) كتاب النيل وشفاء العليل للشيخ عبد العزيز اليزجنى .

2) شرح الجهالات (10) لابى عمار عبد الكافى التناوانى الوارجلانى (11) .

3) الدليل والبرهان لابى يعقوب يوسف بن ابراعيم الوارجلانى السدراتى ، من علماء الكلام والمنطق والرياضيات (النصف الثانى من القرن السادس الهجرى) حياة حافلة بالاسفار والمؤلفات درس فى سدراتة (وارقلة) ثم رحل الى المشرق ومنه عاد الى المغرب فقصد قرطبه حيث قام بالتدريس فى جامعها فترة من الزمن وهناك تعرف عليه بعض الالمان الذين كانوا يدرسون العربية ولنا عودة فىدراسة قادمة على علاقة الالمان واهتمامهم البالغ بتاريخ المغرب فى عصر مبكر جدا .

بماذا نفسر وجود مخطوطات وثائق مغربية ذات قيمة فى مكتبات المانيا ؟

هذه المخطوطات التى يرجع تاريخها الى القرن الخامس والسادس الهجريين ، سؤال وجهته الى كاتب الدولة الالمانى للثقافة فرد على اثناء زيارته لجامعة قسنطينة ــ نعم هناك مؤلفات مغربية فى فى المكتبات الالمانية شأنها شأن غيرها من الكتب العربية النى شقت طريقها الى اوروبا .

4) كتاب اخبار المرجية (بفتح الميم) فى سيرة خير البرية لابى العباس احمد الحقانى . هذه المجموعة توجد كاملة فى جامعة لفوف . واذا اردنا تصنيف هذه المجموعات التى جمعت ما بين 1880 الى 1926 نجد :

أولا : ان هناك مجموعة ارسلها موتيلانسكى مباشرة الى لفوف وهى التى كانت للدارسين

البولونيين نقطة انطلاق واستمرار البحث عـــن المخطوطات المغربية ٠

ثانيا : مجموعة أخرى كانت توجد فى حـوزة قتنير الالمانى الذى تنازل عنهـا لفائدة جامعـــة لفوف ٠

ثالثا : مجموعة أخرى ثالثة مجهولة تسربت الى احدى الجامعات الاميركية والبحثعن هذهالمجموعة لا رال مستمرا ٠

رابعا : مجموعة رابعةأوقفها موتيلانسكى نفسه على جامعة الجزائر قبل وفاته 1884 ـ 1883 كمـا يشير الاهداء الذى سطره البولونى على احـــدى صفحات المخطوط وهذه المجموعة الاخيرة غـــير المجموعات الثلاثة الموجودة فى الاتحاد السوفيتي واميركا اذ يؤكد زيقمونت سموقورزفسكى « انها غير معروفة فى اوروبا » ولقد أكد لى الدكتـــــور محمد حميد الله فى باريس 1965 انه عثر هـــو الآخر على مجموعة من المخطوطات المغربية فى مكتبة جامعة استراسبورغ وارسل بقائمتها الى الاستاذ البولونى المعاصر طدوز لفسكى فى بولونيا ٠ ولم أحصل على هذه القائمة التى ارسلها الدكتور حميد الله بعد عودتى من بولونيا ، الا ان هذه المجموعة تقبل احد الاحتماليين :

اما انها من جمع الالمان (قتنير ، شاخت ، وكارل سوتير) واما انها من عمل موتيلانسكى اهداهـا أو ارسلها الى استراسبورغ والذى يرجح هـــذا الاحتمال الاخير هو ان موتيلانسكى ذكر فى رسالة شخصية بعثها الى الاب دى فوكولد فى الهجـار « إن وفدا المانيا عقد له زيارة ودية بمقر حكمـــه بمدينة غرداية واطلعهم على كنوز العلموالمخطوطات التى لا ينضب معينها » (12) ٠

اما الرائد البولونى الثانى الذى واصل رسالة موتيلانسكى هو الاستاذ زيقمونت سموقورزفسكى الذى زار المغرب وافريقيا الغربية الوسطى فـى الربع الاول من القرن الحالى 1925 واستطاع هـــو الآخر بحكم سابق معرفته لاهمية تاريخ المغــرب ومخطوطاته السهلة المنال ، بحكم هذه المعرفـــة سلك منهاجا جديدا فى جولته الاستطلاعية وهى تتمثل فى الحصول على انفس المخطوطات التى اشار اليها موتيلانسكى ولم يعثر عليها ، فكأن زيقمونت يستهدف من هذه الرحلة تركيز عمله على استكمال ما نقص من مهمة سالفه ٠

وأول ما حصل عليه سموقورزفسكى هو كتاب السيرة واخبار الائمة (13) بجزئيه ٠

الجزء الاول ضمنه تاريـخ المغرب الاســـلامى الوسيط وعلى وجه الدقة تاريخ سياسة بنى رستم فى تاهرت وعلاقتهم بالاندلس والادارسة والاغالبة تدرجا فى العرض الغير المنظم الى عصره ، ويعتبر هذا القسم الاول تاريخى اما القسم الثانى فهو فى التراجم خاصة ٠

وهذا المخطوط لم يطبع بعد انما ترجمـــه الى الفرنسية ترجمة ركيكة الباحث الفرنسى اميـــل مسكراىوطبع فى الجزائر 1878 مع هوامشوتعاليق ضافية ٠

ولقد كانت توجد فى مطلع هذا القرن عدة نسخ متوفرة من مخطوط كتاب السيرة الا ان شاخت الالمانى فى دراسته منذ سنوات قليلة أكد انه لم يعثر الا على نسخة واحدة ، غير ان ط • لفتسكى اخبرنى شفويا انه توجد نسختان من المخطوط فى لفوف باسم مجموعة زموقور زفسكى تحت رقم 157 ، 158 ونسخة خطية أخرى كاملة فى كراكوفى تحت رقم 275 •

2) مخطوط طبقات الدرجينى (14) فى قسمين والقسم الثانى مستقل عن القسم الاول ، ذكره سموقورزفسكى ضمن الكتب التى عثر عليها وارسل بها الى لفوف تحت رقم 275 •

3) دراسة حول شاعر مغربى (مجهول الاسم) ظهرت هذه الدراسة فى المجلة البولونية الشرقية الجزء الثانى ص 260 ـ 268 •

4) جرد مفصل للمخطوطات والمؤلفات عند اباضية المغرب والمشرق ، وهو عبارة عن فهرست المؤلفين الذين تركوا آثارا مهملة ومشتتة هنا وهناك •

ولقد اعتمد سموقورزفسكى فى عمله على كل المخطوطات بحيث كان استخدامه للمصادر مبنيا على دراستها العميقة ، وهو يذكر انه متمم لما لم يأت به موتيلانسكى •

والذى يهمنا فى الدرجة الاولى قبل تقييم عمله هو حصره للمخطوطات وذكره لها بامانة معترفا بانه جمعها وارسلها الى جامعة كازيميرب • لفوف ثم يذكر فى نفس الوقت المخطوطات التى لاتوجد فى بولونيا انما فى مكتبات معينة مثل مكتبة المتحف البريطانى وبرلين وليبزيغ واكسفورد ولندن والمكتبة الخديوية بالقاهرة أو المكتبة الظاهرية بدمشق •

غير ان المخطوط الوحيد الذى لا زال فى طى الغموض والكتمان هو « التاريخ الكبير لوارجلان وسدرته واريغ »(15) لابى يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلانى الذى يعده الدارسون اكبر عالم رياضى فى المغرب (الجزائر) الا انه لا زال فى طى النسيان •

هذا المخطوط ذكره المؤرخ التونسى حسن حسنى عبد الوهاب وقال (16) عنه انه رآه يباع فى تركة المستشرق موتيلانسكى ولو ان له دراهم لاقتناه ولكنه اقتصر على شراء رسالة ابن الصغير المالكى •

ورغم ان البحث عن هذا المخطوط لم ينته بعد يمكننا ـ تاريخيا ـ ان نشير الى ان لهذا المخطوط الثمين قصة سوف نعود اليها فى دراسة مستقلة •

وكل ما يمكن الحديث عنه الآن هو ان أبا يعقوب كان قد سافر الى السودان الغربى وقدم لنا وصفا قيما عنه (17) ثم قام بالتدريس فى جامع قرطبه حيث تعرف عليه هناك جماعة من الالمان الطلبة وفى هذه الاثناء (القرن الثانى عشر ميلادى) كان قد انهى من اعداد كراريس ودفاتر « التاريخ الكبير » وفجأة يظهر المخطوط ـ فى السودان ـ فى افريقيا حيث استولى عليه البرتغاليون ، ثم ينتقل المخطوط من ايدى البرتغال الى الالمان حينما كانوا بافريقيا واخيرا بيع ـ على حسب رواية المؤرخ التونسى ـ فى مطلع هذا القرن ضمن تركة موتيلانسكى •

والاسئلة التى تطرح هنا هى :

هل المخطوط الذىرآه حسنحسنى عبد الوهاب هو بعينه المخطوط الذى كان بين ايدى البرتغاليين والالمان ؟

كيف وأين عثر عليه موتيلانسكى ؟

من اشتراه ضمن التركة التى خلفها موتيلانسكى فى سماسرة المخطوطات ؟

اليهود الالمان ومن باريس وجد طريقه الىجامعة تل أبيب ؟

كل هذه الاسئلة تحتاج الى جواب والجواب هو متابعة هذا المخطوط الذى قيل انه عثر عليه فى المانيا من غير تأكيد ٠

وكذلك الامر بالنسبة لمخطوط يهودا بن قريش التاهرتى (من علماء تاهرت فى القرن الثانى الهجرى) الذى يحمل عنوان « النحو التنظيرى » دراسة لغوية مقارنة بين اللغة العبرية والعربية والبربرية ٠ هذا المخطوط نعرف انه موجود باكسفورد ولكن ينبغى الحصول على نسخة فتوغرافية على الاقل ٠

والى جانب هذين المخطوطين الهامين هناك مخطوطات اخرى لا تقل قيمة عنهما ذكرها البولونيون لما ما دون أن يمتلكوها أو يشيروا الى مكان وجودها ٠

اما الرائد البولونى الثالث الذى أستأنف رسالة أستاذيه موتيلانسكى و سموقورزفسكى هو الاستاذ المعاصر طدوزلفتسكى (18) زار المغرب وافريقيا الغربية والوسطى عدة مرات كما أنه جاب صحراواتافريقيا بحثا عنمخطوط أو حصولا على تفسير كلمة طوبوغرافية عثر عليها فى نص تاريخى ، وهكذا تعتبر اعمال ط ٠ لفتسكى بمثابة ثمرة مجهود علمي كبير دام قرنا الا ربعا ٠

واذا كان الرائدان الاولان قد اعتمدا فى عملهما على اكتشاف مجاهل المكتبات المغربية المطمورة وابرازها فقد عمد ط ٠ لفتسكى الى النصوص المغربية المستخرجة من بطون المخطوطات التى تملكها بولونيا فدرسها وقارنها وعلق عليها فجاءت كل هذه الدراسات صورة جلية للمؤرخ الذى يدرس التاريخ من خلال النصوص التى ترجع الى عصر أو لآخر ٠

وهذه بعض الاعمال التى انجزها فى ميدان التأليف والتحقيق دون الحديث عن مساهمته فى اعادة طبع دائرة المعارف الاسلامية الحديثة ، وعن محاضراته التى يلقيها فى المؤتمرات العالمية فى موسكو ، وفرنسا ، وايطاليا ، وتونس ، ما عدا الجزائر (19) ٠

ونسرد الآن قائمة مؤلفاته دون مراعاة الترتيب الزمنى لها ٠

1) « أوائل تجار العرب الذين سافروا الى الصين لغرض التجارة » ٠

دراسة نشرت لاول مرة بمجلة لفوف البولونية 1936 وتعتبر من أهم الموضوعات التى تجب العناية بها وتوجيه الباحثين اليها ذلك لوفرة المصادر والمراجع فيها ولان تجارة العرب مع الصين ترجع الى عهد قبل الاسلام ٠

ولقد اعتمد المؤلف فى هذه الدراسة على :

1) استخدام النصوص العربية المأخوذة من مظانها كالبلاذرى والدينورى وطبقات المشائخ (مخطوط فى لفوف) وابن خرداذبه ·

2) ذكر اسماء التجار العرب الذين احترفوا التجارة مع الصين فى عصر مبكر جدا ·

3) تصنيف أنواع البضائع التى كان العرب يجلبونها الى الجزيرة العربية ثم الى المغرب ·

4) ذكر وسائل النقل التى كانوا يستعملونها فى اسفارهم الى الصين دون اهمال المحطات والموانىء التجارية التى كانوا يقصدونها لتبادل البضائع أو للاستراحة فيها ·

5) ذكر جميع المصادر العربية والغربية التى اعتمد عليها فى هذا البحث ·

2) « الكتاب العرب فى العصر الوسيط وحديثهم عن العنبر المستورد من بحر البلطيق الى بلاد العرب » (20) ·

من المعروف بداهة ان مادة العنبر الاصفر أو ما يسمى بالكهربا (21) (يضم الراء) كانت ولا تزال من المواد التجارية الهامة فى الغرب والشرق على حد سواء الا ان الحكام العرب بالغوا فى طلبها ودفعوا النفيس من أجل اقتنائها وذلك لما لها من خاصيات على الحالات النفسية فى المرأة خاصة ولقد كانت المنافسة للحصول على هذه البضاعة النفسية شديدة لا من طرف أوروبا فحسب بل وحتى من طرف الحكام العرب فى الشام وبغداد ، لقد كان ولوع الافارقة بالعنبر أكثر ما يكون ولوعا بالتبر والآلى والمرجان كما ان أميرات القصور فى اقطار المملكة الاسلامية والامبراطورية الرومانية كن يغالين فى طلب العنبر وكن يدفعن الثمن اضعاف ثمنه المطلوب ·

والعنبر الاصفر البلطيقى يستخرج من بحر البلطيق بعد ان تكون الامواج قد عقدته والقت به على شواطىء نهر GONIA (المانيا) ومن هنا يجمع ويتوجه به التجار نحو الغرب والمشرق الاسلامى والمغرب والاندلس ·

اما بالنسبة للغرب فيمر عبر بروس وتروسو التى تقع فى مقاطعة البلاق ELBLAG أو البنق ELBING الحديثة شرق دانزق DANZIG الى خليج فنلاندا عن الطريق البحرى صامبى SAMBIE

اما دور التجار العرب فى هذه المادة فهم يلعبون دور الوسيط ، وتستنفذ بغداد والشام والحجاز اكثره بحيث كلما قل عرضه كثر طلبه بالنسبة للتجار المغاربة ولذلك لا يصل العنبر الاصفر البلطيقى الى المغرب والاندلس الا بعد ارتفاع سعره بصورة فاحشة · ولقد اعتمد ط · لفتسكى فى دراسته للموضوع على النصوص العربية القديمة سيما التى لها شبه تخصص فى مضمار التجارة بأصنافها والعملة المتداولة بأنواعها والطرق المسلوكة برا وبحرا ·

ونقتبس الآن نصا واحدا من هذا البحث لتوضيح الفكرة التى يسير عليها ط · لفتسكى فى عمله ·

أقدم نص تشير اليه المصادر هو ليعقوب بن اسحاق الكندى (22) (933 ـ 1048) الذى عاصر

المأمون والمعتصم والمتوكل ، والنص الذى أورده الكندى نقلا عن ابى الريحان البيرونى (23) فى كتابه المسمى « كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر » (24) الذى ألفه ما بين 1040 ـ 1048 ·

والنص الذى اقتبسه ط · لفتسكى هو : (25)

« الكاهربا صمغة كالسندروس من شجرة(25) تنبت ببلاد الصقالبة على شاطىء نهر (26(كل ما سقط منها فى الماء انعقد وجرى الى البحر والقته الامواج الى الساحل وما وقع على الارض لم ينعقد» وهكذا منخلالدراسة ط· لفتسكى لتسعة نصوص فى نفس الحجم والمضمون استطاع ان يقدم لنـــا بحثا قيما مركزا فى 39 صفحة معتذرا فى آخـــر البحث بأن الموضوع يحتاج الى دراسة عميقة على ضوء المخطوطات العربية ، هذا ودون اهمال ذكر اهمية العنبر ودوره فى الطب العربى (27) والذى يهمنا من هذا المثال الذى تعرضنا له بشىء مــن التفصيل هو دور العنبر فى الحركة التجارية بين دول المغرب الوسيط وافريقيا الغربية والوسطى اذ تذكر النصوص المغربية هى الاخرى ان العنبر كان يشكل احدى البضائع الهامة التى يصدرها التجار المغاربة الى سكان السودان حيث انهــم يستعملونه فى عدة امور منها التطيب (وذلــك لكثرة البخارة) والتداوى بل وحتى للسحـــر والتعوذ من الجن وتحنيط الموتى ·

والصلة الوثيقة بين الموضوعين السابقين«التجار العرب الاوائل الى الصين » « وحديث الكتـــاب العرب عن تجارة العنبر وخصائصه » تجرنـــا بطبيعتها الى بحثين آخرين مغربيين لطدوز لفتسكى الاول تحت عنوان :

(تاهرت وعلاقتها التجارية مع السودان الغربى فى نهاية القرن الثامن وبداية التاسع الميلاديين)

والثانى تحت عنوان : (حلقات التاريخالتجارى عبر الصحراء فى العصر الوسيط) نشر البحث الاول فى دفاتر الدراسات الافريقية رقم 8 وقدم كمحاضرة فى المؤتمر الخامسوالعشرينللمستشرقين المنعقد فى موسكو ·

والبحث يضم 23 صفحة مع 92 تعليقا كلهـــا مركزة وغزيرة من حيث قيمتها العلمية وتحقيقاتها المستفيضة ·

والذى نلفت الانتباه اليه عن هذه الدراسـة أمـــور :

1) اعتمد ط · لفتسكى ـ كعادته ـ عـــلى النصوص المغربية المستمدة من المخطوطات ·

2) رد عـــلى الكتاب الغربيين الذيـــن اعتقدوا ـ تعصبا ـ ان العلاقات التجارية بين المغـــرب والسودان لم تعرف طريقها اليه الا فى نهايـــة القرن التاسع وبداية العاشر الميلادى ·

وعلى العكس من هذه النظرية المتأخرة نسبيا ارجع لفتسكى العلاقات التجارية بين المغـــرب والسودان الى القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى أى ان الفارق الزمنى بين ماركروبوفيل وبـــين لفتسكى هو قرن كامل ·

3) عنى لفتسكى عناية خاصة بالاسواق والمدن التجارية فى كل من المغرب والسودان مع تحديد لمواقعها الجغرافية واهمية كل منها بالنسبة للدورة الزمنية حسب فيضانات النيجر وما يتبع ذلك من استخراج التبر بعد انحسار المياه ، وبالنسبة للبضائع التجارية تصديرا واستيرادا ٠

4) ذكر لفتسكى بكل دقة وامانة جميع المصادر العربية والمغربية التى تناولت العلاقات التجارية بين المغرب والسودان ٠

اما البحث الثانى حلقات التاريخ التجارى عبر الصحراء فى العصر الوسيط فقد نشر فى المجلة البولونية لدراسة أخلاق وعادات الشعوب ٠ ج 8 ETNOGRAPHIA POLSKA ٠ 1964

ويتميز هذا المبحث بما يلى :

1) استخدام النصوص المغربية المأخوذة من المخطوطات ثم النصوص العربية فى الدرجةالثانية

2) دراسة الطرقالصحراوية للقوافل التجارية ابتداء من جميع اسواق المغرب سلجماسة تافيلالت فاس ، تاهرت ، بسكرة ، توقورت ، مسيلة ، وارجلان ، بجاية ، القيروان ، توزر جادو بليبيا الى صحراء فزان ، تبستى ، كوار ، أهقار وانبيا ٠ ودائما فىاتجاه السودان، تكرور عبرموريتانيا، أودغشت(29) غانا، كومبى صالح جنوب شرقى تشيت،صنغاى قاو، تادمكت الى مصب نهر النيجر ثم اخيرا تشاد ٠

3) تسمية اغلب التجار والبعثات السياسية (الديبلوماسية) التى قصدت هذه البلدان لغرض التجارة أو السياسة أو حتى المصاهرة (30) مع ملوك السودان الغربى ٠

4) حصر جميع البضائع الواردة والصادرة من الشمال الى السودان او العكس منها (العنبر الذى سبقت الاشارة اليه) ٠

5) بلغ عدد التعاليق على هذا البحث 65 وحوالى 113 مصدرا ما بين غربية وعربية ومغربية ٠

6) وآخر كلمة انهى بها لفتسكى بحثه هذا هى « ولكى نشبع رغبة التعرف على موضوع العلاقات التجارية المغربية والسودانية فى العصر الوسيط فلا تكفى دراسة مختصرة مركزة مثل هذه » ٠

وبمثل هذه العبارة ننهى هذا التقديم الاولى عن البولونيين وتاريخ المغرب الوسيط ونكمل فى بحث قادم دراسة مؤلفات لفتسكى التى تربو على العشرين (31) ٠

هــــوامـــش

1) « المغرب العربي في منظور المؤرخين الاستعماريين » محمد الميلي مجلة الثقافة العدد 12 يناير 1973 حيث اشار الاستاذ اشارة ذكية بارعة الى هذا الموضوع

2) نحن بصدد دراسة شاملة عن « المخطوطات المغربية في المكتبات الاوروبية » والتي ستظهر في حينها

3) مدينة لفوف LWOW تقع على الحدود البولونية الروسية وكانت قبل الحرب العالمية الثانية تابعة لبولونيا الكبرى

4) توجد في الحي الشعبي القسنطيني (سويقة حاليا) زنقة لعمارة التي لا زالت تحمل منذ مطلع هذا القرن الى الآن اســـم (موتيلانسكي) سميت باسمه تخليدا لذكرى وفاته ، الم يحن الحين لاعادة اسم الزنقة الى اسمها الاول الاصيل ؟ علمنا والمقال ماثل للطبع ، وفي ايام زيارة الاخ الرئيس بومدين لمدينة قسنطينة ، ان البلدية قررت الغاء يافطة موتيلانسكي وابدلتها فعلا باسم آخر غير زنقة لعمارة قديما

5) في BCA الجزء 3 ص 15 – 72 – الجزائر

6) خلاصة مركزة في مجلة الدراسات الافريقية رقم 1905،257

7) كتاب الوقف الاباضي وتطبيقاته ط الجزائر 1927

8) رد على « دراسة مارسيل مرسيبه للوقف الاباضي » ط لفوف 1929 ص 14 الفقرة 4

9) نفس المصدر ص 15 الفقرة الاولى السطر السادس

10) هو شرح لكتاب الجهالات الذي الفه ابو اسماعيل البشير المزاتي في الكلام – وتوجد منه نسخة خطية في مجموعة لفوق نقلت الآن من الاتحاد السوفيتي الى مكتبة ط . لفتسكي بولونيا

11) من مواليد وارجلان (وارقلة) في القرن السادس الهجري ، درس في تونس ثم رحل الى المشرق وبعد عودته بدا التدريس والتاليف بمسقط راسه ، وعند زيارة سموقورزفسكي البولوني لهذه المدينة عام 1925 وجد ضريح ابي عمار كما هو وعلى بعد 5 كيلومترات من الشمال الغربي لورقلة

ونشير هنا الى ان لابي عمار مؤلفات وكتبا اخرى ذكرت في عدة مصادر عربية واوروبية

12) مراسلات الاب دي فوكولد تاليف جورج قوري ط . باريس 1936 – 1946

13) تاليف ابي زكريا يحيى بن ابي بكر الوارجلاني (القرن الخامس الهجري 11 م) ومن علماء الطبقـــة العاشرة ، قضى عشر سنوات في تامولاست قرية جبلية في الجنوب الشرقي التونسي حيث درس عى ابي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي ، وفي تماوات (بوارقلة) الف كتابه المذكور ثم توفي فيها حوالي (1110–1111م) 504 هـ

14) الفه ابو العباس احمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف الدرجيني من علماء ليبيا في القرن (6 هـ – 12 م) رجل تشريع وتاريخ ، يرجع نسبه الى تاميجار القرية الواقعة في جبل نفوسة بليبيا ، ونسبته الى درجيني السفلى الجديدة قـرب نفطة بتونس انما بسبب استقرار والده العالم في هذه القرية

15) وهناك تسميات اخرى لهذا المخطوط « فتوح المغرب » تاريخ المغرب او « التاريخ الكبير »

16) في مراسلة له مع ابي اليقظان

17) ذكر المؤلف ابو يعقوب في رسالته « الاقاليم السبعة وخط الاستواء » ما يلي : « وقد وصلت انا بنفسي الى قريب من خط الاستواء وليس بيني وبينه الا مسيرة شهر وكاد ان يستوى الليل والنهار فيه » الدليل ج 3 ص 216

18) رغم تقدم سن ط . لفتسكي فقد ساعدنا مساعدة كبيرة في اعداد الدكتوراه كما انه احسن وفادتنا عند اقامتنا في بولونيا 1965 ، ولقد كان لقاؤنا به مرة اخرى في موريتانيا لغرض البحث ذا اثر كبير في اعداد عمل علمي مشترك سيظهر في حينه

19) وجهت اليه دعوة رسمية للحضور الى الجزائر ولكنها تاجلت على ما يبدو

20) نشر هذا البحث فى المجلة البولونية رقم 4 ـ 1962 ـ ص ـ 1 ـ 140

21) استعمله الكندى الكاهربا والمؤرخون المتاخرون كتبوه : كاربا ، كاهروا ، وقهربا ، واصل الكلمة فارسية كاهرباى او كهرباى فى النصوص البهلوية (قرن 3 ميلادى) اى قبل غزو العرب لدولة الساسا نين . والكلمة مركبة ومعربة عن الفارسية من كاه روبا ومعناها التبن الاخاذ أو « سالب التبن » كما شرحها بالنص الحرفى يوسف بن اسماعيل بن الكبير الخوبى (1311) فى قاموس الادوية المسمى : شرح ما وقع من اسماء الادوية باليونانية والكتاب مخطوط فى مكتبة كامبرج ، ولم يطبع منه جورج الا الجزء المتعلق بالعنبر انظر ص 377 ـ 370

Neue Beiträge (Contribution moderne).

22) ترك الكندى حوالى مائتى نص فى شتى ميادين العلوم

23) انظر حول حياة البيرونى : كراتشكوفسكى فى ا ج ، ع ، صفحة 244 ـ 266 لفتسكى : عالم الصقالبة : صفحة 368 ـ 369 بروكلمان GAL ج 1 ص 475 ـ 476 والتكميل ج 1 ص 870 ـ 875

24) وهناك ترجمة اخرى لعنوان الكتاب « الجواهر والمياه المعدنية » « الجواهر والمعادن السائلة » الاحجار الكريمة المستخرجة من الارض « انظر محمد يحيى هاشمى الذى اختار التسمية الثالثة ط . حيدر آباد 1936 ـ 1937 ص 211 سطر 15 ـ 21 وفى النص الالمانى ط بون 1935 ص 11 ـ 13

Die Quellen des Steinbuches des Beruni (Edi. BONN 1935).

25) السندروس هو صمغ الصنوبر او القلفونية : انظر كتاب « شرح ما وقع من اسماء الادوية » للخوبى (1311) ، كتاب معجم اسماء النباتات الواردة فى تاج العروس ، جمع وتحقيق محمود مصطفى الدمياطى 1966 القاهرة

26) المقصود بالنهر هنا هو الخليج الواقع بالقرب من البلاق الالمانية والذى يؤدى الى بحر البلطيق

27) ذكر ابن بيطار نقلا عن الرازى الطبيب فى كتابه « الشفاء » ان العنبر يستعمل ضد النزيف والاسهال

28) انظر ج ماركار MARQUART فى مجموعة لا نعرف تاريخ نشرها ، وبوفيل E. W. BOWILL فى

The golden trad of the moors. Londres 1958.

29) فى خلال اقامتى بموريتانيا 67 ـ 68 اتصلت بالبعثة الآثارية المشتركة بين موريتانية والسينيغال التى اكتشفت مدينة اودغشت الواقعة بين حدود البلدين ، ومن بين ما عثر عليه فى هذه المدينة الاثرية بعض قبور التجار المغاربة التى يرجع تاريخها الى القرن الثانى الهجرى والتى تضم الاوانى وحتى بعض انواع العملة المغربية التى شاهدت بعضها فى قسم الآثار بجامعة داكار . ولقد جرت العادة فى السودان الوسيط ان يدفن الغريب المجهول الهوية بما معه فى حوزته . انظر : كتاب اودغشت لـ روبير هوجو ودفيز ط . باريس 1970

Robert HUGO et DEVISE ED ARTS et METIERS.

30) محمد بن عرفة سفير الامام افلح الرستمى الى ملك قاو (جوجو فى المخطوطات المغربية) انظر : رسالة بن الصغير المالكى والازهار الرياضية لسليمان البارونى فى (ط . حجرية القاهرة 1904 ص 184 ـ 185)

31) نحن بصدد ترجمة هذه الدراسات الى العربية التى نامل ان تخرج الى القارىء قريبا



واقعة المروحة

نماذج من تشويه بعض المؤرخين الأجانب
لتاريخ الجزائر

محمد الميلي
مدير الاعلام
بوزارة الاعلام والثقافة

مدخل

بعد مضى أحد عشر عاما على استقلال الجزائر، ما تزال تصدر كتابات ودراسات فرنسية مختلفة عن حرب الجزائر ، وهو أمر طبيعي : فقد زلزلت حرب التحرير الجزائرية الامبراطورية الفرنسية ، وأجبرت الاستعمار المباشر فى القارة الافريقية على أن يتحول الى استعمار حديث ٠ واضطرت الاستعماريين الراديكاليين الى تقديم تنازلات كبيرة فى تونس والمغرب ، وتسببت فى سقوط الجمهورية الرابعة وتعريض فرنسا لخطر حكم عسكرى فاشي ٠

ثم ان ارسال المجندين الفرنسيين للمساهمة فى الحرب ، طيلة نحو من سبع سنوات ، وأساليب التقتيل والتدمير وتعميم التعذيب والقمع الوَحشى وتنظيمه ، يعنى أن الشعب الفرنسى قد ساهم ـ من خلال موجات المجندين المتلاحقة ـ فى الحرب وأن هذه قد خلقت آثارا عديدة فى نفسيات أبنائه الذين باشروا الحرب ومارسوا التعذيب ·

من الطبيعى والحالة هذه أن تتوالى الكتابات الفرنسية عن الجزائر · لكن ما يدفع الى التساؤل هو التأويلات التى تعطى للاحداث : فنادرا ما نجد أنفسنا أمام محاولة موضوعية علمية ، بل ان معظم الكتب التى غمرت السوق الفرنسية منذ بضع سنوات ، هى كتابات متحيزة ، متجنية ، تتجاهَل الواقع ، وترفض ـ عمليا ـ التسليم بالمقدمات المنطقية التى تبرهن عليها نتيجة الاستقلال وواقع الثورة ·

فهناك غير واحد من السياسيين الفرنسيين ، ممن عاشوا حرب الجزائر ، من يؤكد ـ الان ـ بأنه كان من الممكن أن تظل الجزائر فرنسية لو··

والواقع أن هذا العمى السياسى يصعب تفسيره بعامل واحد ، انه وليد عدة عوامل يمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا : ان نظرة الفرنسيين الى الجزائر ، ما انفكت منذ الاحتلال فى القرن التاسع عشر ، تخضع لموقف معين من التاريخ ، هو عبارة عن جهل شنيع بتاريخ المنطقة ، ورفض عنيد للتعرف على حقيقة تاريخ المنطقة وحقيقة شعبها ·

فقد استطاع الفرنسيون أن يوهموا أنفسهم بأنهم احتلوا الجزائر كى يطردوا منها الاتراك ، «الذين أخلوا بالامن فى حوض المتوسط» واطلقوا العنان لقراصنتهم ضد دول أروبا وقد استراح الفرنسيون لهذا الوهم الكبير ، فعلى الرغم من ألوان المقاومة الشعبية التى اصطدم بها الاستعمار وعلى رغم عديد الحروب التى نظمت ضدهم فى كامل أنحاء الجزائر ، فقد فضلوا تجاهل الوجود التاريخى لشعب ، وقدموا تفاسير مختلفة لمقاومته مثل «التعصب الدينى» أو «الوحشية الفكرية» ، أو «عدم القابلية للحضارة» الخ ···

وهكذا استراح الاستعمار لنظرية «لا تاريخية الشعب الجزائرى» ، التى تعتبر أن تاريخ الجزائر (الارض) هو سلسلة من الحروب والاحتلالات الاجنبية تعاقب خلالها الرومان والوندال والبيزنطيون والعرب والاتراك ، ثم الفرنسيون· وقد خلقت هذه النظرية آثارا كتابية عديدة ، تركت ولا شك آثارها فى الذهنية الفرنسية ·

العامل الثانى : هو أن الاستعمار بطبعه ، يرفض الرؤية السليمة للتاريخ ، لان هذه تؤدى الى الاعتراف بوجود كيان المستعمر (بالفتح) وبالتالى تفتح المجال لمحاورته ، وهذا ما يتنافى مع طبيعة الاستعمار المباشر الذى يستمد وجوده من تجاهل الاخرين وانكار حق الحياة على غيره من الكيانات ·

ولا شك أن هذا الموقف الاساسى قد ترجم عن نفسه فى الواقع ، كتابات وسلوكا واتجاها طبعت اجيالا من فرنسيى الجزائر ، وفئات واسعة من فرنسيى «المتروبول» ·

العامل الثالث : ان الفرنسى بصفة عامة ، وفرنسى المستعمرات بصفة خاصة ، نرجسى النظرة لنفسه، معجب بذاته ، هائم بكيانه ، لا يتصور أنه يمكن أن يوجد شعب أعرق منه أو يمكن أن يساويه مؤهلات حضارّية ·

وانطلاقا من هذه النرجسية ، يسعى الفرنسي الى فرض الفرنسة على الاخرين ، بل ويعتبر ذلك تفضلا منه وكرما . ولا يستطيع أن يهضم ، كيف ترفض الفرنسة ، وكيف يسمح هؤلاء «البيكو» لانفسهم برفض «الشرف الكبير» الذى اتاحته لهم «فرنسا السخية» .

ولسنا فى حاجة الى الكشف عن النفاق الكامن وراء هذا الموقف ، لان الذى يعنينا هنا هو تفسير العمى السياسى والعلمى الذى تميزت وتتميز به كتابات فرنسية عديدة .

العامل الرابع : الصراع السياسى والاجتماعى بفرنسا اليوم ، يدفع مراكز القوى المتصارعة الى تقديم تبريرات أو تفسيرات ردا على هجوم هذه الجهة أو تلك . وغير خاف أن «خسارة الجزائر» أو «التفريط فيها» (الوصف يختلف باختلاف موقع المهاجم من الخريطة السياسية الفرنسية) يعتبر من المواضيع الحساسة التى لا تتردد هذه الجهة أو تلك فى استعمالها لتعزيز موقعها والنيل من الموقع المضاد .

العامل الخامس : رفض الهزيمة . ذلك أن الاستعماريين الفرنسيين يرفضون الاعتراف بالهزيمة ، فاذا كانت الجزائر تتمتع باستقلال ، فالسبب يرجع الى «ضعف النظام الديغولى» و «تفريطه فى الجزائر» . أو الى «وجود مؤامرة عالمية ساهمت فيها كل من الولايات الامريكية المتحدة والاتحاد السوفياتى» أو بفعل «الطابور الخامس» الذى يعنى عندهم رجال اليسار والمتعاطفين مع كفاح الشعب الجزائرى . وهذا المظهر من مظاهر الرفض للهزيمة ، نجده عند طوائف اليمين المتطرف .

وهناك مظهر آخر لرفض الهزيمة ، هو عبارة عن نوع من «خيبة الامل» ، نجده عند عينات مختلفة من اليسار ، فمعظم ممثلى اليسار بفرنسا أعطوا لحرب التحرير الجزائرية تفسيرات مغرية لكنها فى الواقع غير صحيحة تماما ، لانها تتبع من استقراء الاوضاع الاروبية ، أكثر مما تعتمد على التطور التاريخى لبلادنا .

يضاف الى ذلك أن عدة عناصر من ممثلى اليسار ، قد توهموا أنهم وجدوا ضالتهم المثلى فى حرب الجزائر ، أى أنهم تصوروا أنهم ، مقابل الدعم الذى يولونه للثورة الجزائرية ، سيكون فى امكانهم التاثير عليها ، وتحقيق الكثير مما كانوا يحلمون به عبرها .

لكن تطور الثورة الجزائرية ، خارج الوصاية اليسارية الفرنسية أوجد عند معظم اليساريين نوعا من خيبة الامل وخلف شيئا من المرارة وهذا ما يفسر ذلك الاتجاه الى اصدار كتابات ودراسات غير موضوعية عن الجزائر .

وهذا الوضع هو ما يفسر ، التلاقى أحيانا، بين طوائف اليمين واليسار ، ضد الثورة الجزائرية رغم اختلاف المواقع التى تنطلق منها .

سادسا : ان الفرنسيين ــ والغرب بصفة عامة ــ كان قد تعود على «الشرعية» التى سنها ووضعها هو ، وهى «شرعية» تستند الى أجهزة سياسية وقانونية ودستورية من صنعه ، تتحكم فى توجيه العقليات والافكار .

فى حين أن الثورة الحقة ، سواء كانت بالجزائر أو بفيتنام أو بغيرهما من بلاد العالم الثالث تعنى الخروج على الهياكل التى تستند

اليها الشرعيـة الغـربية ، وتقتضى استبدالهـا بشرعية أخـرى ٠

لتوضيح هذه النفطة ، نسوق مثالا كان وما يزال موضوع نقاش ومثار مجادلات وصراعات لم تقتصر على ميدان الكلام ٠

موضوع التأميمات مثلا ٠ ان اقدام أى بلد من العالم الثالث على استرجاع ثرواته والتحكم فيها ، يكون مصحوبا عادة بـرد فعل عنيف مـن طرف استعمارى الامس ، مثلما شوهد عند تأميم البترول بالجزائر أو تأميم النحاس بالشيلى ٠

فى هذه الحالة ، تتحرك الاجهزة المختلفة ، التى تعتمد عليها «الشرعية الاستعمارية» لتطالب الهلد صاحب الحق فى التأميم ، بتقديم الحساب ٠ ويجد البلـد الذى أمـم شركات استعمارية ظلت طيلة سنوات عديدة تنهب وتستفيد وتحقق تراكما ضخما فى الاربـاح ـ يجد هذا البلد نفسـه فى موضع «المتهم» ويطالبونه بدفع ثمن التأميم ٠ أى أن المضطهدين هم الذين يطالبون بتقديم الحساب للجـلاد ٠

ذلك أن الغرب ، ينطلق فى هذه القضية من مبدأ «الشرعية الاستعمارية» أولا ، ويريد ثـانيا أن يخضع عملية التأميم فى البلد المستقل عنـه ، الى نفس القوانين والاساليب الاجرائية المعمـول بهـا فى بلـده ٠

انه يعتبر وجوده السابق «شرعيا» يخولـه استمرار امتلاك الثروات الاقتصادية والتجارية ، والاستقلال عنده ، انما يضع حدا لسيادة سياسية أما الوضع الاقتصادى فيجب أن يستمر على مـا كـان عليـه ٠

فى هذا الاطار ، يعامـل التأميم فى البلـد المستقل عنه ، نفس معاملته للتأميمات التى تتـم فوق أرضه ٠ فى حـين أن التأميم الذى يتـم فى البلاد الغربية يختلف منطلقا وغاية ٠ فالتأمـيم فى البلاد الغربية ، عملية تفرضها متطلبات فنيـة واقتصاديـة أولا ، وهى ثانيـا تنـال مؤسسات «وطنيـة» ساهمت مساهمة أساسـية فى صنـع الازدهار وتحقيق التصنيع ٠ فالتعويض فى هـذا الاطار ، له ما يبرره ٠

أما البلاد التى عانت من الاستعمار ، فان التأميم يفرضه منطق يختلف كل الاختلاف عـن التأميم فى البلاد الغربية المصنعة : انه يصبـح وسيلـة ضرورية لتحقيق النهوض الاقتصادى ، وفى نفس الوقت الطريقـة الوحيدة لاسترجـاع الثروات الوطنية ووسائل الانتـاج التى تتحكـم فيها مؤسسات رأسمالية أجنبية ٠ وهذه المؤسسات ليس فقط لـم تلعب أى دور ايجـابى فى تطويـر البلاد المستعمرة اقتصاديا ، ولكنها على العكس من ذلك كانت عامل نهب للثروات الوطنية ، لانها كانت تعتبر بلادنا مجرد امتداد جغرافى تعتمده فى تطوير نشاطاتها وتنميـة حجمهـا واسترداد أرباح ضخمة يتم تحويلها الى «الوطن الام» ٠

بـل أن المسؤوليـة الكبيرة التى تتحملهـا الرأسمالية الغربية فى هذا المجال ، لا تتوقف عند حدود النتائج التى تؤدى اليها هذه المقارنة بيـن طبيعة نشاطها فى بلدها الاصلى وطبيعة نشاطها فى المستعمرات ، لان هذيـن الوجهين المختلفيـن للرأسمالية ، بناء وتنمية وتصنيعا هناك ، وتفقيرا واستغلالا ونهبـا هنـا ، يفسران الى حـد كبيـر ظاهـرة «التخلف» ، التى هـى ، نتيجـة لذلك ، ظاهرة حديثة لم يعرفها العالم من قبل فى تاريخه الطويل ٠

تلك أهم العوامل التى تفسر اتجاه الكتابات المعاصرة فى فرنسا الى تشويه الحقائق التاريخية المتصلة بتاريخ الجزائر وبتاريخ الثورة الجزائرية واذا كانت عملية التشويه ، تتم الان ، على مرأى ومسمع من الجيل الذى اضطلع بثورة نوفمبر ، والجزائر مستقلة ، وثورتها تزداد تجذيرا ، فاننا نستطيع أن نستنتج من ذلك مدى التشويه الذى تعرض له تاريخنا خلال الاستعمار ٠

والواقع أنه بالنسبة للكتابات الغربية ، والفرنسية بصفة خاصة ، التى تناولت تاريخنا خلال الاستعمار ، نجد أن هناك عوامل أخرى دفعت مؤرخين غربيين الى تشويه الحقائق التاريخية ، يمكن حوصلتها فى ثلاثة عوامل أساسية :

١ ـ معظم الكتابات التاريخية ، عن الجزائر بأقلام فرنسية ، صدرت بعد الاحتلال الفرنسى للجزائر فى ١٨٣٠ ٠ وكثير من هذه الكتابات صدرت فى نطاق خدمة الاستعمار ٠

يقول ستيفان غزيل فى مقدمة كتاب تاريخ الجزائر ومؤرخوها»

يسطر التاريخ لنا واجباتنا أيضا ٠ (أى بالنسبة للجزائر)، وهى تتمثل فى ارادتنا المصممة على أن نكون أسيادا فى كل مكان والى الابد ، وفى ضرورة اقامة اعمار يستند الى اسكان أروبى قوى فى الريف ، كما يتمثل فى ضرورة تقريب السكان منا ، رغبة وأملا فى تحقيق انصهار على مدى قريب أو بعيد ، ان هذا التاريخ اذن «لا يعتبر فى افريقيا ، هو أقل العلوم جدوى» (١) فستيفان غزيل الذى كان من مؤسسى الدراسات التاريخية الفرنسية بالجزائر ، صريح فى اخضاع علم التاريخ لمتطلبات الاستعمار ٠ ونتأكد من وجود هذا الاتجاه عنده ، من خلال تحليل الجملة الاخيرة من الفقرة التى أوردناها ، فهو قد أحجم عن مناقشة الرأى القائل بأن «التاريخ هو أقل العلوم جدوى» من حيث هو واقتصر على مناقشته فيما يتعلق بتطبيق هذا الرأى على تاريخ المغرب العربى ، انه واضح فى تحميل التاريخ مسؤولية محددة ذات علاقة مباشرة بخدمة الاستعمار والمنطق الذىيتحكم فى هذا الاتجاه ، هو منطق تبرير الاستعمار ٠ لان ازاحة الستار عن حقيقة تاريخ الجزائر والمغرب العربى ، يعنى نسف احدى الدعائم المعنوية الاساسية التى كان يستند اليها الاستعمار الفرنسى ٠

فقد كان هذا الاستعمار فى حاجة الى القول بعدم قابلية الجزائر لان تشكل شعبا أو أمة ، مثلما كان فى حاجة الى انكار أى وجود سابق للجزائر كدولة ٠

لقد كان فى حاجة لذلك كى يقر هذه الفكرة، عند أروبى الجزائر حتى يكونوا أشد اطمئنانا الى وجودهم بالجزائر وأكثر ثقة فى مستقبلهم بها ٠ وكان فى حاجة الى ذلك أيضا كى يخلق الشك عند الجزائريين ٠

فانكار أى وجود تاريخى للجزائر ، دولة أو أمة ، يهدف الى تحقيق هذا الهدف المزدوج : ضمان تكوين فكرى وعقائدى معين لدى أوربى الجزائر ، وزعزعة المعلومات التاريخية عند الجزائريين وتشكيكهم فى تاريخهم ٠

وقد اكتست عملية التشكيك ، تشكيك الجزائريين فى تاريخهم ، طابعا خطيرا ، فزيادة

---

(١) ستيفان غزيل وآخرون

عن تحريف معلومات الكتب المدرسية التى تتصل بتاريخ الجزائر بصفة خاصة وتاريخ العرب والاسلام بصفة عامة ، نجد أن المعلمين الفرنسيين كانوا يروجون خرافات واهية ، تهدف الى دفع الطفل الجزائرى الى القرف من تاريخه وتهيئته نفسيا لان يتقبل الذوبان فى الاستعمار الفرنسى ، ويقبل به قضاء وقدرا لا مندوحة عنه ٠

عديدون هم الجزائريون ، الذين سمعوا فى المدارس الفرنسية ، تلك الصورة التاريخية التى تقول ان سكان الجزائر باعوا مدينتهم مقابل «قصعة زلابية» اعطاها لهم الفرنسيون ٠ وقد كان الكتاب المدرسى الذى يشتمل على هذه الخرافة ، مصحوبا برسوم موضحة ، تبين عددا من الجزائريين تحلقوا حول قصعة زلابية ٠

ان امثال هذه الخرافات ، تصبح مع طول الزمن ، حقيقة مسلما بها فى أوساط الاوروبيين خصوصا اذا عرفنا المستوى الثقافى السطحى الذى كان يطبع أغلبية الفئات الاستعمارية ٠

١ ـ العسكريون والاداريون الفرنسيون هم الذين وضعوا المواد الاولية لكتابة تاريخ الجزائر فى الادب الفرنسى ٠ وفى ذلك ما لا يخفى من تحيز يتنافى مع كل موضوعية ٠ فالعسكرى أو الادارى الفرنسى ، يعتبر كتاباته امتدادا لعمله فى الميدان ، وعمله الاساسى هو الحرب ضد الجزائر وضد كيان شعبها ٠

يضاف الى ذلك أن الفرنسيين بصفة عامة عسكريين كانوا أو اداريين أو غير ذلك ، نظروا الى تاريخ الجزائر من زاوية فرنسية ، فكانت كتاباتهم فى الحقيقة تاريخا للاستعمار الفرنسى من وجهة نظر فرنسية ، ولم تكن تاريخا للجزائر٠

صحيح أن عددا كبيرا من المؤرخين الفرنسيين قد تناولوا بالبحث تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسى ، لكن هذا التناول كان لا يخلو من أحد المآخذ التالية :

أ ـ محاولة تشويه الماضى لا يجاد مبرر ـ قبل الابان ـ للاستعمار الفرنسى الذى جاء بعد ذلك٠

ب ـ التركيز على عهود ما قبل التاريخ وعلى العهد الرومانى ، واهمال العصر الاسلامى ٠

جـ ـ اهمال أو تجاهل المصادر المحلية ، والعربية لتاريخ الجزائر ٠ والنتيجة العملية لكل من المآخذ الثلاث المذكورة ، هى وجود تعريف ما ، متعمدا كان أو غير مقصود ، يقلل من أهمية فترات الاستقلال وعصور السيادة التى عرفتها بلادنا ، قديما وخلال العصور الوسطى ومع مطالع العصر الحديث ٠

٣ ـ يطبق المؤرخون الفرنسيون فى معالجة تاريخ الجزائر والمغرب العربى ، مناهج للبحث والتقييم ، ضبطت فى نطاق أوروبى، لمعالجة التاريخ الاوروبى ، ومن المعروف أن الاطوار التى مرت بها شعوب أوروبا ، تختلف عن الاطوار التى مرت بها الشعوب العربية ، الاسلامية ٠

ومن هنا تأتى معظم الكتابات الفرنسية عن تاريخ الجزائر مطبوعة بهذا الطابع الذى يحكم عليها من الاساس : فالموازين والقواعد التى يقع الاحتكام اليها عادة ، وهى موازين وقواعد استنبطت من التاريخ الاوروبى ، تجعل من يتناول تاريخ الجزائر من الفرنسيين يعمد الى الحكم على تاريخنا بالنسبة لشىء ما ، ولا شك أن تحكيم مثل هذه النسبية المفرطة ، ومثل هذه المقارنة غير الواردة ، لا يمكن الا أن يعطى نتائج غير صحيحة علميا ٠

بل ان هناك مؤرخين فرنسيين قد استغلوا وجود الاستعمار الرومانى فى الماضى ، فأرادوا أن يربطوا بينه وبين الاستعمـــار الفرنسى ، وأن يقفزوا من فوق خمسة عشر قـرنا مـن الزمان ، وصولا الى نتيجة معينة وهى أن الوضع الطبيعى للجزائر هو وجودها فى نطاق أروبى ، وفى حكم التــابع ٠

فستيفان غزيل لا يتردد فى التأكيد على أن الجزائر هى :

«جزء اقتطع تعسفا من أفريقيا الشمالية» (١)

ويردد وليام مارسى صدى هذه الفكـرة ، عندما يكتب مشيرا الى الفتح العربى الاسلامى والى العهد التركى :

«٠٠ فى كلتا الحالتين ، غزا المشرق هذا الجزء من الغــرب» (٢)

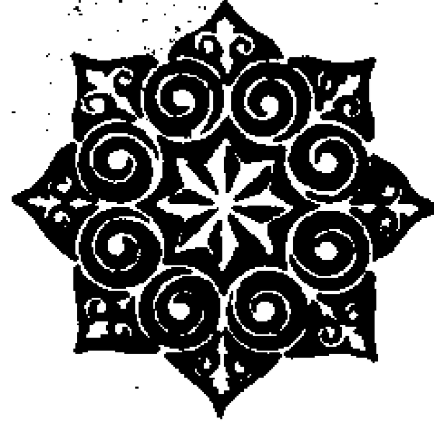
تلك فى رأينــا بعض العوامل الاساسيــة التى تحكمت فى توجيــه كتابات فرنسية عـديدة توجيها مغلوطا ، وتجعلها تسهم ، عــن وعــى أو بغير قصد ، فى تشويه تــاريخ الجزائر القديــم والحديث والمعــاصر ٠

وسوف نتبين فى بحث قــادم ، مــن خلال نماذج مختلفة ، حقيقة هذا التشويه ، الذى شمل كل العصور التاريخية فى بــلادنا ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٢

(٢) نفسه ص ١٣٩ ٠



المجلة التاريخية المغربية

انه لمن دواعي سرورنا أن نعلمكم بانشاء مجلة جديدة تتناول تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر وتحمل العنوان التالي : **المجلة التاريخية المغربية .**

والواقع أن مجلة بهذا الاختصاص عن تاريخ المغرب العربي سوف تسد فراغا كبيرا ؛ هاته المجلة التي نود أن تكون موضع احتكاك حقيقي وفعال لكل المختصين بتاريخ المغرب ، نريد لنفسها أن تكون مجلة علمية بحتة، وسيقوم على تحريرها أساتذة من كلية الآداب والعلوم الانسانية بكل من جامعة تونس والجزائر والمغرب الاقصى ، على أننا ندعو أصدقاءنا غير المغاربة المختصين بتاريخ مغربنا ، الانضمام الينا لنتعاون جميعا ، يحدونا أخلاصنا للعلم وللحقيقة التاريخية المطلقة .

ان الهدف الذى نعمل من اجله ، ونحن الذين نؤمن بالحوار البناء المتفتح ، هو تعزيز البحث العلمي وفتح مجالات جديدة للخلق التاريخي والعمل على كتابة تاريخنا بصورة اكثر وعيا وموضوعية وشمولا ، لنساهم من جانبنا فى توعية الانسان المغربى الجديد وتغذية تطلعه الى ماضيه وايقاظ ضميره الانسانى حتى يواكب متطلبات العصر ، خصوصا وأن المغرب كان قد عرف طوال عصوره ، ترابطا وتلاحما ووحدة فى مصيريته التاريخية .

أن اللغات التى نريدها للمجلة هى العربية والفرنسية والانقليزية ؛ غير أننا لضمان نجاعة احتكاك المؤرخين ذوى الاتجاهات المختلفة بعضهم مع بعض ، ندعو زملائنا الذين يحررون أبحاثهم باللغة العربية ، أن يقدموا لنا موجزا باللغة الفرنسية اذا أمكنهم ذلك ، واذا تعذر عليهم القيام بذلك ، فاننا نرجو منهم أن يوجزوا لنا ابحاثهم فى صفحة واحدة باللغة العربية وسنعمل من جهتنا على ترجمتها الى الفرنسية ، والعكس بالعكس ، كل دراسة بالفرنسية أو الانقليزية سوف ترفق بموجز باللغة العربية .

كما أن هيئة التحرير رأت ضرورة وحتمية الاهتمام بنشر الوثائق التاريخية ، وعليه سوف تخصص المجلة قسما من صفحاتها لنشر الوثائق العربية او الفرنسية والانقليزية .

أما الوثائق بغير هاته اللغات ، فسنعمل على آثبات ترجمتها وهذا من شأنه أن يضفى على المجلة قيمة جديدة ويجعلها أداة عمل لا مناص للباحث والمؤرخ من الاستغناء عنها ، وسوف نركز بالخصوص على المصادر العربية والعثمانية والتى أهملت الى وقت قريب جدا ، ذلك أن واجبنا اليوم هو اثارة الاهتمام لأهمية الوثائق غير الفرنسية لتاريخ مغربنا .

نكتب اليكم لندعوكم الى الانظمام الينا ومشاركتنا عملنا وتعزيز تجربتنا بما توفدوه علينا من دراسات أو وثائق أو تحقيقات وغير ذلك . وسنحاول اصدار عددين أو ثلاثة فى السنة وسنوافيكم بنشرياتنا بانتظام .

هذا هو عنواننا المؤقت : الدكتور عبد الجليل التميمى ، 21 شارع سوفيل ، الوردية ، حى الازدهار ـ تونس ؛ على أمل الاتصال بكم واستلام رد منكم ، تقبلوا صديقنا الاستاذ ، أطيب مشاعرنا الودية .

الهيئة

نظـرة تقييميــة لدراسات تاريخيــة حـديثـة عن حركـات الخـوارج فى المغــرب العـــربى فى العصر الاوسط

د· الحبيب الجنحانى
استاذ بكلية الآداب
جامعة تونس

تهدف هذه الدراسة المتواضعـة الى خدمـة غرضين أساسيين يؤمن بهما كثير من الباحثـين المغاربة المهتمين بالدراسات التاريخية والآثارية اليـــوم :

أولا ــ العمــل على بعث مدرسـة تاريخيـة مغربية لها مميزاتها ، ورؤيتها الحضارية الخاصة كمــا هــو الشــأن بالنسبـة لكثير مـن المدارس التاريخية المعروفة اليوم فى العالم ·

هذا نص موجز للدراسة التى قدمت لندوة تاريخ المغرب العربى المنعقدة بالمركـز الثقافى الدولى فى الحمامات بالجمهورية التونسية من ٢٥ الى ٢٧ ماى ١٩٧٢ · وسننشر الدراسة كاملة فى عدد قادم ·

ثانيا ـ نعتقد أن الخطوة الاولى فى بناء هذه المدرسة تتمثل فى تقييم الدراسات التى ألفت عن عصر من العصور ، أو مسألة معينة فى تاريخ المغرب العربى ٠

وتعد حركات الخوارج ـ دون ريب ـ حلقة أساسية فى تاريخ المغرب الوسيط ، لما كان لها من نتائج خطيرة فى تطور أحداث المغرب خلال فترات طويلة ٠

وسوف تبقى كثير من الاسئلة بدون جواب مالم يتمكن الباحثون من الاجابة عن كثير من نقاط الاستفهام حول ثورات الخوارج ، وحياة مجتمعاتهم بالمغرب ٠ ونلاحظ ، بادىء ذى بدء ، ان الجوانب التى تهمنا فى حركات الخوارج المغربية هى الجوانب التاريخية الحضارية بالدرجة الاولى ، أما الاصول المذهبية فنهتم بها بقدر ما تنير لنا المسائل التاريخية ، والاحداث السياسية فى حياة الحركة ، وتطورها ٠

ان المصادر والمراجع عن تاريخ الخوارج فى بلاد المغرب قسمان :

ـ قسم قديم معروف ، ونعنى هنا كتب التاريخ، والسير ، ومصادر المذهب الفقهية ، وغيرها ٠
ـ وقسم الدراسات الحديثة ، وهى موضوع هذه المحاولة التقييمية ، وقد بدأت تظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ونستطيع تقسيمها الى :

ـ دراسات ايتنوغرافية وبيوغرافية ٠
ـ دراسات جغرافية بشرية (١)
ـ دراسات معمارية ، وهى قليلة (٢)
ـ دراسات اقتصادية واجتماعية ، وهى نادرة ٠

وسنقف فى هذه النظرة التقييمية لدى الدراسات التاريخية ، وهى نفسها قليلة بالنسبة للبحوث ذات الطابع الاتنولوجى ، أو العقائدى ٠

ونذكر هنا أهم الدارسين الاجانب قبل تقييم بعض أعمالهم :

— Pency Badguen ترجم كتاب كشف الغمة لمؤلف مجهول ، استخرج من كتابه تاريخ أيمة عمان

— Emile Masqueray

ترجم القسم الاهم من كتاب «السيرة وأخبار الايمة» لابى زكريا مع تعاليق مفيدة ، الجزائر ١٨٧٨ ٠

— Motylinski : Bibliographie du Mzab. Bulletin de correspondance Africaine.

الجزائر ، ١٨٨٥ ، ج ٣

— Motylinski : Le Djebel Nefousa.

ترجمة نص من البربرية الى الفرنسية مع التعليق عليه ، باريس ١٨٩٨ م ٠

وقد كان Motylinski مترجما عسكريا فى مزاب ، ويقول فى بداية مقاله Bibliographie du Mzab

انه منذ احتلال مزاب سمى فيها ، وأخذ يهتم بالاباضية ويقول : ان دراسة مخطوطات الاباضيين هامة لمعرفة جنس البربر ، ومعرفة شمال افريقيا ٠

— René Basset : Les sanctuaires du Djebel Nefousa, Journal Asiatique.

ماى ـ جوان ، ١٨٩٩ ، جويلية ـ أوت من نفس السنة ·

ودراسة بيليوغرافية كتبها المستشرق الالمانى شاخت بعنوان :

— Bibliothèques et manuscrits abâdites, R. A. 1956 الجزائر ، ١٩٥٦

ونلمح الى دراسات ثانوية قام بها المستشرقان الالمانيان Sachac و Strothman والى أعمال «La Rosa» فى ايطاليا ·

ونذكر الدراسة الفقهية القيمة التالية :

— Marcel MERCIER : Etude sur le waqf abâdite et ses applications au Mzab, 1927. الجزائر

ولا ننسى أعمال المستشرق البولونى «زيقمونت سموقور سفسكى»(Zygmunt Smogorzewski) بالرغم من أنه لم يتمكن من نشر كثير من البحوث، ولكنه جمع مجموعة ذات قيمة من المخطوطات الاباضية فى مكتبة جامعة «لفوف» وتخرج أشهر مختص فى شؤون الاباضية فى المغرب اليوم المستشرق البولونى الاستاذ «تادوش ليفسكى» T. Lewicki

ونشير هنا الى أهم ما نشره ، زيادة عن مقالاته فى دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة

— Les subdivisions de l'Ibâdyya, Studia Islamica, Fasc. 9/1958.

— Ilâditica, Rocgnik Orientalis lycgny.

ج ٢٥ ، العدد الثانى ·

— La répartition géographique des groupements ibâdites dans l'Afrique du Nord au Moyen-Age. 1957 - 21. ج ٢١ ـ ١٩٥٧ نفس المجلة

— Notice sur la chronique ibâdite d'ad-dangini.

نفس المجلة ·

— Un royaume ibâdite peu connu : l'Etat des Banu Marâla (IX[e] siècle).

نفس المجلة ج ١٣ العدد الثانى ١٩٦٨

— Un document ibâdite inédit sur l'émigration des Nafusa du Gabal dans le Sahel Tunisien au III[e] IX[e] siècle.

— Les historiens, biographiques et traditionnistes ibâdites - wahbites de l'Afrique du Nord du VIII[e] au XVI[e] siècle. Krakow, 1962.

— Les Ibâdites en Tunisie au Moyen-âge. رومة ١٩٥٨

— Le pays de Guguaf, Bruxelles, 1970.

— Etudes ibâdites nord-africaines, 1955. فرصوفيا

— Quelques textes, revue des Etudes Islamiques, 1934.

عدد٣

— Une chronique ibâdite. «Kitab as-Siyar». Revue des études Islamiques, 1936, cahier III (3). للشماخب

* *

أما دراسات الباحثين العرب فى المشرق والمغرب فهى قليلة ، واهمها :

ـ أطروحة الاستاذ د· ابراهيم فخار ، عميد كلية الآداب بجامعة قسنطينة (٤)

ـ خصص الاستاذ د· سعد زغلول عبد الحميد فى كتابه «تاريخ المغرب العربى» (القاهرة ١٩٦٥) فصولا قيمة لحركات الخوارج فى المغرب ·

ـ أطروحة د· محمود اسماعيل عبد الرزاق عن «الخوارج فى بلاد المغرب» (٥) ·

ـ وتعرض كل من الاستاذين د· محمد الطالبى فى أطروحته عن امارة الاغالبة ، و د· فرحات

الدشراوى فى اطروحته عن الفاطميين بافريقية الى الخوارج فى المغرب بصفة هامشية(٦) ٠

★ ★

ان جوانب التقييم متعددة ، ولكننى سأقتصر على ذكر نقطة واحدة تستجيب الى رأينا فى ضرورة اعادة التقييم والنظرة لبعث مدرسة تاريخية مغربية ذات رؤية جديدة ، وتتصل بتفسير أسباب هذه الحركات والعوامل التى جعلت الدعوة الخارجية تجد تربة خصبة بين القبائل البربرية بعد اعتناقها الاسلام (٧) ٠

ان الدراسات التاريخية الاجنبية ، ولا سيما ما كتبه «قوتيى» Gautier ، و«جوليان» Julien و «ج٠ مارسى» G. Marçais تركز عن قصد على نقطة حساسة ، وهى أن ثورات الخوارج فى المغرب هى رد فعل من السكان الاصليين ، البربر ضد العرب الفاتحين الذين هم دخلاء على البلاد ، فهى عنصرية جنسية بربرية ضد العنصر العربى الدخيل ، وهى فكرة خاطئة هدفت الى محاولة اثبات رفض السكان الاصليين ، وقد أسلموا ، وحسن اسلامهم ، للعرب الاجانب عن البلاد ، ونلاحظ أن الحديث هنا عن ثورات الخوارج التى اندلعت لاول مرة سنة ١٢٢ هـ ، وليس عن مقاومة القبائل البربرية للجيوش العربية أثناء فترة الفتح ٠

ولكننا نرى أن ثورات البربر ، واعتناقهم لمذهب الخوارج تكمن وراءها أسباب سياسية واجتماعية ، فهى أبعد عن أن تكون عنصرية بربرية ضد عنصرية عربية ، وان برز هذا الجانب فيما بعد ٠

ولكنه برز بصفة عرضية ، وليس له اتصال بالاسباب التاريخية التى جعلت الدعوة تجد تربة خصبة بين البربر المسلمين فى المغرب بصفة خاصة ٠

وهنا نترك النصوص القديمة نفسها توضح هذه الاسباب ٠

يقول ابن الاثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» (ج ٣ ، ص ٩٢ ـ ٩٣) :

«ثم لم يزل أهل افريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم الى زمان هشام بن عبد الملك حتى دب اليهم أهل العراق واستثاروهم فشقوا العصا ، وفرقوا بينهم الى اليوم ، وكانوا يقولون : لا نخالف الائمة بما تجنى العمال ، فقالوا لهم : انما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا : حتى نخبرهم فخرج ميسرة فى بضعة وعشرين رجلا فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الابرش فقالوا : ابلغ أمير المؤمنين ان اميرنا يغزو بنا فاذا غنمنا نفلهم ، ويقول : هذا أخلص لجهادنا ، واذا حاصرنا مدينة قدمنا وأخرهم ، ويقول : هذا ازدياد فى الاجر ، ومثلنا كفى اخوانه ، ثم انهم عمدوا الى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخالها ويطلبون الفراء البيض لامير المؤمنين فيقتلون آلف شاة فى جلد ، فاحتملنا ذلك ، ثم انهم ساموننا ان يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا لن نجد هذا فى الكتاب ولا السنة ونحن المسلمون فأحببنا ان نعلم : أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها الى وزرائه وقالوا : ان سأل عنا امير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا الى افريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على افريقية ، وبلغ الخبر هشاما فسأل عن النفر فعرف أسماءهم فاذا هم الذين صنعو ذلك» ٠

ويقول ابن عذارى فى «البيان المغرب» (ج ١ ص ٥٢) :

« ثم ان عمر بن عبد الله المرادى ، عامل طنجة ومـا والاها ، أساء السيرة وتعدى فى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم فىء المسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وانما كان الولاة يخمسون من لم يجب للاسلام ، فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل فى العباد نعوذ بالله من الظلم الذى هو وبال على أهله» .

* *

ان هذه النصوص التاريخية تبين فى جلاء أن ثورات الخوارج المعتمدة على العصبية القبلية البربرية كانت رد فعل ضد تصرف ممثلى الحكم المركزى فى دمشق اولا ، ثم فى بغداد ثانيا ، وضد معاملة أبعد ما تكون عن المبادىء الاسلامية التى اعتنقها البربر ، وآمنوا بها ايمانا عميقا ابتداء من بداية القرن الثانى للهجرة .

انه من الغريب ـ اذن ـ أن نفسر حركات الخوارج بعد هذه النصوص الواضحة بأنها حركات ضد العنصر العربى الدخيل كما حاول الايهام بذلك بعض المؤرخين الفرنسيين ذوى النزعة الاستعمارية .

هذا نموذج من نماذج كثيرة تجعل الباحثين المغاربة يفكرون فى اعادة التمحيص والنظر ، اعتمادا على المصادر الاصلية ، واستنادا الى المنهجية العلمية الحديثة فى الدراسات التاريخية فى كل ما كتب عن المغرب العربى منذ القرن التاسع عشر ، وهى اللبنة الضرورية الاولى لبعث المدرسة التاريخية المغربية .

التعليقات

١) نذكر على سبيل المثال : Despois

٢) أهمها

— Le Djebel Nefousa.
— Le Djebel Ousselat.

G. MARÇAIS et A. DASSUS — LAMAR : Recherches d'archéologie musulmane : T. HIRT, in R. A., 1946.

٣) ان الدراسات الاجنبية ذات الطابع التاريخى البحث ، فهى قليلة جدا لا تتجاوز فصولا كتبها كل من T. Lewiski, G. Marçais, Julien, Gautier : R. Idris.

٤) هذه الاطروحة لم تنشر لحد الآن ـ حسب علمنا ـ ، ولم نتمكن من الحصول على نسخة مرقونة منها .

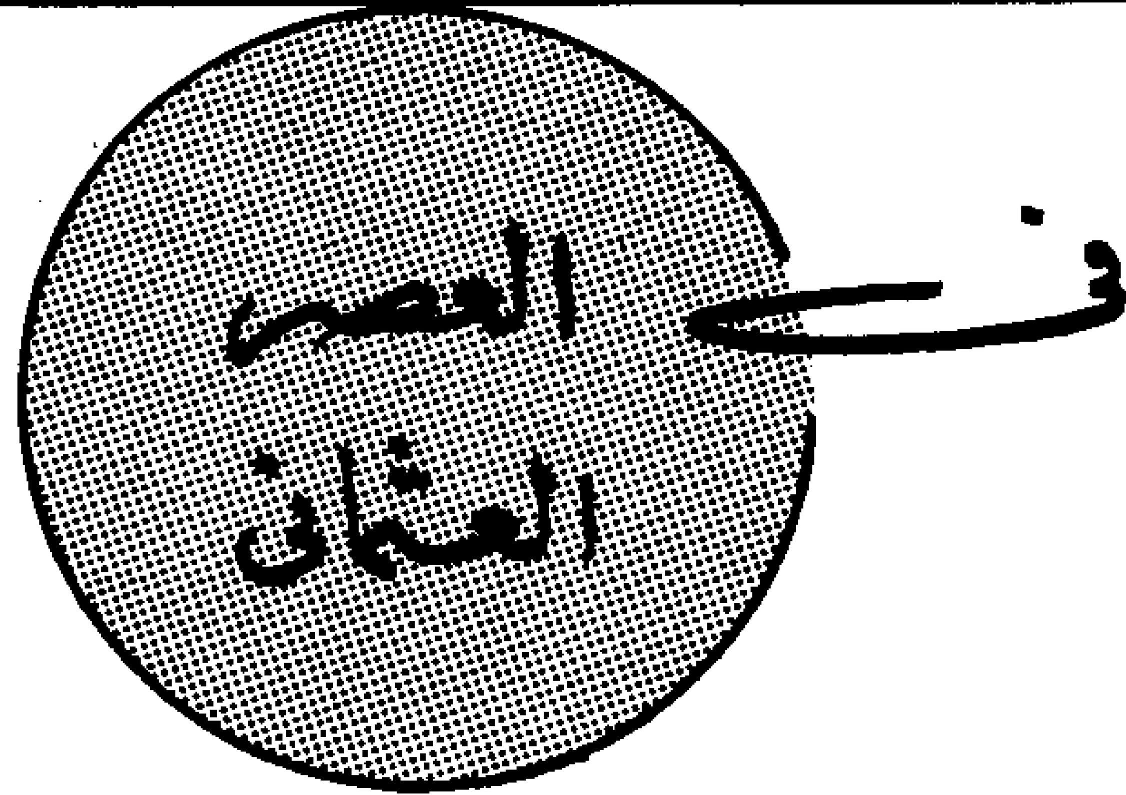
٥) لم تنشر بعد .

٦) نلاحظ أن بحوث الدراسين العرب عن تاريخ حركات الخوارج المغربية ما تزال قليلة بالرغم من أهمية هذه الحركات ، ونتائجها التاريخية .

٧) نلاحظ للقارىء الكريم من جديد أن هذا النص هو اختصار للدراسة الكاملة ، ولهذا اقتصر فى التقييم على ذكر فكرة رئيسية واحدة .

مدافع القصبة بالعاصمة قبيل الاحتلال

المؤرخون الفرنسيون والجزائر



مولاي بلحميسي

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

ما أكثر ما كتب الباحثون أن تاريخ الجزائر التركية مكتوب انطلاقا من مصادر أوربية وفي نظر بعضهم أن تاريخ الجزائر من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر – خلافا لتاريخ العصر الوسيط المغربي – يجب أن يدرس – بصفة رئيسية من خلال ما رواه مراقبون غربيون وبواسطة وثائق تاريخية (أرشيفات) وقد انتقل المغرب الاوسط – الذى يسمى بالجزائر فيما بعد – الى مرحلة جديدة من تاريخه ٠ وصارت الجزائر من ممتلكات العثمانيين طوال ثلاثة قرون٠ وذلك اثر غارات الاسبان ضد المدن الساحلية الرئيسية (المرسى الكبير – وهران وبجاية) ٠

وأصبح التركى هو العدو الالد للاسبان ٠ فان تدخله صد المغاربة عن الخضوع للقوانين الكاثوليكية وصارت للجزائر ، منذ ذلك الحين ، حكومة مركزية فى مدينة الجزائر وادارة اقليمية وتخوم فى الشرق والغرب وأسطول حربى وأصبح للجزائر بصفة خاصة أهمية بالغة فى العلاقات الدولية وتزايدت المعارك بينها وبين أوربا ٠

وحيرت هذه الحقبة التركية أوربا وأثارت ـ لا سيما عند الاسبان ـ اهتماما متزايدا ٠ وكانت من بين الحقب التى أسالت كثيرا من الحبر فى اسبانيا وفرنسا وايطاليا وفى غيرها من البلدان ٠

وفعلا قد أتاحت الحروب والتجارة والتجسس والديبلوماسية وافتداء الاسرى وحب المغامرات لسكان الضفة الاخرى من البحر المتوسط فرصا عديدة للتعرف على المغرب الاوسط أو التأليف فى تاريخه وتفصيل الكلام عن حادثة أو أخرى من الحوادث التى وقعت فيه ٠

ولاجل ذلك كانت الآداب والعلوم الاجتماعية والسياسية جد كثيرة وجد متنوعة ٠

سنقتصر فى هذه الدراسة الموجزة على المصادر الفرنسية

* * *

والى جانب تصانيف وصفية (١) وكتب جغرافية عامة واقليمية للبلاد ، وأدلة عامة وأدلة طرق ومسالك ورحلات برية وبحرية ووصف أقطار اجتازها الكتاب ومدن زاروها وأخلاق وعادات للسكان ٠ يجب اضافة بحوث فى التاريخ العام (٢) تاريخ فترة من الفترات وذكريات وكتب فى دراسات خاصة (٣) وتراجم (٤) ولنشر أيضا الى الدراسات حول السياسة الجزائرية فى هذه الحقبة قد عرض فيها عدة مشاكل : مثل التنظيم الادارى (٥) نظام الحكم التركى (٦) التعمير ، والدين (٧) الطرق الصوفية ، والقبائل (٨) اليهود (٩) والنصارى فى الجزائر والعلاقات مع الدول الاجنبية (١٠) ٠

وهذا الترتيب للكتب وقع وفقا لموضوعاتها الرئيسية ولكن الكتب التى ألفت عن الجزائر لم تنحصر فى أغلب الاحيان داخل نطاق الموضوع المحدد لها تحديدا دقيقا ٠

القيمة الاخبارية لهذه المؤلفات :

وهذه العروض ـ على الرغم من النقص الكثير والاحكام المسبقة الخطيرة التى تشتمل عليها والتى نتعرض لذكرها فيما بعد ـ لاغنى لتاريخ بلدنا عنها لان المصادر الاسلامية فيما يخص هذه الحقبة نادرة وذات رديئة غالبا (١١) فالمصادر التركية التى كانت محط آمال كبار لا تتخطى القرن السابع عشر ٠

والمصادر التى يرجى منها أن تهدى المؤرخ ترقى الى القرن الثامن عشر فحسب ٠ وان جزأ من الوثائق التركية المحفوظة (أرشيف) نشر فى تونس واصطنبول والبندقية ٠ وقد نشرت وثائق تركية خاصة بافريقية الشمالية فى كتاب عزيز سميح التر : «الترك فى افريقية الشمالية(١٢)»وفى المقالات النادرة التى نشرتها مجلة جمعية تاريخ الترك ـ نشرة ـ وتشتمل فى أساسها على سجلات محاسبية ترجع الى ما بعد سنة ١٦٥٠ ٠ واستبطان محتوياتها لا يلقى ضوءا جديدا على حوادث وحياة المغرب الاوسط لان الجندى والضابط من الاوجاق لم يهتما اهتماما ذا خطر بسبب عدم مبالاتهما وأميتهما بتخليد ذكر الحوادث التى شاركا فيهما ٠

أما المصادر العربية المعروفة حتى الآن لا تصلح كأساس لدراسة الحقبة التى تهمنا · فالنصوص نادرة وقليلة القيمة غالبا (١٣) والفنون القريبة من التاريخ نزحت الى تونس وفاس فور وصول الاتراك الى المغرب الاوسط ·

وفن تدوين حوادث التاريخ لم يكن موجودا فى الجزائر فى هذه الحقبة لانه يزدهر فعلا فى حماية الدول فقد اتفق عرش بنى زيان أشرف على الانهيار فى مطلع القرن بينما – بعكس ذلك – مزدهرا فى تونس وفاس (١٤) ذلك ما يزودنا أحيانا – ولا سيما بصفة غير مباشرة – بمعلومات عن طائفة من حوادث المغرب الاوسط ·

والدراسات التاريخية المتخصصة ينبغى أن تقرأ بحذر لانها حررت فى أغلب الاحيان لمجاملة الامراء الحفصيين أو السعديين الذين كانوا طبعا معادين لاتراك الجزائر ·

والرحلات الثرية بتراجم الاولياء جد ضنينة بأى خبر عن حالة البلاد · ودونت على أى حال بزمن طويل بعد النصف الاول من القرن السادس عشر (١٥) ولكن أدب التراجم يسمو على ركام الاثار الادبية فى المغرب الاوسط على أن ازدهاره فى المغرب الاوسط يقل بكثير عن ازدهاره فى المغرب (١٦) ونحن وان اطلعنا على حياة طائفة من المتصوفة المدرسين أو الشراح فى القرن السادس عشر نبقى – بعكس ذلك – جاهلين لحياة الرجال الذين أسهموا فى الحياة السياسية للبلاد وكان الحكام الاتراك أزهد الناس بالايعاز بتدوين مآثرهم · والتاريخ الصرف بمثله – هو ايضا من بين آثار المؤلفين المسلمين فى بلاد البربر ابتداء من القرن السابع عشر – طائفة التأليف لم تخل تماما من كل قيمة ولكننا لم نعد نجد فيها سمو النظر الذى نجده عند المؤرخين الكبار فى العهد الوسيط وبصفة خاصة عند أكبرهم جميعا ابن خلدون · ومؤرخو العصور الحديثة والتاريخ المعاصر يحملون طابع البيئة التى عاشوا فيها · فقد قام لديهم كره غير المسلم الذى يشفعون ذكر اسمه باللعن أو بوصف يشعر بالاحتقار مقام التسامح النسبى لدى مؤرخى العهد الوسيط (١٧)

وهكذا يعكس هؤلاء الكتاب عقلية عصرهم ويقدمون لنا ما يؤيد هذا التحول الكبير (١٨) وقد احتلت الدراسات الدينية – منذ بداية العصور الحديثة – منزلة مرموقة فى قلوب سكان المغرب – « فباستثناء الفنون التى يستعان بها على فهم الدروس الدينية مثل النحو واللغة العربية اللذين لا يتعلم منها فقط الا لقدر الكافى لفهم النصوص الفقهية والدينية ·

وباستثناء علمى البلاغة والمنطق اللذين ينتفع بهما فى خطب الوعظ والارشاد وعلم التوحيد وباستثناء مبادىء الحساب اللازمة لقسم المواريث وعلم الفلك الذى يهدى لمعرفة أوقات العبادة وأدائها جميع النشاطات التى لا صلة لها بالدين والشؤون الالهية تهمل على انها لافائدة فيها أو هى صالحة فقط – مثل الفلسفة – لتشويش الافكار » (١٩) ·

والمجهود الذى بذله المؤرخون الفرنسيون هو ضخم فى الجملة : البحث يحمل طابع الصبر والاناة · وعلى العمل ميسم الضبط والاتقان والتقسيم دقيق ، وهذه الملاحظات هى المزايا الجسمية التى تكتسى بها آثار باحثين مثل مرسيى Mercier وغرامونت Grammont أو ماسون Masson والتى كانت ركائز كتب جديدة فى التاريخ مؤلفة باللغة العربية ·

وكثير من الباحثين أقاموا فى مدينة الجزائر أو طافوا خلال البلاد الجزائرية أو خدموا فى حاشية البايات والدايات (٢٠) وملاحظاتهم مباشرة ومعلوماتهم التى يجودون بها هى جد نفيسة وكان لطائفة من البحاث بعد سنة ١٨٣٠ الفضل فى تعريب تقارير رسمية واست ثمار كثير من الوثائق الاصيلة المتينة المهمة (٢١) وعنيت طائفة منهم بموضوعات جد تقنية وجد مفيدة (٢٢) ٠

ولكن هذه المزايا لا يمكن ان تنسينا الجانب السلبى فى أغلب هذه الآثار وأهمية هذه المصادر وهذه الكتب – فيما يخص الحقبة العثمانية – هى بعيدة كل البعد عن اجماع الباحثين ٠

فقد كتب رن RINN : « ان الوثائق الجيدة التى تخص العهد التركى قليلة ٠ واذا كان ما ملكه منها هو صادق ومثير للفضول ومفيد فلا يكاد يشتمل على شىء من تاريخ العرب والبربر الذين عاشوا خارج الاوليغارشية حكم المستغلين المسيطرين على البلاد » (٢٣) ٠

عندما نبحث الوثائق المكتوبة فى القرنين الثامن والتاسع عشر لا سيما الفرنسية منها نلاحظ أن أوسع اهتمام فيها قصر فعلا فى عهد «البربرسك» على القرصنة وعلى عمليات التلصص فى عرض البحر وعلى استعباد النصارى وعلى اقامة الاسرى الاوربيين فى مدينة الجزائر ٠ وعلى بؤسهم وشقائهم وعلى أوجاعهم والامهم وعلى افتداء الاسرى وعلى جمعيات الافتداء (٢٤) وعلى حياة التجارة (٢٥) وعلى الرهبان المبشرين بالنصرانية وعلى عدم ثبات اصلهم وعلى دور آباء جمعية الثالوث الاقدس وآباء جمعية القديس لازار رواد الكادرينال لا فيجرى » ٠

والعنوان الذى اختاره الاب « دان لكتابه هوذو مغزى : «**تاريخ بلاد البربر وقراصنتها** » ومملكة ومدن الجزائر وتونس وسلا وطرابلس ، حيث يبحث عن حكومتهم وعن أخلاقهم وفساوتهم وعن لصوصياتهم وأسحارهم وعن كثير من خصائصهم الاخرى اللافتة للنظر » ٠

هذا هو تاليف الاب «دان» حامل البكالوريا فى علم اللاهوت ورئيس « دير الثالوث الاقدس لافتداء الاسرى » (٢٦) ٠ والمؤلف الذى أقام فى مدينة الجزائر بين سنتى ١٦٣٤ م ١٦٣٥ قصر أكبر جزء من كتابه على طريقة تسليح القرصنة وعلى خصائص المرتدين والاعلاج و«على العقوبات والمصائب التى يذيقها الترك والمتوحشون للنصارى الذين يستعبدونهم ويقصر ما بقى من كتابه على الحديث عن جمعية الثالوث الاقدس »٠

والموضوعية ليست هى المزية الكبرى فى هذه التآليف والتفاسير فيها هى غالبا مغرضة والحذف من النص مقصود والمعلومات خاطئة ٠

وهؤلاء الباحثون المنتمون الى مختلف الجمعيات الدينية (٢٧) صنفوا كتبا دعائية وكانوا يهدفون بها الى ترغيب أتباعهم فى العطف على الاسرى لجمع موارد مالية ٠

فالمبالغة والقسوة والرعب هى الاشياء الوحيدة التى تستطيع أن تلين القلوب ٠ وكان نشر هذه التصانيف يسمح بأكبر اذاعة لهذه المعلومات الرامية الى تغذية الحقد على المسلمين

لا لارضاء فضول الافكار المتعطشة لمعارف أوسع· ويقع التأثر من المصائب التى يصبها الجزائريون على النصارى لشن حرب صليبية على المسلمين·

والقناصلة الاوربيون (٢٨) الذين كانوا يشغلون مناصبهم فى مدينة الجزائر دونوا ذكرياتهم وقيدوا حوادث ورووا أشياء لها صلة بالمغرب الاوسط ·

حتى كانت طائفة منهم شهدوا معاصرين · وكانوا اذن بصفة عامة على خبرة جيدة بمشاكل عدة ومراسلاتهم وتقاريرهم كانت ذخيرة لا تنفد من المعلومات ·

ولكن كان تأييدهم فى الجملة للحكام الجدد فى دولة الجزائر ضعيفا فاترا ــ ومن جهة أخرى قد قصرت اقامة عدة من القناصلة على مدن سكانهم · وكانوا لا يسافرون أن بالاحرى كما أقل ما كانوا يسافرون · وكانوا لا يعيرون انتباها خاصا للحياة العميقة فى البلاد ·

وفى العاصمة نفسها كان المجتمع الاسلامى سرا مكتوما عنهم · وكانوا يجهلون حياة السكان فى الارياف والحواضر «يشاطرون مواطينهم فى الاقتناع بالآراء المسبقة وفى نظرهم كان سكان المغرب منبعا للمصائب كلها مخادعين كسالى جشعين منكرين للجميل · وباختصار اجتمعت فيهم كل الرذائل ·

والكتب التى ظهرت بعد ١٨٣٠ تكتسى بنزعة أخرى · ولها قيم متفاوتة · اذا كان الباحثون يعتمدون ــ فيما يخص الحقبة الرومانية على المصادر المأذونة فقد راجعوا عن تاريخ العصور العتيقة ذات النصوص لمؤلفين يونان ورومان وان استثمروا فيها يتعلق بالحقبة الاستعمارية عروض وتقارير رسمية ووثائق أخرى فهم حيث أقبلوا على دراسة الحقبة الاسلامية قد واجهوا صعوبات فى تفهم النصوص العربية فى التاريخ أو الجغرافية وحكموا عليها بأنها تكاد تكون كلها دائما «غير دقيقة وتترك حيزا فسيحا للافتراض» وقد ظهرت لهم أسماء الاسر منفرة والحوادث «تحولات مستمرة لتاريخ يتألف ويتفكك باستمرار» (ج· مارسى) ·

وما أقل عدد المؤرخين الذين كانوا يقرأون العربية بسهولة ويفهمون دقائقها وصيغ تراكيبها أو صورها · والى جانب أعمال متينة نجد كتبا تهدف الى التعميم الشعبى ولاصلة لها البتة بالتاريخ العلمى (٢٩) بل كانت الغاية منها الحصول على الاعجاب أو كانت كتبا موجزة تحشر كل الحوادث فى تاريخ بلد فى أقل من مائتى صفحة (٣٠) أو كانت أنواعا من القوائم الفهارس تسرد حوادث بدون أى بيان أو تفسير (٣١) ·

ويصير هكذا تاريخ الحقبة التركية عبارة عن نظرة موجزة ينتقل منها الباحث بسرعة الى اعتداء ١٨٣٠ (٣٢) ·

لنطالع كتاب ل· قاليبرت :

« البلاد الجزائرية القديمة والحديثة » (باريس ١٨٤٤ ، اكثر من ٦٣٩ صفحة) وصف البلاد وتاريخها منذ العصور العتيقة حتى سنة ١٨٣٠ يقفان فى صفحة ٢٤٩ وكل ما بقى من الكتاب مقصور على السيطرة الفرنسية · النزعة الخيالية ونزعت الكلف بالاخبار العجيبة تختلطان بالتاريخ الصرف (٣٣) ·

والبحث ــ بعكس ذلك ــ منفر أحيانا لان القارىء لا يجد أمامه الاقساوات رانقلابات

وحروبا ممتدة على قرون وسيطرة الكبير على الصغير . لا تقدم ولا حضارة والا أكمال بشرية بناءة . هذه هى الانطباعات عند قراءة كتاب الجنرال فون بيقيت (٣٤) .

وقد تعرض بايجاز عدة جوانب من الحياة الجزائرية قبل ١٨٣٠ - يحاول دوبوا فونتانيل (جوزيف قاسبار) أن يعرضها (٣٥) فى ٦٠ صفحة من الجزء الرابع من كتابه .

وذلك نوع من تاريخ الجزائر فى شكل سرد أحداث يحكم عليها بأنها رئيسية منذ القرن السادس عشر ورواية طائفة من النوادر . تعدى الدايات على سلطة الباشاوات الممثلين للسلطان ونقص مواز لسلطة الباب فى مدينة الجزائر واثراء عجيب يحظى به أسير مسكين كان من قبل تعيسا قلما يرتد ويصير قرصانا ثم باشا طرابلس ثم باشا مدينة الجزائر والغارات الرئيسية من قبل الدول الغربية على مدينة الجزائر .

هذه الثروة وهذا التنوع فى الموضوعات المعالجة يفسرها أن أروبا تكتشف المغرب منذ القرن السادس عشر بسبب حقبة مضطربة ساعدت على وضع المشاريع الضخمة فهناك روح غزو عالمى وعسكرى وتجارى وفكرى يحرك نفوس الاوربيين . فالاسفار البعيدة والاكتشاف لاراض جديدة ولشعوب مجهولة كان لزاما أن يؤدى كل ذلك الى توسيع هائل للبحث التاريخى ، وباستثناء تذوق الاخبار العجيبة والخارقة ، نجد أن الموضوعات الكبيرة فى تاريخ الجزائر قبل ١٨٣٠ هى مآسى الاسر والحملات ضد الاتراك .

أما أسرى المسلمين الذين أخذوا فى البحر وبيعوا فى « ليفورن » بصفة خاصة فلا يوجد له صدى وأيضا . وكثير من المؤرخين يستولى عليهم التفكير فى قوة الجزائر والرغبة فى ذكر «كهف اللصوص» ويحلمون بشن غارة حاسمة ضد الجزائر .

وكان التعصب فى نظرهم قوة من قوى الايمان . فهم يحكمون على الاسلام وفق أفكار مسلمة لديهم هذا دين عندهم خاطىء .. فمن جاءوا من أوربا واعتنقوا الاسلام خائنون ... والردة لا تغتفر حتى اغراء المنفعة لا يمكن أن يعد عذرا لها «لان أكبر خطيئة يرتكبها مسيحى هى العدول عن دينه »

وقد تحددت فى أوربا فى القرن التاسع عشر فقط النقد للمنهجية التاريخية . وان طائفة من الاخصائيين فى تاريخ المغرب بدأوا يجمعون المصادر ويقارنون بعضها ببعض ، ويعرضون أبحاث تركيب ناجحة الى حد ما وهى - على ما فيها من نقض وتوجيهات معينة تحدثنا عنها من قبل - تعد مشاركة ضرورية لمعرفة ماضينا . ونحن لسنا ملزمين برفض أو قبول كل شىء كتبوه بل ينبغى أن ننتفع بجد من هذه الاعمال التى تستحق طائفة منها ، قليلة مع الاسف أن تعرف لصالح الباحثين .

تقـاييد ومـراجع

– راجع كتاب :

(1) *Ch. Taillard* ; L'Algérie dans la littérature française,essai de bibliographie méthodique et raisonnée jusqu'en 1924, Paris 1925 pp. 79-160.

– نذكر من بين الكتب العـامة :

(2) *Bardon (X)* ; "Histoire nationale de l'Algérie" (Paris 1886 428 p.)

– الباب الاول : تايخ الجزائر العام ، المناخ ، الحيوانات ، السكان، النواحى الادارية ، الدين، الضرائب العوائد ٠

– الباب الثانى : الفرنسيون فى الجزائر ٠

– الباب الثالث : مستقبل الجزائر ٠

Berbrugger ; "Les époques militaires de la Grande Kabylie" (Alger 1857).

Cat (E) ; "Petite histoire de l'Algérie, Tunisie, Maroc". (Alger 2 V. 1888-1891).

Clausolles (P) ; "L'Algérie pittoresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours..." (Paris 1843 2 V.).

Galibert (L) ; L'Algérie ancienne et moderne (Paris 1844) :

من صفحة ١ الى ٢٤٩ : الجزائر من أقدم العصور الى ١٨٣٠ ٠ وخصص ثلثا الكتـاب الى الاحتـلال الفرنسى وتقدم الاستيطان الفرنسى ٠

Garrot (H) ; "Histoire générale de l'Algérie" (Alger 1910). (Sorte de répertoire, une compilation...)

Mercier (E) ; "Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés à la conquête française (1830). (Paris 1888-1890 3V.)

Faure Biguet ; (le général) "Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane" (Paris 1905 458 p.).

(3) *Peste Maldjoglon* ; Mers Al Kébir, historique et description... (R.A. 1942).

Troussel ; Kalaa des Beni Rached (B.S.G.O. 1927).

Mac Carty ; Constantine.

Leclerc ; Koukou, ancienne capitale de la Kabylie (R.A. 1857).

Féraud ; Documents pour servir à l'histoire de Bône (R.A. T. XVII).

Galland (Ch. A) ; Bougie 1895.

Féraud (Ch.) ; Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Djijelli, Philippeville, Bône, Touggourt (Constantine 1864-1888).

Bel (A) ; Histoire de Tlemcen.

(4) *Devoulx (A)* ; Le Raïs Hamidou. Notice biographique sur le plus célèbre corsaire algérien du XVIIIème siècle (Alger 1852).

Ibid ; Le Raïs Hadj M'barek (R.A. 1876).

(5) *Devoulx (A)* ; Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger. (Alger 1852 99 p.).

(6) *Rocqueville (le sieur de)* ; "Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger" (Paris 1675 - 112 p.).

هو وصف لمدينة الجزائر ولحفلات الزواج بالمدينة واستعراض للمصالح الحكومية والادارية وذكر لمختلف أنواع العذاب الذى يتعرض له الاسرى النصارى ووصف للصلوات ولرمضان ...

(7) *Bel (A)* ; La Religion Musulmane en Berbérie T.I. (Paris 1938).

Boyer (P) ; La politique religieuse des Turcs (Revue l'Occident Musulman et de la Méditerranée N° I, 1966).

(8) *Gourgeot* ; Les Beni Amer (R.A. 1857).

Féraud ; Notices sur les tribus de la Province de Constantine.

Noël ; Documents pour servir à l'histoire des Hmiyan B.S.G.A.O. 1915 - 1916 - 1917.

(9) *Eisenbeth (M)* ; Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque 1516-1830. (R.A. 1952).

Cahen (Ab) ; L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger (1509-1830) Paris 1904.

Dupuy (E) ; Américains et Barbaresques 1776-1824 (Paris 1910).

Watbled (E) ; La France et les Barbaresques au XVIIè siècle. (Nouvelle revue 1893 T. 84) - p. 368-388.

Grammont (H. de) ; Relation entre la France et la Régence d'Alger au XVIIè siècle (R.A. 1879).

Playfair (R.L.) ; Episode de l'histoire des relations de la Grande Bretagne avec les Etats Barbaresques avant la conquête française (R.A. 1878 - 1879 - 1880).

(11) *Montran (R)* ; Les données de l'Histoire Moderne et contemporaines de l'Algérie et de la Tunisie. (Annales de l'Afrique du Nord 1962 - p. 243-248).

(12) 2 V. Istambul 1936-1937.

(13) *R. Mantran* ; Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie (Annales de l'Afrique du Nord, 1962 pages 243-248).

(14) *L. Provençal* ; Les historiens des Chorfas, Paris, 1922.

(15) – راجـــع أشهرها رحلة التمقروتى (القرن١٦) والعياشى (القرن ١٧) والورثلانى (القرن ١٨) .

(16) – ولا يستحق الذكر الا كتاب البستان ... لابن مريم مع ما فيه من نقص وقلة المعلومات التاريخية

(17) اتهم الغربيون المصادر الاسلامية بالتحيز وكأن التحيز خاص بالمسلمين دون سواهم . ولم يكتب التاريخ فى أوروبا على أسس علمية وبشبه موضوعية الا فى اواخر القرن التاسع عشر .

(18) *A. Bel* ; La religion musulmane en Berbérie. Paris, 1938, Page 376.

(19) *A. Bel* ; La religion musulmane en Berbérie. Paris, 1938, Page 374.

(20) *Shaw* ; "Voyage dans la Régence d'Alger" édité en 1775.

Thédénat ; "Les aventures de Thédénat esclave et ministre du Bey de Mascara".

وهى مذكرات قيدها الفرنسى الذى وقع فى قبضة المسلمين وأصبح فى خدمة الباى محمد الكبير راجع المجلة الافريقية سنة ١٩٤٨ .

Venture de Paradis ; Alger au XVIIIè siècle (R.A. 1895 - 1896 - 1897).

(21) *Berbrugger* ; La prise de Mers-El-Kébir par les Espagnols en 1505.
Elie de la Primaudaie ; Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique, 1506-1574. (R.A. 1875-1877).

Ricard (R) ; Textes espagnols sur la Berbérie (XVè - XVIè - XVIIè siècles) (R.A. 1945).

(22) *Devoulx (A)* ; Un exploit des Algériens en 1802 (R.A. 1865).
Ibid ; La Marine de la Régence d'Alger (R.A. 1869).
Lacour (A) ; La Marine de la Régence d'Alger avant la conquête (Alger 1835).
Lacoste (L) ; La Marine Algérienne sous les Turcs (l'Amirauté d'Alger à travers l'histoire) (R. Maritime 1931).

(23) *Rinn* ; Bulletin de la société de géographie d'Alger 1903.

(24) *Aranda (Emmanuel d')* ; Relation de la captivité (Paris 1657, 2 parties).
Berbrugger ; Voies et moyens du rachat des captifs chrétiens dans les Etats barbaresques (R.A. 1867).
Busnot (le père Dominique) ; La Tradition de l'Eglise dans le soulagement et le rachat des esclaves (Rouen 1714 - 278 p.)

Pavy ; La piraterie barbaresque, (R.A. 1857).

(25) *Blavin* ; "La condition de la vie des Français dans la régence d'Alger". (Alger 1899, 104 p.).

(26) Paris 1637.

(27) *Godard (l'Abbé)* ; (Ancien curé de Laghouat)."Les soirées algériennes, corsaires esclaves et martyrs de Barbarie" (Tours 1857, 236 p.)

هى سلسلة من الاخبار ترجع الى العهد العثمانى بالجزائر : المسلمون الذين طردوا مـن الاندلس ـ الاتراك ـ القراصنة ـ الاعلاج ـ هروب الاسرى ، المفاداة ـ الاباء العازرين ·

Godefron, Cornelin et la Motte (les pères) ;
"Etat des royaumes de Barbarie, Tripoli , Tunis et Alger, contenant l'histoire naturelle et politique de ces pays, la manière ou les Turcs y traitent les esclaves comme on les rachète et diverses aventures curieuses" (Rouen 1731 263 p.).
("L'état chrétien politique du royaume d'Alger, description de Bône séjour à Alger (1700) avec la narration des pourparlers").

(28) *Grammont (H. de)* ; Correspondance des consuls d'Alger (1600-1742) (Paris 1890 - 293 p.)
Plantet (E) ; Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France (1577-1830) (Paris 1893-1894 - 2 V. 654-784).
Arvieux (Chevalier d') ; Mémoires... (Paris 6 V.) La narration de son voyage à Alger se trouve dans le T. V, il y séjourna en 1674).

Berbrugger ; Un consul à Alger au XVIII (R.A. 1862) il s'agit de Bruce, consul d'Angleterre).
Devoulx (A) ; Les archives du consulat général de France à Alger (S.D. 152 p.).

(29) *Clausolles (P)* ; "L'Algérie pittoresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours... (Paris 1843 - 2 V.).

(30) *Filias (Ach)* ; L'Algérie ancienne et nouvelle. (Paris 1875 - 192 p.) "Une sorte de vade-mécum pour gens cultivés".

(31) *Garrot (H)* ; "Histoire générale de l'Algérie" (Alger 1910 - 1189 p.).

(32) *Vinchon (Le Baron de)* ; "Histoire de l'Algérie et des autres Etats barbaresques jusqu'à nos jours" (Paris 1839 - 316 p.).

(33) *Farine (Ch)* ; Deux pirates au XVIè siècle, histoire de Barberousse. (Paris 1869 - 377 p.).

(34) Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane (Paris 1905 - 458 p.).

(35) "Anecdotes africaines depuis l'origine ou la découverte des différents royaumes qui composent l'Afrique jusqu'à nos jours" (Paris 1775 - 8 T. en 1 V.).

كلمة مقتضبة

لتطهير تاريخ الجزائر

من الشوائب الإستعمارية

شارل روبير آجرون

مؤرخ فرنسى

للجزائريين الحق كل الحق فى التشكى من بعض المؤرخين الاجانب الذين لم يكونوا منصفين فى دراستهم لتاريخ الجزائر ، اما لغرض فى أنفسهم ، أو بسبب جهلهم لحقائق الامور • ونذهب الى ابعد من هذا فنقول بأن النظرة الاستعمارية كثيرا ما أوقعت فى ضلال مبين بعض المؤرخين سواء النزهاء منهم او المغرضين • ولهذا ، فان تطهير التاريخ الجزائرى من الشوائب الاستعمارية أصبح من أوكد الواجبات بالنسبة الى كل من يبحث عن الحقيقة التاريخية الناصعة ، سواء كان أوروبيا أو من أبناء المغرب العربى •

وبما انني قمت ببحث جامعي لم ينشر الى حد اليوم ـ وكان الغرض منه نفي الطابع الاستعماري عن سياسة الجنرال برتوزين بالجزائر عام 1831 ـ فانني أسمح لنفسي بأن أسوق مثالا عن أحد المؤرخين المزيفين الذين كتبوا عن تلك الفترة ، ومن الجدير بالذكر ان نظرات هذا المؤرخ ظلت مدة طويلة من الزمان تعتبر مرجعا أساسيا ، وأعني به « فيكتور ديمونتيس Victor Demontès الذي سوف اقتصر هنا على دراسة كتاب له يدعى أنه « كتاب علمي » ، وهذا الكتاب هو أطروحته التكميلية في الآداب التي عنوانها : « ادعاءات الجنرال برتوزين ضد سياسة الاستعمار في بلاد الجزائر » ، وهو منشور في الجزائر عام 1918 ، ويقع في 311 صفحة ·

ففي هذا الكتاب نلاحظ ان فيكتور ديمونتيس يتحامل بصريح العبارة ضد الجنرال برتوزين ، حاكم الجزائر بالوكالة ، والقائد العام لجيش الاحتلال الفرنسي في مدينة الجزائر · ولم يقتصر على هذا ، بل أخذ في كتابه يتهجم تهجما شديدا على هذا الرجل حتى ينال منه ويحطمه ، فوصفه بأنه « يناهض الاستعمار ، ويقف موقفا معاديا لمشروع الاحتلال » ، ولذلك ، فقد استنكر بشدة سياسته « المتسمة بالمجاملة تجاه الاهالي ، وبعدم الثقة تجاه الاوروبيين » · ويرى ان الجنرال برتوزين «هو المسؤول عن ضياع عشر سنوات في عملية اخضاع الجزائر للاستعمار » ، وعقد مقارنة غريبة بين هذا الانسان المناهض للاستعمار ، وبين بطله المفضل ، الجنرال كلوزيل « المخلص لسياسة الاستعمار » · وقد كتب يقول بأن المسألة ليست مجرد اختلاف بين رجلين ، « بل هي اختلاف بين نظامين » ·

ان هذه الاحكام المغرضة ، وهذه الطريقة التعسفية في كتابة التاريخ ، تبعث في حد ذاتها على الاسف الشديد ، فما من مؤرخ الا ويعرف أن الحقائق التي يتوصل اليها تقريبية لا يقينية ، وان اسلوب الحكم في مجال التاريخ هو الاحتمال · وانه يجدر بالمؤرخ النزيه أن لا يطلق أحكاما حاسمة · على أن هناك ما هو أدهى وأمر ، اذا نظرنا الى المعيار الذي استند اليه هذا المؤرخ المزيف ·

كان الوهراني ديمونتيس يرى ان الوطنيين الفرنسيين الحقيقيين هم المعمرون Colonistes (وهي التسمية التي كانت تطلق عليهم عام 1831) ، والمؤيدون لسياسة اسكان الجزائر · اما من يعارض هذه السياسة فهو في نظره خائن ، حتى ولو كانت له أسباب سياسية تبرر موقفه ·

ولا شك ان الكثير من الفرنسيين ، وخاصة الاوروبيين المقيمين في الجزائر ، كانوا يشاطرون ديمونتيس مبدأه السقيم هذا · ومن الجدير بالذكر ان كل من يقصر في كيل الثناء ودفع الاموال للمعمرين ، كان يعتبر في بداية هذا القرن خائنا · وكان من تسول له نفسه ان يكتب كلمة للدفاع عن حقوق الاهالي المسلمين الجزائريين كان يعتبر « متأثرا بالبرنوس » · ونشير هنا الى ان ايدوار كاط ، كان قد ألف بين 1889 و 1891

كتابا عنوانه : « مختصر تاريخ الجزائر
une petite histoire de l'Algérie
في جزءين . وقد استفاد منه ديمونتيس نفسه وكذلك أوغسطان بيرنار . ان حكم هذا المؤلف على برتوزين شبيه بالحكم السابق ، لانه اعتمد فيه على نفس المبدأ . فقد كتب يقول : « ان حماقته هي السبب في الصعوبات التي واجهتها عملية الاحتلال فيما بعد » . وقد أنكر عليه تسامحه (لانه لم يتصرف تصرفا حازما مع الاهالي العرب) كما انكر عليه سرعة تصديقه (لانه ألقى آذانا صاغية « للنصائح المغرضة » التي قدمها اليه الاهالي في الجزائر ، وخاصة ابو ضربة وحمدان ابن عثمان خوجة) .

وقد عاد ديمونتيس الى نفس هذه الانتقادات ليدين بها برتوزين وليدعم بها نظريته السقيمة ، ولذلك يقول : لئن تخلى برتوزين عن فكرة احتلال المنطقة التي كانت تسمى « سهل المتيجة الموبوء » لما فيها من مستنقعات ،فلأنه أراد بذلك ان يعاكس الحكم السابق كلوزيل بايعاز من الاهالي العرب الذين كانوا يملكون اراضي شاسعة في المتيجة ». ومما كتبه في هذا الموضوع : «بذل الجنرال برتوزين كل ما استطاع من جهد لتحويل تيار الهجرة عن هذه المنطقة ، عملا بنصائح الاهالي المغرضة » ، الا انه لم يقدم أية حجة لتدعيم هذا الحكم التعسفي . أما بالنسبة الى اتهام برتوزين بمعاكسة الجنرال كلوزيل ، فلا يمكن تصور ذلك الا اذا كانت معاكسته مسبقة ، لان الجنرال كلوزيل لم يكشف عن خطته لاحتلال المتيجة الا عام 1833 ، على أن الجناية العظمى التي ارتكبها برتوزين في نظر ديمونتيس وايدوار كاط ، هي انه اتخذ قراره « بناء على ما سمعه من الاهالي من آراء حول الاوبئة المتفشية في سهل المتيجة ، فما كان منه الا ان صدق أقوالهم » .

وهنا يكشف لنا ديمونتيس عن معيار آخر في الحكم لا يليق بعالم يدعي بأنه يلتزم الموضوعية في البحث : فقد أدان برتوزين لا لشيء سوى لانه لم يتردد في استشارة الاعيان الجزائريين ، ولانه عاملهم بكل احترام ، ولانه « سارع الى تصديق ما سمعه من الاهالي العرب » . وباختصار فان هذا « المثقف » كان يتميز حقدا وغيظا ، كما هو شأن كل معمر . وقد ادعى ان قصده من تأليف كتابه هو النقد النزيه . والحقيقة انه لم يكن يرمي الى الكشف عن شخصية برتوزين وحكومته ، بقدر ما كان يرمي الى اقامة الدليل مرة أخرى – وخاصة في سنتي 1917 – 1918 ، حيث كانت السلطات الفرنسية تستعد لمنح الجزائريين بعض الحقوق التي وعدتهم بها عام 1914 – على انه لابد من استعمال سياسة الحزم تجاه حركة الشبان الجزائريين .

وقد كان هذا الاستاذ يعتقد دائما في قرارة نفسه بأنه مجند للدفاع عن « الجزائر الفرنسية » فظل طوال حياته يطبق ، كمؤرخ ، مفهومه الغريب عن التاريخ ، ذلك المفهوم الذي وصفه فوستال دي كولانج
Fustel de Coulanges
بأنه « سطحي » ، وهو مفهوم يحط من قدر التاريخ ، وينزل به الى مستوى الدعاية المغرضة. ومن المعروف انديمونتيس كان – بصفته صحافيا وكاتبا – يدافع بمنتهى الحماس عن وجهة نظر

المعمرين الفرنسيين فى النشرية التى كانت لجنة افريقيا الفرنسية تصدرها . على انه لم يكن احد يتصور بأن تحيزه سوف يؤدى به الى تسخير البحث العلمى للدعاية الاستعمارية . وهذا الموقف من شأنه ان يخرجه نهائيا من زمرة المؤرخين .

فلا نستغرب بعد هذا ان تعمد الحكومة العامة للجزائر الى مكافأة هذا الداعية النشيط على خدماته الجليلة . وقد بذلت هذه الجهة الرسمية كل ما وسعها من جهد لتعيينه استاذا فى الكوليج دى فرانس ، فلما اخفقت مساعيها ، « عينته مدرسا chargé de cours يلقى محاضرات عن شمال افريقيا ، علما بان النفقة المترتبة على هذا المنصب معتمدة فى ميزانية الجزائر . فهل نستغرب بعد هذا ان يتفانى فى الدفاع عن المعمرين ؟

رأيت لزاما على نفسى ، بعد ما اطلعت على ادانة الجنرال برتوزين ، بهذه الطريقة التعسفية المتسرعة ، من طرف شخص يدعى العلم ، رأيت لزاما على نفسى ان أعود الى الموضوع من اساسه وان أنظر فى الوثائق التى نشرها ديمونتيس ، وعددها 121 وثيقة . ولا يتسع المقام هنا لشرح النتائج المفصلة التى توصلت اليها فى التحقيق ، أما بالنسبة الى النتائج المتعلقة بشخصية الجنرال برتوزين الذى اعتقد جازما بأنه حاكم ميال للاهالى العرب ، فانها تشرف هذا الانسان النزيه الذى لم يعرفه الناس على حقيقته . كان مفوض الشرطة دوبيكنوسك d'Aubignosc يصف الجنرال برتوزين بالجنرال النزيه . فالاستقامة المتناهية التى كان يتحلى بها هى التى جعلته يتولى الدفاع عن الجزائريين . ولا شك انه ــ وهو القائدالمنتصر فى معركة الاسطى وعلى STAOUELI كان معجبا غاية الاعجاب بالجزائر « التى هىاجمل بلد رأيته ، بل هى أجمل بكثير من ايطاليا » . وكان همه الوحيد هو المحافظة على سمعة فرنسا لدى الجزائريين ، بممارسة حكم يتسم بالعدل والانصاف . ان هذا القائد العسكرى الذى كان على رأس الحرس الامبراطورى فى حملة نابليون على روسيا ، لم يتردد فى التفاوض مع مرابط القليعة (شيخها) سيدى على مبارك . ان هذا التصرف الذى استاءله ديمونتيس يعد فى الحقيقة تصرفا طبيعيا جدا . فقد كان الجنرال برتوزين يرى بأنه لا يمكن « ان تسند ادارة شؤون بلدة أهاليها مسلمون ، الى شخص أوروبى يجهل تمام الجهل قوانينهم وتقاليدهم ولغتهم ومصالحهم وحاجياتهم » . وكان يرى انه لابد لمن شاء ان يبسط سلطانه على قبائل لا يعرف طبائع أهلها ، أن يستعين بوسطاء يتم اختيارهم من بين السكان. والحقيقة ان مرابط القليعة لم يكن ينوى ان يقدم خدماته الى فرنسا ، بقدر ما كان يريد ان يستتب السلام فى المنطقة ، ولذلك لم يقبل منصب الآغا الا بعد ما أكد له الجنرال بيرتوزين بأن القبائل لن تتعرض بعد اليوم للهجوم . وهكذا تقيد الطرفان بالتعهدات ، وعاد السلام الى المنطقة .

وكان هذا الجنرال الفرنسى ينوى من وراء انتهاج » سياسة الاحترام « أن يجعل الاهالى

ينسون اعمال العنف التى قام بها الحاكم السابق • وقد أوعزت اليه الدوائر الاستعمارية ان يعمل على اخلاء المنطقة من السكان ، فاعتبر هذه المبادرة عملا يتسم بالدناءة والجور • وقد حاول على العكس من هذا ان يطمئن الاعيان العرب المقيمين فى الجزائر العاصمة • ومن ذلك انه أمر برفع الحجر عن املاك الاتراك والمؤسسات الخيرية ، ومن جهة اخرى ، فقد ابلغ كل «من يريد ان يحكم بالباطل وان يستخدم وسائل تتنافى مع الحضارة ، وكل من يؤمن بالمثل الذى يقول : الويل للمغلوب» ابلغ جميع هؤلاء بان سياسته تخالف هذه المبادىء • ونحن لا ننكر انه امتثل لاوامر المارشال سولت SOULT عند ما امره بالرجوع الى سياسة الاستيلاء على البلاد ، لان فرنسا قررت انلا تتخلى عن الجزائر • الا انه امتثل للاوامر ، لا عن يقين وايمان . وقد كتب يقول فى وثائقه الخاصة : ان المستعمرات لا ترفع من شأن الدول ، ولا تزيدها غنى وثراء ، بل كلفت فرنسا دائما نفقات باهظة» • وكان يرى بان المنطقة الاولى التى ينبغى الاستيلاء عليها هى منطقة الساحل القريب من العاصمة الجزائرية ، وذلك لاسباب تتعلق بالامن وبالصحة • ومهما اختلفت الآراء ، فان انتشار الاوبئة فى سهل المتيجة ليس خرافة ، بل هو حقيقة لا مراء فيها ، بدليل ان 968 من الجنود لاقوا حتفهم فيها عام 1831 ، و 1415 عام 1832 ، نتيجة للحمى الخبيثة المتسببة عن فوحان المستنقعات •

وقد لاحظ بليميز دى رينو ان الاعتقاد السائد آنذاك هو : «ان اظهار اى نوع من انواع العطف نحو العرب يكاد يكون خيانة» علما بانه قد استنكر هذا الموقف • وبهذا ندرك السبب الحقيقى الذى جعل بعض اشباه المؤرخين المتعصبين لفكرة «الجزائر فرنسية» ، يتحاملون بشدة على هذا الجنرال الذى بنى نظام حكمه على معاملة الاهالى العرب بالعدل والانصاف • الا ان العشرة اشهر التى قضاها فى الحكم لم تكن كافية لتطبيق سياسته ، بل ان الحزب «المعمر parti coloniste هو الذى بذل المساعى لكى يستدعى من الجزائر حتى لا يسمح له بتحقيق ما اراد ، وكان برتوزين يقول بانه قد استمد سياسته من سياسة الجنرال دوسيكس Desaix الذى استحق لقب «السلطان العادل» فى حملة نابليون على مصر • وكتب فى سنة 1834 يشرح اسباب استدعائه من الجزائر : بان هذا «النظام الذى طبقه هو النظام الوحيد المشرف لفرنسا وهو اقرب الانظمة الى السياسة الحكيمة . واكثرها نفعا ، الا انه من جهة اخرى قد اضر بكثير من المصالح ، واثار العديد من المخاوف . وحطم الكثير من المشاريع وتسبب فى معارضة شديدة» • ونضيف الى ما قاله بيرتوزين بانه تسبب فى كراهية مستديمة •

وهكذا ، فلم يفكر احد فى الاشادة بهذا الانسان الذى لجت به الظروف ، رغم مشيئته ، فى مشروع استعمارى ، ولم يخطر ببال احد ان ينوه بذكر هذا الجنرال الشجاع ، الا بعد ان تمت تصفية الاستعمار •

وكان يندد : «باعمال العنف الوحشية» التي يقوم بها الجنود الفرنسيون ويستنكر «اعمال العنف المادية والمعنوية،والغدر والخداع والاهانة» وما الى ذلك من الوسائل التي استعملها المعمرون الاولون : «تلك الحثالة التي تعد احقر واحط ما تمخضت عنه ضفاف البحر الابيض المتوسط»٠

وربما راى البعض بان حياة هذا الجنرال لا تستحق كل هذا الاهتمام ٠ الا اننا نعتقد بانه مثال يقتدى ٠ ولقد استشهدنا به لنأتي بمثال يبين الاثر السيء الذي خلفه اشباه المؤرخين المتعصبين لفكرة الجزائر فرنسية» ٠ وختاما

لهذه الكلمة نقول بان تطهير تاريخ الجزائر من الشوائب الاستعمارية يهم الفرنسيين والجزائريين على حد سواء ٠



حول جنسية التاريخ

د. ايفون توران
استاذ التاريخ
بجامعة الجزائر

عندما اخذت علما بالموضـــــوع الذى طرحته مجلة الاصالة على بساط البحث فى عددها الممتاز ، وهو : « الجزائر عبر العصور ، ومواقف المؤرخين الاجانب » راودتنى أسئلة كثـيرة ، ولعل ابرزها هو السؤال الآتى : بما اننى أنا بالذات مؤرخـة أجنبية ، فقد أصبح من واجبى ان أحكم على نفسى بنفسى ، أى أن أكون الخصم والحكم فى نفس الوقت ولا يخفى على أحد أن هذا عمل شاق ... ولذلك ترددت بعض الوقت ، ثم اقتنعت بضرورة المساهمة

نظرا للبادرة الحسنة التى اتخذتها المجلة ، ونظرا كذلك للثقة التى أظهرتها تجاه أولئك الاجانب • ولهذا وجدتنى مضطرة للاجابة لكى أعبر لها عن شكرى الجزيل ، وان يكن الدخول فى هذا الموضوع فيه مخاطرة •

ان المشكلة التى طرحتها مجلة الاصالة من نوع المشاكل التى يختص بدراستها « علم وصف التاريخ Historiographie » أو علم تاريخ التاريخ • وذلك ان تاريخ جميع المشكلات، وخاصة منها المشكلات العويصة ، مرتبط بعلم يصفه من الناحية التاريخية • ان تاريخ الديانات، وتاريخ العلاقات الدولية ، من العلوم التى لم يصفها العلماء على منوال واحد ، بل تغير وصفها كثيرا على مر العصور ، فبالنسبة الى تاريخ الديانات ، نلاحظ ان العلاقات بين الدين والمجتمع، وبين الملل والنحل فى حد ذاتها ، قد تطورت الى حد بعيد فى الغرب على وجه الخصوص • وأما بالنسبة الى تاريخ العلاقات الدولية ، فقد لوحظ ان الحياة الدولية تتفاعل فيها اطراف متعددة كثيرا ما تكون متصارعة فيما بينها ، ولكل طرف منها سياسة تناوىء سياسة الطرف الآخر • ويمكن ان نستشهد بالحرب العالمية الاولى كمثال نموذجى عن هذه الاختلافات التى لم يستطع المؤرخون الفرنسيون والالمان تذليلها فى لقاءاتهم الكثيرة • وربما كان من الاحسن ان لا يحاول المؤرخون تذليلها ، بل عليهم فقط ان يحددوها تحديدا دقيقا وان يشرحوها شرحا واضحا . لأن هدف التاريخ كعلم ، ليس هو الكشف عن وجه الحقيقة الثابتة ، بل هو الاطلاع على مختلف الآراء والمناظرة بينها •

ومهما يكن من أمر ، فلهذه الاختلافات دلالة عميقة ، بل استطيع ان أذهب الى أبعد من هذا لأقول بأن هذه الاختلافات تبعث الاطمئنان فى النفس ، وهى ضرورية لانها عماد التاريخ ، ولكل مؤرخ ان يفتخر بها اذا شاء • ولعل القارىء يستغرب هذا الكلام • ولكن الاستغراب لا شك سيزول اذا عرف بأن هذه الاختلافات تبرهن على أن المسائل التاريخية لا تشبه فى شىء المسائل الحسابية . والا لاستحال ان تتعدد الحلول المقترحة لتلك المسائل التاريخية ، كما انها تبرهن وتؤكد بأن ابناء البشر الذين يحاول الباحث ان يطلع على أحوالهم ليسوا مجرد وحدات تصلح للعد والحساب، بل هم قادرون ، لحسن الحظ ، على أن يفلتوا من رقابة الجهاز الالكترونى الذى يحاول ان يحصى حركاتهم وسكناتهم • ان المشاكل التى يتخبط فيها أبناء البشر تخلف دائما وراءها بقايا لا يمكن تفسيرها تفسيرا مطلقا • وتلك البقايا هى موضوع الجدال والخلاف بين المؤرخين ، وهى التى تسمح للمؤرخ بأن يستخدم طريقة التأويل فى تعليله للمشاكل التاريخية المستعصية • وهكذا فان الانتقال من الشك الى اليقين معناه التوصل الى حقيقة يستطيع أى مؤرخ آخر ان يتوصل اليها باتباع طريق آخر غير الطريق الاول ، شريطة ان لا يؤدى هذا التعدد فى الطرائق الى حد التهور المتعمد أو الى حد تزوير الحقائق •

ومما لا شك فيه ان تاريخ الاستعمار ، وتاريخ الاقطار التى كانت خاضعة للاستعمار ، يندرج كل منها فى نطاق هذه المسائل التى يحتدم حولها الجدال ، وبذلك نلتقى مع الموضوع الذى اقترحته مجلة الاصالة .

على أن هذا الموضوع يتجاوز نطاق الصعوبات التى تعترض المؤرخ المتقيد بالمنهج الوصفى المتعارف لدى العلماء ... بطبيعة الحال ، قد يكون من المفيد ان نعرف كيف ان مشاكل الساعة أفضت ببعض المؤرخين الاجانب المعروفين بالتدقيق والتحقيق ، الى التسرع فى الاحكام ، وكيف ان الغرور الصريح أدى بالبعض منهم الى الضلال ، وكيف ان الالتزام السياسى انعكس على أوضح صورة فى « التاريخ الملتزم » الذى هو أقرب فى منحاه واتجاهه الى الجدال ، بل الى الاخبار الملفقة تلفيقا . على أن هذه الاحتمالات كلها ان هى الا جوانب من المشكلة الجوهرية التى سوف نتحدث عنها ، بعد ما أثارتها مجلة الاصالة وخصتها بالذكر . ويمكن تلخيص ذلك فى السؤال الآتى : هل هناك فعلا مشكلة تتعلق بجنسية المؤرخ تجاه التاريخ الذى يسجل احداثه ؟ وفيما يتصل بالجزائر على وجه الخصوص ، هل يواجه المؤرخ الاجنبى صعوبة بالنسبة الى الوفاء لرسالته كمؤرخ ؟

ولنحاول الآن ان نلقي بعض الاضواء على السؤال الاول الذى يكتسى طابعا عاما ، ولننتقل بعد ذلك الى السؤال الثاني الذى يهمنا على وجه الخصوص .

ولابد هنا من ابداء ملاحظة ، وهى انه لا يوجد مؤرخ بدون جنسية . وقد كان مفهوم الجنسية فى القديم يتصف بالمرونة ، خلافا لما يتسم به اليوم من تشدد ، بحيث ان جنسية المرء صارت تعتبر صفة راسخة فى نفسه ، كأنه مطبوع عليها طبعا . ولا اخال أن أحدا يوافق اليوم مونتسكيو فى رأيه اذ يقول : « خلقت قبل كل شيء انسانا ، وأصبحت فرنسيا بالمصادفة » . ومع ذلك فان المؤرخين عندما كانوا فى القديم يتحدثون عن مناقب الملوك ، كانوا بعملهم ذاك يعبرون عن انتمائهم الى شعب من الشعوب ، وهذا الانتماء ، وان لم يكن واضحا ، الا انه يفرض على المؤرخ التزامات معينة ، وبناء على هذا ، فليس هناك مؤرخ يشذ عن هذه القاعدة ، سواء تصدى لكتابة تاريخ بلاده ، أو تاريخ البلدان الاجنبية . ويمكن حينئذ ان يصاغ السؤال على الشكل الآتى : هل يستحسن ان يتولى المؤرخ كتابة تاريخ بلاده ، أو على العكس ، يجدر به ان « يكون أجنبيا » بالنسبة الى الحقائق التى يريد ان يكشفها لنفسه ولغيره من الناس ؟

ونقول بادىء ذى بدء بأن المؤرخين الانجليز او الايطاليين الذين كتبوا تاريخ انجلترا وايطاليا ، أكثر عددا من المؤرخين الفرنسيين الذين أرخوا لالمانيا أو أمريكا . على أن ارتباط المؤرخ بتاريخ بلاده ، مرجعه فى الواقع الى ظروف العمل ، والى توفر الامكانيات والتسهيلات داخل البلاد التى ينتمى اليها الباحث . فالصينى أقرب الناس الى فهم حقائق بلاده ، بسبب معرفته للغة ، ووجود

الوثائق والمصادر فى مكان قريب • أما اذا تصدى أحد الاجانب لكتابة تاريخ الصين ، فانه سوف يصادف صعوبات لا من حيث جهله للغة وعدم توفر الوثائق والمصادر فى عين المكان فحسب ، بل كذلك لانه سوف يضطر لاستكمال الوثائق المكتوبة بالآثار والشهادات غير المكتوبة • وهذا لا يمنع من القول بأن بعض المؤلفات الانجليزية او الامريكية تعد فى فرنسا من المراجع الاساسية حول تاريخ الامبراطورية الثانية (نابليون الثالث) (1) • وبالمقابل ، فأن بعض المؤرخين الفرنسيين هم الذين كشفوا للانجليز المراحل الاولى المتعلقة بالثورة الصناعية فى انجلترا (2) • ومن الامثلة على ذلك أيضا ان تاريخ الحركة التحررية فى منطقة ريناني (ألمانيا) كتبه أحد المؤرخين الفرنسيين (ج• دروز) الذى يعد الى حد اليوم أحد الاختصاصيين الكبار في تاريخ ألمانيا (3) • وأنا شخصيا كمؤرخة فرنسية لم أقم بأى بحث حول تاريخ فرنسا ، بل انصرف اهتمامى الى ما يسمى اليوم بتاريخ الافكار فى اسبانيا والجزائر (4) • وكثير من الامريكيين يهتمون اليوم بتاريخ العصور الوسطى فى فرنسا وأوروبا • وهكذا ، فالامثلة التى يمكن الاستشهاد بها فى هذا المجال لا تعد ولا تحصى • ويمكن هنا ان نتساءل : هل نعتبر هذا التنوع فى البحث التاريخى من الحسنات او من السيئات ؟ وهل يشترط فى من يريد ان يفهم آراء غيره ان يكون مشابها له ؟ أم يجب على العكس ان يختلف عنه حتى يتمكن من الاهتداء الى ما لا يستطيع الغير ان يفطن له بنفسه ؟ اننا نعتقد بأنه لا يوجد أى تعارض بين الموقفين ، بل هما متكاملان ، شريطة أن يصدر كل منهما عن روح تتميز بالتجاوب ، كما قال هـ• مارو ، فى كتابه « معرفة التاريخ

«H. Marrou : Connaissance de l'Histoire»

وهذه الروح المتجردة من التحيز ، ومن التعصب للآراء والمذاهب – وهما موقفان مناقضان للعلم والاخلاق – هذه الروح هى التى تجعل المؤرخ يبحث فى هدوء وصمت ، ويتناسى أغراضه الشخصية •

وقد لا يخلو الامر من فائدة فى أن نبحث عن الصورة التى يقدمها الغير عنا • وعلى سبيل المثال ، فقد وفق تمام التوفيق ذلك الامريكى الذى ألف كتابا عن قرية من قرى فرنسا ، وعنوانه : « قرية من قرى الفوكلوز » (5) • ان تلك الدراسة ، وان كانت انتقادية ، الا انها مع ذلك ذات صبغة ودية فيما تضمنته من ملاحظات طريفة ودقيقة حول الحياة اليومية التى يعيشها مجتمع ريفى

(1) V. Wright : Le Conseil d'Etat sous le Second Empire, Colin, travaux et recherches des Sciences politiques 1972
A fter Sedan, cornell univ., Press
J. Rothney : Bonapartism Ithaca, N.Y. 1969
(2) F. Crouzet : L'économie Britanique et le Blocus Continental 1806-1813, Paris P.U.F. 1958.
(3) J. Droz : Le Libéralisme Rhénan, 1815 - 1848. Contribution à l'étude du libéralisme allemand, Paris, Sorlot, 1940.
(4) L'Education et l'Ecole en Espagne de 1874 à 1902. Libéralisme et tradition P.U.F. 1959.
Miguel de Unamuno, Universitaire, Biblioth. Gle de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes. Paris, SVEPEN, 1964.
(5) Laurence Wylie : «Un Village du Vaucluse , Paris, Gallemard, 1968.

ان هذا الكتاب الذى قدمه صاحبه عام 1960 كاطروحة فى علم الاجتماع ، كان مكتوبا بالانجليزية ، الا انه لم يترجم الا جزء يسير منه الى الفرنسية ، مخافة ان يستاء سكان الفوكلوز مما جاء فيه ، على ان شيخ هذه البلدة الصغيرة هو الذى طلب فيما بعد ان يترجم الكتاب بتمامه ، قائلا بان النقد البناء اكثر فائدة على حال من التملق والرياء

صغير . وهذا الكلام يصدق أيضـــا على كتاب : « صمت العقيد برامبل Les silences du Colonel Bramble » ، فهو كتاب لا يستطيع أن يؤلفه شخص «انجليزى ، لقد تناول فيه صاحبه وصف الرجل الانجليزى ، فى شكل قصة طريفة رفعت أندرى موروا الى ذروة المجد . وجعلت ذلك العقيد يشتهر فى مشارق الارض ومغاربها . واذا رجعنا الى القارة الافريقية ، فربما كان من المفيد أيضا لو تصدى أحد الافارقة البارعين فى الوصف، ليقدم للاوروبى صورة تهكمية صادقة عن نفسه ، فيدرك ما آل اليه من تكالب على الحياة ، ورغبـــة فى استغلال كل شىء لصالحه ، واشباع شهواته(6) وهكذا يتبين لنا ان وجهات النظر اذا تعـددت ، فانها تقدم للانسان صورة عن نفسه اصدق من الصورة التى يراها هو منعكسة فى المرآة .

هذا ما كنت أريد ان أقوله من الناحية العامة.

* * *

أما اذا أردنا ان نتطرق للحـــــديث عن تاريخ الاستعمار . فان هذا التاريخ ينبغي ولا شك ان يكون جزءا لا يتجزأ من تاريخ البشرية . الا انه مع ذلك قد احتفظ بمميزات خاصـــــة به . ان الموضوع الذى اقترحته علينا مجلة الاصالة هو : « مواقف المؤرخين الاجانب » . ولا شك ان هذه طريقة لبقة للاشارة الى المؤرخين الفرنســـيين على وجه الخصوص ، لانهم اكثر من تنـــاول بالدرس تاريخ الجـــــزائر ، وان كان المؤرخون الانجليز والايطاليون والاسبان قد ساهموا فى هذا الميدان بنصـــيب . نحن نعرف ان المعنيـــين بالامر هم المؤرخون الاجانب . ولكننا نتساءل : مـــن هـم هؤلاء الاجانب ؟ ان الوضعية الاستعمارية تتميز بكونها قد ربطت بين شعبين فى تاريخ واحــد ، بحيث ان المؤرخ الفرنسى هو فعلا اجنبى ، الا انه لا يريد ان يكون اجنبيا ، خاصة انه لم يكن بالامس القريب أجنبيا عن تاريخ الجزائر واحـــداثها . وهكذا فالمؤرخ الفرنسى يجد انه هو بالذات من المعنيين بالامر بالنسبة الى التاريخ الذى يسجل أحداثه ، فبات لزاما عليه ان يضع نفسه موضع التساؤل وان يحدد الدور الذى لعبـــه فى تلك الاحداث وبذلك اصبح تاريخ الاستعمار من حيث كيفية كتابته ، أصبح جزء لا يتجزأ من القضايا الخاصة بتاريخ العلاقات الدوليـــة ، وان كانت القضية هنا اكثر تعقيدا ، لان الطرفين (فرنســا والجزائر) غير متكافئين ، ولانه لا تتوفر فى الوقت الحاضر آراء عديدة قد تكشف عن وجهات النظـر المختلفة .

وفى الواقع ، يمكن ان نميز فى تاريخ العهــد الاستعمارى الذى مرت به الجـــزائر ، أو أى بلد آخر ، فترتين : فتـــــرة المؤلفات المكتوبة قبل الاستقلال ، عندما كان تاريخ البلاد الخاضـــــعة للاستعمار لم يتوصل بعد الى الحل النهائى ،وكانت الحوادث التى يسجلها التاريخ مرتبطة بالكفاح – واكبر شاهد على ذلك ما كتب بمناسبة الاحتفال بمرور قرن على الاستعمار – ، وفترة التاريخ الذى بدأ بعد الاستقلال . ولكن ، هل نستنتج من هذا التقسيم ان ما كتب فى الاولى كله تاريخ أسود ، وان ما كتب فى الفترة الثانية كله تاريخ ناصع

(6) Y. Turin : «Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale». Maspéro, 1971, p. 367.

البياض ؟ لا شك ان مثل هذا التمييز ينافي العقل تماما · **فقد كان هناك مؤرخون كبار قبل** الاستقلال ، وبعده ، كما كان هناك مؤرخون منافقون بعد الاستقلال وقبله · ولا يكفي ان يكون النص مناهضا للاستعمار حتى يعد من النصوص العلمية · والجزائريون يعرفون هذا جيدا · وهنا يتدخل علم وصف التاريخ لكي ينظر في ما كتبه الباحثون من دراسات تاريخية في المجلات المتخصصة · أما فيما يتعلق بي شخصيا ، فقد كان قصدي ان ابين الى أي مدى يمكن ان تؤثر الروابط التاريخية المعاصرة في العلاقة بين المؤرخ وجنسيته ، وأن أوضح كيف ان الميزة الرئيسية للاستقلال تتجلى قبل كل شيء في تطهير التاريخ من الشوائب الاستعمارية ، أي تخليصه من الحلقة الاستعمارية التي سوف تظل دائما استعمارية النزعة ، رغم التظاهر احيانا بمناهضة الاستعمار .

ان الجزائر لا تزال حديثة العهد بالاستقلال ، ولذلك فمن السابق لاوانه أن نحاول تحديد خصائص ذلك الاستقلال · أما تحديد مفهوم التاريخ الاستعماري ، فانه أمر ممكن ، وسوف يساعدنا في فهم التيارات التي لا تزال اليوم تسود في ميدان التاريخ ، بل في ميدان علم الاجتماع أيضا ، لان النتائج التي ينتهي اليها المؤرخ وعالم الاجتماع واحدة ، ولان علم الاجتماع الاوروبي الحالي ، وان كان محصورا في نطاق محلي ، الا انه كثيرا ما يتخذ صبغة تاريخية ، فتختلط بذلك المسائل ويسود الاضطراب في الآراء ، خاصة ان بعض علماء الاجتماع وبعض أشباه المؤرخين لا يفرقون أحيانا بين الدراسة التاريخية الرصينة والآراء الصحافية المغرضة ، حتى ان بعض الدراسات التي قدمت في هذا المجال ، على أساس أطروحات جامعية ، لا تشذ عن هذه القاعدة ·

ان تاريخ الاستعمار ، سواء كان قبل الاستقلال أو بعده ، كان له ، ويمكن ان يكون له اليوم جانبان : فالجانب الاول استعماري النزعة ، أو قل بعبارة أخرى انه تاريخ متحيز ، أو « ملتزم » ، وهي العبارة الشائعة اليوم · أما الجانب الثاني فهو مناهض للاستعمار ، الا انه مع ذلك لا يقل تحيزا والتزاما عن النوع الاول ، بل يظل هو الآخر مرتبطا من ناحية معينة ، بالاستعمار · وذلك ان الدراسات المتعلقة بتاريخ الاستعمار تتضمن ناحيتين احداهما استعمارية والاخرى مناهضة للاستعمار ، ولكنهما معا مرتبطتان أشد الارتباط بالنظرة الاستعمارية · ان كل واحدة منهما تتناول من زاوية معينة تاريخ الاستعمار والمستعمرين ، وقلما تتحدث عن الشعب الخاضع للاستعمار الذي لم يحظ الى حد الآن بالدراسة · ولذلك فمن المهم جدا ان نميز تمييزا واضحا بين التاريخ المناهض للاستعمار في الجزائر ، وبين تاريخ الجزائر الصرف · ولا شك ان الطريقة الثانية في البحث هي وحدها القادرة على التخلص من النظرة القديمة · ان التاريخ المناهض للاستعمار يشترك مع صنوه الملازم له (تاريخ الاستعمار) في اتباع طريقة يحاسب بها الشعب المسيطر نفسه ، بنظرة قد تكشف للمواطنين عن

عيوب النظام البائد • ولذلك فالتاريخ المناهض للاستعمار شبيه تماما بصـــنوه ، حتى ولو كان المذهب العقائدى الذى يصدر عنه ينطوى على شيء من المجاملة للشعوب التى كانت خاضعة للاستعمار

وعلى هذا الاساس ، فلا يكفى ان يكون التاريخ مناهضا للاستعمار ، كما لا يكفى ان يكون التاريخ جزائريا ، حتى يعد مطابقا للحقائق التاريخية •

على اننا اذا تعمقنا فى تحليل هـــذا المفهوم للتاريخ او لعلم الاجتماع المناهضين للاستعمار ، وتأملنا فى هذا المذهب العقائدى المجامل للشعوب الخاضعة للاستعمار ، فاننا نستطيع ان نتساءل : هل يمكن ان نمنحه الثقة التامة ، أم ان هـــذا المفهوم يخبىء وراء ابتســـامة المجاملة ، نوايا خبيثة ؟

وهنا أيضـــا قد يكون من المفيـــد ان نتخذ الاستقلال اساسا ومعيارا للتمييز بـــين طريقـة وأخرى فى كتابة التاريخ • فقبل الاستقلال ، لم يكن هناك فرق بين التاريخ الاستعمارى من جهة ، والتاريخ وعلم الاجتماع المناهضين للاستعمار من جهة أخرى ، لانه يوجد قاسم مشترك بينها ، وهو خوض المعترك السياسى • فلا شك اذن ان تلك العلوم قـــد اتخذت كسلاح مـــن اسلحة النضال والصراع ، لافحام الخصـــم ودحض حججه • ولا يسعنا مع ذلك الا ان نلاحظ بأن بعض المؤلفات التى اعتبرت فى تلك الفترة مناهضة للاستعمار ، مثل كتاب « افريقيا الشمالية فى مســـيرتها » لشارل اندرى جوليان (7) تبدو لنا اليوم — بعد اعادة قراءتها على ضوء معطيات الساعة — كأنها تتحدث عن بلاد يسود فيها الهدوء التام ، ممـــا يدل على أن الجو العلمى السائد آنذاك قد افسدته المواقف السياسية الذاتية • ولكن السؤال الذى يمكن ان يطرح هو السؤال التالى : هل يحتفظ ذلك الفكر العقائدى بنفس المحتوى بعد الاستقلال، ام انه يتغير تدريجيا الى أن يصبح مناقضا لمـــا كان عليه قبل الاستقلال ؟ وهل يطابق الشـــكل المحتوى ، وهل يماثل الظاهر الباطن بالنســـبة الى من لا يزال ينطق باسم ذلك الفكر العقائدى ، ومن بينهم بعض علماء الاجتماع وبعض المساهمين فى كتاب « تقويم شمال افريقيا L'Annuaire de l'Afrique du Nord » ؟ (8) ولابد من الاشارة هنـــا الى ان المؤرخين قلما يصدرون فى آرائهم عن ذلك الفـــكر العقائدى ، باســـتثناء الماركسيين منهم ، الذين يكتبون فى المواضـــيع التاريخية لا كتخصص ، بل كهواية ، مثل ايف لاكوست ، وم• برونان • أما جاليســـو ، فهو مؤرخ بالمهنة •

* * *

وسواء نظرنا الى التاريخ ، أو الى علم الاجتماع المناهض للاستعمار ، فاننا نتساءل : أليس وراء كل منهما موقف ، وعقيـــدة قد بليت كما بلى الاستعمار ، وكما بلى التاريخ الاستعمارى ؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا ؟ وما هو السبب ؟

لنقل بصفة عامة بأن السبب فى ذلك يرجع الى ان مثل هذا الموقف يمنح العقلية الاستعمارية أمدا أطول ، ويظـــل بها مرتبطا ، ويحافظ على

(7) Paris Julliard 1952

8) ومنهم ش ، سوريان على وجه الخصوص ، وقد اتخذه منبرا لترويج آرائه

الاساس الذى تقوم عليه فكرة السيطرة فى حد ذاتها . وهذا الاساس هو : عزلة الانسان الخاضع للاستعمار ، وانفصاله عن بقية ابناء البشر ، من حيث طبيعته وأصله • وبذلك يظل دائما شخصا لا يستحق ان نتحدث عنه ، أو أن نتعامل معه أو ان نتناوله بالدراسة ، الا على اساس انه مخالف لغيره من الناس ، لانه ينتمى الى عالم آخر غير هذا العالم الذى نعيش فيه ، واذا حاولت ان تخرجه منه . فسوف يذوب امامك ويختفى ، ولذلك فلن يجد الباحث مادة للدراسة ، وربما اضطر الى استعمال المكبر لعله يعثر على بعض الحقائق •

ان هذا الفكر العقائدى المجامل للشعوب المستعمرة يعد من الاساليب الخفية التى كان يستخدمها الاوروبى المستعمر • وقد استطاع هذا الفكر العقائدى ، بما اتسم به من نقد مزيف يصل أحيانا الى حد التطرف ، أن يوهم الناس بأن هناك درجات كبرى وفروقا بين المستعمر والمستعمر ، كما استطاع ان يلفت انتباه العالم الى وضعية المستعمر الغريبة ، عوضا من ان يعتبره كأى انسان آخر ممن يحتل مكانا فى هذا الوجود ، ويعيش كغيره من ابناء البشر • ان هذا الفكر يقوم على رواسب نظرة ثنائية تعتبر ان الناس فئتان : فئة تفهم وتدرك . وفئة أخرى هى موضوع الفهم والادراك ••• فئة تحكم ، وفئة أخرى يحكم عليها • وذلك انّ أصحاب هذا الفكر يدعون — باسم الفكر المطلق — بأنهم يعرفون عن الشعوب المستعمرة سابقا ، أكثر مما تعرفه تلك الشعوب عن نفسها ، وأنه اصبح من حقهم ان يرشدوها اليوم ، كما أرشدوها بالامس ، عما يجب عليها ان تعمل ، أو عما يجدر بها أن تعمل • وهكذا نجد ان العقلية الاستعمارية القديمة المتميزة بعلاقة السيد بالمسود . وعلاقة العالم بالاسرار ، بمن اسراره كلها معلومة ، تلك العقلية تبعث اليوم من جديد تحت ستار مناهضة الاستعمار •

واننا لنجد مثالا مطابقا لذلك فى بحوث صدرت أخيرا تحت عنوان (المعلمون الجزائريون المكونون في مدرسة المعلمين في بوزريعة من سنة 1883 الى سنة 1939) اذ وردت فيها جمل مثل هذه الجملة : « انهم يقولون انهم مدينون بكل شيء لمدرسة المعلمين لان القوم ما فتئوا يكررون لهم انهم مدينون لها بكل شى » ان فى ذلك ما يعبر عن نفسية الباحث السائل تجاه المعلم المسؤول الذى كان يجيبه عن حسن نية واخلاص ان هذا المعلم على الرغم من تجاربه واجتهاده فى تحليل نفسيته انما هو رجل غير قادر على التفكير والاجتهاد — فى نظر ذلك العالم المثقف — ولذلك اصدرت محكمته حكمها بحشره فى زمرة الببغاوات وكيف يستطيع هذا المعلم ان يملك نظرا خاصا للاشياء (اديولوجيا) غير النظر الذى ينبثق معينه الصافى من الصفات العليا التى يتمتع بها ذلك الباحث الذى يسأله من أعالى كبريائه وقد جرده من معانى الثقافة كلها حتى جعل موضوع بحثه سفليا وبذلك يرجع المبدأ الاستعمارى الى مجراه •

وقد تبدو هذه الظاهرة غريبة ولكن غرابتها فى المظهر فقط ونحن نجدها منتشرة لدى الاجتماعيين

الذين عنوا بدراسة الجزائر اكثر من انتشـــارها لدى المؤرخين لان المؤرخ الناقص هو وحده الـذى يقيم نفسه حكما او (مدعيا للربوبية) كما يقول مارو نعم اذا نحن امعنا النظر فى هذه الاديولوجيا التى فشت عقب انهيار الاستعمار فاننا نرى ان نظرية التثقيف الاجتماعى ACCULTURATION ما هى الا محض عبارة وان الافكار التى تنطوى عليها لم تنشأ قط فى البلدان التى كانت خاضعة لغيرها بل ان اوروبا وأمريكا هما المسيرتان — فى هذه المرة أيضا — الى ما ينبغى ان يقـــال ويذكر والصانعتان لاساليب التفكير المستحســن اتباعها مع مراعاة ان هذه الافكار لم تخلق فى البداية الا لغيرهم من الناس ولم يشرعوا فى استعمالها شيئا ما الا منذ عهد قريب اذن فالسادة القــدامى هم الذين يوحون لرعاياهم القـــدامى ما ينبغى ان يعتقدوه فى أنفسهم وهم الـذين يوزعون تفكيرهم مستعينين فى ذلك بما يعترفون به من نقص فى تلك الافكار فيظفرون لدى المســـتعمر القديم بالتأييد والعون — وهذا هو العجب العجاب ! انهم أصحاب ثقافة غالبة وجدوا ألطف حيلة لعـــدم مشاطرة غيرهم اياها ألا وهى قتل رغبتهم بجعلها آثمـــة •

ان هذا العالم الاجنبى بل هذا الباحث الاجنبى الذى يعتد بأجنبيته هل يرى نفســـه معنيا بما يكتشفه من أفكار وهل تثير هذه الافكار فى قرارة نفسه حيرة واهتماما ؟ وهل يرى المخاوف والاخطار التى تكتنف اشخاص بحثه مخاوف وأخطارا فى عالمه الذى يحيى فيه ؟ كلا لسنا متأكدين من ذلك بل الظاهر ان الحقائق تختلف حسب عالم الباحث وعالم المبحوث فيه •

ان هذا الاجنبى يستطيع بفضل رجاحة فكره واتساع علمه ونضج طبعه وعالمية ثقافته وحنكة تجاربه ان يعرض نفسه لجميع الانواء ويشم الهواء فى لجج البحر ويمارس هواياته الفنيـــة ويشبع رغباته بالاطلاع كانسان على جميع العـوالم التى تثير اهتمامه بل فى وسعه ان يبهر أنظاره ويسحر شعوره بمختلف الثقافات المتعددة كما فى وسعه ان يكتفى باستخلاص انفع ما فيـــها من دون ان يستهدف للادماج الثقافى Acculturation أو للتجريد من الثقافة decculturation انه لا يخشى أية سيادة على فكره انه لا ينحل فى غيره بل بالعكس ينحل غيره فيـــه ان التاثيرات الاجنبية لا تحدث الادماج الثقافى عندما تلمســه بل تحدث التثقيف (ان صح هـذا التعبير) انه يزداد ثروة ورقة وجدة — شأنه شأن بيكاســو الرسام عندما استلهم الفن السودانى أو اليابانى• انه « بعبارة واحدة » يحيى وان هذه الحياة التى تتصف بالحركة والتحول والنشدان (وهيهات أن تكون الحياة سكونا) يأباها صاحبنا عـلى غيره من الناس ويقول لهم انها تنـــكر وعقوق بل تفكك وانحلال انه يزرع فى العالم التفـــوق والسيادة وينتمى — عــلى كل حال — لعترة الاخيار اولئك الذين مثواهم فى الاحياء الصامتة المتصلبة ذات الابواب الموصدة فويل لمن يطـــرقها من عقاب الادماج الثقافى وهكذا يبقى صاحبنا ينعم فى جنته مطمئنا على فاكهته التى لو أكلها آكل غيره لاهلكته•

وهكذا نجد عالمين متقابلين العالم الذى نحيى فيه والعالم الذى نطوف من دون جدوى على مغانيه (والا حصل الخضوع للغالب) وبذلك تنعكس الفكرة والالفاظ المؤدية لها انعكاسا كليا فيؤدى معنى ضده ويستطيع المستعمر القديم ان ينام ناعم البال ٠

ان هذه النظريات الاوروبية الغربية هى ايضا اوروبية غربية من جانب آخر اذ انها تعتمد على فكرة خلوص الثقافات وتومىء الى الرجوع لحالة أولى طاهرة خالصة لم تشبها شائبة أوحت بها أشنع مذاهب الرجعية التى تمخض عنها الفكر الاوروبى فى القرنين 19 و 20 ثم طبقها أعنى نظرية طهارة الدماء ونقاوة السلالات التى لا يعد صفاء الثقافات الا نسخة منها ولم يكن اذن مولد هذه النظريات التى ابتكرها اعداء الاستعمار فى أوروبا ونشؤوها فى تلك التربة صدفة من الصدف ولو ان كاتبا تصدى لكتابة هذا الموضوع لكان بحثه شيقا حيث يدرس العلائق بينها وبين النظريات الملية فى القرن 19 وما بينهما من صلة وشبه وفرق ويبحث عن تاريخ العلماء الذين استعملوها وافكارهم الاجتماعية لو اعطى هذا الجانب حقه من العناية لافادنا ايما افادة فى الاطلاع على مأتى النظريات المذكورة وعلى كل فان فكرة (الاصل المشوب) التى نجدها ملازمة لفكرة الادماج الثقافى وتأثيمه انما هى فكرة اوروبة وانما تتحدث عن (الاصل المشوب) لدى الآخرين (لا لدى الاوروبيين) ولنضرب مثلا بالفرنسى أو الباريسى فى القرن العشرين ما هى بداية هذا الشوب أو (التلوث) لديهما ؟ انها لمسألة عويصة فهل فقد هذا الباريسى طهارته الثقافية الى حد يجعلنا لا نستطيع الوقوف لها على أثر أم هل بلغت هذه الطهارة حدا من الحصانة تجعله فى مأمن من فقدها وهل يوجد مكان فى الارض بلغت فيه العوامل المؤثرة ما بلغته فى باريس من القوة والعنف لا فى ميدان الازياء فقط بل فى شتى المجالات الفكرية حتى صار من العسير جدا ان نعثر فيها على تفكير أصيل ٠

وان هذه الملاحظة لتمهد لنا سبيل التنقل الى جانب آخر من هذه البحوث التى خصصناها – بفضل مجلة الاصالة – الى الدور الذى يقوم به الاجانب فى تطور العلوم التأريخية والاجتماعية فى هذه الفترة ، فترة ما بعد الاستعمار ٠

لقد عرف الادماج الثقافى – مبدئيا – بانه نتيجة الاتصال بين ثقافة غالبة وثقافة مغلوبة ومن هذه الحيثية نجد علم التاريخ أو علم الاجتماع المناهضين للاستعمار يعتبران عبارة (التغلب السياسى) مرادفة لعبارة (الثقافة الغالبة) كما يعتبران (الرضوخ السياسى) مرادفا (للثقافة المغلوبة) فهل هذه المقايسات صحيحة ؟ كلا انها من الجانب التاريخى خاطئة فان التاريخ يفيدنا انه لا وجود لصلة ضرورية بين التغلب السياسى والتغلب الثقافى ولا بين الرضوخ السياسى والرضوخ الثقافى وليس معنى هذا انه لا يوجد أبدا وبصفة مطلقة أى اتصال بين الحالين ولكن معناه ان الدولة الغالبة قد تستطيع ان تشجع صنفا آخر من الثقافة الا ان القوانين التى تجرى

على الحياة الثقافية غير القوانين التي تجـــرى على الحوادث السياسية ومعناه ايضا ان المفعول الثقافى ليس نتيجة زائدة ينتجها العمل السياسي ولنضرب عن ذلك مثلا واضحا معروفا وهو استيلاء روما على اليونان ان الرجل اليونانى الحر أصـــبح حينذاك ذميا رومانيا وصارت روما تسوس أثينا بواسطة مجلس شيوخها ولكن أثينا اصبحت تسوس روما بثقافتها وكذلك كان الامر عندما فتحت الشعوب الاخرى مملكة روما فأصـــبحت تدين للثـــقافة الرومانية بكل شيء لهذا ينبغي ان ندرس امـــور الثقافة دون ان نجعل للسياسة ســـيطرة مطلقة عليها كما انه لا ينبغي ان نستهين بتأثير السياسة عليها الى حد تجاهلها وانما خير المواقف الوســط وحتى فيما اذا كانت السيطرة السياسية مصحوبة بحالة ثقافية سيئة فان الثقافة المغلـــوبة تنتقم لنفسها فى آخر الامر وتلك سنة مطردة أحســن مثال عنها اولئك الفرنســـيون الذين ولدوا فى الجزائر ثم جلوا الى فرنسا بعـــد الاســـتقلال ويسمونهم (الارجل السود) Pieds noirs فاننـــا نجـــد لديهـــم مـــن العـــوائد التى انتحلوها فى المأكل وفى الاسرة بل نجد غيرها من العادات لدى الجماعة الاوروبية التى لجـــأت الى فرنسا بعد الاستقلال الجزائرى وهى كلهـا تؤكد القاعدة المذكورة ٠

وهكذا كثيرا ما نجد التاريخ والاجتماع لـــدى المناهضين للاستعمار (فى الفترة بعد الاستقلال) يطبقون فى أعمالهم مجرد كليشهات ويســـلطون على العلم طريقة مضادة له ديدنهم الشروع باعلان النتيجة وتأكيدها قبل الشروع فى البحث واليكم بعض العبارات التى تنم عن اسلوبهم منـــها (ان الميدان اصبح مساعدا لتبين الامر الذى اردنا ان نبينه) (غرضنا ان نبين ٠٠٠ كان من اللازم ان نبين فيما بعد) (لقد حاولنا ان نظهر) ٠

وهكذا اصبحت نية عالم الاجتماع محصـــورة فى التزكية لا فى العرفان واصبح العلم خـــديم الاديولوجيا (ان لم نقل شيئا آخـــر ربما يكون أقبح) فليس من المستغرب ان نضم الى هـــذا المذهب فئة الماركسيين وتآليف فاليســـو وايف لاكست وبرونان ونوشى فى بعض ما كتب ٠

ومما يؤكد ذلك ايضا موقفهم امام جماهير هذا العالم المستعمر الذى بقى ملحا على الرفض مخلدا الى العزلة الثقافية ما بقى الاستعمار والذى اصبح اليوم يعبر عن نفسه بهذه المجلة او عن طـــريق المظاهرات ومن بينها اسابيع ملتقى التعرف على الفكر الاسلامى التى ليست اقل المظاهرات خطورة وشأنا ولكنها تفاجيء القوم فيما الفوه وتقلقهم فيما أقاموه من نظريات وارادوه من تبيين وماذا عسى ان يكون موقفنا أمام طريقة تخضع الحقيقة لاديولوجيا تحتوى أنواعا من السلوك الثقافى غير متوقعـــة ولا مطابقة للبنية المعدة لها ٠ فمما لا شك فيه ان بقاء مخلفات (أى رواســـب لا يمكن تعليـــلها) Résidus يظهـــر لنا الى أى مدى ينتهى بنا التعجيل بالاقرار واســـتعمال الاساليب العلمية المشكوك فى صحتها وان الباحث الذى يؤكد عمله قبل ان يشرع فى بحثه ليوشك

أن يترك ذلك الشيء المجهول يفلت من بين يديه وربما يكون المفلت هو الشيء الـــذى كان يبحث عنه بالذات ٠

وانى لاترك جانبا فى هذا المقال ما نستطيع ان نسميه التاريخ المتملق لانه هو ايضا امتـــداد للموقف الاستعمارى الذى يرى انه حسب اولئك الذين يعاملهم معاملة الاطفال ان يقدم لهم من العلم أوهاما وأحلاما ٠٠

اننا اجتهدنا ما استطعنا فى معالجـــة قضية التاريخ وجنسيته واستطردنا شيئا ما الى القضايا التى يطرحها تاريخ الجزائر خاصة ٠ وقد اقترحت مجلة الاصالة عبارة (مؤرخـــين أجانب) ولكننا عالجنا التاريخ كما عبر عنه اجانب وحللنا طبيعة النوايا التاريخية التى افصحوا عنها بالفعل وبذلك تحاشينا الاغترار بالمظاهر والانخـــداع بالالفاظ وحرصنا قبل كل شيء على اثبات ذلك الســـطر النارى الذى يسطره الاستقلال فى علـــم وصف التاريخ وغيره من العلوم والاشياء ٠ فكل ما قد كان من قبل السطر لا يمكن ان يكون من بعـــده حتى ولو انه (نوايا حسنة جدا) ٠

وقد آن لنا الآن ان نبرح ميـــدان التحليل والتشريح وندخل نحن أيضا فى ميدان المناظرة ــ بعد ان أعلنا هذا الدخول ــ متسائلين : هل يجب على علماء التاريخ والاجتماع الاجانب المعالجـــين لتاريخ الجزائر ان يكونوا مثل ذلك الجيش الفرنسى الذين قيل عنـــه انه دائما متخلف على أوانه بحرب ؟ هل يجب ان يفكروا كما فى ذى قبـــل والواقع اننا فى ذى بعد ؟ وان يبقوا عاجزين على ان يحلوا المعرفة محل الاصـــطدامات ؟ ان ما نسميه بذى قبل لم يفد كل فريق الا بأشـــياء طفيفة عن الفريق الآخر وذلك على الرغم مما قيل وعلى الرغم من جميع المظاهر ان الاجنبى الـــذى ينزل بأقطار شمال افريقيا عقب اســـتقلالها لا يظفر الا بأفراد قلائل من ابناء جنســـه ممن فى وسعهم ان يفيدوه بما لديهم من التجارب والعظات كما لا يجد الا افرادا قلائل من الجزائريين يشـــعر لديهم انهم يعرفونه حق المعرفة حتى ولو كانوا من الذين يتكلمون لغته احسن منه وهكذا يتضح لنا ان هذه المصنفات التاريخية ــ من اســـتعمارية ومناهضة للاستعمار ــ ما هى الا خطان متوازيان لا يلتقيان وامتداد لانعزال عنصرى متبـــادل بل انعكاس لصورة الاســـتعمار الغابر ان لم يكن رجوعا اليها وربما جاز لنا ان نصف هؤلاء بأنهم قوم يحنون الى الماضى اجل ان احوال الاستعمار كانت تعوق المعرفة الحقة ولهذا يجوز الرجاء ان يكون الاستقلال عصر النهوض بها واحيائها ٠

ومن هنا تظهر لنا قيمة هـــذه البادرة التى بدرت عن (مجلة الاصالة) فاستحقت بها كل شكر وثناء ٠

ان هذه المجلة التى تصدرها وزارة الشـــؤون الدينية قد ضربت لنا مثلا عن نفســـها فأقترحت علينا بحثا حول المؤرخين الاجانب لا لمحـــاربتهم ولكن لمحاورتهم حتى يجنح كل فريق الى التأمل والتدبر ففتحت على المصراعين ابواب اعمـــدتها لجميع المعلقين والملاحظين ٠

فلتسمح لى أن أعبر لها عن شكرى اذ سمحت لى بالاسهام فى هذا المجهود ٠

أضواء جديدة على
تاريخ المغرب

د. هشام الصفدى

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

اذا تمعن الدارس فى الخطوط العريضة لتاريخ العالم القديم فى منطقة حوض البحر المتوسط ، استرعت انتباهه عدة حقائق اساسية :

1 ـ سبق المنطقة الشرقية من بحر المتوسط فى الدخول الى التاريخ ، وتسارع تطورها الحضارى • ويتمثل ذلك فى الحضارات الرافدية ، المصرية ، الكنعانية ، الايجية •

2 ـ تاخر المنطقة الغربية من المتوسط حوالى ألفى سنة ، ثم تدرج دخولها فى الحقبة التاريخية فى أزمنة مختلفة ، وعلى درجات متفاوتة من التطور •

وقد تم ذلك بتحريض قادم من المنطقة الشرقية، ويتمثل فى تحركات بشرية : لفينقيين ، اتروسك ، اغريق الذين نقلوا معهم الادوات الرئيسية للدخول فى التاريخ ، وفى مقدمتها الكتابة الابجدية : الفينيقية والاغريقية •

3 ـ باستثناء مصر ، تتميز المنطقة الجنوبية من حوض المتوسط بضآلة المعلومات التاريخية عنها ، حتى ان فصولا عديدة من تاريخها ما تزال تتألف من صفحات غير مكتوبة ، يضاف اليها ثغرات تتخلل الفصول الاخرى ، هذا رغم ان بقعتين من هذه المنطقة المعروفة باسم شمال افريقيا : « ليبيا » ثم « الولاية الافريقية » أى تونس منحت اسمها مرتين للقارة السوداء • فكانت ليبيا سابقا ، وافريقيا لاحقا • هنالك اسباب عديدة يمكن ان تقدم كتبرير للوضع الراهن بالنسبة لتاريخ المغرب القديم • يرد فى مقدمتها الوضع الجغرافى ـ المناخى الذى فرض نوعا من العزلة ، نتج عنها بطء فى التطور ، وخاصة فى الانتقال من العصور الحجرية الى العصور التاريخية • ثم الوضع السياسى الذى شغل تاريخ المغرب بصراعات مع شعوب مجاورة أبكر فى التحضر : من مصريين، وايجبيين ، وفنيقيين واغريق • وقد عبر المؤرخ جوليان بشكل مبالغ عن ذلك : « لم يصطدم التاريخ بالبربر الا عرضا ، وذلك عند اتصالهم بالشعوب الاخرى » (1) • وبالضرورة قام بتسجيل هذه العلاقات كتاب ومؤرخون وفنانون اجانب من أبناء الشعوب التى اتصل المغاربة بها ، فكان تاريخا مختزلا وحيد الجانب ، لا يخلو من تحيز •

ولم تتمكن الكتابة الليبية مثلا من التطور والوصول الى مرحلة يمكن فيها تثبيت اللغة فى واسطة نقل أدبية ، علاوة على تعدد اللهجات • أخيرا وليس آخرا ، فقد المغرب القديم معظم مصادر تاريخه الكتابية والمادية المباشرة خلال الصراع الطاحن بين روما وقرطاجنة ، وبعد هزيمة الاخيرة • مثلما فقد الكثير من مصادر تاريخه غير المباشرة والتى تغطى حقبات هامة من الالف الاول ق•م • اثر هزائم مدينة صور ثم دمارها على يد الاسكندر الكبير ، واضمحلال المدن الفنيقية فى شرقى المتوسط •

اذا كانت العوامل السالفة تركت نتائجها السلبية ، والعميقة الاثر ، فى تاريخ المغرب القديم ، فلن يعنى ذلك ان الوضع الراهن للبحث سيستمر بالضرورة • واذا كانت مصادر تاريخ المغرب الكتابية تتميز بانها وحيدة الجانب حتى الآن ، أى انها من تآليف الآخرين ـ فان هنالك عنصرا يمكن ان يصبح معادلا لها من حيث القيمة التاريخية ، وهو المصادر المادية والكتابية المباشرة ، التى ما تزال تكمن عبر الازمنة تحت تراب المغرب وفى مواقعه الاثرية • وهذه لم تلق بعد القدر الوافى من العناية والبحث • ثم تأتى المصادر المادية والكتابية غير المباشرة المتناثرة فى البلاد التى احتكت بالمغرب من قريب أو بعيد • ولعل من أغراض هذا البحث ان يلفت انظار المهتمين بتاريخ المغرب لا الى اهمية المصادر المباشرة فحسب ، بل والى الدور البالغ الخطورة الذى يمكن ان تقدمه المصادر غير المباشرة ايضا (2) •

المصادر المصرية :

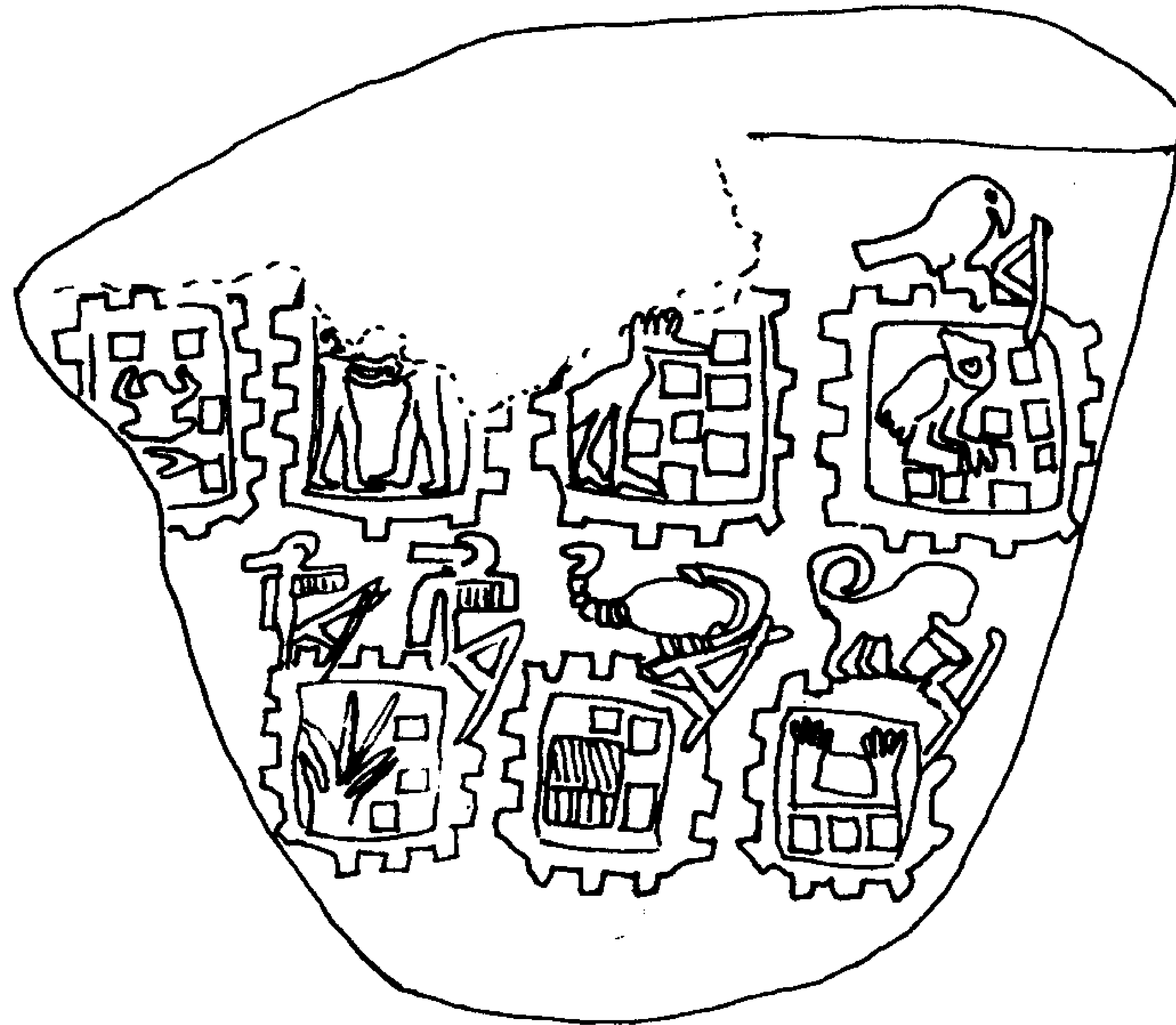
ذكرنا ان تاريخ المغرب القديم مستمد الى حد كبير من حوليات وشواهد ومستندات مصرية أو ايجية ، أو فنيقية ... الخ . وتتميز المصادر المصرية حسبما تضمنتها حوليات الفراعنة وافاريز رسوم حملاتهم بأنها تكاد تنفرد فى القاء الاضواء على مرحلة ما قبل التاريخ المغربى . غير انها لا تصل الى مرتبة الكتابة التاريخية المنهجية التى سيكون المؤرخ هيرودوت أول من يمارسها بالنسبة لتاريخ المغرب (1) . كذلك لا تتصف العلاقات المصرية ـ المغربية بالشمول ، بل تقتصر على المناطق الواقعة الى الغرب من النيل مباشرة ـ وخاصة فى الواحات الغربية ـ ولا تتعدى على ما يبدو قرينى او خليج السرت الكبير . أما المنطقة المتدة وراء ذلك حتى شواطىء المحيط الاطلسى ، وافريقيا عامة فكانت أرضا مجهولة من المصريين . وقد اطلق هؤلاء على المناطق الواقعة غربى النيل اسما عاما هو imnt أى الغرب (2) كما اطلقوا اسم تهنو TEHENU وتميهو TEMENU وليبو LEBU وغيرها كثير على الجماعات المقيمة مباشرة الى الشمال والجنوب والغرب منهم . واستنادا الى الوثائق المصرية من حوليات الدولة الحديثة ـ وخاصة من عهد رعمسيس الثالث ـ والتى تخبر عن جهود المصريين لضم مناطق الواحات الى مصر ـ يتبين ان ليبيا كانت تشمل منذ الالف الثالث على الاقل مناطق واسعة غربى النيل مباشرة (1) ، لا تنطبق مع معالم الحدود الحالية . وهذه حقيقة يشير اليها هيردروث عندما يقول : « تبدأ ليبيا من غرب النيل وتمتد حتى الاطلسى ، ويحدها من الجنوب ارض الاثيوبيين السود ذوى الشعر الصوفى » (2) .

يسيطر على العلاقات المصرية ـ الليبية جهود الفراعنة المستمرة ـ منذ العصر الثينى 3000 ـ 2700 ق.م . أى منذ عصر الملكين العقرب ونارمر ـ لدفع الليبين الذين جذبتهم ثروات وادى النيل وأراضيه الخصبة ، وخاصة البدو سكان الصحراء الليبية . كذلك افقادهم الامل فى الوصول الى مناطق المدن والحضارة لنهبها او الاستقرار فيها ، وذلك عن طريق معاقبتهم خاصة انهم كانوا يتحالفون مع الثوار فى الدلتا . وهؤلاء كانوا يرفضون الاتحاد مع مصر العليا (3) . وقد درج فراعنة العصر الثينى ، والسلالات الاولى والثانية، والدولة القديمة على اتباع هذه السياسة الدفاعية. وخلدوا اخبارها على أوابد **تذكارية : كالهراوات الحجرية ، ولوحات مزج مساحيق الزينة** . ومن أبكر هذه الوثائق التى تسجل مواضيع تاريخية لوحة لمزج المساحيق SCHNINKPALETTE اصطلح الباحثون على تسميتها : «لوحة الحصون»، تعرض مشهدا يرمز لانتصار حققه الفرعون الغامض المعروف باسم « العقرب » . فقد رسم على الوجه الاول للوحة (1) صورة سبعة مواقع محصنة باسوار ذات ابراج تقوم حيوانات ترمز الى الملك ـ من بينها العقرب ـ بتهديمها (الصورة 1) . وعلى الوجه الآخر يرى صفوف من ثيران وحمير واكباش متتالية ، وفى الاسفل اشجار (تين ؟) غنمها الملك العقرب من ليبيا o وهنالك

الى جانب الاشجار العلامة الكتابية الخاصة بليبيا (الصورة I ب) ويستنتج المؤرخ الكسندر شارف من كل ذلك ان هذه اللوحة تخلد نصرا مصريا على جيران مصر الغربيين المقيمين فى ليبيا (2)٠ وهناك أثر ثان قد يؤيد هذا الرأى ، هو هراوة للملك العقرب نفسه عثر عليها فى انقاض معبد العاصمة هيرا كونبوليس . تصور الملك يرتدى تاج مصر العليا الابيض ويحتفل بانتصار الجنوب على تحالف يتألف من مصريين وأجانب (3) ٠ أما الملك آها أو (مينس ؟) - أول ملك فى السلالة الاولى - فهنالك عدد من الاوابد تشير الى انتصاراته على اقوام الليبيين ومصرى الشمال ٠ وبفضل حجر « بالرمو » نسمع عن حملة قادها الملك سنفرو (أول ملوك السلالة الرابعة) لحرب الليبيين ، انتصر فيها وعاد بعد ان غنم 11000 اسير و 131000 رأس ماشية (1) ٠ ومن الجدير بالذكر ان وثائق السلالة الرابعة تقدم معلومات لاول مرة عن علاقات ذات طابع غير حربى فى العلاقات المصرية - الليبية ٠ فحفيد الملك صنفرو - وابن خوفو بانى الهرم الاكبر - المسمى ددفرع يتزوج اخته من ابيه واسمها حتب - حيريس ٠ وقد عثر على صور هذه الملكة فى مدفن ابنتها محاطة بكامل ألقابها الملكية ٠ وخلافا للنساء المصريات تتميز حتب - حيريس بشعر اشقر وعيون فاتحة ، كما ترتدى ثيابا اجنبية ٠ ويمكن اعتبارها أقدم ممثلة لليبيين الشقر « التميهو » ، الذين يدخلون لاول مرة عن قرب فى تاريخ الدولة المصرية القديمة ٠ والمرجح ان الملك خوفو اتخذ لنفسه زوجة ليبية هى ام حتب - حيريس الشقراء (2) ٠ ومنذ هذا العهد الباكر ستتخذ مصر موقفا متماثلا من الليبيين فتكرر عبر السلالات الواحدة والعشرين أى حتى غزوة شعوب البحر حملات الفراعنة وجهودهم لصدهم . ويتكرر معها تسجيل هذه الاعمال على أوابد ووثائق الدولة المصرية بالكتابة وبالتصوير والنقش ٠

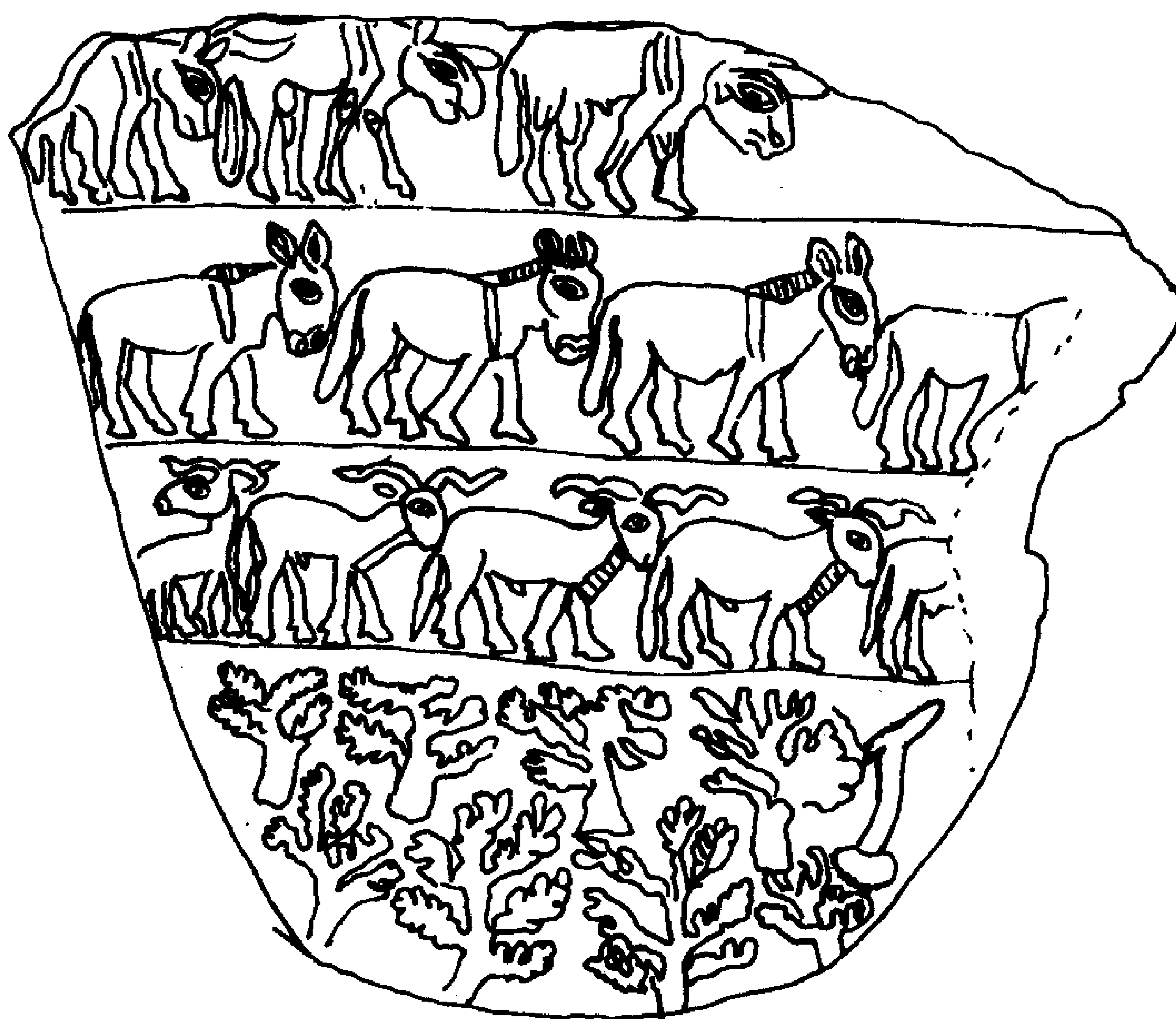
المصادر الايجية - الاغريقية :

لم يكن البحر المتوسط خاليا من النشاط الملاحى ، قبل أن يمخر عبابه الفنيقيون والاغريق، متجهين نحو الجزء الغربى منه ، بل كان الاخيرون ورثة حركة ملاحية نشيطة بدأها سكان جزر السيكلار منذ الالف الثالث ق٠م ٠ فعرفوا مسالكه بمراكبهم المتطاولة ذات المقدمة المرتفعة (1) المنتهية بشكل سمكة ٠ كما شاركهم المصريون بسفن « أعالى البحار » الشهيرة ذات المجاذيف الوفيرة ، وتلاهم ملاحو جزيرة كريت « الكفيتو » KEFITU العظام ، الذين يكثر ذكرهم فى النصوص المصرية ، وملاحو العالم الايجى وخاصة فى العهد الميكينى ٠ وقد استعمل هؤلاء سفنا تدفعها المجاذيف الوفيرة ، بالاضافة الى شراع مربع الشكل ربط على السارى الاوسط فى المركب ٠ ومما لا ريب فيه ان الثراء المادى الضخم والازدهار الحضارى الذى حققته الحضارة » المينوسية « فى جزيرة كريت « والميكنية » فيما بعد فى شبه جزيرة البيليبونيز . يعود بالدرجة الاولى الى الحركة التجارية - البحرية الكثيفة التى تولتها اساطيل هذه المدن خلال الالف



1

حيوانات الملك العقرب تهدم المدن المحصنة الليبية



1 *bis*

غنائم الملك العقرب مع العلامة التي ترمز الى ليبيا

الثانى ق٠م ٠ فكان الحوض الشرقى للمتوسط يشبه بحيرة داخلية ، تتبادل الدول المطلة عليها المنتجات الزراعية والصناعية وخامات المعادن ٠ ومع السلع انتقلت الافكار والتأثيرات الحضارية فى كافة الاتجاهات ، وخاصة بين مصر والعالم الايجى ، وبين مدنه وعالم آسيا الغربية ٠ ولم يوقف هذه الحركة الدولية النشيطة فى عالم ساده تعايش-دولى ، الا غزوة لشعوب همجية قدمت من اوروبا ، واجتاحت منطقة البحر المتوسط الشرقى فى حوالى 1200 ق٠م ٠ وقد عرفت باسم غزوة « شعوب البحر » ٠ أما الاثار التى خلفتها غزوتهم فكانت بعيدة الاثر ، بسبب الحريق والدمار الذى انزلوه بالمدن المزدهرة فى الاناضول وعلى طول شواطىء سورية وحتى مصر من جهة ، وبسبب تغير موازين القوى فى المنطقة من جهة اخرى (I)

قد يخيل للقارىء أن المغرب القديم بقى فى معزل عن الفعاليات والتيارات السالفة الذكر ، والتى سادت المتوسط الشرقى خلال الالف الثانى ق٠م ٠ ولعل ندارة المصادر التاريخية المباشرة تبرر ذلك الظن ٠ غير ان الواقع الجغرافى للمغرب وسير الاحداث التاريخية حوله ، تقدم دلائل قوية على ان المغرب ، خاصة شرقيه ، كان له

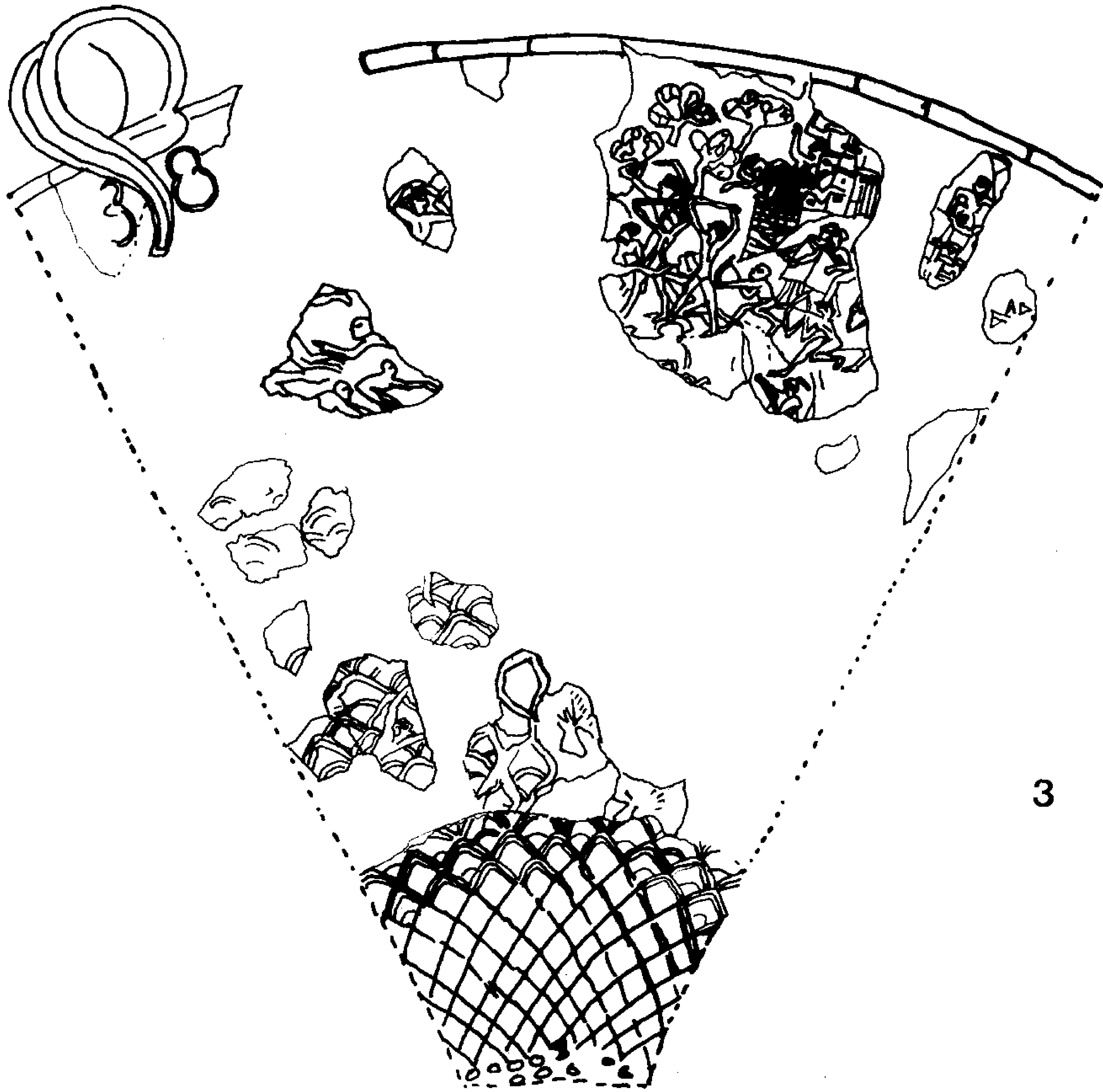


2

جثث قتلى يغرقون فى البحر قرب مركبين محلات الطمالبيي

دور هام ٠ وتتظافر الادلة المكتشفة حديثا على دعم هذا الرأى ، وعلى رفع الضباب الذى يلف تاريخه — تكفى نظرة الى خارطة البحر المتوسط لتبيان صلة المغرب الشرقى (ليبيا) الوثيقة بتلك التفاعلات فليبيا تقع مباشرة تجاه بلاد الاغريق الام ، التى تؤلف جزيرة كريت واجهتها الجنوبية ٠ ولا يفصل قرينى CYRENAICA عن كريت اكثر من 300 كيلو متر ٠

وهى نفس المسافة بين كريت ومرفأ اثينا ، او قيرينى ودلتا النيل تقريبا ٠ وبسبب قرب المسافة كانت جزيرة كريت شديدة الصلة مع قيرينى ، أكثر من اتصالها مع بلاد اليونان الام (I)٠وكانت الملاحة من كريت الى مصر تمر فى طريقين : مباشر ، يتوقف على تهيىء طقس مناسب ورياح غربية ، لكنه محفوف بالمخاطر — وآخر غير مباشر



مراكب ميكينية تهاجم مدينة على الشاطئ الليبي

يتجه الى قيريني ، ثم يتابع السفر الى مصر مستفيدا من الخلجان والشواطىء الرملية على طول الساحل الليبى .

وهنالك طريق ثالث طويل يدور عبر جزيرة قبرص والساحل السورى . ومما لا ريب فيه ان الطريق الى مصر عبر قيريني كان أسهل واسلم هذه الطرق البحرية . ولا يستبعد ان العلاقات الوثيقة بين الحضارات المصرية – والمينوسية ، الميكنية استفادت من هذا الواقع (2) كذلك لا يستبعد العالم ايفانز قيام علاقات مباشرة بين ليبيا والعالم الايجى .

هنالك حدث يمكن ان يقوم برهانا على قيام مثل هذه العلاقات ، ولكن فى فترة تالية – يتمثل فى اختيار الاغريق لمنطقة قيريني فى منتصف القرن السابع ق.م لتأسيس خمسة مستعمرات . وقد قام مؤسسوا مدينة قيريني نفسها CYRENE من جزيرة ثيرا THERA ، التى تقع مباشرة شمال جزيرة كريت (2) .

وبالمثل لا يستبعد ان يكون المينوسيون قد أسسوا مستوطنات على الساحل الليبى – قبل ألف سنة ، ساهمت فى التجارة الدولية . وخاصة فى تصدير الثروات الزراعية والحيوانية التى اشتهرت بها ليبيا وفى مقدمتها نبات « السلفيون» SYLPHIONU (1) . ويستدل أيضا على قيام الصلات انذاك من العثور على نقش يصور مركبا منخفضا (فى مقنة بين باجه وطبرقة) – زود صاريه الاوسط بشراع شكله شبه منحرف ، يماثل المراكب المستخدمة فى الالف الثانى . ويحمل المركب جنودا يرفع احدهم سلاح الفأس المزدوج الشائع استعماله لدى المينوسيين . وقد يكون من المفيد لدعم الرأى المؤيد لقيام هذه العلاقات ، ايراد الاساطير التى تدور حول الموضوع ، والتى لابد وانها تحمل فى طياتها قبسا من حقيقة تاريخية يماثل ما قدمته اسطورة طروادة . ومن ذلك مايذكره ديودور الصقلى عن قيام ابطال الاغريق بتأسيس مدينة مشالة عقب عودتهم من حرب طروادة . وما تذكره احدى الاساطير من أن كوروبيوس الكريتى قذفت به العاصفة الى الشواطىء الليبية فعاد اليها مرة ثانية يقود سفينة (2)

اكتشافات جديدة من جزيرة ثيرا :

أشرنا الى ان اوائل المستعمرين الاغريق الذين تذكرهم المصادر التاريخية قدموا الى قيريني فى القرن السابع ق.م من جزيرة ثيرا . وكانت للاغريق مع الليبيين معارك عديدة وعنيفة ، الى ان تم اختلاط العنصرين وتعايشهما . ومن جزيرة ثيرا نفسها ترد الآن اكتشافات تاريخية هامة تلقى اضواء جديدة على حقبة تاريخية تكاد تكون ضائعة . ولربما تؤدى هذه الاكتشافات الى اعادة كتابة فصول بكاملها من التاريخ القديم .

تم الاكتشاف الاول على يد بعثة من الاثريين اليونان برئاسة العالم سبريدون ماييناتوس . وقد نقبوا مدة ستة سنوات للكشف عن موقع مدينة هامة فى جزيرة ثيرا ، كانت مركزا هاما من مراكز

الحضارة المينوسية (نسبة الى الملك الاسطورى مينوس) ولحسن حظ المؤرخ ، كانت هذه المدينة قد ردمت تحت غطاء من الرمال والتراب الذى شمل المنطقة فى حوالى 1500 ق.م نتيجة انفجار بركان كبير فيها (1) • وبذلك سلم كثير من معالم المدينة من عوامل الفناء ، أو من التلف على يد السكان التالين •

هنالك فى طليعة الوثائق المادية المكتشفة رسوم جدارية FRESCOES رائعة الجمال تعرض مشاهد طبيعية متنوعة : من سنونيات تحلق بين الازهار ، أو غلامين يتلاكمان ، او رجل يركع فى وضع العبادة ••• علاوة على ذلك هنالك رسوم تعرض مشاهد تاريخية تتصل بشكل وثيق بماضى القوة البحرية التى ساعدت أهل جزيرة ثيرا على تكوين ثروتهم الضخمة • وقد عثر على هذه الوثائق فى منزل تم انقاذه من كتل الرماد فى الصيف الفائت. وكان مزينا بافريز يبلغ طوله 6ر30 مترا رسم بشكل عصابة تطوف بثلاثة من جدران المنزل • وقدم هذا الافريز المصور ــ بعد ترميمه ــ وصفا مثيرا « لملحمة حربية » تماثل ملحمة طروادة ، الا ان الفارق بينهما ــ كما عبر عن ذلك العالم ماريناتوس ــ ليتركز فى ان ملحمة طراودة تتالف من شعر خطته يراعة كاتب ، وملحمة ثيرا تتالف من شعر صورته ريشة فنان •

مشاهد الملحمة :

تتالف اللوحة من سلسلة من المشاهد الصغيرة، لا يتجاوز ارتفاع احدها 40 سنتمترا • تعرض تفاصيل معركة حربية دارت بين اسطول من السفن المينوسية ، وعمارة بحرية صغيرة معادية له •وكان مسرح المعركة على مبعدة من شاطىء احدى المدن الساحلية • وبعد ان تمكن المقاتلون المينوسيون من الظفر باعدائهم ، نزلوا الى اليابسة ودمروا المدينة ، واستولوا على ما فيها من اشياء ثمينة • وقد قام الفنان باعادة تركيب تفاصيل المعركة : فهنالك رجال يسقطون فى البحر من سفن غارقة (الصورة 2) وهم ينحدرون الى الاعماق ، وبالمقابل تقفز نسوة هلعات يائسات من ابراج المدينة • بينما يقوم الجنود الظافرون بدفع قطعان الاغنام والابقار المنهوبة •

وفى ألواح أخرى نرى سكان مدينتين اخريين يرحبون بالمنتصرين • وهذه الاعمال تدور أمام خلفية من مناظر الطبيعة التى تحفل بالاسود والوعول والنمور والفهود وحتى بالزرافات ، اضافة الى حيوان اسطورى له رأس وجناحى نسر وجسم اسد (جريفين) •

استنادا الى معالم وجوه السكان ، وأنواع الحيوانات الاهلية التى كانوا يربونها ،والحيوانات الوحشية التى تملأ خلفية المنطقة ، يستنتج العالم ماريناتوس بان هذه المشاهد الحربية دارت على الشاطىء الليبى (1) ولربما كانت المدينتان المذكورتان اما مدينتين حليفتين للمينوسيين ، او مستعمرتين لهم • وقد قام أهل المدينتين على ما يبدو باستدعاء نجدة بحرية مينوسية لتساعدهم ضد مدينة غريمة او منافسة لهم • واذا كان ماريناتوس مصيبا فى هذا التفسير للوثائق المصورة ، فان الافريز الملون الذى عثر عليه فى

جزيرة ثيرا يدفع تاريخ ليبيا ألف سنة الى الوراء ، أى الى منتصف الالف الثاني ق٠م ٠ « ولهذه الاسباب يعتبر الافريز اثمن وثيقة تاريخية أمكن الحصول عليها حتى الآن من بقايا حضارات عصر البرونز » (2) ٠

تزداد قيمة اكتشاف الصور الملونة فى جزيرة ثيرا الى حد كبير اذا استطعنا الآن أن نضيف اليها اكتشافا سابقا ، ظل أمره مهملا مدة طويلة لخطأ فى تفسيره ٠ فقد عثر سابقا فى ما يسمى » القبر الرابع « SCHACHTGRAB من القبور المكتشفة فى مدينة ميكينى (فى شبه جزيرة البيليبونز) (1) على اناء مخروطى الشكل صنع من معدن الفضة RHYTON ٠ وكان الاناء الثمين من ضمن الممتلكات الشخصية الوفيرة والغنية التى دفنت مع أمراء الاسرة الحاكمة فىهذه المدينة ٠ رسم على الاناء الفضى مشهد يمثل هجوم محاربين ميكنيين على مدينة تقع على الشاطىء (صورة 3) ٠ ويرى أهل المدينة يقفون على برج واسوار المدينة , وقد رفعوا ايديهم هلعا ويأسا ، وهم يشاهدون المعركة التى تدور رحاها امام اسوار مدينتهم بين الغزاة والمدافعين ٠ وبالنظر الى ان المشهد المرسوم على الاناء قد تشوه وضاعت اجزاء كثيرة منه مع الزمن ، فانه يمكن فيما تبقى منه رؤية محاربين صرعى ينحدرون الى اعماق المياه ، ومن المحتمل جدا ان المشهد كان يتضمن صورا للمراكب البحرية التى اشتركت فى المعركة ٠ وفى خلفية الصورة ترى اشجار (التين ؟) ٠ ويمكن تميز المهاجمين بخوذهم ذات الذؤابة (2) ، عن المدافعين العراة وحاسرى الرؤوس ، الذين يستخدمون القوس والنشاب والسيوف ؟ ٠ ويعود تاريخ الاناء الفضى الى بداية الثقافة الميكنية ، أى ا لىالقرن السادس عشر ق٠م

اختلف المؤرخون حول المكان الذى دارت فيه هذه المعركة ٠ واعتمدوا انذاك على احتمال وجود حيوان رسم ضمن الماء ، فسروه بانه (فرس نيل)، ليقولوا بان المعركة يحتمل انها تمثل هجوما بحريا على حصن او مدينة للهكسوس واقعة فى دلتا النيل ؟ وقد شك العالم شاخرماير فى صحة هذا التفسير ونوه بأنه غير مؤكد (1) ٠ واذا قارنا بين مشهد المعركة المرسوم على الاناء الفضى ، والمشهد الجدارى FRESCO المصور فى جزيرة ثيرا ، لراعنا التشابه التام فى الموضوع : (معركة بحرية امام مدينة ساحلية) ، وفى التفاصيل : (محاربون صرعى يسقطون فى اعماق الماء ومدينة تهزم) ٠ هذا بالاضافة الى الخصائص الفنية المشتركة : فى اسلوب الرسم ، وفى دقة التعبير عن الحركة الحرة فى سقوط الاجسام فى الماء ، ومحاولة التعبير عن وجود الماء بشكل تموجات تتكاثف مع ازدياد العمق ٠ وهى جميعها خصائص تتميز بها مدرسة الفن الايجى ٠ اخيرا يخلد كلا المشهدين ذكرى انتصارات هامة تعتمد على غزو بحرى ٠

تقييم الشواهد التاريخية :

من المسلم به ان طبيعة المغرب ومناخه ساهمت الى حد كبير فى تطوره التاريخى ٠ فعن هذه المعطيات الطبيعية نشأت ثلاثية البيئة : من سهل

وجبل وصحراء ، ومنها تكونت ثنائيته الاجتماعية: بدو وحضر . ولقد انتج المغرب منذ العصور الحجرية حضارة رائعة في المنطقة التي ستتحول الى « صحراء » ، بقيت رسومها الصخرية ، وادواتها الحجرية شاهدة على قيامها وعلى صلاتها الحضارية بالمراكز المجاورة . أما السهل او شريط الحياة ، فانه غدا مع تزايد الجفاف في الداخل مأوى للذين نزحوا عن مواطنهم السابقة، ومهدا طبيعيا لقيام واحتضان حياة حضرية تعتمد على الاستقرار والزراعة وانشاء المدن . وبقدر ما كان تاريخ المنطقة الداخلية « الصحراء » غنيا بالشواهد عن ثقافة الصيادين الرعاة ـ لانها سجلت على مواد عسيرة على الفناء ـ تميزت منطقة السهل بقلة المصادر والشواهد التاريخية في المرحلة الهامة التي سبقت بداية التاريخ في المغرب ، أي في الالفين الثالث والثاني ق.م الا ان هذه الظاهرة ليست دليلا على « لا تاريخية المغرب » ولا نعدو الحقيقة اذا شبهنا تاريخ المغرب القديم بصورة ضخمة من الموزاييك تبعثرت عبر الزمن الجزئيات الصغيرة التي كانت تتألف منها : فتشوه قسم ، وتحطم آخر ، وضاعت اقسام اخرى بفعل عوامل طبيعية وبشرية . ويمكن القول على ضوء الشواهد التاريخية التي قدمناها ـ من مصر ومن العالم المينوسى ـ الميكنى ومن المغرب نفسه ـ خلال هذا البحث ، بأن جزئيات من الصورة الضخمة تظهر مباشرة ، أو غير مباشرة ، نتيجة الصدفة حينا ، او نتيجة البحث التاريخي والتنقيب الاثرى احيانا . وهى تشير أى الجزئيات ـ حين يتم جمعها وتحدد العلاقة بينها ـ الى الاصل الواحد الذى كانت تمت اليه .

واذا عدنا الى الشواهد المستمدة من الالف الثالث لاحظنا ان مصر مارست علاقات متصلة مع المغرب الشرقى (ليبيا) ، وبالمثل كان للمغرب فى نفس الفترة (عصر البرونز الباكر) تأثيرات قوية على جزيرة كريت تظهر فى انتقال فن العمارة الميجاليتية بابنيتها المستديرة واسلوب بناء قببها ، ومن كريت انتقلت هذه التأثيرات الى جزر السيكلاد والى بلاد اليونان الام . وتشير لوحة الملك « العقرب » على ما يبدو ، الى ان سكان ليبيا ـ مهما كانت حدودها الشرقية ، كانت لديهم منذ الالف الثالث مدن محصنة ، وزراعة ، وتربية مواشي وحيوانات أهلية وفيرة وملابس وعادات خاصة ، وملامح اتنوجرافية محددة ، وصلات مع مراكز الحضارات الاخرى . ولا يستبعد أن كانت ليبيا متحدة مع دلتا مصر فى الاصل ولها دور سياسى وحضارى يعبر عنه « اخذ فرعون مصر التاج الابيض من ايدى الاجانب العظام الذين يحكمون الليبيين » . ثم حدث انفصال لاسباب اقتصادية تتعلق بطبيعة وادى النيل وضرورات اتحاد الجنوب مع الشمال . ولربما تشكل عودة الليبيين الى مصر فى عهد السلالتين 22 ـ 23 رجوع الى البداية التى انطلقت منها العلاقات بين المنطقتين فى باكورة التاريخ .

أما الشواهد عن العلاقات مع العالم الايجى فقد جاءت لتؤكد حقائق عديدة وهى استمرار الصلات الحضارية خلال الالف الثانى ، ووجود المدن

المحصنة فى المغرب الشرقى واستقرار الحيـــــاة الحضرية فيه رغم وجود توازن مع نمط الحيـــــاة المترحلة · وتكاد الوثائق الثلاثة التى قدمناها من فتـــــرات ومناطق مختلفة تجمع على تأكيد هذه الصورة من التطور ، مثلما تشترك فى اعطـــاء فكـــرة عن طبيعة العلاقات التى كانت ســـائدة انذاك · والوثائق تكفى لدحض الافكار السلبية على الاقل التى ارســـخها المؤرخ سالوست عن « بربرية أوائل سكان المغرب » ، والجغـــرافى سترابون« عن بداية الزراعةوالتمدن لدى أهله» ، والمؤرخون المعاصرون أمثال قوتيه وجـوليان عن « لا تاريخية المغرب القديم » · ومما لا ريب فيــه ان الشواهد المقدمة تفتح أمام المؤرخ آفاقا جديدة من تاريخ المغرب القديم ، وتضع أمامه مهمة شاقة وممتعة بنفس الوقت لجمع المزيد من المعلـومات ، ولايضاح الدور الحقيقى الذى لعبه المغرب بالنسبة للحضارة الانسانية ·

هـــوامش :

1) ش . جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية . تعريب مزالي وبن سلامه ، ص 70

2) راجع هـ . الصفدي : نحو وعي افضل لتاريخ الجزائر ، مجلة الاصالة ، العدد 8 ، 1972 ، ص 165 — 177

1) Herodote, Textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique du Nord par S. Gsell Alger 1915, p. 9

قارن تحديد هيرودوت لانحاء القبائل ومناطق انتشارها

2) راجع الجداول المقارنة لاسماء ومناطق توضع الليبيين في مؤلف O. Bates, The Eastern Libyans 1970, p. 39 f.f.

1) J. Breasted, ancient record of Egypte 1906, vol. IV, p. 213.

2) Herodote, II, 17, 32.

3) J. Vercoutter, Fischerweltgeschichte, Bd. II, s. 242 ff.

1) لم يبق الا النصف الاسفل من هذه اللوحة المصنوعة من حجر الاردواز ، ويبلغ طولها 28 سنتيمترا ، وهي محفوظة في متحف القاهرة ، راجع :

1) K. Lange Aegypten, Muenchen 1961, Taf. 3 unten und S. 37.

2) A. Scharf, A. Moortgat, Aegypten und Vorderasien im Altertum, Muenchen 1950, S. 23-24.

3) A. Scharf, Ibid, S. 24.

(1) J. Vercoutter, Fischer weltgestchichte, Bd. II, S. 256

2) راجع (2) A. Scharf, Ibid, S. 57.

1) انظر (1) J. Vercoutter, Egypte et prébéllénes, 1954, P. 73.

1) راجع اثار غزوة شعوب البحر على شمال افريقيا ، وعـــلى ليبيا خاصة :

(1) A. Scharf, Ibid, S. 164-169.

1) وحدت الامبراطورية الرومانية جزيرة كريت وقيريني في ولاية واحدة

2) راجع

(2) F. Schachermeyer, Aegaeis und Orient, wien 1967, S. 9-12.

3) عرفت المدن باسم « البنتابوليس » وهي : قيريني — برقة — برينيكه — ايينوى — ابو للوينا ، واعطت قيريني اسمها لكافة المنطقة

1) انقرض السلفيون من ليبيا بسبب تهافت الاغريق الشديد على قطعه وتصديره ، وقد استعملوه في تطيب الاطعمة والتداوى قبل معرفة توابل الهند ، فساهموا بذلك في انجراف التربة الليبية

2) راجع جوليان ، نفس المصدر ، ص 73

1) انظر التقرير الموجز الذى نشرته مجلة « تايم » الامريكيةعن بعض نتائج التنقيب في عددها السادس عشر ، علم 1973 ، ص 40 ، وصورة الجزء من المشهد

1) قابل وصف هيرودوت : اشرت الى الليبيين البدو الذين يسكنون على طول (شاطىء) البحر ، وفوقهم وفي داخـل البـــلاد توجد ليبيا الحيوانات المتوحشة

2) اعتمدنا في الوصف على تقرير مجلة « تايم » وعلى الصورة الوحيدة التي نشرت لجزء من الافريز (صورة 1) ، ولا شك ان نشر بقية الصور سيمكن من اجزاء مقارنات واستنتاجات تاريخية اكثر دقـــة

(1) Karo, Schachtgraben, 1930, Nr. 481, Taf. 122 Lhote

2) تشبه الخوذ التي يرتديها جنود مسينيون ورسمت على اناء فخارى ، وهنالك نموذج منها اشار اليه العالم ضمن رسوم الصحراء الصخرية

(1) F. Schachermeyer, Ibid, S. 48, 63.

في الحقيقة ليتعذر تبيين حيوان (فرس النيل) في تفاصيل هذا المشهد

الجزائر وأقطار العالم الثالث

في نظر الإتنولوجيا

في القرن التاسع عشر

د. يوسف نسيب

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

من الشيق ان نتساءل كيف كان علماء الانتنولوجيا الاوروبيون فى القرن التاسع عشر يتصورون معشر الجزائريين وشعوب اقطار العالم الثالث على العموم ٠

ومن المعلوم ان الاكتشافات الكبرى للهند وامريكا التى جاءت بعد عصر الانبعاث الاوروبى قد أثارت فى أوروبا رغبة البحث عن الشعوب القصية وما فى معاشها من عجائب وغرائب كان ذلك عند انتهاء القرون الوسطى المتسمة بالطابع

المسيحي اللاهوتي التي كان شعارها (لا منجاة خارج حضيرة الكنيسة) معنى ذلك ان الشعوب الاخرى لا تكون بطبيعة الحال الا قبائل متوحشة . فكانوا اذن يربطون كل شيء بأوروبا ونظرتها الى العالم وأوروبا تنبعث (لتحضير) العالم بحضارتها فكان (بروسبيرو) (1) يرى من واجبه تهذيب (كاليبان) (2) وهكذا كان شكسبير من ذلك العهد قد طرح قضية الاستعمار على البساط .

ولكن القوة الغاشمة هي التي كانت تسيطر على الموقف آنذاك فكانت شروط اللعبة واضحة ويا للاسف حيث يعلم (كاليبان) و (بروسبيرو) كلاهما أن للجزيرة مالكا شرعيا واحدا ولكن الاول كان يتمتع بقوة السيف في حين كان الثاني لا يتحصن الا بقوة الحق .

وفي حوالي سنة 1830 (وهي سنة ذات اهمية تاريخية مزدوجة بالنسبة للجزائر) شرع التوسع الاوروبي واستثماره للاصقاع الغنية القصية يحاولان ان يدعما كيانهما الاخلاقي بدعائم من العلم فقامت المباحث الانتولوجية في بدايتها ابان القرن الماضي تلعب هذا الدور اي دور التحديم العلمي وبقيت مدة طويلة وهي تحمل في جبينها تلك الوصمة ـ وصمة الخطيئة الاولى ـ .

ونشر اوغست كونت نظريته سنة 1830 مبنية على نموذج التطور الثلاثي حسب قطبين احدهما يتمثل في جهالة التوحش والآخر في اشراق نور الوضعية فاغرت هذه النظرية عقول الناس ومعنى ذلك ان اشراق نور الفكر وايناع بساتين الاخلاق انما هما في أوروبا ربة المحاسن اما مجاهل الجهالة وانحطاط الاخلاق فموضعهما في المجتمعات النائية القصية ذاك مع حكم به سداة الاتنوجيا في بدايتها فاتحد الزمان بالمكان واطمئنت الضمائر بحصول هذا القران أي ان النائي القصي والبدائي الاصلي اصبحا شيئا واحدا في ذهن الرعيل الاول من علماء الاتنولوجيا كما ان القريب الداني والمتحضر المتمدن يمتزجان في الثقافة الاوروبية المعاصرة لهم .

ان ذنب المجتمعات (المباينة) هو مباينتها لاوروبا فهي اذن مجتمعات (ليس لها تاريخ) وأتفق ان العالم (بوشي دى برت) عثر في حفرياته وتنقيبه عما قبل التاريخ على بعض الادوات البدائية (سنة 1829) فخطا القوم بنظريتهم خطوة جديدة فقالوا ان الادوات التي تستعملها الفئات الافريقية وهي المسماة عندهم (بدائية) هي نفس الاشياء (تقريبا) أو مثل الاشياء التي عثر عليها في الرواسب او الغيران (وبعبارة واحدة) : كانت الاتنولوجيا الناشئة تظن أنها عثرت على الانسان الذى انقرض منذ آلاف السنين واندرست ثقافته وتعتقد انها وجدته حيا يرزق .. في المجتمعات التي سميت فيما بعد اقطار (العالم الثالث) .

لا شك ان لهذا الانسان الذى نجا من غير الزمان ميزات عقلية وبيولوجية معينة فهو غير

1 و 2) بروسبيرو وكاليبان من الاشخاص الخرافيين الذين انشاهم شكسبير في روايته (العاصفة) يمثل الاول السيد المتحضر غاصب الجزيرة ويمثل الثاني القوة المتوحشة الثائرة ضد الغاصب

قادر على (التنظير) أى انشاء نظرية ـ ذاك ما ما زعمه باحثو المدرسة الاحيائية وهو ايضا متقيد بالمحاكاة أى التقليد ، محكوم عليه بالركود وعدم التطور هذا هو الانسان المتوحش العاجز عن تصور المعانى وادراك ما بينها من ارتباط محمول على اللجوء الى (التصورات الجماعية) أى الى مزيج من العقل والعاطفة • وهكذا نشأت نظرية causalite mystique (التعليل العقائدى الغامض) (1) التى أصبحت احدى دعائم الفكرة التى أطلق عليها صاحب كتاب (النفسية البدائية) عبارة (ما قبل العقل) PRELOGIQUE

وقد كانت هذه الصورة فى حقيقتها تمهيدا يزعم نفسه علميا وهو داخل فى الاطار السياسى الذى وضعه الاستعمار فالانتنولوجيا فى القرن التاسع عشر وظهور الظاهرة الاستعمارية فرسا رهان ورضيعا لبان احدهما يساند الآخر اما عن قصد او بدون قصد فاذا شرح لنا المتحضر حالة المتوحش غارقا فى الجهالة تعين اذن تهذيبه وتمدينه واسرع القوم الى اصدار حضارتهم وابرمت الصفقة التى نعرف محتواها فان ما زعموه من (رسالة تمدين) ما كان الا دعوى خاطئة يستظهر بها مجتمع غالب لاستعباد مجتمع مغلوب على أمره والقضاء على كيانه الجسمى والثقافى وان جميع عمليات الابادة تتخذ ستارا من الحياء والاخلاق تنسجه على منوالها الخاص •

وما ان استقر المعمر فى بلد المغلوب حتى طفقت الادارة الاوروبية تحاول بجميع الوسائل أن تتعرف على (الاهالى) وأن تعلم ما هى المقاييس والحاجيات الموجودة فى تلك الفئات حتى تكون مستعدة لمجابهة رد الفعل منها • ان بدرت منها بادرة فانحدرت المباحث الاتنولوجية الى مستوى وظيفة التطلع أو الاستطلاع وهكذا شاهدت الجزائر عشرات من ضباط (الشؤون الاهلية) وصغار المعلمين والرحالين والمبشرين الغربيين يرتجلون علم الاجتماع ويعدون انفسهم علماء فى معاش الاهالى.

أجل ان فى بعض ما درسوه لفضلا اذ صوروا لنا طبق الاصل واقعا يصعب تحريفه وهو اليوم فوق المتناول لانه واقع زال وانقرض بل انهم تركوا لنا وثائق وحيدة فى نوعها لانها ثمينة وفريدة نقول ذلك (مثلا) عن القاموس الواسع الذى خلفه لنا الاب دى فوكو فى لغة (تاماشك) وهى لغة ابناء الهجار ولو لم يقم بذلك العمل لكان من الصعب علينا اليوم ان نأتى بمثله وقل مثل ذلك عن العمل الذى أتمه عسكرى آخر وهو الجنرال هانوتو الذى جمع ديوانا حافلا عن القصائد القبائلية سجلها بالحروف اللاتينية حوالى سنة 1860 ومع هذا نلاحظ ان نية علماء الاتنولوجيا فى القرن الماضى لم تكن فى غالب الاحيان علمية صرفة فقد كانوا ينظرون الى الاشياء بمنظار شعورهم بالتفوق وفى اطار الاحتلال والتغلب فكانت العينة الثقافية التى يحطبها اولئك الحاطبون فى غاب العجائب والغرائب والنوادر والشواذ

1) من معانى (مستيك) بالفرنسية العقيدة التى يكون مبعثها العاطفة وقد عبرناه بالعقائدى لا الصوفى وهى من معانى مستيك

معرضة للتشويه والتحريف حتى فيما يكتبونه لنعتها ووصفها ٠

أما التحليل نفسه فناهيك به من تحليل ! ان غايته الاساسية مشبوهة اذ يرمى الى اخبار السلطة المتعسفة فلا مناص من أن تكون الدراسات كلها تهدف الى تزكية الواقع الاستعمارى وتبريره ٠ ألم يكن الهولنديون (من سنة 1870) يعلمون حكام مستعمراتهم فى المحيط الهادى علم الانتنولوجيا ؟ أما فى بلادنا الجزائرية فقد كان عدد كبير من حكام (الاحواز الممتزجة) يصفون الاهالى وما فى حياتهم من أشياء ملهية أو مخيفة فنظروا الى الحياة الريفية بهذا المنظار لذلك نجد عددا كبيرا من النصوص التى تصف المظاهر الدينية عند الجماهير الشعبية كمناظر غريبة فى نفسها ولكنها مخيفة فى عواقبها والتفتوا الى الزوايا بمزيد العناية لانها كانت تحتضن أصل المقاومة التى لا تقهر وثارت نقمة هانوتو على (الطريقة الرحمانية) لانها سببت ثورة (بوبغلة) فى عهد المقرانى ٠

وفى الحقيقة لم يكن علم الانتنولوجيا الاستعمارية علم الانسان الشامل ولم يبحث فى مختلف حضارات آسيا وافريقيا وأوروبا وأمريكا والمحيط الهادى للتقريب بين شتى هذه الحضارات ولم يقم بنفسه كدراسة تفارقية بين الفرق والحضارات باعتبارها حرة متساوية فى الحقوق ولكنه جعل افتراضه ونتيجته فى حين واحد أن المجتمعات فيما قبل الطور الصناعى (ولا سيما مجتمعات ما قبل الطور الكتابى) اعنى المجتمعات التى لم تيسر لها اسباب تاريخية معينة معرفة الفحم والآلة الصناعية كلها فئات منحطة أى ان القوم طبقوا علينا أوهاما من الحكم أو أحكاما من الوهم لا قبل للعلوم بها

ان الباحثين فى عالمنا الثالث لجد شاعرين بهذا التحريف للواقع والتشويه للحقيقة وقد آن لنا — حيث طوينا تلك الصفحة من مغربنا — أن نجعل بلادنا فى علم الاجتماع ذاتا تبحث عن نفسها لا موضوعا يبحث فيه وقد حان أن نرجع علم الاجتماع البشرى الى منزلته الحقيقية والى رسالته الحقة التى تجمع كل صفات الوضعية والخصوبة والواقعية والحرية بل تتضمن أيضا — ولم لا ؟ — أصول المقارنة والمناظرة ٠

المؤرخون الالمـان والجزائر

د· ابو العيد دودو
استاذ بكلية الآداب
جامعـة الجزائـر

ليست علاقة المؤرخ بالتاريخ هى علاقة الرحالة به ، فارتباط المؤرخ بالتاريخ أوثق ، وصلتـه به أمتن ، ومع ذلك يمكن ان يعتبر الرحالون الالمان الذين كتبوا عن الجزائر ، مؤرخين بشـكل او بآخر · فمن النادر ان نجد بينهم من لم يهتـم بتاريخ الجزائر فى طور من أطوارها ، ويحاول ان يقدم صورة عنه ، ولو كانت مختصرة غير وافية · وكثيرا ما تكون هذه الصورة المختصرة تمهيـدا لدراسة نفسية الشعب الجزائـرى ، وعاداتـه وتقاليده ، وأساليب حياته وطرق معيشته ، ولمـا تخلفه الاحداث التاريخية فى ذلك كله من آثـار وسمات خاصة ، وبعبارة موجزة لربط ماضيـه بحاضره · وهذا ما يجعل هذا الرحالة يختلف عن ذلك فى تناول التاريخ واختيار الفترة الملائمـة للجوانب التى يريد معالجتها ·

وكانت مصادرهم متنوعة ، وتاتي في الدرجة الاولى المصادر التاريخية المحضة وكتب الرحلات، سواء كانت ألمانية او أجنبية ، ثم التجـــارب الشخصية والروايات الجزائرية والاجنبية • وهذه المصادر الاخيرة في نظري أهم بكثير من غـــيرها ، لانها تقوم على شهادات أناس عاصروا الاحداث ، وشاهدوها عن قرب ، وعرفوا حقيقتها والطريقة التي تمت بها ، وقلما يلحقها التشويه ، خاصـة اذا كانت قد صدرت عن انسان عادي ، لا مصلحة له في التزوير ، وسجلت من طرف رحالة نزيه ، ولو انه من الصعب التأكد من نزاهته •

ولعل سيمون بفايفر هو الالماني الوحيد ، الذي اعتمد على تجاربه الشخصية وعلى ما ســمعه من أفواه الجزائريين .فقد أكد (أنظر رحلاتي وسنوات ســجني ••• ص 101) انه ينقل ما رواه له الجزائريون • صحيح انه لم يقدم أي ضمان عـلى صحة ما روي له،ولكنها فياعتقاده، توضح بعض ما ورد في المصادر الفرنسية • وقد تكون هـــذه التحفظات ، التي أبداها بفايفر ازاء الروايـــات الجزائرية ، دليلا على صدقه ونزاهته ، ولعل هذا أيضا ما حمل مقدم كتابه فريدريش شميتهنر على أن يصف كتاباته (ص 5) بأنها تمتاز بالبساطة والصدق •

واعتمد فيلهلم شيمبر على ملاحظاته الخاصـــة وعلى ما حدثه به بعض الجنود ، الذين شاركوا في عدة معارك ، وكان لهم دور في بعض ما وقع من جـــرائم واعتـــداءات ، وكان من بينهم عدد من مواطنيه ، سبق لهم ان وصلوا الى الجزائـر مـع الحملة الفرنسية • واستمد بعض معلـــوماته من جهة اخرى من الجزائريين ، الذين اتيح له ان يقيم معهم علاقات ودية • وحين يتحدث عن العقيـــدة الاسلامية وتاريخها وتعاليمها يلجأ شيمبر الى من كتب عن هذا الموضوع قبله ، وما ذكره يشبه الى حد كبير ما ورد في كتاب الراهب الفرنسي دان « تاريخ البرابرة والقراصنة » ، الذي نشر سنة 1637 ، مما جعل حديثه هذا ذا صبغة صليبيـــة واضحة ، ولكن صليبيته هذه تنعدم بمجـــرد ان يبدأ بوصف علاقاته بالجزائريين وصلاته بهم •

واذا كان شيمبر قد اعتمد على مراجع أغلبهـا اجنبية ، خاصة في حديثه عن تاريخ الجزائر ، فان مواطنه فرديناند فنكلمان يعتمد في كتابه « تاريخ احتلال الجزائر من طرف الفرنسيين سنة 1830 »، وقد أصدر كتابه عام 1832 ، على سيمون بفايفـر وعلى مصادر فرنسية متنوعة ، ولا ســيما كتاب ضابط الحرس الفرنسي رونودو ، الذي ترجم الى الالمانية ونشر سنة 1830 ، واستفاد كذلك ممـــا كتبه الشاعر الايطـــالي فبنيبو بنانتي في مؤلفه « مغامرات فيليبو بنانتي وملاحظاته عن ســواحل البلدان البربرية ، وقد ترجم الى الالمانية ايضا وصدر سنة 1824

أما الامير النمساوي فريدريش شفار تسنبيرغ فقد شارك في الحملة الفرنسية ، وهو لهذا شاهد عيان فيما يخص تاريخ الاحتلال ، مما يجعل لكتابه أهمية كبيرة • وتقوم الفصول الاخيرة من كتـــابه

« التفاتات الى الجزائر واحتلالها من طرف القوات الملكية الفرنسية فى سنة 1830 » ، الصادر عام 1837 ، على ملاحظاته الخاصة ، التى كان قد حرص على تسجيلها فى يومياته فى حينها • أما الفصول الاولى ، التى يحتوى عليها القسم الاول ، فقد اعتمد فيها على الرحالة الانجليزى توماس شو ، صاحب كتاب « رحلة توماس شو فى ولاية الجزائر » ، الذى صدرت ترجمته الالمانية فى سنة 1765 ، واعتمد كذلك على ف• شيلر ، القنصل الامريكى ، مؤلف « موجز الجزائر » الصادر سنة 1826 •

وسلك الطبيب الالمانى آدولف فون شونبيرغ نفس المنهج ، فقد شارك هو الآخر فى الحملة الفرنسية ، وسجل فى الفصل الاول من كتابه « نظرات على الاحتلال الاخير للجزائر وتاريخها واستعمارها الحديث » ، الذى نشره عام 1839 ، اليوميات ، التى كتبها فى الميدان • وتناول فى الفصل الثانى ثمانية من دايات الجزائر ، ابتداء من الداى مصطفى (1798 ــ 1805) الى حسين باشا ، الداى الاخير • وقد كتب تاريخهم ، فيما ذكره فى المقدمة ، اعتمادا على معلومات ، زوده بها شخص ، لم يذكر اسمه ، عاش فى الجزائر أيام الحكم التركى مدة طويلة ، وكان شاهد عيان لبعض ما رواه من اخبار ومعلومات ، ولكن شونبيرغ لم يكتف به ، بل استعمل مصادر أخرى لم يحدد طبيعتها • وكانت مصادر الفصل الثالث والاخير ، الذى تناول فيه المناخ الجزائرى والحركة التجارية والصناعية ، فرنسية بحتة ، من ضمنها بعض الوثائق والتقارير الرسمية •

ويعتبر موريتس فاغنر افضل من غيره بكثير . فقد تناول فى كتابه « رحلات فى ولاية الجزائر فى سنوات 1836 ، 1837 و 1838 » ، 1841 ، المصادر ، التى اعتمد عليها • تناولها فى المقدمة ، وهذا ما لم يفعله غيره من الرحالين الالمان على هذه الصورة • فأخذ على الرحالين توماس شو الانجليزى وبيصونيل الفرنسى ، وقد نشر كتاب هذا الاخير « رحلة فى سواحل البلدان البربرية » عام 1838 ، ان كتابيهما يتسمان بالجفاف ويهتمان بجانب واحد ، ويقول فاغنر (ج 1 ص 17) ان المؤلفين قد وجها اهتمامهما لدراسة الآثار ونسيا فى غمرة ذلك الانسان ، الذى هو على حد تعبير غوته ، أهم شيء فى أى مكان كان • ويشكو المؤلف الالمانى (ص 18) من عدم صدور كتب جيدة عن الجزائر منذ الاحتلال ، فالكتب العشرون او الثلاثون ، التى صدرت حتى ذلك الحين ، تقتصر على معالجة الناحية السياسية او الناحية الاستعمارية ، ويفضل من بينها « الحوليات الجزائرية » لبيليسيى • ويعترف فاغنر : لا يعرف من كتب الرحلات الحديثة سوى ثلاثة كتب ، أما البحوث العلمية فهى متناثرة فى المجلات المتخصصة •

وهذه الكتب هى « رسائل من الجنوب » لتوماس كامبل ، و « سيميلاسو فى افريقيا » لبوكلر ــ موسكاو ، و « رحلة فى ولاية الجزائر » لروزيه • ويصف الاول بأنه كان دون شك شاعرا أنجح منه رحالة ، فما يجده الانسان عنده أقل مما يجده فى انطباعات السائح العادى • ويصف

الثاني بأنه اكثر سطحية من الاول وانه اصلح لوصف الحياة فى قصور النبلاء منه لوصف الحياة البدوية واكتشاف حقيقتها . ويفضل الثالث عليهما (ص 91) ، ولو انه اكتفى بوصف مدينة الجزائر والبليدة والمدية ووهران ، ويثني فاغنر على مواطنيه شيمبر وميليتس .

ويذكر فاغنر (ص 21) انه كتب القسم التاريخى عن الجزائر بعد دراسة دقيقة للمصادر القديمة والحديثة ، واستمد معلوماته عن تاريخ الجزائر الحديث من الحوليات الجزائرية لبيليسيي، ومن محادثاته مع بعض الشخصيات الهامة ، التى عاشت الكثير من الاحداث التاريخية ، فنقل عن صديقه الضابط السويسرى مورالت قحمة اللقاء ، الذى تم بين الامير عبد القادر وبوجو فى التافنة واخذ فاغنر أيضا بعض المعلومات عن المارقين الالمان ، الذين عاشوا فى الجزائر مدة طويلة ، وخاصة مارق يدعى بودوان ، قال عنه انه اصبح عربيا بأتم معنى الكلمة ، يحسن اللغة العربية ، ويتكلمها مثل اى رجل من رجال الدين . ثم المانى آخر ، اتخذ اسما عربيا ، وهو بن حميدو ، وكان اسمه الحقيقى غايستينجر ، حارب الى جانب الامير فى عدة معارك ، منها معركة المقطع الشهيرة ، وكان فاغنر قد التقى به أيام اقامته بمعسكر ، عاصمة الامير . وبعد معركة المقطع وجهه الامير الى المغرب ليسلم هدية الى السلطان مولاى عبد الرحمن ، وهى عبارة عن عربة للذخيرة ، غنمها الامير فى معركة المقطع .

ويذكر فاغنر ان الامير قال لغايستينجر عند سفره الى المغرب : « ابق هناك اذا شئت . اما اذا كنت تحبنى ، فما بى حاجة الى ان آمرك بالعودة ». وسافر الالمانى ، وكان قد أسلم فى أثناء ذلك ، الى المغرب ، واشترى مقهى بالمال الذي زوده الامير به . ولكنه عاد فى النهاية الى سيده الامير ، فعينه مديرا لمصنع الذخيرة بتلمسان . ويضاف الى هذين ألمانيان آخران ، هما فندلين شلوصر ، مروض السباع فى قصر باى قسنطينة ، وسند ، مدير معمل الاسلحة فى المدينة نفسها . وكان هذا الاخير قد وقع فى الاسر بعد انضمامه الى الفرقة الاجنبية ، فحمل الى المرابط سيدى على بن عيسى فى بلاد الجرجرة ، فأرسله هذا الى باى قسنطينة الذى زوجه واعطاه دارا وزوده بالمال لفتح معمل للاسلحة (ص 391 ، ج 2 ص 332) .

ويعترف المؤلف (ص 21) بأنه قد اخذ بعض المعلومات عن المواطنين الجزائريين ، وقد حضر بنفسه أحداثا بالغة الاهمية ، فسجل فى كتابه ما شاهده فى الحملات الثلاث ، التى شارك فيها عضوا فى اللجنة العلمية ، وهى حملة البليدة ورغاية ، وقسنطينة . واستمر فاغنر يسجل مذكراته الى ان ترك الجزائر فى شهر يونيه سنة 1838 ، وذلك بعد ان زار جميع المناطق ، التى كانت فرنسا قد احتلتها فى ذلك الحين ، وبعض المناطق التابعة لدولة الامير عبد القادر .

أما كارل فون ديكر فقد رجع فى وضع كتابه « الجزائر والحرب الدائرة هناك » ، الذى نشر عام 1844 ، الى كتابات بيليسيي ، وبوكلر موسكاو ، وروزيه ، وفاغنر . وكان قد زار الجزائر عام 1842

ليكون قريبا من أحداث الحرب وأوضاعها • وأوضح ديكر فى مقدمة كتابه انه لا يريد كتابة تاريخ الحرب الجدير بالاهتمام ، فتاريخ ذلك كله لم يحن بعد وقت كتابته ، وانما أراد الحديث عن الحرب الجارية فى الجزائر • واعتمد ديكر كذلك على ما كتبه فريدريش شفار تسنبيرغ ، ونقل بعد فقره ليستشهد بها •

ويصف ديكر كتاب فاغنر بأنه احسن كتاب صدر عن الجزائر باللغة الالمانية ، ويحذر القارىء من ان يتصور ان موريتس فاغنر متعصب لفرنسا، لانه اهدى كتابه الى ولى العهد الفرنسى ، فالواقع خلاف ذلك ، وينصحه بالمضى فى القراءة ، حتى يكتشف بنفسه عكس ما يوحى به الاهداء • فمواطنه فى نظره بعيد عن التعصب ، وكان همه الاول والاخير اعطاء صورة صادقة عن الجزائر فى جميع الميادين •

وهناك من الرحالين الالمان من لا يعتمد على من سبقه اطلاقا ، وانما يكتفى بتسجيل تجاربه الخاصة • وهذا ما فعله كليمنس لامبينغ فى كتابه « مذكرات عن الجزائر » ، الذى نشره سنة 1844 ، اذ وصف فيه اصدقاءه الجزائريين وحياتهم ، وتحدث عن اهتماماتهم العامة ، كما وصف بعض المعارك التى شارك فيها ، وكذلك المناطق والمدن ، التى زارها وأقام فيها فترات متفاوتة •

ومن الضرورى ان نتساءل بعد هذا عن الاسباب ، التى حملت الالمان على الاهتمام بالجزائر ، والعناية بتاريخها ، والحرص على وصف مظاهر الحياة فيها بدقة • والواقع ان هذه الاسباب تكاد تكون واحدة عندهم جميعا ، فهذا ما تثبته لنا تصريحاتهم على الاقل • لقد اعتبر الالمان احتلال الجزائر أهم حادثة وقعت فى القرن الماضى ، وقد رأوا ما سيكون لهذا الاحتلال من ابعاد سياسية فى أوروبا وافريقيا على حد سواء • فقد فتح امامهم آفاقا جديدة ويسر لهم سبل الهجرة والمغامرة • والهجرة تتطلب معرفة بظروف المهجر وأوضاعه المختلفة ، ومن هنا كان لابد للمهاجر من كتب وأدلة سياحية ، وخاصة اذا كانت البلاد ، التى يريد ان يهاجر اليها ، خصبة التربة ، فاتنة المناظر ، شاسعة الاطراف •

ولم يدع بفايفر صراحة الى الهجرة ، ولكنه يتحدث (ص 231) عن روعة الجزائر ، وخصوبة أراضيها ، فيقول : « كثيرا ما فكرت ، بعد عودتى الى اوروبا ، فى دولة الجزائر ، فى وضعها السابق ، وفى وضعها الراهن ، وفى الوضع الذى يمكن ان تكون عليه فى المستقبل • لقد آلمنى ان تظل هذه البلاد الرائعة فى بعض اجزائها ، الغنية بمنتجاتها ، التى يمكنها ان تمد الملايين العديدة بالطعام والغذاء ، وتكون بالنسبة لاصحابها الجدد ذات منافع لا حدود لها ، هكذا قفراء غير مستغلة ، لان الفرنسيين اقتصروا فى صراعهم مع أهلها على الجزائر وحدها تقريبا » •

ويرى شفار تسنبيرغ (ص 3 — 4) ان ما حدث فى افريقيا قد جلب اهتمام الرأى العام ، نظرا الى ما سيكون للوجود الفرنسى فى شمال القارة من اثر كبير فى تاريخ العالم ، ولذلك فان كتابه سيكون ذا أهمية كبيرة ، لانه يتضمن وصفامتنوعا

وبعيدا عن التحيز للحملة الفرنسية ، كتبه شاهد عيان • ويعتقد ان القصص التى تأتى متأخرة فى التاريخ تعتبر أصدق من الاخبار الاولى ، لان هذه غالبا ما تكون متحيزة . تتحكم فيها الاحكام المسبقة • ويؤكد على ضرورة المعلومات ، التى يقدمها فى كتابه بالنسبة للمؤرخ والسياسى والعسكرى . فالنزول فى شواطىء قارة اجنبية يتطلب معرفة كاملة بخصائصها واوضاعها السياسية واجواء مناخها وطبيعتها ، لا سيما وان موانىء شمال افريقيا ستكون ذات اهمية كبيرة بالنسبة لاوروبا •

ويقدم شيمبر (ص 160 وما بعدها) نصائح لمواطنيه ، الذين يرغبون فى الهجرة الى الجزائر ، فينصحهم بعدم الاختلاط بالسفلة والاوباش،الذين قدموا الى الجزائر للسلب والنهب ، ويحدد لهم الاماكن . التى لا يتعرضون فيها لهجومات العرب ، ويصف لهم الطرق . التى يجب اتباعها للحصول على رخص الهجرة من الدوائر المعنية ، كما يحدثهم عن وسائل العيش فى الجزائر وغلاء المعيشة • ويحذرهم من الالتحاق بالفرقة الاجنبية ، ويطلب منهم ان يتجنبوا تلك التصرفات التى صدرت عن بعض مواطنيه ، وكانت نتيجتها ان اصبح الاسم الالمانى محتقرا فى الجزائر •

ويفخر موريتس فاغنر (ج 1 ص 5) فى الكلمة التى أهدى بها كتابه الى لويس فيليب ، دوق اورليانس ، بأن بلاده تشارك فى تأسيس المستعمرات الاوروبية فى شمال افريقيا ، فالجندى الالمانى يحارب الى جانب الجندى الفرنسى .والفلاح الالمانى يقوم باصلاح الاراضى الى جانب المستعمر الفرنسى . والعالم الالمانى يعمل مع العالم الفرنسى لاكتشاف تاريخ شمال افريقيا القديم • والغريب ان يفخر فاغنر أيضا بأن الهدف من ذلك كله هو نشر الحضارة والحرية فى الاراضى الجزائرية ، التى كانت فى القديم مزدهرة عامرة ! ويرجو فاغنر (ص 20) بعد ذلك ان يكون كتابه دليلا أمينا للسائح والمهاجر ،الذى يريد ان يستقر فىالجزائر بصفة دائمة ، ومصدرا مهما لمن يهتم بدراسة الشعوب وطباعها واسلوب معيشتها • ويؤكد بدوره على الاهمية ، التى يكتسبها شمال افريقيا يوما بعد آخر ، لان فرنسا ، فى نظره ، ستعلم سكان الجزائر ان وظيفة الانسان لا تتمثل فى محاربة اخيه الانسان . وتمزيق لحمه ، واهمال أراضيه الجميلة الخصبة المعطاء !

ونجد لودفيغ بوفرى فى كتابه « الجزائر ومستقبلها تحت الحكم الفرنسى » ، الذى صدر سنة 55 ، يمثل نفس الافكار ، فهو يعتبر الجزائر بلادا صالحة جيدة . يمكن استعمارها واستغلالها، ويقدم نصائح الى ابناء بلاده الراغبين فى الهجرة ، ويشير الى ان هناك احكاما مسبقة ، تتعلق بالهجرة الى الجزائر . مبعثها عدم معرفة البلاد على حقيقتها والاطلاع على أوضاعها من جهة ، وجشع بعض الالمان الذين وصلوا الى الجزائر من جهة ثانية • ويؤكد (ص 18 ـ 19) ان الرغبة فى نفع مواطنيه والحيلولة دون هجرة الاسر بناء على ما يشيعه بعض المخادعين هو الذى دفعه الى وضع كتابه هذا •

ويصف بوفرى المناطق الصــــالحة للزراعة ، ويعترف (ص 19) بأن الاوروبيين ، الذين كانـوا عاجزين عن الحصول على قوتهم اليومى فى بلادهم قد تمكنوا من كسب ثروة . تجعل الفرق بين مـا كانوا عليه فى السابق وما هم عليه الآن واضحا تمام الوضوح • وهو يقدم لهم هو الآخر معلومات متنوعة عن طبيعة البلاد ، ومناخهـــا وآثاره ، والامراض ، التى يمكن ان يتعرض لها المهاجـر الالمانى ، ويبين كذلك طرق الاتصال بالادارات الخاصة ، التى تسهل لهوسائل الانتقال الىالمناطق الآمنة ، ومحاولة الاستقرار فيها •

وقد اهدى فون بوفرى كتابه لنابليون الثالث ، ونوه فى الاهداء بالاعمال الجبارة . التى تقوم بهـا فرنسا ، من أجل بناء حضارة جديدة ، تحل محل الحضارة القديمة . تحت راية المسيحية ! ويبدى اعجابه بالازدهار ، الذى بدأ يعم مناطق الجـزائر المتنوعة ٥

وهكذا نرى ان الجزائر كانت بالنسـبة للالمان مهجرا جديدا ، يستطيع ان يعيش الالمانى فيه فى هناء ورفاهية ورخاء ، كما صرح بذلك فرديناند فنكلمان (ص 61) ، فالجزائر بالنسبة له مستعمرة رائعة . والالمانى فيها أكثر كرامة وأوفر عزة من الجزائرى ، لان فرنسا تحمى الالمـانى كما تحمى غيره من الاوروبيين ،ولا تسمح للجزائرى بأى نوع من التحدى والمقاومة • وهذا ما جعـــل فنكلمان يتنبأ (ص 71) بأنه لن يمر وقت طـــويل حتى يصبح عدد الاوروبيين فى المناطق الخصبة اكثر من عدد السكان الاصليين !

هذا ولا تخلو كتابات الالمان من اظهار العـداء للجزائر ، التى اهانت اوروبا لمدة طويلة ، وكان ذكر اسمها مجردا يثير الرعب فى قلوب ابنائها ، مما جعل شونبيرغ يعترف (ص 62) بأن اسـم الجزائر لا يحمل على التفكير فى جمال سمائها ، وصحية مناخها ، وخصوبة أراضـــيها بقدر ما يحمل على التفكير فى الآلام . التى عرفها العبيـد المسيحيون فيها • وهذا ايضا ما جعل كتاباتهم تتسم بالطابع الصليبى فى اغلب الاحيان ، فقد أشفت فرنسا غليـــــل بعضهم فى الانتقام من الجزائريين ، فيصفونهم بالهمجية على غرار ما فعله بقية الاوروبيين مما كتبوا عن الجزائر •

لم أتناول فى هذه الدراســـة جميع الرحالين الالمان ، فكتب الكثير منـــهم لم يمكننى الاطلاع عليها بعد . وانما اقتصرت على بعض من اتاحـت لى مجهوداتى الفردية معرفة ما كتبوه عنا • ومـع ذلك أرجو ان اكون قد قدمت فكرة تقريبية عـن مصادرهم واغراضهم ، وليس بمستبعد ان تكـون لهم اغراض اخرى لم يصرحوا بها ، واحتفظوا بها لانفسهم فى وثائقهم الخاصة او فى وثائق بعض الجهات التى مدتاليهم يد العون للقيام برحالاتهم• وأتمنى ان تتاح لى الفرصة فى المستقبل للاطلاع على وثائقهم فى مضانها ، حتى اتمكن من تقـديم معلومات اخرى قد لا تخلو من فائدة فى مجــال كتابة تاريخ الجزائر •

مَوقفُ المؤرّخين الأجَانب من

تَاريخ الجَزائر

عبر العصُور

المهدي البوعبدلي

عضو المجلس الاسلامى الاعلى
ـ الجزائر ـ

ان المؤرخين الاجانب الذين اعتنوا بتاريخ الجزائر يعدون بالمئات، ولا زالت تآليفهم متواصلة ويمكننا ان نقسمهم الى ثلاثة اقسام :

القسم الاول تخصص في تاريخ البلاد القديم، اى عهد احتلال الرومان وما قبله •

والقسم الثانى اهتم بتاريخ الفتوحات والعهد الاسلامى •

والثالث اعتنى بتاريخ الاحتلال الفرنسى وما اعقبه من تطور الاستعمار وانتشاره وآثـاره •

فمؤرخوا القسم الاول بالغوا فى الاشادة بروما ومدنيتها ، واحيـــوا ما تبقى من آثـــارها ، واستعانوا بما كان يمدهم به العنصريون،ودعاة « افريقيا المسيحية » ، وميزانية الدولة الـــتى. كانت تفتح لهم ـ على مصراعيها ـ ابوابهـــا ، فأسست الجمعيات فى جميع انحاء البلاد ، للبحث والتنقيب عن الآثار ، واتخذت لها مكتبات ،ومجلات ومراكز للمحاضرات ، واقامت مؤتمرات علميـة كانت تدعو لحضورها ، وللمشاركة فى بحوثها اساطين العلم من الاثريين ، كل هذا لتتوصـــل الى هدف دعوتها : وهى ان الحضارة الرومانيـة المسيحية طبعت هذه البلاد بطابعها ، وان احتلال هذه البلاد هو استرجاع حق مغصوب ، وقليـل منهم من اهتم بتاريخ سكان البلاد الاصليـين ـ ان لم يكن ذلك لبث روح البلبلة والاحـن فـــى الافكار ، واظهار العنصر العربى دخيلا ومستعمرا وما الى ذلك ـ اللهم الا ما كتبه المؤرخ العبقرى سطيفان قزيل Stephane Gsell فانــه خصص لهم تأليفا قيما ، اجمع المؤرخـــون الاختصاصيون ، انه اهم واجمع مصدر لتاريـخ الدول البربرية ، التى كانت تتمتع باستقـلال داخلى ، وكانت لها حضارة ممتازة ، الا ان كثيرا من المؤرخين لتلك الفترة اهملوها .

اما القسم الثانى فان جل كتابه كان هدفهـم من دراساتهم تصوير الفتوحات الاسلامية بانها فرضت دين الاسلام بالاكراه ، والسيف،وقطعت صلة البلاد مع الحضارة الغربية والكنيســة ، فتعطلت المدنية ، وتوقفت ، كما استنتجـوا ان الجزائر لم تتوحد فى تاريخها ، وانها كـانت دائما خاضعة للمغيرين ، واشهر هذه الطبقـــة واكثرها صراحة ، هو فليكس قوتى Félix Gautier اما الطبقة الثالثة وهى التى تمثل الاكثرية ، فان معظم كتابها مجدوا بطولة قادة جيش الاحتلال ، واشادوا بالاستعمار ، وظهرت آثار هذه الطبقة، اثر انتهاء مقاومة الامير عبد القادر ، ثم عنــد الاحتفال المئوى للاحتلال سنة 1930 .

واذا امعنا النظر فى جل ما وصلنا مــن هذا السيل العرمرم من التآليف ، نجد القســم الذى يستحق العناية والاهتمام ، هو القســم الشبيه بالمذكرات ، او مجاميع سجلات التقارير الرسمية ، فانها تحتوى على جوانب مفيدة فى حاجة الى الدراسة والمراجعة والتحقيق ، ولهذا فانى فى هذا البحث ساتعرض للقطـات (وان كانت مفككة ومجملة) لمختلف كتاب هذه الاقسام المذكورة لاجنب القارىء الدخول فى التفاصيل التى يمكنه تتبعها فى مواضعها ، وهذا لا يمنع من الخروج عن هـذا الالتـزام ببعض الاحداث الجوهرية فاذكرها بنوع من التفصيل وهـــذه الطريقة هى التى تفرضها مثل هذه الدراسات المحدودة .

القسم الاول

كتب ستيفان قزيل Stephane Gsell

المتوفى فى الثلاثينات من القرن المسيحى الجارى، كتابه الشهير « التاريخ القديم لافريقيا الشمالية» والكتاب يشمل ثمانية اجزاء ، خص جلها لتاريخ

الحضارة البربرية فى المدة التى تتراوح بين سقوط قرطاجنة واحتلال روما للبلاد ، وهذه المدة لا تتجاوز خمسا وثمانين ومائة سنة ، (185) اثبت المؤلف ان قرطاجنة لم تكن هى افريقيا ، اذ كان جل مؤرخى تلك الفترة يقتصرون على الاعتناء بالمراكز التجارية التى احدثتها قرطاجنة طوال شواطىء البلاد ، ومثل هؤلاء المؤرخين كمثل زملائهم الذين — ولا زالوا — اقتصروا فى تآليفهم التاريخية عن حياة الملوك وقصورهم ، ضاربين صفحا عن حياة البلاد وسكانها وحضارتها وثقافتها ، هذا الفراغ هو الذى حاول قزيل ان يتداركه ، فنجح حيث ان مقرظى كتابه متفقون على انه احسن ما الف فى الموضوع ، بل هو التأليف الوحيد فى العالم لهذه الفترة ، ويعدونه موسوعة تاريخية جمعت ما تفرق فى غيره ، وميزته استنتاجاته التى دعم بها آراءه ، فمما ذكره قزيل فى الموضوع : « ان تاريخ عهد قرطاجنة لا ينحصر فى المدن التى احدثوها كمراكز تجارية بشواطىء البلاد . فان بداخل البلاد ، كان يوجد شعب كون امارات ، وكانت هذه الامارات البربرية فى حالتى حرب وسلم مع حكام البلاد الفنيقيين ، اى القرطاجنيين — كما بقوا على هذه الحالة فى عهد الرومان بعدهم — وان هذه الامارات كانت مجهولة تماما — الا القليل منها — لدى المؤرخين القدامى من اليونانيين واللاتينيين ، وان اتيح لنا اليوم ان نكشف القناع عن تاريخهم ، فذلك يرجع الى فضل النقوش باللغة الفنيقية ، او الليبية (لغة لم نعرف منها الا اسماء الاعلام) او العثور على بعض الآثار كالمسكوكات والاضرحة الخ . كما يرجع فضل هذه الاكتشافات الى صمود ومحافظة سكان افريقيا ، اذ هم مشهورون ومعهم الايطاليون ، بانهم فى مقدمة الامم المحافظة على التقاليد والعادات » وقد ضرب المؤلف مثلا لذلك بالتوارق الذين حافظوا على كثير من العادات والتقاليد ، كانت موجودة فى بلادهم قبل الاسلام ولم يمنعهم اعتناقهم للدين الاسلامى من المحافظة عليها ، وفيها ما تنكره تعاليم الاسلام ، ثم ذكر او عقد فصلا للحضارة المادية البربرية بين فيه نموذجا من طريقة استنتاجاته التى اتبعها فى تآليفه فقال : « السكان كانوا يعيشون جماعات فان الآلة الحجرية المجموعة فى مكان واحد قرب منابع المياه ، تثبت وجود قرى آهلة بالسكان ، قريبة من منابع الماء ، ليمكن لهم الاستيطان والدفاع عن انفسهم ، كما ان الاسرة تكونت هنا من قديم ، بخلاف بلاد آسيا ، وان المرأة كانت وظيفتها القيام بشؤون المنزل وخدمة الصوف ، وتربية الاولاد والحيوانات ، وان روح الجماعة والتفافها حول رئيسها ، ثم التفاف الجميع حول رئيس القبيلة ، كانت سارية المفعول كانت العصبية العائلية تسود المجتمع البربرى ، كما كانت القرية تخضع لنظام الجماعة المنتخبة ، وكان الانتخاب يختلف ، فمنه ما ينتخب صاحبه لمدة الحياة ، ومنه لمدة تمكن فيها عزل المنتخب وتعويضه بغيره ، ثم يذكر المؤلف ان هذه القبائل كانت كثيرة التمرد على الحكم ، وبعد ان يتعرض للامارات التى تكونت والى زعمائها ، ومواقعها ،

وحياة الابطال امثال سيفاكس وماسنيسا ويوغرطة والحروب التى خاضوا غمارها ، تعرض للحياة الاقتصادية ، ومنتوجات البلاد من حبوب وفواكه ، وخضر ، وتربية المواشي والنحل وصيد السمك وتصبيره ، وصادرات البلاد التجارية ووارداتها ، ومساكنهم ، وانواعها تعرض للتمدن المعنوى ، فقال ان اخلاق البربر وعوائدهم لفتت انظار المؤرخين والباحثين القدامى ، فسجلوا لهم خصوصيات غريبة ، منها ان مجتمعهم كانت تسوده الطهارة والعفاف ولهذا كانوا يصلون الى ارذل العمر ، محتفظين بصحتهم البدنية المثالية فهم لا يأكلون اللحم الا قليلا – رغم تربيتهم للمواشي ومختلف الحيوانات – ثم نجدهم لا يأكلون لحم الخنزير ولا يربونه الخ .

ان هذا التأليف قيم فى موضوعه وصاحبه مشهور بالعلم ، وعمق التفكير ، وسعة الاطلاع وهو وان كان من اقطاب افريقيا المسيحية » « والجزائر الفرنسية » الا ان تاليفه هذا يتوقف عليه تاريخ البلاد ، فهو دعامة لربط حاضرها بماضيها ، اذ الحقبة التى تعرض لها المؤلف وخصص لها ما يزيد على مائتين والف صفحة تلقى اضواء على تاريخ البلاد الحضارى . الذى كثيرا ما اهمل اذ نجد اشهر كتابنا لم يهتموا بهذه الفترة ، وكل ما يذكرونه عندما يجدون آثارا قديمة هذه العبارة « وفيها آثار للاول » ان لم تختلط بالاساطير ، او ما تعود العوام ان يطلقون عليها ، مثل قولهم « بلاد الجهلاء » او « الاصنام » أو « الخربة » .

القسم الثانى هو ما ذكر فيه العهد الاسلامى وهو كثير ايضا ، اذ تخلل هذا العهد الاحتلال الاسبانى لبعض مدن السواحل كوهران وبجاية ، وقد بقى الاسبان ما يقرب من ثلاثة قرون بوهران ، وفى هذه المدة اهتم كثير من مؤرخى الاسبان بتاريخ البلاد ، اذ كان هذا الاحتلال سببا فى اثارة الاحقاد الصليبية الكامنة فى نفوس كثير من الكتاب الذين كانوا لا يخفون ان بلاد الشمال الافريقى طبعت من العهد الرومانى بالطابع المسيحى وكانوا يرون ان الفتوحات الاسلامية جريمة لا تغتفر ، وتفننت هذه الطبقة من الكتاب الذين كانت تشجعهم الكنيسة ماديا ومعنويا لبث السموم وتشويه الحقائق ، ثم نجد هذه الفترة غيرت الاوضاع ، واستولت على البحر الابيض اعظم قوة بحرية عالمية صارت اساطيل العالم تقرؤ لها الف حساب وحاولت القضاء عليها بشتى الوسائل فلم تفلح ، فصارت تمدها بالفدية مكرهة ، وهذه القوة البحرية التى هيمنت على البحر الابيض طيلة ثلاثة قرون هى قوة الدولة التركية التى شبهها بعض المؤرخين بقوة قرطاجنة البحرية فى عهد ازدهارها ، ويذكرون ان البحر الابيض لم يشاهد مثل هاتين القوتين – أى التركية والقرطاجنية – فى تاريخه الطويل .

ورد الى الجزائر للاسباب المذكورة كثير من علماء اوروبا المتصلين بالجزائر وكذلك الرحالون والاسرى والتجار والقناصل فكتبوا الكثير عنها ويمتاز بعض ما كتب بجوانب مفيدة فرضت نفسها وصارت من المصادر الهامة التى لا يستغنى

عنها ، ومن ذلك تأليف الراهب الاسباني دييقو دى هايدو Fray Diégo de Haëdo **الذى** كان اسيرا فى الجزائر ودون مذكرات سماها «تخطيط وتاريخ عام للجزائر » واهم ما فيه تخطيط مدينة الجزائر ومعالمها وتاريخ ملوكها ، طبع هذا التأليف لاول مرة على نفقة الكنيسة الاسبانية سنة 1612 **ثم ترجم الى الفرنسية سنة 1870 وقد اعتمده كل** من اشتغل بتخطيط مدينة الجزائر وذكر معالمها كما اعتمده ايضا كثير من المؤرخين فى تاريخ الحكم التركى وتداول حكم الباشوات، ومما يلحق به كتاب « تاريخ شمال افريقيا » لمواطنه دييقو سارز Diégo Suarez الذى كان جنديا **بوهران بين سنوات 1577 و 1604 تعرض فى** تأليفه لجغرافية البلاد ثم للاسباب الداعية الى **احتلال وهران والهجوم الفاشل للملك شارلكان** على الجزائر ذلك الهجوم الذى كان من أسباب تخليه عن الحكم حيث ان مفعول الهزيمة اثر فى **معناوياته ، ففقد توازنه وقد عبر عنه احد متأخرى** الكتاب (1) بقوله « وشارلكان الذى اشابته الاحداث ، غادر الجزائر مطاطىء الراس وطلقات **المدافع يملأ دويها اذنه ، غادر شارلكان اسوار** الجزائر التى شاهدت ابتداء تقلص ظله » كما وصف سيارز الاسبانى بعض المعارك شاهدها ، واهم ما فى الكتاب اعتراف مؤلفه بالحياة التعيسة **التى كان يحياها الجيش الاسبانى المرابط بوهران** الذى شبه حياته فيها بحياة المساجين فى سجونهم وتعرض لقادة الجيش فاتهمهم بالجشع والطمع والسرقة ونقض العهد ، وضرب امثلة لذلك منها

ان القائد الاعلى للجيش الاسبانى كان يتعهد للقبائل الموالية لهم بالحماية ، فاذا به يهاجمهم فى حللهم للاستحواذ على اموالهم ومواشيهم ، وعندما يرجع جيشه الى وهران حاملا الغنائم ، يتقدم الجنرال من دون حياء ولا خجل ، فيقطع لنفسه قسمة الاسد، ثم يذكر بان العدل والنزاهة لا يحلم بها الا المتملقون ، وان كل ما يقع فى **البلاد من احداث وهزائم ومجاعة يجهلها الملك ،** اذ تصله التقارير مزيفة ، وان ما قاله هنا الكاتب يؤيده آخرون من مواطنيه صوروا الحياة بوهران بحياة الجحيم ، وهم اقلية ، ولكن بعد مرور الزمن اعترف المؤرخون الاسبانيون انفسهم بان كل من صوروا الواقع الوهرانى بغير ما وصفته هذه الاقلية كانوا من طبقات الكتاب المأجورين او المتعصبين للكنيسة ، التى لم ترد ان تعترف بان هجومها واحتلالها لهذه المدينة كان كارثة على البلاد ، اقتصاديا ، ولنرجع الى ما كتبه بعض المؤرخين الفرنسيين وغيرهم لهذه الحقبة ، ولنبدا بأشهر كتاب لفت انظار القراء والكتاب وحظى **بنقد تحليلى لمحبذيه من العنصريين والاستعماريين** وصار عندهم الكتاب المفضل وعنوانه يدل على مضمونه « ماضى افريقيا الشمالية فى القرون المظلمة » لاميل فليكس قوتى E. F. Gauti 1864-1940 الاستاذ السابق بمدرسة الآداب العليا بالجزائر، كان هذا المؤلف من غلاة المعمرين له عدة تآليف لم يخف فيها هويته الاستعمارية المتطرفة ، وقد كان تخصصه فى الجغرافية فعين استاذا فيها بالمدرسة المذكورة فى اواخر القرن المنصرم ، ولهذا ارتكب عدة غلطات فادحة ، تتناقص فى

1) الكاتب دومينيك لوسياني مدير الشؤون الاسلامية السابق بالولاية العامة ورئيس النيابات المالية فى تابينه للكاتب ستيفان قزيل بالمجلة الافريقية سنة 1931

كثير من الجزئيات مع الاختصاصيين فى التاريخ ، حتى من الاستعماريين انفسهم ، ومن جملة ماذهب اليه فى تاليفه المذكور « هو ان سكان المغرب اى العنصر البربرى لم يملك شؤونه ابدا ، وبقدر ما نبحث فى التاريخ نجد سلسلة متصلة الحلقات لاحتلال الاجانب لهذه البلاد ، ان الفرنسيين خلفوا احتلال الاتراك ، الذين خلفوا احتلال العرب ، الذين خلفوا احتلال البيزنطيين الذين خلفوا احتلال الوندال ،الذين خلفوا احتلال الرومان ، الذين خلفوا احتلال القرطاجنيين ، وليسجل التاريخ ان هؤلاء المحتلين على اختلاف اجناسهم وازمنتهم كانوا يتصرفون بكامل الحرية فى شؤون البلاد الى ان يخرجهم ويطردهم محتل آخر ، يرث بدوره البلاد ان السكان الاهالى لهذه البلاد لم يتوصلوا يوما من الايام الى طرد مستعمريهم » ثم يقول : « ومع هذا نجد ان هؤلاء الراضين باستعمار بلادهم من دون ان يحركوا ساكنا ليسوا من الاجناس الهادية فانهم رجال حروب ، ولهم قادة وابطال من عهد حنبعل Annibal الى عهد الامير عبد القادر » .

ثم يعقد فصلا للتاريخ فيقول ان المغرب يبدؤ مع الحروب الفنيقية فى الوقت الذى تكلم فيه المؤرخون اليونانيون واللاتينيون مكان المؤرخين القرطاجنيين الذين سكتوا ، فاننا نجد آخر عهد قرطاجنة وتاريخ افريقيا الرومانية روايات نخبة رجال التاريخ مثل بوليب Polybe وصالوستر Sallustre وتيتليف Tite-live التى القت عليها الاضواء آثار البناءات والنقوش بل صقلتها وهذبت فصولها فى مختلف العصور . الموسوعة التاريخية القيمة لقزيل التى لا زالت لم تتم » (هى التى تحدثنا عنها فى القسم الاول)

ثم يقول : « ان تاريخ المغرب ابتدا فى غاية الوضوح ، الا انه اعقبه الظلام طيلة قرون ، الى ان كان القرن الثانى عشر المسيحى ، فقد ظهرت الوثائق المتعددة لعهدى المرابطين والموحدين ، وهذه الآثار سواء منها البناءات او الكتابة فانها لا زالت مبعثرة » ثم قال مفسرا لعنوان كتابه ومدلوله « القرون المظلمة من ماضى تاريخ افريقيا الشمالية » ان العصر المظلم الذى هو فى حاجة الى الانارة والبيان ، هو ما بين الغزوتين العربيتين الغزوة الاولى التى قام بها الامراء ممثلوا الخلافة الاسلامية فى آخر القرن السابع المسيحى ، والثانية التى قام بها البدو الهلاليون والتى ابتدات فى منتصف القرن الحادى عشر المسيحى ، فهذه الفترة تنفصل تماما عن التاريخ المغربى » وبعد ان يذكر ان هذه الفترة من تاريخ البلاد المغربية التى شاهدت فتح الاندلس وصقلية ومصر يمكننا ان نسميها قرون المجد ، حيث شاهدت ذروة المجد ، ومع هذا فهى فى الوقت نفسه « القرون المظلمة » فانها القرون المجهولة فالفاتحون المسلمون لم يهتموا بالتاريخ ، فالعربى همجى ، لايهتم بالتاريخ ، فلم يظهر حب الاطلاع العلمى الا فى ايام الدولة العباسية عندما افل نجم العنصر العربى وخلفه العنصر الفارسى والشرقى الممثل للمدنية الفارسية التى اجتاحتها الغزوات العربية الخ .

ثم نجد من كتاب هذه الفترة الراهب الانكليزى شاو Schaw الذى عاش ما يزيد على العشر سنوات تجول فى ربوعها ، تعرض لوصف كثير من المدن ولاخلاق السكان وعوائدهم ومعيشتهم ، وقد نشرت هذا التاليف جامعة اكسفورد Oxford سنة 1738 ، وترجم الى الفرنسية ثم اخيرا لخص وترجم الى العربية وهو مفيد ، كما زار الجزائر سنة 1732 الكاتب الالمانى هبوستريت Hebeustreit وكتب عنها وبيصونيل الذى زار الجزائر PEYSONNEL سنة 1725 وفنتور دو براد Venture de Paradis الذى زار الجزائر سنة 1788 والاب رينال Abbé Raynal ولوجى دو طاسى Laugier de Tassy الذى قدم تاليفا لمؤلف هولاندى طبع بامستردام سنة 1725 وطبع فى باريس بعد ترجمته سنة 1727 ، ومعظم هؤلاء الكتاب اقاموا بالجزائر لمختلف الاغراض ، وسجلوا انطباعاتهم ، ومشاهداتهم ، او ما استقوه من المعلومات عن الاوربيين المقيمين بالبلاد ، او من السكان المسلمين الذين كانوا يتصلون بهم بحكم وظائفهم ومهنهم وهي لا تختلف عن بعضها ، واكثرها نظريات سطحية ، ويمتاز من هؤلاء المذكورين لوجى دو طاسى Laugier de Tassy فانه فى تقديمه للكاتب الهولاندى رد عليه الاتهامات التى اتهم بها الجزائر : منها التعصب الدينى فقال فى رده عليه « ففى الميدان الدينى نجد احسن شىء واروعه التسامح ، وهذا التسامح موجود فى الجزائر ، ويستحق سكانها الشكر والاعتراف بالجميل » ثم قال « ان حكومة الجزائر لها سلوك ممتاز فى هذا الميدان فانها تترك الحرية التامة للمتدينين الساكنين ببلادها ، وبقدر ما يشتهر عندهم الانسان بالتدين الا ويرتفع قدره عندهم ويحترمونه ويحمونه » ويناقش دو طاسى المؤلف الهولاندى الحساب ويظهر له مصدر هذه الاتهامات فيقول « ان منبع هذه الحملة المغرضة هم القسيسون المنسوبون الى جمعية الافتداء المسيحية Redempteurs التى انشئت فى نابولى سنة 1731 ويسمون انفسهم بالمنقذين والمخلصين والفادين (للاسرى المسيحيين الذين كانوا بالجزائر) فانهم هم الذين يتهمون الجزائر بانها تضغط على الاسرى المسيحيين وتكرههم على اعتناق الاسلام ، وهذا غير صحيح ، ويخاطب هؤلاء القسيسين فيقول لهم : ان شهادتكم لا تقبل حيث ترتكبون اشنع الفظائع باسم الدين ، فانكم تبيحون الفتك بالمسيحيين الذين من سوء طالعهم ولدوا من آباء مسيحيين ، Protestants ويرد مزاعمهم فى الاكراه على الاسلام ، فيقول : ان الجزائريين لا يثقون فى الاسرى المعتنقين للاسلام ، اذ يرون ان دخولهم فى الاسلام صورى ، يقصدون به قضاء مآربهم»الخ

اما القسم الثالث فان كتابه كما ذكرنا ينقسمون الى فرقتين : الفرقة الاولى واكثر افرادها من الضباط الذين خاضوا غمار حرب الاحتلال فدونوا احداثها ككتاب «حوليات الجزائر» Annales Algériennes لبليسيى دورينو Pellissier de Reynaud الذى سجل احداث الجزائر ما بين سنوات 1848 و 1854 والكتاب

يقع في ثلاثة اجزاء وطبع بالجزائر سنة 1854 ، وهو من المصادر الهامة لذلك العهد ، وكثير من الكتاب يعترفون لمؤلفه بالشجاعة الادبية وبالنزاهة النسبية ، اذ نجد كثيرا من تصريحاته وتعليقاته على الاحداث لم تكن في صالح السلطات ، كما يمتاز كتاب هذه الفرقة بسجلات تقاريرهم التي جمعت وطبعت بمناسبة الاحتفال المئوي،فنجدها تعرضت لكثير من احداث حرب الاحتلال كالمعارك الشهيرة «واقعة وادى المقطع» «واقعة سيدى ابراهيم» «طاقين» «الوفايا» «واقعة التنصير» فصورتها على ما يقرب من الحقيقة واعترف فيها كتابها بالغلطات الفادحة التي ارتكبها الجنرال تريزيل وتسببت في هزيمة « وادى المقطع » ، والغلطة التي ارتكبها زميله الكولونيل دومنطانياك Mantagnac ولقي فيها حتفه بسيدى ابراهيم الخ . وهؤلاء الكتاب هم الجنرالات دوبورمون De Bourmont وكلوزيل Clauzel وقوارول Voirol ودامريمون Damrémont الخ ، ثم اعقب هذه الطبقة كتاب آخرون واصلوا آثارهم ، وجلهم اشادوا بالاحتلال وصفقوا لنجاحه ، خصوصا انصار الكنيسة الذى كان شعارهم « افريقيا اللاتينية» و « الجزائر الفرنسية » اذ كانوا يرون ان احتلال فرنسا للجزائر عبارة عن امتداد المدنية الرومانية في هذه الربوع التي حال بينها الفتح الاسلامي ، وقد صرح بذلك كثير منهم ككاط E. Cat المبرز في التاريخ ، والاستاذ بمدرسة الآداب العليا بالجزائر في تاليفه « التاريخ الصغير للجزائر والمغرب وتونس » المطبوع في الجزائر سنة 1891 (مطبعة جوردان) فقال : «في الخامس يوليو امكن للجيش الفرنسي ان يخرق باقدامه شوارع الجزائر الضيقة مسلحا ، تلك الشوارع التي امتنعت على الملك شارلكان ولويس الرابع عشر ولم تطأ اقدام اجدادنا طرقاتها الا مكبلة بالحديد ، اسرى او عبيد ، فهذا مبدا اعظم احتلال يسجله التاريخ لفرنسا » ثم استدل المؤلف بكلام ركلوس O. Reclus الذى قال في الموضوع : «ان هذا اليوم عظيم لان هذا الانتصار ليس هو من الانتصارات العقيمة المملوءة بها بعض صفحات كتبنا ، انه ليس انتصار مارينيان Marignan ولا روكروا Rocroy ولا فونتناى Fontenay ولا واقرام Wagram فهذا الانتصار هو احتلال الجزائر في 5 يوليو 1830 ، ان هذه البلاد بموقعها ستسهل علينا الحاق جناحيها وبلاد الصحراء وتفتح لنا الطريق الى السودان » الخ . (يقصد بالجناحين المغرب وتونس) وهذا الكتاب رغم افكار صاحبه الاستعمارية يحتوى على حقائق هامة سنذكرها في موضعها ، ولننتقل الى الحديث عن كتاب ظهر اخيرا اى طبع سنة 1965 وهو من نوع المذكرات نشره الكاتب بيير سيرفال Pierre Serval تحت عنوان «المجهولون في التاريخ» وهي مذكرات للماريشال دوبورمون قائد جيش الاحتلال الفرنسي للجزائر ، لم يسبق نشر كثير من فصولها قال الكاتب في مدخل تأليفه : «انه منذ مائة وثلاثين سنة في برج قصر انجقان Angevin

توجد بعض الوثائق المهملة ، وبعد الاطلاع عليها يكتشف القارىء الاسرار الغامضة التى تتعلق باحتلال الجزائر سنة 1830 » ثم يقول : «ان هذه الاحداث وان كانت قديمة ، فانه يمكن تطبيقها على الحالة الحاضرة ، حيث ان التاريخ يعيد نفسه ، ان التشابه بين قضية الجزائر فى القديم والحديث ، بلغ الى حد انه يمكن للانسان ان يكتفى بتغيير الاسماء والتاريخ فقط ، حتى يظن ان احداث هذا العهد هى نفس احداث الماضى » ثم يقول : « اننى اعد نفسى محظوظا حيث ان الفرص اتاحت لى الاطلاع على مئات الوثائق ، الكثير منها مجهول ، وان صحتها لا نزاع فيها ، ان هذه الوثائق سجل لوزير الحرب اذ ذاك وقائد جيش الاحتلال الفرنسى ، ولأهمية هذه الوثائق والحفاظ بقيمتها ، اخترت ان اتوارى وراء ممثليها الحقيقيين ، فأتركهم ، يتحدثون عن الاحداث التى مثلوها بدلا منى ، وان ما ذكرته لم يتمكن لى ، لولا فضل الكنت دوبرومون Comte Louis deBourmont وقرينته اللذين فتحا لى باب برج قصرهم العتيق ، وتركا لى الحرية التامة لتصفح وثائق جدهم الماريشال دوبورمون ، كما انى مدين للكولونيل هنرى دوبرومون الذى شرح لى احداث تلك الفترة ذلك الشرح الذى يدل على سعة الاطلاع » .

ثم يتعرض المؤلف سيرقال (1) فى الفصل الاول من التاليف الى سرد احداث محاولة شارلكان الفاشلة لاحتلال الجزائر سنة 1541 ، كما هو معروف ، ثم يذكر ما نسب الى الفارس الفرنسى بونس دوبالاقير Ponce de Balaguer الذى غرز سيفه قرب باب عزون وصرخ بقوله « سنرجع » وقال ان هذه الكلمة صارت شعارا من ذلك العهد لقادة الحروب منهم ماك ارتور Mac Arthur الامريكى الذى رددها عند ما اخرجه اليابان من جزر الفيلبين . ثم يتعرض المؤلف للتطاحن الذى كانت باريس مسرحا له بين الجمهوريين والملكيين وكيف استغل الملكيون قضية المروحة وبين بتفصيل ما ايد به آراءه من هذه المذكرات ، والذى يهمنا منها ــ ان المذكرات ــ وله علاقة بموضوعنا هو دور التاجرين اليهوديين بوشناق وباكرى فى قضية المروحة ، والاحتلال الفرنسى ، ان قضايا اليهود ومواقفهم ازاء المسلمين ودولهم من قديم الزمان لا ينبغى لها ان تهمل ، او تعد من القضايا العادية ، بل ينبغى لها ان تدرس مرتبطة ببعضها ، وقد علمنا ان وجود اليهود بالجزائر قديم ، وقد آوت الجزائر ــ باعتراف المؤرخين اليهود ــ اللاجئين منهم والمطرودين من مختلف البلاد الاوربية ، ابتداء من القرن الرابع عشر المسيحى ، الى ان وصل عددهم فى عاصمة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسى الى ستة آلاف نسمة ، وقد علمنا انهم اعترافا بجميل الاحسان شاركوا فى المؤامرة التى سهلت على الاسبان احتلال المرسى الكبير ، ثم تطوعوا للجوسسة لصالح الاسبان بعد احتلالهم بجاية ،

(1) "Les Méconnus de l'Histoire". (Le Maréchal de Bourmont) par Pierre Serval (Edit. Caliman-Levy Paris 1965)

الى ان امر بطردهم الملك شارلكان (1) لما اخفق في هجومه على الجزائر سنة 1541 وقال قولته المشهورة في حقهم : « اننا اخرجناهم واطردناهم من بلادنا بخسة الغدر المتأصلة فيهم ، وقد آواهم اعداؤنا واحسنوا اليهم وبدلوا خوفهم لنا بجوسسة اللئام » هذا كله معروف في كتب التاريخ وانما اردنا تذكير القراء قبل ان نتحدث ونتقل رواية صاحب المذكرات قائد جيش الاحتلال دو بورمون فشهادته لها قيمتها ووزنها ، وقد كشفت القناع عن الدور الخطير الذى لعبه اليهود اذ ذاك في سياسة حكام الجزائر وجعل كثيرا من المؤرخين والكتاب يتساءلون عن اسباب تدهور الدولة التركية في آخر عهدها وكان ختامه احتلال البلاد ، قدم المؤلف لحديثه عن قضية اليهود مدخلا قال فيه : «عند ما خفق شارلكان في حملته — 1541 — وايس من الاستيلاء عليها كان عمر الجزائر كقاعدة وعاصمة ثلاثين سنة . ولكنها عاشت ثلاثة قرون مهيمنة على البحر الابيض ، مستعبدة للمسيحيين الذين كانوا يرزحون تحت قيد السلاسل والاغلال ، وقد بلغت ثروتها بفضل غنائم قراصنتها (بحراتها) الرقم القياسي الذى لم تبلغه دولة اخرى حينئذ ، وقد هاجمها بعد شارلكان الاميرال الفرنسي دوبوليو de Beaulieu باسم الملك لويس الثالث عشر ، ثم الملك لويس الرابع عشر بواسطة قائد اسطوله الدوك دوبوفور de Beaufort سنة 1663 ثم في سنة 1668 القائد الفرنسي دستري d'Estrée فكانت النتيجة واحدة : الخيبة ، ثم تجددت هجومات الاميرالان دوكس و تورفيل (Duquesne)و(Tourville) فارتطما بنفس الخيبة .

فتداخل بعد هذا الدانمرك ، ثم الاسبان سنوات 1773 و 1783 و 1784 فكانت هجوماتهم كضربة السيف في الماء ، ثم اهتم بها نابوليون بونبارت واعد للامر عدته ، فلم تساعده الظروف ، فخلفه للقيام بالمهمة اعداؤه الانكليز فارسلوا سنة 1816 اللورد اكسموت Exmouth فخفق ، ثم اعادوا الكرة سنة 1824 وكان قائد الاسطول الاميرال نيال Néale فكانت الخيبة المتكررة المعروفة . ثم يدخل الكاتب في الموضوع ويبين موقف الملكيين الذين كانوا يخشون من انفجار الثورة ، فاتفقوا على ان املهم الوحيد في التغلب على الاحداث ، هو تجنيد جيش وخوض غمار حرب والتحصيل على نجاح ولو وهمي ليشغلوا بها الراى العام ، فكانت قضية المروحة ، وبعد حديث مفصل ينتقل المؤلف الى الحديث عن قضية دين اليهود فيتحدث عن علائق اليهودى جوزيف باكرى مع طاليران وزير نابليون ، ثم يتعرض لمكانة طاليران عند نابليون فقال : « كل ما يعرفه نابليون يعرفه طاليران ، والعكس بالعكس ، اللهم الا مسألة واحدة كان يعرفها طاليران ولا يعرفها نابليون وهي

(1) مر شارلكان على مرسى بجاية في طريق عودته بعد الهزيمة ووجد الاهالي بلباسهم في البلدة فاخبرانهم يهود اسبانيا المطرودين تطوعوا بالجوسسة لمعرفتهم لغة البلاد والاسبان

علائق طاليران مع التاجر اليهودى جوزيف باكرى » ولهذا فوجىء نابليون عند ما اطلع على تقرير سرى ارسله طاليران الى زميله وزير المالية روبير لاندى Robert Lindet مؤرخ فى 24 اوت 1800 نصه : « ان علائقنا مع الجزائر تستوجب ان نظهر لليهود نوايانا الحسنة معهم ولهذا فان قضية الدين لا ينبغى ان ننظر اليها من زاوية العلائق التجارية الخاصة العادية بل ينبغى لنا ان نعتبرها قضية دولة » .

ثم تساءل المؤلف فقال ما هو هذا الدين ؟ واجاب عن سؤاله بما يلى : « كان الفلس يهدد حكومة فرنسا من جهة ، وخطر المجاعة يهددها من جهة اخرى ، فكانت الدولة اذ ذاك فى اشد الحاجة الى القمح ، مهما بلغ ثمنه ، فتوجهت حكومة المديرين Directoire الى داى الجزائر، ونظرا لعلائقه الودية مع فرنسا اذ ذاك ، اجابهم لرغبتهم ، فباع لهم ما قدره مليون فرنك قمح ، وتبرع لهم بقرض من دون فائض .

كلف الداى شركة اليهود لتنفيذ الصفقة التجارية ، وتحمل ضمان المبلغ من خزينة الدولة، ثم ذكر المؤلف تفاصيل الصفقة وما جرته لليهود من ارباح ، اكثرها معروف فى كتب التاريخ ثم بين افراد الشركة ، ونشاطها التخريبى فى المنظمات الحربية والاقتصادية فى البلاد، فاعرضنا عنه ، لطوله واخترنا تتبع جوانب ما يهم من قضية الدين .

امكن لطاليران ان يحصل لباكرى الذى زاره بباريس اعترافا من الحكومة الفرنسية بما قدره مليونان ومائتان وسبعة وتسعون الف فرنك وتعهدت فرنسا ان تدفع هذا المبلغ بالتقسيط الا انه عند ما توترت العلائق بين تركيا وفرنسا وانقطعت العلائق بين الجزائر وفرنسا بسببها ، توقف دفع الدين الى ان وقع اتفاق بين الداى وممثلى فرنسا مؤرخ فى 17 دصمبر 1801 ، من جملة بنوده ، تعهد الجانبان بتسهيل دفع ديون رعايا كل من الدولتين ، فكان مبلغ دين اليهود تضخم الى ان وصل ثمانية ملايين فرنك ، فقبض منه ثلاثة ملايين ، ثم مليون ومائتى الف فرنك وكان الداى اذ ذاك يجهل تفاصيل هذا الدين وانما كل ما يعرفه من القضية ان لرعاياه اليهود دين على فرنسا يجب الاسراع بقبضه ، فتكونت لجنة برلمانية فى فرنسا للبحث فى هذه القضية ، فأقرت هذا الدين لخبر يطول واكتفى المؤرخ بالاستدلال على ما حكم به احد كبار المؤرخين لما تعرض للحديث عنها وهو قابريال اسكير Gabriel Esquer صاحب كتاب «احتلال الجزائر » سنة 1830 La Prise d'Alger قال « ففى هذه القضية نجد الحكومة الفرنسية ودائنى الشركة اليهودية بل حتى اعضاء الشركة اليهودية (وهم كلهم من اسرة باكرى وبوشناق) كلهم خدعوا من طرف جوزيف باكرى الذى كان يتظاهر بالبلادة » ثم ذكر المؤلف ان الامير سكست دو بوربون Prince sixte de Bourbon علق على هذه الفقرة بقوله « كلهم خدعوا ماعدا طاليران » .

واننا ذكرنا هذه القضية بنوع من التفصيل

لان لها ابعاد واشباهـا فى التاريخ العـالمى وبالخصوص الاسلامى ، اذ لم تكن هذه الكارثة مقصورة على قضية الدين الملفقة والتى كانت خيوطها بباريس ، ولا نريد ان نطيل على القارىء وسنرجع اليها فى فرصة اخرى وانما تتميم للموضوع انقل ما وعدت به عند الحديث على المؤرخ كاط E. Cat السابق الذكر فقد وجدنا فى تأليفه ما ايد به دو بورمون فى مذكراته ، وحديثه تفسير لما تساءل عنه كثير من المؤرخين (1) عن سبب تدهور الحكم التركى فى اواخر عهده فقال « ... عند ما اندلعت ثورة فرنسا سنة 1789 امتنع الباشا حسن ان ينضم الى اعداء الثورة لعلائقه الحسنة مع فرنسا ، وذلك رغم تدخلات انكلترا ، واغراءاتها ، وقد انقذها من شبح المجاعة التى كانت تهددها ، فسهل لها شراء القمح واقرضها خمسة ملايين فرنك من دون فائض » ثم قال المؤرخ كاط فيما يخص اليهود « ان يهوديين لهما نفوذ وهما بوشناق وباكرى دفعا هذه الحبوب وقد جرت هذه القضية مشاكل معروفة ، ثم ذكر وفاة الداى حسن سنة 1798 اثر مرض وخلفه صهره الخزناجى مصطفى (1798 — 1805) ويذكر ان هذا الداى كان كناسا بشوارع العاصمة ، جهولا فظا ، وهو مدين بمنصبه لليهودى بوشناق ، فلهذا كان لليهود فى عهده التصرف المطلق فى شؤون البلاد فبسبب تداخلهم فى شؤن الدولة وقعت مصادرات لا نهاية لها كما وقع عزل كثير من البايات ثم اجراءات استثنائية ضد القناصل الاوربويين،فغصبت اموالهم، واهين كثير منهم ، ومن هؤلاء قناصل انكلترا ، والسويد والدانمارك ، فقد عوملوا بقساوة واهانة ، بخلاف قنصل فرنسا ، فانه كان محاطا بالتجلة والتقدير الى حد ان الخليفة العثمانى لما امر الداى باعلان الحرب على فرنسا بسبب الهجوم على مصر ، امتنع الداى من تنفيذ امره،وعندما تكرر الامر المصحوب بالانذار ، اكتفى الداى بالقاء القبض على بعض الرعايا الفرنسيين ، وكانت معاملتهم حسنة ، وقد اعتذر الداى لفرنسا (سنة 1799) معترفا لها انه اقدم على هذا الفعل مكرها ، وبعد مدة تغيرت الاحوال وهاجم الاسطول الجزائرى بعض شواطىء فرنسا وهددها باعلان الحرب لخبر يطول

ثم يتعرض المؤلف لقضية اليهود فيقول :

« ان نفوذ اليهود المتالق ، وعجبهم وغرورهم بانفسهم ، جر عليهم موجة غضب من طرف السكان ولم يكن الغضب خاصا باليهوديين بوشناق وباكرى بل شمل معهما الداى الذى كان يأتمر باوامرهما ان عدة مظاهرات غضب انفجرت ضده وفى ثلاث مرات اصيب وهذا نص الاصل :
وفى ثلاث مرات اصيب من جرائها بجروح خطيرة وهذا نص الاصل :

«Cependant la faveur croissante des Juifs, leurs vanité de parvenus, leur avaient attiré de nombreux ennemis. Buschnack et Bakri particulièrement étaient détestés et le Dey qui écoutait leurs conseils était enveloppé dans la même haine. Plusieurs emeutes éclatèrent. contre lui, trois fois à diverses reprises il reçut des blessures graves».

1) منهم حمدان بن عثمان خوجة فى المرآة فانه عقد فصلا هاما تعرض فيه للتصرفات الجنونية فى ذلك العهد

كانت اخطر هذه المظاهرات هي الواقعة في يونيو 1805 وسببها ان جنديا تركيا (انكاشري) اطلق على اليهودي بوشناق طلقة نارية اردته قتيلا . وقد خاطبه عند اطلاق الرصاص عليه بقوله (خذها يا ملك الجزائر اذ كان لقوة نفوذه يطلق عليه لقب ملك الجزائر) .

وقد تسابق رفقاء الجندي اليه فحملوه على الاكتاف معلنين اغتباطهم بفعلته ، اما الداي فقد احس بالخطر ولم يسعه الا العفو عن القاتل اذ بمجرد ما بلغ السكان خبر القتل ، تسابقوا الى الحي اليهودي ، فنهبوه وخربوا دوره ، ومتاجره ، وقتلوا خمسين فردا منهم ، اما رد فعل الداي فكان ان امر بالقاء القبض على كثير من اعيان اليهود وابعاد الآخرين لينجي نفسه من تهمة حماية اليهود وصداقته لهم ، ومع هذا لم يسمح له السكان فقد ذبح بعد شهرين من قتل بوشناق وذلك في اوت 1805 وقد طالت المظاهرات ضد اليهود ، ثم توترت العلائق بين الجزائر وفرنسا من جديد ، واطرد الداي قنصل فرنسا ، ونكاية فيها حسنت الجزائر علائقها مع انكلترا ، فغضب لذلك نابليون وعمد الى الهجوم على الجزائر فكان تكليف الكمندان بوتان Boutin بتسطير تصميم الجزائر ، ذلك التصميم الذي اعتمده جيش الاحتلال فيما بعد .

هذه صفحات لا ينبغي دراستها متفرقة ومقطعة ومع الاسف لم يتعظ بها حكام الجزائر اذ ذاك خصوصا بعد ما اشتهرت قضية الدين وحوصرت الجزائر ما يقرب من ثلاث سنوات ثم احتلت ، وقد ظهر موقف اليهود بعد الاحتلال الفرنسي ، فقد شاركوا الفرنسيين في افراحهم رجالا ونساء ومع هذا كله نجد احمد باي قسنطينة يعين يهوديا للتفاوض مع الجنرال داميريمون اى مع ممثله الذى ارسله لهذا الغرض الى تونس ، ثم عين مرة ثانية يهوديا آخر كان من خدامه ليتفاوض من جديد مع داميريمون الذى كان هذا اليهودى الثاني المسمى بوشناق ، من سكان العاصمة وكان من ابرز جواسيس داميريمون نفسه ، اما اليهودى الاول فكان اسمه ابن باجو ، ثم نفس الغلطة تكررت في عهد الامير عبد القادر الذى عين ممثلا يهوديا بالعاصمة ، وقبل ان نختم هذه الدراسة نذكر ان كثيرا من مؤرخي فترة الاحتلال الفرنسي لم يخفوا ما وجده جيش الاحتلال الفرنسي عقبة في طريقه ، واعترف بعجزه عن ازالتها ، او تذليلها ، ولنقتصر على ما كتبه في القضية المؤرخ الشهير موريس (1) وهل Maurice Wahl وقد نشره وقدمه المؤرخ الشهير اوقستان برنار وهو كذلك من اقطاب غلاة المعمرين ، قال لما تحدث عن طبقات سكان البلاد اذ تأليفه خصه لجغرافية الجزائر : « ان الذى يجمع بين سكان الصحراء وفلاحي التل هو الدين ، كلهم مسلمون : فالمساجد والزوايا والقبب (الاضرحة) هي مراكز تجمعاتهم ، ان الكثيرين

(1) "L'Algérie" par Augustin Bernard (Edit. Alcan Paris 1903).

منهم منخرطون في الطرق : الرحمانية ، الطيبية ، القادرية ، التجانية والسنوسية ، فهي كلها طرق قوية واخطرها السنوسية ، ان اكثريتهم متشبثون بتعاليم دينهم وقليل منهم من لم يراع هذه التعاليم : وضوء ، صلاة ، صيام رمضان ، وفي كل سنة يذهب الآلاف منهم الى الحج ، فمنهم من يموت في طريق الذهاب او الاياب ، ومنهم من يرجع منهوك القوى من اثر التعب والحرمان ، الا انهم مسرورون باداء الواجب المقدس ، ان هذه الروح الحماسية في التعلق بالدين ، هي العائق الوحيد الذي وجدناه في طريقنا ، فهي التي تعزز الروح الوطنية لايقاد نيران الغضب ، وتشجيع المقاومة ، ان معظم الثورات التي اجتاحت البلاد كانت بسبب دعاية رجال الدين والانكى انهم بمجرد اعلانهم الحرب على العدو الكافر ، تزول الخلافات بين الافراد ، وبين القبائل ، فهذه هي الحقيقة المخيفة دائما ، والتي لربما نصل الى التخفيف من وطأتها ، الا ان القضاء عليها صعب جدا » ، ثم يقول : « اما تنصير المسلمين الذي يحلم به بعضهم فهو خيال وحلم محفوف بالاخطار ، فتعاليم الاسلام بسيطة ، ومعنوياته واضحة ، فهو من هذه الناحية لا يختلف عن بقية الاديان التوحيدية، انه شبيه لها ، فالمسلم متعصب غير متسامح ، ولكنه في هذه الاحوال شبيه ببقية المتدينين الآخرين من مسيحيين ويهود ، وان القرآن وان كانت توجد فيه آيات تشيد بالقوة المادية ، فانه يشتمل على آيات تدعو الى الرحمة والعدل . فمحاربة التعصب او تلطيفه يكون بنشر الحضارة والعلم ، فالاديان السماوية وحدها غير كافية ، فهي في حاجة الى نشر العلم ، وتعزيزها به ، والاهلي الجزائري سيبقى مسلما ، كما ان الفرنسي المسيحي يبقى مسيحيا ، الا انه سيصير رجلا معاصرا لقرنه » . اهـ كلام المؤرخ وهل

وما نقلناه في ختام هذا البحث للمؤرخ وهل واقستان برنار هوما كاد ان يجمع عليه بقية المؤرخين آراءهم ، الا ان هذه الحصانة ، حدث ما يهددها بالتزعزع : طغيان الروح المادية ، ومتطلبات المادة التي انغمس فيها الافراد والجماعات ، فالروح الدينية التي كانت تجمع اشتات القبائل لم تعد كافية وحدها في مجتمع صار كثير من افراده يحاربون التقاليد والتعاليم الدينية ويتنكرون لها .

موقف المؤرخين الأجانب من
تاريخ الجزائر

عثمان الكعاك

مؤرخ تونسي

1) تصدير صغير ٠

هنالك قواعد اصولية وبديهيات مسلمة هي جوهر هذا الموضوع الذى نطرقه والعمود الفقري منه وقطب الدائرة له والموضحة لأساسه ، والرافعة لالتباسه فلا بد من ايرادها أولا وبالذات

أ) القاعدة الاولى ٠

هي ان كل امة وقعت تحت حكم غيرها تكون مصادرها التاريخية طوال حكم الاجنبي بلغة هذا الاجنبي ، وبمفاهيمه . ونزعاته ، وما تقتضيه احكام سياسته ٠ فما يؤلف في التاريخ من كتب

تتعلق بتاريخ الامة العام ، أو تاريخ جهة منجهاتها أو قبيلة من قبائلها ، أو مؤسسة من مؤسساتها ، لا يكون الا بمقتضى القاعدة الاولى التى بيناها • ويضاف الى ذلك ما يؤلف من مذكرات أو يوميات أو اخبار وقائع يؤلفها القواد المحتلـون ، فهى مرآة صادقة للنوايا المبيتة والتخطيطات المسطرة • ويكفينا شاهد على ذلك رسائل الماريشال بيجو الى زوجته وهى مطبوعة ومعروفـة ، ومن اكتفى بمطالعتها وحدها دون غيرها كفته مؤونة مطالعة غيرها ، وتالله لقد قضيت عاما كاملا اطالعها بامعان فكنت امرض فانقطع وارجع فامرضوهكذا دواليك طوال العام الذى كان بطول القيامة واشد هولا • ماذا قاسى الجزائريون ! ماذا احتملوا ! كم صبروا وصابروا ! اشياء اقلها يشيب لهولها الاطفال •

ويكفى ان نطالع الرسائل الاولى ، ووقعـة ام الطبول حتى نكتفى وزيادة • واقول انه من الخير ان تترجم هذه الرسائل الى العربية حتى يعلـم ابناء الجزائر والعروبة والاسلام ماذا قاسى الاسلام والعروبة والجزائر •

ولكل قاعدة استثناء والاستثناء يؤيد العموم كما يقول المناطقة ، فقد جاءت مجلة العالمـين Revue des deux mondes سنة 1549 وذكرت فى تفاصيل واقعية موضوعية مجسمة خالية من كل زيادة ونقصان واقعة الزعاطشة قرب سيـدى عقبة من احواز بسكرة فى الجنوب الشـرقى الجزائرى فأنصفت وروت الاحداث كما هى وهى احداث هائلة مريعة فضيعة مرعبة تقشعر من هولها الجلود وتحمر الشمس وتربد السماء يبكى الناس بدم قلوبهم على كنة فضحها الجند امام حميها وعلى شيخ محترم عابد ناسك جعل رأسه كرة للترفيه على الجنود وعلى حامل بقر بطنها واخرج جنينهـا واجبرت على طبخه واكله • وماذا اقول ايضا •

لكن العرب بالباب والمجلة موجودة وهى شاهـد عدل لا مطعن فيه •

وهنالك ايضا وثائق الجزائر documents d'archives الموجودة ليست فقط بالجزائر فى دواوين الحكومة والبلديات وأرشيف المحاكم وغيرها بل ايضـا بفرنسا ووزارات الخارجية للامم كلها التى لها صلة بالجزائر والتى لها مواقف صدق وولاء او مواقف حياء او مواقف لا مبالاة او مواقف عداء • فهذه الارشيف التى فيها المعاهدات والاتفاقات والمراسيم والقرارات واذون الولايات ورؤساء البلديات هى مادة ثرية تبين المواقف النهائية المعادية الـتى وقفها كل ذى سلطة قلت او جلت • وهنـالك أرشيف مجالس الجزائر ومجالس الولايات ومجالس البلديات وما حرر من محاضر جلساتها • فهـذه ايضا مادة اخرى ثرية لابد من مراجعتها ولايـة ولاية ودائرة دائرة وحوزا حوزا ، وهنالك أرشيف المحاكم المدنية او العسكريه وأرشيف الانديجينا (الاحكام الاهلية) • فهذه كلها تبين من الالـف الى الياء وبوضع المنقط على الحـروف وفى دون التواء ولا احجام جميع ما وقع بالجزائر •

وهنالك التقارير العسكرية والمجلات العسكرية•

وهنالك الصحافة الجزائرية الفرنسية اللسان•

وهنالك المجلات الجزائرية الفرنسية وهى مـآت

مختلفة المواضيع • منها ما فيه فوائد نزيهة في كثير من الاحيان مثال La Revue Africaine ومنها ما فيه الملاعن •

هذا هو الاصل الاول ويضاف اليه ان الدول الاستعمارية الاخرى هي ايضا تمشي مع فرانسا القذة بالقذة من باب :

فان ستروا عني تسترت دونهم
وان بحثوا عني ففيهم مباحث

وهو ما يسمى بتونس «شهادة باجية» اى اشهد لفائدتي وانا اشهد لفائدتك • ومن غير شك فهنا ايضا الاستثناء يؤيد العموم • فهناك دول قد انصفت مثل تركيا ودول قد انصفت احيانا ولم تنصف احيانا او انصفت في موضوع ولم تنصف في آخر • والانصاف صعب للشهادة الباجية التي تحدثنا عنها ولان مصدر المعرفة هي الجزائر نفسها ووسائل اعلامها او وسائل اعلام فرنسا نفسها فرواية الاخبار والاحداث ومهازل تقديم مجريات الاحوال للضيوف الذين سيكونون « شهودا من اهلها » كلها تتم وفق المرام باساليب كوميدية ابرع وابدع واروع من اساليب موليار لولا انها بعيدة كل البعد عن المرمى الاخلاقي ونزاهة الفكر وصدق القول • وليراجع من يشاء منا ما رواه كبار المشارقة عن زياراتهم المحتفى بها للجزائر فهي مكتوبة مشطرة مطبوعة بما فيها من خير وشر ، وبما فيها من صدق او تلبيس ابليس كما يقول ابن الجوزى • على ان موضوعنا الاصلي هو ما كتبه المؤرخون الافرنج وما ذكرناه انما هو ذيول لذلك التاريخ الاصلي وامتدادات ، ومن باب الذكرى التي تنفع المؤمنين •

ولنتساءل الآن : لماذا لا يكتب ابناء البلاد المحتلة تاريخ احتلالهم ؟ قيل للارنب مرة لماذا تمعنين في اكل العشب ولا تأكلين اللحم ، انه انفع لك ؟ فقالت : سبحان الله ! انا سلمت بلحمي حتى آكل لحم الغير ؟

ان المحتل الاجنبي لاسيما اذا كان لاتينيا من اسبان وفرنسيين وايطاليين وبلجيكيين يمنع حرية القول وحرية النشر وحرية الصحافة • ومن غير شك ان هذا في اتجاه واحد • وكما يقول المثل التونسي : « عليهم عليهم يا سيدى القاضي » أو كما يقول المثل الآخر : « اذا كان ولدنا ضرب ولدكم هاكا حال الصغار ، واذا كان ولدكم ضرب ولدنا شام النهار » فاية رقابة قائمة عسكرية او مدنية تسمح لصحيفة او لكتاب ان يقولا عشر معشار الحقيقة حتى ولو تلميحا دون تصريح أو حتى باسلوب الخرافة والرمز مثل كليلة ودمنة وقصص جحا ولافونتان • كلا ثم كلا ، فمذهب هؤلاء هو اقامة محاكمة من اجل النية والمقصد اللذين لا يعلمها الا الله • فكيف اذا كانت هناك قطرة من يم ونزر من جم من الحقيقة ؟ الا تعلمون قصة الذئب من الخروف

La raison du plus fort est toujours la meilleure

ان حق الاقوى هو الافضل على وجه الدهر ، او كما قال الرصافي :

يا قوم لا تتكلموا
ان الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا
ما فاز الا النوم
وتاخروا عن كل ما
يقضى بان تتقدموا
ان قال ان ثمادكم
سيل ! فقولوا مفعم
او قيل ان شهدكم
مر ، فقولوا علقم
او قيل ان نهاركم
ليل . فقولوا مظلم
او قيل ان بلادكم
يا قوم سوف تقسم
فتحمدوا و تشكروا
و تنعموا و ترنموا

ومع ذلك فان الجزائريين لم يفعلوا ادنى شيء من ذلك فما حمدوا الا الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ولم يمدحوا الجزار ، بل فعلوا ما فى الوسع • بل جاء من المؤرخين حمدان خوجة الذى ذكر مخازى الاحتلال فى عصره ، وجاءت مجلة البصائر التى ذكرت الحقائق كما هى ، وجاءت خطب البشير الابراهيمى ومقالاته التى هى الشهب المحرقة • ولكن ذلك جاء بالاضافة الى فرنسا «عند العيا والكبر» وفى الفصل السابق للختامى من الرواية ذات المائة والعشرين فصلا •

وصارت القضية الجزائرية كما قيل فى حكم عمورية :

السيف اصدق انباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

ولكن انتهت المعركة الاخيرة بانتصار الجزائريين انتصارا مبينا ونهائيا وابديا • غير ان الكتب التى الفها الاستعمار ووثائق الارشيف والصحافة والمجلات بقيت هى المصدر الوحيد لمعرفة التاريخ ولما رجع الجزائريون الاباسل من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فمن معارك الجهاد الاكبر معركة الكتاب الاستعماريين والوثيقة الاستعمارية بالترجمة وكشف اللثام ومقابلة الكتاب بالكتاب• وهى معركة طويلة النفس ولكن لا يهم•ولما كانت طويلة فلنبدأ من الايام•فلنترجم ولنهذب ولنحقق ولنحرر النقاط • فما نهض الاسلام الا بترجمة المامون • فعلينا بالترجمة فى هذا العصر الميمون• والا لبقى ابناؤنا يرجعون الى تلك المصادر ويتأثرون بها فتمسخ ادمغتهم ومفاهيمهم ويبقون مع جهل من حقيقة الامر على وجه الدهر • فعلينا ببينيسلين الميكروب التاريخى الاستعمارى •

القاعدة الثانية :

هى ان السياسة الاستعمارية تبدأ اولا بتغطية من التلبسات التاريخية والمغالطات والسفسطائيات وأنصاف الحقائق وارباع الحقائق واللاحقائق واضداد الحقائق • كما تبدأ المعركة المعاصرة بتغطية من اسراب الطيارات تجعل العمران قاعا صفصفا فتاتى الجيوش زاحفة كانها متجولة فى

بستان عمومي هو في الحقيقة مقبرة للبشر والحيوان والنبات والمعالم والاثار وكل اسباب العمران وموجبات الحياة ٠

وقاعدة هي المعركة التاريخية ترتكز على بيت الشاعر :

فان تكن سبة طاروا بها فرحا
وما رأوا حسنا الا وقد كتموا

او قول الآخر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما ان عين السخط تبدى المساويا

وقول المثل : « اللي تحبو سقط لو ، واللي تكرهو لقط لو » ، او قول المثل الآخر : « اللي ما فيه مخلوق ، يشريو هولو م السوق » والمثل الآخر : « يقطع يد اللي ما تضربش » ٠

والمهم في الامر هو ان نجعل اهل البلاد يؤمنون بحضارة غير حضارتهم ويعجبون بحضارة دين غير دينهم قد اخذ حضارته من دينهم وان نؤمن بعدم وجود حضارة لدينا ولا قدرة على اكتساب حضارة ما او بناء دولة او انشاء دولة علم او ادب أو فن او معمار او تقنية ٠ بحيث ينسى الناس في امجادهم او يحاول القوم ان ينسوهم في امجادهم وفي دورهم الحضاري وفي رسالتهم العالمية فيزهدون ويتزاهدون ٠ ووسائل ذلك هي الآتية :

أ ــ العناية بالآثار : وهذه العناية تسبق الاحتلال بمدة تقل وتزيد ٠ وهي تتظاهر ببراءة علمية ما عليه من مزيد ورسالة حضارية سامية وظاهره رحمة وباطنه عذاب ٠

فقد جاء الاقطار المغربية Shaw و Tissot واضرابهما وبحثوا عن حضارة الرومان وبينوا مجد الرومان واقاموا الدليل ببراءة علمية ايضا على ان العرب هدموا معالم الرومان وعطلوا الحضارة اربعة عشر قرنا ٠ وبحمد الله جاء الفرنسيون او الاسبانيون او الايطاليون واعادوا مجد الرومان ولا شك ان الفرنسيين والاسبانيين والايطاليين هم احفاد الرومان بالمغرب حقيقة لا غبار عليها ولا مراء فيها ولكنها كلمة حق اريد بها باطل ٠ فالذين قاموا بحضارة الرومان ليسوا الرومان ولكن ابناء البلاد المغاربة ٠ فمدينة شرشال بناها يوبا الثاني الملك البربري وبنى جامعتها الكبرى والف اول موسوعة علمية عالمية اول جغرافية جامعة ٠ والمسرح الروماني بناه المغاربة والف مسرحياته القرطاجني طيرنسيوس وهو واضع علم التمثيل الحقيقي عند الرومان ومؤلف المسرحيات الرومانية الاصيلة الطريفة ٠ والنقد المسرحي وضعه مغاربةاصليون امثالارنبيوس وترتوليانوس والقديس أوغستينوس ، واول مشروع رومانيوضع المجلة الدائمة هو تونسي من بير بورقبة سلفيوس جوليانوس وكبار الامبراطورية الرومان مغاربة امثال كارل كله وسبتيموس سافاروس وغوديانوس الاول والثاني والثالث بناة قصر الجم بتونس ٠

وجاء Dussau فبحث عن الفينقة وان الفينقة ام الحضارة بالبحر المتوسط ٠ وهذه ايضا كلمة حق اريد بها باطل فهم يريدون من الفينقة ان

تعدل عن تاريخنا العربي الى الحضارة الفينيقية والحضارة الفينيقية هي حضارة عربية اصيلة لان الفينيقيين من بني كنعان وهم اليوم من سكان لبنان وسوريا والاردن وفلسطين • فاذا كانت الفينقة هي ام الحضارة ونحن نسلم بذلك فابو الحضارة هو يعرب بن قحطان •

وذهب شامبوليون الى مصر فاخذ يطبل ويزمر لحضارة الفراعنة وهي ايضا ام الحضارات • يا اخي ! يا اخي ! اذا سلمت بانه يجوز ان يكون لاحدهم آباء متعددون فالام دائما واحدة • فما بال الحضارة عديدة •

واذا كنا نسلم بمجد الحضارة المصرية القديمة وانها اثرت في حضارات البحر المتوسط حتى الحضارة البونيقية نفسها فما هي الا حضارة مصرية مسبوقة بحضارة ليبية ومجدمصرفيعصرها العربي الاسلامي اضعاف مجدها الفرعوني الذى فيه حضارة اليمن وحضارة الهكسوس وحضارة الايرانيين وحضارة الليبيين البطوسين Battides من اهل الشحات Cyrène والمصريون الاقدمون والمحدثون عرب ، والا فما بالهم ينشئون الجامعة العربية ويحدثون المرة بعد الاخرى شخصية علمية وادبية وفنية عربية اسلامية كبرى ولماذا يخرج منهم كبار المصلحين المعاصرين الى جانب الامير عبد القادر وخير الدين باشا التونسي •

ثم يذهب اخواننا الاثريون الى تركيا يبحثون عن آثار الطوخاريين والحثيين فيجدون الدب الابيض وحضارة الاتراك القدامى من سرامطة وحثيين ولكنهم يشتمون الفاتحين الاتراك امثال اتيلا وهولاكو وجنكيز خان وتيمور لنك ويمشي المتأوربون من الاتراك في هذه السبيل ويبقى الشعب التركي الاصيل والعقلاء في حظيرة الاسلام الذى كون حضارتهم الكبرى واعز دولة ظهرت في بلادهم •

ويذهبون الى العراق ، فيبحثون عن آثار بابل وآشور واور ونينوى ويحاولون تبيين انها اعظم من حضارة العراق الاسلامي •

ولا يصيب العراقيين الجنون والافتتان بترهات هؤلاء العلماء الذين لا يبحثون « لله » لانه «ما ثماش قطوس يصطاد لربي» ، ولكن كل هذه البحوث لابعاد الناس على حضارتهم الاصلية والهائهم بحضارات سابقة هي جزء لامع من حضارتهم الاصلية وجعلهم لا يؤمنون بحضارتهم الى آخر ما قلنا •

وانتقل الاثريون الى ايران نفسها والى الهند فتحدث كريستنسني Christensen عن الساسانين وكليمان هوار El-Huart عن تاريخ ايران في العصور القديمة كل ذلك قصد انساء الايرانيين والمسلمين عامة في مجد الطاهريين والصفاريين والصفويين والغزنويين واثبات عظمة قورش ودارا ورستم وانساء عظمة البخاري والنسائي والترمدى والبيروني وابن سينا والشبيرازى وابن بختيشوع والخوارزمي ، بل بلغ من امرهم انهم مجدوا الخيام الشاعر وحاولوا انساء الناس في عمر الخيام الرياضي والعالم بالجبر والمقابلات والمثلثات •

وحاولوا تمجيد هند بوذا وبراهما والنرفانا وانساء الناس فى هند محمود الغزنوى واكبر واورنغ ذيب وتاج محل واقبال والتهانوى ·

ب ـ **الحملة التشويهية** : العربى جاهل قذر وسخ اشوه يلبس اطمارا بالية واسمالا ملطخة مرقعة قملة وهو كذوب لص مخادع كسول مراوغ قلب فاسد الاخلاق عديم المروءة لا عهد له ولا ميثاق ضعيف مريض يحمل جراثيم الاوبئة وينشر الامراض الوافدة غير مؤتمن لا يمكن ان يسترسل اليه فى اى امر ·

هذه هى الحملة التشويهية التى قام بها الفرنسيون ضد الجزائريين قبيل الاحتلال وعند الاحتلال وخلال الاحتلال وبثوها فى كل مكان بجميع وسائل الاعلام من صحافة وكتب ومسرحيات وروايات وقصص وخطب ومحاضرات ·

لكن ! كيف يقام الدليل على ذلك ؟ الامر بسيط · يقال بالتونسية : « من لحيتوا اقبل لو شكال» فقد قال ابن خلدون وهو اكبر مؤرخى العرب « اذا عربت خربت واذا خربت لم تعمر » ، لا شك انها كذبة فقد قيل لرجل : بما ذا عرفت انها كذبة ؟ قال : من كبرها · فابن خلدون لم يقل العرب وانما قال الاعراب اى البدو الرحل فيأتى المسيو دوسلان ويترجم Les Arabes وتبنى على ذلك دنيا الاكاذيب وترهات بسابس والمزاعم والنظريات الخاطئة · لكن من يستطيع ان يكذب المسيو دوسلان ؟

اذا قالت حذام فصدقوها
فان القول ما قالت حذام

العربى جاهل : لا يا سادة · فكتابه الكريم يبدأ بفعل الامر من مادة قرأ · ويسمى القرآن ولا يسمى كتاب كاء الشجرة La Bible ونبيه يقول : «طلب العلم فريضة على كل مسلم وكل مسلمة» ويقول : «اطلبوا العلم من المهد الى اللحد» والله تعالى يقسم بالقلم فى كتابه فيقول : « ن والقلم وما يسطرون » ويقول تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ·

والمسلمون هم الذين علموا أوربا الصفر والارقام العربية والحساب والجبر والمقابلة والمثلثات والخوارزمية وعلموهم الفلك وقاسوا لهم خطوط الطول وخطوط العرض وعلموهم المعمار المرجن فبنوا لهم كنائسهم المرجنة واديرتهم وقصورهم باوربا واميركا ، وهم الذين نقلوا اليهم الكاغد والطباعة والتجليد ، وهم الذين علموهم الكيمياء والطبيعية والدورة الدموية والتحليل والتصعيد واصول الصيدلة المنفصلة عن الطب وعلموهم تلقيح الجدرى وعلم التطعيم بوجه عام · واخترعوا لهم الساعة والدفة والبوصلة والاسترلاب والخرائط البحرية وعلموهم مسالك البحار · وعلموهم القافية والوزن والموشح والزجل والغرام المتظرف والبلاغيات وعلموهم الجمع gamme والنوطة الموسيقية وادخلوا الى بلادهم العود والرباب rebee والنقارات hacaire والسرناى haubois وعلموهم البلطة hallebarde والاسلحة النارية من البندقية الى المدافع ونظام

الاستحكامات في القلاع ، فهل يبقون بعد كل هذا جهـــالا ؟

وانما انتم جهلتموهم فأغلقتم مدارسهم الوطنية وحرمتموهم من مدارسكم وجامعاتكم على حـــين انهم فتحوا لكم جامعات قرطبة وطليطلة وبالـــرم وسالرن والقيروان وبجاية وفاس ٠

المسلمون قذرون ؟ استغفر الله ! فالمسلـــم يغتسل طهورا اكبر مرة في الاسبوع على الاقـــل وهو قد اخترع الحمام الرائع والمشن والصابون والطفل المعطر وانواع الغوالي crème de beauté حتى سميت الغالية بالاسبانية algalia وبالفرنسية القديمـــة algalia وبالبرتغالية algalie وهم الذين ابتدعوا لكم انـــواع العطور والمسك والزبد (انظر الجزء الثاني عشـــر من نهاية الارب للنويري وكتاب العطور للكندي) وقد نشروا في اوربا الصابون ، ولفظ الصابون وصناعة الصابون كما نشروا لفظ الزبد cevette ومسك musc والانبيق alambic وجـــلاب julape وماء الزهر agna de azahar وهم الذين اهتموا بنظافة الثوب ونظافة المكـــــان ونظافة المدينة وهم الذين يغسلون اطــــرافهم ورؤوسهم ويستنون ويستنشقـــون ويستنثـــرون خمس عشر مرة في اليوم ، وهم الذين لا تصـــح صلاتهم الا بطهور البدن والثوب والمكان والذهن والقلب فكيف يكون العربي قذرا ؟

وما قلناه عن العربي الجاهل والعربي القـــذر نقوله عن العربي السارق فهذا اختلاق آخــــر ما انزل الله به من سلطان ٠ هل العربي اخـــذ اراضي الفرنسي ام الفرنسي اخذ اراضي العربي ؟

ولولا خوف الاطالة لاوردنا من الامثلة العجيب والغريب ٠

والمهم من هذه السياسة التشويهية هو خلـــق مركب النقص ومركب الجريمة في نفس العربي حتى لا ينوي يوما ان يثور على الجنس الرفيع الـــذي يحتل بلاده بعقود رومانية وغالية gauloises أخني عليها الذي أخنى على لبد ٠

ومع ذلك فما خضع العربي ولا خنع ولا ارغم انفه في التراب ٠ ولا ذل ولا استكان ولا تمسكن حتى يتمكن الى ان قضى الله امرا كان مفعولا ٠

فكل هذا الادب التاريخي التشويهي يجب ان يجمع لنتعرف عليه حتى لا يختلط على الباحثين في التاريخ الحابل بالنابل وحتى نعرف الكوع من البوع وحتى ننقي الحنطة من الزوان وحتى نجعل ما لله لله وما لقيصر لقيصر ٠

القاعـــدة الثـــالثة :

اننا اذا حللنا طبقات المؤرخـــين المستشرقين وجدنا عند آخر تحليل انهم ينقسمون الى ثلاث طبقات :

الطبقة الاولى ٠

المؤرخون المستشرقون الذين ينتسبون الى اقطار غير استعمارية ، فهؤلاء يكونون عادة اقرب انصافا في دراستهم أو اقل حدة في احكامهم فتاريخ الادب العربي لكارل بروكلمان أو كتابه الآخر « الموجز في تاريخ اللغات السامية المقارنة » لا يمكن ان

بوصفنا بتعصب بل انهما معلمان من معالم الدراسات الاسلامية لا يوجد بالعربية لهما مثيل الا ما ترجم منهما ٠ وكتاب زار Sarre في تاريخ التجليد الاسلامي شيء عظيم وكفى بالله ٠ ولا عيب فيه الا انه لم يترجم بالعربية ٠ وكتاب Toussaint المكسيكي عن تاريخ الفن المدجن الاسلامي بامير كا El arbe mudejâr en Amérique يقيم الدليل القاطع والبرهان الساطع على ان المعماريين المدجنين الاندلسيين الذين كانوا التقنيين في ذلك العصر قد بنوا طوال اربعة قرون كنائس جمهوريات امركا واديرتها وقصورها وبساتينها بطراز عربي فيه الزليج والنقش العربي والقبة والسقف العربي والمشربية « القنارية » Verandah Loggia وذكر لنا البعض من اسماء هؤلاء وآتى بالتصاوير التي هي البرهان الذى لا يدحض ٠ فهذا الرجل قد قام بعمل تاريخي لبيان مجد المعمار الاسلامي لم يقم به أي مؤرخ معماري مسلم ٠ وديامند الامريكي الذى ألف كتابا في الفنون الصغرى الاسلامية من اثاث وانسجة وسلاح وزجاجيات وعاجيات واوان وحلي وتحف على اختلافها هو ايضا محتاج الى ان يقام له تمثال ٠

الطبقة الثانية ٠

المؤرخون المستشرقون المنتسبون الى اقطار قامت فيها دولة العرب والاسلام مثل الاندلس والبرتغال وجنوب فرانسا وجنوب ايطاليا (قلوريات كالابريا Calabre وصقلية وسردانيا ومالطة) ٠ فهؤلاء معظمهم منصف اذا تحدث عن تاريخ المسلمين في بلاده او في العالم واقلهم المصف اذا تحدث عن تاريخ البلاد التى يستعمرها مثال ذلك غوستاف لربون في تاريخ العرب فقد اعطاهم حقهم وزيادة وعرف بحضارتهم ليس الافرنج فقط بل حتى المسلمين ، ومثل Leclerq في تاريخ الطب عند المسلمين ومثل W. Marçais في تاريخ الحديث وقيمته العظمى التربوية والاخلاقية عند الامم كافة فلا يوجد له نظير في أى ادب من آداب الامم ولا عند آداب الامم كافة ٠ أو في بحثه عن اللهجات وأصول الكلمات المغربية أو في تخريجه المدرسين المسلمين الافذاذ اما اذا دخل السياسة فيصير شيئا آخر ومثل Pons Bouygues باسبانيا صاحب كتاب طبقات المؤرخين الاندلسين وقد احصى فيه وترجم بما ينيف عن ستمائة مؤرخ اندلسى ومنهم المؤرخات ومثل قنزالس بلنسيه صاحب كتاب تاريخ الادب الاندلسى الذى ترجمه وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ، ومثل كتاب تاريخ الحضارة الاندلسية وتاثيرها على حضارة اوربا الذى شرعنا في ترجمته ، ومثل كتاب El Islam y Occidente الحضارة الاسلامية في حضارة اوربا الناشئة ٠ وهو اروع ما كتب عن تأثير وقد ترجمناه وهو ماثل للطبع ٠

ومثل امارى الايطالى صاحب كتاب تاريخ مسلمي صقلية وهو معلم ومعلمة نادر الوجود ولم يترجم الى الآن ، ولست ادرى ما يصنع الناس ٠ ومثل Mielli الايطالى صاحب كتاب تاريخ علماء الرياضيات عند العرب ، ومثل Schiapparelli الذى الف تاريخ المعمار الاسلامي بصقلية ٠

اما اذا انتقلنا الى الريف الاسباني سابقا او الى ليبيا التي رزحت تحت نير الايطاليين فان الانصاف يقل ومع ذلك نجد من بحث بانصاف مثل Romanelli في تاريخ ليبيا الرومانية واقوستيني في تاريخ القبائل العربية ببرقة • اما اذا وصلنا الى Beguinot فيجب ان نتجهز بالمقص العازل والمجهر الميكروبي •

الطبقة الثالثة :

ونعني بها على الاكثر المؤرخين المستشرقين الذين نشؤوا ببلاد الاستعمار نفسها او الذين نشؤوا خارجها ولكنهم سخروا اقلامهم لخدمة الاستعمار في الدواليب الحكومية او الدواليب الاستعمارية •

ثم ان هذه الطبقات الثلاث تنقسم بدورها الى الصنوف الآتية :

الصنف الاول : الباحث العلمي النزيه والمؤرخ المتمحص للبحث عن الوثائق الصحيحة من مخطوطات وكتب تاريخ ووثائق خزائنية للوصول الى حقيقة تاريخية لا غبار عليها تبين مزية العرب على الحضارة مثل دراسة Blum عن الكاغد عند العرب ونشرهم اياه باوربا وفضلهم على الثقافة بهذا النشر • ومثل دراسات جامعة هال عن تاريخ الفلك عند المسلمين ، ومثل تآليف Vernet و Villacrosa الاسبانيين عن تاريخ الرياضيين الاندلسيين ، ومثل تآليف Ribera عن تاثير الموسيقى العربية باوربا وتاليفه الآخر عن تأثير القصة العربية في كوميديا دانتي الايطالي الالهية ومثل تآلف Joseph Bedier في تاثير القصة العملية في أدب القصة باوروبا •ومثل دراسة لاوى بروفانصال عن نشأة شعر الطروبادور على غرار الموشح الاندلسي ووجود الخرجة العربية في شعر الطروبادور Guillaume d'Aquitaine (القرن التاسع الميلادى) أو دراسات الدكتور Reinaud عن اطباء العرب بالاندلس والمغرب أو Souneck عن الموسيقى الاندلسية أو Farme Rudolphed Erlange Coulangette عن الموسيقى العربية ، أو Terrasse و G. Marçais و Golvin أو Alexis Chottin عن المعمار المغربي • عن الموسيقى المغربية فهؤلاء نستطيع ان نطمئن اليهم مع التحصن بالاحتراز كما قال الشاعر :

أعد نظرا يا عبد قيس لعلما
اضاءت لك النار الحمار المقيدا

أو كما يقول المثل التونسي « اقرأ يس وهز حجره في يدك » أو كما قال مالك ، رضى الله عنه « اعقلها واتكل » وحتى لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين •

وقد قال صالح بن عبد القدوس :
واذا امرؤ لسعته افعى مرة
تركته حين يجر حبلا يفرق

وهو مثل المثل الجزائرى : اللى لدغته حية من ظل الحبل يفزع •

وقال ابن شمس الخلافة :

ومن يذق لدغة الافعى ، وان سلمت ، منها حشاشته يفزع من الرسن والمثل التونسي يقول :

التي يقرموا الحنش من جرة الحبل يخاف ·

الصنف الثاني

المؤرخ المستشرق المحايد · وهو غالبا يبتعد في الزمان أو في المكان · مثل Stephan Gsell الذي درس بدقة لا مزيد عليها تاريخ المغرب القديم قبل العرب أو مثل Carcopino الذي درس تاريخ المغرب الاقصى القديم فاجاد · فهذا الصنف قد درس مواضيع تهم تاريخنا مباشرة لكن في غير العصور الاسلامية ، ونحن بوجه عام لا نعرفه كثيرا وليست لدينا عنه مصادر كثيرة · وهم في الغالب مرتبطون بوثائق اثرية يصعب الطعن فيها فالقسم الاول من تاريخنا يمكن الاعتماد عليهم فيه بالاعتبارات الاتية :

الاعتبار الاول

ان البربر عرب من حمير فحضارتهم حضارة قحطانية عروبية أولى ، وليست هنالك خرافة ثلاثية انبربر من السلت الغال gaulois من السلت ، فالبربر من الغال واذن فهم فرنسيون فهذه تسمى بالتونسية خرافة أم سيسى تكنس تكنس لقات فلشين ، أى شنشنة اعرفها من اخزم أو حديث خرافة يا ام عمرو ·

الاعتبار الثاني

ان الفينيقيين عرب من بني كنعان فحضارتهم حضارتنا ومجدهم مجدنا ·

الاعتبار الثالث

ان آثار الرومان بالمغرب هي آثار المغاربة لا الرومان · فهي جزء لا يتجزأ من تراثنا لا من تراث غيرنا ·

الاعتبار الرابع

ان آثار البربر والفينيقيين والرومان بالمغرب اعظم منها بالمشرق فحضارة البربر الكبرى انما ظهرت بالمغرب 50،000 سنة قبل المسيح حسبما تدل عليه حفريات الغارامنت بليبيا ، وحضارة الفينيقيين انما ازدهرت بالمشرق ·

ومعالم الرومان وأدابهم وفنونهم ومسرحهم ومعمارهم وطبهم وقوانينهم ومحاكمهم انما ازدهرت بالمغرب اضعاف ما ازدهرت بالمشرق وقامت على ايدي مغاربة اضعاف ما قامت على ايدي رومانيين حتى في رجال النصرانية نفسهم وما عمله الامبراطرة المغاربة الذين جلسوا على عرش رومة اعظم مما عمله الامبراطرة الرومان واقرب الى الانسانية ، فخذ لك مثلا من ان القانون الروماني يقسم الناس الى populus-romanus الشعب الروماني والى Rem · لا شيء أو شيء بالمعنى المغربي أي ان « الاهلي » هو بمثابة حجر لا ينتفع به أو عنكبوت أو اية كمية مهملة فلا وجود له قانوني ولا حق له في التراجع لدى المحاكم الى آخر ما هنالك وهذا يذكرنا بدقة بقوانين الاهلية بالجزائر فلما جاء الامبراطور سبتيموس سافاروس وهو بيسى محا هذه الفروق العنصرية فصار « الاهلي » بدون

ان يتجسس يملك ويتعلم ويتصرف ويكون ناجحا ومحبوبا .

الصنف الثالث

المؤرخ المستشرق المغرض الذي يريد ان «يغطي عين الشمس بالغربال» وهم غلاة الاستعمار بسنان اقلامهم وعذبة لسانهم الذى هو اشد سما من الافعى . ولهؤلاء كتبهم التي يدسون فيها السم في الدسم مثل Gauthier في كتابه «عصور المغرب المظلمة» و André Servier الذى يريد ان ينبذ عرب الجزائر الى الصحراء (ويا حبذا في هذا الزمان ! لو كان يدرى !) .

وهؤلاء قد يذكرون حقيقة ما احيانا ولكنها غابة حطب على وقية عسل فانت يجب ان تبحث عن الحقيقة في قعر البئر . وموقفنا من هذه الكتب ومن صحف مورينو واضرابه وخطب غلاة الاستعمار ان يترجم ويحلل ويصنف ما فيها ليعلم الناس الحقائق المرة اليوم ونحن في فرحة الحياة وليتبين مجد المجاهدين الذين اخرجوا الناس من هذه المتاهة المظلمة النتنة العفنة المملوءة بالاشواك والعقارب وكسارة الزجاج والافاعي والنيران الملتهبة والاصوات المزعجة والنيازك المحرك والتى دامت 130 سنة بدون ان يعلم لها آخر وبدون ان يساعد الجزائرية من خاتمة المطاف والخروج من المتاهة بسلام وعافية ومجد وشرف .

ولهؤلاء فضل علينا عظيم حيث قال الشاعر :

عداتى لهم فضل على ومنة
فلا اذهب الرحمان عنى الاعاديا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها
وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

فهم حافز لها وأى حافز للبحث عن امجادنا واخراج دررها اليتيمة اللموعة المخبوءة في اصدافها المغمورة في اغوار البحار الهوجاء .

2 ـ صميم الموضوع :

قد تبين من كل هذا ان العمل بالاضافة الى المؤرخ المسلم المعاصر هو ان يطرح كل شيء وان يبدأ من الصفر . ومعنى ذلك يتلخص في المناهج الآتية :

المنهاج الاول : ترجمة كتب المستشرقين وبعد تقسيمها الى **أ** و **ب** و **ج** فالف هي كتب المستشرقين النزهاء و **ب** هى كتب المحايدين ، و **ج** هى كتب المغرضين . فنجعل قائمة من ذلك ونترجم اكثر ما يترجم ونهذب ما يمكن ان يهذب ونصحح ما يجب ان يصحح . وهو عمل طويل نفس دقيق وجدى ونفيس .

المنهاج الثاني : ان نلجأ الى الوثائق الثابتة وهى الانواع الآتية :

النوع الاول : الآثار . كل الآثار وان نعيد النظر فى دراستها وان نجمع المصادر التى الفت عنها . فلا توجد بالجزائر قرية او قبيلة لم يكتب عنها الفرنسيون واغلب ما كتبوه ففى مجلات الاثريين . انظر :

S. Gsell : Atlas archéologique de l'Algérie + bibliographie.

وفى مجلة La revue Africaine **ولمعرفة ذلك** فلينظر المصادر الجزائرية الصادرة سنة 1930 و Pearson : Index Islamicus وفهارس دار الكتب

الوطنية الجزائرية وليضبط فى ذلك فهرست ابجدى بمصادر تاريخ المدن والقرى والمداشر والقبائل الجزائرية ، هذا عمل اولى يسهل البحث على الباحثين • وينطلق منه الباحثون فى كل ناحية يبحثون عن ناحيتهم •

النوع الثانى المعمار : وهو المدارس المعمارية الجزائرية من العهد الحجرى الى البربرى الى البونيقى فالرومانى فالوندالى فالبيزنطى • ثم العصور الاسلامية من عصر الولاة الى الرستميين الى الفاطميين الى الحماديين الى الموحدين الى الاتراك• ثم يقارن بالمدارس المغربية والمشرقية ويقابل المدارس الاوربية وما كان مبلغ تأثيره عليها •

ويراجع من اجل ذلك :

Creswell : Early Islamic architecture
G. Marçais : Manuel d'Art Musulman et toute son œuvre.
Terrasse : Introduction à l'art Maghrébin.
Golvin : La Mosquée - La Kalaâ des Beni Hammad - Sitifés etc...

وللمقارنة :

Ahmed Fikry : La Cathédrale du Puy
Emile Boule : Ses études sur l'influence de l'art musulman sur l'art français + bibliographie.

النوع الثالث الفولكلور : فغالب الشعوب الاوربية او الامريكية او الاسياوية او الافريقية او الاسترالية التى كانت تحت الاستعمار واخذت تبحث عن تاريخها وجدته فى فولكلورها • فالفولكلور يشمل الامثال التى هى حكمة الامم وديوان سلوكها ومصدر تربيتها وعماد تفكيرها • ويشمل الملاحم التى هى ديوان ادب وشعر ولغة وقوة تعبير وتاريخ احداث ماجدة وبطولات نادرة • ويشمل دراسة الالبسة والاطعمة والاشربة والزينة والحلى والاسلحة والمسارح الشعبية والعلوم الشعبية الى غير ذلك ، فهذا ايضا مصدر حقيقى للبحث عن تاريخ الشعب الحقيقى • وقد كتب الفرنسيون كثيرا عن الفولكلور وكتب عنه المسلمون (رشيد ابن شنب ، بخوشة ، شعيب التلمسانى ، بلغوثى بو على وغيرهم) • واكثر هذه الدراسات مفهرس بدار الكتب الوطنية الجزائرية وبالمقامات التى اشار اليها Pearson فى Index Islamicus وهذا قليل من كثير فيجب القيام بالمسح الفولكلورى cadastre folklorique اى انطلاقا من المدن والقرى والمداشر والقبائل تتكون لجان محلية صغرى فى الدائرة ، تصب عملها فى الولاية التى ترسل الكل الى اللجنة الوطنية الفولكلورية بالعاصمة •

النوع الرابع : المسح الثقافى cadastre culturel

ويشمل :

اولا : الدواوين corpus اى دواوين الدواوين النقاشية corpus des inscriptions وهى بربرية وبونيقية ورومانية وعربية وتركية فيجب ان تكمل الى يوم الناس up to day

ثانيا ديوان الكتاب الجزائرى : وهو احصاء الكتاب الجزائرى منذ ظهوره الى يوم الناس بأية لغة (بربرية ـ بونيقية ـ لاتينية ـ يونانية ـ عربية ـ تركية ـ فرنسية ـ اسبانية ـ وبأية لغة اخرى كتبت عن الجزائر ويسمى هذا :
corpus librorunus algerisorunus
ويكون فى يوم ما جزاء corpus librorunus araborunus

ثالثا : ديوان الرجال الجزائريين (من رجال

ونساء) المشهورين عبر التاريخ فى الحرب والسياسة والعلوم والادب والفنون والتاريخ والتقنيات والتجارة والبحرية والاختراع • على غرار الاعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة • ويعتمد فى ذلك على ترجمة الرجال فى كل عصر يوبا الثانى ، عقبة بن نافع ، وعبد المومن ابن علي ، وباديس ، وابن باديس الخ ••• بدون فرق ولا تمييز •وتذيل كل ترجمة بمصادرها •

رابعا : ديوان الامكنة الجزائرية (جبال ـ انهار ـ رؤوس ـ خلجان ـ بحيرات ـ مدن ـ قرى ـ مداشر ـ قبائل ـ) ويذيل كل فصل بمصادره •

ومن اجل الفقرات الرابعة والثالثة والثانية والاولى اعلاه تؤسس اكاديمية العلوم التاريخية والجغرافية الجزائرية التى يكون اعضاؤها جزائريون ولها مراسلون اجانب فى الخارج ولها فرع فى كل ولاية وفرع ثانوى فى كل دائرة ولها فرق مسح جوالة مزودة بالآلات العصرية البصرية والصوتية والقبسية ولها روزنامة آجال معينة مسبقا • ولها الاعتمادات اللازمة للقيام بهذا العمل الجبار الذى يمكن ان يتم فى عشر سنوات ولا مزيد •

وتضاف اليها ايضا مؤسسة ترجمة المصادر التاريخية واعدادها التى تتولى :

اولا : ترجمة الكتب التاريخية التى الفها الاجانب او الوطنيون او المخطوطات التى يعثر عليها ، فتجمع هذه الكتب وتعطى لها ارقام قيمية من واحد الى عشرة وتمتد ترجمتها ونشرها على عشر سنوات فما كان برقم واحد يترجم فى السنة الاولى وما كان برقم اثنين يترجم بالسنة الثانية وهلم جرا الى العشرة •

فاذا جاءت السنة العاشرة وهى 1984 يكون قد تم كل شىء •

وهذه اللجنة نفسها تعد المصادر الجزائرية ما كتبه الفرنسيون او الانكليز او الاسبان او العرب • وما يوجد فى الصحافة الغربية والعربية ، (Pearson : Index) وما ينشر على التوالى بأية لغة من كتاب ومجلة وصحيفة بالاشتراك مع وكالات التحنيل المكلفة بذلك •

ثانيا : تضاف اليها مؤسسة تاريخ التحرير الوطنى عبر التاريخ فتؤلف معجما باسماء الوقائع ومحالها وتاريخ احداثها ورجالها وابطالها وتذيل ذلك بالمصادر الوطنية التى هى فى الغالب تكون مسجلات وعرضحالات عن شهداء عيان او تقارير عسكرية وطنية او اجنبية واخباريات وكالات الاخبار او كتب تاريخية معاصرة • وقد فعل ذلك بالاضافة الى ليبيا العلامة الليبى السيد خليفة عمر التليسى انطلاقا من المصادر الوطنية والايطالية واصدر معجمه فكان من عجائب الدنيا•

على ان هذا العمل يقتضى مشروعا داخليا ـ وهو الذى ذكرناه من اوله الى آخره ـ وعملا عربيا اسلاميا وهو الذى تعقد له مؤتمرات على ضوء هذه المعلومات الصالحة للجميع وهذه المناهج العامة التى يمكن تطبيقها فى كل مكان وزمان • ولكن هذا ياتى من بعد • وفى راحة بال وبعد تجارب اولى تصحح الاوضاع وتثبت او تعدل النظريات والمبادى المرسومة • وفوق كل ذى علم عليم •

3 ـ الموضوع فى العصور الجاهلية :

وهى العصر الحجرى ، والعصر البربرى ، والعصر البونيقى ، والعصر الرومانى ، والعصر الوندالى ، والعصر البيزنطى • اما العصر الحجرى فهو كله مبنى على الآثار والمقارنة • لكن الفرنسيين يركزونه على آثارهم من انسان كرومانيون بينما العصر الافريقى يعتمد على انسان بير العاتر او الانسان الوهرانى او الانسان الغرامنى او الانسان الكبسى l'homme capseen وكلها حضارات ترجع الى العصر الحجرى وهى اقدم عهد وادق حضارة من انسان كرومانيون •

واما العصر البربرى فهو يعتمد ايضا :

أ ـ على النقوش الصخرية بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا • ويعتمد على الكتابات الهيروغليفية الواردة فى المسلات والمصاطب وغرف وادى الملوك وادفو وغيرها •

ويعتمد على كتب الانساب البربرية القديمة المكتوبة باللوبية والتى ترجمت ببيت الحكمة بالقيروان والتى اعتمدها ابن خلدون ، وكتب الانساب الوسيطة مثل تآليف سابق المطماطى وغيره من نسابى البربر ممن اعتمد ابن خلدون أيضا • وتعتمد على اسماء القبائل المقارنة مثل حمير وخمير وغمارة ، وعلى الصلات اللغوية بين الحميرية والبربرية وعلى اسماء الامكنة البربرية وعلى العادات البربرية المشابهة للعادات اليمنية فى المسكن والملبس والمأكل والاثاث والخط وغير ذلك ، وعلى تحبيط خرافات الاوروبيين فى المقارنات اللهجوية أو الانثروبولوجية المدلسة مثل تلبسات Chantre et Berthlon فى Recherches anthropologiques dans la Berberie orientale.

وعلى اخبار البربر التى أوردها مؤرخو اليونان هيرودتوس ، بوبولبوس وقد جمعها S. Gsell فى كتاب بالفرنسية تجب ترجمته للتخلص من الموضوع مرة واحدة نهائية • أو مؤرخوا الرومان الخارجيون مثل ساللوسطس أو الداخليون الوطنيون مثل ابو ليوس وفلوروس واولو جيلس والقديس أو غوستينوس وغيرهم • وهذه الكتب عظيمة الاهمية وقد درسها Paul Monceaux فى Les Africains و La littérature romaine d'Afrique

علاوة عن الالمانى Mommser فى Geschiechte der Römer تاريخ الرومان وهو اوسع كتاب فى تاريخ افريقيا الرومانية ، أو ما كتبه الفرنسيون أو الايطاليون عن افريقيا الرومانية مثل Boissier Vergara Andollent Boissièr Toutian S. Gsell Toulotte Romanelli Combes الخ • • •

واما العصر الوندالى فقد كتب عنه مطولا Schmidt الالمانى : Histoire des Vandales وهذا الكتاب لابد ان يترجم لانه دسم ككل الكتب الالمانية (وهو مترجم بالفرنسية فصار الامر سهلا) و Gauthier : Genseric Roi des Vandales يجب ان يترجم أيضا •

واما العصر البيزنطى فقد افرده بالتأليف Charles Dichl فى كتاب L'Afrique Byzantine وهو ايضا يحتاج الى ترجمة وكلها تدخل فى البرنامج العشرى على ان الكتاب المطول الدسم الذى جمع فاوعى فشمل باطالة واسهاب وتدقيق وشمول كل عصور الجاهلية المغربية فهو S. Gsell : Histoire de l'Afrique du Nord dans l'Antiquité وهذا اذا ترجم فقد حققنا للمغرب الجاهلى كتابا مطولا دسما مثل كتاب جواد على تاريخ العرب فى جاهليتهم وبنفس الاسلوب والدقة والعدد •

ونحن لسنا فى حاجة الى كثير « التنقية » و « التصفية » و « التمحيص » فى هذه الكتب لان اصحابها كتبوها بنية التمجيد والتحميد والمثل يقول ما توصى يتيم على نواح اذا بكى اعمى عينيه ويقول المثل الاندلسى آش (سيد) تعلم اليتيم البكا ، وجاء المثل المغربى قائلا : « لا توصى يتيم على بكاه • أو هو كما يقول المثل التونسى الآخر : آش يعمل السراج فى سرج ابنو » ؟ •

من بواعث الاستشراق
وأهداف المستشرقين

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ جزائري

لقد أدرك رجالات الغرب فضل العرب على العلم منذ توطيد سلطان الامويين بالاندلس ، وان المدنية الشرقية والحضارة العربية الاسلامية سبقت اختها الغربية بقرون . فاخذ بعض المتحمسين من هؤلاء الغربيين - حبا في الاطلاع وللمعرفة والعلم - الدخول الى تلك المملكة العربية الاسلامية للدرس على علمائها ثم العودة بعدها الى بلاده لنشر ما اخذه عن العرب بين قومه وفي انحاء وطنه الغربي . وكان فيهم اليهود والنصارى ،

وفيهم من أخذ بحظ وافر من علوم الشرق فانتفع بها في حيــاته العملية وحاز بها أعلى المراتب ، فكان منـــهم من ارتقى الى البابوية مثل البابا « سلفيستر الثاني » الذى تخـــرج من مدارس الإنـدلس ، وكذلك « البير الكبــير » و « روجى باكون » وغيرهم ، وكأن الله سخر العرب لفتــح الاندلس وصقلية وتعميرهما حتى ينقلوا لاهــل أوروبا ألهم الحضارات •

وشاعت في القـــرون الوسطى يومئذ لغتان شرقيتان واشتهر امرهما بين العلماء هما العربية والعبرانية ، فالعربية هي لغة الدين الجديدوالدولة الجديدة العتيدة ولغتها هي لغة العلم والفلســفة يومئذ ، واللغة العبـــرية هي لغة من اللغات السامية الشرقية الاصيلة فكان من الواجب عـلى المستشرق ان يطلع على ما في هاتين اللغتـــين من علوم ومعارف ، فكان من أثر ذلك تأسيس درس عام بباريس (أواسط القرن الثالث عشر) لدرس اللغة العربية ، وكانت أول ترجمة للقرآن عرفتها اوروبا هي ترجمة ما كتب طليـــطلة التى نقلها « كونيت » سنة 1143 م مستعينا باثنين من العرب وعرضها عــلى « دكلين » بقصد نقدها ، فاتضح يومئذ بهذا ميدان للاستشراق •

وكان في طليعة المعتنـــين بهـــذه البحوث الاستشراقية ولا سيما منها العربية هم الرهبان فتراهم منكبين على دراسة الفلسفة الاســـلامية وترجمتها الى اللاتينية وبذلك تسربت اليهم علوم العرب . وذلك لان الفلسفة في عهودها الاسلامية الاولى كانت تنطوى على العلوم كلهـــا ولم تعرف باقسامها الحاضرة الا بعد ان تفرعت العلوم أخيرا فقط •

ثم تنوعت اغراض هؤلاء المستشرقين واختلفت مقاصدهم بحسب اختلاف اتجاهاتهم نحو الشرق وتنوع غاياتهم منه. سياسيا ، ودينيا، واقتصاديا، وأدبيا ، ففى أوائل القرن السادس عشر ظهـــر الخلاف الدينى الذى وقع بالثورة البروتيستانية في المانيا وعم الغرب كله واضطر اهله الى الرجوع بمباحثهم اللاهوتية الى دراســـة التوراة العبرية فاضطروا حينئذ الى التعرف على قواعد اللغـــات الساميةفدرسوا منها العربية والعبرانيةوالكلدانية والسريانية وقابلوها ببعضها بعضا استعانوا في ذلك باليهود والعرب ، فاتسع لهم بذلك مجـال البحث وفشت بسببهم البحوث حـــول الآداب الشرقية وانشئتيومئذ المنابر لتعليم اللغةالعربية في أشهر مدارس اوروبا . وطبعت التوراة لاول مرة بالعربية في ألمانيا سنة 1514 م وحصرت هذه الحركة الاستشراقية اتجاهها ضمن الدراســـات الدينية ردحا من الزمن ولم تتحـــول الى الآداب العامـــة الا في الاعصر التى نظمت فيها العربية بباريس تنظيما علمانيا ايام وجـــود المستشرق الفرنسى « سيلفيستر دوساسى » في القرن الماضى، ويومئـــذ ظهرت الدراســـات الوافية باللغات الاوروباوية كاللاتينية وغيرها تبحث في تاريـخ العرب والاسلام وقل مثل ذلك في السياســـة والاجتماع •

وبما ان كلا من دول فرنسا وانكلترا وهولاندا وأمريكا والنمسا والمانيا كل منها كانت ولا زالت

لها مصالح مرتبطة بالشرق وتلك المصالح غالبا تناط بالسفراء والقناصل فكان رجال السلك الدبلوماسى مضطرين الى دراسة اللغات الشرقية، وكان عكوفهم على تفهمها حق الفهم باعثا لهم على البحث عن المخطوطات المؤلفة بلغات الشرق فاجتمع لهم فى تنقلاتهم ورحلاتهم فى الشرق كميات ثمينة من المخطوطات النادرة هى اليوم زينة المكتبات المعتبرة فى أوروبا ، كما انه كان من بواعث الاستشراق وغاياته التوسع فى الميدان الاقتصادى والتجارى ، فكان هذا الميدان ولا يزال ينبوعا فياضا بالخيرات غزير المادة . والفائدة جامعا لمنابع الثروة ، فاقتضى ذلك المزيد من التفقه فى فقه اللغات الشرقية ولا سيما منها العربية لانها كما ذكرنا لغة شعب حمل لواء التفكير الانسانى اكثر من اربعة قرون ثم انه كان قبل ذلك يمثل المدنية الانسانية على مستوى العالم وقد اشتملت لغته على جميع ما انطوت عليه الحضارة الانسانية يومئذ ولا تزال هذه اللغة تماشى الحضارة الى اليوم ، ثم ان اساس الحركة الفكرية فى اوروبا منذ القرن الثالث عشر الميلادى يرجع الى المؤلفات العربية التى تناولها الاوروباويون بالمطالعة والدرس . وزد الى ذلك ان لهؤلاء العرب دينا جليلا له تأثير عظيم فى عقليات كثيرة تبلغ مئات الملايين من الناس منذ نشأته الى الآن ، فمدارسة هذه اللغة يسهل لهم استغلال أهلها والانتفاع بما عندهم .

وهناك طائفة ممن اتخذ الاستشراق مهنة يرتزق منها ولا يبالى حيثما توجهت به الاهواء فهو مع السياسة كيفما كانت اغراض سادته فيستخدم العلم كآلة لبلوغ غاية معينة ، ومنهم من تسوقه الاغراض السافلة الى الطعن فى الثقافة الاسلامية وتشويه الحقائق وهذا المسكين لا يدرى وانه بذلك يشوه سمعة جماعة من قومه ومن بنى جنسه اخلصت للعلم وخدمت العلم للعلم ، ومنهم من يخبط خبط عشواء فهو لا يعير اهتماما لتحقيق المسائل ولا يتحرى الصواب فى كثير منها ،ومنهم من وقع فى اخطاء لم تكن متوقعة من مثله ممن اشتهر بالتحقيق والامعان فى البحث وسعة الاطلاع والتضلع من الثقافة الشرقية والغربية ، وخذ اليك مثلا العلامة (بروكلمان) المستشرق الالمانى الكبير الف كتابا فى تاريخ الشعوب الاسلامية ونشر بعدة لغات ومنها العربية ، ورغم ما احتوى عليه هذا الكتاب من الفوائد الجمة واستيعابه للتاريخ الاسلامى من مبدأه الى العصر الحاضر . فان صاحبه وقع فى اخطاء ولا أدرى أهى عن عمد او عن غفلة وقلة مبالاة ؟!..

فعندما تكلم بروكلمان عن الخليفة الثالث عثمان ابن عفان رضى الله تعالى عنه واتى بتفصيل لحوادث الفتنة الكبرى التى أدت الى اغتياله ذكر من اسبابها خلع عمرو بن العاص رضى الله عنه من ولايته على مصر وتولية عبد الله بن سعد ابن ابى سرح ، قال « واشتدت النقمة على عثمان فى مصر وانضم الى عمرو فى اذكائها محمد بن ابى حذيفة وهو ابن ابى بكر الصديق بالتبنى ... » !! ..

فوا عجبا هكذا يذكر بروكلمان بنفسه اسم والد محمد فيقول هو ابن ابى حذيفة ، ثم يقول

وهو ابن ابى بكر الصديق بالتبنى ؟... ومعروف ان محمد ابن ابى حذيفة هذا ولد بأرض الحبشة ورباه عثمان بن عفان فلما شب رغب فى غزو البحر فجهزه عثمان وبعثه الى مصر الخ القصة . وكيف يتبناه الخليفة الاول ابو بكر الصديق وهو ممن تلقى القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم مباشرة ومن أعلم الناس بحلاله وحرامه وحكم تحريم التبنى فى الاسلام من المسائل المعلومة من الدين بالضرورة فكيف تخفى على ابى بكر حتى يرتكبها بنفسه ؟!!... هذا مما لا يسيغه النقل ولا العقل ولا ادرى كيف وقع فى هذا الغلط الفاحش مثل بروكلمان ؟...

وفى هذا الكتاب أيضا تعرض لتاريخ انشاء المنبر فى الاسلام فذكر ان هذه المؤسسة الاسلامية « وقعت من عمال الامصار الذين كانوا يؤمون الناس فى أيام الجمعة فى الصلاة العامة بأنفسهم فهم أول من اصطنع هذا المنبر ، ولم يصبح — حسب زعمه — فى الناس عادة شائعة الا فى المائة الثانية للهجرة » ... والواقع بخلاف ذلك فان علماء التاريخ الاسلامى مجمعون على ان انشاء المنبر وتأسيسه للخطابة بالمسجد كان على عهد النبى صلى الله عليه وان ابتداء العمل به كان سنة سبع او ثمان للهجرة وقد شوهد عليه الصلاة والسلام يخطب وهو واقف على المنبر بمسجده فى المدينة ، وكان هذا المنبر يشتمل على ثلاث مراق — درجات او درج — الى زمن خلافة معاوية بن ابى سفيان وكان الوالى على المدينة مروان بن الحكم (42 — 49 هـ) فزاد فيه هذا ست درجات ، ولقد استمر هذا المنبر الشريف بمكانه من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومنه كان يلقى الخلفاء خطبهم الى ان احترق باحتراق المسجد سنة 654 هـ . فكيف يصح بعد هذا ان يقال ان المنبر هو من صنع عمال الامصار ؟!... وانه لم يصبح ارتقاء المنبر للخطابة فى الناس عادة شائعة الا فى المائة الثانية للهجرة ؟!..

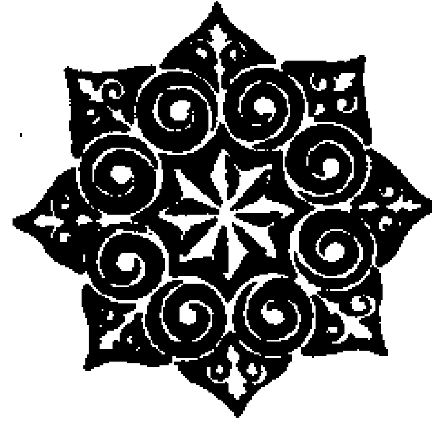
وكذلك الامر بشأن احداث المنائر واتخاذها لتادية شعيرة الآذان بالمساجد . فاننا نرى بروكلمان يقول : « ... والواقع ان العثمانيين هم اول من ضم المئذنة الى المسجد فى آسيا الصغرى ... » والواقع هو بخلاف ذلك . فان أول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع هو مسلمة بن مخلد حين ولايته على مصر (47 هـ/667 م) فانه هدم ما كان عمرو بن العاص بناه من المسجد بمصر وبناه هو وأمر ببناء منار المسجد ، فهو أول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع .. (النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج 1 ص 133 ط دار الكتب بالقاهرة) فأين هذا مما نسبه بروكلمان الى الاتراك العثمانيين بآسيا الصغرى ؟..

ومن ذلك ايضا قول هذا المستشرق فى نفس الكتاب بأن « ... النظر فى المظالم والحكم بين المتخاصمين ، وهى مهمة لم يكن يعين لها رجال مخصوصون حتى أيام مؤسس الخلافة الاموية .. » فأين هذا مما هو مشهور من ولاية القضاء فى التاريخ الاسلامى على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد بعث على بن ابى طالب الى اليمن ليقضى بينهم، وعلمه كيف يقضى فقال له : اذا جلس

بين يديك الخصمان فلا تقضى بينهم حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الاول فانه احرى ان تبين لك القضاء ...

كما انه عليه السلام عين معاذ بن جبل لقضاء الجند وكان ابو موسى الاشعرى قاضيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان القضاة على عهد النبى ستا : عمر وعليا وعبد الله بن مسعود وابى بن كعب وزيد بن ثابت وابا موسى الاشعرى ، وشريح الكندى كان قاضيا على عهد عمر بن الخطاب بالكوفة ..

الى غير ذلك من مسائل شتى طرقها هؤلاء المستشرقون دون ان يعيروها أدنى تحقيق ,وهذا لا يمنعنا من ان نعترف لهم بالفضل فى بذل جهود جبارة فى تحقيق المخطوطات النادرة وطبعها طبعة علمية مفهرسة بفهارس مفصلة مع ترجمتها ونقدها والتعليق عليها بتعاليق مفيدة وشروح فريدة وتوضيحهم لكثير من المسائل العلمية وتبديد ما تراكم عليها من غبار الاوهام والشكوك ، فلهم منا على ذلك مزيد التقدير والاحترام .



الحقيقة عن دور زاوية صدوق والإخوان الرحمانيين في ثورة 1871

يحيى بوعزيز

استاذ جامعة وهران

اصول اسرة الحداد ونشأة زاوية صدوق :

ان البلد الاصلي لاسرة الشيخ الحداد هو بني منصور ، ومنها انتقل بعض الاحفاد الى ايموله في الضفة الغربية لوادي الصومام ، والى بلدة صدوق الفوقانية على الضفة الشرقية للوادي بين مدينتي اقبو ، وبجاية ، وذلك منذ اربعمائة عام قبل وقت الثورة . وخمسمائة عام حاليا . وفي صدوق تعاطى الحفيد الذي هاجر اليها حرفة الحدادة ، وخلف ولدان احدهما كان مثقفا واسس زاوية لتعليم القرآن ، وهو والد الشيخ امزيان الحداد زعيم الثورة .

تعلم الشيخ امزيان فى زاوية ابيه ، فحفظ القرآن ، وتعلم بعض مبادى العربية ثم ذهب الى زاوية الشيخ ابن اعراب فى جبال جرجرة حيث واصل تعلمه مدة من الزمن ، وفى نهاية دراسته اخذ الميثاق على خليفة سيدى عبد الرحمن بوقبرين فى زاوية سيدى على بن عيسى فى جبال جرجرة ۰ وعاد الى صدوق وتصدى للتعليم فى زاوية ابيه ، واختاره اهل القرية اماما ومعلما فى مسجدهم ۰ وعند ما تكاثر الطلاب فى زاويته اذن له باعطاء الورد كمقدم وخليفة لطريقة سيدى عبد الرحمن ، واصبح يعطى الميثاق للمريدين ، وارتفع عدد الطلبة فى زاويته الى حوالى 500 ياكلون ويشربون ، وشاركت الزاوية فى تقديم اعانات مادية للمعوزين اثناء مجاعة عامى 1867 ـ 1868 م (1) ۰

وقد استطاعت عائلة الشيخ الحداد ان تفرض نفوذها وسيطرتها الدينية على المنطقة الواسعة شرقى وادى الصومام من البحر الى سهل الحضنة وعلى مناطق واسعة فى منطقة القبائل الكبرى ايضا ۰

ولزاوية صدوق ، من الناحية الدينية صلة بزاوية طولقة التى تعتبر الزاوية الام لكل الاخوان الرحمانيين فى الهامل ، ونفطة ، وتنافسها فى الاتجاه والسلوك زاويتا تيماسين، وقمار التيجانيتان ۰

وبين زوايا الرحمانيين انفسهم هناك خلافات وتنافس ، فزاوية طولقة رضيت منذ البداية بالتعامل مع سلطات الاحتلال ، واعلن رئيسها سى على بن عمر طاعته لسلطات الاحتلال منذ عام 1844 ، وفتح زاويته للقوم والجنود الفرنسيين فى احداث بسكرة بنفس العام ۰ بينما زاوية نفطة كانت ملجأ لكل الفارين والمضطهدين من طرف سلطات الاحتلال منذ عام 1849 ، ولكن سياستها تغيرت بعد ان اصبح على راسها سى الحسين بن على بن عثمان شقيق رئيس زاوية طولقة، وتأثر باتجاه اخيه فاصبح من اعوان الفرنسيين وهو الذى ابلغهم عام 1871 بوصول محيى الدين ابن الامير عبد القادر صحبة ابن هلال اقدم كتاب ابيه ، وتقابله مع ناصر بن شهرة ، وبوشوشة ۰

اما زاوية صدوق فكان لها اتجاه مستقل ويمثل شيخها واتباعها الافكار الديمقراطية لان معظمهم من الطبقة الشعبية الكادحة المحرومة (2) وصلاتها بسلطات الاحتلال محدودة لانها لم تكن اسرة اوروستقراطية غنية من جهة ، ولم يتقلب افرادها فى الوظائف العامة الادارية باستثناء عزيز الذى عين قائدا على دوار عموشة لمدة قليلة وكان الشيخ امزيان الحداد يمثل الروح الاستقلالية والاتجاه الديمقراطى ، ويكره بطبيعة تكوينه الدينى سياسة المراوغة ، والانتهاز التى تتبعها العائلات الاوروستقراطية الاقطاعية امثال

---

1) سى عزيز : مذكرات متهم ، ص 77 ـ 81
2) لويس رين : تاريخ ثورة 1871 بالجزائر ، ص 89 ـ 92 ـ 105 ـ

عائلة باشاغا شلاطة ، التى تتصف بالكبرياء والتعالى ، وتعارض روح ومبدا المساواة ، والديمقراطية ٠ (3)

مشاكل زاوية صدوق :

ان هذا الاتجاه الديمقراطى لزاوية صدوق ، المعادى بصورة عامة للاوروستقراطية هو الذى خلق لها مشاكل فى المنطقة من ضمنها التنافس والصراع الحاد الضمنى والعلنى مع زاوية باشاغا شلاطة ابن علي الشريف ، وزاوية الشريف الشيخ محمد امزيان بن الموهوب ، شيخ العرش فى ايموله ، المتحدتين فى السيرة والاتجاه ٠

فزاوية الشريف محمد امزيان بن الموهوب سايرت سلطات الاحتلال ، ودخلت فى خدمتها منذ عام 1847 وتضامنت مع زاوية شلاطة ، وتحمل حقدا ضد عائلة الشيخ الحداد ، لان الشيخ محمد بن الشيخ امزيان الحداد كان ضمن جنود الشريف بوبغلة فى حركته ، وهو الذى هاجم زاوية ابن الموهوب فى 5 مارس 1851 ، وخربها ، لمعارضة صاحبها للثورة ٠ وبقى هذا الكره والحقد حتى عام 1871 ، وتعرضت نفس الزاوية لهجوم عزيز فى 15 ابريل 1871 ٠

اما زاوية شلاطة فمشاكلها مع عائلة الحداد وزاوية صدوق اكثر تعقيدا ٠ فزعيمها ابن علي الشريف خضع لسلطات الاحتلال منذ احداث عبد القادر ، وتعاون مع الجنرال بيجو فى اطار المكاتب العربية ، وساعد الجيش الفرنسى على عبور منطقة وادى الساحل فكرموه ومنحوه لقب ضابط الشرف Officier de la Légion d'Honneur ووافقوا على امتيازات احتفاظه بمكانته وخدامه ، وعلى عدم دفع الضرائب ٠ واستدعى عام 1852 لحضور حفلة زواج الامبراطور نابليون فى كومبين Compiègne ويعتبره وارنى من اكثر الجزائريين تنويرا وتحضرا ، ولكن خضوعه لسلطات الاحتلال اساء لسمعته فضعف نفوذه ٠ ومع انه بعد انتصارات راندون فى احتلال القبائل الكبرى استعاد سمعته بعض الشيء الا ان اغلبية اتباعه انضموا جماعات جماعات الى الشيخ الحداد فى صدوق ، ولم يبق له من قوة سوى فرق « القوم » المرتبطين بوظيفته ، والمدعمين بالسلطة الفرنسية ٠ (4)

وكان ابن علي الشريف يتباهى باصله لكونه ينحدر كما يدعى من الادارسة ، وبذكائه السياسى ، ويعرض بعائلة الحداد ، ويقول انها لا اصل لها ، وليس افرادها سوى عمال فى مهنة الحدادة ٠ ويعود سبب الكره والحقد بين شلاطة وصدوق الى احداث بوبغلة كذلك حيث هاجم الشيخ امحمد بن الشيخ الحداد ، عزيب بن علي الشريف فى 18 مارس 1851 ، تماما كما حصل لزاوية الشريف ابن الموهوب ، ونما هذا الحقد والكره وتضاعف حتى بلغ اقصاه عام 1871٠

فقد تأكدت السلطات الاستعمارية من اخلاص

3) اندرى جوليان : تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 481 – 482
4) اندرى جوليان : تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 481

ابن على الشريف ، فعينته باشاغا على شلاطة يوم 24 فيفرى 1869 ، واصبح نفوذه يشمل زاوية صدوق ، فلم يرتح عزيز لهذا العمل وهو قائد عموشة ، فقدم استقالته وتحول الى خصم لدود لابن على الشريف يغتنم كل الفرص لاثارة المتاعب ضده · وقد اكد فى مذكراته بان ابن على الشريف له لسان طويل يلعب على الحبلين ، احيانا مع سلطات الحكومة ، واحيانا مع الثوار ، حتى لا يخسر احدا ، ويكون دائما هو الرابح ، ويتضح ذلك من احداث بوبغلة حيث كان يستقبل ثواره سرا ، ويعمل علنا مع فرنسا · (5) وهى نفس الفكرة التى اكدها بيدولت حيث قال : «ان ابن على الشريف فى زاوية شلاطة قوى ومعروف فى كل القبائل ، ولكن ماضى اجداده وسلسلة نسبه ضاعت ، وعند ما ارتفعت قيمة الحداد فى صدوق حاول ان يكسب السمعة باموالە ، وسياسته ، وذلك بالحصول على منصب باشاغا شلاطة فى الجزائر ، واصبح يسيطر على بنى وغليس ، واوزلاقن ، ويلوله ، وبنى عيدل ، وبنى مسيسنا واصبح له مرتب شهرى بمبلغ 12 الف فرنك (6)

اسباب التجاء المقرانى الى الشيخ الحداد :

كانت بمنطقة القبائل الصغرى ، والضفة الغربية لوادى لصومام وضعية شاذة بين الزوايا الدينية ، والعائلات الارستقراطية ، تعتبر احدى الاسباب التى ادت الى ثورة 1871 والى فشلها ·

فلقد شرحنا سابقا طبيعة الخلاف والمشاكل بين زاوية صدوق الرحمانية ، وزاويتى شلاطة ، ويلولة ، ونضيف هنا بان عائلة الباشاغا المقرانى نفسها ، كانت منقسمة على نفسها الى فرعين : فرع الباشاغا محمد بمجانة وكان صديقا لباشاغا شلاطة ابن على الشريف ، وفرع محمد بن عبد السلام المقرانى قائد عين تاغروط شرق برج بوعريريج ، وهو صديق للشيخ عزيز قائد عموشة ، وعائلة الحداد بصدوق · وقد خلق هذا الانقسام فى عائلة المقرانى ، وهذه الصداقة المتعاكسة ، وضعا شاذا انعكس على الاحداث فيما بعد قبيل نشوب ثورة 1871 ، وزاد فى حدة هذا الخلاف والشقاق التصرفات السيئة التى سلكها الضباط الفرنسيون بالمنطقة خاصة الجنرال اوجورو، والكولونيل بونفالى ،وريلهاك ·

ففى اواخر 1870 استدعى بونفالى من مليانة ليخلف اوجورو فى قيادة منطقة سطيف ، بعد ان نقل الاول الى قسنطينة ، وسلك سياسة المراوغة واظهر ميله لصف اولاد عبد السلام خصوم الباشاغا المقرانى ، ولعائلة الحداد خدمة للمصالح الفرنسية ، واقترح عليه اوجورو قبل رحيله ان يحاول اصلاح ذات البين بين الصفين فى منطقة وادى الساحل ، خاصة بين شلاطة وصدوق ، ورحب المقرانى بالفكرة لان ذلك سيضمن عزل الاخوان الرحمانيين عن خصومه من ابناء عمومته صف محمد بن عبد

5) سى عزيز : مذكرات متهم ، ص 10 ـ 11 و 36 ـ 37
6) بيدولت : الحقيقة على الجزائر ، ص 56 ـ 58

السلام ، فاتصل بعدد من الشيوخ والقيـــاد ، وتألف وفد خلال شهر جانفى 1871 ذهب الــى بجاية ، ومنها الى صدوق ، ثم الى اقبو بصحبة عزيز · وكان اللقاء بين ابن على الشريف وعزيز يوم 9 جانفى 1871 بأقبو فاترا وباردا محوطـا بالشكوك والريب · ولم يفلح المقرانى فى ازالة شكوك ابن على الشريف نحو صدوق · (7)

لم يقدر لهذه الزيارات ان تثمر لان الخلاف كان عميقا وجذريا بين صدوق وشلاطة · وقد وصل الى علم بونفالى تأكيد عزيز بان اى تفرقة بين ابيه والاخوان سيؤدى الى نشوب ثــورة ، وابلغه ابن على الشريف نفسه فى رسالة وجهها اليه والى حاكم بجاية ويلهاك بان عزيز يضايقه ، وعليه ان يعتقله او يوقفه على الاقل ، فطلب من عزيز بأن يكف عن اثارة المشاكل ، ويتصـــل بحاكـم بجاية ، ويزوده بالاخبـار والمعلـومـات الضرورية ·

وهكذا وجد المقرانى نفسه وحيدا ، وشبـه معزول عن تأييد هذه العائلات الاوروستقراطية ، وفى نفس الوقت اشتد قلقه من تزايد صعـود نجم خصومه : صف اولاد بن عبد السلام المقرانى واشتدت الاشاعات ، وقـويت عن اعتــــزام السلطات الفرنسية انتزاع الباشاغوية منـــه واعطائها لهم ·

وهداه تفكيره الى استمالة الشيخ الحـداد ، والاخوان الرحمانيين بالتبعية · واستغل غضب عزيز الحداد وحدة خلافاته مع ابن على الشريف، فاندفع بحماس لفتح مفاوضات معه ومع ابيه ، رغم انعزيز كان صديقا شخصيا حتى ذلك الوقت لمحمد بن عبد السلام المقرانى · وهذه العلاقـة هى التى اخرت الاتصال بين صدوق ومجانــة حتى هذه الساعة وجعلتها واهية ·

وقد جاء هذا الاتصال ليزيد من طموح عزيــز ويرفعه ، فأكد له بأن كل الاخوان الرحمانيــين سينسحبون من صف ابن عبد السلام ، ويلتحقون به فى الحال ، ولم يكتف بهذا فأخذ يحث الناس على الجهاد قبل اعلانه رسميا ، وعقد اجتماعـات عامة فى صدوق وضواحيها خلال ايام 27 – 30 من مارس للتبشير بالجهاد ، وبسرعة اخــذ الرحمانيون بزمام الموقف ، وتحول عزيـــز الى زعيم ثائر منذ اواخر سبتمبر عام 1870 · وقد كان وارنى منـذ اكتوبـر 1870 قــد طلب من السلطات الفرنسية ايقاف شقيق عزيز ، الشيخ امحمد ، ولكن دوريو عـارض ، استنـــادا الى تأكيدات وضمانات الجنرال اوجورو فى اخلاص عائلة الشيخ الحداد ·

ولما كان الشيخ امزيان الحداد كبير الســن ، طاعنا ، ولا يميل الى الحروب لكونه كان يــرى فيها تخريبا وتحطيما لزاويته ، وامكانياتهــا المادية والدينية ، فقد تسلط عليه ابنه عـزيــز الذى كان على العكس منه حتى اقنعه باعــــلان الجهاد يوم 8 ابريل 1871 · (8)

7) الفريد رامبود : ثورة الجزائر عام 1871 ، ص 19 ، ورين ص : 111 – 116
8) جوليان : تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 481 – 482 ، ورين ص : 198 – 199

عوامل استجابة الإخوان الرحمانيين للثورة :

هذه هي بعض الدوافع التى حفزت المقرانى على الالتجاء الى اتباع الشيخ الحداد والاستنجاد بهم فى حركته الثورية · فما هى العوامل التى حملت عزيزا واباه على الاستجابة بهذه السرعة وتلبية نداء الثورة ، واقحام الاخوان الرحمانيين؟

ان معظم الذين كتبوا على هذه الثورة وعلى راسهم لوى رين ، اعتبروا حركة الاخوان الرحمانيين ، ووصفوها بانها حرب دينية مبنية على التعصب الدينى والعرقى ، بل ان البعض منهم اراد ان يتهم الاخوان بانهم مدفوعون من طرف مشوشين جاؤوا من مكة ·

ففاوتى مثلا يقول : ان كل الجزائر اخذت تستعمل النار مدعمة برياح التعصب الدينى للاخوان (الرحمانيين) الذين انتشروا فى مصيف جرجرة ، ومن حدود المغرب الى حدود تونس ، وان اخوان 1863 و 1865 ما يزالون اليوم يقودون الحرب الدينية · وقد جاؤوا من مكة لزرع التشويش الدينى فى كل الجزائر · (9)

ولكن الحقيقة غير ذلك ، وهناك ظروف عامة وخاصة اقحمت الاخوان فى المعركة :

اولا : الخصومة التقليدية والحادة بين زاوية صدوق وزاوية شلاطة، وتبادل الطرفين التهم والسباب والشتائم ، فابن على الشريف كان يظهر تكابره نظرا للمنصب الادارى الذى يشغله كباشاغا ، ويعرض بعائلة الحداد ويقول بانها لا اصل لها ، وان ابناءها من الحدادين ، والحدادة فى نظره من المهن القذرة · وعزيز يرد عليه فى مذكراته ، ويتهمه بالمقابل بانه لا اصل له ولا نسب رغم ادعائه بانتسابه الى الادارسة ، وقد سبق ان عرضنا راى بيدولت فى ذلك · ويزيد عزيز ايضاحا لفكرته قائلا : ليس هناك عيب او احتشام ان ينحدر الانسان من جزار او خماس ، او حداد او تاجر او حمال ، ولكن العيب ان يجهل الانسان اصله ، ونسبه ، هذا هو السؤال · (10)

ولم يتورع ابن على الشريف فى اتخاذ اية وسيلة لتحطيم اسرة الحداد ، وبلغت به الجراة ان اقترح على حاكم بجاية اعتقال عزيز باعتباره مشوشا ، ورفض مساعى المقرانى وغيره من الشخصيات من اجل تحقيق الصلح بين العائلتين كما سبق · وبالمقابل فان عزيز اندفع ليرد الخطر ويدافع عن اسرته واتباع زاوية ابيه · ان مرارة عزيز من ابن على الشريف تجاوزت الحد كما يتضح ذلك فى مذكراته ·

ثانيا : السلوك السيء الذى يتبعه الشيوخ والقواد الموظفون ، وضباط الجيش الفرنسى تجاه الاهالى خاصة الاخوان · ففى رسالة بعث بها عزيز الى ايلهاك حاكم بجاية يوم 14 جوان 71 ، حمل فيها مسؤولية الحرب على هؤلاء القواد والضباط ، الذين خربوا وحطموا المسلمين دون رأفة بما يقومون به من نقل اخبار مزيفة

9) فاوتى : استقلال الجزائر ، ص 3 ـ 8
10) سى عزيز : ص 81 ـ 84

له • واكد فى مذكراته ان ارهاق القواد والمقربين للناس هو الذى دفعهم الى الانضمام الى صفوف الثوار ، وقال انى شهدت بنفسى كيف عانى سكان قرية صدوق من تبذير اموالهم فىاستضافة ولد بن على الشريف حين قدم اليها وبقى بها اربعة ليال كاملة • (11)

واوضح فى رسالته السابقة بانه على استعداد للسلم وفق الشروط التى يقترحها اذا كانت هناك رغبة للسلم ، وهو الاول لذلك ، ولكن اذا احتفظت السلطات الفرنسية باولئك القواد فسيبقى هو ورفاقه واقفين بمساعدة الله وتأييده للجهاد الى اليوم الذى يرزقه الله بحكومة اخرى تضع معهم سلما ، «**والى هنا نحن متحزبون ضدكم بحول الله** » (12)

ثالثا : ان اندفاع الاخوان للثورة لم يكن بسبب العاطفة الدينية المتعصبة كما يصفها الكتاب الفرنسيون ، وانها لاسباب اكثر عمقا سياسية واقتصادية واجتماعية ، وجاء العامل الدينى ليدعمها • وقد دافع عزيز نفسه على هذا خلال دفاعه فى محكمة قسنطينة حيث اكد بان الحرب الدينية التى تزعمها ليست الا وسيلة للعمل ، وليست حربا دينية ، وان الالقاب والعناوين التى الصقت به كأمير المجاهدين ، والمدافع عن الدين ما هى الا تصورات نتجت من الظروف •

رابعا : وهناك الظروف العامة التى تعيشها البلاد من الاقدام على اعادة التنظيم وانشاء النظام المدنى بدلا من العسكرى ، واعطاء اليهود الجنسية الفرنسية بصورة جماعية ، وارهاق الناس بالضرائب ، والتهديد بانتزاع اراضيهم واعطائها للمهاجرين الاوروبيين الجدد بعد حرب السبعين ، وما سبق ذلك من مجاعة ، وما استتبع ذلك من احتمال تسلم اليهود السلطة بالبلاد ، وتسلطهم على الجزائريين • كل هذه الاشياء استعملها عزيز فى دعايته للثورة ، وكذلك كل مقدمى الاخوان الرحمانيين ، وهى امور ذات صلة بالوضع السياسى للبلاد ، ومستقبلها ، ولها تأثير كبير فى دفع الاخوان لخضم المعركة •

وهكذا يتضح ان وصف حركة الاخوان الرحمانيين بانها دينية متعصبة ، فيه نوع من المبالغة ، والتجنى عن الحقيقة •

دور الاخوان فى الثورة :

لا شك ان ارتماء الاخوان فى خضم هذه الثورة هو الذى ادى الى حدوث تطورات خطيرة فيها ، فتحولت الحرب من طابعها الاوروستقراطى ، الى ثورة شعبية ، واصبح الاخوان الرحمانيون يجاهدون بعاطفة الدين لغرض الحصول على الاستقلال ، بتأييد من كل القبائل كقاعدة شعبية •

فبعد اعلان الشيخ الحداد الجهاد المقدس يوم 8 ابريل 1871 ببلدة صدوق امتدت الثورة الى

11) سى عزيز : ص 43 ـ 45
12) جوليان : ص 485 ـ 489

كل المناطق والقبائل الشمالية من الجـــزائر العاصمة الى القل وجيجل وباتنة ، وحوصـرت مراكز الفرنسيين وقلاعهم فى بجاية ، ودلـس ، وتيـزى وزو ، واربعاء نـايت ايراثن ، وذراع الميزان ، والاخضرية ، وغيرها • وجر هذا الاعلان للجهاد من اتباع الحداد الرحمانيين اكثـر من مائة وعشرين الف مجاهد ينتمون الى مائتـين وخمسين قبيلة تؤلف ستمائة الف نسمـة فى خلال نصف شهر تقريبا • بينما لم يستطـع الباشاغا المقرانى قبل ذلك ان يجند سوى بعض مئات من آلاف الاشخاص يمثلون 25 الف محارب موزعين بين قبائل برج بوعراريج ، وبوسعادة ، وسور الغزلان •

وهذا الامر اصبح يمثل خطرا كبيرا بالنسبة لفرنسا ، لان عزيز واباه ليسا من المشعوذين او المتعصبين ، واعلانهمـا للجهــاد ، واقحامهمـا الاخوان الرحمانيين فى المعركة لا يمثل حدثـا دينيا فقط ، وانما يتجاوز ذلك الى غرض سياسى يستهدف خدمة مصالح القبائل المادية • (13)

وفى رسالة للجنرال لاباسى الى الجنرال لالمان بتاريخ 18 ابريل 1871 من معسكره بالقصر قرب بجاية قال له :

ان الجزائر تمر بمرحلة صعبة ودقيقة وثـورة الاخوان الرحمانيين الموزعة الى عدة فروع دينية اثرت على اصدقاء فرنسا من تونس الى المغرب ، وقد اصبح الشيخ عزيز مثل السلطان بالقبائل (14)

امتـداد نفـوذ الاخوان :

بعد التعرف على كيفية قيام حركة الاخـوان الرحمانيين ، لابد مـن التعرف على مدى امتدادها داخل منطقة الحوادث لاستكشاف مدى نفوذها وخطورتها ومدى سيطرتها على الحوادث •

وما من شك فى ان لزاوية صدوق انصـارا واتباعا فى معظم منطقة القبائل الكبـرى ، والصغرى ، والشمال القسنطينى ، وفى العاصمة واحوازها ، ولها صلات روحية ببعض الزوايـا الاخرى فى حوض الشلف ، وواحات الجنـوب الشرقية •

وعلى هذا الاساس تحرك اتباعها فى كل هذه الجهات وقادوا الناس للجهاد افواجا وجماعات بدون صعوبات كبيرة بعد ان اعطى لهم شيخهم اشارة الضوء الاخضر فى اعلان 8 ابريل 1871 •

ففى جبال بابور بالشمـال القسنطيـنى ، والمنطقة الشرقية لوادى الصومام حيث اتبـاع الحداد بكثرة ، قاد عزيز بنفسه الحـركة ، وتحولت زوايا المقدمين فيها الى مراكز الثـورة ، ومصادر لالهام المجاهدين بالحماس ، ومن ابرز القادة الرحمانيين رئيس زاوية فرجيوة ، والمقدم الحسين بن احمـد بـن الشريف المدعـو مـولاى الشقفة زعيم زاوية مولاى الشقفة بالبابـور •

غير ان عزيز والاخوان الرحمانيين بجبـال البابور واجهوا صعابا ومقاومة من بعض العائلات

---

13) فيكتور بيكى تاريخ الجزائر الفرنسية (1830 ــ 1930) ص 230
14) ضابط قديم فى الجيش الافريقى الجنرال لاباسى الجزء 2 ص 259

المتعاونة مع سلطات جيش الاحتلال امثـــال : اولاد نابت ، وعائلة ابن حبيلس ، واولاد داوود ابن كسكاس .

ولا شك ان ثقل الاخوان الرحمانيين كان فى هذه المنطقة ، وفى حوض الصومام .

وفى الضفة الغربية لوادى الصومام كـــان شقيق عزيز الشيخ امحمد هو الذى يقود المعركة فواصل محاصرة بجاية ، ومحاربة اتباع واعوان ابن على الشريف المتعاون مع الفرنسيين ، وخاض معركة تالاوريان غرب بجاية ضد قوات ريلهاك Reilhac يوم 24 ماى فقد كثيرا من جنوده نتيجة اختلاف اساليب الحرب بين الطرفـــين وفقدان جيش الشيخ امحمد للاسلحة الكافيـــة

وغير خفى ان الشيخ امحمد اعتاد على الجهاد منذ مدة طويلة فكان من قادة جيش الشـــريف محمد الامجد بن عبد المالك بوبغلة ، يحمل حقدا دفينا على سلطات الاحتلال وجيشها ولهذا اندفع بحماس للجهاد والحرب ، غير ان استسلام اخيه اثـــر فى قواته ، وغـــرر بـــه احـــد اولاد اورابح فسلمه الى حاكم بجاية فى اليوم الثانى من شهر جويلية 1871 بعد يومين فقط من استسلام عزيز للجنرال لالمان بالجرجرة .

وفى ذراع الميزان : كانت زاوية سيدى عبد الرحمن بوقبرين مركز نشاط الاخوانالرحمانيين وكان مقدمها الشيخ محمد بن محمد الجعدى قد عينه الشيخ الحداد منذ عام 1860 رئيسا للاخوان فى المنطقة ووكيلا للزاوية وهو الذى تولى اعلان الجهاد باسم الشيخ الحداد ، ولم يتورع جيش الاحتلال فى حرقالقبة والزاوية،بعد ذلك ، وظل الثوار يحاصرون ذراع الميزان حوالى 42 يومـا من 20 ابريل الى 2 جوان ، ويذكر رين ان الجعدى هو الذى تسلم طابع الباشاغا وبعض اوراقـــه بعد استشهاده فى معركة وادى السفلى قـــرب البويرة يوم 5 ماى 1871 . (15)

وفى منطقة تيزى وزو : هناك فرع من عائلة اوقاسى المنحدرة من اسرة سلاطين بنى حمـــاد ، مالت الى الرحمانيين ، وبرزت السيدة خديجـــة بنت بلكانون ارملة الباشاغا بلقاسم او قاسى ، فربطت صلاتها باتباع الطريقة الرحمـــانية ، وعينها الشيخ الحداد مقدمة لاتباعه فى المنطقة ، واصبحت تزوره بين الحين والآخر كما كـــان يزورها مقدم زاوية اوسحنون محمد على اوسحنون

والى جانب هذه السيدة هناك المقدم الرحمانى محمدوعلى اوقاضى من بوهينون الذى قام بنشاط واسع لصالح الثورة منذ 15 ابريل ، وكـــان مرشدا فصيح اللسان ذا سمعة كبيرة ، واستعمل فى دعايته نفس الاسلوب واللغة التى كـــان يستعملها عزيز والمقرانى فى دفع الناس للجهاد، وذلك بالتأكيد لهم على ان فرنسا اصبحت بدون جيش ، ويتحكم فيها اليهود ، وان الفرنسيـــين يحاربون رجالا مخلصين امثال الشيخ الحـــداد والمقرانى .

15) رين : ص 257 ـ 264

على انه يلاحظ ان وجود على اوقاسي بالمنطقة وصلاته الوثيقة بابن على الشريف باشاغا شلاطة المعروف بميوله لفرنسا ، كان احدى العقبات فى عمل الاخوان الرحمانيين بهذه المنطقة رغم ما حصل من حصار البلد ، وحصول حوادث دامية ، وارتماء على اوقاسي بعد ذلك فى احضان الثورة .

وفى دلس : كان هناك الحاج عمر بن محيى الدين الذى هو خصم لعائلة اوقاسي ، وممثل للاخوان الرحمانيين . وقد عين الشيخ الحداد ابن اخيه الشيخ محمد بن على بن امحمد مقدما للرحمانيين فى هذه الجهة ، وهو الذى اعلن الجهاد فى ابريل 1871 ، فارتمى كل افراد قبيلته فى احضان الثورة وتبعهم كل الاخوان الرحمانيين وحاول الحاج عمر نفسه رغم كبر سنه ان يغرر بمحافظ شرطة دلس ويأخذ منه الاسلحة بعنوان الدفاع ليسلمها الى الثوار .

وقد تأثر نشاط الاخوان فى الاخضرية (باليسطرو سابقا) بسبب عمق الخلافات بين العائلات الكبيرة خاصة آيت رحمون .

وفى الجزائر العاصمة ومتيجة : امتد نشاط الاخوان الدعائى فى محاولة دفع الناس الى الثورة نظرا للعلاقات الروحية الموجودة بين الهيآت الدينية بصورة عامة ، وقد توصلت سلطات الاحتلال بمنشور موزع من طرف الاخوان يوم 26 ابريل ، دون ان يكون عليه امضاء واضح حتى لا يتعرض اصحابه للمتابعة والايقاف . وفحوى هذا المنشور التهيئة لهجوم واسع على قرى سهل متيجة خلال يومى 29 – 30 ابريل .

وراجت الاشاعات بان الثوار سيطلبون نجدة السلطان العثمانى ، ولربما الاسطول الانجليزى ومن الغريب ان التقرير الموجه الى دوقيدون كان مصحوبا برسالة ممضاة من وجهاء قسنطينة ، وكان من ضمن من وقع عليها الشيخ محمد امزيان بن الحداد .

وقد حاول وارنى ان يرد هذا الغضب العام للاهالى ، الى قيام سلطات الاحتلال بمصادرة اوقاف المساجد الاسلامية ، والتعريض بالدين الاسلامى ورجاله ، كما حاول ان يدلل على ان محررى الوثيقة من مهاجرى الاندلس المستقرين بالعاصمة ، نظرا لما تحتويه من امثلة عن قيام الاسبان بطرد المسلمين وتنصيرهم بالقوة بالاندلس . (16)

وفى منطقة باتنة والاوراس : لم يكن لاتباع الشيخ الحداد نفوذ ومركز كبير لان السكان هناك مرتبطون بزاوية طولقة التى اظهر شيخها على ابن عثمان بن عمر اخلاصه لسلطات الاحتلال ، وعارض الثورة من اول يوم لارتباطه بالتيجانيين الذين وثقوا صلاتهم بالادارة الاستعمارية .

ولكن اتباع الشيخ الحداد لم يقفوا مكتوفى الايدى ، فعلى اثر اعلان الجهاد فى ابريل 1871 ، توجه جماعة من مقدمى زاوية صدوق الى بليزما

16) رين : ص 252 ـ 253

وعلى راسهم : احمد بن عبد الله ، يخلف بن مرا ، وعلى بن بوشيرب ، حاملين معهم امر اعلان الجهاد، فانضم الى الحركة جماعة من الاخوان الرحمانيين بالمنطقة من جماعة بن رحمون ، وسليمان بن دروعى ، كما انضم بعض مقدمى زاوية نفطة الرحمانية المنشقين عن زاوية بن عبيد ، ثم توالى انضمام الناس للحركة الثورية من غير الرحمانيين غير ان السلطات الفرنسية حاولت ان تعتبرها حركة عصيان من طرف قطاع الطرق والمجرمين : des bandits كما كتب عنها رين ، وروبين (رين 319 – 338 – 487) .

وحتى في بنى مناصر : بمنطقة شارشال ، – غرب الجزائر العاصمة – اندلعت حركة ثورية فى جويلية 1871 بزعامة شخصية دينية ، ولكن اسبابها الرئيسية تعود للمشاكل المعقدة بين عائلتى : مالك البركانى، ومحمد الغبرينى ، ولو ان صدى حركة الاخوان الرحمانيين شرق العاصمة له دخل وتأثير على هذه الاحداث ، خاصة وان الرحمانيين له بعض الانصار والاتباع فى منطقة حمام ريغه .

والخلاصة : ان حركة المقرانى ما كانت لتعم وتنتشر الى كل هذه الجهات ، وينضم اليها عشرات الآلاف من الناس ، لولا قيام الاخوان الرحمانيين الى جانبه ، وارتماؤهم فى خضم المعركة بصورة تكاد تكون جماعية . والسؤال المطروح : لماذا انهارت هذه الحركة بسرعة كذلك ؟ ؟

تعميم حركة الاخوان :

ان الاخوان الرحمانيين اتباع زاوية صدوق ارتموا بكل ثقلهم وبصورة جماعية فى حركة الثورة الى جانب المقرانى . وكان دخولهم على هذا الشكل حدثا بالغ الاهمية بالنسبة للثورة نفسها ، وخطيرا بالنسبة لسلطات الاحتلال ، بحيث تحولت استراتيجية الحرب واساليبها وتغير طابعها . اذ كانت فى البداية حركة اروستقراطية بزعامة رؤساء اقطاعيين، واصبحت فى ابريل و ماى ثورة شعبية عارمة يقودها رجال كادحون لا صلة لهم بالمظاهر الاوروستقراطية ولا تربطهم بالادارة الاستعمارية سوى ظاهرة الخضوع ، وكان المفروض ان تكون النتائج فى مستوى هذه الخطورة من الجانب الايجابى للبلاد ومستقبلها .

غير ان الملاحظ هو ان الاخوان جاء اخفاقهم بصورة سريعة لها شبيه بطريقة ارتمائهم فى الثورة ، وذلك من الامور التى عجلت بوضع حدلها .

– فالشيخ عزيز استسلم للجنرال لالمان فى جبال جرجرة يوم 30 جوان .

– واخوه الشيخ امحمد غرر به احد رجال عائلة اورابح ، وقاده الى بجاية وسلمه الى حاكمها الفرنسى يوم 2 جويلية ليتقرب بذلك من السلطة .

– وابوهما الشيخ امزيان الحداد سلم للجنرال سوس يوم 13 جويلية فى تيزى الاكحل

قرب ذراع الاربعاء بعد ان علم بوقوع ابنيه في يد قوات جيش الاحتلال ·

وكان استسلامهم على هذا الشكل كقادة وقيادة ، سببا في استسلام العديد من الرجال والقبائل ، وهذا امر طبيعي لان ضياع القيادة هو ضياع في نفس الوقت للجبهة نفسها خاصة في مثل تلك الظروف ·

فما اسباب هذا ياترى ؟

ان الجواب على هذا السؤال ما يزال بحاجة الى تحقيق وتثبت ، ولكن هناك بعض الظواهر يمكن ان تكون جزءا من الاجابة عليه ، مع ملاحظة ضرورة التركيز على عزيز بصورة خاصة باعتباره زعيم الاخوان ونائبا عن ابيه · والمسؤولية الكبرى تقع على عاتقه هو ·

واول هذه الظواهر وجود او ظهور خلافات بين عزيز وبومزراق المقراني بعد استشهاد الباشاغا زعيم الثورة ، وهذه الخلافات على ما يبدو تعود الى طبيعة التكوين نفسها،فبومزراق شخصية اوروستقراطية مثل اخيه الباشاغا ، وعند ما تسلم راية الجهاد بعد 5 ماى اراد ان يكون مصدر كل شيء في التوجيه والعمل ، ولكن عزيزا لم يكن يطيق مثل هذه السيطرة وكان يود ان يكون له دور مماثل على الاقل ، ولما اعترضته صعوبات في البابور ، وفشل فيتكوين مركز قوى فى الضفة الغربية لوادى الصومام ، تسرب اليه الفشل ، واسرع الى الاستسلام ·

وثانى هذه الظواهر هو تصرفات عزيز شبه الحمقاء تجاه العائلات الدينية وخاصة زاوية الشريف بن الموهوب ، وزاوية شلاطة ، فرغم ذلك العداء كان من حقه ان يتجنب ما امكن الصدام معها حتى لا يخلق المزيد من الاعداء ، ولا يبعد عن صفوفه المزيد من الانصار ، فهاجم زاوية ابن الموهوب فى 15 ابريل ، وزاوية شلاطة يوم 24 ماى ·

ولا ننسى ايضا طريقة تعامله مع بعض القبائل حيث كان يرهقها بالضرائب لدرجة اظهرت استياءها وكفت عن تأييده ومناصرته كما حصل مع بنى جليل ·

وهناك ظاهرة اخطر من كل هذا ، نعتمد فيها على مذكراته وهو انه لم يشر الا انتقاما من ابن على الشريف ، ومضايقة حاكم بجاية فقد قال فى مذكراته : « ان كل ما احكيه عن حاكم بجاية وابن على الشريف اذا شهدوا على بشيء فهم مخطئون ، الا يبحثون الا على مصالحهم الشخصية، ان السبب الذى دفعنا الى الخصومة ضد الحكومة الفرنسية ليس الا تصرف الجنرال اوجورو ، الحاكم الاعلى لمدينة سطيف الذى يعرف اوضاع الصفوف القبائلية التى لم تحصل على مطالبها » (17) ·

---

17) سي عزيز : ص 22 ـ 23

تاريخنا يحتاج الى اعادة نظر

الطاهر قيقة
مدير المركز الثقافي الدولي
بالحمامات ـ تونس

لابد ان تتبدل نظرتنا الى تاريخنا ...

اذكر استاذا لمادة التاريخ كان يبسط على تلامذته الاسباب التي جرت الغارات المتوالية التي شنها في القرن العاشر الهجري نصارى صقلية والاسبان على سواحل البلاد التونسية وعلى جزرها مثل « قرقنة » التي اكتسحوها اكتساحا وجربة التي خربوها وكانت لهم فيها هزيمة شنعاء .

كان ذلك الاستاذ يقول ما ملخصه : لما ازدهرت البحرية فى موانى شمال افريقيا وعاث القراصنة المسلمون فسادا فى سواحل ايطاليا وفرنسا واسبانيا ، تألب النصارى عليهم وقرروا دفع أذاهم بالغارة عليهم ومحاولة احتلال قواعد انطلاق سفنهم ٠

ولما سئل الاستاذ فقيل له : انت مواطن هذا البلد ، الا يمكن ان كانت الحوادث على عكس ما قلت ، أى ان اجدادك هم الذين كانوا يدافعون عن انفسهم وعن حماهم فى عصر نزلت فيه نكبة من اكبر النكبات التى اصابت دار الاسلام وهى اجلاء الاندلسيين المسلمين عن الاندلس ٠

فاجاب الاستاذ هكذا لقنت التاريخ فى الجامعة٠ وتلك هى الكارثة اخترت هذا المثال عمدا ٠ ان الدراسات فى تاريخنا العربى تقدمت وازدهرت فى اوساط المستشرقين والمؤرخين باوروبا اكثر من تقدمها وازدهارها فى اوساطنا العلمية وهذا تابع لتقدم أوروبا وامريكا الشمالية علينا ٠ وقد وقع تشويه بعض فترات من تاريخنا خاصة تلك الفترات التى اشتد فيها الصراع بين المدنية العربية والعالم الاوروبى النصرانى وفى احسن الحالات اول المؤرخون الاحداث حسب نظرتهم الخاصة المتأثرة طبعا بقيمهم الحضارية ٠

واحسن مثال هو مثال القرصنة ، سموها قرصنة ولصوصية فى البحر ، ونسوا ان الغارات على السواحل كانت تشن على ضفتى البحر الابيض المتوسط الضفة الشمالية النصرانية من قبل السفن المغربية والضفة الجنوبية المسلمة من قبل السفن النصرانية ٠ اولئك الذين كانوا ينطلقون كالعقبان على ظهور سفنهم من موانى طرابلس الغرب وسوسة وبنزرت وعنابة وجيجل والجزائر وشرشال ووهران وندرومة وطنجة ورباط الفتح منقضين على شواطىء صقلية وسردانية وايطاليا الجنوبية وخليج جنوة وجنوبى فرنسا وجزيرتى ميورقة وشواطىء بلنسية كانوا بالنسبة الينا مجاهدين فى البحر يذودون عن سواحلنا وموانينا التى كانت دوما مهددة بغارات الاعادى ٠

كان القرن العاشر الهجرى الموافق للقرن السادس عشر الميلادى شديد الوطأة على المغرب العربى ، سقطت غرناطة فى ايدى الاسبان وكانت آخر معقل للمسلمين فى اسبانيا وأجلى كثير من اهلها فلجأوا الى المغرب العربى ٠ وبعد ثمانية عشر عاما فقط احتل الاسبان مدينة وهران وسقطت عدة مدن ساحلية بايدى الاسبان آخرها تونس ٠

ان تداخل مجاهدى البحر الاتراك ثم الاسطول والجيش العثمانى فى المغرب العربى قد جنبه احتلالا اسبانيا قد خططته الحكومة الاسبانية والكنيسة الكاثوليكية معا ٠

ان خير الدين باشا استخدم اسطوله لحمل اللاجئين الاندلسيين شيوخا ونساء ، واطفالا من شواطىء اسبانيا الى الجزائر ، قيل انه حمل قرابة مائة الف لاجىء ، لم تكن هذه العملية قد املاها الطمع والجشع ٠ وان النوتيين فى اسطول خير الدين الخطير كانوا من الاندلسيين اللاجئين

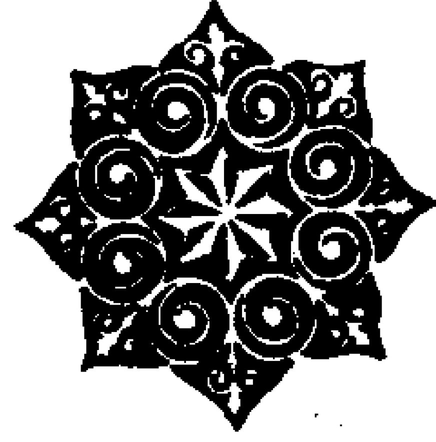
وكانت غارات الاسطول الجزائرى متواصلة على شواطىء اسبانيا حتى اجبر « فيليب » الثانى على بناء سلسلة من المحارس والحصون لمراقبة البحر ودفع الغارات ٠

ان جميع اعمال ما سمتهم أروبا بالقراصنة فى ذلك القرن المظلم الذى شهد سقوط تونس بأيدى الاسبان كانت تمليه سياسة مخططة باسطنبول ترمى الى حماية دار الاسلام، خاصة فى اخطر منطقة كان يهاجم فيها الاسلام وهى الناحية الغربية من البحر الابيض المتدسط ٠

لم تكن غاراتهم فى البحر تلقائية يمليها الطمع والحرص على الحصول على الغنائم ، بل كانت تطبيقا لسياسة عامة كانت تسلكها الدولة العثمانية ٠

الدليل على ذلك ، هو ان خير الدين باشا كان يشارك فى اهم العمليات التى يقوم بها الاسطول العثمانى ٠ وان درغوث باشا الذى كان يباغت النصارى بغاراته الفجائية حتى سموه « نمر البحر » كان ممثلا لاوامر الباب العالى يلتحق بالاسطول العثمانى كلما دعى الى ذلك استشهد درغوث باشا تحت اسوار مالطة فى صفوف الجيش التركى ٠

من سيهتم منا بأبطال البحر باولائك الذين ذادوا عن حمانا فى احلك ظروف تاريخنا القومى ؟



دور فرنسا في
النهضة القوميّة الجزائريّة
من خلال مزاعم مؤرخين أجنبيين

د. محمد بوعزة (?)

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

اشكر لمجلة الاصالة الغراء دعوتها الكريمة لى بالمساهمة فى بحث فى عددها الخاص الذى ازمعت اصداره عن « موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور » .

وطالما اشتاق المؤرخون فى عالمنا العربى لمثل هذه المبادرات من مجلاتنا الثقافية والعلميـــة للكشف عن ذلك الزور والبهتـان الــذى غشى تاريخنا بفضل كتابات العديد من المؤرخين الاجانب زيفوا وقائع تاريخنا حتى بات البعض منا يصدق اقوالهم بل ويردد احاديثهم . ويا للاسف !

وبودى لو اتبعت هذه المجلة هذه الخطوة المباركة التى اقدمت عليها بخطوة اخرى هامة اشمل واعم فدعت المؤرخين للمساهمة بالكتابة فى احداث تاريخنا الاسلامى(1) عبر عصوره المختلفة وما زيفه المؤرخون منه وما زالوا يزيفون منه دون ان يجدوا من الدراسات الاسلامية الجادة ما يبطل تشويههم وانى لاظنها قادمة على ذلك باذن الله بعد ان بدات بتاريخ امة اسلامية نالت من تزييف المؤرخين الشىء الكثير ، ذلكم هو تاريخ الجزائر فى مراحله المختلفة ٠

وسأركز بحثى اليوم حول كاتبين : احدهما امريكى اسمه لوثروب ستودوارد Lothrop Stoddard وهو رجل عالم ما فى ذلك شك ، صدرت له عدة كتب منها الثورة على الحضارة The Revolt against civilisation وكتاب آخر بعنوان : « نهضة الشعوب الملونة » The Rising tide of colour و «اوروبا اليوم : فكرها القومى» Present day Europe : its national states of mind ثم كان كتابه الشهير عن العالم الاسلامى بعنوان عالمنا الاسلامى اليوم The New World of Islam وقد نقل الكتاب الى العربية واختار مترجمه عنوانا له اسم : حاضر العالم الاسلامى ٠ وقد صدر سنة 1925 وعلق عليه المرحوم الامير شكيب ارسلان ٠

والكتاب دراسة مستفيضة عن العالم الاسلامى ما فى ذلك شك واوفى كثيرا من المسائل حقها من البحث والدراسة خاصة فى مسائل الجامعة الاسلامية ٠ تحدث عن اليقظة الاسلامية والجامعة الاسلامية ثم انتقل الى الحديث عن سيطرة الغرب على الشرق ٠ ثم جاء حديثه عن العصبية الجنسية ٠ فعرف العصبية الجنسية بانها مقصد مشترك عند عدد كبير من الناس يعقدون عليه قلوبهم وضمائرهم فهم يؤلفون ، جنسية ، متمايزة عمن سواها ٠

ونراه فى بحثه يرجع التنبه القومى وثورة العصبية الجنسية فى العالم الاسلامى الى تيار الغرب الذى وفد على هذا العالم (الاسلامى) ٠ وبدات هذه الحركة القومية فى العالم الاسلامى ـ وعلى حد قول الكاتب ـ فى تركيا متمثلة فى حركة تركيا الفتاة « فبات رجال تركيا الفتاة على اختلافهم فى شؤون اخرى يدعون الى هذه العصبية وهم فى سبيلها مغامرون مستبسلون٠ ٠٠٠ وبعد ان انشات تباشير اليقظة القومية والعصبية تتبدى فى العرب ٠ فيقظوا يقظة كان شانها شان كل يقظة مثلها يبتغيها شعب محكوم ٠٠٠» ٠ ثم هو يتحدث عن الحركة الوهابية والجمعيات العربية التى قامت فى سوريا قبل الحرب العالمية الاولى والمؤتمر العربى الذى عقد فى باريس سنة 1913 ٠٠٠ مما لا يدخل فى مجال بحثنا هذا ٠

ثم هو ينتقل ـ وهذا هو المهم ـ الى الحديث عن النهضة القومية فى شمال افريقيا فيخطأ الخطأ كله حين يقول او حين يردد مع القائلين بان الوحدة القومية فى الجزائر مرجعها فرنسا ٠ وننقل هنا فقرة من حديثه :

1) كانت هذه المسالة احدى نقاط جدول اعمال الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى الذى انعقد بالعاصمة بتاريخ 24 يوليو 1972

« ان فرنسا ارخت على البلاد سكينة واكسبتها نظاما ونجحا ماديا • غير ان هذه المنافع والفوائد التى اتت بها السيادة الاوربية فى هذه الاقطار الافريقية كما فى غيرها من الاقطار الشرقية قد كان من شأنها ان خلقت نوعا حديثا من الوحدة والتضامن والتماسك بين اهل البلاد حتى غدوا جميعا على مستوى متماثل فى الاجماع على شناة الفاتح الاوربى وعلى نيل المطمح العام الذى يطمحون اليه ، وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتى بمعزل عن السيادة الاجنبية بتة • لذلك فقد شهد العالم خلال الجيل الماضى نشوء (الجزائر الفتاة) و (تونس الفتاة) وفيهما الاحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من اهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بالحكم الذاتى والحرية » •

ومعنى هذا القول وما سبق من حديث الكاتب هو انعدام الوحدة القومية بين اهل الجزائر قبل الحكم الفرنسى فنراه يقول «انه ليس فى الشمال الافريقى (مراكش ، الجزائر وتونس) من كان شعبها فيما مضى امة واحدة • وفوق هذا فليس هناك اليوم من الظواهر الجلية ما يدل على ان احد هذه الشعوب العديدة سائر فى سبيل يصير بها امة صحيحة » •

ونراه يؤكد ان السكينة والنظام والنجاح المادى قد اوجد فى الجزائر نوعا من الوحدة بين اهل هذه البلاد جعلهم يطلبون الاستقلال • وان نشوء تلك الحركات الاستقلالية مرجعه تلك النهضة التى اوجدتها فرنسا •

وسؤالنا الآن : هل حقا اوجدت فرنسا نهضة قومية فى الجزائر ؟ وهل تلك الحركات الاستقلالية التى شهدتها الجزائر مرجعها تلك النهضة التى اوجدتها فرنسا ؟ هذان هما السؤالان اللذان يدوران حولهما بحثى •

يعلق المرحوم الامير شكيب ارسلان على ما قاله هذا الكاتب الامريكى فى كتابه « بينما انا احرر هذه السطور قرات فى الجريدة الفرنسوية نبأ عودة بعض النواب الفرنسيين من الجزائر حيث كانوا قد ذهبوا للاطلاع على حقيقة احوالها • فكان من جملة تحقيقاتهم ان من الاربعة ملايين ونصف مليون مسلم فى الجزائر ،اربعة ملايين نسمة لا يملكون شيئا من الدنيا ، بل هم جميعا مزارعين واجراء وعملة عند طبقة المستعمرين (الكولون) والمتملكين من المسلمين ، وان هذه الملايين الاربعة يتكففون باجرتهم اليومية وتراهم على اسوا حال من المعيشة ويموت اطفالهم 80 فى المائة من سوء الغذاء ويمضى شكيب ارسلان فى تعليقه فيقول : ومعلوم انه منذ سنوات لم تنقطع المجاعة من بلاد الجزائر وكان جميع فتكها بالمسلمين وفى كل سنة تقول الحكومة الفرنساوية انها اتخذت التدابير اللازمة لمنع ويل هذه المجاعة ولم ير العالم من ذلك شيئا • ولا يزال مسلمو الجزائر من 1920 الى اليوم (1925) يموت منهم الالوف من الجوع كانما ذلك من قبيل مكافأة فرنسا لهم على الاثنين والستين الف قتيل التى سقط منهم فى الحرب العامة (يقصد الحرب العالمية الاولى) • ثم يتعجب شكيب ارسلان كيف ان تجارة الجزائر التى زادت بشكل كبير وثروة

الكولون التى تضخمت على نمو عجيب تعجز عن تحسين حال الجزائريين . ثم يختم كلامه بقوله .

ولا غرو بعد هذه البراهين الحسابية التى لا تقبل ادنى جدال ، ان يبقى اربعة ملايين ونصف مليون نسمة مسلمة هناك (فى الجزائر) لا يملكون شروى نقير ويعيشون بأجرة عملهم اليومى أو بالاحرى لا يعيشون ...»

لكن المرحوم شكيب ارسلان وهو يعلق على قول الكاتب الامريكى تناول بالحديث الجانب الاقتصادى لفرنسا فى الجزائر او ان شئت الجانب المادى دون الجانب القومى . ولعله اراد ان يرد على قول الكاتب «ان فرنسا ارخت على الجزائر نظاما ونجحا ماديا ..»

والسؤال الاول ما هى حقيقة دور فرنسا فى النهضة القومية الجزائرية ؟ لقد وقع الكاتب الامريكى شان الكثير من الكتاب الفرنسيين فى خطأ حين يذكرون **ان الجزائر كوحدة سياسية قائمة هو من عمل الفرنسيين .**

وما من شك فى ان ذلك يتجاوز الحقيقة كثيرا . ذلك ان الوحدة السياسية للجزائر تشكلت خلال العهد العثمانى . فلقد شهدت الجزائر تغييرات كثيرة خلال الحكم العثمانى لها حتى انه يمكن تمييز اربع فترات مختلفة فى العهد العثمانى :

الفترة الاولى فترة البيلربكوات سنة 1518 الى سنة 1588 حين نجح الحكام العثمانيون فى السيطرة على رجال الجيش والبحرية ولكن شأنهم اخذ يتضاءل بعد هزيمة الاسطول العثمانى فى موقعة ليبانتو فى اكتوبر 1571 (1) ، فألغت الحكومة العثمانية نظام البيلربك وجعلت من الجزائر ولاية عادية يتولاها احد الباشاوات الذين يعينون لمدة ثلاث سنوات فقط . ثم تبدأ المرحلة الثانية من سنة 1588 الى 1659 حين فقد الباشوات سلطتهم على الانكشارية وانتقلت السلطة الفعلية الى الاوجاق او كبار ضباط الجند .

ولم تطل هذه الفترة لان الاهالى استاءوا من استئثار الانكشارية بالسلطة ومالوا الى تاييد الطائفة او رؤساء البحر ، وتبدأ منذ ذلك الحين الفترة الثالثة .

أما الفترة الرابعة فتبدأ حين نجح رؤساء البحر فى فرض احد رجالهم على الاوجاق سنة 1671 وشاع منذ ذلك الوقت استعمال لقب داى .

واذا كان خير الدين قد بسط سلطانه على القسم الشمالى من الجزائر فان خلفاءه اهتموا بتوسيع دائرة نفوذهم جنوبا . فاقيمت حاميات عثمانية فى بسكرة جنوب شرقى الجزائر وكذلك فى تلمسان بعد سقوط الدولة الزيانية ، ونقرا

1) يطلق المؤرخون الفرنسيون على هذه المعركة الحرب الصليبية المسيحية La Croisade Chrétienne والسبب فى تسميتهم لها بهذا الاسم ان حلفا صليبيا تكون ضد العثمانيين عقب سقوط جزيرة قبرص فى ايديهم فدعت اسبانيا والبندقية الدول الاوربية الى حلف صليبى ضد العثمانيين وقد وضع فى قانون الحلف نص صريح يقرر ان الاستيلاء على بلاد المغرب هو هدف من اهداف الحلف ، واذا كان العثمانيون قد هزموا فى موقعة ليبانت Lepante فانهم استطاعوا ان يفرضوا على البندقية معاهدة مهينة وان ينتزعوا تونس من الاسبان

عن قوات عسكرية تتجه الى توغرت • كما نقرأ فى تحفة الزائر ان السلطنة العثمانية امتدت الى واحات الميزاب • ولكن الكتاب الفرنسيين يحاولون التقليل من اهمية الحكم العثماني فى الجزائر ، فيقولون انه كان مقصورا على الساحل وانه اتسم بالفوضى وعدم النظام •

ولهذه المغالطات التاريخية هدف سياسى ما فى ذلك شك ، فالمقصود به التاكيد على زعمهم القائل ان الجزائر بحدودها السياسية الحالية هى منصنع فرنسا ومن جهودها •

يردد هذا القول بوضوح وفى اكثر من نقطة كاتب فرنسى استقى منه الكاتب الامريكى الذى سبقت الاشارة اليه ــ بعض معلوماته عن الحركة القومية فى الجزائر • ومن هنا لم يوفق كما سبق ان ذكرت •

اما هذا الكاتب الفرنسى الذى اود الحديث عنه الآن فهو سرفييه SERVIER صاحب الكتاب المعروف *Le nationalisme musulman en Egypte en Tunisie en Algérie.*

وقد سمى هذه الحركة الاسلامية فى كل من مصر وتونس والجزائر بانها خطر المستقبل •

Le péril de l'avenir

ومن اجل هذا فان الاسم الكامل للكتاب هو : خطر المستقبل : القومية الاسلامية فى مصر وتونس والجزائر • والكتاب الذى رجعت اليه هو الطبعة الثانية لكتابه الصادر فى قسنطينة ديسمبر سنة 1912 طبعت طبعته الثالثة بعد ذلك عام 1913 • كتب مقدمة الكتاب نائب فرنسى اسمه موريس آجام AJAM وتلمس من المقدمة التى كتبها هذا الرجل عداءه للاسلام، يقول آجام :

جاءنى فى يوم صديق يزورنى ويقول انت كتبت عن الاسلام وعدم ملائمته للعصر الحاضر وانت تجهل انالاسلام فى العصور الوسطى كان مشعل الحضارة • وان هناك من المسلمين فلاسفة عظام وعلماء ومفكرين • ويقول ان هذا الصديق وابناءه يجهلون روح الاسلام وانه من الممكن للمسلم ان يتعاون مع «رومى» ويصفهم بانهم مثاليون لا يعيشون الواقع • وان المسلم مهما كان لا يقبل التعاون مع هذا المسيحى ابدا خصوصا اذا كان قد غزا ارضه •

وفى بداية الكتاب يقول سرفييه انه وقعت فى ايدينا (يعنى ايدى فرنسا) وثائق من مصريين يحرضون مواطنينا الجزائريين على الثورة • ويقول ان هذه الوثائق تؤكد ما اصبح يسود تلك المناطق من العالم الاسلامى سواء الخاضعة لانجلترا مثل مصر او الخاضعة لنا مثل تونس والجزائر • اننا ساهمنا فى خلق هذه العصبية الاسلامية» • ثم راح يوضح خطر هذه الحركة الاسلامية Panislamisme ويقول انعددا منالجزائريين الذين شربوا روح الحضارة الاوربية التى جئنا بها الى الجزائر باتوا يحلمون ان يلعبوا دورا اكبر مما ينبغى ان يلعبوه وصاروا يحلمون احلاما عظمى • انهم يحلمون ان يحكموا انفسهم دون خضوع لسيادة اوروبية • ولقد شجعهم على المضى فى هذا الطريق اطماعهم الشخصية وتشددهم وتعصبهم لدينهم الذى لا يسمح لهم بالتعاون مع غير المسلمين • ومن ثم فانهم (هؤلاء الجزائريون) يعتبرونها نوعا من الحرب المقدسة لتدعيم النفوذ الاسلامى •

ويقول سرفييه Servier ان هذه الحركة (يقصد الحركة الاسلامية فى مصر وتونس والجزائر) بدأت فى مصر فى 22 اكتوبر 1907 حين اعلن فى الاسكندرية عن برنامج الحزب الوطنى الذى اصبح هو رئيسه • وينادى هذا الحزب بتقوية الروابط بين مصر وتركيا وبخروج الانجليز من مصر،ويقول ان مصطفى كامل يردد بأن المصريين لم تعد تخدعهم الالفاظ الطنانة للاصلاحات ولن يهدأ لهم بال الا بوجود حكومة وطنية مستقلة دستورية «فهو (مصطفى كامل) يرمى لطرد الانجليز من مصر» • وجاء من بعده محمد فريد وظهر لطفى السيد بآرائه التى اخذها ينشرها فى صحيفة (الجريدة) وعلى يوسف فى (المؤيد) •

ويقول سرفييه لا بد ان ندرس افكار هؤلاء ، لان افكارهم وآراءهم اثرت على رجال تونس الفتاة والجزائر الفتاة • وهم (محمد فريد وغيره فى مصر) يرون ان المسلمين فى مصر والجزائر وتونس قدكفاهم ما تعلموه من الانجليزوالفرنسيين وينبغى ان يديروا شؤونهم بانفسهم ويجب اذا ان تكون مصر للمصريين وتونس للتونسيين وكذلك الجزائر للجزائريين •

ثم نراه ينبه الى **خطورة هذه اليقظة الاسلامية على فرنسا ، انجلترا ، وايطاليا** التى دخلت هى الاخرى طرابلس الغرب • ويقول يجب ان نخطط للمستقبل «ان نكشف عن العصبة الاسلامية وافكارهم وآرائهم • ان هذا محور المشاكل فى المستقبل» •

ويبدأ الكاتب دراسته للحركة الاسلامية فى مصر ثم فى تونس وهو ما يخرج عن نطاق هذا البحث ، وآمل ان اتناوله فى اعداد قادمة من هذه المجلة ان شاء الله •

وانما يقتصر حديثنا عن الجزائر •

والكتاب ملىء بالمغالطات التاريخية والتعصب المتوقع من مثله فيقول ــ وهو يحلل المجتمع الجزائرى ــ انه «مجتمع متأخر عن المجتمع التونسى ليس فيه وحدة الشعب التونسى • قبل الغزو الفرنسى لم توجد قوة قوية تسيطر على البلاد • فالداى لم تكن له سلطة الا على المدن • وان حكمنا الذى قام على اساس احترام النظام والمساواة قد قارب بين هذا المجتمع وبين المجتمع التونسى» • ثم يقول عن المجتمع الجزائرى انه بدأ فى دور التكوين وهناك البرجوازيون (الموظفون ، التجار واصحاب الارض) ثم العمال والفلاحون •

ثم يتناول بالحديث الجزائر الفتاة ، ويرى ان هؤلاء الشبان الجزائريين الذين تلقوا ــ على حد زعمه ــ تعليما وثقافة فرنسية هم اخطر الناس على فرنسا • هو لا يخشى من الاجيال الجزائرية التى تجاوز اعمار الكثيرين منهم اربعين عاما فهم يقرون لنا بالاصلاحات التى ادخلناها فى بلادهم • اما هؤلاء الذين استفادوا من تعليمنا ونظمنا اى هؤلاء الشباب فهم من نتاج عملنا Est notre œuvre اننا بتشجيعنا للعلم فتحنا الآفاق لهؤلاء فقد كنا كرماء معهم كما كنا دائما عبر تاريخنا كله ! ! • اننا بما فعلناه معهم لم يعد يرضيهم ان يعيشوا معنا فى وئام كما عاش من قبلهم • وهو بهذا يتجاهل تماما تلك الحركات الاستقلالية التى قام بها الوطنيون الجزائريون ضد

المحتل الاجنبي مبتدأ بالامير عبد القادر وما تبع ذلك من حركات وطنية عبر السنين التى بسط فيها المحتل الفرنسي وجوده على الارض الجزائرية.

ويرى هذا الكاتب ان حركة تركيا الفتاة ونجاحها فى القسطنطينية هي التى فتحت الآفاق امام هؤلاء الجزائريين . «وبمثل ما يطالب به رجال مصر الفتاة (1) ان مصر للمصريين يطالب هؤلاء الجزائريين انه اذا لم يكن ممكنا لهم ادارة بلادهم كاملا فليكن لهم جانب فى ادارتها» .

ولا يخشى سرفييه من الفلاح الجزائرى فيقول هو رجل امى لا ينبغى ان يقام له وزن .

ثم ينتقل الكاتب الى الحديث عن اثر الحرب بين روسيا واليابان (التى انتهت فى سبتمبر سنة 1905) وكيف ان انتصار اليابان فى هذه الحرب قضى على خرافة سيطرة الحضارة الغربية والغرب . ويقول ان اثر ذلك انه بدأت انجلترا تواجه متاعب فى الهند . «ونحن فى الجزائر نجد ان الحرب التركية الايطالية انعشت الروح الدينية التى تؤثر دائما على المصير السياسى . ان العقيدة خصوصا الاسلامية هى المؤثر الكبير على السياسة»

ثم يتحدث عن النهضة الجزائرية فيصفها بانها ضعيفة تافهة تنقل الصحافة الجزائرية كثيرا مما يكتب فى مصر وتونس ، ثم يعرج مرة اخرى على سياسة مصطفى كامل فى مصر ويقول انها تقوم على ثلاثة امور :

1) ــ عدم الثقة بالادارة الاروبية .

2) ــ اثارة سخط المواطنين بتوضيح سوء حظهم وان المحتل يعاملهم معاملة سيئة ،

3) ــ خلق وحدة فى المجتمع الاسلامى .

ويقول ان الصحافة الجزائرية نهجت نفس المنهج. ويقول ان صحيفة الاسلام تنقل وتتبع اسلوب محمد فريد وعلى باشي جانبه فى تونس. ويورد مقتطفات من صحيفة «الاسلام» (2) ، من ذلك ما كتبته فى 14 جانفى ــ يناير سنة 1912 ــ تقول وهى تحرض الجزائريين على الثورة : الشهداء العرب ، ان دروس الماضى علمتنا ما فيه الكفاية ، وما ننتظره من الجزائر التى احكمت فرنسا فيها الظلم من حوالينا ان الجزائر اصبحت شهية للمستعمرين الذين يحتقرون العربى ، هذا العربى ضحية القاهرين استحوذ المستعمرون على الارض واستغلوها وسادوا عليها» .

ثم يورد من نفس الصحيفة اقوالا تثبت قيامهم (قيام كتاب هذه الصحيفة) بالدعوة الى التضامن الاسلامى والتأكيد على ان **الشعب الجزائرى جزء من الامة العربية .**

ويمضى الكاتب يؤكد ان حركة الجزائر الفتاة هى شيء مستورد من آراء وافكار مصر الفتاة وتونس الفتاة وان هذه الحركات الثلاث اقتبست اشياء كثيرة من حركة تركيا الفتاة .

النقطة الاخيرة التى احب ان اتعرض لها فى هذا الكتاب ما جاء فى الجزء الرابع منه تحت عنوان: «سياستنا (يقصد سياسة فرنسا) الاسلامية»

1) يقصد رجال الحزب الوطنى فى مصر

2) صحيفة جزائرية كانت تصدر فى الجزائر العاصمة اسسها محمد عز الدين القلال وصادق دندان فى اوت ــ اغسطس 1912 ــ ارجع الى فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية

يقول الكاتب : يتضح مما استعرضناه عن الحركة الاسلامية فى مصر وتونس ان هذه الحركة الاسلامية حركة متعصبة وانها ممتدة فى انحاء كثيرة من آسيا وافريقيا تحاول ان تثير تعصب الجماهير • ويورد اقوالا لمراسل صحيفة الطان Le Temps من القاهرة يقول ان حرب تركيا مع ايطاليا وحرب البلقان قوت امر هذه الحركة فى افريقيا وهذا امر يهم فرنسا بالدرجة الاولى• ثم يقول ان هناك اتحادا سريا اسمه الوحدة المغربية Union Maghrebine يهدف الى ان يضم كل المسلمين فى المغرب وغرب افريقيا • وان هذا الاتحاد – على حد ما اورد الكاتب – مؤسس فى القاهرة بتشجيع من الشيخ على يوسف صاحب المؤيد وان امين صندوق هذا الاتحاد جزائرى اسمه امين بك المغربى • ويؤكد المراسل ان لهما فرعا فى الجزائر العاصمة وتونس وان المشجع الكبير لها هو المنتدى الادبى (I) فى القسطنطينية

ويمضى مراسل الطان حسب ما نقله سرفيبيه يقول : ان هدف هذه الوحدة المغربية تنظيم ثورة عامة فى افريقيا الفرنسية •

يخلص الكاتب من ذلك الى ان هذه الحركة الاسلامية خطر علينا (على الفرنسيين) خطر يهدد النفوذ الغربى فى كل مستعمراته فى آسيا وافريقيا •

ثم يتساءل هل يمكن مقاومة هذا الخطر ؟

يقول سرفيبيه : «ان القومية الاسلامية هى نتيجة الحضارة التى جئنا بها لهذه البلدان ! ! انها ثمرة الثقافة والحضارة الاوربية • ويقول ان مصر شهدت بداية هذه الحركة الاسلامية لماذا ؟ لان مصر شهدت اول نفوذ اوربى» • ثم يمضى قائلا ان الغزوة الفرنسية بقيادة بونابرت هى التى حركت القومية فى مصر • ان هذه الحملة الفرنسية هى التى جاءت بحضارة اوربا الى الشرق •

واترك الرد على تلك الادعاءات القائلة بان الحملة الفرنسية هى التى نقلت الحضارة الى عالمنا الاسلامى لأبحاث مقبلة ، كما اترك تهجمه على الاسلام حين قال : ان الاسلام لا يتمشى مع الحضارة وانه عدو لكل تقدم

Bref : l'Islam n'est compatible avec la civilisation parce qu'il est hostile a tout progrès.

هو يرى ان هناك اخطارا حادقة بالنفوذ الاستعمارى سواء فى مصر او فى تونس او الجزائر ويرى انه يجب على فرنسا ان تبادر باحتواء هذه الحركة ويرى ان ذلك ممكن تحقيقه بان تسمح فرنسا بقدر ضئيل من التعليم يتناول

I) المنتدى الادبى هو جمعية ثقافية اسسها مجموعة من العرب فى عاصمة الدولة العثمانية فى الاستانة ليكون مقرا ومكانا يجتمعون فيه سنة 1910 برئاسة عبد الكريم الخليل وهو احد الشهداء العرب الذين اغتالهم جمال باشا السفاح اثناء الحرب العالمية الاولى

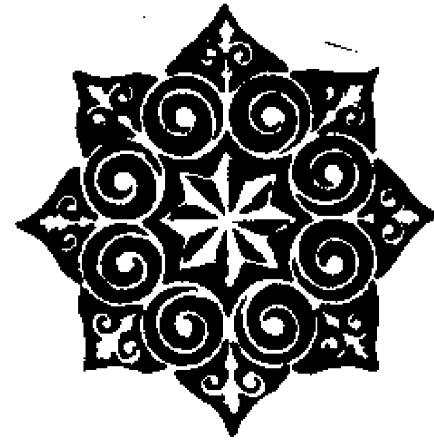
ارجع الى توفيق برد : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ص 210 وما بعدها

أول ما يتناول أمور التعليم خاصة الزراعى منه·
ولا تسمح بوجود مثقفين جزائريين **Pour l'instant l'Algérie n'a pas besoin d'intellectuels !**

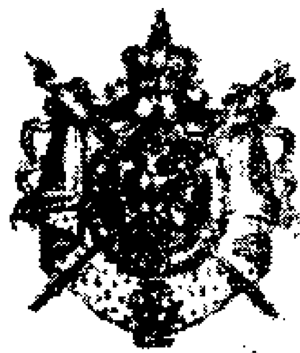
«علينا ان نسيطر على الامور ان نتحكم فـــى الجماهير حتى تكون لنا سيطرة سياسية ومعنوية وثقافية بهدف ان نبقى نحن الموجهين والمرشدين للاهالى » ·

وبعد ، فتلك لمحة سريعة لما كتبه سرفييه وحاول شأنه شأن غيره ان يغمط الحركة الوطنية الجزائرية حقها · هو يرجعها الى تيار وافد عليها من الشرق الاسلامى ثم هو يرجع تيار هذه النهضة الاسلامية لما تفضل به المستعمرون الاوربيون على عالمنـــا الاسلامى فتجده يقول فى صفحة 186 من كتـابه ان انتشار افكارنا الحضارية وانتشار التعليـــم اوجدا اجمـــاعا ، وبدأت احلام الاستقلال تراود الاهالى · ان الحضارة الاوربية اعطتهم احساســا بحقوقهم وجعلتهم يحسون بقيمتهم واشعرتهـــم انهم قادرون على ادارة شؤون بلادهم ·

وما احوج تاريخنا الاسلامى الى ان يجد مـن ابنائه من يتصـــدون لمثل هذه الاكاذيب والادعاءات والله المـــوفق ·



الدولة الفرانساوية



اعلام من حضرة الامبراطور سلطان الفرانساوية الى كافة المسلمين اهل المملكة الجزائرية

ان الدولة الفرانساوية لما وضعت قدميها بوطن الجزائر منذ خمس وثلاثين سنة لم يكن مرادها في ذلك اثارة شتات الوطن المذكور بل المراد في خلاصهم من الظلم المتراكب عليهم منذ احقاب وقد جاءتكم بعلم اعلم واعدل واتبع رشد امثالها كانت عليه التصرفات التركية التي اخلفناها ومع ذلك فانكم في السنين الاولى من الاستيلاء حصل لكم قلق حيث رايتم امة اجنبية تتصرف فيكم وفي بلادكم فاتلتم من خلصكم من الظلم فمعاذ الله ان نظن ان ما صدر منكم وقتئذ كان ذنبا يوجب الملام عليكم بل نوقن ما جبلتم عليه من الخصال الحربية التي حملتكم على رفع السلاح ساعتئذ حال كونكم متنظرين فيما طرأ عليكم الينا اجراة حكم الله وما كرفنا بفهم حكمه بما اراد بليس لنا الا فيما قدرته الحكمة [illegible] الحجبية عنا لاسرارها التي تبلغ المراد والخير في الغالب وتحظم المرء الى نيل مراده مع خيبة قصده وعكس اجتهاده فمثل ما وقع بكم حل باسلافنا منذ عشرين قرنا بان هجمت عليهم امة اجنبية فلم يغيروا بالحرب عنها وقاتلوها ثم فهموا من يومئذ تجددت حالتهم الوطنية بالحسن منها ومنه تاريخ ارتقائهم وان القول الحق الذي اسلافنا لما انهم لما تخلفوا بخلق الرومانيين المنتصرين عليهم وبان تحصل اللازم مع اختلاف فضائلهم المادية ومضادة عاداتهم تولدت منه على مرور الازمنة هذه الامة الفرانساوية التي وفق الله لها وقتا لتنشر في الدنيا ما انعم الله به من زرع محاسنها فمن يعلم انه لا ياتي يوم تجد امة العرب فيه مساعدة على استقلالها بتصرفات امورها كما كانت قبل القرون الماضية مالكة لبعض سواحل البحر [illegible] وتكون ذلك الاتحاد بعد صلاح احوالها وحفظنا لها بالامة الفرانساوية

فاروا ايها العرب [illegible] على هذا [illegible]

[illegible]

تستغلون فيما تروا بما سنتهم [illegible]

في تصرفات الوطن زيادة عما انتم عليه الان كما [illegible] في الوطن خيرات الهمة [illegible]

بشرط ان تطيعوا وتعتبروا انتم من ينوب في الحكم والتدبير واخبروا اخوانكم المغررين بان تكرار صنعهم في التعاق يعود بالنحس عليهم في بالمليونات من العرب لا يقدر ان على مضادة اربعين مليونا من الفرانساويين ومتى الجمع ان يتعنت الواحد على عشرين من الاطاعم ومع هذا بعد حلفتم لدي على الوفاء بالعهد وذمتكم تؤكد عليكم حفظ الميثاق بالوفاء والتمسك حسبما هو منصوص في كتابكم الشريف بسورة التوبة ونستثني جماعة كثيرة منكم الذين لم يتبعوا ما صدر منهم باتباع الاراء الفاسدة المتولدة من الجهل والتخمين والغلو في الدين حيث تحققتم بانني سلطانكم فاعلموا اني حام لكم وان كل من عاش لها يعاب في نظر حكمنا فله حق مساوي في اعتنا بنا واذكروا ما هو مسوغ بانه تقايكم من انتسابكم الينا اذ كنتم منذ عشرة اعوام اخذتم حظا مرضيا من جنودنا ووقفوا اولادكم بازاء ابنائنا في المعارك الواقعة بالقرم وايطاليا والصين والمكسيك ولا يحصل التباطل الواقع في ميادين الحرب وقد شاهدتم ما املكم التحقق بيه من طاقتنا وما فعلناه مع عدونا وقت عداوته ومحبتنا وقت محبته فاعتروا يا معشر العرب على الدولة الفرانساوية حيث ان احوالكم واحوالها متحدة واعتبروا بان من يهد الله فهو المهتدي حسبما نطق به القرآن في سورة الاعراف

كتب بالجزائر في اليوم الخامس من شهر ماي سنة [illegible]

نابليون

منشور موجه من طرف نابليون الى الشعب الجزائري الذي ضد الاحتلال

مساهمة المؤرخين الفرنسيين

وهل تصلح أساسا لتنمية تاريخنا القومي ؟

إسماعيل العربي
كاتب جزائري

الصورة الخلفية

ان تاريخ الجزائر عبر العصور القديمة والعصور الوسطى ملتحم بتاريخ المغرب العربي كله التحاما قويا ، ولا سيما بتونس والمغرب الاقصى · وهذا التاريخ يبدأ بانتشار المستعمرات الفنيقية في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، اى قبل تاسيس قرطجنة بحوالى اربعة قرون · وفي غضون القرون التالية ، توغل النفوذ السلمى الذى يرافق التجارة الدولية مع الثقافة الفنيقية في هذه الديار ·

وقد ظلت اللغة الفنيقية التى مهدت الطريق للغـة العربية شائعـة فى المغـرب حتى فى عهد الفيلسوف الجزائرى سـانت اغسطين (القـرن الخـامس الميـلادى) (١) ، اى قبـل الفتـح الاسلامى بوقت قصير — الامر الذى لم يجد معه سكان هذه البلاد صعوبة فى التفاهم مع العرب وتقبل الدين الاسلامى ٠

وبعد سقوط قرطجنة (١٤٦ ق ٠ م ٠) ، واحتلال الرومان لشواطىء هذه البلاد ، سـار اباطرة روما على حكمها بواسطة الملوك والامراء المحليين ٠ ولكن الطمع وشهوة السيطرة جعلتهم يوسعـون سلطـانهم تدريجيـا حتى اتمـواضم الجزائـر نهائيـا فى عهد الامبراطور كاليجولا (٤٠ م) ٠ على أن مساحات شاسعة مـن هـذه الارض (تلال ولاية الجزائر وتلال ولاية وهران) ظلت مع ذلك حاملـة لواء الحريـة وافلتت مـن قبضة الاستعمار الرومانى ٠

وفى القـرن الخـامس الميلادى تعـرضت البلاد لغزو الوندال المخربين ، ثم لغزو بيزنطـة فى سنة ٥٣٣ م ٠ وفى اواخر القرن السابع ، تم للعرب فتح الجزائر بعد مـا قضوا على فلـول جيش بيزنطة وتغلبوا على جيوب المقاومة المحلية٠

وفى اوائـل القرن السـادس عشر استقر الامـر للاتراك فى هذه البلاد ، بعد مـا طردوا الاسبـان من شواطئها (فيمـا عدا وهران التى سيستولون عليها نهائيا فى سنة ١٧٠٨) ٠

وقد ظلت الجزائر فى غضون فتـرة تمتد على ما يقرب من ثلاثة قرون ، القـوة الرئيسية فى البحر الابيض المتوسط ، حيث عجزت اساطيل شارل كينت ولويس الرابع عشر عن قهر اسطولها٠

وقد اطلـق الاجانب اسمـاء متعددة لـم نعترف بها على بلادنا ، مثل « لوبو » الذى كان اليونان والعبريون يسمون به المناطق الشرقية ، واسم « المور » الذى كـان الرومان يطلقونه فى البداية على شمال المغرب الاقصى ، ثـم وسعوا مدلوله فى الاتجاه الشرقى ٠ وكذلك عرفت هذه البلاد تحت اسم « البربر » الذى كان الرومـــان يطلقونـه على الشعـوب التـى لا تنتمـى الـى الحضارة الرومانية ٠

واما العرب ، فقد اطلقوا كلمة « افريقية » (التى يرجح ان تكـون تسميـة فنيقيـة) على المناطق التى تعرف باسم تونس حاليا على وجه التقـريب ، والمغـرب الاوسط ، على الجزائـر ، والمغرب الاقصى على البلد الذى لا يـزال يحمل نفس الاسم حتى اليوم ٠

وفى القرن التاسع عشر ، خلق الجغرافيون الاوروبيون تعبيـر « افريقيـة الصغرى » ، على غرار آسيـا الصغرى ، للتمييز بين المغرب وبين بقية اطرافَ القارة ، ولالفات النظر الى اهميتها الاستراتيجية فى حوض البحر الابيض المتوسط الغربى ٠ وهذا التعبير ، كان بمثابة كلمة السر فى عملية انقضاض الاستعمار الفرنسى على هذه البلاد التى ستعيش فى ظله نيفا وقرن من الزمن ستتعرض خلالها مقوماتها الثقافية ومميزاتهـا القومية لامتحان عسير ٠

وجميع هذه الاطوار والحقب التى مرت بها الجزائر ، عالجها المؤرخون الفرنسيون باستفاضة فى كتب تختلف احجامهـا واهدافهـا وقيمتهـا العلمية ٠

---

(1) Gsell (St) l'Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Hachette 1913, T. IV, P. 498.

وعلى الصعيد الجغرافي ، تمثل جزيرة المغرب كما يحلو لبعض المؤرخين ان يسميها ، فضاء مربع الاضلاع يمتد بين شواطيء البحر الابيض ورمال الصحراء الكبرى والمحيط الاطلسي وراس بون • والاضلاع غير متساوية • فان المسافة بين راس اسبرتل وراس بون تبلغ حوالى ١٥٥٠ كيلو متر ، وبين راس بون وجابس ٢،٢٠٠ كيلو متر ، وبين راس بون وجابس ، اقل من ٤٠٠ كيلو متر • ومجموع هذه المساحة تبلغ ٩٣٠ ٠٠٠ كيلو متر مربع •

ومستوى ارتفاع الارض على البحر في اكثر من نصف هذه المساحة ، يزيد عن ٨٠٠ متر • والمتوسط في كل واحد من الاقطار الثلاثة هو ـ ٣٠٠ متر في تونس ، و ٨٠٠ متر في المغرب الاقصى ، و٩٠٠ متر في الجزائر • على ان ارتفاع هذا المعدل ، لا يدل على وجود جبال كبيرة العلو • لاننا اذا استثنينا قمة جبل توبكال في المغرب (٤١٦٥ مترا) ، وأعلى قمم جبل اوراس (٢٣٢٨ مترا) ، فان بقية جبال المغرب لا يتجاوز ارتفاعها ١٦٠٠ مترا • والارتفاع الشائع في المغرب يتراوح بين ٨٠٠ و ١٢٠٠ مترا ـ وهو ارتفاع معتدل •

على ان الجبال يحدث ان ترتفع قممها وتنفصل عن السهول والوهاد التي تحيط بها فجاة • وهذه هي الحالة ، مثلا ، بالنسبة الى الاطلس التلي المتيجي الذي يطل على مدينة البليدة من ارتفاع قدره ١٤٠٠ مترا في اعلى قممه • والامر كذلك بالنسبة الى جبل سيدي عقبه الذي يشرف على سهول افلو من علو يبلغ ١٤٢٦ مترا•

لقد بدا الجغرافيون الفرنسيون استكشاف الاراضي الجزائرية ودراسة مختلف نواحيها لاغراض ادارية وعسكرية وعلمية الخ • ، منذ المراحل الاولى بعد الاحتلال • وقد انتهى بهم الامر الى تقسيم البلد في وقت مبكر الى ثلاث مناطق متوازية تمتد من الغرب الى الشرق : الاطلس التلي ، والسهول المرتفعة ، والاطلس الصحراوي • وقد كان الرأى السائد بين الجغرافيين الاوائل هو أن سلسلتي جبال الاطلس تمتد على هذا النحو من التوازي في جميع شمال افريقية • ولكن هذا الرأى تغير حينما انتبهوا الى ان سلسلتي الاطلس تلتقيان في شرق الجزائر •••

ومهما يكن من شيء ، فان سلسلتي الاطلس متميزتان في هذا البلد • فان الاطلس التلي يتميز بتضاريسه الحادة وبالارتفاع والهبوط الشديد في منحدراته •

واما الاطلس الصحراوي ، فهو على العكس ، يتسم بالاعتدال في تعرجه وبالهبوط والصعود الرتيب نوعا ما بحيث ينتهي الى الاتصال بالمرتفعات الصحراوية بصورة لا تكاد تكون ملحوظة •

وكذلك يلح الجغرافيون الفرنسيون على تقسيم آخر بين المناطق الشرقية والمناطق الغربية في الجزائر • والسهول المرتفعة التي تحيط بها سلسلتا الاطلس لا ترتفع في الحقيقة الا في الغرب • فهناك تمتد سلسلتان من السهول : سهول الشلف التي تكملها سهول سيج وسبخة وهران من جهة ، وسهول معسكر وسيدي بلعباس وتلمسان ، من جهة اخرى • وهي تحيط بها من الشمال جبال ساحل وهران وجبال الظهرة المتفرعة عن الاطلس التلي ، ومن الجنوب جبال تسالة والورسنيس التي هي اعظم الكتل الجبلية التي تمتد في غرب الجزائر •

وفى الجنوب تمتد سلاسل قصيرة من الجبال التى تتصل بالاطلس الصحراوى ، وهى جبال القصور وعمور واولاد نايل التى تبدا فى المغرب الاقصى وتتجه شرقا حتى الحضنة فى ارتفاع منتظم تقريبا ، وتفصل بينهما ممرات واسعة تسهل المواصلات عبرها من الجنوب الى الشمال ٠

وفى القسم الشرقى فقدت الجزائر كثيرا من انتظام هندسة جبالها ٠ فان معظم المناطق الساحلية عبارة عن جبال تتخذ اشكالا غير متسقة ولا مريحة للنظر ٠ ولكنه فى اقصى طرفى المنطقة الشرقية ، تمتد سهول مجاورة للشاطىء ، وتلك هى سهول متيجة الواقعة خلف الهضاب الشاطئية فى الغرب ، وسهول عنابة المشهورة التى تبدا فى جنوب جبل ايدوغ ، الذى كثيرا ما يسير موازيا للشاطىء مع سلسلة جبال بلاد القبائل التى تسندها من الجنوب جبال جرجرا ٠ والى الشرق من ذلك ، ترتفع جبال البابور ومجموعة من الجبال المتقطعة التى تمتد بين راس بوقرعون وراس الحديد ٠

وخلف المنطقة الساحلية تمتد جبال التل من الشلف حتى الحدود التونسية فى شكل مختلط الارتفاع والانخفاض بحيث لا يتجاوز ارتفاع اعلى قممها ١٨٠٠ مترا ٠ وهى فى بعض المناطق تمتزج بسهول محدودة المساحة ، مثل سهول ميلة وسهول قالمة ٠

وبنهاية منخفضات الحضنة فى الجنوب ، تنتهى السهول المرتفعة فى هذه المنطقة ، واما سلسلتا الاطلس التلى والصحراوى ، فهما تلتقيان فى منطقة عنابة ، كما اشرنا ، بينما تنتشر جبال ثانوية تشكل امتدادا لهما فى السهول المرتفعة القسنطينية بغير انتظام بحيث يسود هذه المنطقة وضع غير واضح ، اذ تنخفض الارض حينا وترتفع حينا آخر ٠

وعلى كل حال ، فان الاطلس الصحراوى يحتفظ باتجاهه الاصلى ، من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وتمثل جبال اوراس ذات التكوين غير المنتظم امتدادا مرتفعا له ٠ وبين اوراس ، من جهة ، وبلزمه وجبال الزيبان ، من جهة اخرى ، ينفتح منفذ الى الجنوب عن طريق وادى القنطرة الذى يجمع بين السهول المرتفعة والصحراء ٠

تلك هي ، بايجاز ، المعالم الرئيسية للتكوين الطبيعى للجزائر الذى عنى بدراسته وابراز تفاصيله عدد من الجغرافيين الفرنسيين الذين ندين لهم باعمال لابد من الاشادة بقيمتها الموضوعية ، خصوصا لان هذا المجال علمى ويبتعد أكثر من التاريخ عن التاثر بالاعتبارات السياسية ٠

ولكن ما هى آثار هذا التكوين الطبيعى للارض على السكان والمؤسسات والمجتمع البربرى ، بصفة عامة ؟ هل كان عاملا من عوامل القوة والوحدة ، أو سببا فى الضعف والانقسام ؟ وباختصار ، هل كان له حقا ذلك الثقل المزعوم على تاريخ المغرب وعلى تطوره السياسى والاجتماعى ؟

تلك اسئلة تلقت ردودا بالايجاب من الكتاب الفرنسيين لا نعتبرها مدعمة بما يكفى من الادلة والتحليل العلمى ٠ وهى فى راينا لا تتعدى كونها فروضا واستنتاجات يمكن للباحث ان يصل بسهولة الى نتائج تناقضها ٠ (١)

(١) قارن

Ch. - André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 1/12

E. F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, P. 9 - 10.

نمــوذج ممثل لمساهمة الفرنسيين

Paul Azan (Général), l'Emir Abd El-Kader du Fanatisme Musulman au patriotisme Français. Hachette 1925.

يمثــل هذا العمل الموجــه لخدمــة اهداف سياسية مجهودا فى البحث · وقد تمكن مؤلفه ، بفضل لقبه العسكرى الرفيع ، من الحصول على وثــائق اداريــة والتنقيب فى الارشيفات – وهى مزية لاتتاح لباحث عادى · واما نــزعة الكاتب واغراضه ، فيدل عليها عنوان الكتاب بوضوح · وقد اراد ابــراز بطولــة الامير عبد القــادر فى المعارك لكى يــزيد من قيمــة انتصارات الجيش الفرنسى عليــه ، ثــم لكي يضرب بتحول الامير عبد القادر المزعوم ، مثلا للجزائريين لكي يحذوا حذوه ·

E. Abertini, G. Marçais et G. Yever, l'Afrique du Nord Française dans l'Histoire Lyon-Paris, 1937.

كتاب غزير المادة ، حسن الترتيب ويقــرا بسهولة ، ولكنه كثير الايجاز · وضع له مقدمة –

R. Lespes

A. Bernard, l'Afrique Septentrionale et Occidentale (Collection Géographique Universelle de P. Vidal de la Blanche et L. Gallois) , 1937.

كتاب مهم يعطى فكرة اجمالية عن الجغرافيا الطبيعية والبشرية للمناطق التى يعالجها (وهى لا تشمل ليبيــا) ·

A. Bernard, l'Algérie, 1929.

كتــاب فى التــاريخ والجغرافيــا يعــالج مختلف النواحى مستعينا بوثائق متينة ·

G. Boissiere, Esquisse d'une Histoire de la Conquete et de l'Administration Romaine dans l'Afrique, et particulièrement dans la Province de Numidie, 1878.

كتابضعيف المــادة · وعلى الرغــم مــن عنوانــه الطويــل والمغرى ، فهــو قليل الفــائدة والقيمة العلمية ·

R. Cagnan, l'Armée Romaine en Afrique et l'occupation militaire sous les Empereurs, 1912.

كتاب متوسط المادة حسن الترتيب ويحتوى على معلومات من كل نوع تتجاوز النطاق الذى حدده المؤلف لبحثــه ·

H. Carrot, Histoire générale de l'Algérie, 1910.

عمل ضخم الحجم ، جمعت مواده تجميعــا دون عنايــة فى التنسيق والاختيــار والترتيب · وهو لا يقدم مساهمة تستحق الذكر ·

E. Carette, Recherches sur les origines et les migrations des principales tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie, sur exploration scientifique de l'Algérie, III, 1853.

كتــاب يمثــل مجهــودا كبيــرا فى البحث وترتيب المواد ، وهو لا يــزال مرجعا مفيدا لمــن يهمه الموضوع ، ولا سيما الخريطة المرفقة به ·

J. Despois, l'Afrique du Nord (Collection géographie de l'Union Fraçaise. T. I.) 1949.

عمل يعطى فكرة واضحة عــن الجغرافيا الطبيعيــة والبشرية لبلدان المغرب · والكتــاب يحتوى على قائمة كبيرة من المراجع · والقســم الثانى منه يعالج الصحراء ·

Ch. Dichl, l'Afrique Bysantine, Histoire de la domination Bysantine en Afrique (533 - 709) , 1890.

كتاب كبير القيمة ويحتفظ بكثير من جدتــه فى هذا المجال الذى لم يحظ بعنــاية الباحثين · ولكنه مع ذلك يحتاج الى نظرة نــاقدة متفحصة ممن يريدون الاستفادة منه ·

Four - Biguet (Général) l'Histoire de l'Afrique Septentrionale sous la domination des Arabes, 1905.

كتاب متوسط الحجم حسن المادة والترتيب ويمتاز بالتحرى فى ترجمة النصوص العربيــة

واستعمالها ، حيث كان الكاتب ذا معرفة طيبة بلغتنا .

H. Fournet, les Berbères, Etude sur la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes, 2 vol. Paris, 1875-1881.

كتاب اكبر حجما من الكتاب السابق ويضم وثائق ونصوصا مترجمة او مختصرة من اللغة العربية بدون كبير عناء فى التحرى . وهو يعالج تاريخ المغرب حتى رحيل المعز لدين الله الى القاهرة . ويلاحظ على الكتاب ايضا ضعف الربط وقلة التسلسل . والكمية فيه لا تغنى عن النوع . والباحث الذى تتوفر لديه امهات الكتب العربية ويمكنه استعمالها يمكنه ان يستغنى عنه .

E. F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, Payot, 1952.

كان هذا الكتاب قد نشر معظمه فى مجلة Revue Africaine تحت عنوان

Considérations sur l'Histoire du Maghreb

ثم طبع الكتاب تحت عنوان

les Siecles obscures du Maghreb

فى سنة ١٩٢٧ ، واعيد طبعه فى سنة ١٩٣٧ . والكتاب ، مثل كاتبه ، العلامة جوتيه ، يتمتع بشهرة خاصة بين الباحثين فى تاريخ افريقية الشمالية . ويمتاز الكتاب الذى نقح عدة مرات بنظرة نفاذة تتجاوز ما يستخلص من النصوص الى اعماق الماضى السحيق ، وكذلك يمتاز بما يشتمل عليه من المحاولات الجرئية ، التى قد لا يوافقه الكثيرون عليها للتركيب والتقريب بين التيارات والحوادث . والكتاب يقدم كثيرا من الحلول الافتراضية لمشاكل تعوزنا الوثائق بشانها ، وكل ذلك مع احترام لقواعد متشددة فرضها الكاتب على منهاجه فى البحث .

S. Gsell, l'Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, 8 vol. : I: Les conditions du développement Historique (1913) ; II l'Etat Carthagenois, 1918; III Histoire militaire de Carthage, 1918 ; IV Civilisation Carthagenoise, 1920 ; V Organisations sociale, Politique et Economique, 1927 (2ᵉéd. 1929), VI les Royaumes Indigènes, vie matérielle, Intellectuelle et morale, 1928 ; VII la République Romaine et les Rois Indigènes, 1928 ; VIII Jules César et l'Afrique. Fin des royaumes indigènes 1928.

كتاب نادر المثال فى غزارة المادة والتعمق فى البحث ويمتاز بالعرض الشيق والتحليل النفاذ. ولكن البحث العلمى قد تجاوز الآن بعض اقسامه. ونحن نشير على من يهمه الامر بتكميل اطلاعه على الجزء الاول بمراجعة الكتابين التاليين :

P. R. Wulsin, The Prehistoric Archeology of North Weat Africa, Harward university, 1947 ; M. Almagro Basch, Prehistorica del Norte de Africa y del Sahara Espagnol, Barcelone, 1946.
St. Gsell, Atlas Archéologique, 1911.

كتاب متخصص فى المعالم والاثار القديمة ولكنه يتناول ايضا العصر الاسلامى . وهو ذوفائدة كبيرة للباحث المتعمق فى آثار الشمال الافريقى فى هذه العصور .

St. Gsell, G. Marçais, et G. Yever, l'histoire de l'Algérie, 1927.

كتاب لا يزال من أحسن المؤلفات التى تعالج تاريخ الجزائر فى جملته . وكان القسم الذى يتعلق منه بالعصور القديمة قد نشر قبل ذلك فى سنة ١٩٠٣ تحت عنوان
l'Algérie dans l'Antiquité

H. R. Idris, la Barbarie orientale sous les Zirides, Paris 1962.

دراسة يمكن القول بانها ستظل وقتا طويلا من ضمن المراجع الاساسية فى الموضوع · وهى تمتاز بالمنهج المحكم وبما تشتمل عليه من التفاصيل الدقيقة فى الحياة الاقتصادية والثقافية الى جانب النواحى السياسية والعسكرية فى عهد الزيريين فى افريقية (تونس) · واما شئون المغرب الاوسط تحت ملوك بنى حماد ، فان المؤلف قد اكتفى بنظرات سريعة عليها · وهو لا يمكن ان يلام على ذلك ، حيث ان عنوان الاطروحة يحدد موضوعها بوضوح ·

P. Jalabert, Histoire de l'Afrique du Nord, 1945.

كتاب ضعيف المادة ضحل التحليل وليس له اية قيمة علمية ·

Ch. - André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 2 vol. : (I. des origines à la conquête arabe (647) ; II de la conquête arabe 1930) 1968 (1949)

كتاب كبير الفائدة يسمح باخذ فكرة تركيبية وافية عن تاريخ افريقية الشمالية ، خصوصا للقارىء الفرنسى وقد اعتمد المؤلف لتحرير هذا العمل على جميع الوثائق التى اكتشفت حديثا ، ولو أنه ـ كما هى الحال فى كل

عمل تركيبى من نوعه ـ لا يحيل الى المراجع التى ياخذ منها ، وهو أمر يحرم القارىء من متعة المقارنة والمراقبة ومن بعض الفائدة أيضا · ويؤخذ على الكتاب فى مجموعه قلة التوازن بين مختلف اقسامه والتركيز على العصور القديمة خصوصا ، على حساب العصور الاسلامية · ويكفى أن نذكر هنا ، مثلا ، بان المؤلف لم يكرس فى هذا العمل لدولة بنى حماد (حوالى قرن من الزمن) سوى اربع صفحات · ثم ان افريقية الشمالية لا تزال تحمل فى الطبعة الاخيرة المنقحة اسم « افريقية الشمالية الفرنسية » ·

G. Marçais, les Arabes en berberie du XI^e^ au XIV^e^ siecle, 1913.

كتاب يعالج بكثير من الدقة والاستقصاء (اطروحة) غزو بنى هلال وتوسعهم · وهو من الاعمال التى لا يستغنى الباحث عن الرجوع اليها فى تاريخ هذه الفترة المضطربة من حياة المغرب·

G. Marçais, la Berberie musulmane au moyen age 1946

يمثل هذا الكتاب المتوسط الحجم ما يقرب من ثلاثين سنة قضاها المؤلف فى البحث والتنقيب والتامل فى تاريخ افريقية الشمالية فى العصور الوسطى · والكتاب مكتوب باسلوب علمى ولكنه غير ممل ويسود مختلف اقسامه تنظيم للمواد وتوازن فى توزيعها ·

E. Mercier, l'Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française, 3 vol 1888 - 1891 .

هذا العمل يمثل مجهودا فرديا منقطع النظير فى الموضوع ، ولا سيما اذا اعتبرنا ان هذا الكاتب كان يعمل فى قسنطينة ، وبالتالى ، بعيدا منقطعا عن مكتبات العاصمة ومتاحفها وغير ذلك من مصادر المعلومات التى لا يستغنى عنها الباحث · والكتاب غنى بالمعلومات المختلفة القيمة ويعتبر من الامهات التى استفاد منها كثير من الكتاب الفرنسيين ، على أنه اصبح الآن قديما وتجاوزه الوقت ·

L. Mouggu, vue générale de l'Histoire berbère, Alger, 1950.

كتاب يعرض المعلومات فى ترتيب علمى محكم ويعتمد على وثائق حسنة ولكنه يدافع عن عدد من النظريات بحجج ضعيفة ·

E. Pellissier, mémoire historique et géographique sur l'Algérie, 1844.

يشتمل على دراسات لا تـزال لهـا بعض القيمة عن الحملات التى شنها الاسبان والايطاليون والانجليز والفرنسيون على بلاد البربر ٠

تلك رزمة من الكتب اخترناها من بين مئات مـن الكتب والمنشـورات التـى تحتـوى علـى مساهمات تختلف قيمة كـل منها عـن الاخرى ، بقصد تقديم نموذج يمثـل الاعمال التى تعـالج مختلف العصـور ٠ وغيرى قد يضيف الـى هذه القائمة او يحذف منها ، ولكننى اعتقد انهـا فى مجوعها تشكل العمود الفقرى لمساهمة المؤرخين والجغرافيين الفرنسيين ٠ وكمـا يلاحظ ، فـان بعض هذه الاعمال يتناول التاريخ العام لشمـال افريقية او للجزائر ، والبعض الآخر يتناول حقبا معينة ٠ ولكن هذه القائمـة لا تشمل الكتب التى تتخصص فى نواحى معينـة ، مثل تـاريخ الفن والحفريات الخ ٠٠ ، كما انها لا تشمل الدراسات التـى ظهـرت فـى الدوريـات وتعـالج مختلف الموضوعات ٠

الاسلوب والمنهج

كان المترجمون فى الجيش والادارة (مثل فيـرو ودو بارسيفال) والصحـافيون واشبـاه الصحافيين اول مـن تفتحت اعينهم الى اهميـة تاريخنا وتصدوا للكتابة عنه بمحصولهم العلمى المتواضع فى المراحل الاولى عقب الاحتلال ٠ وقد ترك لنا فيرو ، مثلا ، دراسة لا تخلو من قيمة عن مدن ولاية قسنطينة ، كما وضع دوبارسفال (وهو الذى تولى ترجمة معاهدة تافنا) دراسات منها رسالة عن تاريخ العرب تقع فى جزأين ٠ وقد قام عدد كبير من الصحافيين فى بداية عهد الاحتلال بنشـر استطلاعات ومقـالات عديدة فى الصحف الجزائريـة والفرنسية ٠ ونحن ندين بـالفضل ، مثلا ، لبربروجر (محرر المجلة الافريقية) بالتعرف على موقع اشير والفات نظر علماء الحفريات الى اهمية خرائبها ٠

وفى مـرحلـة تـاليـة ، اكتشفت الادارة الفرنسية فى الجزائـر ابعـاد التراث الثقـافى العربى ، ولا سيما ما يتصل منه بالتاريخ ، كما ادركت اهميـة فهم هذا التراث لارساء قـواعد الاستعمـار على اسس متينـة ، فأخذت تشجـع ترجمة بعض الكتب العربية الى الفرنسية ٠ وقـد كان مـن بين الاوائل ومن اكبر العاملين فى هذا الحقل ، المستشرق المعروف ، البارون دوسـلان الذى حقـق القسم الذى يتصل ببلاد البربر مـن كتاب العبر لابن خلدون ونشره فى جزأين ، ثـم وضع ترجمة له الى اللغة الفرنسية (١) ٠ وكذلك نشر دوسلان ايضا كتاب المغرب فى ذكر افريقية والمغرب لابى عبيد البكرى فى فترة تالية وترجمه الى الفرنسية (٢) وفى أواخر القرن كان عدد من امهات الكتب العربية فى التاريخ او من النصوص المقتبسة منها ما يتعلق بالجزائر والمغرب مترجما وتحت تصرف الباحثين ٠

وقد كـان المستشرق فانان E. Fagnon الذى تـرجم عددا مهمـا مـن النصوص ، وفـى مقدمتها تـاريخ الموحدين والحفصيين للزركشى (٣) ، والنصوص التى تتعلق بالمغرب فى الكامل

1) نشر النص المحقق مع الهوامش فى سنة 1848 ، ثم ظهرت الترجمة الفرنسية خلال الفترة بين 1952 ـ 1856
2) ظهرت طبعة الجزائر المرفقة بالترجمة فى سنة 1911 ـ 1913
3) قسنطينـة ، 195

لابن الاثيـر (١) ، والنصوص التى نشرهـا فى مجلد تحت عنوان « نصوص غير منشورة » (٢) ، فضل كبير فى توسيع نشاط الترجمة التى تحسنت الآن واصبحت اكثر دقـة •

ومع ذلك كله ، فان المؤرخ الجاد ، لم يكن فى استطاعته ان يكتب تاريخ الجزائر فى العصور الاسلامية بالاعتماد على الاعمال المترجمة وحدها، حيث كـانت معظم المصادر لـم تتنـاولها حركـة الترجمة •

وكذلك ظهرت فى اوائـل القـرن الحـالى مشكلة كان مـن المفروض ان يتعـرف عليهـا المؤرخون منذ البداية وهى : هل لمؤرخ ان يكتب عن افريقية فى العصور الوسطى العليا ، اذا لم يكن مستعربا ويملك الوسيلة الضرورية (اللغة) للبحث والتحقيق ؟

وهذه المشكلـة ، نجد رجعيا أنهـا تهمنـا نحن المغاربة بصفة خاصة ، لان التاثير (ان لـم نقل التوجيه) المباشر وغير المباشر الذى تتعرض لـه الدراسات التاريخية من الادارة السياسيـة والاكاديمية والراى العـام الفرنسى والناشرين والمناخ الثقافى بصفة عامة ، تجعلنـا نفقد حتى الحد الادنى مـن الضمانات والمراقبـة العلمية ، متى كان المؤرخ فى حل من الرجوع الى الاصول العربية والاحالة الى مراجعه • واذا كان من بين الباحثين ، مثل جوتيه ، مـن فرض على نفسـه منهجا علميا متشددا يراعى الدقة والامانة ، فان هذه الفئة تشكل اقلية صغيرة ، مع الاسف •

ومن جهة اخرى • هل يترك تاريخ افريقية الشماليـة فـى العصـور الـوسطى الاسلاميـة للمستعربين دون سواهم – مع العلم بأن تكوين المستشرق يختلف عن تكوين المؤرخ • وهذا فضلا عن أن المستشرق قلما يترك له عمله الذى يتصل بالنصوص ، وقتا لمعالجة المشاكل التاريخية •

وهكذا كان يبدو وكان المشكلة حلقة مفرغة لا يدرى أحد أين طرفها (٣) •

على أن هذه المشكلة النظرية وجدت حلها عمليا اذ مضى الكتاب الذين لا يحسنون اللغة العربية ، يكتبون فى التاريخ ، وذلك فى الوقت الذى ظهرت فيـه نخبـة من المؤرخين الذيـن مكنتهم معرفتهم باللغة العربيـة من استقـاء مادتهم من المصادر مباشرة •

وفى مقدمة هذه الفئة ، بـل وعلى رأسها ، العالم جورج مارسى ، الذى ندين له بأهم ما لدينا مـن الدراسات عن تـاريخ الفن الاسـلامى فى المغرب وبعدد مـن الكتب التى تتنـاول بكل مـا يشرف العالم من الجد والاستقصاء حقبا كانت مغلقة من تاريخنا •

ولكن التضلع فى اللغة العربيـة والتفرغ لتـاريخ المغرب ، لم يكن دائمـا ، مـع الاسف ، مرادفا للولاء للثقافة العربية ، أو حتى وسيلـة لفهم التاريخ فهما موضوعيا مجردا من الاغراض•

والحـق ان هذا العـالم آلذى تجد أعمـاله تقديرا شاملا بين المهتمين بتاريخ المغرب (ومـن

---

1) الجزائـر ، 1901

2) Extraits inédits relatifs au Maghreb, géographie et Histoire Alger, 1924.

3) عانى جوتيه من هذه المشكلة شخصيا وكرس لها فقرة فى كتابه المذكور حدد فيها موقفه . راجع le passé de l'Afrique du Nord, P. 51.

بينهم بعض علماء المغرب ايضا) ، لا تختلف نظرته الى المغرب ، ولا يختلف تفسيره العام لتاريخ هذه البلاد عن تفسير أجهل الكتاب الفرنسيين بالتاريخ والثقافة المغربية .

لماذا ؟ أهي العنصرية وحدها ، أم تضاف الى العنصرية أغراض اخرى مثل الرغبة فى كسب الشهرة بين الجماهير والسعى لتسخير العلم لاهداف السياسة الاستعمارية ؟

مهما تكن الدوافع والاسباب ، فان جورج مارسى تجنى بالقلم على ثقافة هذه البلاد وعلى الشعب المغربى ، كما اعتدى عليه غيره بالسيف ، وذلك فى اكثر من موضع فى كتبه . ونحن ناخذ هنا اشهر كتبه واكثرها تدعيما لسمعته العلمية ، وهى اطروحته التى سبقت الاشارة اليها والتى تشتمل على الخطوط العريضة لنظرياته التى تبلورت فى اعماله اللاحقة . فما هو رأى الكاتب فى هذا الشعب الذى يصر على تسميته بالبربرى ، ياترى ؟

يقول مارسى : انه « تنقصه الوحدة والاستمرار » ونحن « لا نكتشف فيه شيئا يمكن مقارنته بالمجهود الشاق الواعى (...) الذى يدفع الشعوب الاروبية نحو تحقيق مثال اجتماعى ، أو لتكوين دولة أكبر » (١) .

ويمضى الكاتب فيقول :

« وبلاد البربر لا يبدو أن فى امكانها التقدم بوسائلها الخاصة ، بل يجب عليها أن تضع نفسها وراء عربة اخرى لتجرها . فان قضاء وقدرا يمنعها من أن تكون الاتابعة أو خاضعة لغيرها . فهى مستودع لقوى لا التحام بينها (وبالتالى) فهى تحتاج الى تلقى النفوذ الموجه من الخارج : من الفنيقيين أو من الرومان ، أو من الشرق أو من أسبانيا » .

والمؤلف يصطنع الخجل ، فلا يضيف فرنسا الى قائمة مصادر النفوذ المحتملة ، ولكن ذلك مفهوم ضمنيا وبحكم الامر الواقع !

وكانما خشى الا يستخلص قارئه جميع النتائج التى يريد أن يستخلصها من ملاحظاته ، فتكفل هو بالقيام بهذا العمل واردف فى شكل خاتمة يقول .

« وما أشد ردود البربر ضد التقدم الذى يفرض عليهم ! وكم تساوى كلمة « البربر » معناها باللغة اللاتينية (أى الهمج) !

« وفى المعركة الهائلة التى تشنها بلاد البربر على الحضارة ، كم من مرة كان حظ البربر فيها الهزيمة والاندحار ! » (٢) (علامات التعجب مرقومة فى النص الاصلى)

والقارىء الحسن النية سيندهش بدون شك لهذا التهجم الخالى من كل تحفظ فى كتاب علمى وفى موضوع بعيد عن النزاع بين الجزائريين والاستعمار . بل ان البعض قد يتساءل فى براءة :

كيف يجهل هذا الكاتب ان سكان هذه البلاد هم الذين فتحوا الاندلس ومعظم جزر البحر الابيض المتوسط ، وان كتامة (هذه القبيلة البربرية) كانت ارضها منبت الدولة الفاطمية ،

1) راجع المصدر المذكور 1
2) نفس المصدر ، ص 2

G. Marçais, les Arabes en Berberie, P. 1.

وان القبيلة هى التى حملت لواء الدولة لفتح مصر والشام ، وان صنهاجة اقامت دعائم حضارة من اعظم ما شهده البحر الابيض المتوسط وان زناتة اقامت عددا من الدول فى المغرب بدات بدولة عطية بن زيرى ، وان امير المؤمنين يوسف بن تاشفين الذى بسط سلطان المرابطين على المغرب والاندلس ، هو نبتة « اصيلة من تربة هذه الارض ، وان ابن تومرت وعبد المؤمن واضعا اركان دولة الموحدين ، لم يكن لهما ولاجدادهما وطن غير هذ الوطن ، وذلك على الرغم من جميع شجرات النسب المختلقة !

ولكن المشكلة هى ان جورج مارسى ، مثل غيره من العنصريين ، لا يجهل هذه الامور ، بل هو يعرف تفاصيلها كما لا يعرفها الا الخبراء ·

ان المنطق واعتبارات الكرامة تفرض علينا الا ندع ما تنطوى عليه كثير من المساهمات الفرنسية من الاغلاط والانكار المغرض لماضينا يتسرب كالسموم الى عقول الناشئة والمثقفين الذين لم يتسلحوا بالمعرفة وطرق النقد التى تسمح لهم باكتشاف التزييف والتجنى على وطننا ·

ضرورة اعادة التقييم

قد تبدو فكرة اعادة تقييم المساهمة الفرنسية فى تاريخنا فكرة غريبة لاول وهلة · فان الباحثين فى كل بلد يتناولون بالدرس ويكتبون تواريخ جميع البلدان الاخرى ويقعون فى اغلاط ايضا ، دون ان نسمع ان واحدا من هذه البلدان شعر بالحاجة الى تقييم المساهمة الاجنبية فى تاريخه ـ فضلا عن اعادة تقييم هذه المساهمة · فالهند (وباكستان) التى ظلت تحت الاستعمار البريطانى نيفا وثلاثة ارباع القرن (أقل منا قليلا !) ، لم تقم فيها دعوة لمراجعة التاريخ الذى سجل فى العهد البريطانى والعمل على أسس جديدة لتنمية تاريخها القومى · والهند الصينية وافريقية الغربية وغيرها من المستعمرات السابقة كلها كانت فى وضع مماثل لوضع شمال افريقية·

وقد يقال ايضا ان فكرة اعادة تقييم المساهمة الفرنسية تعبر عن نزعة وطنية ضيقة ، وانها حتى لو وجدت ما يبررها نظريا ، فان تطبيقها عمليا يكاد يكون فى حكم المستحيل ، بسبب ضخامة هذه المساهمة وشمولها ·

ونحن لتوضيح الفكرة ينبغى ان نبين اولا مالا تستهدفه · فهى لا تدعو الى أى تحريم للكتب التى وضعها المؤرخون الفرنسيون عن تاريخ بلادنا · وزيادة على ذلك ، فهى لا تنادى بالاستغناء عن هذه المساهمة وبدء العمل من الصفر لتنمية تاريخنا القومى · واعادة التقييم يعنى ضمنيا الاعتراف بقيمة نسبية لجهود الباحثين بقدر ما يكون هذا المجهود نزيه الدوافع وبقدر أهمية النتائج التى كشف عنها بالنسبة الينا وفى حدود استجابته لاولويات التنمية الثقافية فى بلدنا ·

واعادة تقييم المساهمة الفرنسية فى تاريخنا عملية تفرضها عدة اعتبارات ، يمكن ان نوجز اهمها فيما يلى :

١ ـ ان النظام الاشتراكى الذى اختارته الجزائر والذى حطم معظم الاطارات الاجتماعية التقليدية بما فى ذلك نظام الملكية الزراعية ، لا يمكن ان يهمل قطاعا ثقافيا حيويا له اوثق الصلة بشخصيتنا ، ونعنى بذلك تاريخنا القومى· فمما لا ريب فيه ان هذا التاريخ لم يكتب حتى

الآن بالطريقة التى تتلاءم مع هذا التطور ومع النظرة الاشتراكية الى الاشياء • ومجهود اعادة تقييم ما كتب باللغات الاجنبية عن تاريخنا ، مجهود يخرج عن نطاق امكانيات الافراد من الباحثين ، ولذلك فهو يحتاج الى اهتمام قومى يمنح العمل لتخليص هذا القطاع من آثار الاستعمار الثقافى مكانة عالية بين او لويات التنمية الثقافية •

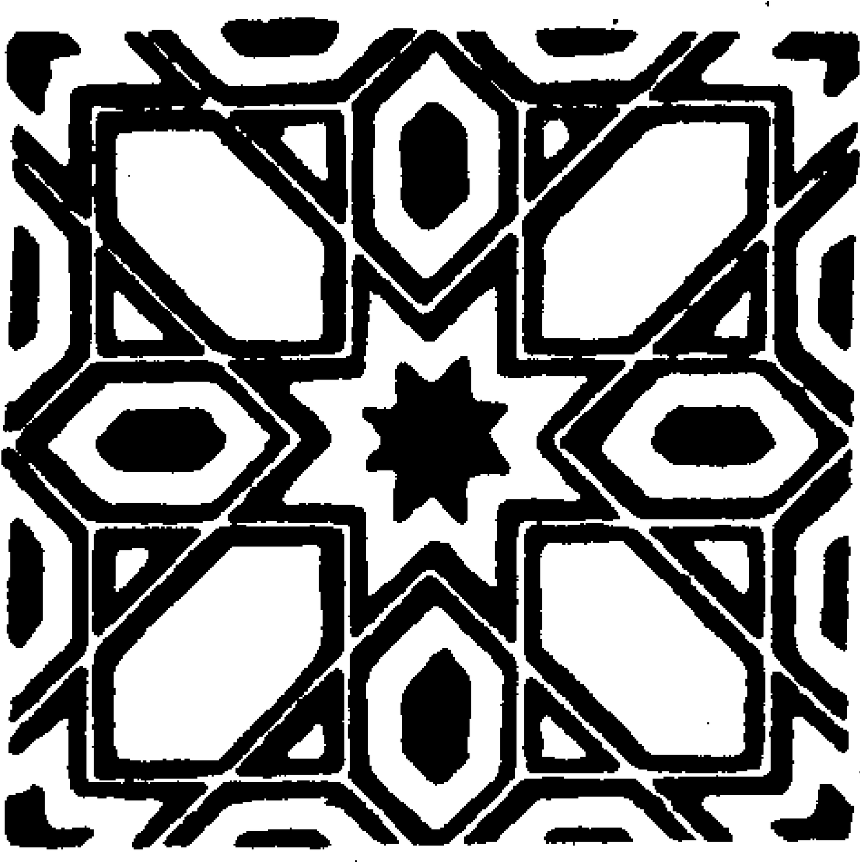
٢ ـ ان الشعوب التى قبلت المساهمة الاجنبية بدون مراجعة هى ، اما شعوب لم يمس استقلالها وكرامتها السياسية ، او هى من الشعوب التى رضيت نهائيا بمبدا « ازدواج الشخصية » ، ذلك الانحراف الذى يصعب معالجته فى الافراد ، ولكنه اصبح الآن اساسا شائعا للتنمية الثقافية في عدد من المجتمعات المتطورة • واما الجزائر ، فقد شفيت من هذا الانحراف بفضل الصدمة التى هزت كيانها فى ثورة شاملة • فاذا رضيت شعوب افريقية الغربية والهند ، وخصوصا أمريكا اللاتينية ، بادماج تراثها الثقافى القومى فى تيار الثقافة الغربية ، فذلك لانها قامت بعملية المواءمة والتوفيق الضرورى بين هذين التراثين فى اطار الشخصية المزدوجة • ولكن الجزائر التى اختارت مبدأ « الاصالة الشخصية » ، قد التزمت نحو نفسها ضمنيا بهذا الاختيار ببذل مجهود لفرز جميع العناصر التى ستشكل اساسا لنهضتها الثقافية المقبلة •

٣ ـ ومن هذا الاعتبار ينبثق اعتبار آخر ، فرعى ولكنه مهم ، وهو ان كثيرا من المستعمرات سابقا (والامثلة السابقة صالحة فى هذا السياق) قد اختارت لغة المستعمر السابق لتكون لغتها الوطنية ، بينما أبت الجزائر ، فى هذا المجال ايضا ، الا أن تعود الى اصلها • وانطلاقا من هذا الاختيار ، فان اعادة التقييم عملية يحتمها التحول اللغوى نفسه •

٤ ـ جرى المؤرخون الغربيون على تنسيق حوادث تاريخ المغرب خارج السياق الثقافى الاسلامى التقليدى ، بحيث يكون التاريخ المعروض قريبا من نمط التاريخ الدنيوى الذى ألفه القارىء الاروبى • وهذا المنهج ، اذا كان لا يخلو من بعض المزايا من حيث الشكل ، فهو فى الحقيقة يضع عقبة فى طريق فهم الاتجاه العام للتاريخ ، حيث يسلخ الحوادث من مناخ الثقافة الاسلامية ويعزلها عن الجو الفكرى الذى جرت فيه • فان القارىء الاروبى ، مثلا ، يفهم ان انطلاق بنى هلال لغزو المغرب ، كان سببه قرارا سياسيا اتخذه المعز بن باديس بالاستقلال بالمغرب عن الخليفة الفاطمى • وهذا صحيح من الناحية الشكلية (وخروج امير تابع عن طاعة ملك من الاحداث الشائعة فى التاريخ الاروبى وغيره) • ولكن هذا التعليل غير كاف لفهم صلب المشكلة وابعادها ، حيث ان السبب الحقيقى لهذا الحدث الذى كان من نتائجه تخريب الحضارة الزيرية ، هو تحول المغاربة عن عقيدة الشيعة التى فرضت عليهم فرضا ، الى مذهب أهل السنة ، حينما وثقوا من زوال نفوذ الفاطميين ، وشاع أن الملك نفسه كان على مذهب أهل السنة (سرا) •

كيف يستطيع المؤرخ الاروبى ان يقدم هذا التعليل ، لدى عرضه لهذا الحادث ، دون أن يحتاج الى بحث خاص للتعريف بمذهب السنة وعقيدة الشيعة ؟

وخلاصة القول ، ان العودة بتاريخنا الى مناخ التقاليد الثقافية الاسلامية ، يجب أن يكون من الاهداف الاساسية التى نتوخاها وراء مجهود اعادة تقييم المساهمة الغربية عموما والمساهمة الفرنسية ، خصوصا •



موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ المغرب العربي

ادار الندوة
عثمان شبوب

أود أولا ان أشكر الاساتذة الافاضل الذين لبوا دعوتنا وساهموا معنا فى هذه الندوة التى تطرق موضوعا على غاية من الاهمية بالنسبة لتاريخنا ، وهو موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ المغرب العربى ، وأضع أمامكم للنقاش ثلاثة مسائل يدلى فيها كل واحد منكم برأيه ثم نجرى المناقشة ان كان هناك ما يستوجب ذلك ٠ وفيما يلى هذه المسائل :

1 ـ كيف نشأ الاهتمام عند المؤرخين الاوروبيين بتاريخ المغرب العربى ؟

2 ـ ما هى العوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية التى انطلقوا ومارسوا فيها كتاباتهم ٠

3 ـ ما هى الجوانب الايجابية او السلبية فى هذه الكتابات ؟

4 ـ ما هو المنهج الذى ينبغى اتباعه فى اعادة كتابة تاريخنا من جديد ؟

الاستاذ مصطفى زبيس ٠٠٠ متفقد الآثار بتونس ٠

نشأت فكرة التاريخ لدول المغرب العربى عند المؤرخين الاجانب غالبا لظروف سياسية ولخدمة سياسة معينة ، اى السياسة الاستعمارية ٠ ولا يمكن ان نفرق بين من أخذ منهاجا موضوعيا وغيرهم ، لان العمل كان متجها الى تدعيم السياسة مهما كان الشخص الذى تعاطى هذه المهنة ، ففى ميدان الآثار بالخصوص كانت النزعة الاصلية التى وجهت جميع المجهودات هى ان هذه البلاد كانت بلادا تشبعت بالحضارة الرومانية ، ثم انقلبت عند مجىء العرب الى تحطيم هذه الحضارة الرومانية وغالبا لم يكن رأيهم الا المرور مرورا عابرا على هذه الفترة الطويلة ، وكان رأيهم الاستنتاج وراء الاستكشافات التى عثروا عليها بعد التنقيب والبحث لاثارة أولى الامر من المستعمرين لتعاطى السياسة المعينة ، فمثلا اذا نظرنا الى الفسيفساء ، يقول هؤلاء ان الفسيفساء ازدهرت فى هذه البلاد ايام الرومان وبعدهم ، لانهم يحكمون على أنها انقطعت عند مجىء العرب وهذا غلط من الناحية المنطقية ، أولا وغلط من ناحية الواقع ٠

من الناحية المنطقية هذا لان اصحاب الصناعة ـ الفسيفساء ـ كانوا من الاهل من سكان البلاد الذين كانوا فى انعزال سياسى ، فكانوا يعملون لهؤلاء وهؤلاء لاغراض مالية وعيشية لكسب عيشهم ، فعندما تتبدل الاوضاع السياسية فالمعمل او المصنع الذى كان يصنع فيه الفسيفساء او غيره كان دائما اعماله متواصلة واصحابه فى مبانيهم ، وكان الصانع يتعاقب مع صناع آخرين من ابنائه ومن الآخرين المتواردين بعده ، ولم يكن هناك سبب لانقطاع هذه الصناعة من جراء تبديل الوضع السياسى ، من الناحية الواقعية نجد فى كثير من الاماكن قطع من الفسيفساء ازدهرت ايام العرب وتمادت الى مدة طويلة فقد وجدنا فى المهدية قاعة من قاعات القصور الفاطمية او الصنهاجية يعنى القرن 4 و 5 هـ وجدنا هذه الفسيفساء فى مكانها وعلى مساحة جيدة ولا يمكن ان تكون من آثار الرومان او البيزنطيين ، وفى رقادة وهى مدينة انشأها الاغالبة فى القرن 3 هـ ، هناك قاعة من الفسيفساء وهناك امكنة استعملت فيها فسيفساء جلبت من امكنة اخرى ، هذا ربما تضطرب من أجله الافكار الا أن القاعة التى هى ما زالت موجودة تدل على أن هذه الفسيفساء استمرت بعد الرومان وبعد البيزنطيين ، وقد عثرنا على أناس كانوا يبحثون هنا فى تونس فى 1947 ، 1948 فى ناحية جبل مروج فى ضيعة من

ضيعات اصدقائى فوجد الباحث الاثرى فى هذا المكان وكان مبدئيا قرر ان هـــذا المكان انما هو مكان لا يمكن ان يكون فيه الا الآثار الرومانية ، واذا به فوجيء بالعثـور على كميـــات من النقود الاغلبية ، فما جعل هذا بدل ان يضم هـــذا الى مستكشفاته ، أخذ هذه الكمية ووضعها جانبـــا حتى تبعد عن أصل البحث ، فمثل هذه الاعمال انما تؤدى الى قلب الحقائق والى البعد من الحقيقة الموضوعية المجردة فى البحث ، ومثل هذه الحالات كانت موجودة منذ ان تدخل الباحثون فى هـــذه البلاد اما للبحث عنالآثار وأما للبحث عن التاريخ .والى جانب هذا توجد النزعة من طرف العسكريين والسياسيين ورجال الدين ، هـــذه النزعة كانت تهدف الى جعل هذه البلاد دائما وأبدا بلادا منجرة عن لاتينية والحضارة الرومانية بصورة عامـــة ، هـــذا كان مبدؤهم ، وعلى هـــذه الاسس كانوا يعملون وكانوا يبحثون كأنهم يقدمون النتيجـــة على البحث ، وكانالبحث يستمر فىتدعيم وجهات هذه النظرة العنصرية ، واذا وجد من بين هـؤلاء من ينازع هذا المبدأ او من يناصر الحـــق فكانت هناك هيئات عظيمة تحطمه ، ولعلكم تتذكـــرون وانه فى سنة 1940 او 1942 كان هناك أب يقـال له الاب بيريه فالف كتابا عن الحضارة الاسلامية وانتشارها فى العالم الغربى وكان بحثه ممجـدا من أوله لآخره لهذا المبدأ ، ولكن لا يمكن لاحـد انيجد هذا الكتاب ،فقد غمر ، وفقد منذ صدوره، ولم أعثر عن هذا الكتاب الا فى نص تحليـلى فى مجلة من المجلات ، فهذه النزعة لم تكن الا نزعـة أصيلة متماشية مع السياسة التى كانت هناك ، ولهذا كثيرا من هؤلاء الباحثين – على انهم عملـوا عملا طيبا ومستفيضا فى نشر كثير من المعلومات وكثير من المصادر ، فلا نحكم على هؤلاء بالبطلان التام ، فهناك من الكتب ما يفيدنا الا اننا معشر الجيل الحاضر لابد ان نعيد النظر فى هذه الكتب وفى هذه النظريات وينفى ما يمكن الغاؤه ونزيل ما هو باطل ومخالف للحقائق التاريخية وتاريخنا بالخصوص .

الدكتور محمد طالبى – استاذ بكلية الآداب – جامعة تونس :

كيف نشأ اعتناء الغربيين بالتاريخ الاسلامى ، يرجع ذلك الى قرون بعيدة جدا ، وهذا الاعتناء فى الحقيقة لم ينقطع أبدا طوال العصور بالنســـبة للغربيين فيما يخص الامم الاخرى لان الاتصـــال بين المسيحية والاسلام كان متواصلا منذ الفتـح الاسلامى الى يومنا هذا ، فريمو جولو الاسـبانى الشهير كان قام بتنشئة أولاد الامويين ، ويمكن ان أضرب امثلة عديدة ، اذن كان الاتصال دائما وأبدا موجودا بين الاسلاموالمسيحية التى أصبحت فيما بعد العالم الغربى ، لكن نشأت حركة جديدة فى هذا الميدان يرجع ذلك فيما أظن الى القـــرن السابع عشر عندما اخذ الغرب يشعر بقـوته من ناحية وبضعف الطرف المقابل – الاسلامى – من الناحية الاخـــرى ، فالغرب قد اكتشف ضعف العالم الاسلامى فى القرن السـابع عشر فانقلبت الاوضاع والصلات التى كانت موجـــودة والتى كانت صـلات تبـادل وتعارف اصبحت صـلات

دراسة من طرف الاختصاصيين لحضارة عدوها قد انقرضت أو أخذت فى التلاشى . هذا الموقف ادخل اختلافا فى النظر . فالغربيون اخذوا شيئا فشيئا يشعرون لا بقوتهم المادية فقط ، بل أيضا بقوتهم الفكرية وصادف ذلك القرن الثامن عشر نشوء فكرة الرقى والنور والتقدم والتطلع الى الحضارات الآفلة فاعتنى بعض علماء الغرب فيما اعتنوا به من جملة المواد بما سموه بالشرق . وهذا الشرق يمتد من اليابان الى البلاد الاسلامية ، ونشأت بأتم معنى الكلمة مدارس الاستشراق فى كامل البلاد الغربية وأسست المؤسسات واصدرت الاموال لذلك وأسست المكتبات وأخذوا يعتنون بالحضارة الاسلامية من جملة الحضارات التى هى جديرة بالاعتناء والاهتمام ، فاعتناؤهم اذن بهذه الحضارة ناشىء عن فكرة علمية عن تقدم علمى اخذ يخرج بالعلماء من نطاقهم القومى الضيق الى نطاق عالمى ، هكذا اذن نشأ الاعتناء ، ونجد من بين هؤلاء المستشرقين من بذل الجهود الجبارة لاكتشاف كثير من البحوث العربية التى غفلها اصحابها فأخذوها بالنشر وبالبحث والقواعد مؤلفات فيما يخص كامل مظاهر الحضارة الاسلامية . ثم كان القرن التاسع عشر وصادف ذلك القرن التوسع الغربى بالقوة طبعا وبالعنف فى كثير من الاحيان الى خارج حدوده ، فقسمت الاراضى بين أمم كانت تحتل الركب التاريخى كما لفرنسا وكانت تمتاز بقوة مادية وفكرية واحتل كل فريق المنطقة التى اعدت له بعد المقاسمة الشهيرة فى برلين سنة 702 أو 1872 ، طبعا هناك أناس كانوا قد اعدوا العدة من قبل وكونوا مدارس الاستشراق ، ثم وجدوا أنفسهم فى صلب الاقطار التى كانوا قد افردوها بعنايتهم ، فهذا الوضع التاريخى الجديد كان حافزا لهم ومنشطا للتنقيب بأكثر جدية واهتمام ، فاعتنوا بجغرافية بلاد مختلفة وحيوانها ونباتها واقتصادها واجتماعها ، وبتاريخها ، فأخذوا يكتبون تاريخ هذه البلاد . كل مؤرخ مهما كانت أرادته كى يصل الى الموضوعية يستحيل عليه ان يتخلص تماما من الملابسات الزمنية والاوضاع الاجتماعية التى يعيش فيها ،فالغربيون كانوا يشعرون بحكم قوتهم وحضارتهم بتفوق كبير بالنسبة لاهالى البلاد المحتلة ، طبعا فى هذه الصورة كان يعسر عليهم ان لا ينظروا الى هذا التاريخ نظرة تحليلية تمكن من تفسير الوضع الذى عليه هذه الامم المتخفلة على ضوء تاريخها . تلك هى المشكلة ، هم أرادوا ان يعللوا الوضع التخلفى الراهن بحكم تطور تاريخ هذه الامم قرأوا فى ذلك التاريخ تاريخا يؤدى الى التخلف ، فكانت هذه النظرة من هذه الزاوية تؤدى الى قراءة للنصوص لا تتفق وما اصبح عليه التاريخ اليوم ، لكن تلك القراءة فى عصرهم وفى ظروفهم وفى حياتهم كان من العسير جدا ان يتخلصوا منها ، والتاريخ دائما يجب ان يقرأ من جديد حسب الملابسات والظروف . لان التاريخ شعرا كان تأويلا واسئلة تلقى على الماضى ، فهذه الاسئلة التى تلقى على الماضى يجب ان تلقى بها اجوبة لما يخامر نفوسنا اليوم ، لذا يجب ان يكتب التاريخ دائما ونحن نحاول اليوم بفضل ما اكتسبنا من

تجربة فى الماضى ان نكون اكثر موضوعية ممن تقدم او لعل مهما بلغت جهودنا ومهما بذلنا من عناية فى هذا الصدد ، حكم المؤرخين فى المستقبل لعله لا يكون أقل شدة من حكمنا اليوم على من سبقونا ، اذن يحسن بنا عندما ننظر الى هذه الامور ان لا ندخل فى قراءة تاريخيه مدحية لماضينا لاننا اليوم نشعر بالنقص فنحاول ان نتلافى ذلك النقص بأن ننظر الى مرآة مجد نعتبره صافيا عظيما خالصا ،ونحرفهذا التاريخ تحريفا يجد السبب فيه أهواءنا اليوم كما فعل القدامى الذين حرفوه لاسباب ناتجة عن ملابساتوضعف، نحن هذا القيد نخشى ان نحرف تاريخنا أيضا اعتمادا على ملابساتنا فنكتب تاريخا مدحيا ، وهذا نجده فى كثير من الكتب فهى فاسدة تماما لانها تمجيد اكثر منها تثبت واعتناء ، اذن يجب علينا عندما ننظر الى هذا المشكل ، كيف كتب تاريخنا من طرف غيرنا وماذا يجب علينا ان نفعل فى تاريخنا ، يحسن بنا ان نقف موقف الاعتدالبدون تهجم على من سبقنا مهما كانت ظروفه وملابساته، وبدون ايضا سذاجة تجعلنا نؤمن بما كتبه كل غربى لان نكسب عليه هذا التقليص ، وفى نفس الوقت يحسن بنا ايضا ان نقاوم فينا النزعة المدحية بتحليلها بصفة علمية فنخرج من المأزق ونخطو خطوة اخرىفى طريقالموضوعية التاريخية حتى نصبح فى يوم من الايام نؤمن بأن التاريخ علم بأتم معنى الكلمة ، لا علم الدولة التونسية او الفرنسية او الروسية ، بل يجب ان يكون علما بشريا ، الذى يريد لنا سر هذه البشرية كيف مرت بمراحل عسيرة هائلة خطيرة شاقه وهى تسير الى الامام لان سنة الله ان تسير البشرية الى الامام كى يتم الخلق لان الخلق مستمر والكائن البشرى جعله الله متطورا وجعله يسير الى اكثر انسانية ، كى نصل اذن الى هذا يحسن بنا ان ننظر الى التاريخ نظرة علميةوان نضع دائما وأبدا الامور فى مستواها العالمى كى نخرج من التحزب الى شق دون شق والى التأويل العاطفى الذى يبعدنا عن العلم ٠

عثمان شبوب ــ أريد ان اسأل الاستاذ طالبى سؤالين . السؤال الاول : ما رأيه فى بعض المناهج التى استعملها المؤرخون الاوروبيون فى دراستهم لهذه المنطقة من المغرب العربى ، المنهج الاتنوغرافى مثلا ٠ والسؤال الثانى هل تتفقون مع الذين يقولون بان المنهج الماركسى هو أفضل منهج لاعطائنا تفسيرات دقيقة عن احداثنا التاريخية ٠

د٠ محمد الطالبى : الاتنوغرافى علم منفصل ليس بالتاريخ ، لان الاتنوغرافية تهتم بالعاداتوالاوضاع التى عليهامجتمع من المجتمعات فى يومه الحاضر . فاذن تصور الحياة الحاضرة فى أشكالها الاجتماعية وفى عاداتها ٠ وتقاليدها الخاصة ، والتاريخ يهتم بالماضى ، فهما اذن علمان مستقلان ، لكن الاتنوغرافيا قد تكون بالنسبة للمؤرخ من العلوم المساعدة كالآثار او غير ذلك من العلوم ، فالاوروبيون طبعا قد اهتموا اهتماما كبيرا بالاتنوغرافية وذلك امر طبيعى بالنسبة لهم لانهم قد وجدوا انفسهم فى بلاد جديدة وعوالم هامة يتعرف عليها . أما لاسباب علمية ٠٠٠ أو

لاسباب عملية لان هذا التعرف يعينهم على حسن سياسة تلك البلاد كيف يعاملون الناس ، كيف يجب ان يتفهموا عقول الناس حتى يحسنوا التصرف معهم باثارة أقل ما يمكن من المشاكل والقلق ، وحتى طبعا يتمكنوا من استثمار البلاد لصالحهم . عندما يحتلون بلدا من الطبيعي ان يحاولوا استثمار مجهوداتهم التى مكنتهم من الاستيلاء على مقاطعة من المقاطعات فالاتنوغرافية اذن بالنسبة اليهم علم هام جدا لانه علم ككل العلوم يمكن فيما بعد ان يبحث فى مقارنة عادات هذه المدينة وهذه المدينة ، والعيوب الاجتماعية والاخلاقية واللسانية وغيرها ، وعندما نجمع الملاحظات الاتنوغرافية لبلاد العالم فان يمكن فيما بعد ان نستنبط بعض القوانين العامة التى تتصل بالبشرية وفيما يخص أيضا الحضارة ، اذن هو علم مستقل اعتنوا به كثيرا لاسباب نظرية ولاسباب عملية ونحن اليوم فى كثير من الاحيان ندين لهم بالفضل الكبير فى هذا لان كنا نحس بمركب النقص الذى زرع فينا من تخلفنا ننقم نقمة كبرى على عاداتنا وتقاليدنا ولا نريد ان ننظر فيها ولا نريد ان نسجلها للتاريخ ، فمن بين بنى وطن المغرب كتب فى عاداتنا وتقاليدنا منذ قرن أو نصف قرن منا اعتنى بالبربر وعاش اوساطهم وصوروهم للعظمة . نحن لا نفعل ذلك ، فالغربيون اذن دبجونا بهذه الصفة بمجموعة من الوثائق الهامة التى اصبحت تاريخا ، فالمؤرخ اليوم عندما ينظر فى تاريخ القرن العشرين او التاسع عشر سوف يجد مجموعة من الوثائق حرر ودبج بفضل مجهودات هؤلاء الاجانب الذين عندما فتحوا البلاد وجهوا عنايتهم الى مختلف أوجه الحياة فى هذه البلاد .

السؤال الثانى : هذه الايام اصبحت من الوسائل التى تعاد وتكرر ، أى هل يكتب التاريخ كتابة ماركسية وما هى قيمة هذه الكتابة ؟

أظن ان الحرب بين الطرق التقليدية لكتابة التاريخ والطرق الماركسية بدأت تضع اوزارها فاليوم اصبحنا وكل ذى عقل يؤمن بذلك ان ماركس اتى بأشياء هامة وفتحت فى ميدان التاريخ بفضل الآراء التى ابداها ووجه البحث الى نواحى لم يكن الاعتناء بها كثيرا ، وكل منا اليوم مقتنع بتلك الفكرة الماكسية ، من ان عنصر التاريخ أو ان محور من محاور التاريخ هذا المحور الذى له دور هام الى جانب المحاور الاخرى هو المحور الاقتصادى ، هذا لا يشك فيه اثنان ولا يتناطح فيه عنزان ، الآن أصبح الامر واضحا جليا ، اهتمام مثلا ماركس بقراءة النصوص تجعلنا احيانا نرى فيها حركة جدلية تدفع البشرية الى الامام ، كل مؤرخ اليوم يؤمن بأن هذه القراءة ان لم تكن الوحيدة فهى مفيدة جدا لانها قد تفسر كثيرا من الاشياء لولاها لتبقى غامضة ، فاذن ماركس اليوم قد قبل بصدر رحب من كل علماء التاريخ .المشكل الوحيد هو ان هناك من المؤرخين الذين يريدون ان يجعلوا من كتاب ماركس قرآنا وان ينظروا اليه نظره تعصبية تتنافى والمبنى الماركسى نفسه ، لان ماركس كان ثوريا على الاساليب التى تقاومه، فاذا أردنا نحن ان نقلده تقليدا ديناميكيا حركيا

يجب ان نقلده بأثمن شيء علمنا اياه هذا الرجل ، هي النظرة النقدية وعدم التبعية ، لم يكن متبعا لذلك انشأ نظريته ، فاذا نحن تبعناه بما يؤدى الى الجمود والتبعية فقد خنا رسالة ماركس خيانة كبرى ، وهذا ما فعله كثيرون ، فأصبحوا يحرفون تاريخهم تحريفا بليغا لانهم أرادوا ان يقصدوا من التاريخ محاور أخرى توجههم كالمحاور النفسية ، ونحن نعرف ان فى كثير من الاحيان الحركات العاطفية كان لها دور هام جدا فى توجيه التاريخ فبقطع النظر عن الحركات الاقتصادية ، ثم ايضا يجب ان لا نؤمن بالتحليل الماركسى الاقتصادى الى حد ان نجهل او نتجاهل قيمة عمل الفرد ،فمن منا مثلا يستطيع ان يعتبر ان تاريخ قرطاج كان يكون هو نفس التاريخ بعدم وجود هانيبال ، **هذا** من المستحيل ، أو تاريخ المانيا فى الفترة الاخيرة هل كان يكون نفس التاريخ لاسباب اقتصادية او غير ذلك ، اذن لو حذفنا هتلر وما اصيب به من أمراض عقلية ٠ اذن هذا التطرف فى كتابة التاريخ على مذهب وحيد هو الذى يجرنا دائما وأبدا الى الانحراف ، اذن يحسن بالمؤرخ ان يكون دائما وأبدا انسانا حرا ، يجب ان يتحرر من أهوائه وعاطفته وان يقاوم فى نفسه نزعاته ، ويجب ان يتحرر ايضا من الضغوط الخارجية من ملابسات وأوضاع وحالات سياسية **واقتصادية** ، ويجب ان يتحرر ايضا من المفكرين الذين قد يوجهوه توجيها غير طيب ، اذن يجب التحرر والتفتح لان يعسر عليه ان يكتب التاريخ وهو يجهل ما قاله المؤرخون والعلماء من قبل ، فهى اذن حياة عسيرة جدا حياة المؤرخ لانه يجب ان يكون جماعا لعلوم شتى ويجب ان يكون ايضا محللا لنفسه ومحللا لوضعه ومتفتحا على كل التيارات والافكار وفى نفس الوقت متحررا من كل التيارات والافكار ٠

عثمان شبوب : أنا أود من الاساتذة الآخرين ان يناقشوا جميع هذه الافكار المنهجية وغيرها ٠ وأود ان أوضح ان الاتنوغرافيا وهو منهج داخل فى نطاق علم الاجتماع كما هو معروف ، لكن كثير من المؤرخين بنوا على هذا المنهج كثيرا من الاستنتاجات العنصرية الاستعمارية ٠

الدكتور التميمى : اجابتى عن السؤال متى بدأ اهتمام المؤرخين الاوروبيين بالتاريخ المغربى وكيف ؟ ان شاركت الاستاذ محمد طالبى فيما قاله حول اهتمام الاستشراق فى العالم العربى والاسلامى والبحر المتوسط ، لا أشاركه بأن اهتمامهم بتاريخ المغرب العربى قد ساير هذا الأهتمام فى نفس الوقت ، ذلك ان اهتمامهم بتاريخ المغرب العربى قد ظهر اخيرا فى القرن 19 اما اهتمامهم قبل هذا الوقت فقد كان مقتصرا على ارسال بعض الرحالين لمعرفة عادات وتقاليد والظروف المناخية التى يعيش فيها المغرب العربى، وعندنا عدد كثير من الرحالة الاوروبيين الذين تركوا لنا انطباعات ، غير اننا لا نعرف اى عمل تاريخى كتب عن تاريخ المغرب العربى قبل 1830 وذلك تاريخ احتلال المستعمر الفرنسى للجزائر ويمكن اعتباره نقطة التحول باهتمام المؤرخين وخاصة الفرنسيين بتاريخ مغربنا ، ذلك ان

احتلالهم الجزائر جعلهم فى وضعية جديدة امام شعب جديد ومعطيات جديدة ودين جديد وانظمة جديدة ، هذه الفترة وهذا التاريخ بالذات 1830 قد جعل المسؤولين الفرنسيين يعجلون بارسال الفرنسيين الى البلاد العربية ويلحون على معرفة اللغة العربية وبالتالى الى معرفة الشعب الجزائرى، من هو هذا الشعب ؟ وفعلا تعددت بعثات الفرنسيين وأذكر دوسلان كان أول احتكاكه — وهو اكبر المستشرقين — فى الجزائر قبل ان يحتك بأى شعب آخر ، وجاند روجر ودوفكس وكثيرا من الفرنسيين الذين شعروا ان نواشدهم هو التعرف على الشعب الجزائرى ومعرفة معطيات الشعب ، هذا بطبيعة الحال تفوقهم الاقتصادى والثقافى جعلهم ينظرون ويقللون من أهمية الشعب المغربى وتاريخ الشعب المغربى وهذا يعلل اهتمامهم بفترات دون أخرى وتركيزهم بالبحث على شخصيات دون أخرى ، هادفين بذلك مباشرة تفكيرهم ومخططاتهم التى تهدف بالدرجة الاولى الى جعل الشعوب المغربية يشعرون بدور التقليل من شأنهم وعدم اظهار مميزات التاريخ المغربى اذكر بذلك اهتمامهم بالتاريخ ما قبل الفتح العربى كان بالغا اذا ما قارناه بالتاريخ العثمانى فى شمال افريقيا ، وتعتبر فترة مظلمة والفرنسيين لم يهتموا بها وقد كانوا يؤكدون على ان هذه الفترة فترة مظلمة وحكام قساة وجور ، هذا بقطع النظر عن اسباب اخرى ، معناه حديثهم هدفه هو افساد • والطابع الفرنسى طابع عدالة وطابع انقاذ للشعب المغربى من محيط التخلف العقلى الذى هو فيه •

السؤال الثانى كيف كتب هذا التاريخ ، بطبيعة الحال كتب من وجهة نظر معينة معتمدين على معطيات معينة ان وجد بعض المستشرقين الذين درسوا التاريخ الوسيط وكانوا يعرفون العربية ، فانه لا يوجد حسب علمى فى القرن الماضى من اهتم بالتاريخ المغربى يعرف العربية الا القليل جدا منهم • وعلى هذا الاساس فان التاريخ المغربى الذى كتب فى القرن الماضى لا يجب اعتباره تاريخا فنيا ، ويجب تنقيته وتصحيحه ، هذا باختصار حتى افسح المجال لبقية الزملاء •

الاستاذ محمد فنطر — استاذ بكلية الآداب — قسم التاريخ : فى الحقيقة عندما ننظر الى سؤال اهتمام المؤرخين الغربيين واخص منهم المؤرخين الفرنسيين ، فيما يتعلق مثلا بالدور القديم قبل احتلال ••••

نرى ان امثال جورج غوتيه او جلير شارل بيكات ، بما انهم قرأوا التاريخ او حاولوا قراءته لاهداف معينة كانت لهم أهداف ويصرحون بها فى صريح العبارة ، فعند ما نقرأ مثلا كاتوبينوف يقول فى مقدمة كتابه المتعلق بالمغرب : « انه يحاول ان ينظر فيما كان عليه المغرب فى عهد الرومان حتى يستنتج ما يساعده على ارساء الحماية أو الاحتلال الفرنسى فيقول انه لاحظ ان الحضارة الرومانية اينعت بالبلاد ويعتبرون ان الافارقة أقبلوا علىهذه الحضارة وتبنوهاوساعدوا على اثرائها ، اذن يعتبرون ان الاحتلال الرومانى كان ناجحا ، فاطلاعهم على تاريخ البلاد يهدف الى مد السلطةالفرنسية بوسائل تساعدهم على ارساء

الاحتلال الفرنسي وتساعدهم على التقرب من العنصر الوطني حتى يصبح متحمسا للحضور الفرنسي وللحضارة الفرنسية والى غير ذلك ، وهناك نظرة أخرى هي انهم يريدون تعليل او تبرير الحضور الفرنسي ، هنا فيه شيء لازما من واجبات الحضارة أن يكون الغربيون والفرنسيون بالذات في هذه البقعة ، لماذا ؟ يقولون ان هؤلاء الافارقة البرابرة هم عاجزون بطبعهم عن ادارة شؤونهم بأنفسهم ، فلابد ان يكون خارجي يأتي ليستتب الامن ويتمكن من ادارة هذه البقاع ، ونرى ان من كتب في التاريخ المغربي ينظرون الى الحضارات التي تعاقبت على البلاد دون ان يفرزوا مساهمة المغاربة في تلك الحضارات . فيقولون : الفنيقيون ، الرومان ، العرب الى غير ذلك لكن دائما البلاد لا وجود لها ، وهذا ما يدفعهم للقول جاء الفينقيون ، جاء الوندال ، جاء البيزنطيون جاء العرب ، ولا وجود لسكان البلاد . بل الحضارة لا تثبت وتظهر الا اذا كان أجنبي موجود في البلاد ، كل التاريخ يكاد يكون مركز على هذه النظرة وربما في شيء من اليأس ما زلنا للآن ندرس تاريخنا بهذه النظرة ، في كتب تقدم الى الطلاب والتلاميذ والاطفال تقدم لهم هذه النظرة . عطاء ، فقر ، هاتان الفكرتان هما جعلا بصفة عامة هناك ربما بعض الاشياء لا تدخل في هذا النطاق ، لكن في غالب الامر الدراسات ، هاتان الفكرتان هما الموجودتان ،حتى شارل أندرى جوليان الذى نعتبره او نغالى بسخاء اراءه هو لم يتخط هذه الفكرة وهو يقول ان الافارقة لا يستطيعون ان يديروا انفسهم بأنفسهم،

ثم هناك حاجة اخرى خاصة بالتاريخ القديم ، الفرنسيون لما درسوا التاريخ قالوا — موش كور الذى كان يمضى بعض مقالاته بكلمة رد بالك — يقول موشى كور : عندما اضع اذنى على الارض استمع الى رنين خطوات جنود اجدادنا الرومان . فاذن قرأوا التاريخ الرومانى باعتباره حضور آثار اجدادهم في هذه الديار ، ويقول موشى كور : نحن لسنا أجانب في هذه البلاد . بل العرب هم الاجانب ، هذا يقوله بصريح العبارة وهذه الافكار سيطرت من غير شك كما قال الاستاذ طالبي بصفة شعورية او غير شعورية وكانوا غير قادرين على التخلص من تلك الملابسات والجو الذى كان يعيش فيه ، وكلنا مجبورون على أن نتحمل بصفة ما المحيط وما في المحيط من ظروف سياسية واجتماعية الى غير ذلك . هذا هو الشيء هذا هو النبراس الذى على ضوئه درسوا تاريخنا في القديم والوسيط والمعاصر ·

بقى كيف نحن نقرأ التاريخ : نحن نقرأ التاريخ بالتخلص من كل ما يجعلنا نزيف التاريخ ، لا ينبغى أن نمجد ولا ينبغى أيضا ان تكون لنا مركبات نقص أو غرور تكون خطرا على الحقيقة التاريخية . فان هؤلاء رغم نظرتهم الخاطئة ويمكن أن نقول الملتزمة (لانه كان تاريخا ملتزما) ينبغى أن نؤمن بأن المنهاج ، لا شك أنهم بلغوا مستوى علميا لا بأس به ينبغى ان نتحلى به ونأخذه ، هذا المستوى العلمى يمكن أن نقوله في جميع الوثائق وتكوين الملفات لحل القضايا التاريخية ، ففى مستوى التحقيق — لان المؤرخ يمكن ان نقارنه

بقاضي التحقيق ـ ففي جمع الوثائق وطـــريقة الاستنطاق ينبغي ان نأخذ بطرق علمية عالمية لا يمكن ان نقتصر بها نحن دون غيرنا ، لـــكن في مستوى استنطاق الوثائق ، المرحلة الثانية ، لا شك اننا نحن أدرى بشعابنا كما قال سقراط : « أعرف نفسك » نحـــن أقرب الناس لان نعرف أنفسنا ، فاذا دخلنا الى أنفسنا وتعرفنا على أنفسنا أمكننا ان نقترب اكثر من غيرنا الى الحقيقة التي عشناها سواء بأنفسنا أو بالاستمرار من الـذين سبقونا والذين ما زلنا نحمل آثارهم على كتفينا .

الحبيب الجنجحاني ـ كليـة الآداب ـ تونس : شخصيا في الحقيقة انني أعتقد ان الزملاء الذين سبقوني قد عالجوا الموضوع من زوايا مختـلفة ، وهنالك اجـابة طبـعا من الطبيعي ان تختلف باختلاف النظرة الى هذه القضـــايا ، ولذا أنا شخصيا لي ملاحظتان خاصة بما استمعت اليه من الزملاء ، الاولى لا شك أنا نحن نفرق كما قيـــل سلفا بين الاتصالات القديمة بين الاسلام والمسيحية وقد كانت صـــلات تعارف وتبـادل قبل العهد الاستعماري ، ولكن كما أشير أيضا تغير طابعها تغـيرا كبـيرا بعـد نهاية العهـد الاستعماري وهـــذا مـــن الطبيعي لان هـــذه العـلاقـات ليست علاقات التعامل الند للنـــد ، بل علاقات هيمنة ، يعني سيطرة جديدة على شعوب مستعمرة ومسيطرة عليها ، فمن الطبيـــعي ان تتغير طبيعة هذه العلاقات ، ونتيجة تغير طبيعة هذه العلاقات نلاحظ بروز فئتين من المستشرقين والباحثين في شـــؤون المغـــرب العـــربي والعـالـم العـــربي بصفة عامة ، هنالك فئة بحكم الاتصال بالشرق وربما هي امتداد لتقاليد من القرون الوسطى منذ العلاقات بين الاسلام والمسيحية هذه الفئة اهتمت بالدراسات الشرقية واللغويات وكانت بعيـــدة والاستعمار سهل لها الاتصال والزيارات ولكنها بقيت في ميدان الاختصاص الضـــيق ، والفئة الثانية واعتقد أنها لعبت الدور الاكمل على الاقـل في مرحلة معينة هي فئة المستشرقين الذين دخلوا ميدان الاستشراق عن طـــريق خـــدمة الادارة الاستعمارية في بلدان المغرب العربي والعـــالم العربي ، مثلا .. وقد أشرت في الكلمة وهذا ليس سرا من أن موتلنسكي نفسه يقول بأنه كان مترجما عسكريا في بني ميزاب ، عن طريق خدمته للادارة الاستعمارية في هذه المنطقة اصبح يهتم بالحركات الاباضية وببني ميزاب وأصحاب هذا المذهب .. الخ يعني كاتب آخر وهو من كبار المعـروفين في حياة تاريخ المغرب العربي ، ولكن لا ننسى انه بدأ حياته موظفا اداريا في المغرب ، جاك بيرك نفسه وربما هذا يفسر لنا التحـــول في مواقف هؤلاء المستشرقين من قضايا هذه البلدان ، لان البعض منهم نرى كتاباته قبل 20 أو 25 سنة كتبوا أشياء ومواقف معينة ، وكتبوا اشياء بعد استقلال بلاد المغرب العربي بنظرة أخرى ، حولوا في مواقفهم ربما عن اقتناع وربما حسب الظروف ، وأود ان أذكر اسما آخر يعد من كبار المستشرقين في الادب ورجال اللغة ولا يزال حيا ، وهو لم يكن يشتغل في الادارة الاستعمارية وانما كان موظفا اداريـا في المكتب الثاني الفرنسي ، في سوريا .. الخ ، شامبليون هذا ليس سرا مثلا بالنسبة لالمانيـــا بيكر كان من كبار الموظفين في وزارة الخارجيـة واهتم بشؤون الاسلام وكتب عنه ، لكن هنا أيضا نود أن نقول ان الحقيقة بدأوا طريقهم وحياتهم في

الاستشراق عن هذا الطريق ، البعض منهم بعد ذلك بعد عن ميدان الخدمة الادارية واصبح يهتم فقط بالبحث ، وهذا يفسر لنا ويلفت النظر ان كثيرا منهم تحولوا من موظفين اداريين الى اساتذة كراسى فى الجامعات الاوروبية ،لكن مع بقاء الصلة وايضا ليس من السر ان الكثير منهم رغم اختصاصهم أنهم يستشارون من وزارة الخارجية فى شؤون المغرب او بلاد العالم العربى فى القضايا السياسية ، وهذه الطريقة ما زالت مستمرة بشكل آخر باسم الاستعمار المقنع من طرف البلدان الاخرى ، كثير من الباحثين الاوروبيين يأتون الى البلد ان العربية باسم البحث واعداد الاطروحات ولكنهم يكتبون تقارير من نوع آخر يرسلونها الى مراكز أخرى ، بحيث تغيرت ، لكن مثل ما قال من سبقونى أن هؤلاء الناس الذين توفرت لهم الظروف تركوا لنا أعمالا يجب ان نعترف بها ونعتمد عليها مثلا احياء قسم من المخطوطات ، بعض الدراسات ذات الطابع التاريخى او اللغوى ، المهم هذا عمل قاموا به وان لم يقوموا به من اجل العلم والبحث فالنتيجة قد حصلت ، فيجب ان نقف منها موقف الجرأة نعترف بالنقاط الايجابية منها ، ولكن نقف موقف جرأة متخلصين من المركبات ونقاط الضعف ، طبعا الامثلة كثيرة ، والا يعنى هى ظاهرة مثل ظاهرة التبشير مرتبطة فى بعض مظاهرها بالاستعمار بالعالم العربى والمغرب العربى على الخصوص . وليس من الصدفة ان نجد الالمان يعتنون بالدراسات الافريقية كتاباتهم احسن ما كتب عن افريقيا الشرقية ، لماذا ؟ لان المانيا المستعمرات الوحيدة فى الحرب العالمية الاولى كانت فى افريقيا الشرقية ، بلاد السودان طبعا اهتمام البريطانيين . معناه اذا أردنا اليوم أن نكتب بحثا عن السودان وعن جنوب السودان لا نستطيع بدون الرجوع الى ما كتبه البريطانيون، ولماذا لم يكتب الفرنسيون عن السودان وكتبوا عن شمال افريقيا ، اذن اسئلة واضحة ومنطقية بين ظاهرة الاستعمار والاستشراق ، بقى نحن *انذاك لم نفعل شيئا ، طبعا المسألة* **مسألة تخلف** لاننا كنا شعوب كانت بعيدة عن الحضارة كان الجهل منتشرا . وكانوا هم فى موقف القوة والسيطرة ، لكن المهم كما قلت هو فى نظرتنا فيما كتب التخلص من مركبات النقص تجاه ما كتبه المؤرخون الاجانب عن تاريخنا ، نعترف بالاشياء الحقيقة التاريخية والاخرى ندينها ، يعنى لا نمجد الدراسات ربما الهزيلة التى كتبت فى عهد معين فى تاريخنا ، ولكننا أيضا لا نمجد ما كتبه الاوروبيون لانه كتب من طرف الاوروبيين ، وهذا ما يعانى منه بعض المؤرخين المغاربة ، هو النظرة التمجيدية لهؤلاء الاوروبيين ، هذا ليس صحيحا، هو المهم التخلص من عقدة النقص هذا الشىء الاساسى .

عثمان شبوب الآن نأتى على النقطة الثانية وهى المناهج، أظن ان الاستاذ طالبى تكلم عن هذه المشكلة وانتهى ، فالآن الكلمة للاستاذ التميمى :

بالنسبة للمنهج الذى يجب اتباعه فى كتابة تاريخنا تحدث الاستاذ طالبى عن المنهج العقائدى بقى المنهج العلمى لكتابة هذا التاريخ وسأتكلم

فى نطاق التاريخ الحديث والمعاصر . فكل ما عندنا وكل ما كتبه الفرنسيون كان يعتمد على الوثائق ودور الارشيف الفرنسية ، واغلب المؤرخين لم يعتمدوا على دور الوثائق العربية والتركية ، فهذا الوضع جعل المؤرخين الفرنسيين يشعرون بالنقص ، هم يعترفون ان كتاباتهم تعكس وجهة نظر فرنسية . والدليل على ذلك بكل تواضع ، هناك استاذ فرنسى هو كربواييه ويعتبر المختص الوحيد لدراسة تاريخ الجزائر كتب أخيرا مقالا فى مجلة « افريقيا المسلمة والبحر المتوسط » العدد الاخير كتب يتكلم عن كتاب نصوص ووثائق التاريخ المغربى ، ويقول بالحرف الواحد : أنا لا أخجل ان أقول اننى كنت مخطئا عندما كتبت عن تاريخ الجزائر بهذه الطريقة ، ولا أخجل ان أقول اننى غيرت رأيى رأسا عن عقب » أنا أظن ان هذا المثال فى منتهى الشجاعة الادبية ويؤدى بنا الى الاعتراف بأن ما كتبه الفرنسيون يجب ان نقف منه موقف الحذر لا أن نرفضه بالعكس ، أن نأخذه ونكمل عليه ، ما هى الطريقة العملية ،

أولا يجب ان نقوم بعملية احصاء لكل تراثنا سواء كان المخطوط او المطبوع وبالدرجة الاولى المخطوطات والوثائق سواء كانت عربية او تركية أو ايطالية أو اسبانية او غيرها ، ثم ان تكون عندنا قدرة كاملة على استيعاب كل هذه المعطيات وان نفهم ونذهب الى أبعد ما يكون من الوثيقة ، أن لا نقف عند ظاهر كلمات الوثيقة . بل أن نعرف الظروف الجغرافية والظروف المناخية والحياتية ، كل هذا يؤدى بنا الى فهم جديد اكثر وعيا واكثر شمولا ، بطبيعة الحال هذا يتوقف لا فقط على المؤرخين لان المؤرخ يحتاج الى عالم اجتماع والى الاديب ، ثم شىء متكامل لا يمكن ان نفصل علم التاريخ عن الاجتماع ، أنا اعتبرهما علمان متكاملان فى هذا الاطار ، اطار فهم جديد اكثر وعيا لوضعيتنا الجغرافية ولفهم الماضى ايضا يمكن لنا ان نضع اطارا جديدا لمبدأ منهجية تأخذ بالاعتبار كل ما كتب وكل معطيات الوثائق التاريخية ، وهذا الحال لا يتوقف على فرد معين ولكن على المعاهد العلمية فى تاريخ المغرب العربى، يمكن ان ننشىءعددامن المعاهدوكل معهديختص بفترة معينة ثم تستكمل الابحاث بعضها البعض المهم من هذا نظرية الشمول . لابد ان تكون نظرية الشمول ونظرية ان يكمل الباحث التونسىالباحث المغربى والباحث الجزائرى ٠

بالنسبة للمذهب الماركسى ، والله أنا لا اضيف شيئا لما قاله استاذنا الفاضل محمد الطالبى ، اعتقد ان المذهب الماركسى فيه عناصر ايجابية لابد ان تؤخذ بالاعتبار . وفيه عناصر سلبية الا اننى اعتقد ايضا ان المؤرخ يجب ان يكون بعيدا على كل التيارات فوظيفته الفهم ، محاولة الفهم ، ممكن ان لا يفهم ، محاولة فهم المعطيات مهما كانتالطريقة. اذا كان المذهب الماركسى يؤدى بنا الى ان نفهم مجتمعنا اكثر وضوحا واكثر عمقا فمرحبا لكن شخصيا اعتقد ان المؤرخ يحتاج الى كل المعطيات وكل المذاهب دون ان يركز على مذهب دون آخر ٠

الاستاذ محمد فنطر : فيما يتعلق بالمنهج الذى ربما ينبغى على المؤرخ ان يتوخاه فى قراءة التاريخ

بالنسبة لشعوبنا التى عاشت ظـروفا ربما لم تآلفها شعوب أخرى ، هناك بعض مبادىء لابـد منها ، هذه المبادىء فى رأيى قبـل كل شىء فى توخى الانطلاق من الواقع بما فى ذلك من معانى متشعبة . هذا الواقع بالنسبة للمؤرخ هيالوثائق والشهادات التى يضعها أمامه وينظر بها كما ينظر عالم الكيمياء الى الشىء الذىيريد ان يصفه، فقبل كل شىء يضع الوثائع أمامه وينظر اليها بمنظاره ، وبعد ذلك ينبغى انيكون متخلصا او بعبارة أخرى مؤمنا بنفسه ، لان الانسان مهما بلغت درجـة علمه والمعرفة، لديه فاذا لم يكن واثقا بنفسه لايمكن أن يخلق شيئا ما أو أن يصل الى الحقيقة ، ثم لابد أن أقول ان الموضوعية لابد منها اذا أردنا اننكون مؤرخين حقيقيين لا فى نطـاق الوطن ، بل فى مستوى بشرى عالمى ، لان معرفة التاريخ المغربى لا قيمة لها الا اذا عرفتك بالمغرب وساعدت على معرفة البشر فى كل الاصقاع .

ثم شىء آخر فيما يتعلق بالماركسـية ومنهج ماركس فيما يتعلق بدراسة التاريخ ، أقول رأيى أن العالم لا يجب عليـه ان يؤمن بمذهب « ان يتمذهب » ، لان لو وضعنا له ورقة او حجـرة أو شجرةينظر اليها كما هى .ويحاول ان يتخلص من كل المؤثرات وكل المذاهب حتى ربما يصـل الى الحقيقة ، لانه اذا كان له مسبقا نظرة خاصة فان هذا قد يعيقه دون الحقيقة ، فيجب عليـه ان لا يتمذهب ، ربما عندما يتناول المؤرخ قضـية من القضايا بالدرس ويصل فىالنهاية الى ما يتناسب مع الماركسية فلا أرى مانعا . لكن يجب ان لا اقول أنا سأنظر لهذا بمنظار ماركسى ، بل ان لا يعرف العالم النتيجة التى سيصل اليـها ، لان اذا كان عارفا مسبقا فان ذلك بدون شك سـيدفعه الى تحريف أو تزييفالواقع . النقطة الاخيرة بالنسبة للاتنوغرافيا ، أنا شخصيا لا اؤمن بالاتنوغرافيا فيما يتعلق بهذه البلاد . لان هذا العلم استعمارى بحت ، ولزم الاستعمار ، الاتنوغرافيا هيانسان يأتى لينظر فى شؤون الشعوب المتخلفة ، هـذه الشعوب البدائية ، ليس بالاتنوغرافية الفرنسية، وأنا ربما اطالب بحذف هذه الكلمة من معجمنا — والسلام عليكم .

الاستاذ الطاهر قيقة — مدير المركز الثقـافى الدولى : قضية المناهج هى من أخطر القضايا فى الظروف الراهنة أنا اعتقد مثل الزميل طالبى أن المنهاج الذى يسطره المؤرخ فى بحوثه ينبغى أن يكون منهاجا متحررا ، يحدو به روح نقـدية ، فالمنهاج لا ينبغى أن يكون متحجرا . فالمدرسـة الفرنسية والمؤرخين الغربيين والاستعماريين قـد اكتسبت فى بعض الاحيان فى قالب متحجر ، فهى مدرسة ايديولوجية فينبغى احتراما للعلم الحديث، أن يكون المنهاج متفتحا مرنا يشك دائما فى نفسه ليتقدم لذلك .فالمنهاج واتباع المنهاج من العمليات الصعبة التى تتطلب فكرا متحررا متفتحا ، فنحن نلاحظ وأنا أوافق فى ذلك الزميل التميمى عندما قال مثلا — وهى ملاحظة عامة — . أن الوثائق التى لم يقع استغلالها بصورة جـدية هى الوثائق العربية والتركية فيما يخص تاريخ المغرب العربى وهذا صحيح فهو نقص لابد ان نتفاداه ليـكون منهاجنا مستقيما صائبا مجديا . ولـكن هناك تفتحات أخرى واتجاهات متفتحة أخرى الى نواحى

وقع اهمالها أيضا ، فالادب والنصوص الادبية المكتوبة فيها اشادات ووثائق هامة تاريخية تعثر عليها اذا كان منظارنا منظارا يدفع بنا ألى البحث التاريخى وهناك مجموعة هامة من الوثائق التى يهملها فى كثير من الاحيان وهى الوثائق الآتية من الادب الشعبى الـذى لم يدون فى الكتب لا أدرى كيف يمكن مراجعة تاريخ العصور المتأخرة فى أمم متخلفة تفشت فيها الامية ، بدون الرجوع الى الوثائق الشعبية المنقولة ، التى لم تدون ، فربما يبدو فى بعض الاحيان ان مثقفينا يتعالون عن الوثائق الهامة التى دونت تاريخنا والتى دونت احداثنا الاقتصادية والاجتماعية ، والتى دونت أيضا ردود فعل شعبنا فى العهود الاخيرة ، يتعالون عنها لانها آتية من الشعب ولانها غير مكتوبة فاستعمال واستغلال ما نبع من الشعب أثناء العهود القيمة من الوثائق التاريخية التى قد تساعد على انارة تاريخ احداثنا وتاريخ المجتمع من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، فأتمنى نصرة للتاريخ وتدعيما للمنهاج التاريخى فى البحث ان يهتم المؤرخون بهذا التراث الشعبى المنقول غير المكتوب ، كذلك التفتح على العلوم المساعدة للتاريخ واستغلالها واستعمالها مما يجعل المنهاج أصوب وأقوم ، ثم انى أريد أن أشير فى ميدان المنهاج الذى ينبغى ان يسلك خاصة فى تاريخ مغربنا العربى الى أهمية البحوث المشتركة بين مؤرخى وباحثى التاريخ فى تونس والجزائر والمغرب وليبيا لا اعتقد ان العهد العثمانى يدرس اذا اقتصرنا على اقليم من اقاليمنا المغربية ، فالبحث مستحيل اذا كان المنهاج مركبا على بلد من بلداننا الاربع ، فلابد من تضافر جهود باحثينا من الجزائر ومن ليبيا ومن تونس لبحث العهد العثمانى كذلك من المغرب الاقصى لان المغرب الاقصى قد قاوم الحضور العثمانى فى الجزائر والمغرب وليبيا ، ولا أدرى كيف يمكن الخوض فى معرفة اسباب الزحف الهلالى ونتائجه اذا لم ننسق جهودنا ، جهود مؤرخى المغرب العربى وجهود مؤرخى مصر لان ذلك الحدث العظيم البعيد الآثار لا من الناحية التاريخية فحسب ، بل أيضا من الناحية الحضارية العامة ، لا يمكن دراسته دراسة عميقة مجدية الا اذا تضافرت الجهود بيننا جميعا وبين المصريين ، وأنا اعرف مثلا ان القصة الهلالية الشعبية موجودة فى مصر وفى كامل الوطن العربى وربما تكون سندا لا بأس به لدراسة تاريخ المغرب العربى وتاريخ مصر ، لا فى عهد بنى هلال فقط ولكن أيضا فى العهودالموالية، لان تلك القصة الشعبية التى نجدها حية تعطينا صورة عن تطور المفاهيم والتقسيمات والعقليات والمواقف ، مواقف الشعوب ، شعوب شمال افريقيا بصفة عامة باضافة مصر فى قرون متوالية اذ ان كثيرا مما ترك لنا من قصة بنى هلال قد نبع من شعب شمال افريقيا بصفة عامة فى العهد التركى ، اذن فقضية التعاون لتسطير المنهاج وللقيام بدراسات مشتركة لمعرفة تاريخ المغرب العربى شىء أساسى وهام فى نظرى .

الاستاذ عبد الجليل التميمى : تأييدا للاستاذ طاهر قيقه فيما يخص الروايات الشعبية لسوء

الحظ اننا لا نهتم بهذا الميدان وفي اليونسكو لشعوب افريقيا ، اليونسكو اهتمت بهذا الميدان نظرا لان الرواية الشعبية تعتبر الرواية الوحيدة لنقل التاريخ ، عندنا في بلادنا عندنا وسائل أخرى مثل الكتابات هي التي غطت وقللت من أهمية النقل الشفهي (الرواية الشفهية) واعتقد انني اؤيد الاستاذ طاهر قيقة في ضرورة الاهتمام بها وجمعها لتكون أيضا عنصرا مكملا لما هو مخطوط .

الدكتور الحبيب الجنحاني : بالاضافة الى ما ساهم به الزملاء في موضوع المنهجية بالذات طبعا الى جانب استغلال كثير من المصادر والنصوص التي في الحقيقة لم يستعمل الكثير منها لحد الآن والزميل الطاهر قيقة قد اشار الى مظهر تعرف أهميته في توضيح قضايا التاريخ ولا سيما التاريخ الاسلامي ، لان التاريخ الاسلامي في الحقيقة ليس منفصلا عن الحياة الفكرية والادبية الخ .. لكن أريد فقط ان أضيف في ميدان المنهجية الى ما قيل الى نقطة تتعلق باعادة النظر - نرجع الى هذه النقطة - الى اعادة النظر في المفاهيم والاساليب التي نستعملها اليوم لاننا ونحن لا زلنا في بداية الطريق من بحث تاريخ مغربنا الكبير ، لاننا بحكم هذه البداية ، وهنا لابد ان نكون متواضعين وفي نفس الوقت واعين لضرورة البداية ومواصلة الطريق ، من الطبيعي ان كثيرا منا عن وعي او عن غير وعي احيانا ما زال متأثرا بمفاهيم وأساليب هي غريبة كل الغربة والغرابة معا عن واقع المجتمع المغربي في بلادنا ، اذن ليس هذا من باب الانغلاق أبدا ، نحن أشرنا في البداية الى أن كثيرا من البحوث كتبها مستشرقون وصلوا الى ميدان الاستشراق عن طريق عملهم في ميدان الادارة الاستعمارية أو لخدمة أهداف معينة ، ولكن هؤلاء بطول المدة منذ القرن 19 تركوا مجموعة من المفاهيم ومجموعة من الاساليب والنظرة الى كثير من فترات تاريخنا وقضايا مجتمعاتنا نحن تأثرنا بها وتأثر بها الكثير منا وأصبحت تصل الى الاجيال الصاعدة من ابناء المغرب الذين يدرسون في الجامعات أما مباشرة أو حتى عن طريق اقلام الكثير منا نحن الباحثين ، اعتقد نقطة حساسة ونحن في بداية الطريق لان نعيد النظر ليكون انطلاقنا انطلاقا سليما وواعيا بهذه القضايا . وأعود من جديد أن اعادة النظر في هذه المفاهيم بالاضافة الى ما اقترحه الزميل قيقة من محاولة القيام بالبحوث المشتركة ، كل هذا اعتقد انه ينبغي أن يتم في نطاق مدرسة تاريخية مغربية . وشكرا .

عثمان شبوب : في ختام هذه الندوة أود أن أشكر جزيل الشكر الاساتذة الافاضل الذين اتعبوا أنفسهم للمشاركة في هذه الندوة ، وكذلك أشكر من جديد الجمعية التونسية للآثار والمركز الثقافي الدولي اللذين أتاحا لنا الفرصة للاتصال وعقد مثل هذه الندوة التي نود أن تكون لبنة في اقامة علاقات ثقافية بين أقطار مغربنا العربي . شكرا .

منشـــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

صـدر كتـــاب

منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية

سلسلة التراث

1

الثغر الجماني

في

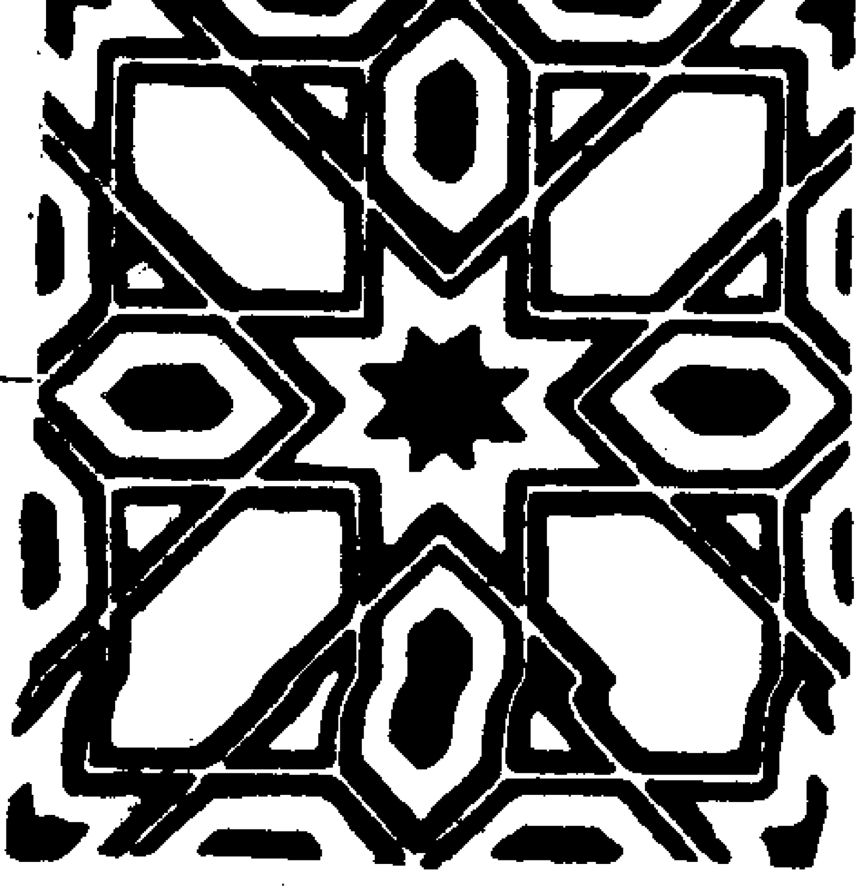
ابتسام الثغر الوهراني

تأليف

أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي

تحقيق وتقديم

المهدي البوعبدلي



موقف المؤرخين الأجانب من
تاريخ المغرب العربي

ادار الندوة
عثمان شبوب

اشكر باسم وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية وباسم مجلة «الاصالة» التى تصدرها هذه الوزارة الاساتذة الافاضل الذين شرفونا بقبولهم دعوتنا لحضور هذه الندوة وكذلك وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية على ما وفرته لنا من الامكانيات لهذا الاتصال الذى نتمنى أن يكون ايجابيا ، والتعرف على الاساتذة الافاضل ونقل افكارهم الى القراء فى الجزائر ·

المسألة الاولى التى نضعها امام الاساتذة هى مسألة اهتمام المؤرخين الاجانب بتاريخ هذه المنطقة وكيف نشأ ؟ :

الدكتور عبد الكريم كريم ، استاذ مادة التاريخ الحديث بكلية الآداب ، جامعة محمد الخامس ومدير المكتبات بوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية ·

فيما يتعلق ببداية اهتمام الاوروبيين بـاقطار المغرب العربى ، هذا الاهتمام بدأ بشكل قوى مع مطلع العصور الحديثة، وبالضبط منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ومطلـع السادس عشـر منـه ، أيى العهد الذى يـوافق عصـر النهضـة الاوروبية ، والعوامل التى دفعتهم الى الاهتمام بهذه المنطقة ترجع الى عوامل اقتصادية ثم الـى عوامـل سيـاسية وعوامـل أخـرى ، العـامل الاقتصادى يتمثل بالدرجة الاولى فى اكتشـاف الاسبانيين للعالم الجديد وذلك فى يناير ١٤٩٢ ، وأيضـا فى اكتشاف البرتغـال لـرأس الرجـاء الصالح ١٤٩٧ فهذه الاكتشافات تعد من العوامل الرئيسية التى وجهت انظار الاوروبيين وبصفة خاصة أنظار الاسبان والبرتغال ، حيث أن هؤلاء هم الذين قاموا باكتشاف أمريكا ورأس الرجـاء الصالح ، أى الطريق البحرية المؤدية الى الشرق الاقصى : الهند والصين ، للحصول على التوابل ومنتوجات الحرير وغير ذلك · وطالما أن بـلاد الشمال الافريقى أو بلاد المغرب العربى وبصفة خاصة المغـرب الاقصى لـه واجهتان ، واجهـة متوسطية وواجهة أطلسية ، والواجهة الاطلسية فقد لعبت دورا رئيسيا سواء فيما يتعلق بانطلاق الاسبان نحو امريكا ، أو انطلاق البرتغال نحـو رأس الرجاء الصالح للدوران حول افريقيا نحو الشرق الاقصى ، وعلى هذا الاساس أخذ الاسبان والبرتغال يحتلون قواعد على مجموع الشواطىء المغربية فى بداية الامر ، فمثلا احتلال سبتة كان سنة ١٤١٥ ، ـ نعم ـ نستغرب كيف أن الاستعمار البرتغالى لسبتة بدأ فى هذا التاريخ المبكر ، كان القصد منها أن البرتغاليين كانوا يحرصون على على أن يضعوا اليد على مضيق جبـل طـارق ، على البوغـاز ، لان التجـارة فى حوض البحـر المتوسط بعد أن كانت تصل مـن موانىء البحـر المتوسط فى بيروت واللاذقية والاسكندرية والبندقية وميلانو وغيرها كانت تصل الى موانىء فرنسـا الجنوبية ، ومن مرسيليا مثلا ومن برشلونه كانت القوافل التجاريـة البحرية تعبـر المضيق نحـو لشبونه أيام تطورها الاقتصادى والسياسى قبل أن تصبح كعاصمة أولى للبرتغال ، أو عندما بدأت تأخذ هذه الصفة ، فالبرتغاليون منذ ١٤١٥ احتلوا سبتة لظروف مختلفة داخلية وخارجية وكان من أهم الدوافع ، الدافع الاقتصادى ليحكموا فـى المضيق ، ثم الى جانب ذلك هناك عامل دينى وهو أن سبتة كانت دائما المر الرئيسى للمغاربة فى مساعدتهم للاندلسيين بجنوب اسبانيا وكان مـن الدوافع ايضا أنهم يقطعون الطريق على النجدات العسكرية المغربية ، اذن هذا عامل عسكرى ودينى ثم قضية اكتشاف امريكا والطريق البحرية نحو الشـرق الاقصى هـو الذى زاد مـن اهتمـام الاوروبيين ، وأول من بدأ البرتغال ، ثم الاسبان ، وزاد هذا الاهتمام نظرا للظروف الدينية ، ونحن نعلم انه منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ظهر العثمانيون وأخذوا ينطلقون فاتحين فى أوروبا الشرقية وسيطروا على بيزنطة سنة ١٤٥٣ ثـم انطلقوا بعدهـا فى بـلاد البلقـان وفى المنـاطق الوسطى من القارة الاوروبية ، هذا الدافع كـان له رد فعل من طرف الكنيسة المسيحية ومن طرف البابوية بحيث منذ منتصف القرن الخامس عشر بـدأت البابويـة تحـرض المسيحيين وبالاخص الاسبـان والبرتغـال على تشديد الوطـأة ضـد المسلمين فى الغرب الاسلامى وأقرب البلاد الى أوروبا هى شمال أفريقيا وبلاد المغـرب ، وعلى سبيل المثال فقط فى سنة ١٤٥٣ وقع فتح بيزنطة من طرف المسلمـين وفى ١٤٥٤ كـان الهجـوم

البرتغالى على مدينة القصر الصغير فى شمال المغرب ، وبعدها بأربع سنوات وقع احتلال طنجة ثم احتلت بعدها مدن أخرى ، اذن هذا عامل دينى ورد فعل ، فى الوقت الذى كان الاسلام ينتشر بالقوة فى أوروبا الشرقية فرد الفعل المسيحى كان عن طريق الغزو البرتغالى للشواطىء المغربية ، ثم توالت هكذا العمليات العسكرية والغزو ، ونجد البابا فى منتصف القرن الخامس عشر يخطط للتوسع الاسبانى البرتغالى ، هذا التخطيط جعلنا نرى أن البابوية تجعل ما هو شرق مدينة سبتة للاسبان وما هو غرب المدينة للبرتغال ، وفعلا الاسبانيون انطلقوا بعد احتلال مليلية سنة ١٤٩٧ نحو المرسى الكبير بوهران، مستغانم ونحو الجزائر قبل أن تصبح عاصمة ، ونحو تونس ، ونحو طرابلس ، بحيث الاسبان امتدوا فى احتلالهم نحو مدينة طرابلس سنة ١٥١٠ ، اذن هذه هى الانطلاقة الاولى ، فمع بداية القرن السادس عشر نجد أن الشمال الافريقى انقسم الى قسمين : قسم يحتله الاسبان ، انطلاقا من مليلية الى طرابلس ، وقسم يحتله البرتغال من سبتة الى مدينة أغادير فى الجنوب ، اذن هذه هى الانطلاقة الاولى كما أرى ، وهى تجسم لنا كيف بدأ الاهتمام وهو اهتمام استعمارى ولعوامل اقتصادية ودينية وبطبيعة الحال تطور هذا الاهتمام مع تطور الزمن وخلال العصور الحديثة كما نعلم .

الدكتور ابراهيم حركات ، مدير الثقافة بوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية .

أعتقد من جهتى أن اهتمام المؤرخين الاجانب بالمغرب العربى كمنطقة للدراسة التاريخية نشأ على مراحل ، وقبل عرض هذه المراحل بايجاز أقول ان السبب الاصلى الاول لاهتمام الاوروبيين بصفة عامة بالمغرب العربى هو قبل كل شىء سبب دينى ، ومن هذا السبب الدينى انطلق حتى المؤرخون الاولون اذا صح أن نعتبرهم مؤرخين ، هذا السبب الدينى يعود الى وجود أولا خلافة تركية فى الشمال الافريقى ، ووجود مغرب يدافع القوة البرتغالية والاسبانية التى كانت تريد أن تبسط سيطرتها على مجموع الشمال الافريقى ، فى هذه الظروف كان هناك عدد من البرتغال ومن الاسبان اما أسارى فى الجيوش المغربية أولدى الاتراك أو بوصفهم تجارا ، أو بوصفهم قناصل يدونون التقارير هكذا بدأ الانطلا ق الاول للاهتمام بالتاريخ فيما يخص المغرب العربى من طرف الاوروبيين ، هذه التقارير كلها بطبيعة الحال ليست كلها منصفة وليست نزيهة بل فيها ما كان تافها يهتم باشياء تافهة ويتوسع فى كيفية معاملة المغاربة للاسرى وياتى باقاويل لا أساس لها فى الغالب ، فتقارير المبعوثين الاجانب وتقارير الاسرى مهما كان منها فهى تنيرجانبا مهما من تاريخ المغرب العربى فى حقبة لم يكتب عنها المؤرخون الوطنيون شيئا كثيرا سوى من جانب واحد وهو الجانب السياسى لكن هؤلاء الاوروبيين افادونا ايضا من الجانب السياسى كما افادونا باشياء عن الوضع الاقتصادى وعن الوضع الاجتماعى فى هذه المنطقة من افريقيا ولا سيما بالنسبة للجزائر والمغرب الاقصى .

الاهتمام الثانى هو اهتمام رجال الدين ـ الرهبان ـ هؤلاء كان ينبث منهم عدد فى جهات مختلفة من الشمال الافريقى سيما فى الموانىء اى يوجد البعض منهم مثلا فى مناطق القراصنة ، بمعنى كانوا مع المسيحيين الموجودين فى عين

المكان ، وكانوا صلة وصل بين القراصنة وبين هؤلاء الاسرى ، كذلك كان يوجد من هؤلاء الرهبان جماعة فى وهران وآخرون فى جهات أخرى ، هؤلاء الرهبان أيضا كتبوا عن تاريخ المغرب بعض التقارير وفيهم من اتصل بعلماء وبشخصيات مغربية ، وتعرضوا بطبيعة الحال لما سموه بمضايقات من طرف المغاربة لانهم كانوا يستنكرون وجود رهبان وسط المجتمع المغربى مثلا ، هذه الاشياء كانوا يرونها ويدونونها ، فاذن الاهتمام انطلق من هذين الاساسين .

ثم العامل الاجتماعى الذى انطلقوا منه هو بطبيعة الحال وجود مجتمع غريب تماما عن المجتمع الاوروبى ، له دينه الخاص ، وتقاليده الخاصة ، ومعيشته الخاصة ، واقتصاده الخاص وطبائعه ، وما الى ذلك فلذلك كان يستهويهم أن يشاهدوا منظر موسم مثلا ، أو يزوروا قرية ، أو يشاهدوا المغاربة أثناء السوق فيصفون كل تلك الاشياء وصفا دقيقا ، اذن كان هناك مجتمع غريب عن المجتمع الذى عرفوه هم .

أما العمل السياسى بطبيعة الحال ، فالشمال الافريقى يشكل المنطلق الاول للاستعمار فى افريقيا بدأ الاحتلال من المليلية ومن سبتة ..الخ ثم بعد ذلك جاءت جهات أخرى فى افريقيا ، طبعا العوامل التاريخية المعروفة : الخصومة أو العداوة التى كانت بين الاسبان وشعوب المغرب العربى بوصف هؤلاء الآخرين سبق لهم أن كانوا فى اسبانيا سكانا وحكاما وبناة دين وحضارة والاسبان الذين استرجعوا بلادهم طبقوا عملية الانتقام باستغلال الضعف السياسى فى هذه الاقطار الثلاثة وقاموا يحتلون مراكزها واحدا تلو الآخر حيثما كان لهم ذلك ، أما العامل الاقتصادى فهو معروف لان المغرب العربى يتوفر من الخيرات على ما لم تتوفر عليه أية دولة فى أوروبا ، حتى عصر الاكتشافات ، وبعض المناطق من المغرب العربى كالمغرب الاقصى فى أوائل العصر الحديث كما تحدث عن ذلك الاخ كريم كانت تتمتع بازدهار منقطع النظير لم يتقدم له مثيلا فى الميدان الاقتصادى قبل هذه الحقبة ، فمن المعلوم أن فى هذا الوقت كان يوجد السعديون كانت هناك مصانع السكر ضخمة وكان تبادل تجارى عظيم ما بين المغرب وعدد من الدول الاوروبية هولندا ، الدانمارك ، انجلترا وفرنسا بصفة خاصة ، وكان التجار الاوروبيون يوجدون بكثرة فى كل من مراكش وآسفى ، وبطبيعة الحال كانوا يوجدون بوهران ، وكانوا يوجدون كذلك بتونس العاصمة ، هؤلاء التجار أيضا كانت لهم اهتمامات كبيرة بالوضع الاقتصادى المغربى الداخلى وكانوا يدرسونه بعناية وبدقة ويكتبون عن ذلك من جهتهم تقارير ويزودون بهذه التقارير بلاطهم وحكوماتهم ، وفيهم من كان يرغب الملوك فى ذلك الوقت باحتلال اطراف من المغرب العربى أو باحتلاله كله مع وجود فترات ضعف بطبيعة الحال فى تلك الحقبة بشمال افريقيا .

أما العامل الثقافى الذى انطلق منه المؤرخون فقد وجدوا فى الثقافة العربية بالمغرب العربى عنصرا جديدا لاهتماماتهم ولذلك كان انكباهم واحتنقهم يدرس العربية ويهتم بها ومن ثمة يتوصل بها الى دراسة ما كتب عن المغرب العربى وما كتبه المغاربة عن بلادهم وما يوجد ببلادهم من مخطوطات ووثائق ، وهذا الاهتمام يتضح بصورة بارزة ابتداء من القرن الثامن عشر ثم يتوسع فيتوسع اكثرفاكثر معبداية احتلال الجزائر ثم بسط

الحماية بتونس وبسط الحماية بالمغرب ، كان لا بد لفرنسا ولاسبانيا قبل أن تبسطا نفوذهما على هذه المناطق من افريقيا كان لابد لهما أن يتعرفا على هذه الاقطار عن طريق دراسات مركزة ومن ثمة نشأ الاهتمام بانشاء مجموعة من المجلات مجلات فرنسية ، وفى فترة متأخرة جدا ، مجلات اسبانية ومجلات برتغالية ، فهذه المجلات منها مثلا ما عرفناه فى الاخير «المحفوظات البربرية» ، «المحفوظات المغربية» ، «العالم الاسلامى» وفيها ما يهتم بافريقيا ، «المجلة الافريقية» . بالاضافة الى هذه المصادر التى لم تنشر عن المغرب ، التى أعدها دوكاسترى وتابعها بعده جماعة من رجال التاريخ الفرنسيين ، منهم روبير ريكار ، هؤلاء مهدوا الجو لفرنسا بصفة خاصة للتعرف كثيرا على الوضع السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى المغرب .

ومن دلائل اهتمام الجامعيين والطلبة والدولة الفرنسية بصفة خاصة بالمغرب العربى ان المطلع على الاطروحات التى توجد الآن بالمكتبة الوطنية بباريس فى أوائل الاحتلال الفرنسى للجزائر وفى أوائل الحماية الفرنسية يجد عددا كبيرا من هذه الاطروحات تتناول جوانب سياسية خاصة بهذه الفتر وتبرر الوجود الفرنسى بالمنطقة ، بمعنى أنها كلها تحوم بالتقريب حول نفس الموضوع لتبرير الوجود الفرنسى بالمنطقة ، تبريرا اما قانونيا ، اما اقتصاديا ، اما اجتماعيا ، أول كل هذه التبريرات مجتمعة .

د. محمد كريم : الجوانب الايجابية والسلبية فى كتابات المؤرخين الاجانب عن المغرب العربى ، طبعا هناك جوانب ايجابية وجوانب سلبية ، فبالنسبة للجوانب الايجابية هناك أولا : وجهات نظر غير وجهات نظر المؤرخ الوطنى ، المؤرخ الوطنى ينظر من جانب لا ينظر اليه عادة المؤرخ الاجنبى ، ربما لا يلتفت الى جوانب كثيرة من جوانب الضعف الموجودة فى تاريخ بلاده وهى نفس الجوانب التى يترصد لها بصفة خاصة بعض المؤرخين الاجانب ، فاذن نحن نعتبر هذا جانبا ايجابيا ، فاشياء كثيرة كنا نجهلها من تاريخنا وهى تعتبر نقطة ضعف بحق ولا يمكن أن ننكرها ، ولكن هؤلاء المؤرخين الاجانب وضعوا أيدينا عليها ، الامثلة كثيرة فهم اذا لاحظوا أن فى جهازنا الادارى كان يوجد فيه ضعف مثلا ، ما كان يسمى بالمخزن وهذه اللفظة كانت موجودة منذ العصر التركى فى القديم وطبقت فى شمال افريقيا بنفس الصفة منذ العصر الموحدى ، الحفصيون فى الجزائر وفى تونس وبنوزيان كذلك فى الجزائر ، ثم المرينيين فى المغرب والسعديين بعدهم والعلويين فى الفترة المتأخرة ، أى فى هذه الحقبة نظام الحكم أو جهاز الحكم بصفة عامة كان واحدا وكان مختصرا ، لم تكن وزارات متعددة ، لم يكن هناك فى الغالب جهاز استشارى منظم وطبعا هناك استثناءات بالنسبة مثلا ــ للموحدين ، وبالنسبة للمرينيين نسبة ضعيفة جدا وبنسبة اقل منها بكثير بالنسبة للحفصيين فمثلا هذه الملاحظات اذا لاحظها تيراس وغيره فهى تلفت نظرنا الى حقيقة واقعية وهى أن هذا الجهاز كان ضعيفا ، فهذا اذن من الجوانب التى لفتوا اليها انظارنا ، والواقع أن الجوانب الايجابية كثيرة ، لكن الجوانب السلبية هى أيضا متعددة ، لم يستطع أحد من المؤرخين الاجانب فيما أعتقد وفيما درست ، ان يتحدث لنا بانصاف كامل عن المجتمع المغربى على حقيقته فى القرون الماضية ، لماذا ؟ لانهم قصروا اهتمامهم

على الجانب السياسى وعلى الجهاز الحاكم وحده وقصروا انتقاداتهم على هذا الجهاز وحده ونسوا الطرف الآخر كما نسيه أيضا المؤرخون الوطنيون أيضا الذين قصروا اهتمامهم على الحكام وحدهم نسوا أن يدرسوا حوله مجموعة من المصادر التى ربما لم تكن بين أيديهم أو التى لم ينتبهوا اليها ، مثلا كتب النوازل الفقهية ، وهى كتب مليئة جدا بالاحداث والوقائع الاجتماعية ويمكن أن تعطينا نظرة شاملة وموسعة عن الوضع الاجتماعى للمغرب العربى فى فترات متعاقبة حسب الفترات التى كتبت فيها هذه النوازل وهى متعددة جدا ، وعلى سبيل المثال معيار الونشريسى الجزائرى فى عدة مجلدات ، نوازل سحنون كذلك ضخم فى تونس ، نوازلنا كذلك متعددة الجواهر المختارة وغيره ، الاساتذة يعرفون هذه الاسماء بكثرة ، ولذلك بقى هذا الجانب مع الاسف مهملا فاعتبر أن اقتصار المؤرخين الاجانب على الجانب السياسى وحده لم يكن فيه جديد ، لم يقدموا من هذه الناحية شيئا جديدا بالنسبة لتاريخ المغرب العربى ، كذلك من الجوانب السلبية بالنسبة لبعضهم بعدهم عن الانصاف ، وقد أتيت فيما سبق بمثال تيراس وهو مثال حقيقى للبعد عن الانصاف لانه اعتبر الحقبات التى سبقت الحماية الفرنسية وسيما ما قبيل الحماية هى فترة فوضى شاملة وأن المغرب لم يخلق من جديد الا بعد أن جاءت الحماية فحينئذ خلقه اللـه ، أما قبل ذلك فكان ميتا ، بالنسبة للجزائر مثلا عدد كبير من المؤرخين لا يعتبرون أن للجزائر كيانا ، ربما لا يتفق الكثيرون معهم لانه كانت توجد هناك دول ، كذلك كا نهناك قوتى الذى كتب عن شمال افريقيا له آراء بعضها صائب وبعضها بعيد تماما عن الصواب ويثير دائما فكرة العنصر البربرى ضد العنصر العربى وانهما يختلفان تمام الاختلاف فى كل شىء وهذه الفكرة يحملها عدد من الاجانب ولكن مع هذه الملاحظات كلها يجب أن اقدر شخصيا الدور الكبير الذى لعبه عدد من المؤرخين الاجانب سيما فيما يخص جملة من مظاهر حضارة المغرب العربى بصفة عامة ، أذكر كمثل جورج مارسى الذى كتب عن الآثار الاسلامية فى هذه المنطقة كلها وكتابه مهم جدا عن الآثار الاسلامية لا نظير له ، كذلك دوفيردان كتب عن مراكش ولم يكتب احد عن مراكش مثلما كتبه هو ، كذلك بالنسبة للحضارة بصفة عامة فى الشمال الافريقى كتابات أندرى جوليان لا بأس بها ليست متعمقة ولكنها تعطينا نظرة ، لم يهتم فقط بالجانب السياسى كما فعل تيراس ، بل أثار انتباهه مظاهر الحضارة الموجودة فى الشمال الافريقى وكتب عنها بكثير من الانصاف وبكثير من الاعجاب ٠

الاستاذ سعيد النجار ، أستاذ بكلية الآداب جامعة محمد الخامس الربـاط ٠

أريد أن استطرد على ما قاله الاخ ابراهيم حركات حول الجوانب السلبية والايجابية فى الانتاج التاريخى عند المؤرخين الاجانب ، كلنا يعرف ان الكتابات التاريخية التى كتبها الاجانب لها صبغة ايديولوجية استعمارية ، الا انه لا يجب ان نظن ان جل هذه الدراسات تصطبغ بهذه الصبغة ، هناك دراسات كثيرة ومتعددة انجزت فى عصر الحماية ولا زالت قيمتها قائمة الى يومنا هذا ، فبعد الاستقلال هنا فى المغرب على الخصوص جاء باحثون اجانب يعملون جنبا الى جنب مع باحثين مغاربة ووصلوا الى نتائج لابأس بها ، فهناك بعض الجوانب التى هى سلبية بدأ فى تجاوزها هؤلاء الباحثون ، مثلا مسألة أصل

البربر ، كانت فى عصر الحماية نظريتان متعارضتان حول هذه المسالة ، نظرية تقول بأن البربر لهم صلة بأوروبا والاخرى تقول بان اصلهم من الشرق ، ثم جاءت بحوث جديدة واعتمادا علىدراسات انتربولوجية واكتشافات اثرية مختلفة توصل هؤلاء الباحثون الى هذه النتيجة وهى أن سكان المغرب العربى يتكونون من مزيج من مجموعات مختلفة ٠

أولا : هناك مجموعة قديمة جدا كانت توجد بالبحر الابيض المتوسط ثم أضيفت اليها من بعد مجموعتان جاءت من آسيا الشرقية ، الاولى مارة من الطريق الشمالى الشرقى واصطبغت باللون الابيض ، والثانية مارة من الجنوب الشرقى واصطبغت باللون الاسود ، من خلال هذه البحوث نرى أن اصل سكان المغرب متعددو الاصول وأنه لا يجب أن يقال انهم متصلون بأوروبا فقط أو من الشرق ، هنا المسالة اكثر تعقيدا ، هناك امثلة كثيرة لا يسمح الوقت لسردها وأجيز فاقول أنه كان يعتقد أن لاوجود لعصر البرونز بالمغرب العربى وأن عصر ليونيتى استمر الى أن وصل تقريبا الى الف قبل الميلاد لانه لم يكن هناك عصر البرونز (النحاس) ثم ان اكتشافات كثيرة عثر عليها مثل النقوش على الاحجار بالاطلس الكبير ثم العربات ، العربات كذلك اكتشفت قبل مجىء الفينقيين ، برهنت على أن هذا العصر كان يوجد بالمغرب العربى ٠

د٠ محمد كريم :

حتى نبقى فى دائرة الموضوع ، أرى أنه لا يجب أن نطيل مثلا فى عرض موضوعات وعرض معلومات لان في الواقع هذه المعلومات قيمة وهامة ولكن الموضوع الآن هو موضوع اهتمام الاوروبيين بتاريخ المغرب العربى والجوانب السلبية والايجابية بصفة عامة فى كتاباتهم كما حددها رئيس تحرير «الاصالة» ، هناك جوانب كما فصلها الاخ ابراهيم حركات بنوع من الدقة وهى أن الاوروبيين بحثوا جوانب ايجابية واثاروا الاهتمام الى موضوعات غفل عنها بعض المؤرخين أو معظم المؤرخين فى المغرب العربى كما أن هناك جوانب سلبية وبصفة خاصة كان هناك التعصب الدينى وهذا لا يستغرب ولو بحثنا موضوع الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت نجد أن الكاثوليكى كان يكتب عن البروتسانتى كتابات يندى لها جبين الانسانية فى الوقت الحاضر فكيف الامر بالنسبة لكتابة كاثوليكى عن بلدان المغرب العربى التى كانت بلادا اسلامية وعربية ، فاذن بصفة عامة هناك جوانب ايجابية وجوانب سلبية ٠

عثمان شبوب

ننتقل الى مسالة اخرى لها صلة قوية بالمسالة التى كنا نناقشها وهى مسالة المناهج ٠ واقترح كمدخل لهذا الموضوعان نناقش منهجا كان يعتمده كثير من المؤرخين الاوروبيين عندما يتصدون لكتابة تاريخ المغرب العربى وهو المنهج الاتنوغرافى ، وهو يقوم على اساس عنصرى واستعمارى اذ يعتبر أن شعوب المغرب العربى قبائل بدائية ومجموعات متفرقة ، أريد أن اعرف رايكم باعتبار أن هذه المسالة ليست اكاديمية نلهو بمناقشتها وانما هى مشكلة عملية ما نزال نواجه تلاميذها فى بعض الجامعات العربية والمغربية بصفة خاصة ٠

الاستاذ سعيد النجار

قد يكون هذا من الجوانب السلبية بالنسبة للمؤرخين الاجانب ·

د· محمد كريم : هم لم يفعلوا هذا بالنسبة لشعوب المغرب العربى ولكنهم فعلوه بالنسبة لعدة شعوب ، فمن يرجع الى الدراسات التى تلقى فى معهد اللغات الشرقية بباريس مثلا يجدها مركزة على جميع الشعوب التى تدرس لغاتها هناك ، هذه الدراسة الاتنوغرافية مركزة على جميع هذه الشعوب ، على كل حال هذه وجهة نظر ، لماذا يمكن ان يكون هذا الجانب سلبيا ونحن ـ مع الاسف ـ مؤرخونا الوطنيون لم يلتفتوا اليها التفاتا كبيرا ، اى المؤرخون المسلمون بصفة عامة لم يهتموا بما قبل الاسلام ، هذا جانب ضعف خطير فى التاريخ الاسلامى بالنسبة للمؤرخين الذين أرخوا للتاريخ الاسلامى ، نسوا تماما ما قبل هذه الفترة ، ومن اعتمد ـ منهم على تاريخ أجنبى اعتمد بصفة خاصة على الاسرائليات وهى كلها خرافات بعضها من التوراة وبعضها مفتعل اذن المؤرخون الاجانب فى هذه الناحية انطلقوا من أساس هو أن هذه الشعوب ارادوا أن يعرفوا أصلها لان أصولها لم تضبط حتى فيما كتبه بعض المؤرخين القادرين النابغين مثل ابن حزم مثلا لم يهتد فى النهاية الى حل بالنسبة للبربر كما أثار الاخ آنفا ، وكذلك ابن خلدون فقد جاءوا بعدة نظريات لمؤرخين برابرة وعرب ولم يتوصلوا فى النهاية الى حل ، على اى حال المنهج الذى يجب اتباعه اذا سمحتم ، أظن هذه النقطة الاخيرة فى الندوة ، المنهج الذى ينبغى اتباعه فى كتابة تاريخ المغرب من جديد هو فى رأيى يجب أن يكون خليطا من كل المناهج الموجودة لماذا الاقتصار على النهج الانتوغرافى وحده ، لماذا الاقتصار على المنهج التاريخى والمنهج التقليدى مات أوكاد يموت، فنحن هنا مع توينبى الذى يرى أن الاهتمام بالحضارة يجب أن يطغى قبل كل شىء على كل الاهتمامات لان السياسة تموت ولكن الحضارة تخلد ولو أن الحكومات نفسها هى التى تخلق أو تساهم فى الواقع فى خلق هذه الحضارات لكن الحضارات نفسها هى التى يجب أن تكون موضع اهتمام الدراسات ، فهذا رأيى

الاستاذ سعيد النجار

اشاركلم رأيكم لا يجب أن نقتصر على هذا المنهج دون الآخر والمنهج السائد الآن هو طبعا ان المؤرخ يؤاخى الاختصاصى فى الانتوغرافية وفى السيسيولوجية وفى الادب ·· الخ ، فلا يمكن أنتكوندراسة مستفيضةوكاملة الا اذا تآخىممثلو هذه المواد كلها، قلتم آنفا اذا سمحتم، انه كثيرا من الاجانب لا سيما فيما يرجع الى التاريخ الاسلامى فى المغرب العربى لم يعتمدوا على نصوص النوازل مثلا اشرتم الى الونشريسى أو البرزلى ـ اذا سمحتم ـ أنا اقول هناك طائفة من النحاة بدأت فى زمن ليس بقريب بالاهتمام بهذه المصادر وأذكر مثلا فيما يرجع الى تاريخ افريقيا الشمالية دراسات روبير برانشفيك حول السوس فى عهد الحفصيين دراسات هادى روجى ادريس حول تاريخ تونس فى عهد بنى زيرى ، هناك سى ابراهيم حركات كذلك ومحمد طالبى من تونس كتب دراسات عن امارات الاغالبة وعلى الخصوص دراسة فى التاريخ السياسى كل هذه الدرسات هى كثيرة مثلا كذلك ـ ويسى ميراندا ـ حول التاريخ السياسى للامبراطورية الموحدية ـ وبوش قيلا ـ حول الدولة المرابطية ·· الخ

هناك كثيرون الآن تجاوزوا استعمال المصادر التقليدية التى اقتصر عليها بعض المؤرخين وبدأوا يستعملون مصادر جديدة وعديدة ناهجين منهجا جديدا علميا • ذكرت لكم هذه الاسماء وهناك اخوان فى الجزائر كثيرون وفى تونس ايضا وأنا أرى أن الصبغة الاستعمارية لم تكن بطبيعة الحال والآن هناك دراسات كثيرة تنجز فى المغرب والجزائر وتونس بتعاون ما بين مؤرخين اجانب ومغاربة يدا فى يد •

توفيق احمد ـ استاذ مساعد فى كلية الآداب ـ المغرب ـ

اظن ان الموضوع لم نتطرق اليه فى بعض الجوانب المهمة منه ووقع فيه خلط كثير كما يقع فى المناقشات الشفوية الغير المحضرة •

أولا : السؤال كما وضعه الاستاذ عثمان شبوب حسب ما فهمت ، له نظرة مستقبلية كيف نكتب فالنهاية هى أساس الاسئلة التمهيدية كيف نكتب تاريخ المغرب • نحن الآن لسنا هنا ولم يوضع السؤال لنحاكم المؤرخين الاستعماريين أو مؤرخى الفترة الاستعمارية أو مؤرخى ما قبل الفترة الاستعمارية لان هذه الاشياء يجب التمييز بينها ، يجب التمييز بين المؤرخين الحقيقيين اذا كان هناك مؤرخون • أنا اقول بأن العروى بدأ كتابه فقال بأنتايخ المغرب الكبير حظى دائما لسوء حظه بمؤرخين بالصدفة فهو لا يعترف بقدمهم فى الفن وله أن يقول ذلك معتمدا على استغراب الاسماء الذين الفوا لنا كتابات تاريخية ، هناك اناس كتبوا رحلات مع انهم جاؤوا ليزوروا المغرب لتحرير الاسرى أو انهم جاؤوا سواحا او طلابا للعلم وكتبوا اشياء اصبحت تعد بالنسبة للمؤرخين الاجانب فى الفترة الاستعمارية بصفة خاصة نصوصا تاريخية نظرا لعدم تمكنهم من مراجعة النصوص العربية من جديد ونظرا لثقتهم بهم أو لكونهم يجدون عندهم ما يبحثون عنه الى غير ذلك ، هناك منهم من كتبوا نصوصا لم تكن نصوصا يقصد بها كتابة التاريخ ولكنها أصبحت فيما بعد نصوصا تستعمل للتاريخ ، نظرا لقلة المصادر ، وفى هذه النصوص جانب نجده فى مجموعة المراسلات الديبلوماسية فى الغالب ، وهناك جوانب أخرى هى وصف البلاد المغربية ، وأهم هذه الاوصاف عمل ليون لا فريكان وغيره ، فلا يجوز أن نخلط بين هؤلاء جميعا ، وأظن أن هؤلاء هم الذين نحن مطلوب منا التحدث عنهم ـ المؤرخون المهدون للاستعمار والذين واكبوا سياسة الاستعمار الى حدود الاستقلال ، ولا نبحث عن الذين قلبوا ظهر المجن وأصبحوا يتحدثون فى العهد الجديد أو يكتبون التاريخ فى العهد الجديد فهؤلاء أجانب فى بلادنا يهتمون كما يمكن أن نهتم لو كتبنا تاريخنا بتاريخ بلدان اخرى لنا معها علاقات ويجب أن نعزز معهم هذه العلاقات ونساندها بالكتابة التاريخية فهذه هى وضعية الذين بدلوا لون اهتمامهم بتاريخ المغرب العربى ، أظن أنه اذا ذهب شاب مغربى باحث الى المكتبات ليكتب عن تاريخ المغرب يجد نصوصا أصلية وطنية ويجد نصوصا أجنبية ، اذا استعرضنا فيما يتعلق بالتاريخ القديم فيما يتعلق بالنصوص الاجنبية نجد نتائج الكشوف الاثرية ، ونتائج الكشوف الاثرية تحدث عنها محمد الساحلى فوصفها بأنها كانت تستهدف تركيز حتمية مبنية على دلائل علمية لاتسمح أبدا بالاستناد اليها الا وهى الحتمية الاجتماعية أوحتميات الجمود التاريخى على أن افريقيا كما تظهرها نتائج الآثار فى عهد بروكوب هى نفسها افريقيا فى القرن

التاسع عشر وافريقيا ما قبيل الاحتلال ـ اتحدث عن افريقيا الشمالية ـ ثم هناك الحتمية الجغرافية لان هذه البلاد الفقيرة هى بلد لم تعط خصبا لا فى الارض ولا فى الرجال الى غير ذلك من الحتميات.

هذه كلها وضعها محمد الساحلى فحاول محاولة جدية ورزينة ، حاول السيد العروى أن يرد على السؤال الموضوع ووضع كشفا لهؤلاء المؤرخين واستعرض نظرياتهم وفعلا حرر كثيرا من الجوانب التاريخية لان المقصود هو تحرير هذه الجوانب ، ولكن الكتابة لا تكفى للتحرير ، فاذا جئنا الى الجيش العرمرم من الناس الذين قدموا الى المغرب واتخذوا طنجة مقرا لهم ليصدروا مجموعة الوثائق البربرية أو الوثائق المغربية نجدهم ليسوا مؤرخين لا فى الاصطلاح الاوروبى ولا فى الاصطلاح الحديث ، هم اناس عندهم اهتمامات سيسيولوجية سياسية هم القادة العسكريون والجواسيس الى غير ذلك ، فهؤلاء وصفوا أشياء فيها أرقام فى بعض الاحيان وفيها أحكام أحيانا أخرى يجب أن نحذر منها ، ولكن مع ذلك تظل لقلة ما يسد هذا النقص معروضة أمام شبابنا وأمامنا جميعا لنعود اليها ونحكم عقلنا كمؤرخين وطنيين ونحكم القوانين العلمية التاريخية ، ثم هناك المؤرخون الذين واكبوا الفترة الاستعمارية نجد مثلا روبير مونتان الذى كان فى الميدان روحيا ان صح التعبير وليونى فيكتب كتابا شبيها بالكتاب الذى كتبه ماسكورى عن تكوين العمارات فى الجزائر ، يكتب كتابا عن المخزن والبربر ، وهو كتاب قيم نظرا لانه جمع ملاحظات اذا ذهب الباحث ليجمعها الآن سواء بالرواية الشفوية أو بالملاحظة العلمية لا يستطيع أن يجمعها ، ولكننا لنا الحق أن نتحفظ وان نحاكم كثيرا من النتائج التى انتهى اليها ، ذلك لان هذا الكتاب ما زال يؤثر على كثير من النتائج التى توصل اليها فى المغرب الى الآن ، ثم نجد بعد ذلك الذين وضعوا هذه الكتب المجملة لتاريخ افريقيا الشمالية أو لتاريخ المغرب ، فلا نستطيع مثلا أن نقارن تيراس بأندرى جوليان ، لذلك هناك طبقات من المؤرخين الاستعماريين ، وهناك سياقات كتب فيها هؤلاء ، هناك المرتبطون مباشرة بالحركة الاستعمارية وهناك المرتبطون بها مصلحيا وجنسيا ، ثم هناك الذين حاولوا التجرد فعملوا فى ميادين الاتنوغرافنا لا أعرف ما هو المقصود بالضبط بالنصوص الاتنوغرافيا ، هل هى تلك الملاحظات التى جمعت فى العهد الاستعمارى وتتعلق بالفترة المتأخرة ، هل السؤال واضح حول هذه النصوص التى نستعين بها فى التاريخ مثلا بالنسبة لي أقوم ببعث معين بالنسبة لتاريخ منطقة معينة فى المغرب فاجد مثلا رجلا جزائريا اسمه السعيد بوليفة يكتب كتابا ضمنه مهمة بعثة استعمارية رافقها من الجزائر واستعانت به فكتب كتابا سماه «نصوص بربرية عن الاطلس» هذا الكتاب مهم جدا حفظ أشياء سواء من الناحية اللغوية أو من الناحية الاتنوغرافية لا نستطيع ـ بالتجربة ـ العثور عليها ، ولكن لم يصدر أحكاما فهذه النصوص يمكن أن نبرأها ربما فيها توجيه ما ، ولكن ما هى مهمة المؤرخ هى أن يناقش النصوص وأن يحاكمها الى غير ذلك ، هناك تيراس الذى أشرنا اليه وبعد قوتيى يوضع دائما فى الدرجة الثانية لا أظن أن هؤلاء الناس هم حبائل أو شباك ، نحن معرضون للوقوع فيها لانهم ألقوا أحكامهم وأصدروها حسب وثائق أشاروا اليها ، اذا أشاروا اليها وكانت موجودة فنحن نستطيع أن نرجع اليها ، واذا هم أصدروا أحكامهم جزافا فاننا نعرف بأن العقل التاريخى

شريطة الا نكون مؤرخين بالصدفة كما كانوا هم أيضا . نستطيع بالمقياس التاريخي أن نرفضها والا نسرب احكامها الى الكتب المدرسية التى هى لعامة تلاميذنا الذين يطلبون الثقافة العامة ، ثم بعد الفترة الاستعمارية يبقى المشكل موضوعا وهو مشكل المنهج ، النصوص الآن ما هو موجود منها من وضع الاجانب ليس بشىء بالنسبة لما هو موجود عندنا أو لما نحن بصدد اكتشافه من وثائقنا الاصلية التى فى الغالب لم يرجع اليها هؤلاء المؤرخون الاستعماريون مما يصح أن يكون طعنة فى أعمالهم ، ولكن مشكل التحرير يجب أن يقع فى الفكر المغربى لا فى ميدان التاريخ فقط ولا بمحاكمة المؤرخين الذين كتبوا فى العهد الاستعمارى ، لكن نحن الى الآن نحضر رسائلنا الجامعية ونضع برامجنا فى التاريخ وفى البحث التاريخى وضعا فيه تبعية لهؤلاء الذين كانوا بالامس نتهمهم بأنهم كانوا يزورون تاريخنا ، وجدت مناهج جديدة ليست بالاتنوغرافيا المفضوحة ولكنها ليست لباسا جديدا تحت ستار الانتروبولوجية أو تحت ستار الاتنولوجية الى غير ذلك ، ونحن الآن نسير على منهجها .

استعرض الآن الذين يبحثون فى التاريخ ، نجدهم اذا كانوا من اليقظين الذين يشعرون بأن تاريخنا كان مستعمرا ويجب ان يحرر يحارون أمام هذه المناهج ولا سيما ان أساتذتهم فى الغالب هم أساتذة من دول كانت بالامس دولا مستعمرة ، لماذا نكتب التاريخ ؟ ماذا نريد ؟ من سنكون غدا ؟ هذا هو السؤال ، هل سنكون غدا دولة أو أمة مسلمة ؟ أقولها لانموضوعها هنا ولا أرىان نناقش مشكلة التاريخ دون أن يناقش مشكل المستقبل ، سنكون امة مسلمة أضع هذا السؤال كما يضعه الانسان فى الاتحاد السوفياتى عندما يستعرض الكتب الدراسية أو الكتب الجامعية أو يستعرض التاريخ السوفياتى ، عندما اراد الناس أن يكونوا ماركسيين لينينيين كتبوا التاريخ ليكونوا ماركسيين لينينيين ، وكان فى القرن التاسع عشر يكتب اعتمادا على نفس النصوص كتابة أخرى ليظهر وجها آخر لروسيا ولتاريخ روسيا ، هذا هو المشكل بالنسبة للمستقبل .

الاستاذ عثمان شبوب :

هل تقصدون بهذا ، الايديولوجية التى ننطلق منها عندما نتصدى لكتابة تاريخنا ماذا تقصدون ؟

الاستاذ توفيق احمد :

لم اذكر الايديولوجية لاننى قلت سنكون مسلمين ، ولم اقل يجب أن نكون كذا ... فهذه الملايين هى التى تختار من ستكون ، وبذلك فى ظل هذا الاختيار ستحرر لا الفكر التاريخى وحده ولا المؤرخ وحده ولكن ستحرر الاشياء كلها ، لان المثال الذى اعطيتمونا على النشاط التاريخى فى المغرب الكبير فى الجزائر مثلا يدعونى الى القول بان المشكل هو مشكل تحرير التاريخ ، مشكل تحرير الفكر بصفة عامة ، وتحرير الانسان بصفة عامة أيضا .

الاستاذ مفدى زكريا ـ شاعر الثورة الجزائرية

انطلاقا لما قلتم ايها الاستاذ فى ان أحدهم كتب تاريخ بلد ما ليكون كما أراد الذين كانوا يتحكمون فى ذلك الوضع ، انطلاقا من هذا أقول ـ ولست مؤرخا وانما انا تلميذ بسيط أتطعم التاريخ .. لا يكاد يوجد لحد الآن شىء كتب قديما او حديثا يجوز أن يطلق عليه بالتاريخ الصحيح ،

فالبشر حين كتابة التاريخ سواء عن الاسلام أو غير الاسلام ، كل من كتب التاريخ او جلهم الآن كان متاثرا بتـاثيرات خارجية ، يـريد أن يكتب التاريخ ليركز على هذا التأثير الذى آمن به ، نرى ذلك فى تـاريخ الاسـلام والتضارب والتنـاقض الموجود فيه انطلاقا من الفتنة الكبرى الى الآن ، فأحدهم اذا كان شيعيا يكتب ليكون الناس كلهم شيعيون ، والذى يكون امويا يكتب ليكون التاريخ والاسلام امويين ، والعباسى يكتب ليكون التاريخ عباسيا ، والمالكى يكتب ليكون مالكيا ، والاباضى يكتب ليكون اباضيا ، ثم جاءت فترات التـاريخ من ضعف وقوة ، فالذين يميلون للاتراك كتبـوا التاريخ على أنـه لا يـوجد شيء الا الاتـراك ، والذين هم ضد الاتراك كتبوا انه لا يوجد انسان فى هذا العالم قام بالعجب الا العرب ، ونجد هذا أيضا فى تاريخنا الحاضر ، فى تاريخ ثوراتنا ، هل كتب أحدهم تاريخ ثورة الجزائر ، أو ثورة تونس ، أو ثورة المغرب ، بتجرد ونزاهة من غير ان يكون متأثرا اما بمذهبية عقائدية أو بمذهبية سياسية ، فبعضهم كتب التاريخ ليقال متأثرا بما يسمى بالتقدمية ، وآخر كتب التاريخ فاتهم بـانه كتبه متأثرا بالرجعية ، والاحزاب كثيرة والذين شاركوا فى الثورات كثيرون ، فنحن نقرأ لكـل كاتب فى التاريخ فاذا قرأنا ما كتب واقتنعنا بـه اعتقدنا بأن الثورة لم يخص بها الا فلان والحزب الفلانى ، فالتاريخ مكيف اما من الحكومات واما من الاحزاب او الافـراد .

فقبل أن نبحث كيف نكتب تاريخنا من جديد يجب أن نبحث عن الانسان المسلم المغربى المتجرد النزيه الذى لا يدين الا لسلطة العلم والعقل ويكتب متحررا مـن جميع التاثيرات الخارجية سـواء كانت سياسية أو غير سياسية ، هذا الانسان - قبل أن يطرح سؤال كيف نكتب تاريخنا من جديد - أقول وأكرر لا يوجد فى الغالب الى الآن بشر كتب التاريخ الا ليؤيد النظرية التى يؤمن بها حتى فى تاريخنا الحاضر ، فلا يجود تاريخ صحيح بـاتم معنى الكلمـة ، وعلينـا ان نخترع فـن مصطلح التاريخ كما اخترع فن مصطلح الحديث لتمييـز الاحاديث النبوية الصحيحة والمزيفة .

الاستاذ محمد المنونى - مؤرخ مغربى -

اظـن ان الاساتذة استوعبوا الجواب عـن السؤال الاول الذى يهدف الى بحث البواعث التى دعت الاوروبيين او الاجانب الى الاهتمام بتاريخ المغرب ، وأود بعد هذا ان أعقب بثلاث نقاط :

النقطة الاولى : ان المسألة مطروحة بالحاح كبير وهى ان كتابة الاوروبيين أو الاجانب الذين كتبوا عـن المغـرب ينبغى الاعتنـاء والاهتمـام بمراجعتها امن طرف لجان تؤسس فى كل بلدان المغرب العربى تميز صحيحها من دخيلها وبعـد ذلك نخـرج بنتيجة حيث نجد مـؤرخين أجـانب نزهـاء كتبوا على المغـرب فنعتمدهم فى البحث ونعتمدهم فى التاريخ ، نظير ما فعله القدامى مثل ابـن خلدون الذى كـان يعتمد بدوره على بعض المصادر الاجنبية ، ومثـل صاحب الاستقصاء ، ومثل كذلك المؤرخ ابن زيدان وغيرهم من الباحثين القدامى والمحدثين ، اذا قمنا بهذه العملية يتضح لنا الطريق لتاريخ المغـرب .

النقطة الثانية : يجب ان نقوم بنقد ذاتى ، وهو انه من البواعث التى بعثت الاجانب لكتابة تاريخنا وجود فراغ كبير وفراغ شنيع فى اعتنائنا بتاريخنا ، فالاوروبى مثلا لو يجد الرباط او فاس

او تلمسان أو غيرهما لها تاريخ مستوعب لا يحتاج الى الكتابة وانما يقوم بترجمته كما فعلوا فى التواريخ القليلة الموجودة فى المغرب ، فلما وجدوا مثلا كتاب «الاستقصاء» قاموا بترجمته وكذلك فعلوا فى مؤلفات مغربية أخرى» فلهذا يجب علينا ان نقوم بنقد ذاتى لانفسنا ، ونعرف ان تقصيرنا فى كتابة التاريخ كان من الاسباب ومن البواعث ومن الدواعى التى شجعت الاوروبيين على الاهتمام بكتابة تاريخنا ، وهذه الظاهرة قديمة فى المغرب ، اى فى المغرب العربى فى القرون الاولى حتى تقريبا نهاية العصور الوسطى نجد ان كثيرا من المصادر التى تكشف بالاخص على التاريخ الثقافى سواء فى المغرب أو فى الجزائر أو فى تونس نجد ان الاندلسيين هم الذين كتبوه ، عدة كتب نجدها مدونة من طرف الاندلسيين ، وقليلا من الاحيان نجدها مدونة من طرف المشارقة كما هو الواقع بالنسبة للعمرى وبالنسبة كذلك لابن الاثير ولغيرهما ، ان كثيرا من التواريخ أو الجغرافية التى كتبها المغاربة كانت لسوء الحظ ليست من بعث مغربى ولكنها باقتراح خارجى ، مثلا جغرافية الشريف الادريسى كانت باقتراح خارجى ، كذلك جغرافية ليون الافريقى كانت باقتراح خارجى ، فجغرافية الشريف الادريسى كانت باقتراح روجار ، وكذلك جغرافية ليون الافريقى كانت باقتراح ليون العاشر، وكثيرا من المؤلفات اقترحها المشارقة ، فيجب ان نعرف الداء لكي نبحث عن الدواء ، نخرج بحقيقة مؤلمة ان المغرب لا يعتنى بتاريخه وأقرب شاهد لهذا الثورة التى عمت المغرب العربى فى المغرب وفى الجزائر وفى تونس ، لا تجد لهم لحد الآن تاريخا مفصلا ، أو تاريخا صحيحا، مما يجعل الاوروبيين يتجرأون للكتابة عليها ، ومما يجعل كذلك الحقائق تبقى مطموسة ، ولهذا فمن النقاط الهامة التى ينبغى أن نخرج بها من هذه الندوة وهى العمل على خلق وعى لكتابة التاريخ ، وهذا الوعى له عدة طرق :

أولا : الشهادات الجامعية يجب أن تتجه فى أغلب الاحيان الى التاريخ المغربى .

ثانيا : التشجيع على النشر ينبغى أن تتجه كذلك الى التاريخ المغربى ، ولا أقصد بهذا الثقافة وحدها ولكن أعمم ، ينبغى كذلك لافراد الشعب أن يساهموا فى حركة النشر وفى عملية النشر ... الخ .

النقطة الثالثة : ما دمنا نبحث عن المؤرخين الاجانب والبواعث التى دفعتهم لكتابة التاريخ ، يجب أن نفحص ما كتبوه عن المغرب والتى نجدها تستحق الاعتماد نهتم بها ونبرزها ونقوم بترجمتها والكتب الاخرى التى تسىء الى المغرب العربى هذه نحذر منها وننشر ونبرز العيوب التى فيها ، وأخيرا ينبغى لنا كذلك فى كتابة تاريخنا أن يكون لنا منهج معين ما دمنا مسلمين ودستورنا الاسلام يجب أن تتجاوب كتاباتنا مع هذا المبدأ وبهذا نكون قد سرنا على الطريق السوى .

الاستاذ ابراهيم الخلادي

يكفى أن نعرف البواعث التى ادت بالاوروبيين للكتابة عن المغرب وعن الفترة التى قضوها بالمغرب ، نجد سماسرة أو ممثلين لديار تجارية مرسيليا مثلا و... نجد علماء ولكن هذا فى الاخير مثلا شاتوليى ، قوتيى ، ونجد أدون ، ودفيردان ، الذين كتبوا فى القديم، كتبوا ووصفوا

ما شاهدوا فقط ، لم يبحثوا فى المصادر فيما كتب المسلمون عن المغرب ، اكتفوا بوصف ما شاهدوا ، فكانوا مثلا يمرون بدوار من الدواوير فيقولون مثلا هناك ثلاثون خيمة ، وخمسة عشر بقرة ، وعشرة خيول ، وثلاث بندقيات ، هكذا ، ولما كتبوا عن القبائل والمدن المغربية نجد فى هذه الكتب معلومات أكثرها وصف لما شوهد ، مثلا يذكرون عدد المساجد وعدد الطلبة الذين كانوا يدرسون فيه ... الخ ، ولكن الشىء الذى يمكن أن نستفيده من هؤلاء هو هذه المعلومات الدقيقة حول المجتمع المغربى التى قل ما يلتفت اليها مؤرخ المغرب ، ثم نجد شيئا آخر مثلا مؤرخ مغربى يكتب مثلا كيف كانت بيت المال وكيف تفتح وما هى الشروط التى يجب أن تتوفر لفتح هذه البيت .. هذه المعلومات كانت غريبة بالنسبة للاجانب وبالنسبة لمؤرخينا كانت عادية ، فينبغى وضع تخطيط اختيار المؤلفين الاجانب الذين يمكن ان نعتبرهم جاءوا بمعلومات مفيدة تترجم وتتكون لهذا لجنة ويمكن أن تنظم لجنة فى كل وزارة ، مثلا وزارة الدفاع لديها خزانات تشتمل على كل ما كتبه الضباط عن الحروب وعن الغزوات ، نجد مثلا فى وزارة الداخلية خزانة تشتمل على عدد من المجلات ، مثلا «المحفوظات البربرية» «المحفوظات المغربية» ، يمكن أن تنظم فى كل وزارة لجنة لتقوم بهذا العمل ولكن بعد وضع تخطيط وفى الحقيقة لا يمكن أن نستغنى عما كتبه الاجانب وبالخصوص فى وصف المجتمع ، وأما من الناحية التاريخية ينبغى ان نحكم عقولنا .

الاستاذ عثمان شبوب :

نحن عندما نطرق هذا الموضوع موقف المؤرخين الاجانب ليس المقصود هو محاكمة هؤلاء الناس وانما هو نوع من المراجعة لهذه الكتابات لنبنى نهضتنا على أسس واضحة وسليمة ، فنصحح ما يجب تصحيحه ، ونضيف ما ينبغى اضافته ، ونكمل ما ينبغى تكميله وهكذا وهذا النوع من العمل ينبغى ان يندرج فى اطار ثورة ثقافية تشمل سائر مجالات حياتنا .

نص كلمة الاستاذ جان كاني في الندوة :

Jean KANI,
Professeur à la Faculté des Lettres - Rabat.

Je voudrais, (je crois qu'on est à peut prêt tous d'accord sur les principes) je crois que tous dans l'insistance l'on dit sous une forme différente, qu'il faut écrire l'histoire maintenant, il faut la décoloniser, la faire sous une autre forme et passer à un autre stade. Je crois que c'est cela l'important et qu'il faut passer à un autre stade. Parce que cela fait des années et des années que justement nous avons étudié ce thème que nous reprenons. J'ai un peu peur que cela devienne une prime à la facilité, parce qu'avant, d'arriver à refaire sous une autre forme ce qui a déjà été fait, ma foi, ce n'est pas là notre idéal, ce que nous voulons c'est justement faire autre chose.

On ne pourra le faire qu'en donnant les outils de travail à nos étudiants. Je crois que c'est là le problème important. C'est pour faire une histoire qui soit décolonisée et qui soit de l'histoire au sens plein du terme il faut apporter, donner à nos étudiants des outils de travail. Pour ces outils de travail c'est ce que demandait le professeur Mounir tout à l'heure. C'est ce qu'il faudrait organiser ; il faudrait un institut par exemple un institut de traduction car on ne peux pas faire de l'histoire actuellement, je crois en ignorant toute l'historiographie qui est faite durant ces 50 ou 100 dernières années. C'est inconcevable ou alors, on perd 50 ou 100 ans à tout refaire.

Par exemple refaire les travaux d'un Collin je parle d'un Collin parce que c'est le plus ancien, c'est un des plus grands qui existe et qui se trouve encore ici au service du Maroc à l'institut de l'arabisation. Je crois qu'essayer de refaire ce qu'il a fait serait l'absurdité la plus complète. Donc ce qu'il faut faire c'est justement donner des outils de travail à nos étudiants, voilà une des premières choses à faire, les former seraient justement à définir sur un plan maghrébin. C'est sur cela je crois que notre réunion de ce soir devrait jouer parce que il y aurait un planning à faire à effectuer par exemple sur les traductions, il faudrait que nos étudiants disposent des traductions des principaux articles d'Hesperis, des archives marocaines, des archives Berbères de tous les grands livres que nous avons signalés.

Sans ces livres, nos étudiants ne peuvent pas travailler c'est impossible. Ou alors le professeur perdra tout son temps à refaire la traduction sur les cours, donc c'est un cercle d'où on ne sort pas sur le plan maghrebin prévoir un institut de traduction, que chaque pays ait sa tâche, par exemple à Fès il y a M. TAZI, il vient de traduire l'histoire de l'Afrique Ancienne de Gsell.

C'est un travail monumental qui va rendre d'énormes services à nos étudiants de l'histoire ancienne (entre paranthèses depuis 56 nous avons formé une archéologue marocaine). C'est catastrophique de ce point de vue, quand on sait que pendant 15 ans

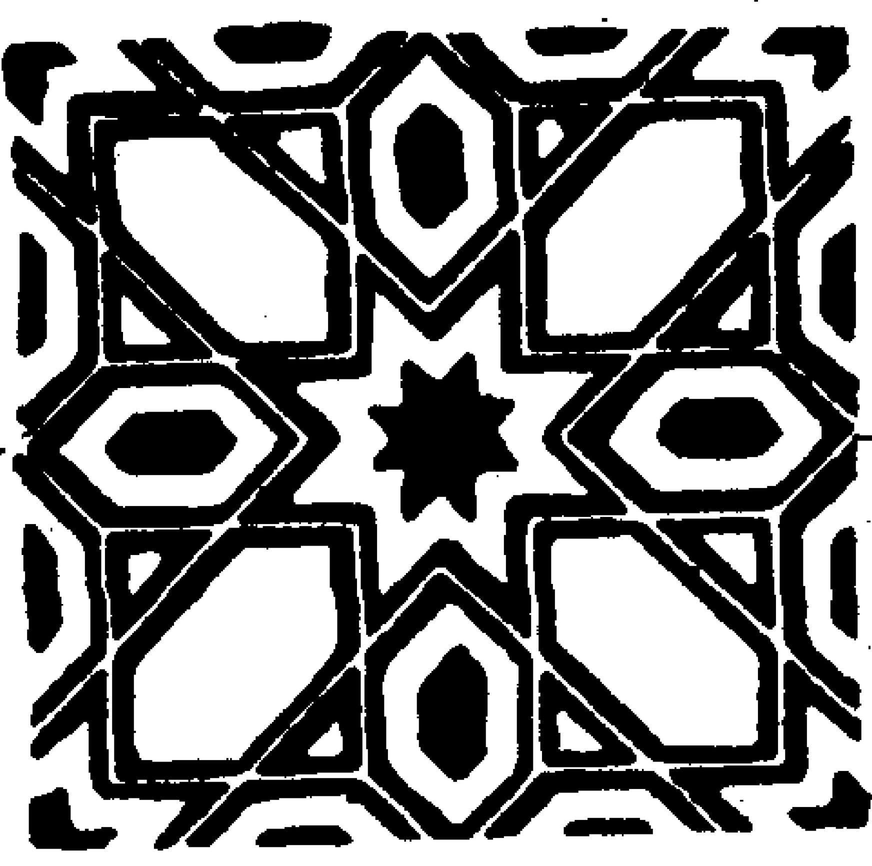
nous avons formé une archéologue seulement. Alors comme les travaux que vient de faire M. TAZI à Fès, traduction de l'histoire ancienne de G'sel, c'est une pierre énorme qu'il apporte à l'édifice.

Il faudrait je crois sur le plan maghrébin prévoir une série de questions et étudier les priorités et les principaux ouvrages et les principales revues à traduire. Je pense aux archives, à la revue du monde musulman où il y a des articles qui sont remarquables. Or ces revues sont actuellement, c'est un comble, rééditées en Amérique et au Lichtenchtein, alors qu'on aurait très bien pu les éditer au Maroc (chose qui nous aurait économisé des devises), en définitive ce soit ceux du Lichtenchtein et des Américains sans se soucier je crois bien des cours (pirates) qui vont rééditer les collections de revues Hesperis, également, des ouvrages, des œuvres, inédites également, je viens d'acheter un ouvrage reprophotographique de source inédite donc il y a un énorme travail à faire de ce côté là.

Deuxièmement : je crois entendre, maintenant c'est une idée que je lance comme ceci, on parle beaucoup de l'encyclopédie actuellement, il y a l'encyclopédie de l'Islam que chacun connait, on parle d'une encyclopédie africaine, pourquoi ne parlerait-on pas d'une encyclopédie maghrébine ?

Il faudrait peut être parler d'une encyclopédie maghrébine qui nous permettrait de définir, justement il y a beaucoup de choses que nous avons à définir, ne serait-ce que des termes, mettre au point la signification des termes d'Ibn Khaldoun ; ou lorsqu'on a des explications de textes à donner à nos étudiants, on butte sur la signification de certains termes, et là, des réunions de spécialistes maghrébins pourraient rendre beaucoup de services et la troisième formule c'est que on pourrait les pays qui ont par exemple des spécialistes en des matières pourraient aider ceux qui n'ont n'en pas.

Je pense par exemple pour nous, l'archéologie : il y a sans doute énormément de matières, on pourrait encore sans doute énumérer beaucoup d'autres matières. Ce sont des petites choses, mais je crois qu'il faudrait maintenant dépasser le stade, je vois dans la société de l'histoire du Maroc ; nous nous sommes appesantis sur ces problèmes maintenant, je crois qu'il faudrait reprendre un nouvel essort pour créer et pas recréer et en signant différemment ce qui a été fait mais vraiment créer du nouveau dans un esprit nouveau et vraiment dans ce qui est l'histoire et l'esprit de l'histoire tel qu'il doit être.



من آثارنا المغمــورة

الذخيرة السنية فى الدولة المرينية

محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية
الجزائر

ان «الذخيرة السنية فى الدولة المرينية» من ذخائر خزاناتنا التى كثرت معلوماتها وقـل العلم بها واستغلال مضمونها · وذلك انهـا فى عداد آثارنا المغمورة التى لم يلتفت اليها الباحثون من جديد يخرجونها للاختصاصيين ولجمهور القراء فى حلة علمية جديدة ويحللون محتواها، ويدرسون ما طوته صفحاتها من أخبار تاريخيــة ، وفوائد اقتصادية ، واجتماعية ، ومعلومات أدبية · وما يزيد من قيمة الكتاب انه رغم عنوانه والهـدف من تأليفه ، مصدر لدراسة تاريخ المغرب الاوسط فى العهد الزيـانى غداة انحـلال الامبراطورية الموحدية فى منتصف القرن السابع (الثالث عشر الميلادى) وقيام الدولة الحفصية بتونس والدولة الزيانية بتلمسان والدولة المـرينية بفـاس على انقاض الدولة التى اسسهـا المهدى بـن تومرت · وعلى ان الكتاب الف لتدوين تاريخ ملوك فاس ، فانه ينفرد بذكـر كثير مـن الاخبـار وكثير مـن المعلومات تهم تاريخ ملوك بنى عبد الواد وتاريخ المغرب الاوسط فى عهدهم ·

مـؤلف الكتـــاب :

لم يذكر محمد بـن ابى شنب حينما نشـر الذخيرة السنية ، اسم مؤلف الكتاب كما انه على خلاف عادته فى اصدار كتب التـراث فى حلـة علمية نادرة المثال فى عهده عند غير من الباحثين العرب لم يصدر طبعته ، ببحث عن صاحب الكتاب كما اهمل ذكر النسخة التى اعتمد عليهـا (١) . وقد استنتجنا من تعاليقه على المتن انه اعتمد على نسخة واحدة فقط . وهكذا اعتبر جمهور الباحثين شرقا وغـربا الذخيـرة السنية ، كتابا مجهـول المؤلف .

غير ان التشابه الكبير المشاهد فى جوانب عدة بين روض القرطاس لابن ابى زرع الفـاسى (٢) ، وبين الذخيرة السنية لفت نظرنا عندما قمنا بتحليل الكتابين ، وقد تلا تحليل احدهما تحليـل الآخر . فاسترعى انتباهنا تشابه بعض الفقرات فيما بينها . فقمنا بمقارنة بين المتنين ، ولم تزدنا المواصلة فى المقارنة الا يقينا من تطابق الكتابين احدهما للآخر . ودفعنا هذا التشابه فى عـــدة جوانب كما سنذكره، الى التفكير مع كل التحفظات اللازمة فى مثل هذه المواقف ، فى نسبة الكتابين الى مؤلف واحد (٣) . وقد اعتمدنا للوصول الى هذه النتيجة على الادلة التاليـة :

اولها : معاصرة المؤلف او المؤلفين ان كانا اثنين ، لنفس المـلك وهو أبو سعيد عثمان الذى تولى الملكسنة ٧١٠ هـ ـ ١٣١٠ م . وهناك ادلة كثيرة على هذه المعـاصرة ، منهـا الدعـاء فى الكتابين لابى سعيد بخلود الملك وبطول أيامه .

ثانيا : انتهاء الكتابين فى نفس الفترة . وقد فـرغ ابـن ابى زرع من تدويـن روض القرطاس سنة ٧٢٦ هـ ـ ١٣٢٦م حسب طبعـة او بسالة ، وسنة ٧٢٣ هـ ـ ١٣٢٣ م حسب طبعة فاس ، فى عهد السلطان ابى سعيد الذى توفى سنة ٧٣٢ هـ ـ ١٣٣١ م ورغم ان القسم المطبوع من الذخيرة السنية لم يتجاوز أخبار سنة ٦٧٩ هـ ـ ١٢٨٠ م فى الباب السادس ، فان المؤلف ذكر فى مقدمـة كتابه انه قسمه الى عشرة ابواب آخرها «البـاب العاشر فى خلافة ملك الزمان ... امير المسلمين ابى سعيد ... اطال الله ايامه ، وخلد ملكــه ونصر اعلامه ... » (٤) . فـلا شك اذن فى أن صاحب الذخيرة ختم هو ايضا تاريخ الحوادث فى عهد السلطان ابى سعيد .

ثالثا : مطابقة الكتابين احدهما للآخر فى تصميمها لسرد الاخبار الخاصة بالدولة المرينية، ونذكر ان روض القرطاس يحوى قسما هاما فـى تاريخ الدول التى تتابعث بالمغرب الاقصى قبـل الدولة المرينية . أما الذخيرة فلم تعن بالفتـرة التى سبقت عهد ملوك فاس من بنى عبد الحـق . فنلقى فى الكتابين نفس التبويب فى اخبـــار بنى مرين ، واحيانا نفس العناوين للابواب ، كمـا تطابق فى المعنى واللفظ عدد كبير من الفقرات فى المتنين حتى تكاد تكون بعض الفقرات نسخة طبق الاصل من فقرات الكتاب الآخر . وهناك امثلـة كثيرة يطول بنا الكلام لو ذكرناها كلها أو عـددا منها . فأكتفينا بمثالين من بين العشرات وبدأنا بنقـل فقـرة مـن كلتـا المقدمتين مـن الكتابين لتشابههما .

قال فى روض القرطاس : «وانى لما رأيت مكارم دولته السعيدة أطالها الله وخلدها ، وأعلى كلمتها وأيدهـا ، تنظم نظـم الجمـان ، وسـور محاسنها تتلى بكل لسان ، وغرر مآثرها وبركاتها

تشرق بكل ناحية ومكان ، وغرر اقدارها تلهى عن الغزل ، وتسير سير المثل ، اردت خدمة جمالها ، والتقرب الى كمالها ، والتفيئى بظلالها ، والورود من عذب زلالها ، بتاليف كتاب ... (٥) .

ويقول فى الذخيرة فى المكان الموازى : «وانى لما رأيت الخلافة العبد الحقية العثمانية باهرة ، وغرر مآثرها الكريمة على أوجه محاسنها سافرة ، وأخبار مكارمها ومآثرها تنظم نظم الجمان ، وسور فضائلها تتلى بكل لسان ، وشموس عوارفها وانوار محامدها تشرق بكل افق ومكان ، أردت خدمة جلالها ، والتقرب الى كمالها ، والتفيئى بظلالها ، والورود من عذب زلالها ، بتاليف كتاب ... (٦) » .

أما المثال الثانى الذى اوردناه فهو تاريخى بحت وله علاقة ببنى زيان . وهو خبر مهاجمة السلطان المرينى ابى يوسف سنة ٦٧٣ هـ - ١٢٧٤ م لمدينة سجلماسة التى كانت تابعة لحكم الزيانيين ملوك تلمسان .

قال فى روض القرطاس :

«وفى شهر رجب من سنة اثنتين وسبعين المذكورة خرج امير المسلمين ابو يوسف لغزو مدينة سجلماسة ، وكانت بيد يغمراسن بن زيان وعرب المنبات ، وكان يغمراسن يبعث اليها فى كل سنة ولدا من اولاده لضبطها وجباية خراجها ، مع المنبات الذين قاموا بأمرها . فسار امير المسلمين ابو يوسف اليها فى جيوش بنى مرين وقبائل العرب . فحاصرها وشرع فى قتالها ، وضيق عليها ، وبالغ فى حربها ، ونصب عليها المجانيق والرعادات ، وضاق لهلها من شدة الحصار والقتال ، فكانوا يصعدون على الاسوار فيسبون ويلعنون بالقبيح ، فهتك المنجنيق من سور لها برجا ومسافة ، فانهد البرج والمسافة ، فدخلتها (٧) من هنالك عنوة بالسيف على عاملها عبد الملك بن حنينة العبد الوادى ، فقتل هو ومن كان معه بها من بنى عبد الواد ، وعرب المنبات ، وكان فتحها يوم الجمعة ثالث ربيع الاول من سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، وقيل كان فتحها آخر يوم من صفر من السنة المذكورة ، فأمن امير المسلمين اهلها ، وعفا عنهم واصلح احوالهم ، واقام بها اياما حتى تهدنت احوازها وأوديتها وتامنت سبلها» (٨) .

أما فى الذخيرة فقد جاء الخبر نفسه مطولا نذكره برغم طوله ، لانه يزيل حسب ما نرى كل شك فى تطابق الكتابين ، فقال المؤلف :

«سار امير المسلمين الى فتح سجلماسة من مراكش ، وذلك فى شوال (٩) من سنة اثنتين وسبعين ، فسار الى تادلا ، ثم الى سجلماسة فنزلها ، وكانت سجلماسة فى يد يغمراسن بن زيان ، وعرب المنبات القائمين بها بدعوة يغمراسن المذكور ، فكان يغمراسن يبعث اليها فى كل سنة ولدا من اولاده ، لضبطها وحمايتها ، وضبط خراجها ، فسار امير المسلمين ابو يوسف فى جيوش بنى مرين ، فصحبه السعد والتمكين ، ويقدم رايته النصر والفتح المبين ، فنزلها بجنود قد ملأت الارض ، وعساكر تضيق بها الفضاء فى الطول والعرض ، كما قيل :

عساكر من مرين مالها عدد
وكلهم فارس الهيجاء ذوكرم
اسد الكتائب يوم الروع ان زحفوا
وهم اذلوا ملوك العرب والعجم

فحاصر سجلماسة ، واداربها قبائل مرين والعرب والاغزاز والروم (١٠) والرماة ، وشرع

فى قتالها ونصب عليها المجانيق ، والرعادات ، والات الحرب ، وضيق عليها ، وقطع عنها جميع المرافق فضاق اهلها جزعا من شدة القتال والحصار، وكان سفهاؤهم يصعدون على الاسوار فيسبون ويلعنون بالقبيح من القول ، فهتك المنجنيق من سورها برجا ومسافة فانهدم البرج والمسافة ، والناس يقتتلون ، فدخلت من تلك المسافة عنوة بالسيف على قائدها عبد الملك العبد الوادى ، فقتل هو ومن كان معه من بنى عبد الواد وعرب المنبات ، وصلبوا على اسوارها ، ودخلها أمير المسلمين ، فأمن سائر اهلها ، وعفا عنهم ، ونظر فى مصالحهم ، ورفع مظالمهم ، وأصلح احوالهم وبلادهم ، واقام بها حتى هدنها ، وسكن احوازها واوديتها ، وقدم عماله عليها ، وارتحل عنها راجعا على طريقه الى مراكش ، وكان فتحه لمدينة سجلماسة يوم الجمعة الثالث من ربيع الاول المبارك ، من ثلاث وسبعين وستمائة ، وقيل كان فتحها فى آخر يوم من العام المذكور» (١١) ٠

واذا استثنينا بعض المعلومات الثانوية وحذفنا بعض الاضافات التى لا أهمية لها كالبيتين الشعريين ، فان هذا الخبر نسخة طبق الاصل من الخبر السابق المنقول من روض القرطاس ٠

وقد اختلف الكتابان اختلافا طفيفا فى سرد الاخبار ٠ فان المؤلف قسم الذخيرة على ابواب ثم رتب الاخبار داخل الباب على السنين ٠ بينما ذكر التواريخ فى روض القرطاس فى سياق الحديث ٠ فيقول : «وصل فلان يوم كذا» ، وكان ذلك فى سنة كذا٠

ويختلف الكتابان فى بعض الجوانب الاخرى ٠ اولها تفصيل الاخبار ، فالذخيرة اكثر تفصيلا وتدقيقا من روض القرطاس رغم ان بعض الكلام الزائد فيها حشو لاطائل وراءه ٠ ورأينا نموذجا من ذلك فى الخبر الخاص بفتح سجلماسة

وخالفت الذخيرة الكتاب الآخر بذكرها اهم الاحداث التى وقعت فى العالم الاسلامى فى اثناء السنة التى ذكر المؤلف احداثها المغربية ٠ وأخبر عن ذلك فى مقدمة الكتاب ٠ فبعدما قال انه الف كتابا لتدوين اخبار بنى مرين زاد قائلا : «وما وقع من الحوادث فى الوجود فى ايامهم» (١٢)٠

وبينما تناثرت الابيات والقطع الشعرية وتراجم بعض العلماء فى الذخيرة فان المؤلف لم يكثر من سرد الشعر فى الروض ولم يترجم فيه لأحد ٠

وكان اكبر فرق بين الكتابين هو ان الذخيرة خاصة بتاريخ الدولة المرينية مع ذكرها فى كل سنة كما اشرنا سابقا ، اهم احداث باقى العالم الاسلامى ، بينما حوى روض القرطاس تاريخ كل الدول التى تعاقبت بالمغرب الاقصى بما فيها الدولة المرينية التى تميزت بالحظ الاوفر من الكتاب بالنسبة للدول التى سبقتها (١٣) ٠

وهكذا نرى ان هذه المجموعة من الحجج والبراهين التى عرضناها تمكننا القول ان من المحتمل ان يكون مؤلف كتابى الذخيرةوالقرطاس مؤلفا واحدا ٠ وقد يقول معترض ان مؤلفا نقل عن آخر ، فنجيبه : ان النقل بهذه الصفة وفى نفس الظروف ، صعب جدا ان لم يكن مستحيلا ، ولا نعرف له مثيلا فى عالم التاليف فى العصور السالفة ٠ وذلك ان المؤلفين ـ ان كان هناك مؤلفان نقل احدهما عن الآخر ـ يكونان قد صنفا الكتابين فى زمن واحد لملك واحد ، كانا الاثنان يعيشان حسب الظاهر تحت ظله ٠ فهل يعقل ان يقدم لهذا العاهل كتابان دون فيهما تقربا اليه ، تاريخه

وتاريخ اجداده من قبلـه ، وأحد الكتابين نقلـه مؤلف عن آخر معاصر له ، نقل عنـه اكثره مـن المقدمة الى الجزئية الصغيرة كالتردد بين تاريخين لوقوع حادث واحد ؟ نـرى ان هذا غـير ممكـن وهناك امثلـة كثيرة لكتـاب سرقوا اقساما مـن مؤلفات كتاب آخرين سبقوهم ، بعد تبديل بعض العبارات وتغيير التصميم او بدون تغيير ، ولكننا لا نعرف مثالا لسرقة فى مثل الظروف التى كان يعيش فيها المؤلفان فى زمن واحد ، وفى مكـان واحد وتحت ظل سلطان واحـد ·

وهكذا اعتمادا على هذه الحجج اننا نظن مع التحفظات الضرورية فى مثل هذا المقام كمـا قلنا سابقا ، ان مؤلف الكتابين هو ابن ابى زرع (١٤) · ومما تجدر الاشـارة اليـه انـه اختلف اختلافا كبيراً فى اسم صاحب روض القرطاس ، فذكرت له مخطوطات الكتاب المعروفة والطبعات التى عرفها الكتاب ، اسماء مختلفة كما اننا لـم نعثر له على ترجمة كاملة الاطراف ، وان هـذا الغموض الذى يحوم حول اسم المـؤلف وحـول حياته ، لا يزيد الا شبهات للعلاقات بين مـؤلف روض القرطاس ومؤلف الذخيرة ، ولسنا متأكدين الا من شيئين وهما : الاول ان ابن ابى زرع كان يعيش فى زمن السلطان المرينى ابى سعيد عثمان الذى تولى مقاليد الحكم سنة ٧١٠ هـ ـ ١٣١٠ م وتوفى سنة ٧٣٢ هـ ـ ١٣٣١ م ، والثانى انه ختم كتابه الروض فى سنة ٧٢٣ هـ ـ ١٣٢٣ م حسب احدى الطبعتين وفى سنة ٧٢٦ هـ ـ ١٣٢٦ م حسب الطبعة الاخـرى ·

محتوى الكتاب وقيمتـه :

لمحنا اثناء عرضنا لمشكلة مؤلف الذخيرة الى محتوى الكتـاب ، وذكرنـا بالخصوص ان المؤلف قد قسم كتابه الى عشرة ابواب ، اولها فى ذكر بنى مرين وقبائلهم ونسبهم «ودخولهم المغرب وظهور ملكهـم السنى المعجب» وخص الابـواب الاخرى لذكر امرائهم مبتدئا بجدهم عبد الحـق ثم تلاه الكلام على ابى سعيد عثمان ، فمحمد بـن عبد الحق فابى يحى بن عبد الحق ، فابى يوسف فأبى يعقـوب ، فابى ثـابت ، فابى عامـر ، فابى الربيع سليمان ، فابى سعيد الذى خص له الباب العاشر ·

غير ان محمد بن ابى شنب لـم ينشر مـن الكتاب الا الابواب الستة الاولى ، وختم طبعتـه بهذا العبارة : «هذا مـا وجد مـن هذا الكتاب ، والحمد لرب الارباب» (١٥) ولا يبين هذا الكلام اذا كان المجلد مبتورا او اذا كان المؤلف لم يتمم كتابه فلسنا ندرى اذا كانت هذه العبارة الختامية من وضع ناسخ من نساخ الكتاب او من وضـع ابن ابى شنب · ومهما يكن سبب هذا الانقطاع ، فان سرد الاخبـار انتهى فى النسخـة المطبوعة للكتاب ، فى سنة ٦٧٩ هـ ـ ١٢٨٠ م ، فى زمـن السلطان ابى يوسف المرينى بفـاس ، وفى عهـد السلطان يغمراسن بن زيان بتلمسان ·

وزيادة على الابواب العشرة ، قسم المؤلف كل باب الى فصول تتفاوت فى الطول ، تبدأ اغلبها بالعبارة التالية «الخبـر عن ···» ورتب اكثـر الاحداث على السنين · ولم يعط نفس الاهميـة للاخبار كلهـا فبجانب الخبـر المطـول المجـاوز للصفحة ، نجد الخبـر الذى لا يـأخذ الا بضـع كلمات كقولـه على سبيل المثـال : «سنة ثمـان وستمائة : فيها ولد محمد بـن ادريس بـن عبـد الحق ، وفيها كانت غزاة شريطة وفتحها ، وفيهـا كانت مـلاقاة امير المؤمنين الناصر مـع ملـك

قشتيلة النصراني بالعقاب ، فهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير لا يحصر ، وفيها فنى جيوش المغرب والاندلس» (١٦) ٠

وادرج المؤلف فى آخر الباب الثالث «فى ذكر الامير ابى سعيد عثمان بن عبد الحق رحمه الله تعالى» (١٧) فصلا سماه «ذكر الخبر عن الاحداث التى كانت من أول المائة السابعة» (١٨) وهذا بعد ان سرد اخبار السلطان وذكر وفاته فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة ٠ فكأنه برجوعه الى خلف تدارك نقصا بعد اتمام الكتاب فزاد فصلا فى آخر هذا الباب الثالث ذكر فيه اخبارا جديدة فاته سردها فى الابواب السابقة ٠ ودون المؤلف طيلة الكتاب ، أهم الاحداث التى وقعت بالمغرب وباقى العالم الاسلامى كوفيات العلماء والملوك ، وتشييد بعض الابنية من مساجد وابراج واسوار ، واهم الاحداث العسكرية ، وأورد تراجم لبعض العلماء كما روى شعرا له علاقة فى الغالب ببنى مرين وبما اورد من أخبار ٠

ووجدنا لهذا الكتاب ميزة كبيرة لمحنا اليها سابقا وهى اطالة المؤلف فى ذكر الحادث وتفصيله ٠ فجاءت الذخيرة مشحونة بالاخبار السياسية ، والاخبار العلمية وبعض المعلومات الاقتصادية والاجتماعية كغلاء المعيشة فى سنة كذا ، واسعار المواد الغدائية ، والحالة الصحية وهكذا ، ومما يزيد الكتاب اهمية فى نظرنا ، هو اعتناء المؤلف الكبير بالعلاقات بين ملوك فاس وملوك تلمسان ٠ بل اضاف اليها أخبارا تخص بنى عبد الواد ومملكة تلمسان ولو لم تكن لها علاقة بفاس والدولة المرينية ٠ وهذا لا يزيد الكتاب الا أهمية بالنسبة لتاريخ بنى زيان وتاريخ المغرب الاوسط فى عهدهم ٠

وبالاضافة الى التطويل وذكر التفاصيل ، امتازت الذخيرة السنية بالدقة فى سرد الاخبار وبتفصيلها ٠ انها اكثر دقة من روض القرطاس الذى جاء اكثر تفصيلا واكثر تدقيقا للاحداث الخاصة بالعلاقات المرينية الزيانية من كل المصادر الاخرى حتى اهمها وهى زهر البستان فى دولة بنى زيان لمؤلف مجهول (١٩) وبغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ليحى بن خلدون (٢٠) ، ونظم الدر والعقيان فى شرف بنى زيان ٠ (٢١) ، وكتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون ٠ وقد فاق روض القرطاس بتفصيله للاخبار الخاصة بالعلاقات الزيانية المرينية ، الكتب الثلاثة الاولى التى عاش اصحابها فى ظل الدولة الزيانية ، والتى لم تهتم اهتماما كبيرا بالوقائع وما اكثرها ، التى دارت بين الدولتين وكانت الغلبة فيها فى اكثرها لبنى مرين ٠ وفاق روض القرطاس ايضا كتاب العبر الذى لم يهمل ذكر هذه الاحداث غير انه لم يفصلها ٠ وها نحن نكتشف ان الذخيرة اكثر تفصيلا واكثر تدقيقا حتى من روض القرطاس ٠ فاذا قارنا على سبيل المثال بين كلام ابن ابى زرع وبين ما ذكره صاحب كتاب العبر عن حادث واحد هو واقعة ايسلى التى دارت سنة ٦٧٠ هـ ــ ١٢٧٢ م بين بنى مرين وبين بنى عبد الواد ، لاحظنا ان الروض كان اكثر تفصيلا واكثر تدقيقا من كتاب عبد الرحمن بن خلدون ٠ واذا واصلنا تجربتنا وقمنا بمقارنة جديدة بين الروض وبين الذخيرة اكتشفنا أن هذا الكتاب الاخير اكثر تفصيلا واكثر تدقيقا عن هذا الحادث نفسه ٠

ولتوضيح هذه المسألة فضلنا عرض مثال آخر يتعلق هو ايضا بتاريخ الدولة الزيانية وهو

خبر تحالف ابى دبوس آخر خلفاء الموحدين سنة ٦٦٦ هـ ـ ٨ ١٢ م ، مـع يغمراسن بـن زيـان سلطان تلمسـان ٠

فبعد ان تحدث صـاحب روض القرطـاس عن حصـار ابى يوسف يعقوب المـرينى لمدينـة مراكش ومضايقته لابى دبوس قال : «لما رأى ابـو دبوس ما ناله من شدة القتال والحصار ورعى الزرع ، ونسف الآثار ، وشدة المجاعة فى بلاده ، وغـلاء الاسعـار ، كتب الى يغمراسن بن زيـان يستنصره ، ويـرغب منـه ان يكونـا على اميـر المسلمين ابى يوسف يدا واحدة ، فتعاهدا علـى ذلك واتفقا عليه ، فشن يغمراسن الغارات فـى اطراف بلاد امير المسلمين ابى يوسف فاتصل به الخبر وهو محاصر لمراكش الخ ٠٠٠» (٢٢) ٠

وذكر المؤلف فى الذخيرة الحادث نفسـه فقال : «فلما رأى ابو دبوس ما ناله من شدة القتال والحصار وفساد الزرع، ونسف الاثار، وانتشرت المجاعة فى بـلاده ، وغلت الاسعـار ، بعث الى يغمراسن بن زيان امير تلمسان ، يستصرخه على امير المسلمين ابى يوسف ويقول له : «كن معى يدا واحدة على حربه» وبعث اليه بهدية سنية ، فاتفقا على حـرب امـير المسلمين ابى يـوسف ، فشن يغمراسن الغارات فى اطراف بلاد المغرب وبلاد ملوية ، فاتصل الخبر بأمير المسلمين الخ ٠٠٠» (٢٣) ، ومن المقابلة بـين الخبرين نجد تفصيلين زائدين فى الذخيرة ، اولهما بعث الهدية والثـانى تحديد موقع هجوم يغمراسن على بلاد بنى مرين حتى يشغلهم عن مضايقة ابى دبوس ٠ ويقدم لنا النصان مـن ناحية أخـرى شـاهدا جديدا على تطابق الكتابين احدهما للآخـر ٠

ومن مزايا الكتاب تجنب المؤلف الطعن فى بنى عبد الواد الاعداء الدائمين للدولة التى ابتغى بتصنيف الذخيرة خدمـة جلالهـا والتقرب الى كمالهـا والتفيئى بظلالهـا والـورود مـن عـذب زلالهـا خلافا لما قام به صاحب روضـة النسرين (٢٤) من شتم بنى عبد الواد والتشنيع بهم ٠ وقد امتاز روض القرطاس بالخصلة نفسها غير ان الذخيرة قد تجاوزت ذم الاعداء والتعالى عن سبهم ٠ فاننا نندهش من موضوعية المـؤلف ورفعة اخلاقه ونبله ، عندما نطالع النص التـالى الذى وصف به ألد اعداء بنى مرين ومنافسهـم الاكبر ، يغمراسن بـن زيـان مـؤسس الدولـة الزيانية ، قال صاحب الذخيرة : «ان يغمراسن رحمه الله كان من الفرسان الابطال ، لا تـؤمن غوائله ، ولا تنسى فى الحروب مكائده ، اذا مـن بعطية اغنت ، ونجدة اعيت ، وحزم واقدام ، وكرم وانعام ، وعتوأنسى به الجبابرة ، وطغيان اربى به على الاكاسرة والاقاصرة ، لكنه مـع شجاعته تصحبه النحوس ويدرك بدره الكسوف والنسوف» (٢٥) ٠ ونلاحظ ان هذه النزاهة النادرة المثـال وبالخصوص اذا تذكرنا علاقة صاحب الكتـاب بالدولة المرينية ، دفعت المؤلف الى الاعتراف بأن سبب اخفاق يغمراسن ليس مصدره الجبن كمـا قـال صاحب روضة النسرين ، او كثـرة عـدد بنى مرين ، كما قال عبد الرحمن بن خلدون (٢٦) وانما كان سببه سوء الحظ ٠

ومن عيوب الكتاب اهماله ، ذكـر كل مـا يمس بسمعة ملوك بنى مرين ومجدهم ، ككل الكتب التى كتبت فى ظروف مماثلة ، كمـا ان تـرتيب الكتاب على السنين واسلوب الكتابة المنقطع جعلا من الذخيرة كتابا قلـيل السلاسة مـا عدا بعض الفقـرات ٠

غير ان الكتاب رغم انه وضع لتاريخ الدولة المرينية هو مصدر متهم للمصادر الاخرى الخاصة لتاريخ الدولة الزيانية التى لم يطنب فيها اصحابها فى الكلام عن بعض الاحداث التى يسىء ذكرها بسمعة اصحاب النعمة عليهم ، كما جاءت الذخيرة متممة للكتب الاخرى التى اوردت تلك الاحداث ولم تذكرها بنفس التفصيل وبنفس الدقيق ، ومن هذه الكتب تاريخ عبد الرحمن بن خلدون ٠

مصادر البحث :

ــ ابن ابى زرع (على) ــ الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ــ فاس ، ١٣٤٣ هـ

ــ ابن الاحمر (اسماعيل) ــ روضة النسرين فى أخبار بنى مرين ــ باريز ، ١٩١٧ ٠

ــ ابن خلدون (عبد الرحمن) ــ كتاب العبر٠٠٠ ــ بيروت ، ١٩٥٦ ــ ١٥٩ ٠

ــ ابن خلدون (يحى) ــ بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ــ الجزائر ، ١٣٢١ هـ ــ ١٩٥٣ م ــ ١٣٣٢ هـ ــ ١٩١٣ م ٠

ــ ابن سودة (عبد السلام) ــ دليل مؤرخ المغرب الاقصى ــ الرباط ، بدون تاريخ ٠

ــ بوعياد (محمود) ــ مخطوطات لم تكشف ، زهر البستان فى دولة بنى زيان ٠ ــ فى «الثقافة» عدد ١٣ ، سنة ١٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م ، ص ٥٥ ــ ٦٦

ــ بوعياد (محمود ٠ ــ من آثارنا المغمورة ، بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد لابى زكريا ابن خلدون ٠ ــ فى «الاصالة» عدد ١٣ ، ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م ، ص ص ٢١٣ ــ ٢٢٢ ٠

ــ التنسى (محمد بن عبد الله) ٠ ــ نظم الدر والعقيان فى شرف بنى زيان (مخطوط) ٠

ــ الذخيرة السنية ، قسم مطول من روض القرطاس ٠ ــ فى «دعوة الحق» العدد ١٠ ، ذو الحجة ١٣٩١ هـ ــ يناير ١٩٧٢ م ، ص ١٣٩ ٠

ــ زهر البسان فى دولة بنى زيان (مخطوط) ٠

ــ كنون (عبد الله) ٠ ــ مؤلف الذخيرة السنية هو مؤلف القرطاس ٠ ــ فى «تطوان» عدد ٢ ، سنة ١٩٥٧ ص ص ١٤٥ ــ ١٥٣ ٠

هـــــوامش

(١) نشر الكتاب بالجزائر ، مطبعة كربونيل ، ١٣٣٩ هـ ـ ١٩٢٠ م ، فى ٢٣٦ ص منهـا ١٨٩ ص للمتن والباقى للفهارس ٠

(٢) الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تاليف : على بن أبى زرع الفاسى ، تحقيق كارل يوحنا توبنرغ ٠ ـ أو بسالة ، ١٨٤٣ م ـ ثم فاس ، ١٣٠٣ هـ ٠ وقد احلنا فى هذا البحث على طبعة فـاس ٠

(٣) كان هذا البحث قد تم حين اطلعنا صدفة على خبر فى المجلة المغربية «دعوة الحق» العدد ١٠ ، السنة ١٤ ، ذو الحجة ١٣٩١ ـ يناير ١٩٧٢ ص ١٣٩ ، حول نفس الموضوع ، ويحيل الخبر على مقـال نشره الباحث المغربى الاستاذ عبد الله كنون فى العدد ٢ ، سنة ١٩٥٧ ، من مجلة «تطوان» ص ص ١٤٥ ـ ١٥٣ ، تحت العنوان التالى : «مؤلف الذخيرة السنية هو مؤلف القرطاس» ، فرجعنا اليه واكتشفنـا ان الاستاذ كنون كان قد سبقنا الى النتيجة نفسها غير انه اعتمد احيانا على أدلـة تخالف الادلـة التى اوردناها فى هذا البحث ٠ ولم نر من المفيد ان نقوم بمقارنة بين البحث القيم الذى قدمه البحاثة المغربى وبين ما كتبناه عن هذه النقطة من بحثنا ٠ فذلك ممـا يطيل البحث بدون جدوى ويخل بتوازنه ٠ وممـا تجدر الاشارة اليه ان الاستاذ كنون لم يبد اى شك فى نتيجة بحثه كما يدل على ذلك عنوان مقاله ٠

(٤) الذخيرة ، ص ص ٧ و ٨ ٠

(٥) القرطاس ، ص ٣ ٠

(٦) الذخيرة ، ص ٦ ٠

(٧) هكذا بالمتن ، ولعل الصواب «فدخلت» كما بالذخيرة كما سنـرى ٠

(٨) الروض ص ٢٢٥ ٠

(٩) قال فى الروض : فى شهر رجب ٠

(١٠) لم يذكر وجود الاغزاز والروم فى القرطاس ٠

(١١) الذخيرة ، ص ص ١٥٨ و ١٥٩ ٠

(١٢) الذخيرة ، ص ٦ ٠

(١٣) نتمنى ان تمكننا الظروف من نفض الغبار ايضا على هذا الاثـر الذى يعتبر من انفس المـراجع لتاريخ المغرب العربى ، فنعرض محتواه على القراء الكرام ونقوم بتحليله وتقييمه فى مقال قـادم ٠

(١٤) نسب بعضهم «الانيس المطرب ، بروض القرطـاس ٠٠٠» لصالح بن عبد الحليـم ٠ راجـع على الخصوص «دليل مؤرخ المغرب الاقصى» لعبد السلام بن سودة ، ص ص ١٢٥ ـ ١٢٧ ٠

(١٥) الذخيرة ، ص ١٨٩ ٠

(١٦) الذخيرة ، ص ٤٨ ٠

(١٧) الذخيرة ، ص ٣٤ ٠

(١٨) الذخيرة ، ص ٣٦ ٠

(١٩) راجع مقالنا عن «زهر البستان فى دولة بنى زيان» فى الثقافة عدد ١٣ ، ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م ، ص ص ٥٥ ــ ٦٦ ٠

(٢٠) راجع مقالنا عن هذا الكتاب فى الاصالة ، عدد ١٣ ، ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م ص ص ٢١٣ ــ ٢٢٢

(٢١) كتاب مخطوط سننشره ان شاء الله فى الشهور القادمة بعد الانتهاء من تحقيقه والتعليق عليه ٠

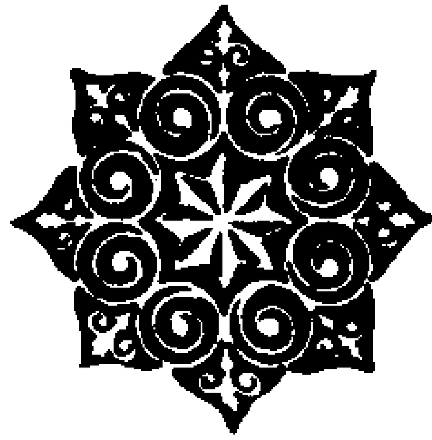
(٢٢) روض القرطاس ، ص ٢١٩ ٠

٢٣) الذخيرة ، ص ١٣٠ ٠

(٢٤) روضة النسرين فى أخبار بنى مرين لاسماعيل بن الاحمر ، حققه وترجمه الى الفرنسية الغوثى بوعلى وجورج مارسى ٠ ــ باريز ، ١٩١٧ ٠ وقام بنشر الكتاب ايضا عبد الوهاب بن منصور ٠ ــ الرباط ١٣٨٢ هـ ــ ١٩٦٢ م ٠

(٢٥) الذخيرة ، ص ١٥١ ٠

(٢٦) قال ابن خلدون : «لما كان عدد بنى مرين لاول ملكهم اكثر من بنى عبد الــواد ، كانت دولتهــم اقوى منها ، واوسع نطاقا وكان لهم عليهــم الغلبمرة بعد أخرى » المقدمة ، ص ٢٩١ ٠



الغزو الأسباني للجزائر في القرن السادس عشر

أسبابه
مراحله
نتائجه

حكمت ياسين

شهد القرن السادس عشر ميلادى هجمات صليبية جديدة قامت بها دولة اسبانيا احيانا وبالتعاون مع الدول الاوروبية والبابا أحيانا أخرى • وقد كان هذا الصراع المرير الذى بدأ في هذا القرن تجديدا للحملات الصليبية التى شنها ملوك فرنسا والمانيا وبريطانيا على بلاد المشرق العربى في القرن الحادى عشر ميلادى ، كما انهذا الصراع استمر الى ما بعد نهاية القرن السادس عشر ، ولم يتوقف طوال هذه المدة الا بعد ان تم تحرير آخر معقل للمحتلين الاسبان في وهران والمرسى الكبير •

وقبل أن نخوض فى تفصيل مراحل هـــذا الصراع الذى امتد اكثر من قرن من الزمن ، لابد من البحث فى أسباب هذا الصراع ، وهذه الهجمات الصليبية الاوروبية على شـــواطىء البلاد العربية الاسلامية فى شـــمال افريقيا فى كل من تونس والجزائر والمغرب ، بل وأحيانا فى ليبيا ، وذلك حتى نكون على وعى تام بطبيعة تلك الحملات التى كان يشارك فيها ويدعمها البابا وكبار الرهبان والملوك فى أوروبا ٠

ويمكن ان نورد هذه الاســـباب مع شىء من الشرح الموجز ، وهى :

1 ـ **الاسباب الدينية** : ان اســـبانيا التى سيطرت على أوروبا اصبحت تمثل العالم المسيحى كله ، وعندما كان الاسلام يبنى فيها حضـــارته المعتبرة كانت تعتبره استعمارا اجنبيا ، ولجأت الى استعمال كافة الوسائل والتحالف مع العـــالم المسيحى للتخلص منه الى ان تم لها ذلك ســـنة 1492 م عندما حطمت معالم الاسلام من غرناطة ، ولم تكتف بهذا وحسب ، بل ارادت التوسع على حساب دول شمال افريقيا الاســـــلامية بروح صليبية جديدة بزعامة اسبانيا من جهة ، ضـــد الاسلام بقيادة الامبراطورية العثمانية من جهـــة أخرى ٠

ان المسيحيين أنفســـهم هم الذين قاموا بهذه الحروب ، اذ ان المســـــلمين يعترفون بالديانة المسيحية ويحترمونها وهم يعتبرون عيسى نبيـا عظيما مقدسا (1) ولكن المسيحيين الاسبان قاموا بحملة تبشيرية من أجل توحيد البلدان المسيحية لشن هذه الحروب على الديار الاســـلامية ، وتعاون الاباطرة والبابا والرهبان الذين بذلوا مجهودات عظيمة فى ســـبيل اعـــداد هـــذه الحرب ضـــد الكافـــرين (2) ٠ ورغم ان العامل الدينى بدأ يضعف حتى ان ملوك فرنسا الكثيرى النصرانيـــة عقدوا معاهدات صداقة مع العثمانيين المسلمين(3)، الا أن عائلة الهبسبرغ قاومت الاصـــلاح الدينى البروتستنتى ســـنة 1550 م فى المانيا واقامت محاكم التفتيش وحرم البابا بولس الرابع التجارة مع الكفرة (المسلمين) ، وقامت بشـــن الحروب لاستئصال الاسلام حبا لله وقربانا له ٠

ولا ننسى ما أوصت به الملكة ازابيلا لولى عهدها بأن يعمل على تحقيق أغلى أمانيها وهى التعاون مع الكنيسة ومواصلة الحرب الصليبية ضد الكفرة فى شمال افريقيا ٠

2 ـ **الموقع الاستراتيجى والاهمية الاقتصـادية للبحر المتوسط** : يتمتع البحـــر الابيض بأهمية خاصة أكثر من باقى المحيطات والبحـــار ، وكان الله اختصه ليكون مركز العالم وحلقة وصله وحقل ثرواته وموارده ٠ فهو يقع عند ملتقى ثلاث قارات كبيرة هى آسيا وافريقيا واوروبا ، وكان منـــذ القديم مركزا للحضارات منذ الحضارة الفرعونية الى الحضارة الاسلامية فالاوروبية المعاصرة ٠ كما انه كان ميدانا للصراع منذ اقـــدم الازمنة حتى يومنا هذا ، فعلى شواطئه وقعت معركة ســلامين الشهيرة سنة 480 ق٠م ، بين الاغريق والفرس ، ثم تلتها معركة اكســـيوم ســـنة 41 ق٠م بين اكتافيوس وكليوباترة وفى بداية العصور الحديثة

كانت معركة ليبانت الحاسمة سنة 1571 بـــين الاسبانيين والعثمانيين وهو الآن ميدان للصراع بـــين الاستعمار الاوروبى والصهيونى والشعب العربى فى مختلف اقطاره ·

ان هذه المميزات والخصائص الهامة التى يمتاز بها البحـــر الابيض جعلت كلا من الامبراطورية الاسبانية والعثمانية تطمع فى الاســتيلاء عليه ، وقد كان الاسبان يعتبرونه بحيرة اسبانية ليس لاحد غيرهم فيها حق · ولكى ندلل على هذا الرأى نورد هذا النص لكاتب أوروبى مشـــــهور « وقد اشتعلت جميع هذه المعارك **لنيل الســـــلطة فى الحقيقة** ، فكانت ســــجالا ، وقد اوقدت باســم التعاليم الدينية على العموم ، فكان يقصى السبب الدينى فى بعض الاحيان ، وهذا يذكرنا بالـكلام القومى المنمق الذى تستتر تحته اليوم مصـــــالح شركات استخراج البترول مع أن هذه الشركات تعامل أعداء بلادها » (4) · ويظهر من هذا الكلام أن السبب الحقيقى هو السيطرة على هذه المنطقة ، واستعمل لهذا الهدف الشعار الدينى كماتستعمل اليوم الاسباب القومية ، وذلك ليتمكن البابا من تجميع كافة النصارى حوله وتجنيدهم فى الحملات ضد البلدان الاسلامية ·

3 ــ **الاسباب العسكرية** : وطموح الامبراطورية الاسبانية للتوسع وبسط النفوذ فى مناطق واسعة من العالم : ففى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية العثمانية فى أعلى مراحل قوتها ، وكانت فى عهد الفتوحات وبسط النفوذ حيث اســـتطاعت فتح سوريا ومصر وفارس وشمال افريقيا وغيرها من الدول الاوروبية ، كانت اسبانيا هى الاخرى فى قمة مجدها ، وكانت قد فرضت ســـــيطرتها على أمريكا ومعظم بلدان اوروبا . فوجهت أنظارها الى الشـــــــواطىء الجنوبية والشرقية والغربية فى محاولات لبسط نفوذها هناك ، فكان من الطبيعى أن يلتقى هذان التوسعان وجها لوجه ، ويحدث بينهما اصطدام حاد ومرير ·

ان شارلكان (شارل الخامس) لم يعد للحرب عن طموح او مزاج ، ولكنه كان يقاتل بضراوة كل من حاول ان ينتزع منه ما كان خاصا به وما ورثه عن والده ، فكان يعتبر البحر المتوسط ملكا خاصا به ، بينما كان الســـــلطان التركى (سليمان القانونى) يطمح لتوســـــيع البلاد فكان قد فتح فارس وسوريا ومصر (5) ·

4 ــ التنافس بين الامبراطوريتين : العثمانيـــة والاسبانية على السيطرة على شمال افريقيا الغربى،

وذلك لاهميته الاستراتيجية والاقتصادية ، فهـــو يشتمل على مضيق جبل طارق ، ومن يستولى على هـــــذا المضيق يمكنه ان يرقب ايطاليا الجنوبية ومرسيليا وجنوة ، ومدخل البحر المتوسط الشرقى بينما يكون هو فى حرز حريز ·

5 ــ **الغزو البحرى** (القرصنة) : القرصـــــنة كلمة اجنبية ، لا توجد فى المعاجم العربية القديمة منها والحديثة · وعندما تكلم ابن خلدون عن هذه الاعمال البحرية لم يذكر كلمة قرصـــــنة ، وكذا مؤلف كتاب « غزوات عروج وخير الدين » ، ولعل هذه الكلمة مشتقة من الكلمة الايطالية كورســـو CORSO وتعنى اللص أو الصعلوك ، أو

من كلمة كورســـارو CORSARO التى تعنى القتال البحرى ٠

عرفت القرصنة منذ القديم ـ وإن لم تكن تحمل هذا الاسم ـ فقد ذكر ابن خلدون ان مدينة بجاية كان لها اسطول يغزو فى البحر فى القرن الثالث عشر ميلادى ، وكذلك فان القرصنة كانت معروفة لدى جميع الدول الاوروبية ، فهى ليست مختصة بأمة دون أمة ، ولا بشعب دون غيره ، فقد جاء فى كتاب « الغزوات » انه عندما ذهب الوفد الجزائرى الى الباب العالى لالحاق مدينة الجزائر بالامبراطورية العثمانية اخذت الســـفن الجزائرية من قنصل البندقية فى اسطنبول باسبورطا (جواز سفر) لكى لا يتعرض لها قراصنة البندقية ، وكان فى مدينة ليفورن عدد كبير من رجـــال القرصـــنة البحرية ، فكانت « القرصـــنة عامة فقد تبضت ربابنة الملكة اليزابيث الانجليزية على سفن اسبانية أيضا ، فباعوا اشرافا من الاسبان فى سوق دفـــر جاعلين ثمن الواحد مئة ليرة » (6) والقرصان ليس ـ كـــما يزعم البعض ـ لصا ، فاللص يعمل على حسابه الخاص دون ان يقوم على تنظيمه سلطان أو تحميه دولة ، أما القرصان « فكان له تأثير عظيـــم على الحضارة والتجارة ، وكان سلطان القراصين يستند الى تأييد السلاطين ، والســـلاطين كانوا يرعون نشاطهم فى مراكش والجزائر وتونس على الخصوص » (7) ٠ وكان لهذا النشاط البحرى فى الجزائر اسباب مختلفة منها دنيوية كالدفاع عن المدن الاسلامية (مثل بجاية ووهران وسبتة) من الخطر الاسبانى ، والحصول على الغنائم الطائلة ، ومنها دينية وهى مساعدة الاخـــوين عروج وخير الدين لمسلمى اسبانيا الذين اضطهدوا واضطروا للهجرة الى شمال افريقيا هـــربا بدينهم بعد ان أقيمت **محاكم التفتيش** ، فصار الاخوان يغيران على سواحل اسبانيا وينقلان المسلمين الى الجزائر ، ولما وافق السلطان العثمانى على مدهما بالمســـــاعدة خافت اسبانيا عاقبة هذا الالتحاق ، فأخذت ترد على هجماتهما بهجومات على سواحل شمال افريقيا مما ادى الى صدام مباشر بين اسبانيا وحـــكومة الجزائر ٠ فقد جاء فى مجلة تاريخ وحضارة المغرب عن نتائج الغزو البحرى السياسية انه « كان سببا فى الاصطدام بين الاتراك والاسبان على سواحل المغرب ٠٠٠ فاضطرمت نار الحرب وعمت البليــة هذا البحر الابيض ، وقتلت جماعات ، وحطمت أجفان ، وساد الخوف ، وصمم الغزاة على الضرب واستعد العدو للقتال برا وبحرا وضرب قاعـــدة القراصين » (8) ٠

6 ـ **العامل القومى أو العنصرى** : من المحتمل أن يكون الاسبانيون قد ظنوا انهم من طينة خاصـــة هم وابناء ملتهم ، تختلف عن طينة باقى البشر ، فحاولوا القضاء على من ليس من طينتهم ولزيادة التوضيح نورد نصا للمؤرخ الاوروبى الشـــــهير لودقيع يقول فيه : « وكان يفصل كل واحدة من هاتين الدولتين عن الاخرى افكار ومظاهر افكار ، أى عاملان يثيران الحقد بين الشعوب فى أدوار عدم التسامح عند ذوى الطموح من الرؤســـاء ٠٠٠ **وكانت الشعوب تتعارض بالدين ولون الجلد فيما بين سنة 1500 ـ 1700 م فهلكت الملايين من الآدميين**

في حروب لا حد لها بين النصارى والمسلمين على غير حق وبلا مسوغ ، والواقع ان الرجل الابيض لم يكن ناصـــع اللون ، وأن تركي مصر لم يكن أسمر اللون من نصراني أشبيلية ... اعتنقـوا القومية فصاروا ينشدون الوحــــدة وفق لغتهم وأصلهم ودينهم » .

الصراع ومراحله : عندما استطاع الاسبانيون أن يحتـلوا غرناطة آخــر مدينة اســلامية في الاندلس ، ازداد حماســهم وقويت اطماعهم على مهاجمة الاسلام في عقر داره . لذلك فكــروا في احتلال بلدان شمال افريقيا منـــذ اوائل القرن السادس عشر (9) فاســـتطاعوا احتلال المرسى الكبير سنة 1505 م ووهران سنة 1509 م وبجـاية سنة 1510 م ، وبنوا حصن البنيون مقابل مدينـة الجزائر في نفس السنة . وكانت هـــذه المرحلة الاولى من مراحل الصراع ، حيث كانت عبارة عن هجومات للاسبانيين على المدن المغربية الساحلية ، واستمرت حتى 1518 حين جاء الاخوان عروج وخير الدين وبدآ يقومان بالغزو والرد على هذه الهجومات ومحاولة انقاذ المدن الاسلامية الى أن مد خير الدين يده للسلطان العثماني وألحق الجــزائر بالدولة العلية . وابتداء من هـــذا الحادث الذى يكتسي أهمية عظيمة أخذ الصراع يأخذ صبغة أخــرى ، واسلوبا آخر في القتال ، فكان الهجوم الاسباني على مدينةالجزائر سنة 1519 م . ومنذ ذلك التاريخ حتى سنة 1530 لم تكن هناك معارك تذكر سوى تحطيم خير الدين لحصنالبنيون سنة 1529 ،ويرجع هذا الركود الى أسباب خاصة بالدولة الاسبانية التي كانت على خلاف مع فرنسا ، والى اسباب داخلية أخرى ، والى انشغال السـلطان العثماني بالحروب في جهات أخرى في أوروبا . وقد تميزت الفترة التي تلت هـــذا العقد من الزمن بأهمية المعارك التي دارت رحاها أثناءها ، فكانت معركة تونس سنة 1535 ، وغزوة شارلكان المشهورة على الجزائر العاصمة سنة 1541 م وكان النصر فيـها حليف الجزائر .

ومن سنة 1541 ــ 1556 م تمتد مرحلة امتازت بالركود ، وتمثل انهيار قوة شارلكان الذى بـدا بالرهبنة ، واعتزل الســـياسة حتى تنازل عن العرش لولده سنة 1556 م ، فاستلم ابنه فيليب حكم اســـبانيا فبـــدأت معه مرحلة تختلف عن ســـابقتها ، اذ وقع فيها عـــدة اصطدامات بين الاسبانيين والمسلمين في الجزائر ، ففي سنة 1563 وقعت معركة المرسى الكبير وفي سنة 1565 كانت محاولة المسلمين لاحتلال مالطة . وفي ســنة 1568 أعلن مسلموا الاندلس الثورة على الاســـبانيين فتحولت الى اصطدام ، وفي ســنة 1571 م كانت معركة ليبانتى الحاسمة وبعد هذه المعركة جـاءت معركة تونس سنة 1573 م ، ومعركة الملوك الثلاث سنة 1578 م ، وبهـذه المعارك انتهى الصراع في القرن السادس عشر ليستريح المتقاتلون بعد ان عانوا من الحروب عناءاً شديداً .

والآن نتتبع الصراع من بدايتــــه لنقف على اسبابه ونتائجه ، وكيف كان يدور : فلما الحق خير الدين مدينة الجزائر بالدولة العليـــة ، وكان عروج قد قتل صاحبها سالم التومي لخيانته (10)

بدأ يرسى دعائم الحكم وتنظيم البلاد ، ويغزو نسواحل الاسبانية لحمل المسلمين المضطهدين ، وبينما هو في هذه الاحوال قام الاسبانيون سنة 1618 بهجوم على مدينة الجزائر ودارت المعركة عند باب الواد لاسباب هي :

1 ـ استقرار خير الدين بالجزائر دب الرعب والخوف فى قلوب الانانيين واصحاب المصالح الشخصية ، وكذلك فزعت منه اسبانيا ، فخاف امبراطورها ان تنهار آماله وتتحطم برامجه فى الاستحواذ على المغرب العربى •

2 ـ معارك بجاية والهجومات العنيفة التى قام بها خير الدين لانقاذ مدينة بجاية جعلتالامبراطور الاسبانى يخشى قوة الاتراك •

3 ـ كان الاقطاعيون وأصحاب المصالح الذاتية هم الجسر الذى يعبر عنه الاسبانيون الى الجزائر فلما استلم خير الدين حكمالمدينة خافالاسبانيون ان يهدم خير الدين هذا الجسر ، وان ينفرد بالامر ويوحد البلاد تحت راية الوطنية الاسلامية ، فلا يعود لهم معين فى الجزائر • وكانت نتيجة المعركة : انتصار المسلمين ، وتحطيم الاسطول الاسبانى الذى فر هاربا وتم انشاء الدولة الجزائرية الفتية بعد اشهر من هذا الانتصار •

ويعود انتصار المسلمين وانهزام الاسبانيين الى الاسباب الآتية :

1 ـ سيطرت روح الجهاد على المسلمين ، وهجومهم على الاسبانيين بشجاعة وضراوة غير حاسبين للموت حساب •

2 ـ الرعب والفزع الذى دب فى صفوف الجيش الاسبانى ، مما أدى الى اثارة الفوضى والاضطراب بين افراده ، وجعلهم يفقدون حماسهم •

3 ـ أمواج البحر المضطرمة ، وهبوب الرياح القوية التى سرعان ما تحولت الى عاصفة هوجاء حطمت الاسطول الاسبانى •

حزن الامبراطور الاسبانى على هذه الهزيمة الشنيعة ، والخسارة الفادحة ، فلم يهدأ باله ، وصمم على تأديب المسلمين ، فاتفق مع أبى حمو التلمسانى على محاصرة الجزائر برا وبحرا ، وكانت اسباب هذه الحملة ما يلى :

1 ـ الفشل الذريع الذى حظى به الاسطول الاسبانى تحت أسوار مدينة الجزائر سنة 1518 مما جعل الامبراطور يفكر بالاخذ بثأره والانتقام لشرفه •

2ـ كان انضمام الجزائر للدولة العثمانية لا يزال يسيطر على عقول جميع الاوساط الاوروبية عامة والاسبانية خاصة • وسيطر عليهم الخوف من النفوذ العثمانى فى المنطقة •

3 ـ مداخلة الغرور والخيلاء صدور الاسبانيين بعد الانتصار فيتلمسان وموت عروج الذى احدث حزنا وأسى فى الجزائر •

4 ـ اغتنام فرصة الخلاف بين الجزائر وأبى حمو ملك تلمسان الذى جعلهم يتحالفون معه ضد الجزائر •

جهز الامبراطور حملة قوامها أربعون سفينة وخمسه آلاف مقاتل ، بقيادة كودى مكادو ،

وأبحرت من صقلية فى آخر جويلية سنة 1519 م، ووصلت الحملة وادى الحراش ، ونزل المقاتلون الى البر . وتمكنوا من احتلال « كدية الصابون » وبناء **قلعة الامبراطور** . وكانوا بانتظار جيش أبى حمو التلمسانى ، ولما لم يصل بعد ستة أيام اضطر الاسبانيون للهجوم العام • وهجم المسلمون على المعسكر وبدأوا يدمرونه ويحرقون قوارب العدو ، ونزل المسلمون بالاسبانيين قتلا وأسرا حتى بلغ عدد القتلى والاسرى اربعة آلاف شخص • ولم يستطع الاعداء اللحاق بالسفن بسبب أمواج البحر ، ولم يلحق بها الا عدد قليل فاستأصل المسلمون الباقيْن قتلا ، وهبت عاصفة حطمت أكثر سفنهم ، ورمت بأربع وعشرين سفينةالى الشاطىء فغنمها المسلمون ، فكانت نتيجة المعركة كالآتى :

1 ـ انهزام الاسبانيين وتحطيم اسطولهم ، وقتل وأسر عدد كبير منهم •

2 ـ كانت سببا ممهدا لطرد الاسبانيين من حصن البنيون سنة 1529 م •

3 ـ ارتفع نجم خير الدين وعلا صيته فى جميع أنحاء اوروبا ، ودب الرعب فى قلوب اعدائه من النصارى والمسلمين كسلطان الحفصيين بتونس الذى ألب ابن القاضى ضد خير الدين حتى أعلن انفصاله وثورته عليه •

أما اسباب الانتصار فترجع الى :

1 ـ ذكاء خير الدين وخبرته العسكرية واستعماله الحيل الحربية السديدة كعملية الكمائن مثلا •

2 ـ اختلال نظام الاسبان ، وشل حركات قيادتهم •

3 ـ أمواج البحر وهيجانه حال دون رجوع السفن والمقاتلين الى البحر ، فمنعته من الابحار والفرار •

4 ـ الزوبعة التى حطمت ما بقى من الاسطول الاسبانى ، ورمت ببعض سفنه الى الشاطىء ، فغنمها المسلمون • ويعتبر بعض المؤرخين الزوبعة سببا رئيسيا فى هذا النصر الجليل ، ولكن بعض المؤرخين يذكر انها حدثت بعد الهزيمة ، ولذا فهى لم تكن عاملا اساسيا . وانما ساعدت على اتمام الهزيمة (11) •

وبعد هذه المعركة سكنت المعارك بين المسلمين والاسبانيين . ولكن كان اعداء من جهة ثانية ، فقد استطاع سلطان الحفصيين بعد الحاح من اقناع الشيخ احمد بن القاضىوالى خير الدين علىالناحية الغربية للتمرد ضده ، واعلان الثورة عليه ، واستطاع ابن القاضى ان يدخل مدينة الجزائر ويقيم فيها من سنة 1521 حتى 1527 م ، الى ان استطاع خير الدين جمع الشعب من حولهوالقضاء على ثورة ابن القاضى ، فلما هدأت الحالة فى الداخل ، والتف الشعب من حوله . بدأ يعمل اسطولا فى البر والبحر وصمم على فتح حصن البنيون المقابل لمدينة الجزائر وذلك لاسباب :

1 ـ رأى خير الدين فى الحصن خطرا دائما يهدد الجزائر ويجعلها تحت رحمة الاسبان •

2 – كان الحصن قاعدة حربية ، ونقطة مراقبة للغزاة الجزائريين ، ومركز التموين وانطلاق الاساطيل الاسبانية القادمة للجزائر .

3 – رغبة خير الدين فى تطهير جميع المناطق الجزائرية المحتلة من قبل الاسبان .

ولذلك بدأ خير الدين فى 6 ماى سنة 1529 م بقصف الحصن من الامام ، ونظم حصاره وضربه من جميع جوانبه حتى هدمه ، فكانت نتيجة المعركة كما يلى :

1 – هدم الحصن عن آخره ، وقتل قائده مع خمسة وستين جنديا ، وأسر تسعين آخرين ، مع خمس وعشرين امرأة وطفل ، وغنم ما فيه .

2 – كانت خسارة المسلمين أحد عشر تركيا وخمسة وثلاثين عربيا .

3 – استولى المسلمون على سفينة ضخمة جاءت لامداد اهل الحصن بعد فوات الاوان .

4 – بناء القنطرة الموصلة من البر الى الحصن ، وبناء ميناء الجزائر .

5 – انتشار الرعب والخوف فى أوروبا لهذه الحادثة الرهيبة التى ألمت بالاسبانيين ، والاهتمام بأمر خير الدين .

6 – حصر النفوذ الاسبانى فى المنطقة الشرقية من المغرب الاوسط فى بجاية ، وفى المنطقة الغربية فى وهران والمرسى الكبير .

7 – استعمال الاسرى الاسبانيين فى بناء منارة المسجد الكبير .

8 – رفع الضغط والمراقبة عن رجال البحرية الجزائريين ، فصاروا ينطلقون بحرية بعد ان كانوا مراقبين من أهل الحصن .

وكان من أهم الاسباب التى عملت على انتصار المسلمين وتحطيم الحصن هى :

1 – استقرار الوضع فى الجزائر والتفاف الشعب حول خير الدين بعد القضاء على ثورة ابن القاضى وتنظيم شؤون الدولة ، وترتيب امورها ، وبناء خير الدين اسطولا بحريا قويا .

2 – ضخامة القوة الاسلامية المدعمة بالايمان ، واستجابة المسلمين لداعى الجهاد واستبسالهم فى المعركة .

3 – الهجوم المركز الذى سلطه خير الدين على الحصن من الامام وتنظيم عمليات الهجوم من الجوانب الاخرى .

بعد هذا النصر الكبير وجه عنايته للداخل ، فاحتل شرشال ، فكان انتصاره على شرشال حافزا للاسبانيين جعلهم يفكرون جديا فى ارسال حملة جديدة قوية ، وكذلك حفز اسطنبول للتفكير فى منح خير الدين فرصة اكبر وأوسع لاستعمال خبراته ودحر أعداء الدولة والاسلام .

وعاود خير الدين عملية انقاذ المسلمين الفارين بدينهم وكرامتهم من السواحل الاسبانية ، فبلغ عدد الذين انقذهم سبعين ألفا وقيل مئة الف من المسلمين ، وامتد نشاطه هذه المرة الى جزر هيار ومضيق جبل طارق .

فى هذه الاثناء استدعى السلطان سليمان العثمانى خير الدين وعينه قائدا للاسطول العثمانى

فى حروبه مع اوروبا ، ومنحه رتبة « **قبودان باشا** » فأناب على الجزائر صديقه وابنه الروحى حسن آغا ٠

معركة حلق الوادى : نظرا لضعف الدولة الحفصية بتونس خشيي السلطان سليمان من الاسبانيين ان يحتلوها ، فبادر بأمر خير الدين باحتلالها فاستطاع دخولها بعد ان احتل بنزرت وحلق الوادى سنة 1533 ، ولكن السلطان الحفصى ذهب يستنجد بالامبراطور شارلكان الذى جهز حملة قوية واحتل « حلق الوادى » ثم دخل تونس يتقدمه الملك الحفصى ، وفى هذه الاثناء خرج عشرة آلاف سجين من الاسرى النصارى . فاستطاع الملك الحفصى والاسطول الاسبانى احتلال المدينة وقتلا عددا كبيرا من الاهالى ٠ وعقد السلطان محمد بن الحسن معاهدة مع الاسبان تنص على تبعية الدولة الحفصية للاسبان ، وملكية الاسبان لميناء حلق الوادى وقرطاجنة وعنابة والمهدية ، ومنع مهاجرى الاندلس سواء كانوا مسلمين أم يهود من الدخول الى تونس . فرجع خير الدين الى عنابة واستقر بقسنطينة ثم رد على هزيمة تونس بمهاجمة البليار وغنم منها الشيء الكثير ، فاهتزت له أوروبا كلها ، وبعد هذا الحادث رجع نهائيا الى اسطنبول وخلفه صاحبه المقدام حسن آغا سنة 1535 م ٠

حملة شارلكان على الجزائر : فى سنة 1541 م قاد الامبراطور الاسبانى شارلكان (شارل الخامس) نفسه حملة صليبية اشتركت فيها جميع دول اوروبا لتحطيم الجزائر ، والقضاء على الاسلام فيها ، وقد كان لهذه الحملة التاريخية اسباب هى:

1 ـ الاخذ بالثار والانتقام للشرف الاسبانى الذى جرت اهانته تحت اسوار مدينة الجزائر سنة 1519 م ٠

2 ـ التعزز السياسى فى تلمسان وتمكنهم من اخضاع الدولة الحفصية بتونس ٠

3 ـ خضوع ملك تلمسان وعقده معهم (الاسبان) معاهدة تبعية واستسلام . فهذا الخضوع الحفصى جعلهم يتفرغون لاخضاع الجزائر ٠

4 ـ سفر خير الدين واقامته بالمشرق جعلهم يظنون وجود فراغ بالجزائر ٠

5 ـ عدم وجود جيش كبير للمسلمين فى الجزائر ، وعدم حساب الاسبان لقوة السكان وارادتهم أى حساب ٠

6 ـ انغماس الدولة العثمانية فى الحروب مع أوروبا كالنمسا والمجر ٠

7 ـ خيبة الامل الاسبانى فى القضاء على الغزو البحرى بعد احتلالهم تونس سنة 1535 م ٠

8 ـ اخفاق ميثاق التعاون والصداقة الفرنسى ـ العثمانى ، وتخاذل ملك فرنسا عن القيام بتعهداته فعقد مؤخرا معاهدة مع شارلكان على عدم محاربته . فتفرغ شارلكان لتجهيز حملة ضد الجزائر ٠

لم يكن يوجد فى الجزائر من الجنود العثمانيين سوى سبعمائة جندى ، فقام حسن آغا بتجميع هؤلاء الجنود مع ألف فارس آخرين وألفين راجل ، ووزع الاسلحة فى مختلف المناطق ، فوضع ثلاثة مدافع كبيرة وخمسة مدافع صغيرة فى البرج

الفوقانى ، ومدفعان كبيران فى البرج الكبير بباب الواد . وأحد عشر مدفعا فى زاوية باب الواد ،ومن هذه الزاوية الى الباب المقابل للجزيرة سبعة عشر مدفعا ، ومن هذا الباب الى المسجد الكبير سبعة عشر مدفعا من البرونز ، واربع مدافع من الحديد وبين المسجد الكبير ودار الصناعة واحدا وعشرين مدفعا ، وبين دار الصناعة وباب عزون ثمانية مدافع وفوق نفس الباب مدفعين ، وكان فى المرسى ثمانية سفن أكبرها من سبعة عشر صفا للجذافين ، وكان كلج على فى قسنطينة مع الف وخمسمائة مقاتل .

استعداد شارلكان وحملته : بدأ شارلكان بتجهيز حملته التاريخية التى اشترك فيها جميع ملوك أوروبا من اسبانيا والمانيا وايطاليا والبابا يوحنا الثالث الذى اصدر فى اوروبا أمرا بابويا يعلن فيه ان هذه الحملة حملة صليبية يجب على كل مؤمن بالمسيح ان يشترك فيها ، وكذلك ساعده فيها رهابنة مالطة الذين كانوا يبيعون أثاث الكنائس وكنوزها لتجهيز هذه الحملة ، فاستطاع ان يجهز جيشا قوامه اربعة وعشرون ألفا من الجنود ، والفىفارس . واربعمائة وخمسون سفينة ، وخمس وستون سفينة حربية كبيرة . واثنا عشر الف بحار بقيادة اندرى دوريا ، وكانت الحملة كلها بقيادة شارلكان نفسه من مرسى ماهون فى 18 اكتوبر 1541 م ، فوصلت جون الجزائر فى 20 اكتوبر ، ونزل الجيش فى شمال الحراش يوم 23 من نفس الشهر ، ونزل الامبراطور عند الحامة شرقى المدينة .

المعركة : بدأ حسن آغا يستعد للمعركة ، فبدأ يرقب تطورات المعركة وحركة العدو ومن حواليه المسلمين ، وهجم على العدو . فلقيه الامبراطور ومن حوله الامراء والنبلاء وفى مؤخرته جنود مالطة والطليان ، واستطاع الامبراطور بعد معركة عنيفة احتلال كدية الصابون ،وجعلها مركزا له ، واحتل عدة قلاع حتى قلعة العفرون ، فأصبحت الجزائر بذلك مطوقة برا وبحرا .

فى هذه الاثناء داخلالغرور الامبراطور ورجاله لكثرة عددهم وعدتهم ، واستهانوا بقوة المسلمين فبعث الى حسن آغا رسالة يطلب منه تسليمالمدينة والا كان مصيره مصير اسحاق وعروج او خير الدين فى هزيمة تونس ، فرد عليه حسن آغا جوابا قاسيا كله احتقار وازدراء وتحد . فأقسم الامبراطور على انيحطم المدينة حجرا حجرا ، واستعد الطرفان للقتال فهجم المسلمون على الاسبانيين هجوما مذهلا حسب اعتراف احد الجنود المالطيين ، وفى تلكالليلة قاسى الاسبانيون من عناء التعب والبرد القارس الذى انهك قواهم وشل حركتهم ، وبينما هم فى حالتهم هذه من الفوضى والاضطراب اذ بالمسلمين يباغتونهم عند الفجر بهجوم عنيف استأصلوهم فيه قتلا وأسرا ، واثخنوهم جراحا ، ثم انسحب المسلمون ودخلوا باب عزون ، والحامية الطليانية تتبعهم ، فلما لم تستطع دخول الاسوار . بقيت وراء الاسوار تحت الامطار لا تستطيع الانسحاب لانها معرضة لمدافع المسلمين من وراء الاسوار ، فجاء الامبراطور يغطى انسحابهم ،فقتلمنهم الكثيرون ، وانسحبوا فاشلين .

وعصفت الرياح فألقت بالسفن الى الشاطىء فتلاطمت مع بعضها ببعض وتحطم منها مئة وخمسون سفينة نقل،وانسحبت السفن العسكرية وغنم المسلمون السفن التى على الشاطىء واخذوا خيراتها ·

وانتهت المعركة بالنتائج الآتية :

1 خسر الاسبانيون المعركة ، وتم قتل وأسر حوالى أثنا عشر الفا . وغنم المسلمون ما لديهم من عتاد وخيرات ·

2 ــ تم تحطيم الاسطول الاسبانى ، حيث تحطم حوالى مائتى سفينة على الشاطىء ولاذت السفن الباقية بالفرار فتحطم بعضها بالبحر ·

3 ــ انقاذ الاسرى المسلمين الذين كانوا يشتغلون على ظهر سفن الاسطول الاسبانى ·

4 ــ انسحاب شارلكان تحت وابل من الرصاص، وعودته الى بلاده دون ان يحقق هدفه ، ورجع يجر وراءه أذيال الخيبة والفشل ·

5 ــ ارتفع صيت محمد حسن آغا فى انحاء العالم ، وانعم السلطان العثمانى عليه بلقب « باشا » مكافأة له وتقديرا لشجاعته وانتصاره ·

اسباب انتصار المسلمين :

1 ــ قلة عدد الجيش الاسلامى حيث لم يكن أكثر من ثمانمائة جندى تركى ، وخمسة آلاف من مسلمى الاندلس ، وكان العرب مكلفين بحرب الكمين ، هذه القلة العددية التى يدعمها الايمان والعزيمة انزلت على قلوبهم الشجاعة والاقدام والدفاع المستميت ضد العدو ·

2 ــ استعمال المسلمين الخطط الحربية المناسبة والدقيقة ، وعملية الهجومات المفاجئة ، والتحصن فى أسوار وحصون المدينة ·

3 ــ كثرة عدد الاسبان وقوتهم المصحوبة بالخيلاء والغرور ، جعلتهم يستهينون بقوة المسلمين وشجاعتهم ، فاعتمدوا فى حربهم على كثرتهم هذه، ولا يبذلوا جميع طاقاتهم ·

4 ــ هطول الامطار الغزيرة ، والبرد القارس ، والرياح العاتية وامواج البحر الهائج ، فكان كل هذا سببا فى انهاك قوتهم وتحطيم اسطولهم ·

5 ــ مباغتة المجاهدين للاسبانيين بالهجوم عند الفجر وهم فى حالة من التعب والهزال ، مما أدى الى انتشار الفوضى والاضطراب بين صفوفهم ، وحملهم على الفرار ·

وبعد ان وقفنا على هذه المعركة التاريخية نترك الاسبانيين والعثمانيين منشغلين فى مناطق أخرى من العالم غير منطقة المغرب ، ونبحث فى دول وقبائل المغرب الاوسط الى أن تحين سنة 1563 م حين سيتجدد الصراع بعد استراحة عقدين من الزمن ·

كان الشعب التلمسانى ساخطاً على السلطان محمد السابع الذى لا يزال مرتميا آنذاك تحت أقدام الاسبان ، وازدادت حمية الشعب بعد انكسار الامبراطور امام الجزائر فقام عليه أخوه أبو زيان احمد الثانى واستولى على العرش · وفى سنة 1547 م توفى خير الدين عن عمر يناهز الثمانين عاما ، كذلك توفى فى نفس السنة حسن

آغا . وتولى حسان خير الدين باشا على ايالة الجزائر .

في هذه الاثناء ظهر السعديون في المغرب الاقصى ، فأرادوا احتلال تلمسان واستخلاصها من يد الاتراك العثمانيين ، وهكذا فقد احتل الملك السعدي تلمسان ومستغانم ، ولكن حسان باشا استطاع ان يسترجعها ، ونصب عليهما الحسن بن عبد الله الثاني . واتفق الطرفان على وضع بين المغرب الاقصى والمغرب الاوسط من ساحل البحر الى بداية الصحراء . وكانت سياسة حسان باشا تتمثل في توحيد البلاد واستخلاص المدن الجزائرية من يد الاسبان ومتابعة الغزو لانقاذ مسلمي الاندلس ، وقسم البلاد الى « بايلربيكات » وحصن مدينة الجزائر . ولكن سفير فرنسا في استنبول الذي كان نافذ الكلمة عند الباب العالي وشى بحسان باشا الى السلطان سليمان . وبين له اطماعه والاخطار التي سيتسبب فيها ، فاستدعى السلطان سليمان حسان باشا الى استنبول ، وخلف مكانه على الجزائر صالح رايس سنة 1552 م ، فعمل هو الآخر على تحقيق الوحدة الوطنية ، فاحتل توقرت ، وضم ورقلة الى مملكته ، ثم التحقت به تلمسان سنة 1554 م واستطاع في سنة 1555 م ان يستخلص مدينة بجاية من يد الاسبان بعد معركة عنيفة . وارجع الكنائس الى مساجد ووضع الهلال مكان الصليب

وفي سنة 1557 م عاد حسان باشا واليا على الجزائر فاستبشر الناس به خيرا ، وبدأ في الحين بتنظيم البلاد، ومواصلة الجهاد، فأخرج السعديين من تلمسان . فاتفقوا مع الاسبان لمحاصرة حسان بتلمسان ، ولكن قائدهم الكونت دالكوديت قتل ، وانتصر المسلمون في 22 أوت سنة 1558 م .

في هذه الاثناء وبعد حروب طويلة مع ملك فرنسا اضطر شارلكان الى عقد هدنة سلام معه في بوسبل سنة 1555 م . وفي نفس السنة عقد هدنة صلح بعد ان فشل في القضاء على الاصلاح الديني البروتستانتي ، كذلك كان يشاهد انفصال شمال افريقيا عن امبراطوريته بعد انقاذ بجاية ، فانشغل في التزهد والرهبنة ، واعتزل الحكم . فقسم مملكته الى قسمين : قسم عين عليه اخاه فرديناد وهو المانيا وعين ابنه فيليب ملكا على اسبانيا وبلجيكا وهولاندا وايطاليا ، وكان ذلك سنة 1556 م وتوفي بعد عامين أثناء كارثة الاسبانيين في مازاغران ، دون ان يشعر بها لانه كان في سكرات الموت .

في سنة 1560 بعد ان احتل المسلمون مدينة طرابلس توجهوا نحو جربة لتخليصها من براثن الاسبانيين فنزل بها دوق مدينا في شهر جوان سنة 1560 م بأربعة عشر الف رجل . وتبعه الاسطول البحري المكون من ثمانية وثمانين سفينة حربية بقيادة مصطفى بيالي باشا ، واشتعلت نيران المعركة ، فأحرقت سفن الاسبانيين . فبلغ عدد السفن المحطمة خمسا وثلاثين سفينة ، وقتل وأسر ما يقدر بحوالي خمسة آلاف شخص .

معركة المرسى الكبير التاريخية : استعد حسان باشا للجهاد وانقاذ بقية المدن الجزائرية من تحت

ن الاستعمار ، فجهز جيشا قوامه خمســـة عشر ألف رجل من رماة البنــادق ، وألف فارس من الصاحبة بقيادة احمد اومقران الزواوى فى شهر فيفرى سنة 1563 م ، واثنا عشر الف رجل من زواوة وبنى عباس فوضع المعدات واللوازم فى مستغانم ، وفى 3 افريل وصل الى رأس العين ، ونصب مدافعه هناك موجهة الى حصن القديسين . كذلك استعد الاسبانيون للمعركة وتحصنوا وراء الحصون والقلاع للدفاع عن المدينـــة والمقاومة ، وكان على وهران يومئذ الدون الونزودى قرطبة ، وعلى المرسى الكبـــير دون مارتان ابن الكونت دالكوديت اللذان طلبا النجدة من اســـبانيا ، فأمدهما الامبراطور باسطول تحت قيـــادة دون خوان ، ولكن زوبعة أغرقت ثلاثة ارباعه ، وغرق القائد نفسه ، ولم يتمكن من الوصول الى وهـران سوى ألف رجل .

وكانت اسباب هذه المعركة ما يلى :

1 ـ رغبة حسان خير الدين باشـــا فى تطهير بقية المناطق والمدن الجزائرية من الاحتلال الاسبانى

2 ـ الانتصار الذى احرزه المسلمون فى جربة شجعهم ، ودفع فيهم الحمية لمتابعة الجهاد دفاعا عن أرض المسلمين .

بدأت المعركة باحتلال المسلمين لحصن القديسين يوم 10 افريل بخمس وعشرين سفينة وثلاثة آلاف رجل مدرب ، واحتل معقل القديس ايلم بعـد ان استشهد الرايس طوغرود باشا فى 23 ماى .

وفى 25 جويليت قام حسان ورجاله بهجـــوم على حصن القديس ميخائيل ، فدافع عنه الاسبانيون دفاعا بطوليا الى ان جاءهم المدد بقيادة نائب ملك صقلية ، وكان يتألف من ثمان وعشرين سفينة حربية ، واثنا عشر الف مقاتل ، والتحمت المعارك بين الجانبين الى ان هلك نصف الجيش الاسلامى ، وتمكن الباقون من الانسحاب يوم 8 ماى 1565 م .

ولما توفى السلطان سليمان فى 5 سبتمبر سنة 1566 م عين السلطان سليم الثانى حسان باشـــا قائدا للاســـطول العثمانى ومنحه رتبة قبودان باشا . وخلف على الجزائر محمد بن صالح رايس فاتح بجاية وموحد الجزائر .

استطاع احد رجال البحر ان يقنع ملك اسبانيا بامكانيته فى احتلال الجزائر بســـفينتين ، وذلك بدخول الجزائر ليلا واحراق الاسطول الجـزائرى فى الميناء ، واطلاق سراح الاسرى الاسبانيين فى الجزائر الذين سيشعلونها حربا ضد المسلمين ، ووافقه الملك على رأيه لانه رأى ان هذا الرجل اذا استطاع ان ينجح فبها ونعمت ، واذا فشـــل فليست هنا خسارة كبيرة ، ولما قام هذا المغامر بتنفيذ خطته اكتشف المسلمون أمره واسروه فى الميناء ، واستطاعوا ان يقبضوا على جماعته الذين هربوا ومن اخرجوهم من السجن فى السفينتين ، فأرجعوهم الى الجزائر ، وقتلوا الاسرى ، واختلف فى قتل رئيسهم فمن المسلمين من حث على قتله ، ومنهم من قال انه قائد وأسير فيجب ان يعـامل معاملة القواد الاسرى . وعلى كل حـــال فـكانت النتيجة الخيبة والهلاك .

وفى سنة 1568 م عين الســـلطان سليم الثانى كلج على باشا « باى لرباى » الجزائر فـــكان له

هدفان أولهما تحرير المغرب العربى من براثن الاسبانيين ، وثانيهما غزو سواحل الاندلس وانقاذ مسلميها .

فلما اعلن المسلمون المضطهدون فى الاندلس الثورة على الملك فيليب القاسى ، بعث كلج على بأربعة عشر الف رجل ، وستين الف مجاهد لغزو وهران ثم التوجه الى الاندلس ، وبعث معهم العدة والعتاد ، وفى اليوم المتفق عليه مع الثوار (1 نوفمبر سنة 1568 م) وصل اسطول جزائرى قوامه اربعون سفينة حربية . ولما تأخرت الثورة الى شهر جانفى سنة 1569 م بعث كلج على باشا اسطولا آخر لتأييد الثائرين . ولكن الاسبانيين صدوه عن الوصول ، وعصفت الزوابع فأغرقت اثنتين وثلاثين سفينة جزائرية ، ولم يستطع النزول بالبر الاسبانى سوى سبعة سفن فقط ، ولم يأبه كلج على لهذه الكارثة فبعث بأربعة آلاف رجل من رماة البنادق . ولولا كارثة الاسطول وانكشاف الثورة لدى الامبراطور لربما كان هناك أمل كبير فى بقاء الاسلام والحضارة الاسلامية فى الاندلس مدة اطول . وهكذا فان هذه الثورة لم يكتب لها النجاح ، وعاث الدون يوحنا الاستيرى قتلا بالثوار فقتل زعيمهم عبد الله ابن أبيه وقد « أفحش الاسبانيول فى قمع الثورة بما اقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان حتى أهلكوا من بقية العرب هناك خلقا كثيرا ، وخضع الذين نجوا من الموت فوقعوا وسيقوا مماليك وعبدانا » (12) ويختم صاحب هذا النص كلامه عن هذه المأساة فيقول « وما درى الاسبانيون ان اسبانيا كانت بهم مركز المدنية ... وان فضل مسلمى الاندلس ليظهر فى همجية هؤلاء القوم (الاسبانيين) وتأخرهم فى الحضارة ، وسقوط هذه الامة فى سلم الاجتماع بعد ان خلت ديارها من الاسلام » (16) . وهكذا تكون اسبانيا قد عملت على هدم حضارة انسانية راقية لم تكن تتمتع بها أى دولة أوروبية مثلها . وعملت على اجلاء البقية الباقية من المسلمين فى الاندلس سنة 1570 م .

لم تهن عزيمة الجزائريين المسلمين فى الجزائر بعد فشل الثورة فى الاندلس ولا بعد الفشل فى معركة ليبانتى الحاسمة سنة 1571 ، بل استمروا فى الجهاد والغزو على سواحل اسبانيا ووصلوا جزر البليار وبرشلونة ثم اجتاز حسن فنزيانو باشا الجزائر مضيق جبل طارق الى جزر كنارى فكان ينقذ المسلمين المضطهدين ويغنم منها أموالا طائلة . وكان كلج على هو آمر باشا الجزائر أثناء انشغاله ببناء اسطول بحرى بعد فشله فى معركة ليبانتى أمام القوات الاوروبية المتحالفة ، وتوفى كلج على بعد أن اتم بناء الاسطول الاسلامى الذى سيكون قادرا على درء الخطر الصليبى عن الديار الاسلامية .

وبموت كلج على باشا توقف الصراع الاسبانى ـ الجزائرى فى نهاية القرن السادس عشر مدة طويلة ليستأنف فيما بعد . لان كلا من المتصارعين لم ينس عدوه ، وصار يترقب الفرصة السانحة للانقضاض عليه . وربما كانت اسباب هذا الركود من الناحية الاسلامية ترجع لخيبة الامل

في انقاذ الاندلس ، واطمئنان الاهالي بعد تطهير كامل البلاد الجزائرية ما عدا وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الاسباني . وانشغال رجال البحرية الجزائرية بمحاربة الدول الاوروبية التي ليس لها اتفاقيات ومعاهدات مع الجزائر ، وكذلك الى اضطرابات في الحكومة المركزية في الجزائر . اما من جهة الاسبان فيرجع ذلك لانحطاط دولتهم شيئا فشيئا في مهاوي السقوط وانفصال البرتغال عنها ، وتفكك أواصر الامبراطورية وفراغ الخزينة الاسبانية .

وكانت نتائج هذا الصراع طوال هذا القرن هي الفشل الذريع وخيبة الامل التي مني بها الاسبانيون ودعاة الحرب الصليبية التي بدأتها ازابيلا . واستطاع المسلمون تطهير جميع مراكزهم من المحتلين الاسبان والبرتغاليين ودرء هذا الخطر الصليبي الذي صار يهدد المسلمين في عقر دارهم فأصبحوا في مأمن منه . ومكنهم ذلك من الصمود امام الهجمات الصليبية التي تجددت في القرن السابع عشر التي لم تكن نتائجها بالنسبة للاوروبين بأفضل من نتائج حروبهم في القرن السادس عشر .

الهوامش

× – غزوات عروج وخير الدين هو الكتاب الوحيد المتوفر لدينا باللغة العربية عن هذا الصراع .

1 – لودفيغ : البحر الابيض المتوسط ، مطبعة دار المعارف مصر ، ص 650 .

2 – نفس المرجع ، صفحات متعددة من ص 651 وما بعدها .

3 – عقد الملك فرانسوا ملك فرنسا معاهدة صداقة مع السلطان سليمان القانوني عندما كان الاول في حروب مع شارلكان ملك اسبانيا وذلك سنة 1519 ، وتجددت المعاهدة 1535 .

4 – لودفيغ ، البحر المتوسط ، ص 655 – 656

5 – نفس المرجع . ولكن يبدو ان المؤلف نسي أن يذكر ان السلطان سليم هو الذي فتح هذه البلاد .

6 – لودفيغ ، نفسه ، ص 669 .

7 – نفس المرجع ، ص 669 .

8 – بالحميسي ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، عدد 4 ، ص 18 .

9 – كان الاسبانيون قد احتلوا بعض المدن الساحلية في القرن الخامس عشر مثل مدينة القالة وشرقي حجر باديس .

10 – ذكر أحمد توفيق المدني في كتابه « حرب الثلاثمائة عام » ، نص هذه الوثيقة الموجودة في سيما نكاس وفيها : « ... ان سلطان تنس هو ابنكم ومتعلق بكم ، ومحسوب عليكم ، وكذا ابن التومي صاحبكم في الجزائر انذبح عليكم وعلى خدمتكم ... اعزموا للجزيرة (الجزائر) قبل ما تجيء عمارة التركي .

11 – أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة عام ، ص 209 نقلا عن هايدو .

12 – المدني ، نفس المرجع ، ص 391 نقلا عن شكيب ارسلان ، نقلا عن لاستافلي ، الاسلام في جزيرة الاندلس .

منشــــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيــة

قريبا ستصدر في طبعة مستقلة كاملة مع الترجمة

اليـــاذة الجـزائـر

التي نظمها خصيصا للملتقى السادس
للتعرف على الفكر الاسلامي

الشاعـــر
مفـدي زكريـــاء

نبـذة تاريخيـة

عن الدولـة الجزائريـة

وليام شالير
قنصل امريكا العام
فى مدينة الجزائر
قبيل الاحتلال
تعريب وتعليق :
د محمد العربى الزبيرى

الفصل الاول

الحدود .. مساحة مملكة الجزائر ـ المظهر العام ـ الجبال ـ المنـــاخ ـ الارض ـ الحيـــوانات ـ الانتاجات الطبيعية ـ الاودية ـ الســواحل ـ المراسى والموانىء ـ التقسيم السياسى ـ المـــدن والسكان .

ان جزء بربارية (1) الذى يسمى مملكة الجزائر (2) ، نسبة الى العاصمة ، تحده غربا ، امبراطورية المغرب ، وشمالا البحر الابيض المتوسط ، وشرقا بلاد تونس ، والصحراء الكبرى فى الجنوب • وترونت هى الحد الفاصل ، غربا ، على البحر الابيض المتوسط : وهى حصن يبعد بحوالى أربعين ميلا (3) عن وادى ملوية الكبير ، ويقع على 16 دقيقة من خط قرينتش الذى تعتمده الدول البربرية ، وتعتبره أحسن منظم لخطوط الطول • وتبعد هذه النقطة بخمسمائة ميل عن طبرقة التى تمثل الحد الشرقى ، والتى تقع عند مصب نهر صغير يدعى « الزين » شرقى خط الطول الذى يقدر بتسع درجات و 16 دقيقة • اما تحديد العرض فيخضع لكثير من الريب لان هناك بعض المناطق ، شمال الصحراء الكبرى ، لم يحقق أبدا فى أمرها •

ويعتقد الدكتور شاو (4) ، الذى يبدو أكثر الجغرافيين اطلاعا على هذه المادة ، ان عرض الجزائر لا يتجاوز اربعين ميلا فى تلمسان ، وستين فى الجزائر • وعلى هذا الاساس نستطيع القول بان ستين ميلا هى المعدل الذى نطمئن اليه بالنسبة للعرض من البحر الابيض المتوسط الى الصحراء الكبرى (5) • ويطلق العرب اسم التل ، أو الاراضى الزراعية ، على المناطق التى لا تتخللها الصحراء • وبهذا الصدد لا ينبغى ان نتوهم بان حدود الصحراء واضحة المعالم لانها مليئة بالجبال والمناقع والسهول الخصبة التى تسميها خرائط افريقيا : بلاد الجريد ، وانما يجب ان ننظر الى الصحراء كأرض تكاد تكون مجهولة ، وسيبقى هذا التعريف قائما الى ان نعثر على معلومات تكون أكثر دقة • لقد جمعت كثيرا من الاخبار عن رحالة البلاد ، وبالاعتماد على شهاداتهم اراني مدفوعا الى الاقرار بعرض اكبر ، ولكن ذلك لا يعد بحثا دقيقا يسمح بتحديد المواقع ، وانما هى مجرد آراء لا تخول لى بان اناقض ما جاء به ذلك الرحالة المشهور (6) •

وهكذا ، فان الجزائر ، بالاعتماد على هذه المعطيات ، تمتد على مساحة قدرها حوالى ثلاثين الف ميل مربع ، وهى بلد جبلى تتخلله سلاسل الاطلس المتوازية التى تشق البلاد من الغرب الى الشرق ، والتى يتفرع عنها العديد من الجبال والوديان • ويؤكد الاهالى بان ليس ثمة جبل واحد من هذه الجبال يخلو من الغابات ، وان القبائل تسكن القمم حيث تجد الاراضى الزراعية الكافية لسد حاجاتها ، والمراعى اللازمة لقطعانها• ويقع الجزء الصالح للسكن من هذا البلد الجميل ما بين درجتى 34 و 37 من خط العرض الشمالى ، وهى منطقة لها مناخ صحى ولطيف بدون حرارة خانقة فى الصيف ولا برودة قاتلة فى الشتاء • ولكن هناك استثناء ، اذ يجب ان نقول بان الرياح التى تأتى من الصحراء والتى تهب ، صيفا ، مدة اربعة او خمسة أيام فى بعض الاحيان ، ترفع الزئبق الى مائة وثمانى درجات فى مقياس فارنهاريت (7) • وفى الفترة ما بين افريل وسبتمبر تكون الرياح ، عادة ، كثيرة الرطوبة ولكن بدون أمطار ، ومن نوفمبر الى افريل يسود

فصل الامطار • وفي بعض الاحيان تنزل الامطار غزيرة جدا في شهري نوفمبر وديسمبر • ويكون جانفي وفيفري ، عادة ، شهرين جميلين • ويقدر المعدل السنوي للامطار التي تنزل في البلاد بكمية تتراوح ما بين 24 و 28 بوصة (8) •

ولم تفقد أرض هذا الجزء من افريقيا أي شيء من الخصب الذي كانت تشتهر به في الماضي • واللون فيها يختلف : فهو اسود في بعض المناطق ، واحمر في جهات أخرى ، ولكن الخصب واحد في كل مكان لان التربة شديدة الامتزاج بالنترون والملح • ويكاد يكون (10) الزرع الوحيد في البلد متمثلا في القمح والشعير • ويبذر في الاكر الواحد ، عادة ، خمس بيكونات ينتج كل منها ما بين 8 و 12 وذلك على الرغم من عدم تطور الفلاحة • وقمح الجزائر من النوع العادي • دقيقه يشبه الرمل الى حد كبير ويعجن بكثير من الصعوبة ولكن الخبز الذي يصنع منه ممتاز • وعلى العموم ، فان هذا القمح يفضل على غيره في أسواق ايطاليا لانه يعطي احسن انواع المعكرونة واجود المعجونات •

ومن الكتاب القدماء من يذكر ان هذا الجزء من افريقيا فقير الى الغابات • ان هذه الحالة لم تتغير حتى اليوم ، ولا نجد واحدة من اشجار الغابات في السهول الا بصعوبة لا مثيل لها • اجل : ان بجاية تصدر الى مدينة الجزائر كثيرا من خشب الصقالة ، ولكنه ، كما قيل لي ، من النوع الرديء ، ولا يستعمل ، الا نادرا ، في بناء السفن • أما شجر الزيتون ، فانه يجد في الجزائر مناخه الطبيعي ، وحيثما يزرع ينبت كأحسن ما يكون • وفي الجزائر ايضا ، تنبت اشجار الجوز والفستق ، وتعطي ثمارا جيدة ولكنها لا تساوي ثمار فرنسا واسبانيا وايطاليا • وفي البلد ، كذلك ، كثير من النخيل ،وتمور الصحراء ممتازة• وعلى العموم ، فان الجزائر تنبت جميع انواع الفواكه التي تنفرد بها المناخات المعتدلة ، غير ان هذه الفواكه ما عدا التين والرمان والعنب ، تعتبر من النوع الرديء • ومع ذلك ، فنحن عندما ننظر الى طبيعة هذا البلد الذي يشتمل على العديد من الوديان المختلفة الارتفاعات ، نتأكد من ان منتوجاته كان يمكن ان تكون احسن من منتوجات البلاد الاخرى لو وجدت ، لفلاحتها ، رجالا متحضرين وصناعيين • المعادن الوحيدة في المملكة هي الرصاص والحديد اللذين تستعمل منهما القبائل كمية كبيرة تصنعها بنفسها • وهناك أيضا ، أنواع مختلفة من الطين يستعملها السكان لصناعة اوعية تمتاز بالخشونة • وتشتمل الجبال على مناجم لا تنتهي من الملح الممتاز •

ان مملكة الجزائر بلد تتوفر فيه المياه ، وتكثر الينابيع والسواقي ، ولكنه لا يحتوي على أودية كبيرة • اهم وادي فيه هو الشلف الذي ينبع من الصحراء ، جنوب مقاطعة التيطري على بعد حوالي خمسين ميلا من مدينة الجزائر •وعندما تنضم اليه كثير من الروافد ، يصبح ذا أهمية بالغة ، ثم يتجه غربا ويسير في خط يكاد يكون متوازيا مع الساحل مسافة حوالي مائة ميل • وبعد ذلك يصب في البحر الابيض المتوسط عند درجة

واحدة وعشرين دقيقة من خط الطول ، وعلى بعد حوالى ثلاثين ميلا من رأس تنس الكائن غـــربى العاصمة . ومن المحتمل ان هذا الوادى صـــالح للملاحة بالنسبة للقوارب ، وذلك على بعد مسافة كبيرة من مصبه . وفى فصل الامطار ، تفيض مياه الشلف عن سريره ، فتغمر جزء كبيرا من الارياف المجاورة ، وتشكل حاجـــزا خطيرا بين وهران والجزائر . والشلف هو الوادى الوحيد الذى له اهمية فى هذه المملكة التى يوجد فيها عدد لا يحصى من السواقى التى تصب فى البحر ، وتوجـد فى الجزائر ، ايضا ، ينابيع من المياه المالحـــة والمياه المعدنية .

وفيما يلى الوصف الذى تركه لنا الدكتـــور شاو للحمام الواقع ما بين الشلف والبحر على بعد حوالى ستين ميلا غربى مدينة الجزائر : ان اجمل الاحواض واكثرها زبائن هو حمام ريغة الذى يقدر ضلعه باثنى عشر قدما وعمقه بأربعة ، والماء عندما يصل اليه يكون فى درجة من الحرارة معقولة جدا . وبعد الخروج من هذا الحوض ينتقل الماء الى حوض ثان اصغر من الاول يستحم فيه اليهود لانـــه لا يحق لهم ان يختلطوا بالمسلمين . ولقد كانت هذه الحمامات ، فى القديم ، تقع تحت بناية أنيقة ، وكانت الاحواض محاطة بأروقة من الحجارة . أما اليوم ، فان الحمامات عارية . وعنـــدما رأيتها ، كانت مليئة بالحجارة والنفايات . وفى الربيـــع الذى هو فصل المياه ، يأتى الى الحمام عدد كبير من الناس . ويقال ان تلك المياه تعالج النقـرس والبرقان وغير ذلك من الامراض المزمنة والمتأصلة .

ان السواحل الجزائرية تنزل منحدرة فى كل مكان ، ولا تشكل اى خطر لا يمكن توقعه على بعد مسافات كبيرة . وتعتبر بجاية وخليج ســـتورة أحسن ما فى البلاد من موانىء لانهما فسيحان جدا ويمثلان ملجأ بعيدا عن المخاطر فى جميع الفصول . لقد اخذت هذه التفاصيل كلها عن قبدان مركب انكليزى ممتاز اجبرته رداءة الطقس على الارساء فى هذين الميناءين بينما كان يقوم برحلة شتوية من الجزائر الى عنابة ، ذهابا وايابا . ولكن هـــذه الســـــواحل غير معروفة كما ينبغى ، ولو كانت مدروسة دراسة جيدة ، لتبين لنا أنها تشتمل على موانىء أخرى ممتازة . وفى الوقت الحـالى ، فان عنابة والجزائر ووهران هى الموانىء الوحيدة التى تستقبل السفن الاجنبية لانها تجـد فيها مراسى آمنة فى جميع الفصول العادية ، وان لم تكن فيها مؤمنة ضد رياح الشمال التى تنسف عاصفة فى الشتاء . وفى بحر الجزائر تكثر اسماك الابيض المتوسط ، فى حين ان الساحل الشرقى يشتمل على أجمل انواع المرجان المعروف . ومن الممكن ان يصير هذا المنتوج مصدرا لصناعة البلاد وثروتها . غير ان فرنسا وحدها هى التى تحظى ، فى الوقت الحاضر ، بحق الصيد وباحتكار هذا الفرع الهـام من التجارة ، ولا تأخذ الحكومة الجزائرية عن ذلك سوى رسم زهيد جدا (11) .

وبما ان سكان الداخل رعاة ، تشكل القطعان أهم ثرواتهم ، وبما ان طبيعة البلاد ، التى تكثر فيها المراعى ، توفر جميع الوسائل اللازمة لتغذية المواشى ، فاننا نجد فى البلاد عددا كبيرا من جميع

أنواع الحيوانات الاليفة مثل الحصان والثور والجمل والمهرى والحمار والبغل والكبش والعنزة ، وعلى الرغم من ان الخيول العربية ذات شهرة كبيرة ، فانني لا أذكر انني رأيت في الجزائر حصانا واحدا جميلا • واعتقد ان هذه الخيول لا تساوى ، من جميع النواحى ، خيول الولايات المتحدة • أما الثيران فصغيرة القامة ، والابقار لا تدر سوى كمية قليلة جدا من الحليب ، ولكن صوف الجزائر من النوع الرفيع جدا ، وبدون ان يغسل او يخلط بغيره فانه يساوى ، فى فرنسا وايطاليا ، خمسين فرنكا للقنطار الانكليزى • وفى الجزائر تكثر الطيور والعقران والارانب والحجل ، وعندما يكون الفصل ، يوجد السمانى والديكة ودجاج الارض والحذف والبط الوحشى • وفى داخل البلاد ، وعلى حدود الصحراء يكثر الابل واليحمور والغزال ، أما الحيوانات المتوحشة فهى الاسد ، والفهد بأنواعه والضباع ، والقطط الوحشية والذئاب الكاسرة • ولم يفقد اسد نوميديا اى شىء من طابعه القديم ، فهو لا يزال ، حتى يومنا هذا ، أجل واعظم الحيوانات اذا صدقنا روايات السكان •

وسياسيا ، تنقسم مملكة الجزائر الى ثلاث مقاطعات هى : وهران فى الغرب ، التيطرى فى الجنوب ، وقسنطينة فى الشرق • ويحد مقاطعة التيطرى ، غربا ، وادى مازفران (3 درجات و 12 دقيقة شرقى خط الطول)الذى يفصلها عن مقاطعة وهران ،بينما يحدها شرقا ، بوبارك الذى يفصلها عن مقاطعة قسنطينة (4 درجات و 15 دقيقة شرقى خط الطول) • ويعتقد ان هذه المقاطعات الثلاث تمتد جنوبا من البحر الابيض المتوسط الى الصحراء • وعلى ساحل مقاطعة التيطرى تقع عاصمة هذه المملكة (36 درجة و 48 دقيقة شمالى خط الطول و 3 درجات و 30 دقيقة شرقيه) ويزعم شاو انها مقامة فى مكان ايكوزيوم القديمة • اما السلطة القضائية فيها فواسعة جدا ، ويخضع لها مباشرة عدد كبير من الحكومات فى المقاطعات الثلاث كما سنرى فيما بعد (12). وعلى هذا الاساس يمكن لنا ان نعتبرها مقاطعة رابعة • وباستثناء العاصمة التى سنصفها فى الفصل القادم ، فان المدن فى هذه المملكة قليلة الاهمية • فتلمسان الواقعة على مقربة من الحدود الغربية ، فى منتصف الطريق ، تقريبا ، بين البحر الابيض والصحراء ، كانت عاصمة للمملكة التى تحمل اسمها ، وهى مدينة بالغة الاهمية ، يقدر شاو دائرتها القديمة بأربعة اميال • ومنذ ان سيطر الاتراك على هذه البلاد ، فان تلمسان قد تدهورت وآلت الى الانحطاط الكامل ، وذلك على الرغم مما لموقعها من مزايا • ويحتمل ان عدد سكانها اليوم يقدر بحوالى ثلاثة آلاف نسمة • وتقع وهران على بعد اربعة وخمسين ميلا شمال شرقى تلمسان ، وهى ميناء ممتاز فى الفصول العادية ، وتمتد على برزخ تقدر مساحته بخمسة اميال جنوب غربى مرسى أرزيو الجميل (35 درجة و 48 دقيقة على خط العرض ، و 6 درجات و 40 دقيقة شرقى خط الطول) • عدد سكانها حوالى ثمانية آلاف نسمة • ومن الاكيد ان موقعها فى ارض جميلة جدا وخصبة للغاية وكذلك

مرسواها الجميلان وجوارها لجبل طارق واسبانيا، كل ذلك يجعل منها ثانية مدينة فى المملكة ٠

وعلى بضعة أميال شرقى وهران تقع مستغانم، وهى مدينة عربية كانت بالغة الاهمية عندما كان الاسبانيون يسيطرون على وهران ٠ولكنها افتقدت جميع مزاياها منذ ان استرجعت الايالة هـــنه المدينة الاخيرة(13).وكان الاسبانيون قد اقاموا حول وهران حصونا منظمة ، ثم انهم ، بعد احتلال دام حوالى مائة سنة ، أعادوها لاصـــحابها بمقتضى معاهدة الصلح الاخيرة مع الجزائر ، وقد دفعهم الى ذلك املهم فى الحصـــــول على مزايا لم تتحقق لهم (14) ٠ اما البليدة التى هى مدينة يســـكنها ثمانية او عشرة آلاف نسمة ، فانها تقع جنـــوب العاصمة على الحدود الجنوبية لسهل متيجة وعلى بعد اربعة وعشرين ميلا ٠ وبعد ذلك ، وعلى مسيرة يوم فى نفس الاتجاه ، توجد المدية ، عاصـــــمة التيطرى ، وهى مدينة تكاد تكون مثل البليدة من حيث المساحة والاهمية ٠ وان مجـــاورة هاتين المدينتين للعاصمة ، وكذلك موقعهما فى أخصب أراضى نوميديا ، قد سمحا لهما بتحقيق ازدهار فلاحى هائل ٠ وأما قسنطينة ، عاصمة المقاطعة الشرقية ، فهى سيرطا القديمة ، وتقع على وادى الرمل ، على بعد حوالى اربعين ميلا من البحــــر (36 درجة و 20 دقيقة شمالى خط العرض ، و 6 درجات و 30 دقيقة شرقى خط الطول) يقدر الاهالى سكان هذه المدينة بحوالى خمســـة وعشرين ألف نسمة ٠ ومما لا شك فيه ان موقعها من احســـن المواقع التى يمكن ان نتصورها ، وعليه كان يحق لها ان تحظى بجميع المزايا لو كانت الحـــكومة عاقلة

أما عنابة أو هبون القديمة ، فهى مدينة يقدر عدد سكانها بحوالى ثلاثة أو اربعة آلاف نسمة ، ولها ميناء هادىء (36 درجة و 43 دقيقة شـــمالى خط العرض ، و 8 درجات شرقى خط الطول) ٠ وقبل الثورة الفرنسية ، كانت عنابة ، كمدينـــة تجارية ، تفوق مدينة الجزائر ٠ لقد كانت ملتقى جميع أنواع التجارة التى كانت تقوم بها الشركة الفرنسية الافريقية التى كانت تحتكر صيد المرجان وغيره من الامتيازات التجارية الاخرى التى ظهرت من جديد مع العودة (15) ولكنها لم تتمكن ، بعد ، من تحسين التجارة فى عنابة تحسينا ملموسا ٠ ولو ان عنابة تحظى بأدنى التشجيعات فى الميادين الفلاحية والتجارية ، فانها ، نظرا لما لموقعها من مزايا ، ستنمو نموا هائلا ٠

وتشتمل بجاية (الواقعة على 36 درجـــة و 45 دقيقة شمالى خط العرض ، و 9 درجـــات و 24 دقيقة شرقى خط الطول) على احســــن موانىء الساحل الجزائرى ٠ وقد كانت فى السابق أهــم ترسانة فى الايالة ٠ والمناطق المجاورة لبجـــاية جبلية ولكنها غنية بأشجار الزيتـــون ٠ ولو ان بجاية تتلقى التشجيعات التى تستحقها ، ستصبح مدينة تجارية بالغة الاهمية ٠ أما اليـــوم ، فان حالتها من أتعس الحالات وسكانها لا يتجاوز عددهم الالفى نسمة ٠

ولقد وصف الدكتور شاو عددا آخر من المدن الساحلية ، ومن مدن الداخل ، وهى مدن يحتمل

انها لم تحتفظ بأى شيء من المزايا التى كانت لها آنذاك . ومن ثمة ، فاننى لم اتمكن من ايجاد ما يساعد على تسليط الضـــوء عليها ، الامر الذى جعلنى انتهى الى انها فقدت كل تأثير سياسى او تجارى . ومع ذلك ، فأنا مضطر لان اقول شيئا عن شرشال - القيصرية القديمة التى كانت أهم مدينة بحرية فى موريطانيا (16)، والتى تقع غربى مدينة الجزائر (درجتين و 39 دقيـــقة شرقى خط الطول) .

لقد كانت شرشال ، فى عهد الدكتور شـاو ، مدينة بالغة الاهمية . ولكنها ، بعد ذلك ، لم تعد شيئا مذكورا ، وهى لا تعرف ، اليوم ، الا كمكان تصنع فيها أوانى الفخار الرديئة التى تحمل على متن القوارب لتباع فى مدينة الجزائر .

وفيما يتعلق بعدد سكان هذه المملكة ، هنـاك آراء مختلفة . وليس المقصود ،هنا اعطاء حسابات مضبوطة ، ولكن اكثر ما نستطيع القيـــام به هو تقديم ارقام تقريبية بالاعتماد على المقارنة ببلدان أخرى نعرف احصاءاتها حق المعرفة . ونظرا لقلة عدد المدن التجارية والصناعية ،وللطغيان البربرى المسلط على البلاد ، وللحياة الرعوية التى ما زال يتشبث بها العديد من سكان البلاد ، وعلى الرغم من المناخ الجميل والارض الخصبة ، فاننى اعتقد بان عدد سكان هـــذه المملكة ، التى تمتد على مساحة قدرها حوالى ثلاثين الف ميل مربع ، أقل من مليون نسمة لا أكثر .

هوامش :

(1) هى الصفة التى كانت تطلق على شـــمال افريقيا ، ومعنـــاها موطن التوحش والهمجية . وبالمساق ، فان سكان برباريا هم البـــرابرة الذين أصبح الكثير يعتقدون بانهم جنس ، والحقيقة ان هذه العبارة لم تكن مصطلحا تاريخيا فى يوم من الايام ، وانما هى نعت استعملته روما وقبلها أثينا لوصف جميع الشعوب التى لم تكن متحضرة فى نظرهما . وكانت روما هى التى اطلقت التسمية على بلادنا . وقد ظلت الكلمة تطلق على الايالات العثمانية ومملكة المغرب الاقصى الى ان كان الاحتلال الفرنسى بالجزائر . عندما ادخل المؤرخون الفرنسيون تحريفا بسيطا على العبارة ، وصاروا يوهمون الاهالى بانها تعنى ذلك الشعب الذى كان يسكن ليبيا وموريطانيا قبل مجيء العرب والفتح الاسلامى .

(2) يذكر بيليسى فى حولياته (ج 1 ، ص : 16) بان الجزائر كانت جمهورية عسكرية يعين رئيسـها بالانتخاب . ويقول آخرون بانها كانت مملكة والواقع انها لم تكن هذه ولا تلك ، وانما كانت تحكم بنظام من نوع خاص . لم يعرف فى أى بلد آخر ، واهـم ميزاته انه كان يجمع بين الصبغة المدنية والعسكرية، وانه كان حكما جماعيا شوريا فى القمة ، وفرديـا مطلقا فى القاعدة .

(3) وحدة قياس تساوى 1609 م أو اربعـــة آلاف ذراع .

(4) رحالة انكليزى زار الجزائر فى القرن الثامن عشر وكتب : رحلة فى ايالة الجـــزائر ، أو وصف جغرافى وسياسى لتلك الدولة · ترجمه من الانكليزية الى الفرنسية السيد ماك كارتى ·

(5) هذا تقدير خاطىء وما علينا الا ان نرجع الى المسافات الفاصلة بين سواحلنا والمدن الواقعة عـلى حدود الولايات الصحراوية ·

(6) خاصة اذا كان ما جاء به الرحالة المذكور ليس فى صالح الجزائر ·وهذا اكبر دليل على عمل الغربيين على تشويه تاريخ بلادنا ·

(7) من مقاييس الحرارة ·

(8) وحدة مقياس كانت تساوى 2ر707 سنتم وهى الآن شائعة فى البلدان الانكلوسكسونية وتســاوى 2ر54 سنتم ·

(9) من مقاييس الكيل القديمة ·

(11) كان هذا الرسم يقدر بصندوقين يعطيــان للداى فى آخر كل سنة،وبعض الاغصان التى تقدم فى شكل هدايا الى بعض الاعيان والمسؤولين ·

(12) كانت القبائل الجزائرية فى بعض الاحيــان تتحالف فيما بينها وتكون ما يسمى بالصف ، وهو قوة عسكرية ضاربة تقف فى وجه كل من اعتــدى على أى واحد من الأطراف المشاركة فى الحلف · وان هذه الصفوف هى التى يطلق عليـها بعض المؤرخين الغربيين تسمية الكونفدرالية ويعتبـــرونها دويلات مستقلة فى الجزائر · وهذا خطأ لان الصفوف تابعة للنظام المركزى ، تلجأ اليه فى جميع القضايا التى تصعب عليها تسويتها كما انها تدفع ما يترتب عليها من رسوم قانونية وان كانت تتمرد من حين لآخـــر شأنها فى ذلك شأن سائر الجماعات البشرية ·

(13) كان ذلك سنة 1792 بعد صراع دام حــوالى ثلاثة قرون (انظر تحفة الزائر ص : 112 حول هـذه النقطة) ·

(14) كان الاسبانيون يطمعون فى الحصـــول على امتيازات تشـــــبه الامتيازات التى كان يحظى بها الفرنسيون فى شرقى الايالة ، بل انهم كانوا يهدفون الى تكوين مؤسسات تجارية فى الســواحل الغربية تكون منافسة للمؤسسات الفرنسية فى عنـــابة والقـالـة ·

(15) هى الفترة التى تلى ســــقوط بونبارت · والمقصود هى عودة البوربون الى عرشهم فى فرنسا ·

(16) التسمية القــديمة للمنطقة التى كانت تقع فيها مدينة شرشـــال وقد كانت تسمى موريطانية القيصرية ·

تراجم بعض مشـاهير علمـاء زواوة
القبائل الصغرى والكبرى

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى
- الجزائـر -

كتب هذا المقال كدليل للمشاركين فى الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى عن المنطقة التى عقد فيها هذا الملتقى ·

ان بلاد زواوة كانت جزءا مـن قبائل كتامة المشهورة بتاسيس الدولـة الفاطمية فى احـدى قـراها : ايقجان وموقع كتامة يمتد بيـن مدينتى القالة شرقا الى تنس غربا (أو دلس على أصح الاقوال) ، حسبما ذكره المؤرخون وخاصة منهم ابن خلـدون ·

تاريخ الناحية فى العهد الرومانى

كانت زواوة تابعة لبجاية الرومانية (صلداى) وكانت فى قسمة منطقة نفوذ ماسينيسا عندما كان يتمتع بالاستقلال الداخلى ، أى تابعة لنوميديا وبعد ثورة يوغرطة ، أبطلت روما الاعتراف بالاستقلال الداخلى لنوميديا واحلت محله الحكم المباشر ، ثم اقتضى نظر الامبراطور أوقست Auguste ضمها الى موريطانيا (شرشال) القيصرية ، وذلك سنة ٣٣ قبل المسيح ، وقد احتفظت الناحية ببعض آثار ذلك العهد ، منها حصن تيكلات سفح الفناية بوادى الساحل .

كان الرومانيون يسمون زواوة كانكو جنتيان Quinquegentiens (١)

وقد سجلوا هذا الاسم فى كثير من وثائقهم ، اذ ثاروا عليهم عدة مرات ، منها الثورة المشهورة التى دامت سنين وذلك سنة ٢٩٣ م وقام لاخمادها أحد اقارب الملك ، ولما تغلب عليه الثوار التحق به الامبراطور ماكسميان هركول Maximien Hercule وتولى قيادة الجيش الرومانى الذى كان يضم جيش القطاع الغربى شرشال ، والشرقى الذى كانت قاعدته الممتازة سطيف ، وقد ترك والى شرشال أورليوس ليسيا Litua Drurlins نصبا خلد فيه هذه الحرب التى انتهت سنة ٢٩٧ ، وقد عثر عليه فى انفاق كنيسة بجاية الحالية ، وقد ذكر فيه أنهم اخمدوا نار ثورة الكانكوجنتيان .

وكان سكان هذه الناحية يثورون على روما للضيم والاهانة التى كانت تلحقهم من الحكام ، كما كانوا فى انقلابات قادة الجيش خصوصا بعد ما اشتدت الخلافات الدينية بينهم ابتداء من القرن الرابع ، وبقيت الحالة مستمرة الى عهد بيزنطة ، فوجدوا سياسة روما نفسها تتجدد ، وذلك أنهم كانوا يعتنون بالمدن الساحلية ومظاهر زخرفتها والتفنن فى التفاخر بالقصور ، واهمال سكان القرى والجبال وتسخيرهم للاعمال الشاقة ، فكانت التمردات والثورات متتابعة ، وقد وصف المؤرخ فيرو السكان الامازيغ اذ ذاك بقوله «ان سكان هذه البلاد كانوا يطمحون الى الحرية اذ كانوا اباة الضيم ، ولهذا كانوا يثورون على الحكام ، فحالتهم هى هى ، شبيهة بما هم عليه فى زماننا لم تتغير » .

وكانت بجاية بطبيعة موقعها عاصمة هذه الناحية ، وكانت لها طرق معبدة تربطها ببقية البلاد ، كانت اشهرها الطريق التى تربط بجاية بدلس : تشق بلاد القبائل الكبرى ، بجاية ، قصر كبوش ، جامع الصهاريج ، تورقت ، دلس ، والتى تربط بجاية بسور الغزلان وتشق القبائل الصغرى : بجاية ، تيكلات ، اقبو ، سور الغزلان ، ثم التى تربط بجاية بجيجل ، وهى المعروفة الآن بطريق الساحل ، وتمر على المنصورية

وقد ذكر هذه الطرق ومحطاتها الجغرافيان بتوليمى وانطونان Ontonin, Ptoleunée

العهد الاسلامى

اما فى العهد الاسلامى فكانت لبلاد الجزائر عاصمتان ابتداء من القرن الخامس : شرقية

---

١) قال فيرو فى تاليفه «تاريخ بجاية» أن المؤرخ بربرقير الاختصاصى فى اللاتينية ترجم هذه اللفظة وأعطى تفاصيل فى موقع زواوة فى العهد الرومانى وذلك فى تاليفه :

«Les époques militaires de la Grande Kabylie» par Berbrugger

وغربية ، فالشرقية : بجاية ، اذ ورثت العواصم الاسلامية المندثرة كالقيروان ، وصقلية ، وقلعة بنى حماد ، وتيهرت ، كما لجأ اليها كثير من علماء الاندلس اثر انحلال الدولة الاموية ، وتساقط بعض العواصم فى أيدى الاسبان كطليطلة ، كما كانت تلمسان العاصمة الغربية ٠

كانت زواوة بالطبع تابعة لبجاية الى ان سقطت بجاية فى أيدى الاسبان حوالى سنة ٩١٠ هـ فى عهد الدولة الحفصية ، فعندئذ تكونت فى البلاد امارتان ، الاولى : امارة القبائل الصغرى وكانت قاعدتها قلعة بنى عباس ، ثم تحولت الى مجانة ، وكان يتداول حكمها آل القرانى ٠

الثانية : امارة القبائل الكبرى وكانت قاعدتها «جبل كوكو» ، ويتداول حكمها افراد اسرة أحمد بن القاضى الزواوى ، الذى تولى قضاء بجاية فى أواخر عهد الدولة الحفصية ٠

بقيت هاتان الدولتان او الامارتان تتصرفان فى البلاد طيلة ثلاثة قرون ، أى عهد الاسبان ببجاية ثم الاتراك ، وكانت علائقهما مع الاتراك ومع الاسبان ومع بعضهما تختلف ، فتارة سلم ، وتارة حرب ، كما كان نفوذهما يتغير من قوة الى ضعف ، والعكس ، طيلة هذه القرون الثلاثة ٠

ونجد فى العهد الاسلامى ان كثيرا من هذه القبائل ، أى الكبرى والصغرى اشتهرت بمراكز ثقافية ممتازة ، وتكونت بها أسر علمية ، توارثت العلم قرونا ، ولم تقتصر شهرة هذه الاسر العلمية داخل البلاد فحسب ، بل جاوزتها الى بقية بلاد العالم الاسلامى شرقا وغربا ، فمن هذه القبائل بترونة ، بنو غبرين ، بنى يتورغ ، زرخفاوة ، بنو فراوصن ، بنو يراثن ، قشتولة ، بنو صدقة ، بنو منقلات ، يليتن ، مشدالة ، بنو مليكش ٠

هذا فيما يخص القبائل الكبرى ٠

أما القبائل الصغرى فكانت معاهد العلم (بعد سقوط بجاية فى أيدى الاسبان) منتشرة فى معظم قراها ، أى بوادى بجاية ، وبنى يعلى العجيسى ، زمورة ، وكان مؤسسوها علماء البلاد والاندلسيين ، ولا زالت كثير من الاسر العلمية تحتفظ بوثائق (١) تثبت أصلها البجائى ، كما لا زالت كثير من الاسر تحتفظ باجازات علمية أزهرية وباتصالها بكثير من علماء البلاد القدامى باجازات تثبت الفنون التى كانت تدرس ببوادى بجاية وهى نفس الفنون التى كانت ولا زالت تدرس بالجامعات الاسلامية كالازهر والزيتونة والقرويين ٠

العهد الفرنسى

بعد احتلال فرنسا للجهة أى القبائل الصغرى ، ثم الكبرى ، قسمت الى مناطق بقرارات (٢) ١٨٥٠ ـ ١٨٥٢ ـ ١٨٥٣ ـ ١٨٥٤ ٠

فكانت ناحية دلس تشمل : بنى ثور ، بنى سليم ، ثاورقت ، عمراوة ، بنى خليفة ، بترونة ،

١) من جملتها أسرة ببنى وغليس تنتمى الى الهادى بن يحى بن موسى الحضرى مؤرخة سنة ١١٤٩ هـ يقول فى ختامها الحضرى الشريف من شرفاء بجاية الخارجين منها عندما دخلها النصارى « وهذه الوثيقة اجاز بها محمد الروداني السوسى سنة ١٠٦٤ افراد الاسرة عند مروره عليهم فى طريقه الى المشرق وهو جزء من فهرسته» (صلة الخلف بموصول السلف) ٠

(2) «Notes et documents concernant l'insurrection de 1856-57 de la Grande Kalylie» par le Colonel Robin (Edit. Jourdan Alger 1902).

المعاتقة ، بني جناد ، زرخفاوة ، بني غبرين ، عزازقة ، بنى فراوصن ، بنى يراثن الخ ..

وكانت ناحية ذراع الميزان تشمل : بنى صدقة بنى ينى ، بنى واصيف ، بنى منقلات ، ومشدالة الخ بقى هذا التقسيم سارى المفعول ، وأن أعيد التقسيم مرارا فى العهد الفرنسى الا أن مواقع هذه المراكز التى اشتهرت بالعلم والعلماء حدد موقعها . (وأظن أن من أقدس التوصيات للملتقى السابع هى تحديد بعض هذه المراكز وتحديد موقع ملالة حيث فيها وقع تخطيط أعظم دولة عرفها الاسلام وهى دولة الموحدين ، وايقجان مسقط رأس الدولة الفاطمية قبل انتقالها الى القيروان وتمركزها فى مصر) . فقدت بجاية مركزها الذى امتازت به طيلة قرون من عهد الرومان الى أن احتلها الاسبان ، الا ان التاريخ أنصفها وسجل لها صفحات ذهبية ، وأن حياة وتراجم علماء زواوة مدينون لها ، اذ منها تخرجوا ، وبمعظمهم اشتهرت ، وعلى سبيل المثال نذكر ما وصفها رحالتان مشهوران زاراها فى فترات متقاربة لا تتجاوز ٥٠ سنة ، أولهما :

أبو عبد الله محمد العبدوى الحيحى (١) «صاحب الرحلة المغربية» ، فانه مر على بجاية حوالى سنة ٦٨٨ هـ ١٢٨٩ م قال فى وصفها : «ثم وصلنا الى مدينة بجاية ، مبدأ الاتقان والنهاية ، وهى مدينة كبيرة ، حصينة ، منيعة ، شهيرة ، برية ، بحرية ، سنية ، سرية ، وثيقة البنيان ، عجيبة الاتقان ، رفيعة المبانى ، غريبة المعانى ، موضوعة فى اسفل سفح جبل وعر ، ومقطوعة بنهر وبحر مشرفة عليها اشراف الطليعة ، متحصنة بهما منيعة ، فلا طمع فيها لمحارب ، ولا متسع فيها لطاعن وضارب ، ولها جامع عجيب ، منفرد فى حسنه غريب ، من الجوامع المشهورة ، الموضوعة المذكورة ، وهو مشرف على برها وبحرها ، وموضوع بين سحرها ، ونحرها ، فهو غاية فى الفرجة والانس ، ينشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس ، وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية ، ولهم فى القيام به تهمم وعناية ، فهو بهم مأهول عامر ، يتخلل انسه مسلك الارواح ويخامر ، وهذا البلد بقية قواعد الاسلام ، ومحل حله من العلماء اعلام ، وله من حسن المنظر طيب المخبر ، ومع المرأى الرائق ، المعنى الفائق ، ومن الحصانة ووثاقة البنيان ، ما أرزى بارم وغمدان ، ولاهله من حسن الخلق والاخلاق ، ما نبأ عن طيب الهواء والماء ، والتربة والاعراق ، غير انه قد اعتراه من الغير ، ما شمل فى هذا الاءوان البدو والحضر ، وقد غاض بحر العلم الذى كان له حتى عاد وشلا ، وعفا رسمه حتى صار طللا ، وبه آحاد من طلبة العلم قد اختصروا على مطالعة الصحف والدفاتر ، وسلكوا فى ترك تصحيح الرواية طريقا لم يرضه الاعلام الاكابر» .

قد علمنا من الفقرة الاخيرة أن العبدرى لم يعترف بالعلم للذين «اقتصروا على مطالعة الصحف والدفاتر ، « أى الناقلين » ، ولهذا وصف بجاية فى نفس الوقت الذى ترجم فيه احد أبنائها البررة احمد الغبرينى لمائة وخمسين من اعلامها فى تأليفه « عنوان الدراية » وكان الكثير من المترجمين من القرى المجاورة التى تحدثنا عنها ،

---

١) حققها وقدمها الاستاذ محمد الفاسى ، طبع جامعة محمد الخامس بالرباط .

والعبدرى نفسه اجتمع بالكثير منهم كناصر الدين المشدالى وغيـــره .

وثانى الرحالين الذين وصفوا بجاية اذ ذلك خالد البلوى (١) الاندلسى ، زارهــا فى أوائـل ٧٣٠ هـ ، قال : «بلدة قدرها خطيـر ، وذكرهـا فى كل زمان يطير ..» ، الى أن يقول «يمتد أمامها بسيط أخضر مد البصر ، قد اجـرى اللــه فيــه عذائب الماء تسقيه وتضرب فى نواحيــه ، كـأنها سبـائك اللجين ممدودة فى بســاط الزبرجـد ، محفوفــة بالزمرد العسجـد ، والبساتين ملتفـة الاشجار يانعة الثمار ، والنهر الاعظم ينساب بين يديها ، قـد انعطف عليهـا انعطاف السـوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه وتفىء ظلالها الوراقـة عليه ، فهى النظيرة الروح ، الخضـرة الريحان والروح ، العذبة الانهار ، الجنية الازهار ، الطيبة الهواء ، المشرقة الاضواء ، التى اجتمعت عليها الامراء ، وسلم لها اللواء ، وشيد لها البنـاء ، وبعد لها الصيت المحدود والثناء ، وانتظم فيهـا من الوادى والبحر قلادتان على ذلك النحر ... فأول من لقيت بهـا من أربـاب المحابر ، وركاب الاعواد والكراسى والمنابر ، الشيخ أبو عبد الله محمد بـن جعفـر » الخ ...

تراجم بعض مشاهير العلماء

ولنبدأ بتراجم العلمـاء الذيـن اشتهروا خـارج البلاد الجزائرية

١) يحيى بن معطى الزواوى ، ترجمه ياقوت الحموى فى «معجم الادباء» ، فقال يحيى بن معطى بن عبد النور زين الدين المغربى الزواوى فاضل معاصر ، امام فى العربية ، أديب شاعر ، مولده بالمغرب سنة ٥٦٤ هـ ، وقدم دمشق فاقام بها زمنا طويلا ، ثم رحل الى مصر ، وتوظف بها ، وتصدر بأمر الملك الكامل (الايوبى) لاقراء النحو والادب بالجامع العتيق ، وهو مقيم بالقاهرة لهذا العهد ، ومـن تصانيفه «الفصول الخمسون فى النحو» ، «والالفية فى النحو ايضا» ، (ثم ذكـر له عـدة تآليف فى مختلف الفنون ، خصوصا فى اللغـة) والى ألفيته هذه أشار ابن مالك الاندلسى فى ألفيته المشهورة التى قال فيهـا :

فائقة ألفية ابـن معـطى

وهـو بسبـق حـائـز تفضيلا

مستـوجب ثنـائى الجميــلا !

٢) منصور بن عبد الله الزواوى أبو على

ترجمه لسان الدين ابن الخطيب فى الاحاطة فقـال «اشتهر بحسن العهد والصون والطهـارة والعفة ، قليل التصنع ، مؤثـر الاقتصاد منقبض عن الناس ، مستقيم الظاهر ، منصف فى المذاكرة .. مثابر على تعلم العلم وتعليمه ، غير آنف عن حمله ممن هو دونه ، قدم الاندلس عـام ٧٥٣ هـ وانتصب فيها للتدريس ، فاستفاد منه كثير مـن أعلام البلاد ، منهم الامام أبو اسحاق الشاطبى .

٣) محمد بن محمد بن أبى القاسم أبو الفضل المشدالى ــ بفتح الميـم والمعجمة وتشديد الـلام نسبة لقبيلة من زواوة ــ ويعرف بالمشرق بأبـى الفضل ، ولد ببجاية سنة ٨٢٢ فأخذ ببلاده ثـم تلمسان وانتقل الى المشرق وكان يقيم تارة بدمشق وتارة بالقاهرة وذاع صيته وقصده طلاب العلم وقد عاصر السخاوى وترجمه فى تأليفه «الضوء اللامع فى بيان علماء القرن التاسع» ترجمة وافية

١) رحلته لا زالت مخطوطة لم تطبع .

استعرقت ما يقرب من عشر صفحات ومن جملة ما قاله فى ترجمته « وقد حصلت بيننا اجتماعات وصحبة ورأيت منه من حدة الذهن وذكاء الخطر وصفاء الفكر وسرعة الادراك وقوة الفهم الى ان يقول ولقى الامام ابن حجر وفرح به وأعجب بـه ... فدانت له الملكة المصرية والاقطار الشامية والبلاد القاصية والدانية درس فى الازهر وعرض عليـه القضاء بمصر والشـام فامتنع» ، وقـال السيوطى فى تعريفه «اتسعت معارفه ، وبـرز على اقرانه بـل على مشائخه ، وشاع ذكـره ، وملا اسمه الاسماع ، وصار كلمة اجماع ، الى أن قال «هو احد اذكياء العالم مات بحلب سنـة ٨٦٥ وقيل ٨٦٦ والاول أوفق» .

٤) منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالى (٦٣١ ـ ٧٣١) أبو على الشيخ ناصر الدين ترجمه صاحب ذيل الديباج فقال «الامام الفذ الا وحـد ترجمه الغبرينى وقال التجيبى فى رحلتـه لقيت ببجاية الشيخ الفقيه الامـام اوحد الفضلاء ابـا على منصـور الزواوى المشدالى آخـر رجالات الكمال بافريقية والمغرب الاقصى ممن جمع بيـن معرفة الفقه وأصوله واحكم حظـا وافـرا مـن العربية وحصل المنطق والجدل وغيرهما وحـاز السبق فى علوم كثيرة واستبحر فيها وتكلم فـى أنواعها وناظر فى جميعها وسمع الشام ومصر وغيرهما ، وهو الذى أحدث ثورة ثقافية فى البلاد وأمكنه أن يطور الفقه .

٥) ابـو موسى عمران بـن موسى المشدالى نزيل تلمسان صهر ناصر الدين السابق الذكـر وهو الذى بنى له أبو تاشفين بن أبى حمو موسى الاول المدرسة التاشفينية (التى بنى على انقاضها المجلس البلدى الحالى بتلمسان) ، وكانت آيـة فى الفن وقد اكتشفت بعض آثارها فى هذه الايام وممن تخرج عنه محمد المقرى الجد استاذ عبـد الرحمن ابن خلدون (٧٦٠ ـ ٧٤٥) .

٦) محمد بن أبى القاسم المشدالى والد أبى الفضل السابق الذكر صاحب التآليف المشهورة فى الفقه والاصول وقد زاره الرحالة عبد البسيط المصرى بداره فى بجايـة واخبره عن موت ولده أبى الفضل وقد كانت شهرته فى الاوساط العلمية بالجزائر والمشرق واثبت كثيرا من فتاويه صاحب «الدرر المكنونـة فى نـوازل مازونة» وصـاحب المعيار ، توفى سنة ٨٦٦ .

٧) أبو العباس الزواوى مـن مشائخ ابـن خلدون ترجمه ابن مرزوق الجد فى تأليفه المسند الصحيح الحسن فى مآثر ابى الحسن «من جملة العلماء الذين كـانوا ملازمين لمجلس الملك أبـى الحسن المرينى قال ابن مرزوق ثم لزم الحضرة أخيرا الاستـاذ العلامـة المشـارك أبى العبـاس الزواوى الذى لم يرق عصره أطيب منه نغمة ولا أحسن صوتا ولا انداه وكان آية من آيات اللـه عـز وجـل ولم أر في المشرق والمغـرب نظيـرا له ... الخ له تصانيف فى القراءات والعـربية نظما ونثـرا الخ ...

وقال فى ترجمته لسان الدين ابـن الخطيب «ما رايت قبله ولا بعده فى قطر من الاقطار مثلـه ولازم الحضرة وارتسم فى جملة الفقهاء فسافر معنا الى افريقية ومات رحمه الله غريقا ، وكان مولانا المرحوم وأولاده السعداء يجودون عليـه وانتفع به خلق بتونس جودوا عليه وأجازهم .

٨) عيسى بن احمد الهندسى البجائى يعرف بابن الشاط ترجمه السخاوى فى الضوء اللامع

«تقدم فى الفقه واصوله والعربية وغيرها حفظا لها وفهما لمعانيها مع فروسية وتقدمة فى أنواعها وديانة وتصدى للافتاء والاقراء ... وهو الآن فى سنة ٨٩٠ شيخ وقدوة أهل بجاية يزيد على ٦٠ سنة له تعليق لطيف على صحيح مسلم ...

٩) عيسى أبو الروح ابن مسعود المنكلاتى (المنجلاتى) الزواوى كان فقيها عالما متفننا قال فى ترجمته صاحب ذيل الديباج «تفقه فى بجاية على أبى يوسف يعقوب الزواوى وقدم الاسكندرية وتفقه ، ولي القضاء بقابس ودرس بالازهر وولي نيابة القضاء بدمشق فشرح صحيح مسلم فى ١٢ مجلدا وسماه اكمال الاكمال وشرح مختصر ابن الحاجب الفقهى واختصر جامع ابن يونس وشرح المدونة والف كتابا فى التاريخ فى عشر مجلدات (٦٦٤ ـ ٧٤٣) توفى بالقاهرة .

١٠) احمد بن ادريس البجائى ... كبير علماء بجاية فى وقته أخذ عنه ابو زيد عبد الرحمن الوغليسى له شرح ابن الحاجب وعدة تآليف ينقل عنها العلماء كما أخذ عنه يحى الرهونى وعبد الرحمن ابن خلدون ومحمد بن عمر الهوارى (دفين وهران) ولا زال معهده يحمل اسمه بالقبائل الكبرى قرب معهد الشيخ عبد الرحمن اليلولى .

١١) عبد الرحمن ابن احمد الوغليسى البجائى عالمها ومفتيها الفقيه العالم أبو زيد قال ابن قنفذ القسنطينى توفى سنة ٧٨٦ هـ ببجاية وله المقدمة المشهورة بالوغليسية كما له فتاو بالدرر المازونية والمعيار وله تلاميذ من كبار علماء بجاية كأبى القاسم المشدالى .

١٢) حمزة بن محمد بن حسن البجائى أخذ عن أبى القاسم المشدالى وولده أبى عبد الله وفد على تونس سنة ٨٥٨ ثم قدم القاهرة فنزل فى الشيخونية يدرس ويؤلف الى ان مات سنة ٩٠٢ بها ترجمه السخاوى فى الضوء اللامع .

١٣) محمد بن يعقوب بن يوسف المنجلاتى الزواوى البجائى يعرف بأبى عبد الله الزواوى كان حافظا فقيها مستبحرا ولي قضاء بجاية ثم اخر عنه وكان صديقا لناصر الدين المشدالى ، ذكر الحضرمى فى فهرسته أن المترجم ورد عليهم المرية رسولا واقرأ بها وأخذ عنه كثير من علمائها وتوفى بها عام ٧٣٠ هـ .

١٤) محمد بن محمد بن على الزواوى البجائى شهر بالفراوصنى كان صوفيا وترجمه احمد زروق واجتمع به فى مكة والقاهرة الا انه كانت له مرءاة انكرها عليه العلماء بسبب دعاويه فامتحن لذلك «ومات مرفوضا والعياذ بالله» كما قال احمد زروق وذلك سنة ٨٨٢ أى تاريخ وفاته.

١٥) ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الوغليسى كانت له نباهة ووجاهة ورفعة وهمة وهو أحد المقتدى بهم والمعول عليهم وكان عالما بالكتابتين الادبية والشرعية ولي الخطبة بجامع القصبة وأخذ عنه كثير من العلماء وكان من المستشارين فى المملكة .

١٦) أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزواوى المنجلاتى له معرفة بالفقه والاصول قرأ ببجاية ورحل الى حاضرة افريقية (أى تونس) وكانت تقرأ عليه الكتب المذهبية ، وكان أحد المفتيين والمشاورين فى وقته ، مات بمنجلات عام ٦٩٠ .

١٧) أبو الحسن على بن محمد الزواوى اليتورغى قال عنه أبو العباس أحمد الغبرينى فى عنوان الدراية «ولقيته رحمه الله ببلده : بنى يتورغ بموضع سكناه منها وأنا على أول السن

فرح بى وسرنى» كان من أكابر العلماء ملازما لمعهده حيث يقصده الطلاب للاخذ عنه الى أن توفى بـه ٠

١٨) عيسى بن يحى أبو مهدى الغبرينى قاضى تونس وعالمها ترجمه السخاوى فى الضوء اللامع وقال أنه تصدى للتدريس فى تونس ومن جملة تلامذته محمد القلشانى والعجيسى ونقل عنه البرزلى فى فتاويه ووصفه بصاحبنا توفى سنة ٨٣٦ ٠

١٩) محمد بن عمر المليكشى قال صاحب نيل الابتهاج فى ترجمته «محمد بن عمر ٠٠٠ عرف بأبى عمر المليكشى البجائى الجزائرى كذا بخطه نسبة جزائر افريقية لا الى بلد الجزيرة (الاندلس) قال الحضرمى فى مشيخته كان صدرا فى الطلبة والكتاب فقيها كاتبا اديبا ٠٠٠ الخ توفى بتونس سنة (٧٤٠) وعرفه صاحب نفح الطيب ٠٠٠ أبو عبد الله المليكشى كاتب الخلافة ومشعشع الادب الذى يزرى بالسلافة كان بطل مجال ورب روية وارتجال قدم هذه البلاد وقد نبابه وطنه ، الخ وكانت اقامته بمالقة وترجمته نقلها المقرى من لسان الدين ابن الخطيب السلمانى فى تأليفه «نظم التاج من الجواهر» ٠

٢٠) أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائرى الزواوى صاحب المنظومة الشهيرة فى التوحيد (٤٠٠ بيتا) التى شرحها تلميذه محمد السنوسى (دفين تلمسان) كان من تلامذة عبد الرحمن الثعالبى وله معهد مشهور توفى سنة ٨٨٤ هـ وقد شرح منظومة عبد السلام اللقانى وغيره ٠

٢١) يحى العيدلى بتمقرا ، اشتهر بالصلاح والفقه كان من فقهاء القرن التاسع واشتهر كثير من تلامذته الملازمين له بالتأليف كان يأمرهم بذلك

ومن هؤلاء عبد الرحمن الصباغ دفين مقبرة بجاية فقد علق على شرح ابن مرزوق الحفيد على البردة ذلك الشرح الشبيه بموسوعة أدبية وقد تبارى المعاصرون بالتعليق عليه وتلخيصه ـ توجد منه مخطوطة بالمكتبة الوطنية لعبد الرحمن الصباغ يعترف فى مقدمتها أن شيخه حرضه على ذلك ـ كما شرح الصباغ الوغليسية وقد لازمه الشيخ زروق البرنسى وقال فى كناشه انه ألف عدة تآليف بمعهد الشيخ فى تمقرا وللشيخ تلامذة كثيرون منهم مؤسس أسرة المقرانى اذ بيت آل المقرانى كانت فى أول عهدها بيت دين ثم استحالت الى بيت رياسة ادارية ٠

٢٢) محمد الصالح بن سليمن العيسوى المشدالى الزواوى الرحمونى وجد بخطه انه قرأ وأجيز بجامع الزيتونة بتونس ولما رجع انتصب للتدريس ببنى عيسى الى أن استدعاه الشيخ محمد بن عبد الرحمن الازهرى الجرجرى فعينه بمعهده مدرسا فبقى ينشر العلم بجرجرة الى أن توفى سنة ١٢٤٢ عن نحو ٩٠ سنة وله تآليف عديدة فى مختلف الفنون لا زالت متداولة عند الناس كما ترك ولده أحمد الطيب خلف مقامه فى نشر العلم وترك بدوره عدة تآليف مات احمد الطيب سنة ١٢٥١ ٠

٢٣) صالح بن أحمد بن موسى بن أبى القاسم السمعونى الوغليسى البجائى كان من علماء قبيلة بنى وغليس ـ واد بجاية ـ وهاجر اثر الاحتلال الفرنسى مع شيخه المهدى السكلاوى اليراثنى الى الشام سنة ١٢٦٣ هـ ترجمه عبد الرزاق البيطار فى «حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر» فقال «وله منظومة فى فقه السادة المالكية ، وقد كتب عليها حاشية جليلة ، وله شرح على

رسالة فى علم الميقات ، قد جمع ما نشرته يد الشتات وله تاريخ على طريق الرمز والايماء والاشارة وصل فيه لقدوم محمد رشدى باشا الشروانى الوزير الاعظم الذى كان قد تولى الصدارة وله فيه أسلوب عجيب ، وطريق نادر غريب وكان صالحا تقيا وفالحانقيا ، توفى سنة ١٢٨٥ هـ وترك أولادا أشهرهم الشيخ طاهر المشهور .

٢٤) طاهر الجزائرى (١٢٦٨)

ابن الشيخ صالح السابق الترجمة ولد بالشام وفيها أخذ معلوماته وزار الجزائر ونزل ضيفا عند المرحوم محمد السعيد ابن زكرى المفتى المالكى والاستاذ بالمدرسة الثعالبية حوالى ١٩١٢ وكان يتكلم اللغة القبائلية كما كان يتقن اللغة الفارسية والتركية وقد اعتنى به كثير من علماء الشرق وترجموه خصوصا صديقه أحمد تيمور باشا فانه ترجمه ترجمة حافلة فى كتابه «اعلام الفكر الاسلامى فى العصر الحديث» ومن جملة ما ذكره تيمور قوله «والى الشيخ طاهر الجزائرى يرجع الفضل فى السعى الحثيث فى انشاء كثير من المؤسسات النافعة فى دمشق ...»

ومن مساعيه الحميدة تأسيس المدرسة الظاهرية بدمشق ، وانشاء مكتبتها الكبيرة التى جمع فيها ما كان مبعثرا من الكتب والمخطوطات القيمة فى المساجد والمدارس ... كما يرجع الفضل اليه فى انشاء المكتبة الخالدية بالقدس توفى سنة ١٩١٩ .

٢٥) الحاج المهدى السكلاوى اليراثنى (١٢٠٠ ـ ١٢٧٨)

خلف شيخه على بن عيسى تلميذ محمد بن عبد الرحمن الجرجرى على رأس الطريقة الرحمانية وقد قاوم الاحتلال الفرنسى وبعد تغلب الفرنسيين خلف تلميذه محمد أمزيان ابن الحداد على رأس الطريقة وهاجر الى الشام على رأس ثلة من تلامذته وأقاربه سنة ١٢٦٣ هـ ترجمه عبد الرزاق البيطار فى «حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر» فمن جملة ما قاله فى ترجمته «وقد أخذ عنه كبراء دمشق وعلماؤها وحكامها وفضلاؤها وأخذ عنه الوزير الكبير والمشير العظيم الخطير صاحب الدولة أحمد عزة باشا وكان والى دمشق قال أنه توفى سنة ١٢٧٨ ولما وضع نعشه على الاعناق ازدحم عليه الناس حتى صارت كالبساط تحته وانسدت الطرقات فلم يجد الانسان طريقا للسلوك وصلى عليه الالوف من الناس في جامع بنى أمية ودفن فى قاسيون فى مقبرة ذى الكفل » الخ ...

٢٦) عبد الرحمن بن على الغبرينى البجائى

كان من علماء القرن التاسع أخذ عن الشيخ عبد الرحمن الثعالبى دفين الجزائر وله عدة تآليف منها تعليقه على شرح ابن مرزوق على البردة وعدة كتب أدبية وفى البلاغة واللغة وقد استوطن بجاية الى أن مات فى أواخر القرن التاسع .

٢٧) محمد بن على الشريف اليلولى

صاحب معهد شلاطة ومؤسسه ولد سنة (١١١٢) ترجمه تلميذه العربى بن مصباح قاضى بنى يعلى فقال «هو الشيخ الفقيه العالم العلامة الاستاذ اللغوى أبو الفضل السيد محمد ابن العالم الزاهد السيد على الشريف برد الله ضريحه ... الزواوى بلدا الشلاطى مولدا

اليلولى صقعا ولد رضى الله عنه سنة ١١١٢ ، كان معهده الذى وصفه تلميذه العربى بن مصباح به ٣٠٠ تلميذ «أنه تكفل بمؤنة جميع الطلبة وهم يزيدون على ثلاثمائة وبمؤنة جميع الضيوف الزائرين » الخ ... له عدة تآليف ذكرها في مقدمته تأليفه «معالم الاسبتصار بتفصيل الازمان ومنافع البوادى والامصار» منها تآليف فى السيرة النبوية وسيرة الخلفاء ومن بعدهم الملوك والعرفاء «التوسم والاستدلال على محاسن اخلاق النساء والرجال» وكتاب فى التوحيد باللغة الامازيغية كما كان والده وخاله الشيخ الحلو من أكابر فقهاء تلك النواحى اذ كانا يدرسان مختصرا بن الحاجب وغيره من أمهات كتب الفقه والاصول.

٢٨) محمد العربى بن مصباح اليعلاوى

محمد العربى بن الموهوب بن أحمد زروق ابن مصباح اليعلاوى نسبة الى بنى يعلى العجيسى وقد ترجم للكثير من أفراد هذه الاسرة الحسين الورتلانى فى رحلته فقد توارثوا العلم والتدريس أبا عن جد والمترجم تولى القضاء والتحق فى زمان الطلب بمعهد شلاطة وهو الذى ترجم لشيخه محمد بن على الشريف وجمع ما قاله الشعراء فى مدحه رسالة قيمة سماها «توشيح طراز الخياطة» تعرض فيها لترجمة استاذه المذكور واستفدنا منها ان ذلك المعهد كان يقصده طلاب الجنوب كالمسيلة والزاب ، زيادة على طلبة زواوة ثم أهم ما فى هذا التآليف اجازة المؤلف اجازه بها أحد اقاربه ذكر فيها الفنون التى كانت تدرس بمعاهد بنى يعلى .

٢٩) الحسين الورتلانى صاحب الرحلة (١١٢٥ ـ ١١٩٣)

كان الشيخ الحسين من بيت علم ببنى ورتلان وله اتصال ـ مصاهرة ـ مع آل المقرانى وآل يحيى العيدلى وكان يتردد على بجاية فيقضى بها شهر رمضان وفى سنة ١١٧٩ ذهب الى الحج فدون رحلته التى لها أهمية لا من حيث وصفه المدقق لنظام الرحلة والمحطات التى كانت تجمع فيها القوافل الخ ... ولكن لاشتمالها على وصف ما تبقى من معاهد بلاد القبائل العلمية ولتعرضه لذكر بعض البيوتات العلمية وأن اثقلها وفرض عليها النسب المشكوك فيه وكثيرا من الكرامات المبالغ فيها فانها مفيدة جدا .

٣٠) احمد بن يحى بن حمود الورتلانى

عالم فقيه من اسرة علمية توارث العلم افرادها ونشروه فى تلك الجهات وكانت لهم خزانة كتب مشهورة ولا زال أفراد الاسرة يحتفظون باجازة للمترجم اجازه بها العلامة شيخ الاسلام مرتضى الزبيدى وقد لقبه ـ وهو الضنين بالالقاب الا لمن كان يستحقها ـ بقوله «الشيخ الصالح الامام الهمام العلامة مفيد الطالبين ومربى السالكين شمس سماء المعارف الا لاهية ومجلى ترقيات الفيوضات اللدنية شيخ الوقت سيدنا ومولانا الشهاب احمد بن يحى بن حمود نفع الله به ولولده الصالح خليفته من بعده أبى التوفيق سيدنا الحاج محمد ثم يذكر علماء آخرين باسمائهم ويقول «وسائر طلبة العلم الشريف فى بنى ورتلان أن يرووا عنى الخ » .

وتاريخ الاجازة شهر صفر ١٢٠٣ هـ .

٣١) عمر بن محمد بن عبد الرحمن المنجلاتى

كان أفراد هذه الاسرة من الاسر التى توارثت العلم قرونا واشتهرت اسماؤها فى بلاد العالم

الاسلامى لوفرة عدد افرادها كاسرة المشدالى ، واسرة الغبرينى — واسرة اليتورغى — واسرة المنجلاتى الخ انتقل كثير من أفراد هذه الاسرة بعد سقوط بجاية الى عاصمة الجزائر ومنهم مترجمنا الذى قال عنه تلميذه أبو عبد الله محمد بن قاسم ابن زاكور الفاسى فى رحلته المشهورة «نشر ازهار البستان فيما أجازنى بالجزائر وتطوان» وقد طبعت فى الجزائر ثم أعيد طبعها أخيرا بالمغرب قال فى تعريفه «ممن اقتبسنى بكلتا يديه ، واجاز لي رواية ما لديه ، العالم الاشهر والحبر الاكبر ، حائز الشرفين العرضى والذاتى أبو حفص عمر بن محمد ابن عبد الرحمن المنجلاتى ابقاه الله ونضر مرءاه ، هو بقية السلف وبركة الخلف الذى حمى الله به ذلك القطر من التلف اذ عليه المدار فى السير والاخبار ، واليه المرجع فى كل خطب مفزع ، وأحكامه لقواعد العلوم هو الذى أمطاه فنه النجوم ، وأعطاه شرفا غير مروم، يصول ويتصول الاصول الخ .. وقد افصحت عن علاه فى قصيدة طرزتها ببعض حلاه وأنشدتها بين يديه ، يوم ختمى جمع الجوامع عليه وهو يوم السبت الرابع من جمادى الاولى من شهور سنة اربع وتسعين والف ١٠٩٤ وقد قال فى هذه القصيدة .

بقية السلف الماضى ونخبته
لكن محاسنه أزرت بمن غبرا
قاضى القضاة الذى لا شىء يعدله
فى عدله الذفشا فى الناس واشتهرا
بحر العلوم التى غاضت مناهلها
منذ زمان وسيل الجهل فيها جرا

الى أن يقول :

بدر الجزائر صان الله بهجته
عن أن يرى بخسوف البدر مستترا
وبحرها العذب لا زالت جداوله
تروض العالمين البدو والحضرا

كما أن حفيده العلامة محمد بن أحمد بن عمر كان من اكبر علماء البلاد وأدبائها وجدنا آثاره فى منتصف القرن الثانى عشر وأننا لو تتبعنا تراجم علماء هذه الناحية لما وسعتنا المجلدات وكل ما نقترحه ان هذه البلاد خدمت العلم والدين الاسلامى وغرست فى نفوس السكان حصانة ارتطمت بها كل المحاولات السياسية والتبشيرية فى مختلف الاوقات وبشتى الوسائل فان أعظم خدمة نقدمها للاجيال التى حيل بينها وبين امجاد اسلافها تحديد مواقع هذه المراكز العلمية والتعريف بتراجم علمائها .

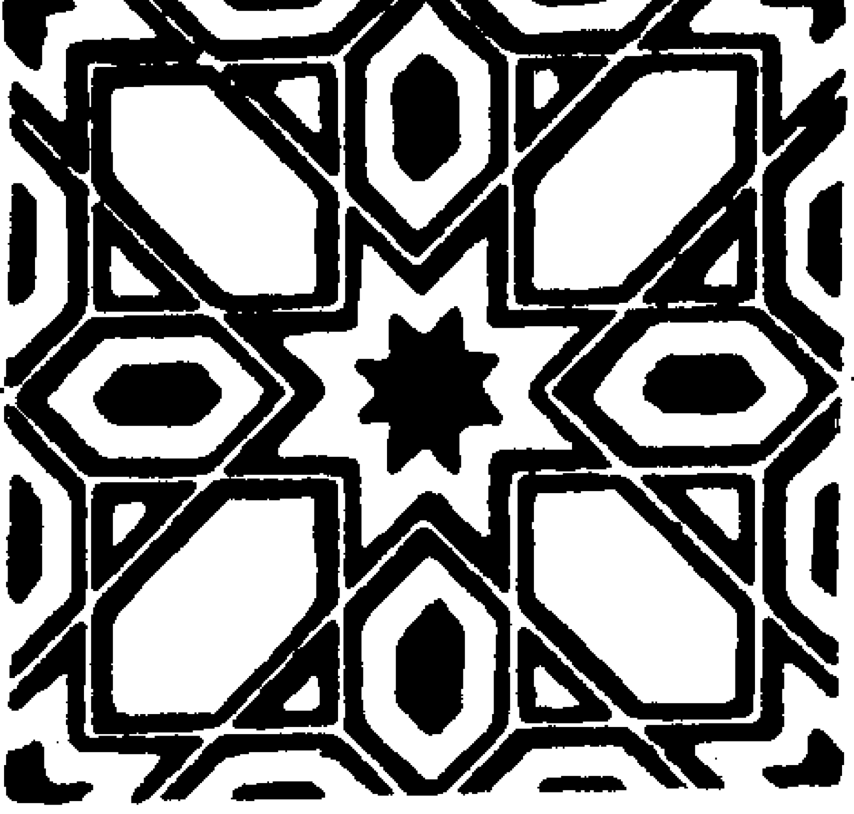


أصالة الشعب الجزائري

في هذا الوطنِ الجزائريِّ شعبٌ عربيٌّ مسلمٌ، ذو مِيراثٍ رُوحِيٍّ عَرِيقٍ ، وهو : « الإسلامُ » وآدابُهُ وأخلاقُهُ . وذو ميراثٍ ماديٍّ ، شادَهُ أسلافُهُ لحفظِ ذلك التُّراثِ وهو المساجدُ بِهَيَاكِلِهَا وَأَوْقَافِهَا . وذو نظامٍ قضائيٍّ مصْلحِيٍّ لحفظِ تكوينِهِ العائليِّ والاجتماعيِّ . وذو منظومةٍ من الفضائلِ العربيةِ الشرقيةِ ، متنقـلةٍ بالإِرْثِ الطَّبيعيِّ من الأصولِ السَّامِيَةِ إلى الفروعِ الناميةِ لحفظِ خصائصِه الجنسـيةِ من التَّحَـلُّلِ وَالادِّغَامِ ، وذُو لسانٍ وَسِعَ وَحْيَ اللهِ ، وخَلَّدَ حِكْمَةَ الْفِطْرَةِ ، وَجرَى بِالشِّعْرِ وَالْفَنِّ ، وَحوَى سِرَّ الْبيانِ ، وَجَلا مَكْنُونَاتِ الْفِكرِ ، ثُمَّ خَدَمَ الْعِـلْمَ ، وسَجَّلَ التَّارِيخَ ، وَشَادَ الحضارةَ ، وَوَضَّحَ معالمَ التشريعِ ، وَحَدَا بِرَكْبِ الْإِنْسَانِيَّةِ حِيناً فَأطْرَبَ .

حَافَظَ هذا الشعبُ على هذا التراثِ قُرُوناً تزيدُ على العشرةِ ، وغالَبَتْهُ حوادثُ الدَّهْرِ عليهِ فلم تَغْلِبْهُ ، وما كانَ هذا الشعبُ بِدْعاً في الاحتفاظِ بهذه المقوماتِ الطبيعيةِ ، بل كلُّ شعُوبِ الدُّنيَا قائمةٌ على أمثـالِ هذه الْمُقَوِّمَاتِ لا يَتَنَزَّلُهَا عَنْهَـا مَنْ يُرِيدُ هَضْمَهَا قَبْلَ الْأَكْلِ لِيهْضِمَهَا بَعْدَ الْأَكْلِ ـ كَمَا يَفْعَلُ وُعَّاظُ الاسْتِعْمَارِ ؛ ومُشَعْوِذُو السياسةِ لِتَخْدِيرِ الأممِ الْمُسْتَضْعَفَةِ ، فَيُقَبِّحُونَ لها العنصريةَ ، وَهُمْ مِنْ حُمَاتِهَا ، وَيُزَهِّدُونَهَا فِي الْجِنْسِيَّةِ وَهُمْ مِنْ دُعَاتِهَا .

« محمد البشير الإبراهيمي »



آخر حديث لعميد الصحافيين الجزائريين المرحوم

أبي اليقظان عن: التاريخ النضالي للصّحافة الوطنيّة

إعداد :
الزبير سيف الإسلام

فى الاسابيع الماضية بلغتنى اخبار ، وكنت فى جولة بالشرق الاوسط ، تعلن نبأ وفاة عميد الصحافيين فى الجزائر الاستاذ الشيخ ابراهيم «ابو اليقظان» بن عيسى ولكن لم اكترث للخبر • لان مثل هذا الخبر سبق ان سمعناه مرارا عديدة وتألمنا كل ما سمعناه لما لهذا البطل المجاهد ، من تقدير فى قلوبنا •

لكن فى هذه المرة كان الخبر يقينا ، وانا لله وانا اليه راجعون • فقد تأكد لى خبر وفاة هذا الصحفى الغيور الذى صارع الاستعمار طويلا فى ميدان الصحافة والقلم والكلمة الحقة فكان بطلا من ابطال الجهاد العربى وكان من المناضلين الجزائريين الاوائل الذين قلبوا من التاريخ وجها وجددوا لهيكله المهابا •

من هو ابو اليقظان :

عميد الصحافيين فى الجزائر ؟

- هو ابراهيم بن الحاج عيسى ابو اليقظان
- ولد يوم ٥ نوفمبر ١٨٨٨ (بـالقرارة) بولاية الواحات الجميلة ٠
- اول مقالاته الصحافية كانت فى جريدة الفاروق لصاحبها عمر بن قدور الصحافى الشهير عام ١٩١٣ ـ ١٩١٤ ٠
- انشأ اول جريدة له باسم (وادى ميزاب) عام ١٩٢٦ ٠
- انشأ بعدها سبع جـرائد اخرى مـا بين ١٩٢٦ و ١٩٣٨ ٠
- قاوم الاستعمار واذنابه بالقلم وباللسان عشرات السنين ٠ توفاه الله فى ٣٠ مـن مارس الاخير فى مدينة (القرارة) مسقط راسه رحمة الله عليه ٠

كيف كان يرى رسالة الصحافة ؟

« ان الصحافـة للشعـوب حيـاة
والشعب مـن غيـر لسـان مـواة
فهى اللسـان المفصح الذلـق الذى
ببيـانـــه تتـدارك الغـايــات
فهى الوسيلـة للسعـادة والهنـــا
والـى الفضـائل والعـلا مرقـاة
ماذا « والمجاز » وما عكـاظ ومـا
ان ساعـدت لرواجهـا الاوقـات
الشعـب طفـل وهـى والده يـرى
لحيـاتـه مـا لا تـــراه رعـــاة »

كيف كانت رسالته ؟

«رسالتى انسانية لا يقظانية ولا مذهبية٠انا اذا كتبت او وعظت ، انما اوجه نصائحى ووعظى وارشادى الى كل المسلمين ٠ فانه يعلم الله كم يكون فرحى شديدا برجوع المسلمين الى جادة الحق والاسلام ٠ »

كيف كان يرى نيل الحق وتحرير الوطن ؟

« ابن صرح المجد عـن أس الضحايا
واشد عــرش العـلا رغم البلايـا
خض غمـار الهـول غوصـا انما
لؤلؤ التيجـان فى بحـر المنـايـا
ان فـى المـوت لطـلاب العـــلا
لحيـاة ٠ لا حيـاة اهـل الدنايـا
انمـــا الدنيــا جهـاد مـن يتـم
يـومـه داستـه اقـدام الرزايـا
ولنـيـل الحـق ادوار عـدت
خطـوات جـازهـا كـل البرايـا
فـــانين ، فكـــلام ، فصيـــاح ،
فخصـام ، فجـــلاد ، فسـرايــا
وثبـــات للمعـالـى ، وثبـــات
للعـوالـى ، وخصـال ومـزايـا
ليس حكـم النفـى والسجـن ولا
الحكـم بالشنـق لـه الا مطـايـا
ايـى شعـب نـال مـا نـال اذا
لـم يقـدم سلفـاتلـك الهـدايـا
اى شعـب نـــال حــريـتـــه
وهو لـم يطلع لهـا تلك الثبـايا »

ابو اليقظان عميد الصحافيين الجزائريين

انجبت امتنا الجزائرية العربية الاسلامية الكثير مـن الرجال فى النصف الأول مـن القرن العشرين ، مثل ما انجبت من الرجال قد يماعبر الأجيـال والزمـن ، فكـانوا جنـود النهضـة ومحريكها ٠ ولقد اشتهر بعضهم بالعلم وخدمـة النهضة العلمية ـ الثقـافية ، فعرفوا الجامعات

والمعاهد ، واشتهر بعضهم بالسياسة وتقلباتها .. وعرفوا الكواليس ومناوراتها · واشتهر آخرون بالنضال المستميت من اجل استرجاع حرية الجزائر وسيادتها · فعرفوا السجون ، (والمنسيات) وظلماتها ·

ولقد اشتهر من بين هؤلاء الابطال الكثير بعضهم خاض معارك الرشاش فداء عن الحرية وكرامة الشعب الجزائرى ، وآخرون اشتهروا بحمل القلم وخوض معارك الصحافة دفاعا عن الحق والعدالة ، ونشر الوعى القومى وتعميق الروح الوطنية لدى المواطنين من جهة ، وكفاحا ضد الظلم والطغيان من جهة اخرى ·

الكثير من هؤلاء الرجال قضوا نحبهم ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا · ومن هذ[ا الر]عيل الأول للنهضة والحركة الوطنية ، الكاتب والصحافى الشهير السيد : ابراهيم بن الحاج عيسى ابو اليقظان الذى يحمل فى ذاكرته احداث نصف قرن من التاريخ الجزائرى الحديث ·

من هو ابراهيم ابو اليقظان ؟
وما هو مقدار مشاركته فى دفع عجلة النهضة بالجزائر ؟
وما هو منهجه فى النضال ؟
وما هى مؤلفاته ؟
وما هى الصحافة التى انشاها ؟
وما هو اسلوبه الصحافى ؟
وماذا كانت مواقفه مع الادارة الفرنسية ؟

والاجابة على بعض هذه الأسئلة وغيرها يقدمها لنا عميد الصحافيين الجزائريين الاستاذ ابراهيم ابو اليقظان نفسه وذلك من خلال الاسئلة والاجوبة التى دارت بيننا اثناء زيارة قمت بها له (بالقرارة) منذ اكثر من سنة ومن خلال اجوبته نعرف ونعرف السيد ابراهيم ابو اليقظان قدر المستطاع ، اما الباقى منها فسنحاول الرد عليها فى مقالات لاحقة بعون الله حيث نقدم نماذج من اسلوبه ومواقفه النضالية وكيف كان يرى وسائل تقدم الشعب ونهضتها من اجل الوصول الى المجد · الا اننى اعلن مسبقا بأننى أشعر بالحرج والحيرة مما انا قادم عليه وانه مهما قلت فى وصفه لا يفى بما قام به هذا المناضل الكبير ·

كنت احسبه من الاموات وهو حيى يرزق

قرات عنه قليلا فى بعض المراجع الفرنسية التى تحدثت عنه باقتضاب وقرأت عنه كثيرا فى الراجع العربية من كتب ومجلات ، وسمعت عنه كثيرا من افواه بعض معارفه او معاصريه ، الذين شهدوا معاركه القلمية · فاعجبت بحكايتهم واحاديثهم عنه وهى احاديث لم تنشر بعد وسالت احد هم وهو السيد عبد الرحمان غريب عما اذا كتب عنه شيئا كتابنا المحدثون تمجيدا لهذا الصحافى المناضل رحمه الله فأجابنى اما الكتابة فلم يكتب عنه احد حتى الآن حسب علمى اما الموت فهو حيى يرزق · قلت الحمد لله ، احقا ما تقول قال بكل تأكيد · وانه يعيش حسب الأخبار الاخيرة فى مدينة القرارة بالواحات وهى مسقط رأسه ·

دار هذا الحديث بينى وبين الأستاذ عبد الرحمان غريب وبعض المشائخ فى مطلع سنة ١٩٦٨ ·

وقررت على الفور ان اكتب له رسالة اولا لأتاكد من وجوده حيا يزرق وثانيا من اجل أن يمدنى بمعلومات عن الصحافة والصحافيين الجزائريين الذين عاصرهم فى هذه الحقبة من

تاريخ بلادنا التى تمتد على مسافة نصف قرن٠٠

ولم اكن متـاكدا مـن وصول رسالتى اليه لان العنوان لم يكـن مضبوطا ٠٠٠ وكم كـانت فرحتى كبيرة عندما تلقيت جوابا منه بعد اسبوع وفيه يدعونى لزيارته ٠ ولكن ضيق الوقت ومشاكل الحياة المتعددة والمعقدة حالت بينى وبين زيارتى لهذا المناضل الصحافى الكبير بـالرغم ممـا فى نفسى من رغبة تدفعنى الى زيارته والتحدث اليه ٠٠٠ ، والاستماع اليــه وهو يتحدث عن تـاريخ النضال الصحافى ٠٠٠ وفى شهر مارس ١٩٧١ قررت زيارة مدينة القرارة وان طال السفر ومدينة القرارة هى مـن مدن مـزاب الشهيرة ٠٠ وتبعد عـن العـاصمة بحوالى ٧٠٠ كلم تقريبـا ٠٠٠ وصلت اليها فى منتصف النهار وكان الجو صحوا ٠٠٠ استقبلنى نجلـه الاستـاذ احمد ، بحفـاوة بالغة ثم قادنى الى بيت الشيخ الاستاذ **ابراهيم ابى اليقظان** ٠ فوجدته طريح الفراش وهو مريض بالشلل منذ عام ١٩٥٧ فى بيت متواضع وكتبـه مصففة فى مكتبة بمكان مقابل لفراشه ٠

فهو يبلغ من العمر حوالى اربعة وثمانين سنة وقد قل سمعه ٠ سالنى من انا وما هى مهمتى فذكرته بمراسلتى اليـه وبعد ان عرفتـه بنفسى قلت له انـا صحافى واهتم بتـاريخ الصحافـة والصحافيين فى الجزائـر ٠ ولذلك ارجـوك ان تفيدنى بما امكن من المعلومات فى هذا الميدان٠٠

وطرحت له بعض الأسئلـة لكي افتح لـه المجال على الاجابة فانطلق بنا راجعا الى عشرات السنين مضت يحدثنا تارة على رحلة له الى البلاد العربية وتارة على مواقفه الصحافية مع الادارة الفرنسية وتارة مواقفه مـع بعض العملاء مـن الجزائريين الذيـن وضعوا انفسهـم فى خدمـة المستعمر ٠

ونظرا لحالته الصحية التى لم تسمح لـه بالحديث طويلا اقترح على نجلـه الأستـاذ احمد بأن اكتب له الاسئلة كتابة وسيجيبنى عنهـا فى وقت لا حق جملة وتفصيلا ، وكان نعم الاقتراح٠

وقبل انصرافى قلت لـه مـا هى نصيحتك لصحافينا الشبان ٠

قـال : **نصيحتى لهـم ان يتحرو الصدق ، والايمـان بالمبدا المقدس والاستماته فى الدفـاع عليه ٠**

هكذا تركته ورجعت الى العاصمة على امل ان ابعث له الأسئلة ليجيبنى عنها ٠ فعلا وصلتـه الاسئلة وجاءنى الرد عليها فورا ٠ ومع اجوبته الرسالة التالية :

« اخى ، بلغتنى رسالتك الكريمة ٠٠٠ وقد ابتهجت بها لمـا وجهت لى فيها من الاسئلة وانـا اعد ذلك فى نفسى من الاعتبار والتقدير مع مـا انافيه من الاسقام اذ انا منذ سنة ١٩٥٧ ، وانـا طريح الفراش وارانى لا بد لى من اجابتك عـن اسئلتك قدر الامكان ، غير انى اراك تطلب منـى ان لا اختصـر فى الجواب رغـم انك احرجتنى بكثـرة الاسئلـة وارهقتنى بهـا فكيف تطلب ان لا اختصر فى الجواب عن كـل منها ، فالجواب عليها مـع كثرتها يستدعى مجلدا ضخمـا فارى تكليفك بالجواب عنها مع عدم الاختصار تكليفـا لما لا يطاق ، وهذا غير موافق للقاعدة الشرعية التكليف بما لا يطاق ٠ اذا فاعذرنى فى الجـواب مختصرا قدر الامكان ٠ »

هكـذا بتواضـع يعتذر عميد الصحافيين الجزائريين عن الحديث عن نفسه مطولا حتى وان

الاسئلة مطروحة عليه من صحافى آخر . وهى فى اعتقادى اسئلة بسيطة لانها اسئلة تمهيدية كنت أستعد لان اردفها باسئلة اخرى ولكن هيهات .

اما اسئلتى اليه فكانت ثلاثة عشر سؤالا . قد متها اليه كما يلى :

١ ـ سيدى الأستاذ ابراهيم ابو اليقظان اين ولدت وفى أى تاريخ ؟ .

٢ ـ اين زاولت تعليمك الابتدائى والثانوى والعالى ؟ .

٣ ـ هل زرت البلاد المقدسة واذا كان الجواب بنعم ففى أى تاريخ . وبالمناسبة فما هى البلاد العربية التى عرفتها وفى أى تاريخ ؟

٤ ـ ما هى الشخصيات العربية : (السياسيون ، والعلماء ، والكتاب ، والصحافيون التى عرفتها . فى الثلاثينات ؟

٥ ـ كيف عرفت فن الصحافة وبأى طريق دخلت الى هذا الميدان . ؟

٦ ـ ما هى أول جريدة قمت بتأسيسها ، وكم عاشت هذه الجريدة وفى أى مكان كنت تصدرها وكم عدد صفحاتها وما هو حجمها . وأعداد السحب ... ؟

٧ ـ هل كتبت فى الصحف العربية فى الجزائر وفى الدول العربية فاذا كان الجواب بنعم فما هى هذه الجرائد وبأى تاريخ ؟

٨ ـ ما هو اكبر صحافى جزائرى عرفته ؟

٩ ـ من هم الصحافيون الجزائريون الذين عرفتهم ما بين سنوات ١٩٢٠ ـ ١٩٥٤ .

١٠ ـ هل الفت كتبا ـ ارجو قائمتها ـ وارجو أن تذكر اهدافها ؟

١١ ـ هل هناك كتب تحدثت عن تاريخ الصحافة الجزائرية ؟

١٢ ـ هل توجد لديك نسخ من الجرائد التى اصدرتها ؟

١٣ ـ ما هى نصائحك للصحافيين الجزائريين الشبان ؟



واخيرا أرجو أن تتوسع فى الاجابة على كل سؤال خاصة منها الأسئلة رقم : (٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦) وبالنسبة لهذا السؤال السادس ارجو الاجابة على كل جريدة بانفراد لأنك قلت لى بأنك اصدرت الجرائد التالية : وادى ميزاب ـ المغرب النور ـ البستان ـ الفرقان ـ النبراس ـ الامة) و (ميزاب) .

الجـــواب :

ـ أما السؤال الاول : أين ولدت وفى اى تاريخ ؟ الجواب : ١ ـ ولدت فى القرارة من واحات غرداية ، ميزاب . ٢ ـ وكان ذلك بتاريخ ١٨٨٨م الموافق لصفر ٢٩ منه ١٣٠٦ هـ . ففى عمرى ٨٥ سنة .

ـ وأما السؤال الثانى : أين زاولت تعليمك الابتدائى والثانوى والعالى ؟ الجواب : **أما الابتدائى** فقد زاولته فى « القرارة » عن الحاج عمر بن يحي من سكان القرارة ، **وأما التعليم الثانوى** فقد زاولته عن قطب الأيمة الشيخ اطفيش الحاج محمد ببلد « يزقن » ، **واما التعليم العالى** فقد زاولته بتونس فى جامع الزيتونة عن مشائخى : الشيخ عبد العزيز جعيط ، والشيخ الطاهر بن عاشور ، والشيخ محمد بن يوسف المفتى الحنفى ، والشيخ النخلى ، والشيخ

الصادق النيفر المفتى المـالكى ، ثـم بالمدرسـة الخلدونية عن الاساتذة الشيخ محمد الاشرم فى الجغرافية ، والشيخ مناشو فى الانشاء ، والاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى التاريخ ، والاستاذ محمد لعبيدى فى الرياضيات ، والاستاذ الزعيم الثعالبى فى سياسة الدول وفلسفة حياة العصر الجديدة ·

١ ـ فيما يخص التعليم الابتدائى فى القرارة·

لا انسى فضل شيخ يالحـاج ابراهيم بـن عيسى الذى كان يشرف على فى غيبة شيخى الحاج عمر بن يحي فى عام ١٩٢٠ حين كان مجاورا فى مكة المكرمة ·

٢ ـ وقد اخذت عـن شيخى الحـاج عمـر مبادىء العقيدة من توحيد العزابة للشيخ عمرو بن جميع الجربى وشرحها للشيخ سليمـان بـن داود الجربى ، وما اخذت عنه « القطر » فى النحو ، فى هذا الدور دور التلامذة الابتدائيين فى ذلك العهد حفظت عن ظهر قلب القرآن المجيد ، وعرضته عـن الامام الرسمى فى سنة١٣٢٣، كما حفظت عن ظهر قلب المتونالآتية تمهيدا لتعليميومن ذلك الاجرومية وشرحها لابى داود سليمـان ، والفية ابن مـالك ، ومتن القطر ، والجوهر المكنون فى البلاغة ، والفية السلمى المسماة بـ « طلعت الشمس » فى الاصول ، ومتن الورقات كذالك فى الاصول ، والدرر اللوامع فى القراءات ، ومشارق الانوار فى الكلام ، والسلم فى المنطق ، والاربعين حديثا النبوية ·

٣ ـ واما مـا **يخص التعليـم الثـانوى** عند القطب أطفيش « بيزقن » وقد كان انتقالى اليه فى سنة ١٣٢٥ ، فكان من مشائخى فيها غير الشيـخ اطفيش الشيخ اسماعيل زرقون اخذت عنه شرح ابن عقيل والجزء الاول من النيل · ومن مشائخى فيها الفرضى البارع الشيخ الحاج عبد الرحمـان ابن عمر اخذت عنه علم المورايث والحساب ، ومن مشائخى فيهـا الشيخ الحـاج رمضان بـن يحي الجربى ، حفظت عنه الصرف وشرح لاميـة ابـن مالك لبحرق · اما الفنون التى اخذتها عن الشيخ أطفيش فهى · العقـائد والموجز لابى عمـار عبـد الكـافى وشرح الورقات فى الاصول والفقـه فى شرح النيل والعروض لعبد الكافى فى فن القوافى ، والمقولات العشر فى رسالة العضد ·

٤ ـ وامـا **فيمـا يخص التعليم العالى** فقـد زاولت منه فى جـامع الزيتونـة عن الشيـخ عبد العزيز جعيط كتاب التنقيح فى الاصول للقرافى ، وعن الشيخ الطاهر بن عاشور كتـاب التفسير ، وعن الشيخ النخلى كذلك التفسير ، وعن الشيخ محمد بن يوسف تفسير البيضاوى بحاشية الشيخ عبد الحكيم ، وعن الشيخ ابن الحسن النجار كتاب الاشمونى فى النحو ، وجمع الجوامع فى الاصول·

وعن الشيخ ابن القاضى كتاب السيرة ، وعن الشيخ الصـادق النيفر كتـاب الاشمونى وكتـاب السيرة ·

٥ ـ وامـا **فيمـا يخص التعليم العالى فى الخلدونية** فمع من ذكـر من المشـائخ والاساتذة الاستاذ الطاهـر بـن صالح الزواوى فى اللغـة الفرنسية · **وقد كان انتقالى الى تونس فى سنة ١٩١٢ ، ولبثت فيها الى سنة ١٩٢٥ ، حيث كنت اعد فيها عدتى لدخولى فى الصحافة فى الجزائر·**

٦ ـ واما ما يخص اتصالى برجـال العلم فى تونس فمن بينهم الشيخ صالح بن يحى العضو فى اللجنة التنفيذية فى الدستور القديم ، وهو عم مفدى زكريـاء ، ومنهم الاستـاذ الشيخ **سليمان الجدوى** صاحب **مرشد الامة التونسيـة** ، ومنهم

الاستاذ عثمان الكعاك المؤرخ الشهير ، ومنهم امير الشعراء الاستاذ الشاذلى خزندار صاحب ديوان خزندار الشهير ٠

ـ واما السؤال الثالث : هل زرت البلاد المقدسة ؟ واذا كان الجواب بنعم ففى ايى تاريخ، الجواب ، زرتها مرتين فى اواخر سنة ١٩١٠ م ، وفى اوائل سنة ١٣٢٨ هـ ، ومرة ثانية فى سنة ١٩٦٤ م ٠

ـ واما السؤال الرابع : ما هى البلاد العربية التى عرفتها ، وفى اى تاريخ ، الجواب : فى اثناء رحلتى الاولى الى الحج ، زرت طرابلس ومصر ومكة والمدينة ثم دمشق وبيروت وازمير فى طريقى بالسكة الحديدية الحجارية عند ابتدء سيرها ٠

ـ واما السؤال الخامس ما هى الشخصيات العربية السياسية والعلمية (وكتاب وصحافيين) التى عرفتها فى الثلاثينات ؟ الجواب : اما الشخصيات العربية التى تعرفت بها فى اثناء الثلاثينات فهى كما يلى :

اولا ـ **الامير خالد** عبد القادر الجزائرى ، ثانيا الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ثالثا الشيخ العقبى ، رابعا الشيخ العربى التبسى ، خامسا الشيخ مبارك الميلى ، سادسا الشيخ سعيد الزاهرى ، سابعا الشيخ الهادى السنوسى ، (مؤلف كتاب شعراء الجزائر ،) ثامنا الشيخ البشير الابراهيمى ، هؤلاء من الجزائر ٠

واما فى تونس فالزعيم الشيخ الثعالبى ، والاستاذ محى الدين القليبى دفين دمشق والعضد الايمن للشيخ الثعالبى ، والاستاذ احمد الصافى المحامى ، والاستاذ صالح فرحات المحامى ، والاستاذ احمد توفيق المدنى ، والاستاذ الشاذلى الموالى ، والاستاذ زين العابدين السنوسى **(صاحب مجلات العرب)** ، والاستاذ يوسف البارونى فى جربة ، والشيخ سالم بن يعقوب ٠

واما فى مصر ، فقد تعرفت بالاستاذ محب الدين الخطيب ، والشيخ رشيد رضا وبغيرهم كثير ٠

واما فى المغرب ، فقد تعرفت بالاستاذ الهادى الشرايبى ، والاستاذ علال الفاسى ، والشيخ ابى اسحاق اطفيش (صاحب مجلة المنهاج) ، والاستاذ عبد السلام بنونه ، والاستاذ احمد بلفريج ، والاستاذ محمد القرى وكيلنا عن الجرائد فى المغرب ٠

واما فى المدينة فقد تعرفت بالاستاذ حمزة احمد الرفاعى ٠

واما فى طرابلس فقد تعرفت بالاستاذ الشيخ سليمان البارونى وعلى امعمر وغيرهم ٠

ـ واما السؤال السادس : كيف عرفت فن الصحافة وباى طريق دخلت الى هذا الميدان ؟ الجواب : ان غرامى منذ صغرى بالصحافة العربية كان ولا يزال يلح على لطلب المزيد منها ، فاول ما استيقظت عند ما التفتت الى **جريدة الزهرة** اليومية فى حوادث الحرب الطرابلسية ثم الى ما بعد ، ثم نشا هيامى بجرائد الشرق : **مصر والشام والعراق** وغيرها فكنت مولعا بتتبع جرائد **(اللواء المصرى)** للاستاذ احمد وفيق ، وسائر مجلات الشرق فكنت مولعا بسائر الجرائد والمجلات التى تصدر عن الشرق ووادى النيل ، عند ما قامت حرب البلقان وذلك مثل **جريدة الحق** ومجلة الشيخ عبد العزيز جاويش **ومجلة المنار**

ومجلة العرفان ومجلـة العرب ومجلـة الاخوان المسلمين ومجلـة جماعـة المسلميـن والشبـان المسلمين ، وكـانت طريقتى فى مراجعـة هـذه الامهات أن آخذ قلما وقرطاسا فأسجل كـل مـا يستوقف نظرى من امهات المسائل فى السياسة والاجتماع لكى تكون لى مرجعـا عند الحاجة ، وكانت كذلك سيرتى عند ما يجمع بى مجلس مـن الشخصيات المذكورة فأدون كل ما يهمنى من ذلك حتى جمعت منهـا مجموعـة لا بأس بهـا لتكون عناوين لسائر المقالات التى يعن لي بها تحريرها ٠

أما الجواب عن اى طريق دخلت هذا الميدان فكان كما قلت اولا غرامى بالصحف والمجلات وما اليها فكنت اولا ابادل اخى الحـاج عمر العنق الذى كان مقـره التجارى فى تبسـة وهو يبادلنى بدوره **بشبه جريدة** ٠ أما انـا فكنت حررت لـه صحيفة باسم (قوت الارواح) وانا بالقـرارة ، وامـا هو فقد بادلنى بجريدته بـاسم (الرحيق المختـوم) فتشتمل هذه المبادلات مـن الجرائـد المواضيع المطروقـة اذ ذلك مثـل (الافتتاحيـة) الاخبار الداخلية ـ الاخبار الخارجية ـ السياسة ـ الحكم ـ ٠٠٠ الخ ٠٠٠) ٠ وذلك سنة١٣١٣ هـ وسنة ١٣١٤ هـ ٠ ومما يتصل بغرامى بالجرائد النكتة الآتية الفريدة : ذلك انى مع غرامى بهـا مولع بطبعى وفطرتى منذ صغرى بالحدائق الغناء والظلال الوارفة فصرت آخذ مجموعة مما لدى من الجرائد فاقصد بها حديقة من الحدائق الغنـاء وآخذ معى وقيدة أجمع ما لدى من القش والحطب فأوقد النار فيها لكى يسخن المكان الذى اقعد فيه ثم اكنس الرماد من المكان فافرش فيـه فراشـا وهناك آختلى بما اصطحبت مـن الجرائد فأقرأ وأتتبع كل ما فيها من فصول بين ظلال الحدائق وفى مكان دفأ ، والفصل فصل شتاء ٠ ونكتــه أخرى هى انى آخذ منشفة عندما مـا اشرع فى اطلاق الماء للتخيل فاذا فتحت مجرى الماء يمتلىء الحوض اغسل يـدى وأنشف بالمنشفة فأنشفهـا وأقعد مراقبا لامتلاء الحوض حتى اشبـع نهمى بقراءة جريدة فاذا امتلا حولت المجرى الرئيسى للماء الى حوض يليه وهكذا دواليك ٠

ـ وأما السؤال السابع : ما هى أول جريدة قمت بتاسيسها ، وكم عاشت هذه الجريدة ، وفى اى مكان كنت تصدرها ، وكم صفحاتها ، وما هو حجمها وأعـداد السحب ؟ الجـواب : أمـا أول الجرائد التى اصدرتها رسميا فهى **(وادى ميزاب)** باسم وطنى **(وادى ميـزاب)** ٠ وأمـا تـاريخها فقد اصدرته فى **أول اكتوبر سنة ١٩٢٦** ٠ أمـا كم عاشت فهى انها عاشت الى جانفى ١٩٢٩ وقد عاشت ١١٩ عددا ٠

أما اصدارها ففى الجزائر وأما **طبعها ففى تونس** وقد عانينا فى ذلك اهوالا ومتاعب شاقة وخسائر باهظة ، فان ادارة الجريدة فى الجزائر وطبعهـا فى تونس لا يعـرف صاحبها اهوالـه الا من باشرهما (وقد زار فى اثناء ذلك الخديوى عباس فى بعض رحلاته الى شواطىء افريقيـا الشمالية فقابلته فى يخته ـ نعمة الله ـ فسالنى اين ادارة الجريدة واين طبعها فاجبته قائـلا : مقر ادارة الجريدة فى الجزائر وطبعها فى تونس فاجاب ما شاء الله ٠ ادارتها فى الجزائر وطبعها فى تونس ما شاء اللـه) :

ربما يتساءل القارىء ، ولماذا لم يكن طبعهـا فى الجزائر بل كان فى تونس فالجواب :

انه لا وجود لمطبعة فى الجزائر بل مـا يوجد فيها هو مايساير الاهواء الاستعمارية ، ونحن كما تعلـم أهواؤنـا وطنيـة عربيـة اسلامية ، فكيف نتلاقى بتلك المطابع التى يديرها أهواء الاستعمار٠

فنحـن لاجل ذلك كابدنا مشاقا وأهوالا فى انشاء مطبعتنا العربية فى **سنة ١٩٣١ والازمة العالميـة** على اشدها خانقة باعناق الاحرار وكانت منـذ ذلك مطبعتنا العربية بالجزائر والى الآن تسمى « دار الفكر الاسلامى » **التى تتصدى الى طبـع كـل مـا ينتمى الى الاسـلام والعـربيـة حسب** امكانيـاتها ٠

أما صفحاتها فهى اربع صفحات خصصنا الصفحة الرابعة منها للاعلانات لتغذية الجريدة ٠٠٠ الخ ٠٠٠

أما كلمتنا عن كـــل ما يخص تلك الجـــرائد فالجواب : أما **وادى ميزاب** فقد هال الحكومـة الاستعمارية امـرها فطـال استنطاقها لى عـن كثير من فصولها واشتدت الازمـة بينى وبينهـا خصوصا فى **عدد ١٧** الذى يحمل العنوان التالى : **(الاعتماد على النفس)** فقد انتفضت منه الدوائر الفرنسية لمـا يحمل بين طياته مـن قنابل التقريع المنصبة على رأس الاستعمار اذ ذلك ٠ ومما جاء فيه قولى : **مـاذا استفادت تونس مـن اعتمادها على كتلة الشمال ؟ ماذا استفادت الجزائر مـن اعتمادها على الام الحنون ؟ ماذا استفاد المغاربة** من اعتمادهم على الاولياء وسكان القبور ؟

نعم استفاد المصريون عند ما اعتمدوا على انفسهم ، واستفاد السوريون عندما اعتمدوا على انفسهم ٠

هز المستعمر رأسه ـ مسيو ميرانت ـ مدير الداخلية بالجزائر وقال : عوض ان تسأل مـاذا استفاد ٠٠٠ ماذا استفاد ٠٠٠ ماذا استفاد٠٠٠ أسأل نفسك ماذا جزاء من يشاقق فرنسا السجن او الابعاد أو الشنق ، فـأجبته : قـائلا : انـا لا يهمنى اذا قمت بواجبى من النصح والارشاد نحو امتى ان يكون حكمى السجن ام الابعاد ام الشنق تم واصل كلامه ان الدولة ليست فى حاجة الى نصحك ، انصح نفسك ، وقال يا بنى اوصيك ان تترك السياسة جانبا فهى بحر من دخل فيه غرق ، فقلت نحن نحب ان نتعلم شيئـا **فى غـوص هذا** البحر ٠٠٠ الخ ٠٠٠

وهكذا كانت فصول (وادى ميزاب) قوارع وقنابل على رأس الاستعمار **مما يستدعى تفاصيلها** مجلدا ضخما ، واليك نماذج منها ٠

قد جمعت لي لدى الحكومة ملفات استنطاق شديد واليك نماذج منها : مثلا : **الاسلام يحتضر والمسلمـون يهـزلون** ، ومثل **يخـربون بيـوتهم بأيديهم** ٠ ومثل : **العدالة تحتضر** ، ومثل : **أمات الرجال أم رفع القـرآن** ، ومثل : **المسلمون بـين غضب الله وغضب أوروبا** ٠٠٠ الخ ٠٠٠٠

ولهذا اصدرت الحكومة قـانونا رسميـا بتعطيل كل ما يصدر **من قلم أبى اليقظان** ٠ بعد هذا اصدرت مجلة « عفوا جريـدة » **«ميزاب» فعطلت فى أول عدد منها** ٠ ثم أصدرت جـريدة اخـرى باسم **«المغـرب» فسـارت** فى ٣٨ عددا وفى ٣٩ سمعت بـان الحكومة تستعد لتعطيل الجـريدة فأصدرت العـدد مملوءا بـالسخافات والشعوذة مثل حرز المرجانة فملات بها الجـريدة وأكملتها بكلمات مقطعة مثل : الحمار ، القطوس ، الفـار، ونخلة ، الشجرة ، ٠٠٠ الخ ٠٠٠ فلمـا صـدر العدد ٣٩ حاولت الحكومة تعطيل النشر وأرسلت مناشير الى دوائرها الرسمية بذلك ـ فلما كـان التعطيل **صادف عدد حرز المرجانة فكانت ضحكة طويلـة عريضة فى سـائر النـوادى والمقـاهى بالجزائـر** ٠

وهكذا ان تتبع امثال هذه المحاضر لا يمكن استقصاؤه بالنسبة لكل جريدة من جرائدنا الثمانية : **وادى ميزاب ـ ميزاب ـ المغرب ـ النور ـ النبراس ـ البستان ـ الامة ـ الفرقان** •

لما علمت يقينا ان مهنة الصحافة فى الجزائر يستحيل على الصحافى القيام بها التفتت الى ميدان التاليف وحسبك انى **قاسيت ١٢ عاما فى الصحافة** اى منذ ١٩٢٦ الى ١٩٣٨ فالفت سلسلة من كتب ومن رسائل •

فأما الكتب فمنها حياة سليمان باشا البارونى فى جزأين وقد انجز طبعه فى مطبعتنا ، ومنها ديوان ابى اليقظان ، ويوجد منه مثله غير مطبوع مما زادت نظمه بعد طبع الديوان فى ٣ المحرم ١٣٥٠ هـ ، وقد غيرت اسمه من جديد وسميته بوحى الواجدان من ديوان ابى القظان ، واما غير المطبوع فمنه ملحق سير الشماخى فى ثلاث حلقات ، ومنه الاباضية فى شمال افريقيا فى حلقتين ، ومنه تفسير الجزء الاول يبتدىء من **سورة الفاتحة** الى **سورة والمرسلات** ، ومنه سلم الاستقامة فى سبعة اجزاء منها ثلاثة اجزاء للابتدائى فى فقه العبادات **وهو مطبوع** ، واربعة اجزاء للثانوى فى فقه المعاملات •

اما الرسائل فهى مجموعات لاغراض مختلفة منها تراجم المشائخ كترجمة الامام ابى يعقوب يوسف بن ابراهيم ، وترجمة ابى عبد الله محمد بن بكر النفوسى ، ومنها ترجمة ابى عمار عبد الكافى ، ومنها ترجمة عبد الله بن اباضى ، ومنها ترجمة الشيخ الثمينى كما اعرفه ، ومنها رسالة نظام المساجد فى وادى ميزاب ، ورسالة نظام العشائر فى وادى ميزاب ، ورسالة فتح نوافذ القرآن ، ورسالة أضواء على بعض امثال القرآن ، **ومنها رسالة نشاتى** وفيها كل ما تطلبه من بيانات وهى تحت الطبع ، ومنها ارشاد الحائرين المطبوعة فى تونس ، ومنها عناصر الفتح من سورة الفتح ، ومنها صبر يوسف يتجلى فى مجنة ••• الخ •••

٨ ـ واما سؤالك الثامن : هل كتبت فى الصحف العربية فى الجزائر وفى الدول العربية ؟ فاذا كان الجواب بنعم فما هى الجرائد وباى تاريخ ؟ الجواب : انى لم اكن احفل كثيرا بالكتابة فى الجرائد العربية واتاكد انى **كتبت فى جريدة الفاروق** للاستاذ **عمر قدور الجزائرى فى سنة ١٩١٣ وسنة ١٩١٤** ، وفى جريدة «**المنير**» التونسية للاستاذ الشاذلى المزالى اظن فى سنة ١٩١٥ ـ ١٩١٦ ، واما الدول العربية فلم اكتب عنها ولا فيها شيئا •

٩ ـ واما السؤال التاسع : ما هو اكبر صحافى جزائرى عرفته ؟ الجواب : **هو الامير خالد صاحب الاقدام العربية الفرنسية ـ والسيد عمر بن قدور** صاحب جريدة **الفاروق** ، **والشيخ عبد الحميد ابن باديس** صاحب مجلة الشهاب •

١٠ ـ واما السؤال العاشر : من هم الصحافيون الجزائريون الذين عرفتهم ما بين سنوات ١٩٢٠ و ١٩٥٤ ؟ الجواب : هم : الشيخ مبارك الميلى صاحب «**المنتقد**» ، والاستاذ السعيد الزاهرى صاحب «**البرق**» ، والاستاذ عبد الحميد ابن باديس صاحب «**الشهاب**» ، والشيخ الطيب العقبى صاحب «**الاصلاح**» ، والشيخ البشير الابراهيمى صاحب «**البصائر**» •

١١ ـ هل هناك كتب تحدثت عن تاريخ الصحافة الجزائرية ؟ الجواب : تحدثت عن تاريخ الصحافة الجزائرية فيما اعلم كتاب (شعراء

الجزائر) للأستاذ الهادى السنوسى ، والاستاذ أنور الجندى فى كتابه **(الفكر والثقافة المعاصرة)**.
هل توجد لديك نسخ من الجرائد التى اصدرتها ؟
الجواب : انه توجد لدى نسخ من الجرائد التى اصدرتها مثلا النبراس ـ الفرقان ـ وادى ميزاب النور ـ الامة ولكن لا يمكن أن تخرج من يدى .

١٢ ـ ما هى نصائحك للصحافيين الجزائريين الشبان ؟ الجواب : بما انى أو من ايمانا صادقا بان للانسان دارين دار الدنيا ودار الآخرة لا انفكاك بينهما فأرى ان يجعل [illegible]ن الصادق الايمان حسابه لا لدار واحدة ولـ[illegible] يجب ان يعمل حسابه لدارين معا لا انفكاك بينهما ، ولكنى ارى ان غالب المسلمين اليوم منصرفون عن الدار الآخرة ومنغمسون فى الحياة الدنيا ، وانصح الاخ الصحافى أن يجعل نصب عينيه العمل على قاعدة أعمل لدنياك كانك تعيش ابدا وأعمل لآخرتك كانك تموت غدا، وكما قال علماء قارون (وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة والا تنس نصيبك من الدنيا) ، والله الموفق : .

الخلاصة : ويختم عميدنا اجابته على اسئلتى شارحا الاهداف التى كان يهدف اليها فى مؤلفاته فيقول :

ـ وتبعا لأسئلتك بقى لي سؤال يهمنى أن اجيبك عنه فيما يلى ، فاقول : وفيما يخص سؤالك : هل الفت كتبا وما هى أهدافها ؟ الجواب نعم ، الفت كتبا ورسائل ذكرنا بعضها وبقيت نقطة تهمنى جدا ، ما هى أهدافها ، فالجواب هو فيما يلى : كلما قرأت فى القرآن آية تلتهب بصواعق النذر والعذاب للكافرين أو البشائر للمؤمنين ، حصلت لى رجفة وقشعريرة من سائر النذر للكافرين وآمال طماحة لسائر البشائر للمؤمنين . ولقد شيبتنى من الاولى آيات :

١ ـ مثل قوله تعالى فى آية الربا : يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله (البقرة) وجل المسلمين منغمسون فى حماة الربا .

٢ ـ ومثل آية سورة يونس : ان الذين لا يرجون لقاءنا . (الآيات ٧ ـ ٨)

٣ ـ ومثل آية سورة ابراهيم : الذين يستحبون الحياة الدنيا ... (الآيات ٢ ـ ٣) وجل المسلمين متورطون فى حب الدنيا .

٤ ـ ومثل خواتم سورة ابراهيم : ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون (الى آخر السورة) .

٥ ـ ومثل خواتم سورة الزمر : واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب (الى آخر السورة) .

٦ ـ ومثل آية سورة فاطر : والذين كفروا لهم نار جهنم ... (الايتان ٣٦ ـ ٣٧) .

٧ ـ ومثل خواتم سورة والفجر : وجيء يومئذ بجهنم .. وثاقه احد . الى غيرها .

ـ ومن الثانية كلما قرأت آية من بشائر المؤمنين تطيرنفسى فرحا وشعورا بالنعيم الخالد.

٨ ـ ومثل خواتم سورة والفجر : يايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى .

٩ ـ ومثل خواتم سورة الواقعة : فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم

١٠ ـ ومثل آية سورة الرعد : الذين يوفون بعهد اللـه ولا ينقضون الميثاق ··· فنعم عقبى الدار (الآيات ١٩ ـ ٢٤) ·

١١ ـ ومثل خواتم سورة الفرقان : وعباد الرحمان الذيـن يمشون على الارض هونـا ·· حسنت مستقرا ومقاما · (الآيات ٦٢ ـ ٧٦) ··· الى غيرها · لاجل كل هذا أهدف فى كـل مـا كتبت مـن كتب ورسائـل الى الانذار للكـافرين والتبشير للمؤمنين ، هذا هو هدفى الوحيد · فقد كتبت من ذلك رسالـة عنوانهـا (اهدافى العليـا بالعمـل فى هذه الحيـاة) ، ورسالـة عنوانهـا (الانسانية المؤمنة بين حزب الله وحزب الشيطان) ورسالة أخرى فى هذا المعنى بعنوان (فتح نوافذ القرآن) على نسق رسالة سيد قطب (مشاهد القيامة فى القرآن) ، ورسالة اخرى عنوانها (اشعة النـور من سورة النور فى الحجاب والسفور) ، ورسالـة أخرى عنوانها (عناصر الفتح من سورة الفتح) ، ورسالة أخرى عنوانها (سبيل المـؤمنين البصير الى الله) ، فهى كلهـا مخطوطة الا الاخيرة فهى مطبوعـة · بالتأمل فى امثال هذه الرسالة تجد انها كلهـا تهدف الى تغذيـة الايمـان فى نفوس المسلمين (المؤمنين) وتحذر من الكفـر والنفـاق والالحاد وسائر الكافرين والمنافقين ·

بهذه المناسبة ، سألنى فى عهد الاستعمار البـائد احد اعـوانهم البارزين السيد البشـير فرقانى ، وهو من بلد جيجل ، وكان أكبر خـائن لوطنه حتى مات شـر موتة ، سألنى موعزا مـن طرق رؤسائه وقال : الى ماذا تهدف من حملاتك الصحافيـة العنيفـة ؟ ان كنت تهدف الى منصب قائد نقيدك ، وان كنت تهدف الى منصب قـاض نسميك قاضيا ، وان كنت ترمى الى راتب نعيـن لك راتبـا ، وان كنت تـرمى الى نيشـان نمنحك النيشان ولكن بشرط ان تتـرك حملاتك جانبـا · فأجبته قائلا : انا لا أرمى بكل هذا شيئا من ذلك ، فرجع الى رؤسائه بهذا الجواب ، فقال : ماذا تريد اذن بهذه الجعجعة ؟ فقلت : اريـد الجنـة ؟ ؟ ؟ فقهقه حتى كاد يستلقى على قفاه · فرجع اليهم فقالوا له : قل له ان كنت تريد الجنة نطلعك اليها فى ليلة واحدة (يعنى المشنقة) · وكان يتجسس فى نادى الترقى كلما اجتمعت جمعية العلمـاء المسلمين الجزائريين · فلما قام قائلا : انا ذاهب الى النادى ، لم يكد يقوم من كـرسيه حتى سقط من الكرسى بسقوط جنبه واحتملناه انا والشيخ بيوض الى منزله وبقى فيه لاحيا ولا ميتا الى ان مضى عنه نحو عام فمات ولقى جزاءه ·

اخى تصور أن لرجـل غنما كـان حريصا عليها يصونها من الجوائح كالذئب والريح والمطر والعطش ونحو ذلك ، وفى ذات يـوم هرولت من قفصها هائمة فى طريق منحدر الى هوة سحيقـة فأخذت تنقلب اكداسا وأشتاتا فى هوة سحيقـة لا قعر لها (فى جهنم) فكيف يكون حال صـاحب الغنـم ؟ افلايجن جنونه ؟ أنـا صاحب الغنـم ، والغنم هى المسلمون ، فكيف يكون حالى معهـم وأنا أرى مصائرهم أمام عينى · فهدفى كله موجه الى صيانـة الغنم من الذئـاب شيـاطين الانس والجن · فكل ما تحملت من اضطهاد وتضحية هو فى هذا السبيل ·

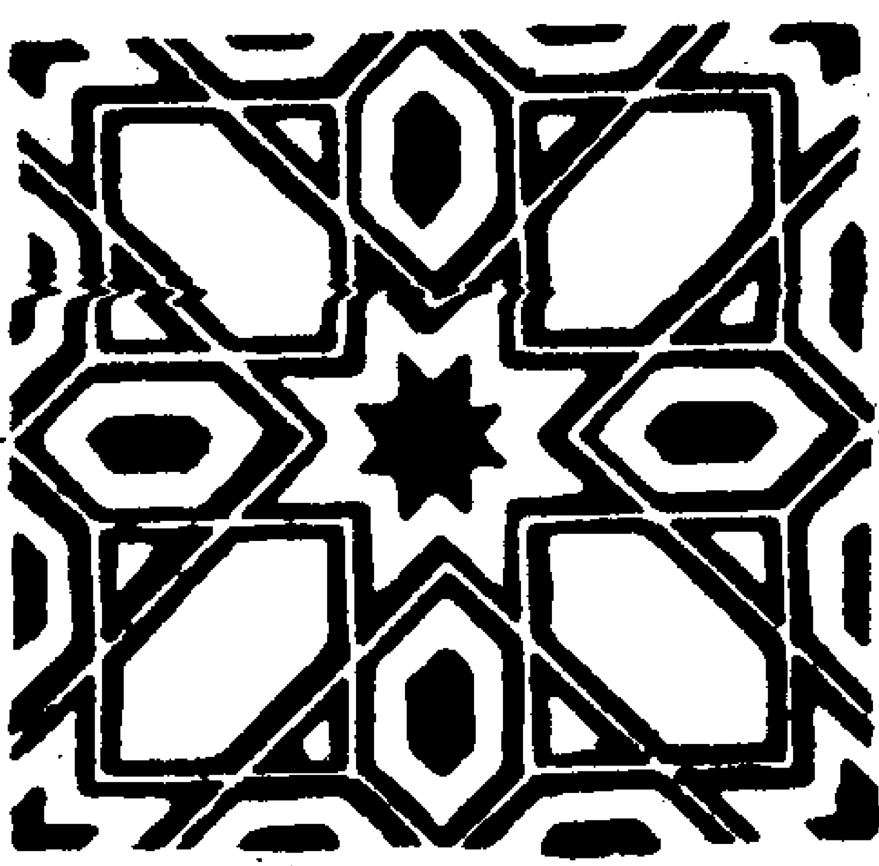
كـل هذا وفى عمـرى نحو ٨٥ سنة · لان يهدى بك اللـه رجـلا خير لك ممـا طلعت عليـه الشمس ·

اخى ، ان رسالتى هى انسانية لا يقظانية ولا مذهبيـة · انـا اذا كتبت او وعظت اوجـه نصائحى ووعظى وارشادى الى كـل المسلمين · فانه يعلم اللـه كم يكون فـرحى شديدا برجوع المسلمين الى جادة الحق والاسلام ، فكـل فـرد كنت انا السبب فى انقاذه من النار كم يلحقنى من فـرح وسرور وبهجة بذلك ، وكـم يكون سرورى عند ما يسلم اى فرد من افـراد المسلمين مـن ان يحشروا فى عرض النار ليقال انه واحد ينجو الى الجنة مـن ٩٩٩ الى النـار عندما يضحك ابليس عليهم قائلا كما يقول عنه تعالى (وقال الشيطـان لما قضى الامر ···) الآية ٢٢ من سورة ابراهيم·

هكـذا كـانت حيـاة عميد الصحـافيـين الجزائريين كما شرحها هو نفسه · وفى الحلقة القادمة سنتعرض بالحديث الى بعض الجوانب من اثاره الصحافية واسلوبه الكتابى ان شاء الله ·

فالى نجله الاستاذ احمد وعائلته كلها ·

والى اسـرة الصحافيين الجزائريين نقدم تعازينا ونسـال اللـه الرحمة والغفـران لفقيد الصحافة الجزائرية ·



"وشهد شاهد من أهلها"



صفحات من تاريخ جامع كتشاوة

إعداد: الطاهر بوشوشي

عندما ألقى الاستعمار الفرنسى بحرانه على هذا التراب الجزائرى مشهرا السيف بيمناه وملوحا بالصليب فى يسراه عدت الدولة الفرنسية الملوكية هذا العدوان انتصارا للصليب على الهلال وسجلته فتحا مبينا أحرزته فى معترك الحروب الصليبية التى شنتها أوربا على الاسلام من أواخر القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر فكان مآلها فى كل مرة الخيبة المرة ناهيك بثمانى حروب أو قدوها فى تلك القرون الثلاثة فاحترقوا بشظاياها وكان نصيبهم من الغنيمة سلامة الاياب (لمن قدرت له سلامة الاياب) على أن الألم بقى يحز فى قلوبهم فظلوا يتحينون



منظر داخلي للمسجد

الفرص بالاسلام والمسلمين الى ان انسحب المسلمون من الاندلس فلاح الامل المعسول من جديد وسولت البغضاء للصليب أن يعيد الكرة على عدوه القديم فكان ما كان من عدوان الاسبان والبرتغال والفرنسيين على المغرب العربى المسلم تحقيقا لتلك الأمنية القديمة واستجابة لصوت الطمع والجشع فملأ هذا العدوان صفحات التاريخ فى قرون ثلاثة أخرى هى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ·

واثر ذلك نزلت فرنسا بأرض الجزائر وكان اول ما بدر منها استيلاؤها على (بيت المال) فرجعت سفنها التى اقلت الجنود قافلة الى مرسيليا مشحونة بالقناطر المقنطرة من الذهب والفضة مما لقبه مؤرخوها (بكنز القصبة) Trésor de la Casba

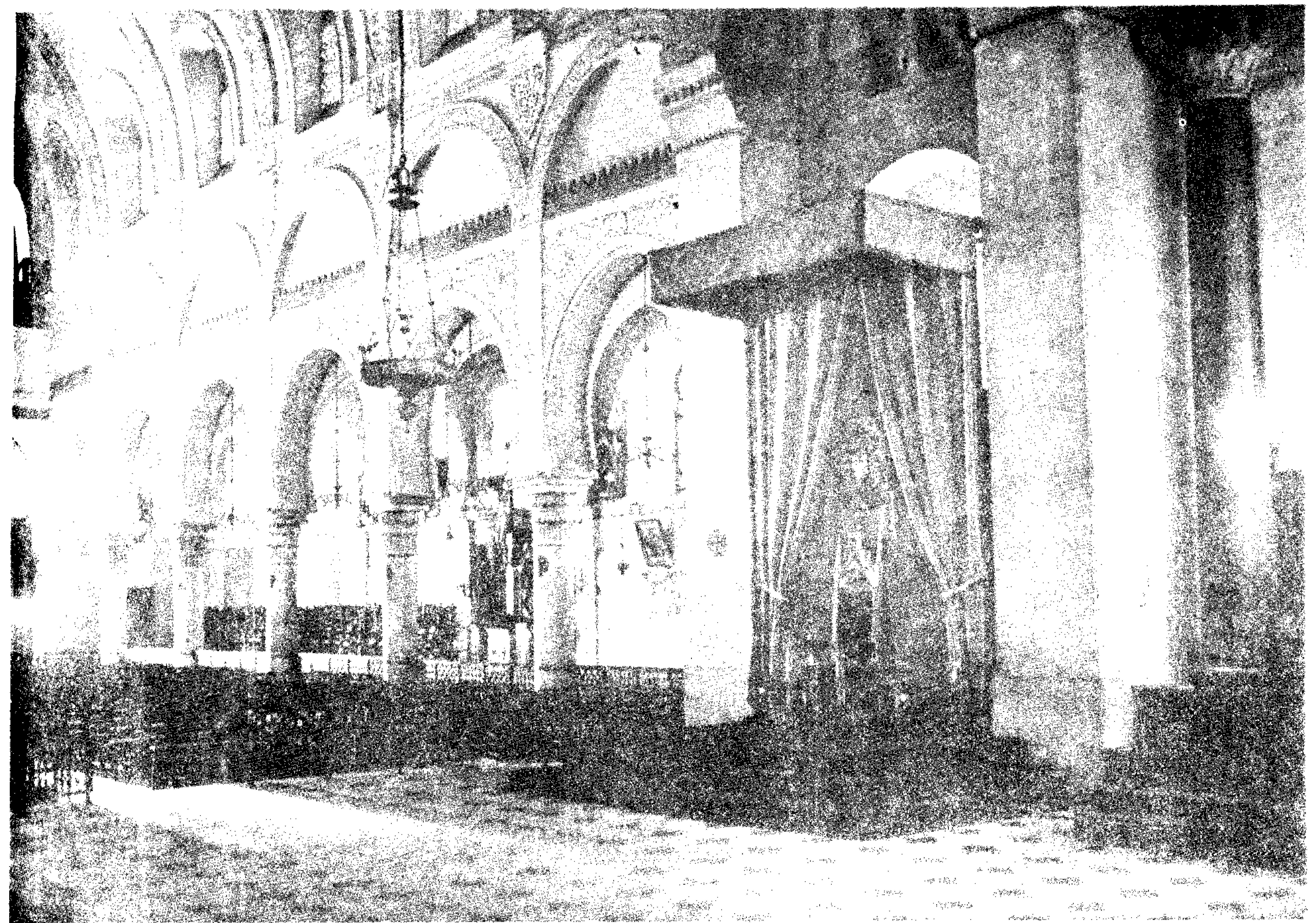
وكانت الجريمة الثانية تحويلها المساجد الى كنائس وثكنات للجنود واستيلاؤها على الاوقاف والاحباس التى كان ينفق ربعها فى سبيل التعليم أو اعانة المؤسسات الخيرية والاجتماعية وكان أحسن مثال عن تصرفها ما صنعته بجامع (كشاوة) فى عاصمة الجزائر ·



منظر على طول الجامع قبل تحويله الى كتدرائية

وانه لمن المفيد أن نذكر بهذا الصدد نبذة عن تاريخ هذا المسجد المعمور كما رواه المسيحيون أنفسهم وكما شهد شاهد من أهلهم فان فى ذلك عبرة لمن اعتبر مرجعنا فى هذا العرض مقال نشرته مجلة (الجزائر الكاثوليكية) l'Algérie Catholique فى عددها الصادر فى شهر أبريل من سنة ١٩٣٨ تحت عنوان (كاتدرالية الجزائر : أثر تاريخى) بسطت فيه كيفية تحويل المسجد الى كنيسة فوصفته أحسن وصف قبل تحويله وا. . بنيانه ثم سجلت الدور الذى قام به الاساقفة الخمسة الذين تناوبوا على منصته منذ سنة ١٨٣٢ الى ١٩٣٨ ·

ذكر صاحب المقال ـ تزكية لهذا العدوان ـ أن جنود فرنسا المحتلين لم تكن لهم كنيسة يتعبدون فيها فقد كان عدد المسيحيين الذين وجدهم المحتل بالجزائر ضئيلا جدا ليس لهم الا معبد صغير فى باب عزون (نهج سبيون حاليا) ومعبد القنصلية الفرنسية (نهج جان بار حاليا) ومعبد القنصلية الاسبانية وقد رأى القائد العام



منظر داخلي للجامع بعد تحويله الى كتدرائية

للجيش الفرنسى ـ وهو الكونت دى بورمون ـ أن الصليب لا بد أن يأخذ نصيبه الاوفر من الانتصار العسكرى المبين فأمر أن يرفع الصليب على أعلى بناية مشرفة فكانت هذه البناية مسجد القصبة القديم الجامع البرانى فسمى (كنيسة الصليب المقدس) Eglise Ste. Croix وكان عدد المرشدين (أى الرهبان الذين يرشدون الجنود Aumonniers قل فى سنة ١٨٣٠ بسبب الثورة التى اندلعت فى فرنسا فى تلك السنة غير أن عددهم قوى فيما بعد فعين القس كولان رئيسا لهم واتسعت حركتهم وعظم نطاق نشاطهم ·

١) خرافات وأساطير

ثم يدعى صاحب المقال أن الوالى العام على الجزائر (وهو انذاك الدوق دى روفيقو Duc de Rovigo سعى لدى المسلمين ليتنازلوا للمسيحيين عن مسجد كشاوة وقال ان المفتى الاعظم كتب له رسالة جاء فيها «لئن تحولت الشعائر فى مسجدنا فان ربه لم يتحول وقد كان فى استطاعتكم أن تأخذوه قسرا لكنكم فضلتم الطلب على القوة



كرسى الخطيب ... خطيب الكتدرائية الذى كان منبر الامام الخطيب

وهذا مظهر مـن مظاهـر التسـامح هيهـات أن ننســاه » .

ونحن نقول ان هذه الرواية مكذوبة وقـد تكون هذه الرسالة مزورة أو أنهـا غير موجودة لان موقف رجال الدين كان صار ما فى ذلك العهد ناهيك بموقف المفتى الكبابطى وغيره ممن آثروا الاغتراب أو العـزل بـل السجن والتعذيب على موالاة من نقضوا عهدهم وحادوا الله والرسول

وسنجد فيما بعد شاهدا على بطلان هذه الرسالة أو ربما تكون السلطات الجديدة أوحت الى أحد عملائها الجدد بكتابتها ثم نسبتها للمفتى وكذلك يعملـون ...

وانما الاخبار التى تثبتها الرواية الشعبية أن الجنود دخلـوا المسجد مدججين بالاسلحـة فقتلوا وجرحوا من المصلين عددا كبيرا فثـار الشعب ثورته واستشهد مـن الجزائريين جمـع





هديتان من البابا غريغوار السادس عشر للكتدرائية

غفير ولا ينبيك عن تاريخ الشعب مثل ذاكرة الشعب

٢) صفة المسجد الاولى قبل تغييره :

ثم يذكر الكاتب المسيحى موقع هذا المسجد ويقول انه قد بنى فى القرن الرابع عشر مسجد صغير فى المكان نفسه أى على هضبة (كشاوة) ومعناها بالتركية الهضبة التى يرعى عليها الماعز وهدمه حسن باشا سنة ١٧٩٤ وشيد مكانه مسجدا رائع البنيان على نمط مسجد (السيدة) الذى كان يقابل الجنينة فى ساحة الحكومة أى ساحة الشهداء اليوم فسمى مسجد النساء لان فى داخله أروقة كبيرة تشرف على الردهة خصصت للنساء المصليات وتسمى تلك الاروقة فى الجزائر (السدة) وهى تحيط بالمردهة كلها وتبلغ ٦٥ مترا فى الطول و٣،٣٠ فى العرض أما الفرنسيون فقد أطلقوا عليه اسم (جامع الكتابات





مدالتان امر بصنعها نابليون الثاني
رئيس الجمهورية الفرنسية بمناسبة توسيع
الكتدرائية (الجامع)

الكبرى) لان الجدران كانت مزخرفة بكتابات رائعة الحسن تعتبر آية فى فن الخط والخزفيات ثم لقبوه (كتدرلية) بعدما (تنازل) عنه المسلمون حسب ما زعم ٠

كان المسجد مربع الشكل أو يكاد فطوله ٢٣،٥٠ وعرضه ١٨،٧٠ ذا مدخلين أحدهما أمامى مفتوح على ساحة (مالكوف) أى جنب قصر الشتاء الذى يؤوى اليوم مركز الشؤون الثقافية لوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية والمدخل الثانى خلفى من جانب نهج الديوان Rue de Divan وكانت توجد هناك ساحة صغيرة شكلها مربع منحرف تقوم من احدى زواياها منارة الجامع ٠

ويرتفع فى الداخل ستة عشر عمودا من الرخام الابيض الصافى المتقن الصنع ومعظم هذه الاعمدة أو (العرص) يوجد الى حد الآن تقوم عليه القبة والاروقة الآنفة الذكر ويقوم المنبر من جهة القبلة أما الكتابات الكثيرة التى كانت تبهر الناظر وتزين الجدران فهى من خط الاستاذ ابراهيم الجركتى وكانت توجد فى كل رواق من الاروقة منصة من الخشب المحلى بأبدع النقوش يخصص مكان منها لاسرة الداى ثم للوالى العام الفرنسى فيما بعد يفد اليها من الباب الداخلى الذى ينفتح على قصر الشتاء ٠

كان يزين الردهة أصناف من الخزائن الجميلة المصنوعة من الخشب النفيس كالاوز والآبنوس والساج وكانت النقوش تزين أبواب تلك الخزائن وكانت الجدران مغطاة بارفع أنواع الزليج من أبيض وأزرق يرتفع علوه الى أن يبلغ مستوى (السدة) المشرف ويؤلف ذلك كله منظرا داخليا للمسجد يعد من أجمل ما تراه العيون ٠

أما المنبر فحدث عن حسنه ولا حرج فهو آية فى فن النقش لا نظير لها يزين جوانبه أصناف من الرخام الرفيع وقد حول هذا المنبر الى منصة كنيسة وبقى كذلك الى عهد الاستقلال وكانت الميضاة خلف المسجد اى من الناحية التى تلى نهج الديوان وهى محلاة بنقوش بديعة يغلب فيها شكل الاهلة وحولت الى جرن معمودية أى fonts baptosmaux فى عهد المسيحية ٠

٣) كيفية تمسيح المسجد

وكان تاريخ ٢٤ دسمبر من سنة ١٨٣٢ هو اليوم الذى اختاره القسيس كولان لتمسيح المسجد وجعله كاتدرالية فوقع الامر فى ابان صلاة منتصف الليل التى يقيمها عباد الصليب بمناسبة عيد (النويل) وفتحت الابواب وهرع خلق كثير من الاشخاص فدخلوا الكنيسة زرافات ووحدانا ويذهب الكاتب الى الزعم أن من بينهم عربا ويهودا ومالطيين وأوربيين من شتى أقطار الغرب فامتزجوا بالضباط وعسكر الاحتلال فاكتظت بهم الردهة الكبرى بما رحبت وامتلأت جوانبها وكانوا حولوا المنبر الى قداس ووضعوا فيه تمثال السيدة مريم فقيل عن هذا الصنم أنهم عثروا عليه فى مرفأ من مرافىء المرسى ولا يدرى أحد من جاء به الى هناك (كانهم يرون ذلك خارقة من الخوارق) ثم التفتوا الى ما فى داخل المنبر فوجدوا كتابة فقرؤوها فاذا هى آيات بينات وهى قوله تعالى (قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) فعدوا وجود هذه الآية ارهاصا بل معجزة ولو تدبروا معناها لبهت الذى كفر ٠

وكان من جملة الحاضرين فى هذا المهرجان اللاهوتى بل من جملة الاعوان على اقامة القداس

شيخ يتعبد والدموع تسيل على لحيته البيضاء ذاك شيخ راهب أسباني من جماعة رهبان الثالوث Trinitaire المتجردين لاغاثة الاسرى وانقاذ معنوياتهم وارشادهم وهو الوحيد التى امتد به العمر فشهد ذلك الحفل وكان يبكى من شدة الفرح فعدوا هذا الشخص معجزة ثالثة والمعنى الذى يرمى اليه الكاتب من الاستشهاد بهذه القصة أن الصليب حرر الاسرى فى الجزائر وخلع عن هذه البلاد ثوب العبودية القاتم وازاح عنها نير الحكم الغاشم وهو نفس الكلام الذى أثبته عندما استهل مقاله بالعبارات التالية : «ان الجيوش الفرنسية عندما نزلت فى سيدى فرج يوم ١٤ جوان ١٩٣٠ قد أطلع الله بها من جديد شمس الانجيل على هذا البلد الافريقى الذى طالما سطعت عليه فى غابر العصور أنوار مسيحية وهاجة ثم غشيه فيما بعد ليل الهمجية الدامس لمدة اثنى عشر قرنا» .

هكذا يكتبون التاريخ أو يكذبون على التاريخ فيزعمون الاسلام همجية وظلاما والباطل نورا وسلاما الى أن يعظهم من الحدثان واعظ ويزجرهم من الواقع زاجر ورحمة الله على الاستاذ الامام البشير الابراهيمى الذى دشن هو أيضا رجوع مسجد كشاوة الى أصله بمناسبة صلاة الجمعة التى أقيمت به فى عهد استقلاله تحت شعار نجمه وهلاله فقال كلمته الرائعة (ولما تكلمت البنادق ظهرت الحقائق) ولم يكن ذلك من سجع الكهان ولكنه من قرع الكهنوت .

٤) أعمال الاساقفة بعد تمسيح المسجد :

ولنرجع الى أساطير (الجزائر الكثوليكية) وخرافاتها اللاهوتية بعد هذه الاستراحة القصيرة التى اتخذناها خشية أن يتطرق الملل والسأم الى ذهن القارى الكريم ولنفتح بابا جديدا من هذا البحث الذى استعرضت فيه سير الاساقفة الكبار منذ تداولوا على عرش هذه السلطنة الروحية فى بلادنا قلنا ان أولهم كان رئيسا للمرشدين العسكريين وهو كولان امتدت دولته من سنة ١٨٣٠ الى ١٨٣٣ وجاء بعده القس موليو من سنة ١٨٣٣ الى ١٨٣٨ عينته روما وشدت أزره باعوان من الرهبان لهم مهمات خطيرة فى ميدان التنصير والتبشير ثم عين البابا جرجير السادس عشر أول أسقف بالجزائر وهو دوبوش من سنة ١٨٣٨ الى ١٨٤٦ ذهب الى روما لزيارة البابا فزوده بالهدايا والذخائر الدينية كأجساد القديسين أى جثمانهم الذى يحتفظون به فى الكنائس للتبرك وكان من جملة هذه العطايا السنية كاس مرصعة بمائة وعشرين جوهرة وهى منحوتة بديعة النحت يتمثل فيه طائر الفينق Phinix ويرمز هذا الطائر الخرافى الى نهوض الكنيسة فى افريقيا لان أساطير يونان تدعى أنه خالد لا يموت وهو شبيه بالعنقاء عند العرب كما أهداه كتبا انجيلية متعددة وجثمان طفل مسيحى قتله الرومان من أجل ايمانه بالمسيح فهو من شهداء المسيحية اسمه القديس مودستان وقفل الاسقف راجعا الى الجزائر وهو محمل بهذه الذخائر ليزين بها الكاتدرالية وكان المارشال فالى وهو الوالى العام الذى عينته فرنسا حاكما على الجزائر قد رفع على رأس الكاتدرالية صليبا فى سنة ١٨٣٩ .

وهذا حادث ان دل على شىء فانما يدل على أن المسلمين لم يتنازلوا عن طيب خاطر عن مسجدهم بل ان السلطات الفرنسية بقيت من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٣٩ أى مدة سبع سنوات تتوجس خوفا من غضب أهل البلاد ولم تجرأ

على ابراز صليبها ورفعه على رأس المسجد الا عندما اطمأنت على مصيرها وآستتبت لها جميع الامور وأمسكت على كل المقاليد ·

واحتفلوا فى كاتدراليتهم بعيد القديس فليب لان ملك فرنسا لذلك العهد لويس فليب الذى اصدر أمرا ملكيا بتاريخ ٢٩ جوان يقضى بتعيين القس يلتان رئيسا للقسيسين فى الجزائر وأهدى الكنيسة هدايا سنية منها ستر من القماش الرفيع وقد شرعت جماهير المسيحيين تتردد على الكنيسة أفواجا والظاهر أن عدد السكان الاوربيين قد آزداد على مر الاعوام فضاقت بهم ردهة كشاوة بما رحبت فطلب الاسقف دويوش من الحكومة أن تضيف له جامعا آخر من جوامع المسلمين فكان يمنى نفسه (بالجامع الجديد) ولكن الله سلم فبقى (الجامع الجديد) للاسلام وآكتفى دويوش بهدم جامع كشاوة ليشيد على أنقاضه كنيسة أوسع مساحة وأخذوا يحفرون الارض لبناء الاسس ولما وصلوا الى عمق تسعة أمتار كشفوا عن آثار رومانية قديمة من بينها رقعة فسيفساء جميلة وتمثال حمامة تمسك بين رجليها فننا من الزيتون فصاحوا صيحة أخرى وعدوها معجزة رابعة او خامسة وقالوا هذا دليل ان المسيحية كانت هنا من قبل سيدنا آدم ولعلهم كانوا يجهلون أو يتجاهلون أن الطائر البحرى كان شعارا للجزائر العتيقة (ايكز يوم) منذ عهد القرطاجينيين ·

وفى اليوم الثالث من جانفى ١٨٥٠ جرى فى الكاتدرالية وهى اذ ذاك فى مرحلة تجديد بنيانها حفل هائل بمناسبة أداء يمين الولاء والطاعة لرئيس الجمهورية الفرنسية الجديد الامير لويس نابليون فاكتظت القاعة بعلية القوم من قضاة وحكام وافدين لاداء اليمين ·

وهنا أيضا تجدر الملاحظة أن القوم كانوا يقضون جميع مآربهم فى داخل الكنيسة لا فرق عندهم بين الدين والدنيا والعبادة والسياسة ثم نجدهم فى نفس الوقت يتهمون الاسلام والساسة المسلمين بخلط الدنيا والآخرة (والبولتيك) مع (الفانتيك) ويتخذون ذلك سلاحا لمحاربة الحركة الاصلاحية بل جميع الحركات التى جاءت قبلها وبقيت هذه الشنشنة فيهم الى أن ذهب ريحهم ·

وفى سنة ١٨٥٠ أيضا شرعت السلطات المسيحية فى انشاء المؤسسات الخيرية كدار الصدقة وعيادة المرضى الاهالى ودار رعاية الاطفال ودار الصناعات النسوية كالطرز والنسيج وكانت كل هذه المؤسسات قريبة من الكتدرالية تقع فى الاحياء الاهلية المحيطة بها والغرض منها جلب قلوب المسلمين للمسيحية وغرس بذور المحبة فيهم ثم تنصيرهم وهذه أيضا شنشنة أخرى ولكنها لم تبارحهم ·

تغيير شكل المسجد :

وكانت أعمال تجديد البناء بدأت سنة ١٨٤٤ وآمتدت الى سنة ١٨٦٨ وظل الاسقف طوال هذه المدة المديدة يبرق ويرعد ويرغى ويزبد الى أن تم له ما أراد فجاء البنيان الجديد خليطا من الفن البزنطى والرومانى والاسلامى ولم يبق من أصل المسجد الاصيل الا الشيء الضئيل كالميضاة والمنبر والاعمدة الرخامية اما بقية الاعمدة الاخرى فقد جيء بها من خرائب القيصرية (شرشال) وآثارها الرومانية حيث كانت

تقل معبدا روميا وأما المنارات التى رفعوها فقد قلدوا بها شكل جامع قايت باى وجامع محمد الناصر فى قلعة القاهرة وهلم جرا ٠

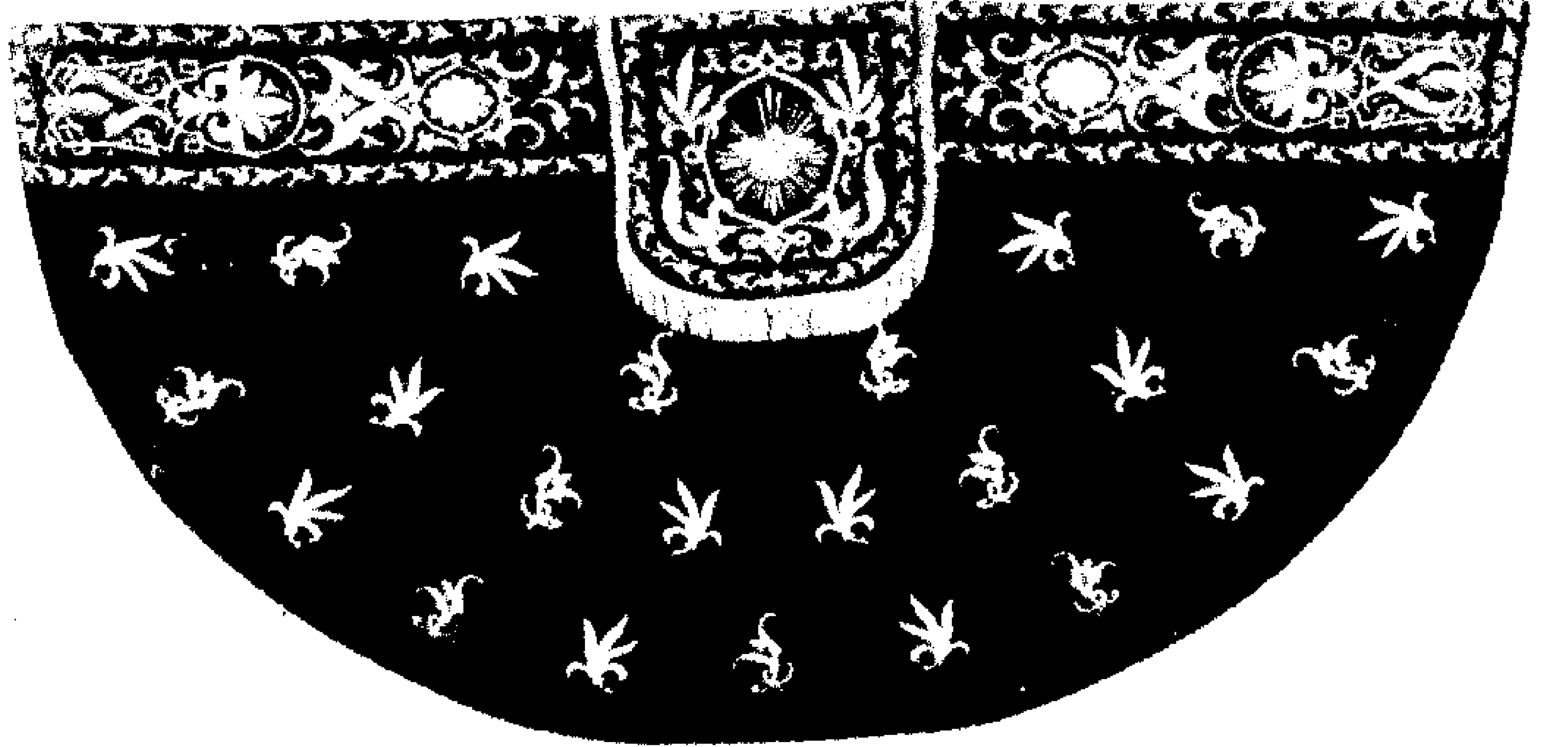
وان من يقرأ تاريخ كشاوة منذ تنصيره الى يوم تحريره لكانما يطالع سجل حوادث السياسة الفرنسية ففى شهر سبتمبر من سنة ١٨٦٠ وقع مهرجان مسيحى ضخم على شرف استقبال الامبراطور نابليون الثالث وحرمه أو جينى وكان المهندس المعمارى فروماجو مشرفا على أعمال البناء وهى لم تنته بعد مما أدى رؤساء الكنيسة على الاحتجاج الصارخ ضد تمادى هذه الاعمال وتقاعس الحكومة وانجاز وعودها الى أن عين لافيجرى أول أسقف كبير على الجزائر فتم البناء الجديد فى عهده وبارك النواقيس الطنانة يوم ٢٥ مارس ١٨٦٨ ٠

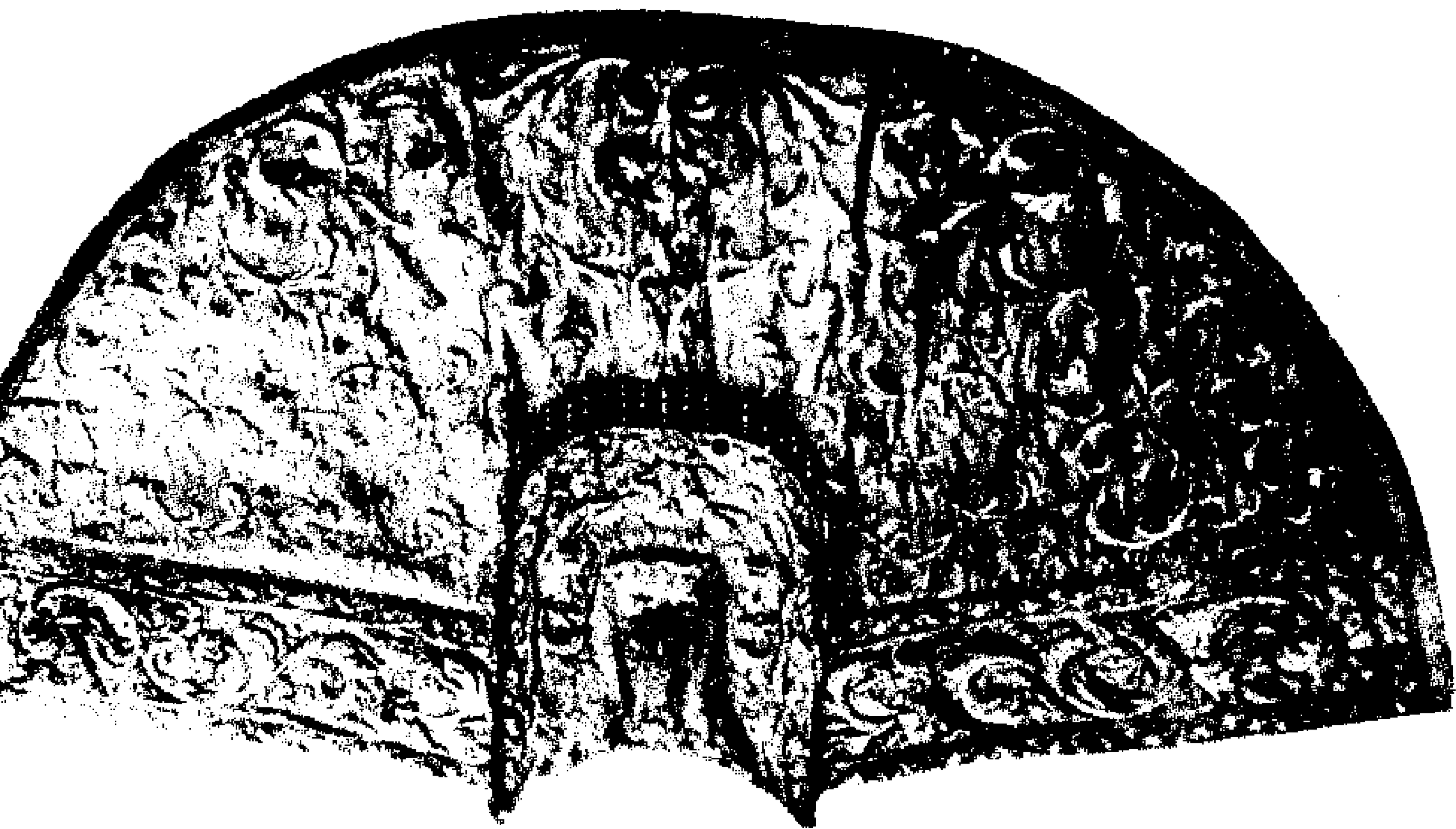
٦) للعبرة والتاريخ :

هذه هى الفترة المسيحية من عمر جامع كشاوة المديد وهى فترة طويلة كما يلاحظه القارىء الكريم ولكنها فترة تزخر بالعظات والعبر فقد ظل من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٩٦٢ بيتا من بيوت الله لا يذكر فيه اسمه ولا يجلجل من منارته صوت الاذان الا ما كان من اقامة قداس وطقوس وأجراس وكان المسلم اذا مر أمام مسجده يخيل له أنه مدجن من مدجنى أسبانيا الكاثوليكية يتمثل بشعر أبى البقاء الرندى :

حتى المساجد قد صارت كنائس ما
فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة
حتى المنابر ترثى وهى عيدان

الى ان ركب ابن الجزائر المسلمة حد السيف فاعاد مسجده الى قرءانه وأذانه واستعاد الاحفاد تراث الاجداد وذلك بعد تضحيات لا زالت الارض المضرجة بالدماء تصرخ انها لم تكن وأيم الحق هينة الا فليحفظ أبناء الجيل الجديد هذه العظة البالغة وليلقنوا الاجيال بعدهم هذا الدرس البليغ وليحافظوا ما آستطاعوا على هذا التراث النفيس (وليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) صدق الله العظيم ٠





هديتان من ملك فرنسا لويس فيليب ، الذى وضع ابنه دى بورمون الصليب على الجامع يوم 5 جويلية 1830 فى الوقت الذى وضع فيه العلم الفرنسى على دار الداى

تبرعـوا بالكتب لمكتبات المساجد

اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث :
صدقة جارية ، وولد صالح يدعو له ، او علم نافع
ينتفع به .

حديث شريف

ابعثوا بكتبـكم الى :

المكتبـة المركزية لـوزارة التعليـم الأصلى
والشؤون الدينية

قصر حسن ـ ساحة ابن باديس
الجزائر العاصمة

مدوا يدا

نحن دنيـــانا موحدة

شعر: مفدي زكرياء

القاها شاعر الثورة الجزائرية بجامع كتشاوة عند افتتاحه بمناسبة عيـــد الثورة غـــرة نوفمبر ١٩٦٢ .

لأى حـــج هنا تنصب بلدان ؟ — وأى ارض لهـــا ترتج أكـــوان ؟
وأى عيد له الاجيـــال شاخصة — وأى حفل تجلى فيه قحطـــان ؟
وأى ساح بها تصغى الدنآ كلمى؟ — كأنها ــ بعد وحى الله ــ قـــرآن
هى الحقيقة .. أو حلم يهدهدنى — كم راعه فى ظلام الليل ســـجان ؟
أواقع ؟ أم طلاسيم ، وأخيلة ؟ — هاروت ابدعها .. أم صاغها جان
ومن أنا ؟ هل أنا من كنت أعرفه — أم كيف يحمل عرش الله انسان ؟
هى الجزائر..صدر الغيب أطلقها — لما تفجر بالعملاق بركـــان
هى الجزائر .. وعد الله أنجدها — لما استخف بوعد الله طغيـــان
وتلك الوية للنصر خافقـــة — (ثالوثها) عن ضمير الشعب عنوان
وذا حمى وطنى ،والشمل ملتئم — وبين جنبى اخـــوان وخـــلان
وذاك قـــدس تداوينا بتربتـــه — كما تداوى بشم الترب ولهـــان
أرض بها بصـــمات الرب بارزة — كأنها عن جمال الرب برهـــان
وجنة .. قيل : ان الله خبـــاها — سرا عن الناس لا يدريه رضوان
ما جنة الخلد؟ هل تدرون موقعها؟ — هنا .. يخططها فن واتقـــان
قف بى على رفرف (الابيار) متئدا — تسكرك من رفرف (الابيار) الحان
وته (بحيدر) عجبا كلمـــا عبقت — من ورد (حيدر) أرواح وريحـــان
(وقبة الحور) تفشيها منارتهـــا — كأنها عن ضمير الحب اعـــلان
تطوف حول فراشــــات مروعة — تنسل .. أعوزها فى النور كتمان
كم ضج فى الدرب الف من تميمتها — وكم مشوق بها هاجته أشـــجان
واصعد على عرصات الحى فى صلف — يفجئك فى عرصات الحى هـــامان
تلك الجزائر غرقى فى مباهجهـــا — والشعب فى عرسها نشوى ونشوان

نهر المجرة وهم من فوانسهـــا ... والافق منهـا انعكاسات والوان
خميلة باركتها كف مبدعهـــا ... وخصها بدم الاحـرار جنـان
ولوحة صــنع الرسام ريشته ... منها ، فامعن فى الاعجاز فنـان
والبحر فى لهفة الولهان خاصرها ... كمــا تخاصر غـادات وولدان
الحالمات علــى الشاطى زوارقه ... العابثات ، وموج البحر وسنان
مررن كالذكريات العابرات ضحى ... يلفها مع غروب الشمس نسيان
كأن للبحر بعضا من خلائقهــا ... فى السلم منتزه ،فى الحرب طوفان
أرض البطولات ان تمسس كرامتها ... والعبقريات ان تنصب أذهــان
ونبع يعرب فى عــلم وفى أدب ... يشهد لها من كرام العرب عدنان
سلو (بجاية) فى الامجاد ما صنعت ... وكم (بقلعة حماد) لنــا شـان
واخشع (بسرتا) ووأديها وربوتها ... كم للعروبة فيها اعتز سـلطان
وقف (بتيهرت) واستعرض سيادتنا ... فيها يخبرك عن (تيهرت) سـلمان
واستفت فى (قرية العباد) عاملها ... تجبك عنه مع الدنيا تلمســان
آثار (زيرى) شهود فى معاقلهــا ... وملء مشــورها ما زال زيان

* * *

يا دار ..يا خير أرض لامست كبدى ... فشع من نبعها عقل ووجــدان
آمنت بالله ــ مثل الناس ــ عن ثقة ... بما روته عن الاجــداد أزمان
وفيك جددت ايمانى ومعتقــدى ... لولاك ما صح اســلام وايمان
لولا التقى لقطعت العمر أعبدها ... ما فى عبادتها شرك وكفــران

* * *

آمنت بالشعب فردا لا شريك له ... ما فى حمى الشعب أسياد وعبدان
له الســيادة فى قول وفى عمــل ... وللسياسة اصغاء واذعـــان

* * *

ما للكنيســة فى مغناك باهتة ... كأنها فى جبين الشــعب بهتان
ما للنواقيس ما تنفك تزعجنـــا ... أليس يسمعها فى الخلد (حسان)؟(1)
متى يلعلع ذكر فى محاربهـــا ... متى تعــوض بالآيات صلبـان
أم هل نرى صلوات الله قائمــة ... حينا بها مثلما كنا . وما كـانوا
أم الاذان يدوى ملء ساحتهـــا ... فتستريح من الاجــراس رهبان
حاشاك،حاشاك ياعيسى هم كذبوا ... ما فى النبيين نصاب وخـــوان
لانت صهر رسول الله من قـدم ... كم كنت بشرت من عقوا ومن خانوا

---

(1) بانى المسجد .

احييت موتاك ،احيِ اليوم لى املا	فى عيد شعب له بالرسل ايمـان
وقفت فى الفرحة الكبرى بساحتها	أتلو الروائع ، والاسـلاك آذان
بالامس وقعت للرشاش رنتـه	فارتج من رنة الرشـاش ايوان
واليوم تشدو العذارى فى مواكبها	خوالدى ، ملؤها دفء وتحنـان
فى مهرجان به الدنيـا مجسدة	ومحفل بكرام العـرب يزدان
من كل حر طليق صان حرمتهـا	وكل شهم له بالدار اخـوان
من اسمر حملته الشمس موثقها	وأبيض ساقه فضل واحسـان
ما فى العقيدة الوان توزعنـا	ما فى ضمائرنا بيض وسـمران

* * *

يا نازلين كـراما فى ديارهم	أرض الجـزائر للاحرار أوطـان
ويا عروبة من أم لنـا وأب	هنا العروبة دوحات وأغصـان
هنا الاصالة فى صلب وفى رحـم	هنا القرارات : تدبير ورجحـان
هنا اشتراكية من صلب واقعنـا	تشاد من وحيها للسلم أركـان
هنا فلسطين .. تمتد انطلاقتهـا	ان كان فى العرب أنصار وأعوان
ونحن للوحـدة الكبرى دعامتها	ان كان فى العـرب تفكير وميزان
مدوا يدا نبن دنيانا موحـدة	فما استقام بدنيا الخلف بنيـان
هـذا نشيدى بيوم البعث أنشره	وفى معانيه ايضـاح وتبيـان
وتلك أغنيتى والحفـل منتظم	لهـا من القلب تقطيع وأوزان

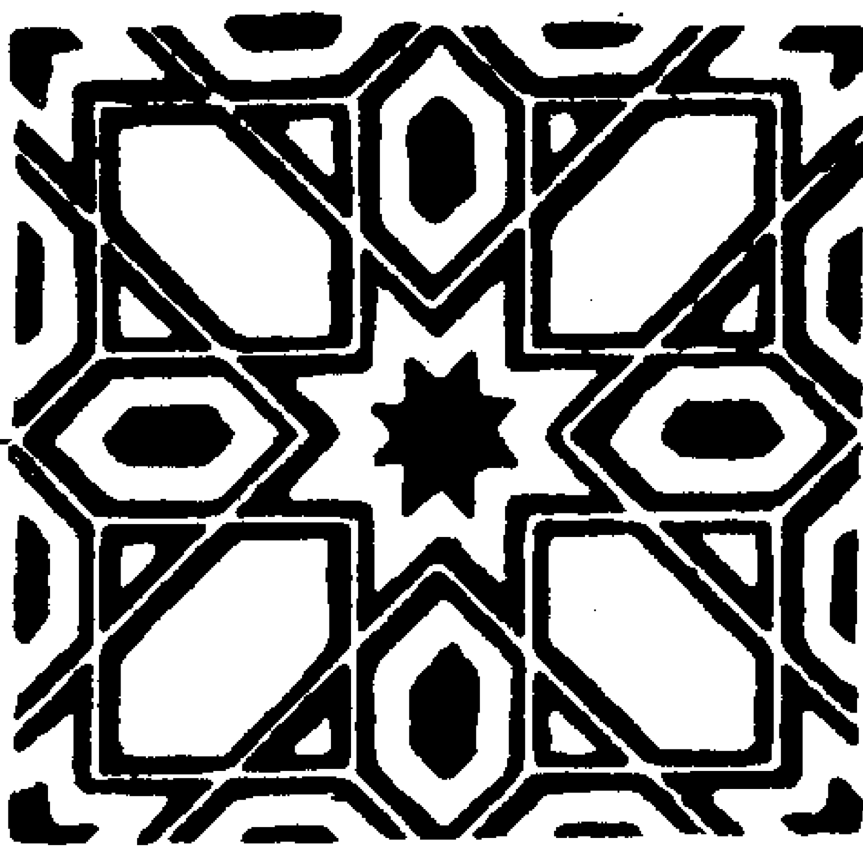
منشــــــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيــة

صدر أخــيرا:

ديــوان الـكفاح التحريري الجزائري





دولة بني حماد في الجزائر



عبد الحليم عويس
مراقبة المناهج والكتب
وزارة التربية ـ الكويت

برزت الجزائر على مسرح السياسة الدولية والعربية في العقد السادس من هذا القرن كدولة عربية اسلامية ، قدمت نموذجا لعله اروع ما قدم العرب من نماذج في تاريخهم الحديث .

قدمت هذه الرسالة كاطروحة للماجيستيرالى كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، ونوقشت مساء 1973/3/18 م ، وقد تكونت لجنةالمناقشة من الاساتذة : الدكتور احمد شبلى «مشرفا» والدكتور حسن احمد محمود،والدكتورعلى حبيبة (عضوين)

وقد قررت اللجنة منح السيد عبد الحليمعويس درجة الماجيستير فى التاريخ الاسلامى بتقدير جيد جدا

فخلال مائة وثلاثين سنة من السيطرة الفرنسية، حاول المستعمرون القضاء على الخصائص التاريخية للشخصية الجزائرية .. فحاربوا الجزائر في لغتها ودينها وتاريخها ... وحاولوا قطع الوشائج التي تربطها ببلدان المشرق والمغرب العربي ... وأسدلوا ستارا من الغموض والتشكيك حول الفترات التاريخية التي تألقت فيها الشخصية الجزائرية خلال العصر الاسلامي .

يقول الكاتب الجزائري الاستاذ بشير درويش :

«ان تراثنا في الجزائر حورب بعنف منذ عام 1930 م .. قصد طمس شخصيتنا الى الابد . وبالتالي .. توجيهنا الى حيث يريد الاستعمار الذي كانت عساكره تفتك بكل من يحاول بحث قضية التراث ، او التاريخ الحقيقي لبلادنا ، بينما مستشرقوه يعملون على نقل تراثنا الى مكتباتهم في الغرب ، ويدسون السموم الخفية في كل كتاب يحققونه ، او موضوع يبحثونه» (1) . ويضرب الكاتب امثلة من نماذج الجهل بالتراث الجزائري نتيجة السياسة الاستعمارية ، ومن بينها الجهل المطلق بابن حماد الصنهاجي مؤسس الدولة الحمادية – موضوع رسالتنا – .

ان التاريخ الجزائري الاسلامي لم يلق من الدارسين للتاريخ في مشرقنا العربي العناية التي نالتها مجالات اخرى من هذا التاريخ ، بعضها لم تعد صفحة تاريخية تمثل اكثر من كونها احدى صفحات تاريخنا – كالاندلس وجزر البحر الابيض المتوسط – بينما غمط التاريخ الاسلامي الجزائري الحي حقه ، على عظم الدور الذي يمكن ان يلعبه هذا التاريخ في حاضر الشعب الجزائري ، لا سيما وهو يجاهد في سبيل استرجاع شخصيته العربية الاسلامية ، وبالتالي ما يمكن ان يؤديه هذا التاريخ للامة العربية في كفاحها الاسلامي والعربي الحديث .

وقد أتيح لي ان أعايش الانسان الجزائري فوق ترابه عاما كاملا ، وأرى عن كثب معركته الخالدة في سبيل التعريب وفي سبيل العودة الى تاريخه الاسلامي والعربي ... وقدر لي ان اتولى تدريس مادة التاريخ لطلاب المرحلتين المتوسطة والثانوية ولمعلمي المرحلة الابتدائية « الممرنين » ...

وقد كانت كل هذه العوامل حافزا – وكان بعضها ممهدا – كي اسير في موضوعي هذا سيرا ارجو ان يكون اقرب ما يمكن الى الكمال .

* * *

كان رحيل المعز لدين الله الفاطمي الى مصر سنة 361 هـ ، واستخلافه بلكين بن زيري الصنهاجي واليا على المغرب الاوسط (الجزائر) وافريقية (تونس) ايذانا باستقلال البربر بحكم انفسهم لاول مرة – في العهد الاسلامي – وايذانا بسيادة صنهاجة – احدى القبائل البربرية الكبرى – على هذا الجزء الكبير من المغرب العربي ، ولم يمض نصف قرن حتى كان أحد ابناء بلكين (حماد بن بلكين بن زيري) ينفرد بمعظم ارض الجزائر الحديثة ، ويكون فيها دولة مستقلة يحكمها هو واولاده من بعده عرفت باسم الدولة الحمادية .

(1) مجلة المجاهد السياسي عدد 525 ، الصادر في 22 – 11 1970 مقال عن تراثنا بين الماضي والحاضر

.. وقد عاشت هذه الدولة ما يقرب من مائة واربعين سنة منذ نجح حماد فى اقتطاعها من دولة بنى زيرى وانتزاع اعترافهم بمملكته سنة 408 هـ ـ 1018 م ـ ، وقد برزت الدولة منذ عهد اميرها الخامس «الناصر بن علناس بن حماد» (454 ـ 481هـ) كدولة قوية متحضرة ذات علاقات خارجية متعددة وانشطة اقتصادية وعمرانية وفكرية واسعة ، وقد ساعدها على ذلك سياستها الاقرب الى الحكمة فى مواجهة زحف القبائل العربية سنة 442 هـ ، تلك التى اطلق سيولها الخليفة الفاطمى المستنصر (ابو تميم معد) ـ 427 ـ 487 هـ ـ فأغرقت حضارة بنى زيرى فى القيروان ، وكادت تبتلع الجزائر لولا حكمة الناصر الحمادى وخلفائه ... فكانت آثار الزحف الهلالى على الجزائر اقل بكثير من آثارها على تونس .

وقد بقيت دولة الحماديين قوية مرهوبة فى المغرب العربى على عهد الناصر والمنصور بن الناصر والعزيز بن المنصور ، حتى جاء آخر امرائها (يحيى بن العزيز الحمادى) ـ 515 ـ 547 هـ ـ فكان انصرافه عن شؤون الدولة وسياسته تجاه ابناء عمومته الزيريين وسلوكه الشخصى ابرز اسباب سقوط الدولة على يد الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على الموحدى سنة 547 هـ ـ 1152م .

* * *

لقد قسمت دراستى للدولة الحمادية الى تمهيد وثلاثة ابواب :

وفى التمهيد : عرضت لصورة العالم الاسلامى خلال عصر بروز الدولة، مركزا على الظواهر الكبرى التى مهدت لتفكك الخلافات الاسلامية الكبرى الى وحدات سياسية مستقلة ـ ثم تحدثت عن البربر ، ومواطن قبائلهم ، وخصائصهم . ثم اوجزت المرحلة التاريخية التى مرت بها الجزائر منذ الفتح الاسلامى ، الى ان وصلت الى الفترة التى اتيح للبربر فيها حكم انفسهم بقيام دولة بنى زيرى .

وفى الباب الاول درست مرحلة تأسيس الدولة وانشقاقها عن دولة بنى زيرى وقد اشتمل هذا الباب على فصلين :

الفصل الاول : وفيه درست المرحلة التاريخية التى قدم فيها حماد ـ مؤسس الدولة ـ خدمات كثيرة لبنى زيرى ، حتى ظفر بتنازل باديس بن المنصور ـ الامير الزيرى ـ عن حكم جزء كبير من ارض الجزائر الحالية . ثم درست مرحلة الصراع بينهما ـ حين تراجع باديس عن تنازله ـ حتى اعترف المعز بن باديس سنة 408 هـ باستقلال حماد ، داخل اطار بنى زيرى ، على الجزء نفسه ـ تقريبا ـ الذى كان باديس قد تنازل عنه .

وفى الفصل الثانى : درست الحدود الجغرافية للدولة فى مراحلها المختلفة ، وربطت ذلك بعواصم الدولة التى مثل كل منها مرحلة تاريخية وجغرافية ذات ملامح خاصة ، وهذه العواصم هى : اشير ، وقلعة بنى حماد ، وبجاية . وقد ختمت بتقييم لهذا الدور الاساسى بالنسبة للدولة ومؤسسها «حماد بن بلكين» .

أما الباب الثانى : فقد درست فيه « التاريخ السياسى للدولة » منذ استقل بها حماد ، الى حين

سقوطها سنة 547 هـ ـ 1152 م ـ على يد الموحدين . وقسمت هذا الباب الى ثلاثة فصول :

الفصل الاول : وفيه تحدثت عن الامراء التسعة الذين حكموا الدولة ، ضمن بحث مراحل التطور السياسى المختلفة للدولة ، بادئا بمرحلة الاستقلال المشوب بالاضطراب ، الى مرحلة الاستقرار النسبى ، ثم مرحلة وقوف الدولة على حافة السقوط .

وفى الفصل الثانى : تحدثت عن علاقات الدولة بالدول المعاصرة لها : كالزيريين والفاطميين والزناتيين وبنى خراسان والمرابطين والاندلسيين والمسيحيين فى ايطاليا .

وفى الفصل الثالث : درست سقوط الدولة ومعاركها مع الموحدين واستسلام آخر أمرائها وعوامل سقوط الدولة .

وفى الباب الثالث : درست حضارة الدولة ونظمها ، وقد انقسم هذا الباب الى فصول اربعة :

الفصل الاول : وفيه درست النظام السياسى والادارى والمالى للدولة .

الفصل الثانى : وقد درست فيه الحياة الاقتصادية للمجتمع الحمادى ، ومصادر الثروة ، والمستوى الاقتصادى للمجتمع والدولة .

الفصل الثالث : وقمت فيه بدراسة خصائص الحياة الاجتماعية للمجتمع الحمادي والظواهر الاجتماعية المختلفة .

الفصل الرابع : وقد افردت هذا الفصل لدراسة الحياة الثقافية للدولة ، فتناولت فيه مكونات الثقافة الحمادية ، ونظم التعليم ، والمذاهب الفقهية ، والنشاط العلمى فى مجالى العلوم النقلية والعقلية .

ثم ختمت هذا الباب بتلخيص لأثر الحماديين فى الحضارة الاسلامة والانسانية .

* * *

لقد واجهت فى سبيل اتمام هذا العمل مصاعب جمة اهمها قلة المادة العلمية الواضحة حول الموضوع ، وعدم توفر كثير من المراجع المهمة للبحث ، والخلط الكثير حول تاريخ الدولة ، وحدودها الجغرافية ، بالاضافة الى غموض الجانب الحضارى للدولة سواء فى الاقتصاد او الاجتماع او العلوم والفنون والآداب ، او نواحى الحياة الفكرية الاخرى ، وتشتت الشذرات القليلة المتعلقة بحضارة الدولة بين عشرات المصادر والمراجع وصعوبة الحصول على بعض المراجع التى لا بد من دراستها عند كتابة تاريخ وحضارة الدولة الحمادية .

على اننى لم آل جهدا ـ والحمد لله ـ فى محاولة تذليل هذه المصاعب ، بغية محاولة تقديم دراسة علمية متكاملة عن فترة من فترات تاريخنا الاسلامى فى بقعة عزيزة من ارض العروبة والاسلام ، ولقد اعانتنى على المضى فى الطريق وسائل عدة ابرزها :

اولا : قمت باستغلال وجودى فى الجزائر بقدر الطاقة ، بحيث تعرفت على ابرز المصادر والمراجع التى تهتم بالتاريخ الجزائرى الاسلامى ،

لا سيما الدولة الحمادية ، والاهم من ذلك ما افدته من تشرب وتمثل روح ومناخ التاريخ المغربى ، والانسان الجزائرى ، وهى عملية مهمة وضرورية فى الدراسات التاريخية – فى رأيى – .

ثانيا : تصفحت الكثير من الدوريات الادبية والفكرية الجزائرية ، وتابعت جهود المعاصرين منهم فى الدراسات التاريخية ، سواء تلك التى تظهر فى الصحافة او الكتب ، ولئن كان تركيز هذه الجهود واضحا على فترة الثورة الجزائرية ، الا انها لم تخل من بعض الفائدة فيما يتعلق بالدولة – موضوع دراستى ، كما يتضح فى ثنايا البحث .

ثالثا : اقمت علاقات صداقة مع كثير من اخوانى الجزائريين ، وكان لهؤلاء فضل امدادى ببعض المراجع ، ومتابعة ما يمكن ان يصدر عن الدولة فى الجزائر ، وقد حصلت بفضل الملحق الثقافى الجزائرى فى الكويت على « الكتالوجات » الاثرية التى حاولت البحث فى اطلال القلعة ، وفى بجاية القديمة ... وهما العاصمتان المهمتان للدولة الحمادية ، كما وضع تحت تصرفى كل ما يرد الى مكتبة السفارة من دوريات .

رابعا : بذلت ما استطيع من جهد فى سبيل التعرف على الدراسات الفرنسية فى التاريخ الجزائرى ، وقد حصلت – وفق علمى – على كل ما يهمنى ويفيدنى منها ، وعلى رأسها كتابات ماس لاترى MAS LATRIE وفرديناند جوتيه F. GAUTIER وجورج مارسيه GEORGE MARCAIS بالاضافة الى كتاب جنرال بايلى G.L. DE BEYLE عن نتائج رحلته الاثرية سنة 1908 م الى قلعة بنى حماد وهى تلك الدراسة الطيبة التى استلزم الحصول عليها جهدا كبيرا .

انى اعتقد – وذلك ايضا وفق علمى – ان هذه الدراسة التى اتقدم بها اليوم قد حاولت ان تبرز فترة حية من تاريخ الجزائر العربية المسلمة كانت مغمورة وتائهة ومبعثرة وسط كتب الحوليات والتاريخ العام والرحلات والجغرافيا وغيرها . وقد جنى عليها الاهمال المتعمد ، والحماس الاجوف ، وكلاهما – كما نعلم – لا يتفق وموضوعية المنهج العلمى .

ولقد حاولت هذه الدراسة – فى رأيى – ان تضع الدولة الحمادية فى مكانها الصحيح من التاريخ المغربى والجزائرى ، وقيمت الدولة تقييما صحيحا خاليا من الغلو ، ومن الاجحاف .

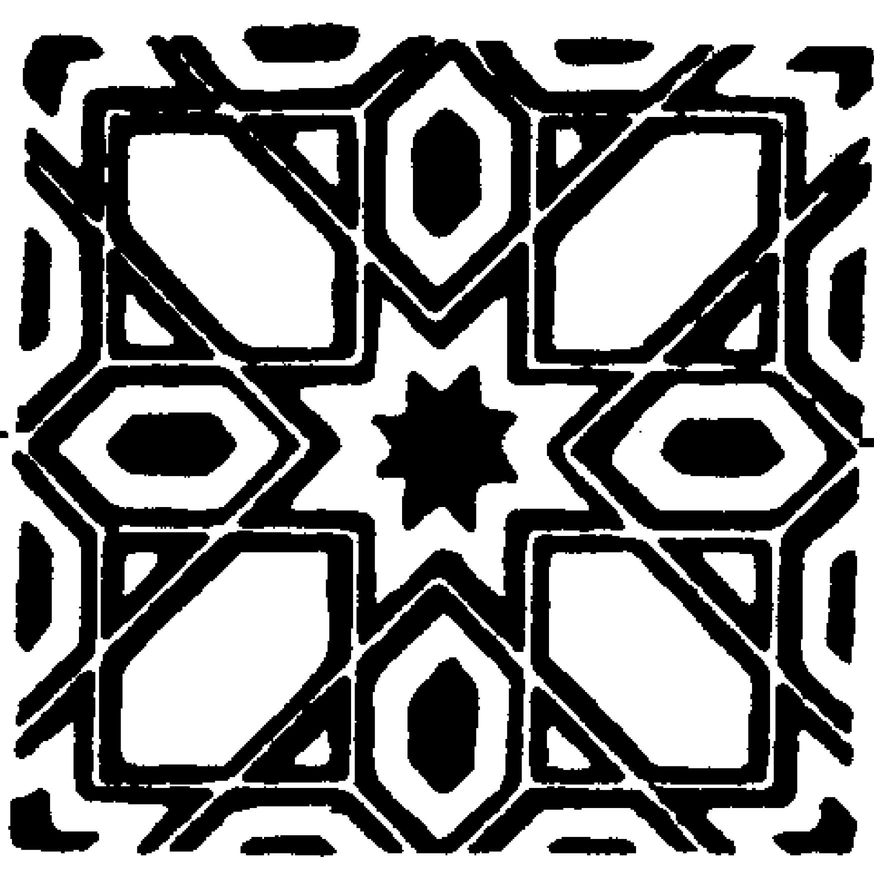
ولقد صححت الدراسة الاخطاء التاريخية المتباينة حول الدولة ، وحول ملوكها ، وحول سياستها الخارجية ، ومكانتها فى المغرب العربى .

ولعل من ابرز الجديد الذى قدمته هذه الدراسة عن هذه الفترة من تاريخ الجزائر ، هو دراسة جوانب الحياة فى الدولة من سياسة واقتصاد وعقائد وافكار وعلوم وفنون وآداب ، مما لم يكن قد حظى بعد بشىء من الجهد ، واوجبت دراسته الرجوع الى كتب الجغرافيين والرحالة والموسوعات الادبية والاعلام والطبقات والمذاهب وغيرها .





صورة تمثل الوافدين الجدد من شذاذ الآفاق المعروفين باسم المعمرين



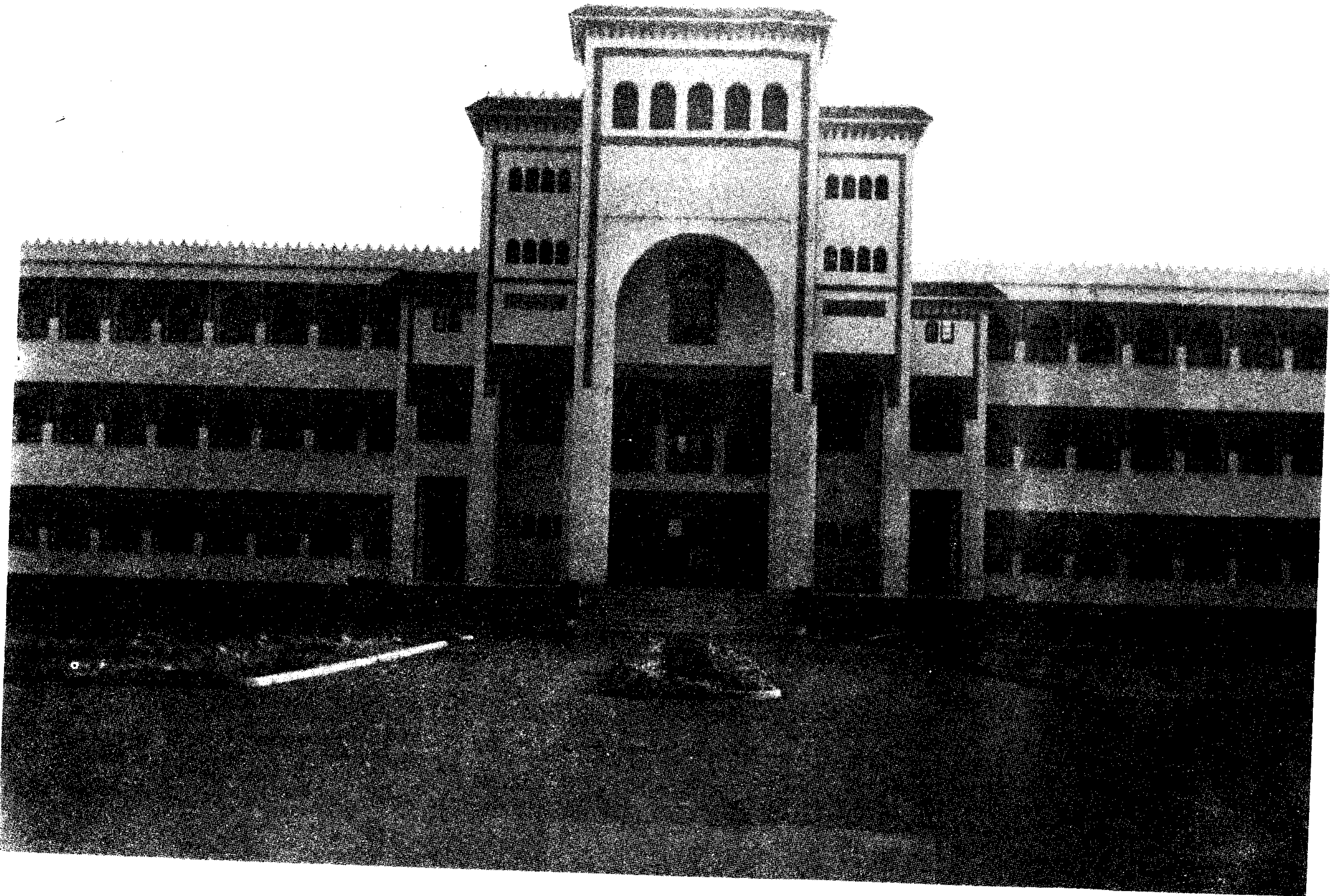
تدشين الرئيس هوارى بومدين لثانويـة محمـد بن عثمـان الكبير في وهـــران

فى تمام الساعة الواحدة زوالا من يوم السبت 15 جمادى الاولى 1393 هـ الموافق لـ 16 يونيـو 1973 م ، وصل الى الثانوية فخامة الرئيس هوارى بومدين رفقة السادة مولود قاسم ، وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية . والعربى الطيبى ، وزير الفلاحة والاصلاح الزراعى ، وأحمد مدغرى ، وزير الداخلية ، وبلعيد عبد السلام ، وزير الصناعـة والطاقة ، والدكتور أحمد طالب الابراهيمى ، وزير الاعلام والثقافة . وعبد العزيز معاوى ، وزيـــر السياحة ، وعبد القادر زايبك ، وزير الأشغـــال العمومية والبناء، والسلطات المحلية، المدنية منها، والدينية ، والعسكرية . حيث كان فى استقبالـه عند مدخل الثانوية ، الأمين العام للوزارة الأستاذ عبد المجيد الشريف ، والشيـخ الزبـير ، مفتش الشؤون الدينية فى الولاية ، والأستاذ عبد القادر الأطرش ، مدير الثانوية . وبعد السلام عليـه ، قدمت للسيد الرئيس باقة من الزهور وبعدهـا قطع شريط الافتتاح ، ثم أزاح لافتـــة اللوحـــة التذكارية ، ودخل الى الثانوية ، فحيا المساعدين التربويين حيث كانوا مجتمعين فى المراقبة العامة ، ثم دخل الى قسم الدراسة للبنين للسنة الرابعة ، فوقف يستمع للدرس بعض الدقائق والأستـاذ يلقى أسئلة على طلبته فى الرياضيات . وبعد ذلك، دخل أيضا الى قسم البنات للسنة الثالثة ، فألقى اسئلة تتعلق بالدرس نفسه ـ دراسة نصوص ـ موضوع كفاح الأمير عبد القادر ، ثم صعد رفقـة ضيوفه الى القسم الداخلى وخلال الصعود سـأل مدير الثانوية عن عدد الأساتذة وتكاليف بنـــاء الثانوية وتجهيزها . ثم غادر الثانوية مع مرافقيه وعند الباب صافح الرئيس مدير الثانوية والأمين العام للوزارة والمفتش الجهوى لولاية وهران .

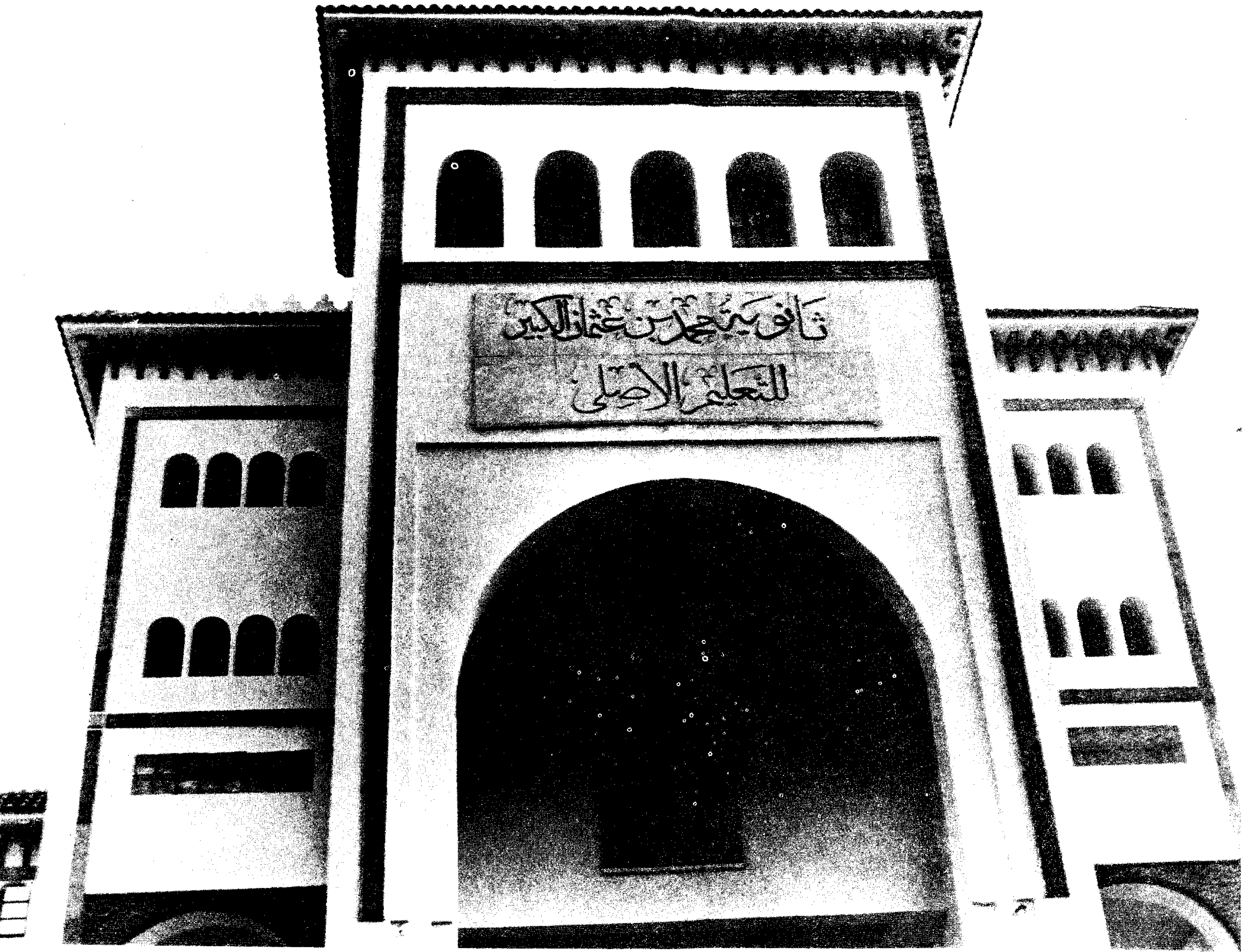


الرئيس بومدين يقطع شريط التدشين

الرئيس عند الوصول الى الثانوية



ثانوية محمد بن عثمان الكبير
للتعليم الاصلي بوهران



الرخامة المكتوب عليها اسم الثانوية

بطـــاقـــة فنيـــة وماليـــة

ثانوية محمد بن عثمان الكبير للتعليم الاصلي بوهران
وتشتمل هذه الثانوية على المرافق التالية :
السعة الاجمالية 1300 تلميذا منهم 400 داخليين
عدد الاقسام 28
مخبرين 2 واحد منهما متعدد الاستعمالات
قاعة المحاضرات سعتها 500 تلميذا
مطعم 400 وجبـــة دفعـــة واحـــدة
مطبـــخ 800 طبـــق لكـــل وجبـــة
عيادة تمريض 8 اسرة

التكـــاليف

البناء الاجمالى	3.509.059،28
التدفئـــة المركزيـــة (مسخنات)	693.516،00
مطبخ ، مغسل ، مخزن البياضات	406.114،00
التجهيز المدرسى	188.098.80
تجهيز المطعم	24.220،00
تجهيز المنامات	255.465،00
التجهيز الادارى ، العلمى ، عيادة التمريض وقاعة المحاضرات	280.000،00

تجهيزات مختلفـــة

ادوات المخابر وقاعة المحاضرات	200 000،00
كهرباء ، غـــاز وميـــاه	110.000،00

المجموع د . ج 5.666.473،08

توصيات مؤتمر المراكز والهيات الثقافيــة الاســـلامية في أوروبا

كنا نشرنا في العدد الماضي من «الاصالة» نص المحاضرة التي القاها السيد مولود قاسم وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية في مؤتمر المراكز والهيئات الثقافية الاسلامية في اوربا الذي انعقد في لندن ، فيما بين ١٤ ـ ١٦ ربيع ثاني ١٣٩٣ هـ الموافق ١٧ ـ ١٩ مايو ١٩٧٣ م.

وفيما يلي ننشر نص التوصيات التي صادق عليها المؤتمر .

عقد مؤتمر المراكز والهيئات الثقافية الاسلامية فى اوربا ، عملا بالقرارين اللذين اتخذا فى مؤتمرى جدة وبنغازى لوزراء خاريجية الدول الاسلامية ، فى فندق بيكاديلى فى لندن فى الفترة ١٧ ـ ١٩ مايو ايار / ١٩٧٣ وقد انتخب سعادة الشيخ عبد الرحمن الحليسى رئيسا للمؤتمر ، والسيد سالم عزام سكرتيرا والدكتور سيد باشا مقررا ٠

القى سعادة الشيخ عبد الرحمن الحليسى ، سفير المملكة العربية السعودية كلمة الترحيب ثم القى صاحب السموتنكو عبد الرحمن الامين العام للامانة الدائمة للمؤتمر الاسلامى كلمة الافتتاح وقد كان موضوع المؤتمر ، «الدعوة الاسلامية ومشكلاتها ومستقبلها فى اوربا» وقد اشترك فى المؤتمر مندوبون يمثلون اربعة وعشرين مركزا ومنظمة ثقافية اسلامية تعمل فى اوروبا وتضمن المؤتمر كلمات لكل من سعادة السيد مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى الجزائر والاستاذ داود كاوون الاستاذ فى جامعة لندن ومعالى الشيخ حسين سراج المدير العام لرابطة العالم الاسلامى فى مكة والسيد محمد اسد الكاتب الاسلامى المعروف والاستاذ د٠ ليثم الاستاذ فى جامعة مانشستر محمد الجيوشى امام المركز الثقافى الاسلامى فى لندن والسيد خورشيد احمد المدير العام للمؤسسة الاسلامية فى انجلترا والدكتور مجاهد الصواف المحاضر فى جامعة الملك عبد العزيز فى جدة ٠

جرى اجتماعان للجلسة الموسعة وعدة اجتماعات لمجموعتى العمل اللتين بحثتا مشكلات التنظيم فى المستقبل والمواد الاربعة الرئيسية المدرجة فى جدول الاعمال وهى ، نشر الاسلام ، والخدمات الاجتماعية ، والتعليم الاسلامى ، والمالية ٠ وقد ترأس المجموعتين الدكتور يعقوب زكى المحاضر فى جامعة لانكستر والدكتور عبد الرؤوف مدير المركز الاسلامى فى واشنطن ٠

قرر المؤتمر تشكيل المجلس الاسلامى الاوربى ليعمل كهيئة تنسيق بين المراكز والمنظمات الاسلامية العاملة فى اوروبا وسوف يقوم المجلس الاسلامى الاوروبى بمساعدة وتأييد واكمال النشاطات التى تقوم بها المنظمات الاعضاء كما تقوم على المستوى الاوروبى والمستوى المحلى بالنشاطات الضرورية لتقوية العمل الاسلامى فى اوروبا ويقوم بانشاء المراكز ومكاتب البحث وكليات التدريب وما الى ذلك كما يسعى المجلس لانشاء صناديق خيرية للاستثمار من اجل استقرار القاعدة المالية للمنظمات الاسلامية فى اوروبا ٠

وقد اقترح ان يشكل المجلس لجنة تنفيذية وما يلزم من مؤسسات واقسام لتنفيذ برنامجه ويتخذ المجلس مقره فى لندن ٠

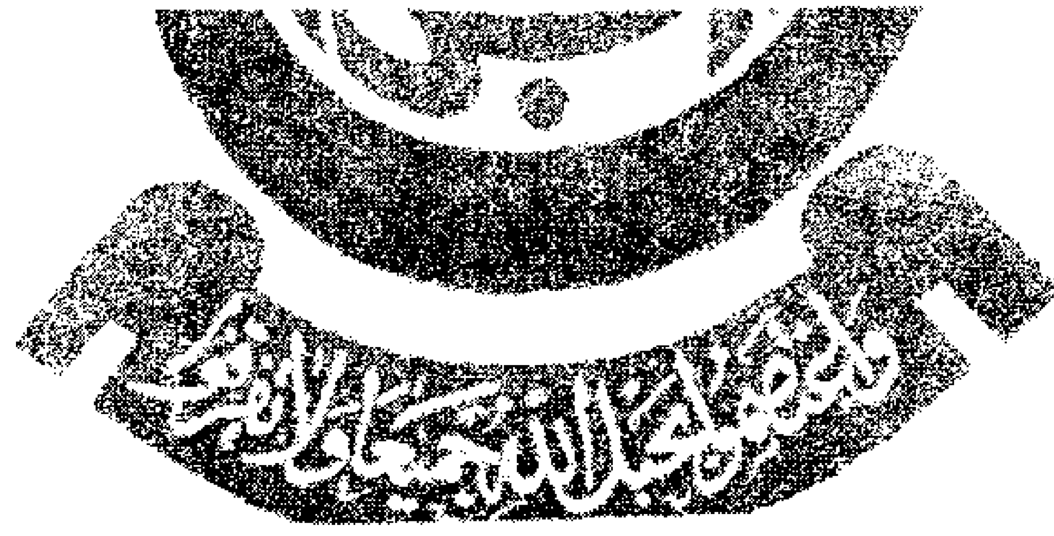
للمجلس ثلاث هيئات ، الهيئة العامة واللجنة التنفيذية ، والامين العام ٠ وقد تألفت الهيئة العامة الاولى من ممثل واحد عن كل من المنظمات المشتركة وانتخبت الهيئة العامة الامين العام واللجنة التنفيذية الاولى وستقوم اللجنة التنفيذية بما يلى :

أ ـ وضع مشروع دستور المجلس ٠

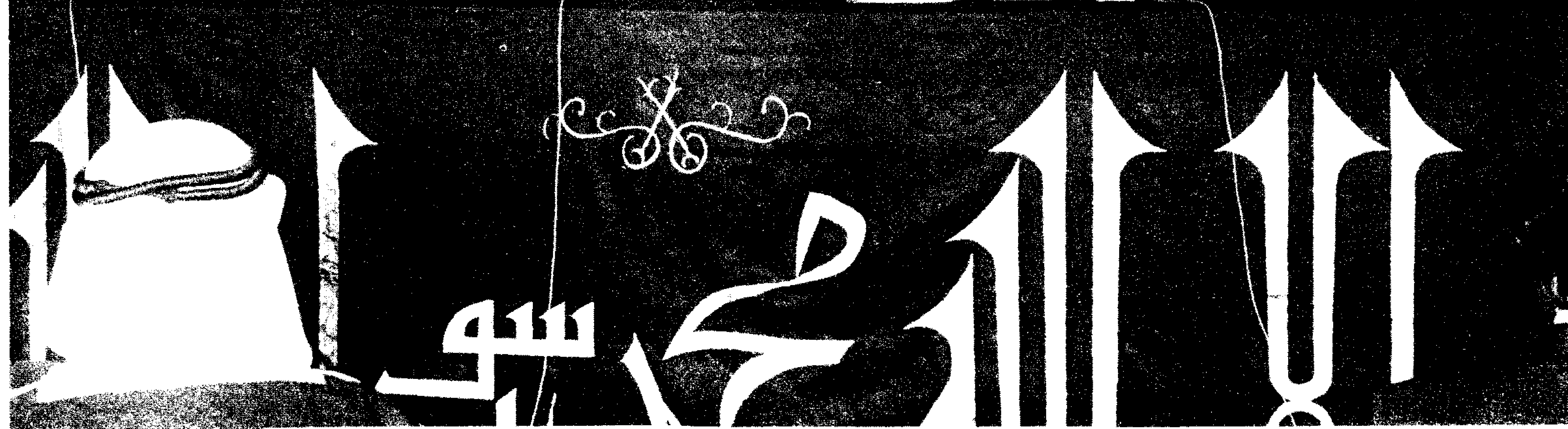
ب ـ تعمل كلجنة تنفيذية مؤقتة ٠

جـ ـ تجمع المعلومات عن الجاليات الاسلامية فى اوربا وتدققها ٠

د ـ تتصل بالمنظمات الاسلامية الحقة الاخرى وتدعوها للانضمام الى هذا المجلس ٠







يرى من اليمين الى اليسار السادة :
سالم عزام امين عام المجلس الاسلامي الاوروبي ، مولود قاسم ، وهو يلقي كلمته ، عبد الرحمن الحليسي ، سفير المملكة العربية السعودية بلندن ، طانكو عبد الرحمن بترا ، امين عام المؤتمر الاسلامي ، الدكتور لبنام استاذ التاريخ بجامعة مانشيستر (بريطانيا) (وكان شارك في الملتقى السادس في الجزائر)

تقوم هذه اللجنة كذلك بمهمة الاتصال بالامانة الدائمة للمؤتمر الاسلامى والدول الاعضاء فى مؤتمر وزراء الخارجية للدول الاسلامية ·

وقد تقرر تنظيم مؤتمرثان فى غضون العامين القادمين ·

تم انتخاب الاشخاص التالية اسماؤهم ادناه ·

الامين العام ، السيد سالم عزام ، لندن ·

اللجنة التنفيذية :

٠١ الحاج حمدى يوسفبهيج ، يوغسلافيا
٠٢ السيد محمد العلوينى ، بلجيكا
٠٣ السيد يحيى زكريا سن ، الدانمارك
٠٤ السيد غالب همت ، المانيا الغربية ·
٠٥ السيد خورشيد احمد ، المملكة المتحدة
٠٦ السيد ابراهيمسا محمد ، المملكة المتحدة
٠٧ السيدة ليلى الدروبى ، المملكة المتحدة

مجموعة العمل رقم ١

تقرير لجنة العمل التى درست موضوع نشر الاسلام والمساعدات الاجتماعية والخيرية ·

بعد دراسة دقيقة لورقة العمل الثانية، مع الاهتمام الخاص بموضوعات نشر الاسلام والمعونات الاجتماعية والخيرية ، فان اللجنة تدعم الجزء الخاص بالدعوة مع التعديلات والاضافات التالية·

المراكز الاسلامية · مجال نشاطاتها

كان هنالك تأكيد على ضرورة اعادة صياغة الفقرة الاخيرة فى هذا الجزء من اجل ايضاح ان نقطتى (أ) و (ج) لا يمكن ان تتحققا ما لم يوفر لهما ما يكفى من الموظفين والاموال · ويقسم موظفو المراكز الى مجموعتين · (١) اداريون ، (٢) باحثون ·

اقترحت الاضافات التالية ·

٠١ ان يعدل التصميم المعمارى للمراكز المقترح بناؤها او التى يجرى بناؤها ، بحيث تضم تسهيلات لتنفيذ ما ورد فى نقطتى (أ) و (ج) ·

٠٢ ان يتم وضع نظام اولوية حتى تتحقق تهيئة هذه الجوانب المعمارية على مراحل ·

٠٣ تسايرا مع نشاط الدعوة واملا فى عدم انصراف الشباب المسلم عن دينه يراعى توفير مساحة فى التصميم المندسى لاقامة نواد ومطاعم فى ابنية المراكز ·

نشر الاسلام :

قررت اللجنة ما يلى :

٠١ لابد من تقسيم جهودنا الى قسمين ·

أ ـ من اجل المسلمين ·

ب ـ من اجل غير المسلمين ·

٠٢ يجب ان يكون الهدف الاول لتنظيم تحقيق الوحدة بين قطاعات الجالية الاسلامية ·

٠٣ لابد من النظر الدقيق فى موضوع تحيز الاشخاص ، ويجب اختيار ذوى الاهلية من اجل القيام باعمال المراكز الثقافية الاسلامية المختلفة·

٠٤ يجب تشجيع النساء على المشاركة فى اعمال المراكز ، كما يجب اعطاء النساء غير المسلمات اللواتى يتزوجن من رجال مسلمين دورة تعرفهن بالاسلام ، على ان يتم ذلك قبل عقد الزواج · اذ ان هذه الدورة التعريفية تساعد فى حل المشكلات البيتية المختلفة التى يمكن ان تطرأ اذا لم تكن الزوجة على علم كاف بدين زوجها ·

٠٥ تشكل معاهد بحث للقيام بدراسات عن الاسلام واصدار كتب عن رد الفعل الاجتماعى

والخلقى لدى المهاجرين المسلمين ازاء مجتمعهم الجـديد ٠

٠٦ على الامانـة ان تمارس ضغطا على الحكومات الاوربية كى تعطى للاسلام نفس المكانة المعطاة للديانات الاخرى المعترف بها ، خصوصا فى حالة المانيا التى لا بـد فيهـا مـن الاعتراف الرسمى بالدين للحصول على منحة مـن الدولة ٠ كما ان هناك بلدانا لا يعترف قانونها بكون المرء مسلما (مثل جمهورية ايرلندا) ٠

٠٧ يجب ان تنصرف الدعوة بالدرجة الاولى الى الناشئة من ابناء الجالية ، اذ عليها يتوقف مستقبل الاسلام فى اوربا ٠ ويجب ايجاد بيئـة وتسهيلات للناشئة من اجل مساعدتهم فى النشء كمسلمين صالحين ٠ فان الصغـار مـن ابنائنا سيكونون دعامـة لا لجاليتنـا فحسب ، وانمـا للمجتمع عامة ، وذلك اذا ما كانوا مسلمين حقا يتحلون بسلوك خلقى مثالى ٠

٠٨ على المنظمة ان تسعى لاستخدام وسائل الاعلام ، كالتلفزيون والاذاعة من اجـل عـرض وجهة نظر الاسلام، مثلما يفعل المبشرون النصارى فى اذاعـتى لوكسمبرج ومونـاكو ٠ وتستطيع الامانة ان تبتـاع فترات فى الاذاعـة لا يضـاح وشرح وجهة النظر الاسلامية ٠

٠٩ يجب ان تكون النشرات على مستويات مختلفـة مثـل ٠

أ ــ مستـوى علمي ينـاسب الدارسين والطلاب ٠

ب ــ شعبى يناسب عامة الناس ٠

جـ ــ قسم منها يركز على الامور التـى تهم النساء فى نشرات معدة لهن ٠

د ــ نشرات اخرى سهلة القراءة للاطفال

٠١٠ جهاز لرصد ما يذاع وينشر فى الاذاعة والصحافة والتلفزيون ، وذلك لمقـاومـة الاراء المعادية للاسـلام ٠

٠١١ على الحكومات الاسلامية ان ترسل عددا اكبر من الائمة مـن الشرق ، من اجـل العمـال الزائرين (المانيا) والمهاجرين (بريطانيا)

٠١٢ تبادل زيارات الشباب والطلاب المسلمين بين اوربا والدول الاسلامية على شكل مخيمات للشباب وزيارات للعائلات الاسلامية على أساس متبادل ، مثال ، تنظيم المـدن فى تـوائم بين كـل دولتين او اكثر من الدول التى يقطنها المسلمون ٠

٠١٣ نجم عن بعض فقرات ورقة العمل بعض تشوش فكرى ، وقد اقترح استخدام المصطلحات الاسلامية بـدلا مـن العبارات الاجنبية ، مثـال (ص٥) فقرة ٣ ، كان من الممكـن ان يكون المعنى اوضح لو ان الكاتب قد ذكر ان الايمان سابق على العبادة ، وان الاحسان ينبثق من ارتباطهما معا ٠

وقد اقترحت التعديلات التالية ٠

١ ــ ص (٣) ، سطر ٤ ــ ٥ من اسفـل الصفحة ٠

«التدبر كوسيلـة للتلطيف الـروحى التصوف ٠٠٠ «تعدل على الشكل التالى» التدبـر كوسيلة لتحقيـق الـرقى الروحي ضمـن اطـار التصوف هو ٠٠٠ »

٢ ــ ص (٤) ، فقرة ٢ ، تحذف عبـارة «دون رسميات ارتياد اماكن العبادة» ٠

٣ ــ ص (٥) فقـرة ٣ ، تقـرأ كلمـة MATERIALISTIC فى النص الانكليزى MATERIAL

١٤· على المسلمين ان يتحولوا من اسلوب الدفاع الى الهجوم ، وهذا لا يمكن الا بدراسة الكيان العقيدى للاديان المتنافسة بدلا من قصر اسلوب العمل على الرد على الهجوم على الاسلام· وقد اقترح ان من المفيد دراسة الاساليب المتقدمة التى يستخدمها النصارى فى الغرب كاليسوعيين·

١٥· لقد ذكر ان اعتناق غير المسلمين الاسلام على نطاق واسع سوف يؤثر فى موقف المهزوزين من المسلمين ·

لا تؤيد اللجنة الجزء الخاص بالمساعدات الاجتماعية والخيرية نظرا لانه لم يعالج معالجة كافية نواحى اجتماعية رئيسية مثل ·

١ – الزيجات المختلطة ·

٢ – تعليم ابناء الزيجات المختلطة ·

٣ – المسائل القانونية الخاصة بتشريح الجثث ودفن الموتى ·

تقترح اللجنة تشكيل لجنة قانونية فرعية تقوم بدراسة هذه المشكلات والمشكلات المتصلة بها دراسة متعمقة ، وان يعمم تقريرها على سائر البلدان ·

تقرر اللجنة ما يلى :

١) تقام مراكز طبية من اجل الجالية الاسلامية فى المناطق التى لا تتوفر فيها هذه الخدمات · (وتبدى اللجنة تقديرها فى هذا الصدد عرض دكتور برولا ممثل المركز الثقافى الاسلامى فى روما تقديم قطعة من الارض فى نابولى ليقام فيها مستشفى للمسلمين ، وتأمل اللجنة ان تبدأ الامانة تفاوضها مع دكتور بانديلا بشأن الموضوع) ·

٢) استخدام الطلبة المسلمين للمساهمة فى مختلف الوان نشاط المركز اثناء العطلة الدراسية·

٣) ايجاد ·

أ – «بيت مال» فى كل اقليم ، تجمع فيه الاموال اللازمة لسائر الوان النشاط الاجتماعية والخيرية للجماعة المسلمة ·

ب – مركز للاحصاء – يستخدم فيه الدماغ الالكترونى ان امكن ذلك ، تحفظ فيه الاحصاتيات المتعلقة بعدد المسلمين ، والمحاضرين والمندوبين والمطبوعات · ويمكن ان يتم تبادل هذه المعلومات الاحصائية بين المراكز الاسلامية ·

ج – مياتم ودور للعجزة ·

د – قوائم بالاسر الاسلامية المستعدة لاعالة اطفال مسلمين ·

هـ – مجالات لتأهيل السجناء السابقين ·

و – هيئات اسلامية تختص بزيارة المستشفيات والسجون ·

ز – صندوق للعائلات التى فقدت معيليها (الارامل ، الايتام والمطلقات اللائى تعجز المحاكم عن تحصيل نفقاتهن او الزام الجهات المعنية بالانفاق عليهن) ·

ح – كتاب اسلامى ينشر سنويا ويضمن دليلا تجاريا (مثل ، عناوين الجزارين المسلمين والمتاجر والاعمال التى يقوم عليها المسلمون) وتفصيلا كاملا لسائر ما يتعلق بهذه الامور ·

ط – مكتب مهنى يضم مستشارين مختصين لتقديم المشورة للشباب المسلم بشأن الدورات التى تنظمها الجامعات والكليات وبشأن التدريب المهنى بصورة عامة ·

ى ـ فنادق على نمط بيوت الشباب للطلبة المسلمين القادمين من بلاد بعيدة ٠

ك ـ قوائم بالعائلات الاسلامية المستعدة لاستضافة الطلبة المسلمين الزائرين ٠

ل ـ مكتب زواج ، يهتم على وجه الخصوص بالذين يعتنقون الاسلام ويواجهون صعوبة فى الزواج بسبب النزعة القبلية التى ما تزال تسيطر على العائلات الاسلامية ٠

م ـ سبل لتقديم الطعام المحلل للسجناء ولنزلاء المستشفيات ، وتشريع يسمح بوصول الهدايا للسجناء المسلمين فى الاعياد الاسلامية (وذلك فى البلاد التى لا يوجد فيها مثل هذا التشريع) ٠

ن ـ فرع ملحق بالمركز يضم اختصاصيين بالخدمة الاجتماعية لتقديم النصح للمهاجرين فيما يتعلق بالفوائد التى يحق لهم الحصول عليها٠ يعهد الى اللجنة القانونية الفرعية امر القرار فى القضايا التالية وما يماثلها ٠

آ ـ تعليم الاطفال ثمرة الزيجات المختلطة والزيجات الفاشلة ٠

ب ـ منع تشريح جثث موتى المسلمين كلما امكن الامر ٠

ج ـ وضع نصوص تحول دون دفن الموتى المعوزين من المسلمين فى المقابر التى تخصصها الدول الاوروبية للمعدمين ، كما تحول دون احراق جثث المسلمين خلافا للشريعة الاسلامية ، وتضمن دفن المسلمين طبقا للتعاليم الاسلامية فى مقابر خاصة بالمسلمين فى هذه البلاد او نقلهم الى البلدان الاسلامية ٠

د ـ الحصول على اذن من السلطات يسمح بالدفن الفورى ٠

ولقد شعرت اللجنة ان الضرورة تدعو الى الجد فى عدم تشجيع قيام الزيجات المختلطة، وخاصة فى الحالات المتعلقة بالبلدان التى لا تضم سوى اقليات صغيرة من المسلمين ٠

وتأمل اللجنة من الامانة ان تعيد النظر فى هذا القسم من ورقة العمل فى ضوء المقترحات المقدمة ٠

وقبل ان تنهى هذه اللجنة تقريرها تود ان تقترح على المؤتمر تقديم الشكر لهيئة الترجمة وقسم هندسة الصوت الذين كان لتعاونهما وادائهما على افضل وجه اثر كبير فى حسن سير اعمال المؤتمر ٠

مجموعة العمل رقم ٢ قرار رقم ١

اجمعت مجموعة العمل رقم ٢ على التوصية بما يلى :

١) تشكيل مجلس اسلامى لاوربا يعمل كهيئة تنسيق بين المراكز والهيئات الاسلامية العاملة فى اوربا ٠

الاهـداف

٢) الغرض من المجلس

آ ـ مساعدة ودعم وتأييد النشاطات التى تقوم بها المنظمات الاعضاء فى مختلف مجالات الدعوة بما فى ذلك اقامة المساجد والمراكز الثقافية الاسلامية ، نشر الاسلام ، اصدار وتوزيع المطبوعات الاسلامية ، تشجيع التعليم الاسلامى ، أداء واجبات اسلامية اخرى ٠

ب ـ وضع الترتيبات الضرورية لانشاء مراكز اسلامية جديدة فى الاماكن التى لا يوجد فيها مثل هذه المراكز ٠

جـ ـ القيام بهذه النشاطات على الصعيدين الاوروبى والاقليمى وتشجيع ما يشد ازر المراكز والمنظمات الاسلامية ، مثل انشاء مكتبات ومراكز اعلام وتوثيق مركزية واقليمية ومكاتب بحث وكليات لتدريب المبلغين والمدرسين وموظفى الاعلام المسلمين ٠٠ الخ ٠٠

د ـ العمل تدريجيا على انشاء اجهزة من اجل تحقيق قدر اكبر من التنسيق والتماثل فى النشاطات التى تقوم بها المنظمات الاعضاء للحصول على افضل مردود واتخاذ الترتيبات اللازمة لتحقيق تناسق اكبر فى تخطيط العمل الاسلامى على الصعيدين المركزى والمحلى ٠

هـ ـ جمع واستثمار الاموال وترتيب توزيعها بين المراكز والمنظمات الاسلامية ، وايجاد مؤسسات استثمار خيرية مستقلة لهذا الغرض ، حتى يمكن استثمار الاموال على اساس تجارى من اجل ضمان اكبر قدر ممكن من العائدات ، وليكون الوضع المالى قائما على اسس سليمة مستقرة ٠

٣) يسعى المجلس لكي يوجد على المستوى الاوربى امانة تنفيذية ووحدة اعلام وبحث ، وصندوقا خيريا للاستثمار ، وما يلزم من ادارات ضرورية لتنفيذ برنامجه ٠ اما على الصعيدين الوطنى والمحلى فان المجلس يعمل عن طريق المنظمات الاعضاء ٠

الشكل التنظيمى

٤) آ ـ تعتبر المراكز والمنظمات المشتركة فى هذا المؤتمر الاعضاء المؤسسين للمجلس ٠ كما تكون عضويته مفتوحة لبقية المنظمات الاسلامية الحقة فى اوربا ٠

ب ـ تتكون الهيئة العمومية الاولى للمجلس من ممثل واحد عن كل من المنظمات الاعضاء ٠

جـ ـ تشكل لجنة عمل تعتبر الهيئة الرئيسية التى تضع سياسة المجلس وتنفذها ٠ وتتألف هذه اللجنة من سبعة اعضاء تنتخبهم الهيئة العمومية ٠ اما بالنسبة لتمثيل الاعضاء فى هذه اللجنة فيوصى بان ينص دستور المجلس على تقسيم الدول الاوروبية المختلفة الى عدد من الاقاليم ، وان يكون تمثيل كل اقليم فى لجنة العمل بعضو واحد على الاقل وثلاثة على الاكثر٠

د ـ يجب مع هذا بذل جهود من اجل زيادة التنسيق بين المراكز والمنظمات فى كل دولة ، من اجل تحقيق قدر اكبر من الوحدة بينها ٠

هـ ـ ينتخب المجلس كذلك امينا عاما ليساعد لجنة العمل فى تنفيذ سياستها وبرامجها ٠

٥) آ ـ ينتخب هذا المؤتمر لجنة العمل الاولى والامين العام ، وتتولى لجنة العمل ٠

٠١ اعداد مشروع دستور ولائحة بانظمة وقواعد المجلس الاسلامى الاوروبى ٠

٠٢ تعمل بصفة لجنة تنفيذية مؤقتة ٠

٠٣ تجمع احصائيات ومعلومات عن الجاليات الاسلامية ونشاطاتها المختلفة فى اوربا، وتقارن بينها ٠

٠٤ تتصل بالمنظمات الاسلامية الحقة الاخرى وتدعوها للانضمام الى هذا المجلس ٠

ب ـ تقوم هذه اللجنة كذلك بمهمة الاتصال بالامانة العامة الاسلامية وبالدول الاعضاء فى المؤتمر التى تبدى استعدادها لتقديم العون للعمل الاسلامى فى اوربا ٠

جـ ـ تكون اللجنة على اتصال بالمنظمات التى تقوم باعمال مماثلة فى انحاء اخرى من العالم ·

٦) يكون المجلس على استعداد لان يهيىء للامانة العامة الاسلامية وللدول التى تقدم المساعدات تمثيلا ملائما فى لجانه المختلفة حتى يمكنهما من الاشتراك فى نشاطات المجلس ·

٧) يكون مقر المجلس فى لندن ·

٨) ينظم مؤتمرثان للمنظمات الاعضاء فى غضون العامين القادمين ·

القرار رقم ٢ التعليم الاسلامى والشؤون المالية

ناقشت اللجنة المقترحات التى تضمنتها ورقة العمل الثانية بشأن التعليم الاسلامى والشؤون المالية · وبعد نقاش مثير حول الجوانب المختلفة لهاتين المشكلتين المتشعبتين ، يسر اللجنة ان تقدم التوصيات التالية ·

١) على لجنة العمل التابعة للمجلس الاسلامى ان تشكل لجنة من الخبراء تتولى القيام بما يلى·

أ ـ دعوة كل منظمة عضو الى تقديم تقرير يتضمن حاجاتها وامكانياتها التعليمية · ويمكن ان تؤخذ من هذه التقارير المعلومات الضرورية اللازمة فى وضع خطط العمل للمستقبل ·

ب ـ دراسة المناهج والكتب الدراسية التى تستخدمها المنظمات المختلفة فى الوقت الحاضر للتعليم الاسلامى فى اوربا ، ووضع منهج مشترك للتعليم على مختلف المستويات والتوصية باتباعه

ج ـ اعداد توصيات وبرامج لتدريب هؤلاء المدرسين بحيث يتم اعداد المجموعة المناسبة من المدرسين الاسلاميين ·

٢) العمل ـ حيثما امكنت الظروف ـ على اقامة مدارس داخلية اسلامية خاصة وغير ذلك من المعاهد التعليمية · ويجب أن تدرس فى هذه المدارس سائر المواد على ان يتم التاكيد بصورة خاصة على الصبغة الاسلامية فى التعليم · ويجب ان يكون الاسلام والعربية موضع التركيز بين سائر المواد التعليمية ويجب ان تفتح هذه المدارس ابوابها للجميع من مسلمين وغيرهم ·

٣) تجب اقامة وحدات للابحاث فى كبريات المدن فى العالم الغربى على ان تكون مهمتها الاولى تصحيح الجهود المبذولة للتشويه والافتراء على الاسلام وعلى النبى (عليه السلام) وعلى القرآن وعلى المسلمين ، وتقديم الصورة الاسلامية الصحيحة ·

٤) يجب ان يتم تحرى امكانيات تنظيم مؤتمر خاص بالتعليم الاسلامى ·

٥) يجب ان يتم تنظيم الشؤون المالية للمراكز الثقافية والمنظمات الاسلامية على اسس سليمة· اذ يتم السعى من جهة لتنشيط المصادر المالية المحلية لهذه المراكز والمنظمات بحيث تحاول تحقيق التمويل الذاتى ومن جهة اخرى يجب اقناع البلدان الاسلامية بمساعدة العمل الاسلامى فى اوروبا على اساس اكثر تنظيما ورسوخا · وعلى المجلس الاسلامى الاوربى ان يتصل بمختلف البلدان التى وقعت على قرار مؤتمر بنغازى لتقديم عونها الكامل لالوان النشاط الاسلامى المذكورة ·

٦) يجب ان تبذل الجهود اللازمة لتنفيذ المقترحات العملية الاخرى التى وردت فى ورقة العمل فى النواحى التعليمية والمالية ·

دور المؤرخين المغاربة

نظمت الجمعية التونسية للتاريخ والآثار ندوة حول تاريخ المغرب العربي وشاركت فيها نخبة من المؤرخين التونسيين وحضر عن الجزائر السيد عثمان شبوب .

وهنا نص الكلمة التي القاها رئيس الجمعية الدكتور الحبيب الجنحاني :

يسرني باسم الجمعية التونسية للتاريخ والآثار أن أحييكم ، وأرحب بكم في هذا الملتقى عن «تاريخ المغرب العربي» الذى ينظم بالتعاون بين الجمعية ، والمركز الثقافي الدولي بالحمامات واسمحوا لي أن أتوجه هنا بجزيل الشكر الى السيد والى نابل ، والى موظفي المركز ، وبصفة خاصة الى مديره الاستاذ الطاهر قيقة على مساعدة جمعيتنا الفتية للقيام بهذا النشاط العلمي .

ان الجمعيــة التونسية للتــاريخ والآثــار جمعية فتية سعى جمع مــن المهتمين بالدراسات التاريخية والاثارية لبعثها فى سبيل خدمة هدفهـا الاساسى الذى حدده الفصل الثانى من قانونهـا الاساسى فى الجمل التالية :

«تهدف هذه الجمعية الى خدمة الحضارة التونسية والعناية بالبحوث التاريخية والاثريـة فى تونس ، واحياء التراث القومى ، والسهر على صيانته مع العمل على نشر الوعى فى هذا المجال ومن أهدافها أيضا القيام بنشاط ثقافى عام يتمثل فى دراســات ومحاضــرات ، وتنظيــم ملتقيـات ورحلات الى المعالم الاثرية ، واصدار دوريــة ، ومنشورات مختصة » ·

ولا ريب أن تحقيق هــذا الهدف ، ونجــاح الجمعية فى أعمالها ، وتطورها مرتبطان بحماس المنتسبين اليها ، وعملنا جميعا على تدعيم هــذه المؤسسة العلمية ــ الثقافية ، والايمان برسالتها·

ومــن المعروف أن الجمعيــات التــاريخية تؤدى دورا فعالا فى كثير من بلدان العالم ، وقد أصبحنا نجد جمعيات مختصة فى البلدان المتقدمة مثل جمعيات التاريخ القديم ، أو جمعيات التاريخ البيزنطى ، أو التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، وغيرها من الجمعيات المختصة التى أسست نتيجة تقدم البحوث فى ميدان معين ، ووفرة المختصين فيه، وأكثرها منخرط فى الاتحاد العالمى للجمعيات التاريخية ، ونأمل أن تربط جمعيتنا علاقات مــع الاتحــاد ، وتصبح عضوا فيه ونــأمل أن تؤسس جمعيات تاريخية فى بقية أقطار المغرب العــربى لتصبح ميدانا خصبا من ميادين التعاون العلمى والثقافى بين البلدان المغربية خاصة ، والعــالم العربى عامة ، ولا سيما وأن هناك عزما وطيــدا على تأسيس اتحاد عربى للجمعيات التاريخية ·

وهكذا يكون للجمعيات التاريخية المغــربية شــأن ضمن هذا الاتحاد ، ويسرنــا أن نعلم أن السعى قد بدأ فى الشقيقة الجزائر ، وبدأت فكرة تأسيس جمعية تاريخية وطنية تتبلور لدى بعض الزملاء فى قسم التاريخ بكلية الاداب بجــامعة محمد الخامس بالربــاط ·

ان الاهتمــام بالدراسات التــاريخيـــة ، وبالبحوث الاثارية والحضارية بصفة عامة يزداد من سنة لاخرى فى جميع أقطــار مغربنا الكبير ، وهو اهتمام طبيعى بعد أن تحررت شعوب المغرب ، وتخلصت مــن نظــام استعمارى طالمــا حــاول طمس شخصيتهــا الوطنيــة ، ومســخ معــالم حضارتها ، انه اهتمام هادف تساهم فيه النخبة المثقفة الواعية لابراز مميزات الشخصية المغربية، وصقل معالمها لتبلغ فى النهاية الى تحقيق غرض سام ، ألا وهو نشر الوعى الحضارى بين جميع الفئات الاجتماعية كى يتجاوز فئة قليلة ، ويعم جميع أفراد الشعب ·

ولا يختلف اثنان فى أهمية الوعى الحضارى فى حركة النهضة الاقتصادية والاجتماعية ، وفى الازدهار الثقافى الحــق ·

ان الدراسات التاريخية والحضارية عامة تخدم هذا الهدف السامى لشعوب المغرب أى خلق الوعى الحضارى باعتباره دعامة أساسية لزرع روح الاعتزاز بالامــة والوطن ، والتخلص مــن مركبات النقص ، وذلك ــ فى نظرنا ــ نقطة انطلاق ضرورية فى كل معركة نهوض ، وتقدم ·

ولنــا أمثلــة كثيرة على ذلك مــن التاريخ الحديث للشعوب المتطورة ·

ان جميع الدراسات التاريخية تلتقى فى النهاية لخدمة ذلك الغرض سواء كانت أكاديمية بحتة ، أو تنزع الى التبسيط ، والتثقيف العام ، فالمهم أن تتحلى بالروح العلمية الموضوعية ، وتبعد عن الشوفينية التاريخية الضيقة ، ويدرأ أصحابها عن أنفسهم كل مظاهر السطحية والزيف ٠

فلا تناقض - اذن - بين الروح الاكاديمية والموضوعية التاريخية وبين تعميم الثقافة التاريخية ، ونشر الوعى الحضارى ، فالخطر أن يتقوقع المؤرخون ، وأن يصيبهم داء النرجسية ، فيحكموا على أنفسهم بالعزلة والهامشية وعلى نتائج بحوثهم بالدوران فى فلك ضيق ، وهو خطر ينبغى أن تحذره النخبة المثقفة عامة ، ولا سيما فى المجتمعات النامية ٠

اننى أعتقد أن للمؤرخين ، وللمهتمين بالدراسات الحضارية رسالة خاصة فى البلدان النامية ، وخاصة فى مرحلة تاريخية معينة ، فهم يستطيعون أن يكونوا رواد نشر الوعى الحضارى وتعريف الشعوب بمميزات المرحلة التاريخية التى يمرون بها ، ويوضحون طريق المستقبل ، وهم قبل هذا وذلك يقومون بعمل جبار آخر فى المجتمعات النامية قد لمحنا اليه سلفا ، وهو تعريف الشعوب المستقلة حديثا بحضارتها العريقة لتنفض عن نفسها مركبات النقص بمختلف ضروبها ، وتصبح تشعر بالمساواة فى علاقاتها مع الشعوب الاخرى ، وخاصة شعب البلد المستعمر بالامس القريب ، والتاريخ يساعد على فهم ظاهرة التخلف الاقتصادى ، حيث تضحى مرتبطة بأسباب موضوعية لاصلة لها بالقفر الحضارى ، أو تفوق عقلية شعب معين على شعب آخر كما حاول دعاة الاستعمار طويلا ايهام الشعوب المستعمرة بذلك٠

ونشير فى هذا الصدد الى أن التطور التكنولوجى الكبير الذى بلغته الوسائل السمعية ، والبصرية أصبح يمكن المؤرخين والآثاريين من تبليغ نتائج بحوثهم الى مآت الآلاف من المستمعين والمشاهدين ، وبذلك يتحول التاريخ من مادة جافة صعبة الى مادة حية يتفاعل معها كل من له رغبة فى المعرفة والاطلاع ٠ اننا نؤمن أن البرامج التاريخية والآثارية ، وما يتصل بها من أفلام وثائقية ، وحصص حية فى اخراجها الفنى يمكن أن تكون ميدانا خصبا ناجعا فى التعاون بين برامج التلفزة المغربية ٠

أما نقطة الانطلاق - فى رأينا - لتحقيق هذه الرسالة الجسيمة الملقاة على كاهل المؤرخين والآثاريين المغاربة فهى العمل جديا على ابراز مدرسة تاريخية مغربية يشيد صرحها باحثون مغاربة يؤمنون بأرض المغرب العربى ، وبحضارة شعوبه ، وبجميع مميزاتها الوطنية ، ويؤمنون بمستقبل الوحدة المغربية باعتبارها ضرورة حتمية تبررها مصالح شعوبنا الحاضرة ، ويدعمها تاريخ حافل مشترك ، ولغة حضارة وتفاهم واحدة ٠

ان شعور شعوب المغرب بضرورة الوحدة ، وتوقها اليها رغم العراقيل الجمة لدليل قاطع على أن المستقبل للوحدة فى عالم تجاوز الحدود الضيقة ، والوطنيات المحلية المنغلقة ، وان رسالة المؤرخ الواعى الهادف فى هذا الصدد لجد خطيرة ، فيجب عليه أن يزيح القناع عن وجوه أولئك المتشككين الانهزاميين ٠

ان هذا اللقاء الذى نفتتحه اليوم - حضرات الزملاء - أردنا أن يكون لبنة متواضعة فى صرح التعاون المغربى فى ميدان البحوث التاريخية والآثارية ، وهو تمهيد لمؤتمر علمى مغربى نأمل أن ينعقد خلال السنة القادمة وستتمخض عن هذه الدورات التاريخية المغربية يوما ما تلك المدرسة التاريخية المغربية التى نحمل شعارها ، لاننا نؤمن أنها ستكون احدى دعائم الوحدة الثقافية المغربية٠

هل الوطن العربى فقير ؟

هل تنقصه الامكانيات المالية ؟

أبدا ان الاموال العربية هى التى تغذى بنوك أمريكا وأوروبا التى تسيطر عليها الصهيونية ومعنى هذا ان أموالنا تذهب فى النهاية الى اسرائيل .
لماذا لا تستثمر هذه المليارات العربية داخليا فى مستوى كل دولة مالكة لها ؛ تستثمر داخل البلدان العربية ؟

هذا جزء من المعركة التى نخوضها ، المعركة واسعة جدا وسلاحها ليس الطائرات فقط ، هناك الحفاة العراة فى الوطن العربى ومن أجلهم يجب ان نفعل كل شىء ان نشق الطرق ونشيد المستشفيات ونفتح المدارس والجامعات ونقيم المصانع والمعامل .

باختصار ، بامكاننا اذا استثمرنا أموالنا فى بلادنا ان نحول العالم العربى فى أقل من ربع قرن الى أكثر مناطق العالم ازدهارا وأكثرها تطورا .

يجب ان نتوقف عن التغنى بالماضى .

يجب ان نحذف من قواميسنا فعل ، كان .

ولنتساءل ماذا يمكننا ان نعمل لوطننا أو لوطننا الاكبر ؟ ان اسرائيل ليست بلدا معجزة ولكن مليارات الخارج هى التى تمدها بالقوة .
هناك عشرون دولة تقرر المصير المالى للعالم فأين هى البلدان العربية الغنية التى تشارك فى هذا النادى المالى ؟

من تصريح للرئيس بومدين
لصحيفة النهار اللبنانية

حيـــاتنــا الـثقافيـــة

اعـداد :
سهيل الخالدي

معـــــارض :

بعد ان انتهى معرض الآنسة العراقية نسرين عبد الكريم الذى اقامته فى بهو قاعة الموقـــار وعرضت فيه نماذج من رسوماتها بالريشة ناقلة المتفرج الى اجواء عراقية بدوية محضة حازت على اعجاب كثير من المشاهـدين ، وخاصة تـــلك التصاوير المتضمنة لمقاطع من الشعر الشعـــبى العراقى ، ويبدو ان الآنسة نسرين ارادت ان تنقل لنا عبر اللون الداكن حياة المرأة خلال العصـــور وما عانته من ظلم واضطهاد ، بعد ان انتهى معرضها هذا أقام المصور الفوتوغرافي والسينمائى عـــلى مروك معرضا لصوره التى التقطها بالكاميرا عـلى مدى عامين كاملين سجل فيها كل دقائق حيـــاة القصبة واجرى حوارا بالصورة بين الانســـان

والطبيعة ، فقد ابرز حياة اهالى القصبة فدخل البيوت ، وصور اثاثها وطعامها كما صور المعالم الاثرية والدينية منها بشكل خاص وصور الاسواق بكل ما فيها وهكذا يكون على مروك قد ابرز حضارة القصبة قديما وحديثا .

وفى نفس المكان الذى عرض فيه على مدوك تصاويره «قاعة الفنون التشكيلية» لبى الدكتور خالد الجادر سكرتير اتحاد الفنانين العرب ونقيب الفنانين العراقيين دعوة اتحاد الفنانين الجزائريين واقام معرضا هاما حضره الاخ احمد طالب وزير الثقافة والاعلام وسفير الجمهورية العراقية فى الجزائرواعضاء السلك السياسىوحركاتالتحريرفى العالم وكان المعرض يحتوى على اكثر من خمسين لوحة منها ما رسم بالزيت ومنها ما رسم بالخط الصينى وقد عرض فيه الدكتور الجادر نماذج من رسمه الانطباعى تعرض فيه للحياة الاجتماعية للفلاح العراقى ونشير هنا الى ان الدكتور الجادر القى محاضرات في قاعة الموقار - وزيروت يوسف حول الفن الاسلامى فى العصر العباسى . كما نشير الى ان اتحاد الفنانين الجزائريين وجه عدة دعوات لفنانين مشهورين لعرض لوحاتهم فى الجزائر ومنهم الفنانالفلسطينىاسماعيل شموط ومجموعة من الفنانين فى المغرب وتونس .

وهناك عدة معارض صغيرة منها معرض الصور للمصورين الكنديين ومعرض كوريا الذى اقيم فى قاعة مولود فرعون وعرضت فيه نماذج من حياة وانجازات الشعب الكورى الذى كافح بقوة ضد الاستعمار اليابانى والامبريالية الامريكية .

سينما و مسرح :

كان النشاط السينمائى الجزائرى هذا الشهر محدودا فليس هناك افلام جديدة سوى فيلم سنعود الذى اخرجه رياض سليم لفائدة القضية الفلسطينية واشترك فيه بالاضافة الى الممثلين الجزائريين ممثلون فلسطينيون ولبنانيون وقد جرى تصوير الفيلم فى عدة اماكن من منطقة بوسعادة وفى لبنان .

والفيلم رغم براعة التصوير وقدرة بعض ممثليه وخاصة حسن الحسنى الذى اظهر براعة متزايدة ، ظل ريبورتاجا ناجحا لم يصل الى حدود الفيلم السياسى وذلك لانه افتقد السيناريو الفنى والقصة الواقعية وقد عرض الفيلم فى قاعات السينما وكان جمهوره قليلا .

هذا وقد عرضت قاعة الموقار عدة افلام كندية ضمن اسبوع الفيلم الكندى الذى انتظم فى بلادنا فى النصف الثانى من شهر جوان . ومن المحتمل انيقام فىموسكو اسبوع الفيلم الجزائرىسيعرض فيه عدة افلام جزائرية من بينها فيلم القمام الذى اخرجه بو عمارى ولاقى نجاحا كبيرا داخل الوطن وخارجه .

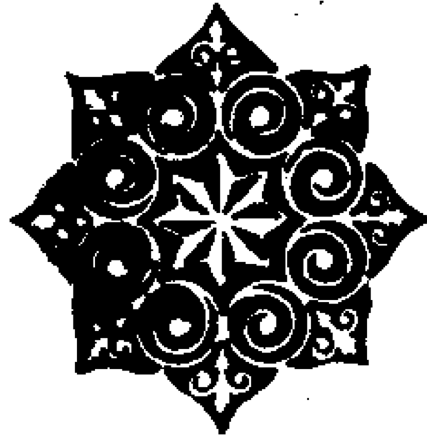
واما المسرح فقد قامت فرقة مسرح البحر بجولة عبر ولايتى سطيف والمدية تقدم عروضها لمسرحية «محمد ارفد فليزتك» التى كتبها الكاتب المعروف كاتب ياسين ولما تزل هذه المسرحية تلاقى نجاحا كبيرا اين تعرض ، كذلك تدرب هذه الفرقة فى الوقت الحاضر على مسرحيتين احداهما

لفائدة الثورة الزراعية واخرى بعنوان افكار موح الزيتون لفائدة القضية الفلسطينية وستعرض هذه الفرقة عروضها قريبا فى قاعة الموقار .

اما فرقة حسن الحسنى فقد قدمت فى الهواء الطلق فى خميس الخشنة بمناسبة مرور عام على الثورة الزراعية مسرحية ناجحة بعنوان نعيناع والثورة الزراعية ، شرحت فيه اهداف هذه الثورة وبينت الوضعية التى فرضها الاستعمار الفرنسى على فلاحينا وان هذه الثورة طريق الفلاح الجزائرى للخلاص من التخلف ، وقابل الجمهور هذه المسرحية بارتياح كبير وكان معظمه من الفلاحين والشباب .

أمسيات :

واما فى مضمار الامسيات الشعرية فقد كانت هناك أمسية هامة اجريت فى قاعة الموقار اشترك فيها كل من الشعراء محمد صالح باويه وعبد القادر السائحى والسورى انور البرازى ، وقد عقب الدكتور عبد الله ركيبى على الامسية متحدثا عن اثر هزيمة 5 جوان 1967 على الادب العربى ، وكان تعقيبه قصيرا ومحددا واضحا اذ ابرز اربع اتجاهات ظهرت على الادب العربى بعيد الهزيمة اسماها ، التيار الصاخب ، التيار التراجعى ، التيار الانهزامى ، والتيار الثورى الحقيقى ، وقد ناقش الحضور الاستاذ الركيبى نقاشا حيا ومثمرا ، واما الشعراء فقد برز الشاعر محمد صالح باويه بقصائده العميقة المؤثرة ومحمد الاخضر عبد القادر السائحى بقصائد حماسية ، اما انور البرازى فقد كان دون المستوى رغم كبر سنه وقد ظهر متأثرا عاطفيا بدانتى الشاعر الايطالى المعروف ، كانت هذه الامسية بمناسبة ذكرى 5 جوان والهزيمة التى منيت بها الامة العربية ، وبعد ذلك جرت عدة امسيات لشعراء بالعربية والفرنسية ومع بداية شهر جويلية تكون الامسيات الشعرية قد اتت على برنامجها كاملا بعد ان ساهمت على مدى اكثر من عامين بتطوير وتثبيت حركة الشعر فى بلادنا .



نحن مع المقاومة الفلسطينية ولو بقيت وحدها في الساحة نحن في الجزائر ذقنا مرارة الحصار ومرارة المضايقات العديدة وعشنا حياة التشرد ولهذا السبب لن نكون أوفياء مع أنفسنا وأمام ضمائرنا اذا لم نكن مع المقاومة في الساعات الصعبة الحرجة .

وتساءل الرئيس ..

الفلسطينيون مشكوك فيهم مسبقا في كل مكان ..

لماذا هذا الوضع ؟

ان كل حركة للمقاومة لها أمراضها السياسية وهي تمر بمراحل متعددة الى ان تصل الى مرحلة النضج الفكري والسياسي والتنظيمي ولكن هناك أيضا الافكار التي تمثلها حركة المقاومة هذه الفلسطينيون ذبحوا في الاردن فهل تقبر المقاومة في لبنان .. هذا ما لا نريده للبنان الشقيق ..

نحن مطلعون تماما على أوضاع لبنان الداخلية الا أن هذه الاوضاع مهما كانت معقدة فاننا لا نقبل ان يسجل علينا التاريخ بأن المقاومة ذبحت في عمان وقبرت في بيروت .

طبعا لا توجد أية مشاكل بين الجزائر ولبنان لم تكن هناك أية مشاكل في الماضي ولن تكون هناك مشاكل في المستقبل .

وكما انه ليس من عادة الجزائر ان تتهجم على أي شعب عربي فانها لا تتخذ المزايدة السياسية والتهريج أسلوبا في العمل السياسي وببساطة لان عندنا في الجزائر أشياء مهمة جدا تستقطب كل وقتنا وطاقاتنا .

طبعا .. الوضع معقد بالنسبة للبنان ولكن .. يجب ان تفهم الاوضاع وهذا رأي قد لا يعجب بعض الاشقاء العرب ولكن يعبر عن موقفنا الذي لا نبغي من ورائه أي غرض سياسي .

بالنسبة للمقاومة يجب ان يؤخذ في الاعتبار بأنها في حاجة الى قاعدة خلفية ، هذا أمر تاريخي مفروض على لبنان وعلى مصر وعلى سوريا طبعا لن أتحدث عن الاردن لانه حدد موقفه وأمره مفروغ منه .

فكيف يمكن للمقاومة الفلسطينية ان تعمل وتنشط وهي محاصرة من الامام بالاراضي المحتلة من العدو الاسرائيلي ومحاصرة من الخلف بالتضييق العربي حتى لا أقول .. الطعن في الظهر والعمل بقصد أو عن غير قصد للقضاء عليها .. هذا هو موقفنا .

من تصريح للرئيس بومدين
لصحيفة النهار اللبنانية

حيـــاتنـا الـثقافيـــة

•

الامسيـــــات

سيلاحظ القارىء ملاحظتين على حياتنا الثقافية هذا الشهـر •

الاولى : زخامتها وتركزها فى قاعة الموقـــار والعاصمة وذلك لان الموسم بدأ يشارف على نهايته فابتدأت الهيئات الثقافية تسرع بتنفيذ ما بقى من برنامجها •

الثانية : عدم التعرض للنشـاط الثقـافى فى الوطن العربى وذلك لان احـــداث بيروت بــين المقاومة الفلسطينية والجيش اللبنانى اثرت عـلى مجمل حياة الشرق الاوسط وليس هناك ما يذكر فى مجال الحياة الثقافية •

لذا سنكتفي بعرض حياتنا الثقافية الجزائرية وهي حياة مليئة كما اسلفنا •

الامسيـــات

هذه المرة لم تقتصر الامسيات الشعرية على قاعة الموقار بل امتدت حتى الجامعة اذ استعادت هذه الاخيرة نشاطها فقدمت أمسية لمجموعة من الاساتذة والطلبة وكان ضيف الشرف الشاعر الكبير الاخضر السائحي الذى القى قصيدته « بلا عنوان » والتى فازت بالمدالية الذهبية فى مؤتمر الشعر الحادى عشر الذى عقد هذا العام فى تونس كما قدم الاستاذ صالح خرفي وابوالقاسم خمار شيئا من شعرهم القديم والجديد •

وأما الطلبة فقد برز بينهم الطالب محمد الغمارى والطالبة احلام مستغانمى التى القت قصيدة من ديوانها الذى صدر قبل بضعة اشهر باسم على مرفأ الايام •

وكانت الجامعة قد قدمت امسية قصصية ناجحة لعدد من الطلبة تحدثت عنها الصحافة المحلية باسهاب واننا نأمل ان يواصل فرع اللغة فى كلية الآداب نشاطه المشكور هذا ويرفع عاليا صوت العربية فى رحاب الجامعة •

وأما قاعة الموقار هذه القاعة التى ارتبطت بالكثير من نشاطاتنا الثقافية فقد قدمت عدة امسيات منها امسية للشاعر محمد الاخضر عبد القادر السائحى استحوذت على اعجاب الجمهور الذى ناقشها بحرارة كذلك قدمت القاعة امسية للشاعر الفلسطينى الناشىء عمر وشراش بمناسبة ذكرى 15 ماى • وكذلك امسية للشاعر الجزائرى عمر أزراج •

وقدمت امسية شعر بالفرنسية وامسية شعر ملحون وهكذا يكون برنامج الامسيات قد شارف على نهايته مع بدء العطلة الصيفية لطلبتنا ومدارسنا •

الكتــب

لم تنزل الى الاسواق كتب جديدة باستثناء ديوان الشاعر محمد الاخضر عبد القادر السائحى « واحة الهوى » فى 92 صفحة من الحجم المتوسط يحتوى موشحا وأوبريت و 92 قصيدة وكلها اشعار وجدانية كتبت فى فترات متقطعة بين تونس والجزائر والمغرب تغنى فيها الشاعر بجمال الطبيعة فى البلدان الثلاثة ، والديوان صادر عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنيد ويباع فى الاسواق

المســرح

كان النشاط المسرحى هذه الفترة معقولا فعلى خشبة قاعة الموقار قدمت عدة مسرحيات اذ قدمت الفرقة المسرحية التابعة لوزارة الشبيبة والرياضة مسرحية السوسة وتعرضت فيها للعديد من المشاكل الاخلاقية والسلوكية التى تعترض مجتمعنا مثل الادمان على الخمر والجريمة وما الى ذلك من قضايا عرضتها المسرحية فى 13 لوحة عرضا طيبا صفق له الجمهور اذ ظهرت الطاقات الفنية الهائلة الكامنة فى شبابنا •

اما فرقة مسرح البحر فقد ذهبت الى ولاية سطيف وقدمت بين الفلاحين عرضا لمسرحية محمد

خذ حقيبتك التى كتبها الاديب المعروف كاتب ياسين عن الهجرة وقضاياها وما يعانيه عمالنا فى فرنسا وأوروبا من مشاكل اجتماعية وقومية وميز عنصرى وكانت هذه المسرحية قد عرضت فى باريس واحدثت ضجية فى الاوساط الفرنسية .

واما عن فرقة العمل المسرحي التونسى فقد قدمت على خشبة الموقار مسرحية عم سلومة حزار الحومة تتحدث عن مشكلة زواج الشيوخ بالبنات الصغيرات رغم ان الموضوع يعتبر من المواضيع المطروقة توقع الجمهور شيئا جديدا من الناحية الفنية فيالتمثيل أو التقنية فكانت صدمة قوية حين شاهد نصا لا قيمة له واخراجا مهلهلا وتمثيلا ساذجا ولم يبرز كممثل غير المختار شاوش الذى قام بدور عم سلومة وبالواقع لا يمكننا الحديث عن هذه المسرحية دون المس بعواطف اصحابها من الفنيين والممثلين ، لذلك نكتفي بالتأكيد على ان الجمهور كان يتوقع شيئا افضل بكثير مما قدم له .

السينما

عرضت فى قاعة المتحف السينمائى بالعاصمة مجموعة افلام جزائرية منها فيلم ديسمبر الذى اخرجه الاخضر بن حامينا وهذا الفيلم ناجح من عدة زوايا ، التصوير والالوان والتمثيل والحوار غير انه غامض المضمون فهو يظهر انسانية الفرنسى ورفضه لتعذيب الجزائريين ويظهر هذه الانسانية بحماس يطغى على الحقائق التاريخية فاذا كانت هناك حوادث فردية على مستوى ضيق جدا رفض فيها بعض التقدميين الفرنسيين ممارسة التعذيب فانها لا تستحق ان تظهر فى فيلم يكرس لها .. ان حقيقة التعذيب واحدة من حقائق الاحتلال .. ان الفيلم فى نهايته وخلاصته لا يمكن اعتباره من الافلام التى تحدثت عن حقيقة ديسمبر كواحدة من حقائق الثورة الجزائرية وبالتالى فهو محاولة لدفع الحالات الفردية من الزاوية الى العمق للقيام بشبه تبرئة للعسكرية الفرنسية الجديدة .

اما فيلم خط النار الذى اخرجه ابراهيم بوثمن لفائدة الثورة الزراعية فهو يحكي حكاية قرية على الحدود ترزح تحت وطأة اقطاعى وبورجوازى تاجر يذيقانها صنوف الاستغلال والقهر ولا خلاص للقرية الا بان يتوزع السكان الارض فتاتى الثورة الزراعية لتحقق هذا الخلاص. والواقع رغم ان موضوع الفيلم من المواضيع المهمة والحيوية الا انه ظل سطحيا فى تناوله للقضية كما انه ليس فيه ما يقال من الناحية الفنية فقد طغت مشاكله الفنية فى الاخراج والاضاءة على كل محاسنه غير ان المخرج حرك ممثليه ببراعة اظهرت قدراتهم كما ان التصوير كان ناجحا فى العديد من المناظر ، وقد اعقبت الفيلم مناقشة عبر فيها الجمهور عن كثير من نقاط الضعف التى شاهدها فى الفيلم ومع ذلك فان هذه التجربة الاولى من المخرج الشاب مما يدفعنا الى القول وحسب مشاهدتنا ان مستقبلا حسنا ينتظره .

الاسبوع الثقـافى المغـربى :

اهم حدث في المدة الاخيرة في بلادنا هو الاسبوع الثقافى المغربى من 14 ـ 20 ماى 73 قدمت فيـه الفرقة الفنية عدة عروض فنية ومسرحية وفـى المجال الفنى استمعنا الى جوق المعهد التطـوانى وهو يقدم جملة من الالحان والموشحات الاندلسية كما قدمت فرقة الاذاعة والتلفزة المغربية بقيـادة الموسيقار ابراهيم العلمى ألحانا عصرية ومن فرقة حميد زاهر شاهدنا رقصات شعبية فولكلورية مغربية مثل رقصة الصينية وتكشبيلة مـــن الرقصات التى استمتع بها الجمهور .

اما مسرحية الفضوليات المقتبسة عن النساء المتحذلقات لموليير فانها ابتعدت عن النص الاصلى وهاجمت من حيث تقصد او لا تقصد التــراث والقيم ورسخت دعوى اولئك الذين يعتبـرون العربية نحوا كما انها بينت على خشبة المسـرح مشاكل نسوية لا تمت الى المجتمع في بلدانـنـا بصلة ورغم ان ممثليها اظهروا منالبراعة التمثيلية ما يحق لنا شكرهم عليه غير ان جهودهم هـــذه كانت فى نص لا قيمة له وكان من الافضل لو ان المخرج التفت الى نصوص محلية او من تراثنــا الخالد لقدم الشىء الكثير .

واما عرض الملبوسات والصناعات التقليدية فقد أكد ان الواحدة الحضارية لبلدان المغرب العربى هى وحدة واحدة لا فروق بينها على المستوى الجزئى أو الكا .

وقد القى كل من معالى وزير الشؤون الاسلامية ومدير الثقافة فى المغرب محاضرة قيمة حول الوحدة المغربية حضرها جمع غفير من المواطنين .

لقد استطاع الاسبوع الثقافى المغربى ان ينقل لنا جزءا من حياة وثقافة الشعب المغربى الشقيق وان ظاهرة الاسبوع هذه ظاهرة تستحق العنايـة والاستمرار اذ تساعدنا على التعرف على حيـاة الشعوب الشقيقة الثقافية كما تساعدهـا عـلى التعرف على حيآتنا ، وفى هذا الاطار ذهب وفـد فنى ثقافى جزائرى الى كل من جمهورية موريطانيا الاسلامية وجمهورية غينيا حيث قدم عروضا فنية وثقافية مثلث حياتنا ومنجزاتنا الثقافية والفنية وقد لاقت هذه الفرقة كل حفاوة وتكريم فى كـل من نواقشوط ودكار والامكنة التى حلت بها .

وفى ميدان التبادل الثقافى الجزائرى التونسى قدمت فرقة ابن خلدون الثقافية بتونس مسرحية على خشبة قاعة الموقار هى مسرحية العم سلومـه حزار الحومه مقتبسة عن مدرسة النساء لمولييـر أيضا وتحكى هذه المسرحية قصة رجل كهل ربى فتاة بسن احفاده ليتزوج منها وفى النهاية ليظهر والد هذه الفتاة ويزوجها من الفتى الذى تحـب فيتراجع الكهل عن غلطه وقد قامت بدور الفتاة منى حسن وقام بدور عم سلومه المختار الشاوش وانتقلت هذه الفرقة عبر ولايات التراب الـوطنى تقدم عرضها هذا فى عدة مناطق .

الجامعـــة

ابتدأ مع نهاية الموسم الدراسى الجامعى 72/73 اطها فى مناقشة رسائـــل الدكتوراه فكانت

الرسالة الاولى من السيد عبد الرحمن رباح الكيالي « فلسطيني » عن الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ، وقد ناقشت هذه الاطروحة من الدور الثالث الاساتذة عبد الله ركيبي ومحمود الربيعي وحسني محمود وحضر المناقشة جمهور غفير وتناولتها الصحافة بالتقريض اذ حاز صاحبها في نهاية المناقشة على تقدير جيد ٠

قانون

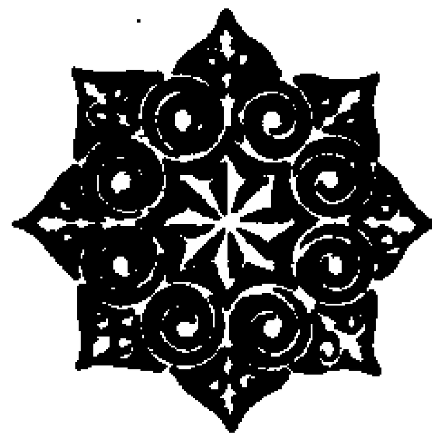
صدر في II فصلا من 82 مادة أمر حقوق التأليف الجزائرية ناجز المفعول اعتبارا من نشره في الجريدة الرسمية وهو قانون ينظم علاقة المؤلف بشركات النشر والتوزيع والطبع ويحفظ له حقوقه اثناء حياته ولورثته بعد موته وقد استقبله المثقفون الجزائريون بسرور بالغ وناقشوا بعضا من فقراته على صفحات الجرائد وخاصة جريدة الشعب الثقافي نصف الشهرية التي أفردت عددا خاصا من اعدادها لقضايا التأليف والنشر في بلادنا ٠

معارف

بعد ان عاد وفدنا للفنون التشكيلية من العراق حيث حضر مؤتمر الفنانين التشكيليين العرب اقامت الفنانة التشكيلية العربية نسرين عبد الكريم معرضا لرسوماتها في قاعة الموقار وقد افتتح المعرض سعادة سفير الجمهورية العراقية في الجزائر وقرينته وقد امتازت رسومات الفنانة بالبساطة وبالتعبير عن حياة الفلاحين في القطر الشقيق بالوان هادئة يتميز منها اللون الاسود والقهوي وقد دام هذا المعرض حتى مطلع شهر جوان ٠

ملتقيات

هذا وقد انعقد في قصر زيروت ملتقى المغرب العربي للطفولة الجانحة حضره عدد كبير من خبراء وخبيرات تربية الطفل والحدث في الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا وقدمت مجموعة من الابحاث تعالج الاهتمام بالطفولة الجانحة في عدة مستويات داخل البيت أو خارجه أو داخل الملجأ ، وقد انتهى المؤتمر بعد ابحاثه المستفيضة الى مجموعة من التوصيات من شأنها في حالة التنفيذ ان تضمن للطفل حياة سليمة ونفسية سوية ٠



ماضي النشاط الثقافي في القصبة

حي القصبة ، من بين الأحياء التي امتازت ، منذ القديم بمميزات جعلته قبلة الزائرين ، لما اشتمل عليه من مساجد أثرية ، وأبنية على الطراز العربي القديم ، وأسواق تحتوي على مختلف الحرف والصناعات التقليدية الجميلة .

وقد عمل حي القصبة بمؤسساته المختلفة على المحافظة على الروح الوطنية ، حيث قامت المساجد بنشاط ديني وثقافي وسياسي واسع ، فاستطاعت بذلك قطع الطريق على المستعمرين الذين عملوا بكل جهودهم للقضاء على قوميتنا . كما قامت الصناعات التقليدية من جانبها بالمحافظة على التراث الرائع من حضارتنا .

والنص الذي بين يديك : صورة واضحة للدور الذي لعبته مؤسسات حي القصبة في القرن الماضي .

امتازتْ الحياةُ في القصبةِ حتى آخِرِ القرنِ الماضِي بوجودِ مراكزَ نسيطةٍ للحياةِ الثقافيةِ والاجتماعيةِ . وكانت المساجدُ تلعبُ دورًا رئيسيًّا في هذا الميدانِ كمكانٍ لالتقاءِ المثقفينَ وأبناءِ الشعبِ ، فكان المسجدُ للعبادةِ وحلقةِ الدرسِ ومحلاًّ للتقوَى والبتِّ في أمورِ المسلمينَ . ومنتدًى للنقاشِ وتبادلِ الآراءِ • ومن أجلِ ذلكَ كانتْ مراقبةُ المستعمرينَ لَهَا مُسْتَتِرَةً ، ومن مساجدِ القصبةِ الشهيرةِ ، وأكثرِهَا نشاطًا : مسجدُ سيدي محمد الشريفِ الذي كان ملجأً العلماءِ يقصدُونَهُ من كلِّ مكانٍ ، ولا يزالُ المسجدُ موجودا حتى الآنَ . والمكانُ لا يزالُ يحتفظُ بجمالِهِ وهيبتِهِ التي تدلُّ على تاريخٍ حافلٍ •

وهناكَ مسجدٌ آخرُ مشهورٌ : هو مسجدُ سيدي رمضان ، الذي يعودُ تاريخُ بنائِهِ إلى القرنِ الخامسِ الهجريِّ ، وبسكانٍ غيرِ بعيدٍ عنه يوجَدُ مسجدُ « سيد سفير » ، وكانت هذه المساجدُ وغيرُها مراكزَ للنشاطِ الثقافيِّ والاجتماعيِّ إلى جانبِ الصلاةِ والعبادةِ •

مجلة المجلات

أعـداد :
حكمت ياسين

بما أن هذا العدد من مجلة « الاصـــالة » قد خصص لدراسة تاريخ الجزائر وموقف المؤرخـين الاجانب من التاريخ العربي بصـــفة عامة ، فقـد حاولت قدر الاستطاعة أن تكون المواضـــيع التى اخترتها من المجلات المختلفة ترتبط الى حد ما بهذه الفكرة • وتدور هذه المواضيع حـــول التاريخ العربى الاسلامى وموقف المستشرقين من هـــذا التـــاريخ ، كما جاءت بعض المواضـــيع المتعلقة بالثقافة وأثر الثقافةوالفنون الاسلامية على الفنون الاوروبية • ونثبت هذه المواضيع حسب اتصالها بالخط العام لهذا العدد الخاص ، راجين أن يجـد القارىء بعض المعلومات المفيدة التى نشرتها بعض المجـــلات التى قد لا تصـــل الى كل قارىء فى الجزائر •

مجلة دعوة الحق
عدد 9 ، 10 السنة 15 ماى 1973

تحديات من التاريخ الاسلامى المعاصر

الاستاذ أنور الجندى

ان التاريخ الاسلامى المعاصر حين يكتب اليوم من جديد فان تفسيرات كثيرة فيه سوف تتغير نتيجة للوثائق التى انكشف عنها الستار فى السنوات الاخيرة ، حتى ان عددا كبيرا من القضايا الهامة التى تقرر فيها رأى أشبه بالمسلمات ، تصبح الآن فى حاجة ماسة الى اعادة النظر .

أبرز الوثائق التى ظهرت فى السنوات الاخيرة وغيرت من تفسيرات التاريخ هى بروتوكولات صهيون ومذكرات هرتزل (ولا يغنى أحدهما عن الآخر) ، وما كشفت عنه دوائر المعارف التى كتبت تحت اشراف الصهيونية ، وتتصل هذه الحقائق بالماسونية ودورها فى الثورة الفرنسية وفى الانقلاب العثمانى وما استتبع ذلك من تغييرات فى التاريخ الاوروبى من ناحية ، وفى التاريخ الاسلامى من ناحية أخرى ويدور التغيير كله حول موقف اليهود ومحاولة السيطرة على فلسطين وتدمير وحدة المسلمين فى سبيل ذلك .

ومن الوثائق التى تكشفت فى السنوات الاخيرة ما يوصف بأنه ملحق لشروط الصلح مع تركيا فى مؤتمر لوزان 1923 المعروفة بشروط كرزون الاربعة وهى :

1 ـ قطع كل صلة بالاسلام .

2 ـ الغاء الخلافة الاسلامية .

3 ـ اخراج أنصار الخلافة والفكرة الاسلامية من البلاد .

4 ـ اتخاذ دستور مدني بدلا من دستور تركيا القديم المؤسس على الاسلام .

وفى مجالى التعليم والتبشير تكشفت كثير من الحقائق والوثائق . فقد اعتمد الاستعمار على التعليم كوسيلة لاعداد الاجيال القادمة وخاصة القيادات ، وتاريخ البلاد العربية يكشف مدى الخطر الكامن فى مدارس الارساليات وجامعاتها المنبثة فى مختلف العواصم .

وفى السجلات الرسمية عام 1951 ان هناك 166 ألف طالب يدرسون فى المدارس الاجنبية فى مصر ولبنان وسوريا والاردن وفلسطين ، هؤلاء جميعا يتلقون الثقافة الاجنبية المدمرة للوطنية والعقيدة والقيم .

وقد واجه العالم الاسلامى كله هذه التجربة وهى : كما يقول احد المؤرخين الجزائريين : لقد فرض على الجزائريين ان يتعلموا ان تاريخ الجزائر يبدأ عام 1830 وان على الجزائرى أن يجهل كل شيء عن تاريخ العرب الحضارى فى بغداد وقرطبة، ذلك التاريخ الذى أفادت منه أوروبا كل الفائدة ، فعليه أن يعرف كل شيء عن ديكارت دون الغزالى، ويتعلم ان فيكو الايطالى هو واضع اسس علم التاريخ لا ابن خلدون ، وانه يوجد كلود برنار وليس هناك ذكر لابن سينا ، وعليهم ان يدرسوا دانتى لا المعرى ولا مارتين لا عمر بن أبى ربيعة .

وفى التاريخ الفرنسى يقفون عند ذكر هزيمتهم أمام شارل مارتل .

ونفس المعنى يورده الرئيس أحمد سيكوتورى فى ترجمة حياته مصورا كيف عمد الاستعمار فى أفريقيا الى تحريف التاريخ وافساد الثقافة فيقول : « لقد أراد الاستعمار للمثقفين الافريقيين أن يفكروا بديكارت وبرجسون ولم يسمح لهم التفكير فى قيمهم وثقافتهم وتراثهم الافريقى ، لهذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الافريقيين أمثال المناضل الوطنى الحاج عمر وأحمد ساموري تورى ، واذا استمر الامر بنا على هذا النحو فلن نستطيع ان ننمى شخصيتنا الافريقية التى هى الطريق الوحيد للنهضة فى افريقيا » ٠

ومن أخطر ما تكشف عنه الوثائق فى تاريخ الاسلام المعاصر : تلك المحاولات التى عمدت الى التفرقة بين العروبة والاسلام ، وتمزيق وحدة الرابطة الثقافية الفكرية الاسلامية الجامعة التى تربط بين العرب ككل دين سائر العرب ، ثم محاولة التفرقة بين العرب واعلاء شأن الاقليميات فيهم ، ثم محاولة تصور العروبة على أنها قومية على نحو القوميات الاوروبية المتصارعة ، ولقد طرحوا من أجل ذلك خططا كثيرة واشواكا كثيرة، ولكن المحاولة قد باءت بالفشل وتبين أن العروبة ليست هى القومية بمفهوم الغرب ، وأنها اكبر بكثير ٠ وعلى حد تعبير الدكتور عمر فروخ : « فالعروبة جزء من الاسلام ، بل هى نتاج الاسلام ، والاسلام هو الحركة التى جمعت العرب كلهم على ايمان واحد ، ولولا الاسلام لبقى العرب فى جزيرتهم قبائل متفرقة لا قدر لها فى تاريخ الحضارة الانسانية ٠ فللاسلام على العرب فضل توحيدهم وفضل اطلاقهم فى معارج الحضارة وفى الحياة الانسانية ، ذلك ان العرب توحدوا بالاسلام ، وأن الاسلام جعل منهم قوة عالمية حاملة لواء الحضارة » ٠

وقد تيقن الباحثون الاوروبيون من هذه الحقيقة ، وعبارة مورو بيرجو فى كتابه « العالم العربى اليوم » تشهد بهذا القول ، فهو يقول : « ان العروبة تعنى الاسلام وان الابتعاد بالعرب عن الاسلام معناه انفصال البناء عن أساسه وقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الاسلام ، ونفس الشيء يمكن أن يتكرر اليوم » ٠

تلك لمحات خاطفة سريعة من الانحرافات التى تعرض لها تاريخ الاسلام المعاصر يجب ان توضع موضع الدراسة والنظر حتى يصبح المسلمون والعرب على دراية كاملة بالمخططات والاخطار التى تحيط بهم ٠

مجلة حضارة الاسلام ـ عدد 2 ـ السنة 14 ـ

مـاى 1973

المنهج الاسلامى والمنهج الغربى

وجوه التباين والاختلاف بين المنهجين

انور الجندى

من الحقائق الاساسية أن هناك منهجين : اسلامى وغربى ، وان لكل منهما مقوماته واصوله واسسه، وان بينهما وجوها كثيرة من التباين والاختلاف ٠ وان الاصالة وهى طابع العصر الآن تقتضينا ان

نعرف بوضوح الى أى حد يمكن ان يلتقى الفكر الاسلامى بالفكر البشرى والى أى حد يختلف ويفترق ·

ومن هنا فانى اضع امام القارىء هذه الخطوط العامة ، (نقتبس أهم هذه الآراء) :

1 ـ لا ريب أن الغرب له مثل وغايات فى الحياة · وقيم ومقاييس ومزاج نفسى خاصة به ، وللغرب ايضا مفهوم خاص للدين تكون من خلال ظروفه التاريخية من جهة ومن طبيعة ديانته من ناحية أخرى ·

2 ـ لا ريب ان هذه المذاهب الغربية فى اسلوب له طابع علمى براق ليخفى ما وراءه من أهداف · وقد ظهرت هذه المذاهب حين عجز الدين فى الغرب عن العطاء ، وحين انفصلت الاخلاق عن الدين ·

3 ـ من أهم العوامل التى تؤثر فى اصالة المنهج العلمى الغربى انه يقوم على مسلمات أساسية تخالف مخالفة كاملة مفاهيم الفكر الاسلامى والحقائق التاريخية ، وتتعارض مع التاريخ البشرى عامة ·

4 ـ ان المناهج العلمية الوافدة متضاربة متعارضة لان كلا منها نشأ فى بيئة معينة واستجابة لتحد معين ·

5 ـ ان كل الابحاث والدراسات المنصفة العلمية تقرر ان الفكر الغربى والمجتمع الاوروبى والحضارة الغربية والانسان الغربى يخوضون أزمة عنيفة ويواجهون أمواج عاصفة من القلق والتمزق والضياع وانخصام الشخصية ويردون ذلك كله الى غلبة الطابع العقلى المادى الحسى على الطوابع النفسية والروحية والدينية ·

6 ـ أخطر ما يمثل المنهج العلمى الوافد عجزه عن التفرقة بين المفاهيم التى تتصل بالانسان وبين المفاهيم التى تتصل بالكون ، ففى مجال العلوم نجد « منهج التجريب » وهو منهج ثابت دقيق لانه يقوم على معادلات مضبوطة ثابتة · أما فى مجال الانسان ، فان الامر يختلف اختلافا كبيرا ، ولابد لدراسته من منهج غير منهج العلوم المادية ·

7 ـ قام الفكر الاسلامى وفى احضانه الثقافة العربية على أساس تأكيد الذاتية والاصالة ، فقد دعا الاسلام معتنقيه الى معارضة التقليد للاجنبى، وحرص على أن تظل شخصية المسلم وفكره وحضارته ومجتمعه متميزة ، ولذلك فقد أعلن حربا شعواء على التقليد والتبعية معا لانهما فقدان للشخصية وعبودية للفكر والعقل ·

8 ـ ان العلم سوف يعجز عن القضاء على الدين، بل سوف يؤكد الدين ، وان كان الدين لا يفسر ظواهر الكون كالعلم ، فانه يضع الاطار الاخلاقى للحياة ويرسم منهج العلاقة بين الله والانسان · والاسلام هو الذى أقام للعلم منهجه ومنطلقه من حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح الدينى ·

9 ـ يقرر الاسلام مكانة الانسان فى الارض ويؤكد حق استخلافه ، ويؤكد الاسلام أهمية الانسان كفرد وأهميته كفرد فى مجتمع ، وخالف بذلك جميع الفلسفات والعقائد ، وأقام مفهومه

على أساس تكريم الانسان بالنظر اليه من خلال طبيعته الاصيلة الجامعة بين الروح والجسم ،والعقل والقلب ، وبوصفه كيانا متكاملا •

١٠ ــ قد تختلط طوابع الانجليز والفرنسيين والالمان والامريكيين لان هناك جامعا يجمعهم من أصول دين وثقافة ولغة ، ولكن من العسير ان تختلط طوابع المسلمين والعرب معهم لانهم استمدوا اصولهم من دين وفكر غير دينهم وفكرهم ، ومن العسير التخلى عن القيم والعادات وتقبل الاحتواء والاذابة •

١١ ــ حرر الاسلام الفكر من الظنون والفروض والاساطير والخرافات والاوهام والاهواء ، ودعا الناس الى التماس المنابع الاصيلة وفى مقدمتها القرآن ، ومن هنا فان تحرك الفكر الاسلامى انما يجرى أساسا فى اطار القرآن •

١٢ ــ ان الحرية فى مفهوم الاسلام هى تحرير العقل البشرى من قيد الوثنية والجهل والخرافة والتقليد وتحرير الانسان من قيد العبودية وسلطان الاستبداد والطغيان •

١٣ ــ ان أبرز مفاهيم الاسلام : انه وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها ولا تفتيتها أو الاخذ بفرع منها دون الآخر . فكل عنصر منها متصل بباقى العناصر مؤثر فيها متأثر بها ومن هنا فقد تكاملت تعاليمه الاجتماعية والاخلاقية والتربوية •

١٤ ــ حرر الاسلام الفكر الاسلامى فى دوامة البحث فيما وراء الطبيعة او عالم الغيب ، فقدم له منهجا كاملا يرضى نفسه ويسد حاجاته الروحية وذلك حتى يفرغه لمهمته فى بناء الحياة وتعمير الكون وتحقيق العدل والاخاء الانسانى •

١٥ ــ ربط الاسلام بين العقيدة والتطبيق ، والعلم والعمل ، ورفض مبدأ العلم للعلم ، وقرر أن العلم انما يطلب من أجل العمل به والاستفادة منه فى تحسين الحياة الانسانية وتقدمها •

١٦ ــ لا يرى الاسلام فى مفهوم الايمان شيئا مضادا لمفهوم المعرفة . ولا يقتصر الاسلام على مفهوم المعرفة القائم على الحس والتجربة ، بل يضيف اليه علم الوحى الذى جعل الايمان بالغيب شرطا اساسيا من شروط العلم والايمان بالله قوة دافعة تعطى الامل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة ، ولذلك فانه لا توجد فى الادب الاسلامى ظاهرة التشاؤم واليأس والتمزق •

١٧ ــ ان الاسلام بالنسبة للعرب مصدر كيانهم ووجودهم ، فقد خلق الاسلام العرب خلقا جديدا وأقام لهم الوحدة على أساس العقيدة والفكر وليس على أساس الجنس والعرق • والاسلام مخالف لموجة العنصرية واعلاء السلالات ، داع الى الاخوة البشرية •

١٨ ــ ان تمجيد العقل وتقديسه واتخاذه سبيلا وحيدا للمعرفة ليس نظرية أصيلة فى مفهوم الاسلام الذى يقيم منهج المعرفة على العقل والقلب معا •

١٩ ــ تتفق الثقافات على أسماء القيم الانسانية ولكنها تختلف فى تفسيرها ، فالحرية والعدل والاخلاق والمعرفة والسلام والحرب لها فى كل فكر

مفهوم متميز • ونظرة الاسلام لهذه القيم نظرة متكاملة جامعة •

20 ـ أبرز مظاهر أصالة الفكر الاسلامى تتمثل فى أنه يرفض كل عنصر غريب عليه ، ومن هنا تخطىء النظرية القائلة بتلقيح الفكر الاسلامى • وللاسلام ذاتية لها من عوامل الثبات ما يكفل لها استمرار العطاء والتلقى على مدى العصور ، والامتصاص بما يزيدها قوة ولا يخرجها عن أصالتها •

مجلة اخبار العالم الاسلامى عدد 321 افريل 1973 •

التاريخ الاسلامى يقرر كمادة اساسية فى جامعات اوروبا •

بعد عقد عدة مؤتمرات وندوات فى جامعات **أوروبا** تقرر الغاء الدراسات السابقة الموبوءة بالتحريف عن حضارة الاسلام ومعتقداته وتقرر الاخذ بعين الاعتبار التوسع فى الدراسات عن العالم العربى والاسلامى على المستوى العلمى وقبول التاريخ الاسلامى الذى وضعه الدكتور ابراهيم الشريقى الاستاذ المحاضر فى جامعات اوروبا كمصدر للدراسات • ويجدر بنا ان نلقى نظرة على هذه المصادر التى تناولتها المناقشات فى المؤتمرات والندوات فى بون وفرايبورغ وبال وسالونيك واثينا •

الانطباعات والنظريات الخاطئة عن العرب والاسلام:

ان العالم الاوروبى يعرف الشرق الاسلامى جغرافيا ••• اما النواحى الاجتماعية والتاريخية والسياسية فالدراسات عنها تختلف باختلاف المصادر والنظريات ••• وبصورة عامة ليست هناك فى اوساط شعوب اوروبا فكرة صحيحة سليمة عن العرب والاسلام ••• وان الانطباعات والنظريات الخاطئة الراسخة فى اذهان الاوروبيين عن عالمنا العربى وثقافته الاسلامية هى وليدة الدراسات وبالاخص الكتب التاريخية والاجتماعية التى وضعت باسلوب مغاير للحقائق وجوهر المفاهيم ، وعم انتشارها فى القارة الاوروبية قديما وحديثا •

المصادر التى اعتمدت عليها اوروبا :

هناك فى الجامعات والمعاهد العليا ومراكز الابحاث ودور النشر والمكتبات دراسات كثيرة ومجموعات كبيرة من الكتب والمصنفات عن العالم الاسلامى بعضها ترجم عن العربية والفارسية والتركية الى اللغات الاوروبية باسلوب شوه جوهر ومفاهيم محتوياتها •• والبعض الآخر وضعه كتاب من مختلف بلدان اوروبا ، يمكن تقسيمهم الى ثلاث فئات : الاولى ـ ارتكب كتابها اخطاء فى سرد وتحليل الاحداث والوقائع التاريخية ••• والفئة الثانية ـ شوه كتابها فى نقدهم واسلوبهم الروائى الطابع السليم للمجتمع العربى ومقوماته الاسلامية الحضارية •• والفئة الثالثة ـ كتابها قلائل شرحوا بامعان وانصاف اهمية الحضارة العربية واسهامها فى انتقال شعوب اوروبا من التخلف والانحطاط الى عصر النهضة الذى بدا فى القرن الثالث عشر الميلادى •

التحريف والتشويه خلال عدة قرون :

وهكذا انتشرت فى جامعات ومعاهد اوروبا منذ القرن الرابع عشر ميلادى حتى القرن العشرين الدراسات المتنوعة عن الشرق الاسلامى وبصورة عامة ان الدراسات التى تناولت النواحى الفكرية الاسلامية والاوضاع السياسية والاجتماعية فى عصور الخلفاء والعصر الحديث لم تكتسب الطابع السليم فى الاسلوب والشرح والتحليل ... هذا بالاضافة الى الصورة المشوهة فى الكتب التاريخية التى وضع بعضها كتاب من اليهود فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر واوائل القرن العشرين مثال ذلك المؤرخ اليهودى النمساوى فندسيم ، والمؤرخ اليهودى الهولندى راؤول غاسى ، والكاتب اليهودى الفرنسى جاك ليف ، والكاتب اليهودى الالمانى هنزر بارنسيس ، واليهودى الهنغارى دانيال كاشن ، واليهودى الروسى سيرجس سيمانوف وغيرهم .. وغيرهم .. بالاضافة الى المجموعة الكبيرة من الاساتذة اليهود فى جامعات اوروبا الشرقية والغربية .

وقد تكونت اخيرا عدة لجان من الاساتذة المستشرقين فى المانيا وسويسرا واليونان والدول الاسكندنافية ومهمتها العمل على ادخال التاريخ الاسلامى الى جامعات اوروبا بروح علمية واقعية واعتمدت لذلك قبول كتاب «التاريخ الاسلامى» للدكتور ابراهيم الشريقى كمصدر اساسى يجب اتباعه فى تدريس مادة تاريخ العالم الاسلامى وحضارته .

مجلة فكر وفن عدد 19 تصدر فى المانيا .
انعكاسات الفنون الاسلامية على الفن الالمانى :

كتبت مجلة «فكروفن» الالمانية مقالا بعنوان انعكاسات الفنون الاسلامية على الفن الالمانى ترجمه : نبيه سرسم .

مما جاء فيه : قبل 60 عاما بالضبط فى سنة 1912 اقيم لاول مرة فى مدينة ميونخ معرض «الفنون المحمدية» ومجرد استعمال كلمة «المحمدية» فى العنوان يدل على مدى الجهل فى حقيقة العالم الفكرى الاسلامى ، ذلك الجهل الذى كان ضاربا اطنابه فى ذلك الحين الى درجة ان آرنست ديتس Ernest Diez اضطر بعد ذلك بثلاث سنوات الى ان يشكو فى كتاب «الفن لدى الشعوب الاسلامية» من ان تاريخ الفن قد اهمل بصورة كلية تقريبا .
الاوساط الفنية غير الاوروبية فى العصور القديمة والحديثة .

غير ان معرض ميونخ الكبير بفهارسه الممتازة مهد السبيل وللمرة الاولى امام الانتاج الفنى للعالم الاسلامى لدخول اوساط اوروبية واسعة بعد ان كانت معرفته مقصورة بنطاق ضيق على قلة يسيرة من الهواة ، فالسجاد والمشغولات المعدنية والزجاجية وفن الخط بالاضافة الى اوجه فنية عديدة اخرى تناولها العلم بالبحث والتمحيص فاتحا بذلك افقا جديدا يضفى على هذه الكنوز الفنية من تقدير واعجاب . لقد تحدث ديتس Diez عن الطابع العالمى الشامل للفنون الاسلامية التى تنضم تحت لوائها شعوب عديدة.

ولقد اضفت الدراسات والابحاث العلمية على هذه الفنون الاسلامية ما هي جديرة به منذ ان بدات سنة 1912 .

وتجدر الاشارة الى ما كان لهذه الفنون قبل ذلك من ايحاءات على افكار الاوروبيين وتخيلاتهم فبنفس الطريقة التى اقتبست فيها نتف من القصص والاساطير وانتقلت ابان الحملات الصليبية من الشرق الاسلامى الى اوروبا حيث استمر نشرها عبر قرون عديدة بعد ان عمد الى تحريرها واضفاء اشكال جديدة عليها ، انتقلت مصنوعات العاج والبلور والمعادن والزجاج وغيرها من المصنوعات اليدوية النفيسة سائرة على نفس درب سابقتها حتى بلغت الغرب . وكانت جزيرة صقلية مفترق الطرق بالنسبة لهذين الاتجاهين من التقاليد . وصناعة النسيج الاسلامية وفنونها والتىاقتبستالاقمشة الاوروبية العديدة اسماءها منها ، ابتداء من الداماست – نسبة الى دمشق – وانتهاء بالتافت – نسبة الى كلمة تافته الفارسية. هذه الصناعة المتقنة انعكست فنونها واساليبها على فنون الصناعات الاوروبية المماثلة ، واستمرت تظهر بكل جلاء منذ القرون الوسطى حتى العصر الحديث ، ونكتفى للدلالة على ذلك بالاشارة الى مثل واحد فنعيد الى الاذهان الطنافس التى قلدتها تصاوير هولبان Holbein (المتوفى سنة 1543) وغيره من الرسامين والفنانين الالمان والايطاليين . ولقد اعيد رسم الخط العربى بسحره وغموضه وتم نقشه باشكال مختلفة على قطع الحلى وحتى على تصاوير دينية لبعض القديسات . ووصل اقتباس اشكال الخط العربى اوجه عند ما نقشت انواع مختلفة منه ذات فحوى دينى ودنيوى نقلا عما طرزت به الاقمشة العربية والفارسية ، فظهرت ليس على رداء تتويج امبراطور المانيا فحسب ، بل حتى على الملابس الدينية للكهنة والاغطية المستعملة فى الكنائس .

وعند ما بدا الاستشراق واصبح علما سنة 1800 م اخذت البحوث تتناول الآداب الاسلامية ، وحتى مدرسة فيينا نفسها كانت دراساتها فتحا لباب التفهم العميق للاعمال الشعرية والفنية الخاصة بالعالم الاسلامى ، فكانت منطلقا للتأثير على جوتيه وفريدريش روكرت اللذين سعيا الى ان يتبنى الادب الالمانى الشرق الاسلامى وشعراء الفرس .

وقد ادت دراسات الاديب الامريكي واشنطن ارفنك (المتوفى سنة 1859 م) الخاصة بقصر الحمراء الى اعادة النظر والتأمل فى البناء الاندلسى ، تمخضت عن ذلك فكرة تشييد الابنية في المانيا وانجلترا وفرنسا على الطراز العربى فى الاندلس . وقد كانت المنصة الاندلسية للملك البافارى لودويك الثانى مثالا صارخا على ذلك ، وعلى نفس المنوال ما يسمى بمزهريات الحمراء ، هذه المزهريات النفيسة الكبيرة المجنحة التى صنعت حسب نماذج اسبانية – عربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من قبل معامل الخزف الغربية . وكذلك المساجد العثمانية بقبابها الساحرة ومنائرها المدببة والتى تعتبر آية فى الروعة والجمال فقد كانت حافزا لقرائح المعمارين والفنانين .

ان الاسلامقداحتوته الآنالنظرة العالميةالشاملة ولم يعد ينظر اليه كتلك القوة المعادية التى تهدد العالم الغربى المسيحى ، بل ينظر اليه كـدين ومدنية فريدة فى بابها حتى ولو لونتها احيانا الثقة بالنفس التي يتمتع بها الاوروبى المؤمن بالتطور والتقدم والذى لم يتمكن باديء الامر من اكتشاف غير القلة القليلة من الاوجه الموجبة فى البلاد الاسلامية التى استعمرها • غير ان الاهتمام نما شيئا فشيئا،فبعد المحاولات الاولى للفيلسوف هـيردر J. G. HERDER (المتوفى سنة 1803) لادخال الاسلام فى تاريخ العالم ، دفع هيجل HEGEL (المتوفى سنة 1831) بجل اهتمامه الى الحضارة الاسلامية ، فقد جذبه اليها ما كان يكتنفها من غموض ظهرت جلية واضحة بعد ان انقشعت عنها غمامته فبدت له وكانها سند لافكاره الفلسفية •

اما بالنسبة للفنون التشكيلية والرسوم والنقوش والزخارف فقد كان لها تأثير كبير على الفنانين التشكيليين الاوروبيين الذين استغلوا الامكانيات الواسعة التى اتاحها لهم المشرق . وقد ادت المواضيع الشرقية بالوانها الزاهية التى استغلها اوجين ديلاكروا Eugène de la Croix (المتوفى سنة 1863 م) الى تبنى وجهات نظر جديدة بالنسبة للعالم الاسلامى ، وخاصة شمال افريقيا الذى كان اقرب ما يكون الى المستعمرين الفرنسيين فبقى بعدئذ منطلقا لوحى الرسامين الساعين وراء النور •

وتزايد تأثير الاعمال الفنية الاسلامية وخاصة على «الفن الجديد» l'Art Nouveau فى اوائل القرن العشرين ، فزجاج الحلى والاثاث والمصوغات وغيرها لا يمكن تصورها خارج نطاق التأثر بالفنون العربية ، وتعود النقوش العربية الى الظهور مرة اخرى فى نقوش الرسام الفرنسى ماتيس Matisse (1869 – 1954) ، كما ان الاشكال الهندسية الصرفة المستعملة فى الزخرفة والتى اقتبست مؤخرا بعد الحرب العالمية الاولى من قبل فنانى مدرسة باوهاوس Bauhaus وخاصة السجاد الذى انتجته هذه الاوساط ، لا يمكن تصورها خلواً من الطابع الاسلامى •

ويعتبر فن الخط اغنى ما قدمه الاسلام الى تاريخ الفن لما يمتاز به من طابع خاص • فللخط المستعمل فى الزخرفة والذى يتجه بطبيعته الى فن النقوش العربية جاذبية ساحرة كما نجده دائما باشكاله المختلفة على المبانى والاوانىالمختلفة وقد اكتشف الفنان باول كليه هذه القوة السحرية للخط العربى وحاول تثبيتها واظهارها فى لوحاته المختلفة •

وتجرى فى لندن تجارب جديدة لحل رموز الزخرفة الاسلامية . فالتحليل العلمى لأشكال المبانى والسجاد والحلى وتحويرها الى اعمال فنية حديثة ، غالبا ما تولد تأثيرا عجيبا سيكون حتما نقطة انطلاق لاستمرارية تطور الاشكال الفنية الحديثة •

المجاهد عدد 668 ــ 3 جوان 1973

التغيير الثقافى كأداة للتنمية فى الريف

للدكتور محمد السويدى

يمثل الريف اليوم قمة التحدى امام الثورة الجزائرية ، ففى مجتمع كالمجتمع الجزائرى اكثر من ثلثية يعيشون فى الريف لا بد ان نتصور مدى ضخامة المسؤولية الملقاة على الدولة ، للاتجاه نحو القطاع الريفى بكل امكانياتها . ومن عايش سكان الريف او نشأ فى احضان القرية لا يشك فى ان الهوة بين المدينة والقرية ... هوة ثقافية اساسا واقتصادية كذلك ، وان جدية بناء مجتمع جديد تسوده المساواة يتطلب القضاء اولا على هذه الهوة الثقافية الفاصلة بين المواطنين ... ريفا وحضرا .

التخلف الثقافى :

ثقافة الفرد والمجتمع جزء منه . فالتقاليد والعادات والاتجاهات الفكرية والمعتقدات وغيرها من عناصر الثقافة بمفهومها المتكامل تشكل حياتنا ، وتلون سلوكنا بلون خاص نتمسك به ونحافظ عليه ، لانه جزء منا .

لكن المجتمع قد يتعرض فى فترة من فترات حياته الى تغييرات قد تتناول عناصر بنيته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فقد يتحول من مجتمع زراعى الى مجتمع صناعى ، او من مجتمع راسمالى اقطاعى الى مجتمع اشتراكى تعاونى ، فاذا بقيت الافكار والانماط الثقافية فى ظروف مغايرة واوضاع مختلفة ، واذا تجمدت القيم وبقيت على حالتها القديمة ، ولم تتغير الاتجاهات لتلائم الظروف الجديدة اختل التوازن وحدث ما نسميه «التخلف الثقافى» اى ان التغير قد يصيب بعض الانماط بنسبة اكثر مما يصيب البعض الآخر . والثقافة كما هو معروف تتألف من الجوانب المادية (مبانى ، مصانع ، آلات تكنولوجية الخ) والجوانب المعنوية (عادات اجتماعية ، نظم اسرية ، طرق تفكير ... الخ) .

والتغير السريع فى بعض الجوانب الثقافية لا ينتج تخلفا فى الشكل العام للثقافة فحسب ، بل يؤدى الى انواع من الصراع الاجتماعى ، والى مشاكل اخرى متعددة . كما يلاحظ ان بعض الانماط الثقافية تعيش وتستمر بعد ان يزول الغرض الذى وجدت من اجله ، وتظل هكذا حتى تصبح فى فترة ما غير ملائمة للظروف والحاجات الاجتماعية الجديدة ، مما يتسبب فى ظهور انواع من التخلف الثقافى ، تؤدى بدورها الى انواع من الصراع الاجتماعى .

تتجلى صور التخلف فى الريف الجزائرى فى مجالات شتى ، فلا يزال الريفى يستخدم الطب الشعبى فى العلاج ، وينظر نظرة مغايرة لساكن المدينة فيما يخص تعليم الفتاة .. يقف الريفى سكونيا فى كثير من المواقف دون محاولة استخدام فكره .. تصاب زراعته بالآفات ويصاب اطفاله بامراض شتى فيهرع الى الحجاب والتميمة والتعويذة و ... يستعطف الجن والعفاريت لابعاد شر الحسد والنظرة «العين» التى سببت

له كل هذا . اما الخرافات التي يتوارثها دون نقاش فتمثل عناصر ثقافية هامة ، تنتقل اليه من جيل الى جيل . فالساقية المهجورة مسكونة .. لا يمكن الاقتراب منها أو الاستفادة منها ، والارواح الشريرة تخرج ليلا لتخرب وتدمر وتقتل ... الخ .

امس واليوم :

قبل عام 1962 كانت كلمة ثقافة في مجتمعنا غامضة ، وكانت متوجهة ضد الشعب لخدمة مصالح استعمارية واقطاعية . وكان جانب من تلك الثقافة « ثقافة رجعية » كان يعمل اصحابها على تخدير الاغلبية الجائعة وتسميم افكارها ، وتركوها نهبا لخرافات القرون الوسطى اما المتع الحقيقية للثقافة فكانت وقفا على تلك الاقلية من المعمرين واتباعهم ومن هم في خدمتهم. لكن بعد عام 1962 وضعت السلطة الثورية في اعتبارها ان تخطط لثورة ثقافية تكمل الثورتين الصناعية والزراعية في اطار خطة التنمية الشاملة .

فبدات القرية الجزائرية منذ 1962 تتنسم عبير ثقافتنا الوطنية الجديدة ، جنبا الى جنب مع مشروعات التنمية والاصلاح والبناء ، فكما حطمت الثورة ركائز الاستعمار وحررت الفلاح الجزائري من استغلال الكولون بتطبيق اسلوب التسيير الذاتي الزراعي ، فانها ايضا حطمت احتكار الثقافة وطوعتها لتنفذ الى فكر الريفي وحسه ووجدانه .

فلسفة التغيير الثقافي :

ان فلسفة التغيير الثقافي تتجلى في كونه الركيزة الاساسية التي لا غنى عنها في عمليات التنمية بمعناها الاجتماعي الواسع الذي يضم – الى جانب المفهوم الاقتصادي – كافة الموارد والطاقات الروحية والاخلاقية والثقافية ، وهي الطاقات المحركة لقوى التغير .

ان التغيير الثقافي في ابسط مظاهره يعني تعديل الافكار والاتجاهات واساليب الحياة كما يعني في مدلوله البعيد تعديل الاطار الايديولوجي وتوسيع عملية التفاعل الفكري لدى الانسان كجزء منتمي وملتحم بجماعات الواقع التي يجد نفسه واحدا في بنائها المادي والفكري والروحي .

لكن تظهر صعوبة التغيير الثقافي في المجتمع الريفي خصوصا وانها عملية تعديل في الافكار والاتجاهات واساليب الحياة . وان اى تغيير في الريف سوف لن يتناول افرادا بقدر ما يتناول «وحدات» تشتد صلابتها او تخف مقاومتها بحسب تمسك هذه الوحدات بالافكار والعادات التقليدية اكثر من تمسكها بالمؤثرات العقلية والنماذج الفكرية الجديدة .

ومع هذا فان التضامن والانسجام الاجتماعي الوثيق داخل المجتمعات الريفية يجعل عملية التغيير عملية ميسورة – الى حد كبير – لو امكن الكشف عن مصادر الاشعاع والتاثير الروحي والاخلاقي والثقافي في هذه الجماعات ، اى فهم طبيعة الجماعات الريفية واحتياجاتها من جهة ،

وتحديد مسارات التأثير والعناية الخاصة التى يجب توجيهها الى الاجزاء المتشابهة والاجزاء المتباينة داخل الجماعات القروية . ان التغيير الثقافى المرتكز على القانون او الاساليب الالزامية او حتى تلك التى تتخذ من الانماط والعادات والاساليب القديمة مظاهر للسخرية - بقصد اثارة النفور والكراهية نحوها - للتخلى عنها الى الانماط الجديدة الوافدة او المستحدثة ، كل هذه المحاولات لا تحدث آثارها الايجابية ، ولا تجدى فى كثير من المواقف الا فى اثارة انواع من الشكوك وعدم الثقة فى السلطة وممثليها لانها نفذت اليهم من غير مسالكها السوية .

امور لا بد منها :

وعلى هذا فان المخطط للتغيير الثقافى فى المجتمع الريفى ينبغى ان يراعى الاسس التالية :

اولا : ان الجماعات الريفية وحتى تلك التى تعتبر بمعزل عن المراكز الحضرية لا يمكن ان تكون بعيدة عن تأثير الثقافة الحديثة . كما يجب الا نتصور وجود فراغ فكرى او جمود ثقافى عند القروى الى حد يجعلنا نهمل تلك المقومات التى تتصل بالاتجاهات والميول والاذواق وانماط السلوك والتفكير عنده .

ثانيا : ان اى محاولة للتغيير الثقافى فى اى مجتمع ريفى ينبغى ان ترتبط على فلسفة الترابط الكامل بين انسان هذا المجتمع وترابه وحيواناته ، فأى محاولة لتعديل الافكار والعادات والقيم توجه الى الانسان الريفى بمعزل عن بقية العناصر الاخرى ، انما تحطم الحلقة الاساسية للتغيير الثقافى فى الريف . ويمثل ذوو النفوذ من القادة المحليين عنصرا هاما فى التأثير الجماعى داخل المجتمع المحلى ، فيعتبرون اداة اساسية من ادوات التنمية الاجتماعية فى الريف .

مجلة فكر وفن - عدد 19

Siegfried Von Nostitz : Algerisches Tagebuch 1960-1962. Econ Verlag. Düsseldorf.

«يوميات جزائرية» (1960 - 1962)

للمؤلف سيجريد فون نوستتز

لعل عامل الزمن فى صف هذا الكتاب الذى ينقل الينا تجارب ومشاهدات واحكام صاحبه فى مراحل الثورة الجزائرية الاخيرة والتطورات المباشرة عقب الاستقلال . وعامل الزمن ينصف صاحب هذه اليوميات ، فنحن الآن ، بحكم المسافة الزمنية التى تفصلنا عن الحوادث نستطيع ان نرى بسهولة مدى دقة وصواب وموضوعية احكام المؤلف وقدرته الفائقة على تقييم الحوادث وتفهمها . والكتاب بهذا فضلا على ما ينقله الينا من تجارب وصور حية عن الثورة الجزائرية يتضمن معلومات قيمة عن الجزائر .

مجلة فكر وفن ـ عدد 19

وفاة المستشرق الالماني جوستاف فون جرونباوم
Gustav Von Grunebaum

توفى منذ مدة قصيرة المستشرق الكبير جوستاف فون جرونباوم ولم يتجاوز الثانية والستين ، وهو من علماء الصف الاول بين جيله من المستشرقين المتخصصين فى التاريخ الاسلامى وفى الادب والحضارة والتاريخ الحضارى للعالم الاسلامى عامة والعربى خاصة ٠

ولد جرونباوم عام 1909 فى فيينا ودرس العلوم الاسلامية فى جامعات فينا وبرلين، وبرز كعالم شاب نابغ بدراساته عن الشعر العربى القديم ، تلك الدراسات التى تناول فيها أصعب الانماط الشعرية التى عرفتها العربية ٠ ويوجه اهتمامه الى « آفاق العالم فى الشعر العربى القديم الأول » اى كيف نظر كبار الشعراء فى ذلك المجتمع البدوى قبل الاسلام الى « العالم » وفى أى « عالم » عاش هؤلاء الشعراء ؟

واثناء الحرب العالمية الثانية وضع اشهر مؤلفاته « الحضارة الاسلامية فى العصر الوسيط » **Medieval Islam** وهو لا يزال حتى الآن فريدا فى بابه ٠

كما اتجه جرونباوم باهتمامه الى دراسة المشاكل المعاصرة فى العالم الاسلامى ، وأخذ يحلل ويعلق على التراجم الذاتية والعروض النظرية الاتجاهية للكتاب والمفكرين المسلمين ، من بين مؤلفاته : « الاسلام ، مقالات فى نمو التراث الحضارى » ٠

و « الاسلام الحديث ، البحث عن الشخصية الحضارية » ٠

و «دراسات فى الصورةالحضارية والفهم الذاتى للاسلام » ٠

واستهدف جرونباوم من هذه الابحاث العلمية أن يظهر عن طريق الامثلة المحسوسة وعن طريق الحالات الفردية ، أن يظهر التشعب والتعقد والطبيعة الذاتية للتراث الحضارى الاسلامى ٠ ومنذ عام 1957 حتى وفاته وجرونباوم يرأس «مركز دراسات الشرق الاوسط » بجامعة لوس أنجلوس٠



Dans notre pays, nombre d'administrateurs de communes mixtes ont décrit ce qu'ils croyaient être la sauvagerie amusante ou comminatoire de leurs administrés. Le monde rural, notamment, a été considéré sous ce double aspect. D'où la multitude de textes sur la religion populaire décrite comme spectacle exotique dans ses manifestations, mais redoutée dans ses effets. Si l'attention a été autant retenue par les zaouias, c'est qu'elles portaient en elles un germe de résistance irréductible. Hanoteau s'en est pris violemment aux Rahmaniya qui suscitèrent le soulèvement de Bou-Beghla, à l'époque d'El-Mokrani...

Somme toute, au lieu qu'elle fût considérée comme la science de l'Homme universel, étudiant pour les rapprocher les différentes civilisations d'Asie, d'Afrique, d'Europe, d'Amérique et d'Océanie ; au lieu qu'elle se constituât en étude différentielle des ethnies et des cultures libres et égales en droit pour ainsi dire, l'ethnologie coloniale a délibérément retenu comme hypothèse et conclusion que les sociétés pré-industrielles (à fortiori les groupes pré-scripturaires) — entendons : les sociétés qui, au XIX^{e} siècle n'avaient pas encore connu pour des raisons historiques précises l'ère des charbonnages et du machinisme — étaient nécessairement inférieures. En d'autres termes, on nous a appliqué des préjugés scientifiquement intolérables.

Les chercheurs du Tiers-Monde prennent conscience de cette déformation des faits. La page coloniale étant maintenant tournée au Maghreb, il nous appartient de faire en sorte que le Maghreb-objet se transforme, dans le domaine sociologique, en Maghreb-sujet. Il est temps de réhabiliter la science du fait social dans sa vocation qui est d'être tout à la fois positive, féconde, concrète, libre et — pourquoi pas ? — comparative.



d'être différentes de l'europe, sont vite perçues comme a-historiques. Boucher de Perthes ayant exhumé des outils préhistoriques dès 1828, un autre pas fut franchi : on songea que l'équipement technologique des groupes africains, dits primitifs, devait être le même, à quelques nuances près, que les objets recueillis dans les couches sédimentaires ou les cavernes. En un mot, l'homme qui s'est éteint avec sa culture il y a des milliers d'années, l'ethnologie naissante croyait l'avoir retrouvé vivant dans les futurs pays du Tiers-Monde.

Ce rescapé du Temps devait avoir des caractéristiques mentales et biologiques déterminées. Il était notamment, suivant les chercheurs de l'école animiste, inapte à la théorisation. Sa tendance au mimétisme en faisait un être voué à la stagnation. Ce "sauvage", faute de pouvoir dégager des concepts et saisir les rapports, se réfugiera dans les "représentations collectives" qui font se fusionner l'intellect et l'affectif. La théorie de la "causalité mystique" restera l'un des supports de ce que l'auteur de *l'Ame primitive* a appelé du terme significatif de "pré-logique".

En réalité, cette toile de fond qui se voulait scientifique s'inscrit dans le contexte politique de la colonisation. Ethnologie du XIX° siècle et phénomène colonial : celui-ci est inséparable de celle-là, la première cautionnant le second intentionnellement ou indirectement. Car une fois expliqué que le "sauvage" est bien sauvage et que son éducation s'impose, le "civilisé" qui ne demande qu'à exporter sa civilisation s'empresse de le faire. On sait de quelle raison seront inspirés les termes du contrat... La prétendue mission civilisatrice a toujours été l'un des arguments les plus fallacieux qu'ait brandi une société dominante pour asservir, sinon assassiner physiquement ou culturellement, une société dominée. Ordinairement, les génocides affectionnent le voile pudique d'une morale forgée sur mesure.

Bref, dès l'implantation des colons, l'administration européenne cherchera par tous les moyens à connaître "les indigènes". Connaître surtout les valeurs et les besoins du groupe pour prévoir ses réactions dans les circonstances les plus variées. Les études ethnologiques seront ravalées à cette fonction d'éclaireur. En Algérie, des dizaines d'officiers des affaires indigènes, de petits enseignants, de voyageurs et de missionnaires européens s'improviseront sociologues de l'autochtone !

Certes, certaines de leurs études ont le mérite d'avoir photographié une réalité difficilement déformable et aujourd'hui insaisissable parce qu'éteinte. A ce titre, elles nous ont conservé des documents uniques au monde, précieux parce que singuliers. Ainsi, grâce au père de Foucauld, nous héritons d'un immense lexique tamacheq que nous n'aurions peut-être pas pu reconstituer de nos jours. Nous devons à un autre militaire, le général Hanoteau, un recueil dense de poésies Kabyles transcrites dans les années 1860...

Cependant, il est à noter que l'intention, dans la plupart des cas, était étrangère à la science chez les ethnographes du siècle dernier. Perçu sous le prisme déformant du complexe de supériorité et dans le contexte de l'occupation, le trait culturel collecté par les glanneurs d'extravagances subissait, dans la description même qui en était faite, une mutilation fatale. Et que dire de l'analyse ? Orientée vers une première finalité sans équivoque qui était de renseigner l'autorité repressive, l'étude sous couvert de science, se devait de justifier le fait colonial accompli. Les Hollandais n'enseignaient-ils pas dès 1870 l'ethnologie à leurs administrateurs des Indes néerlandaises ?

L'ALGERIE ET LE TIERS-MONDE POUR L'ETHNOLOGIE DU XIXème SIECLE

par Youssef NACIB
Maître-assistant à l'Université d'Alger

Il est intéressant de se demander ce que représentaient les Algériens et les peuples du Tiers-Monde en général aux yeux de la plupart des ethnologues européens du XIXᵉ siècle.

On sait qu'après la Renaissance, les grandes découvertes (Indes, Amérique etc...) ont engendré le désir de partir à la recherche des peuples exotiques et de leurs "étranges" façons de vivre. Au sortir du Moyen-Age clérical et dogmatique qui enseignait qu'hors de l'Eglise, point de salut", les "autres" — qu'étaient les sociétés extra-européennes — ne pouvaient tout naturellement être que des tribus sauvages. L'ethnocentrisme était la norme. C'est en son nom, avoué ou tacite, que l'Europe se lançait dans sa grande entreprise de "civilisation". Prospéro se faisait un devoir de dégrossir Caliban : Shakespeare, déjà, posait de fait le problème colonial...

Mais dans tout cela la puissance aveugle gardait le maître-mot. Du moins, les règles du jeu avaient-elles le piètre mérite de la clarté. Caliban autant que Prospéro savait que l'île avait un seul propriétaire légitime. Mais le second avait le fer pour lui quand le premier n'était fort que de son bon droit.

Or, à compter des années 1830 (date doublement marquante pour l'Algérie), l'expansion européenne et l'exploitation par elle de riches contrées lointaines tenteront de trouver leur fondement moral dans les exigences de la science. Les études éthnologiques débutantes du siècle dernier joueront alors ce rôle de savantes de service : elles en conserveront longtemps un arrière-goût de péché originel.

Dès la publication de la théorie comtiste à partir de 1830, donc, le schéma ternaire de l'évolution ayant pour double pôle l'obscurantisme de la barbarie et la clarté de l'âge positif, séduira les esprits. Or, les lumières de la raison et la santé morale, dans la perspective européano-centrique, étaient évidemment européennes ; quant aux affres de l'ignorance et de la sous-éducation, l'ethnologie balbutiante les attribua d'office aux sociétés exotiques. Ainsi, le temps épouse-t-il l'espace et leur union rassure-t-elle les bonnes consciences... Le lointain géographique et le primitif originel ne font qu'un dans l'esprit des premiers ethnographes, tandis que le plus proche et le civilisé se confondent dans la culture européenne de l'époque. Les sociétés "différentes", coupables

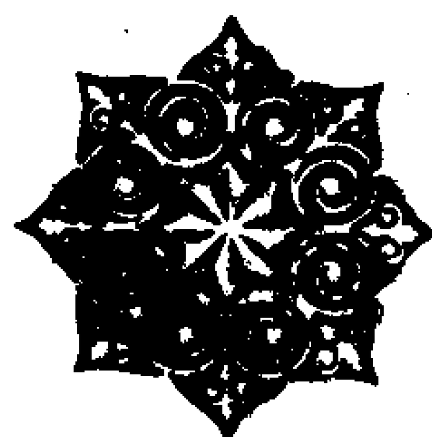
Mis à part le goût du merveilleux et de l'extraordinaire, les thèmes majeures de l'histoire de l'Algérie, avant 1830, sont les drames de la captivité — celle des Musulmans pris en mer et vendus à Livourne notamment, n'y figure pas — et les campagnes anti-turques.

Nombre d'historiens sont obsédés par la puissance d'Alger et par le désir de raser «la caverne des voleurs», et rêvent d'une opération décisive contre Alger.

L'intolérance est à leurs yeux une force de la foi. Ils jugent l'Islam avec des idées reçues. C'est une religion erronée... Ceux qui venus d'Europe se faire musulmans sont des traitres. Le reniement est impardonnable et même les tentations de l'intérêt ne sauraient l'excuser, «car la faute la plus grave qu'un Chrétien puisse commettre et de renoncer à sa religion».

Au XIXe siècle, les règles critiques de la méthode historique sont définies en Europe. Certains spécialistes du Maghreb commencent à rassembler, des matériaux, à confronter les sources et à présenter, avec plus ou moins de succès, des travaux de synthèse qui, malgré les lacunes ou les orientations données et que nous avons relevées plus haut, demeurent un apport substentiel à la connaissance de notre passé. Nous ne devons pas tout rejeter ou tout accepter, mais utiliser avec précaution ces travaux dont certains — rares hélàs — méritent d'être traduits en arabe au grand profit des chercheurs.

Moulay BELHAMISSI



A côté de travaux solides, il y a de nombreux ouvrages de vulgarisation populaire qui n'ont rien d'une histoire scientifique (29) mais dont le dessein est de plaire ou des œuvres condensées : en moins de deux cents pages toute l'histoire du pays y passe (30) ou des sortes de répertoires, on énumère des faits sans expliquer et sans commenter (31).

L'époque turque n'est qu'esquissée pour pouvoir arriver rapidement à la conquête de 1830 (32).

Parcourons le livre de L. Galibert. «L'Algérie ancienne et moderne (Paris 1844, plus de 639 p.). La description du pays et son histoire depuis l'antiquité jusqu'en 1830 s'arrêtent à la page 249. Tout le reste est consacré à la domination française.

Le romanesque et le gout du merveilleux s'y mêlent à l'histoire proprement dite (33). Par contre le travail est quelquefois rebarbatif, on n'a, en face de soi que brutalités, révolutions, guerres pendant des siècles, domination du petit par un grand, Pas de progrès ou de civilisation, pas d'œuvre humaineconstructives. Telles sont les impressions en lisant le livre du Général Faure-Biguet (34).

Quelques aspects de la vie algérienne avant 1830 sont parfois rapportés brièvement.

Dubois-Fontanelle (Joseph Gaspard) essaye de les présenter (35) en 60 pages du tome IV de son livre.

C'est une sorte d'histoire d'Alger par narration des faits jugés principaux depuis le XVI[e] siècle et le récit de quelques anecdotes : empiètements des Deys sur le pouvoir des pachas, représentants du sultan, et diminution parallèle de l'autorité de la Porte à Alger, fortune extraordinaire d'un pauvre captif d'abord misérable et couvert de vermine qui renie, devient corsaire, puis pacha de Tripoli puis d'Alger, et les principales attaques des nations européennes d'Alger.

Cette richesse et cette variété de sujets traités s'expliquent par le fait que l'Europe dès le XVI[e] siècle découvre le Maghreb à la faveur d'une époque agitée qui favorise les grands desseins. Un esprit de conquête universelle, militaire, commerciale et intellectuelle anime les Européens. Les voyages lointains, les découvertes de nouvelles terres et de peuples inconnus devaient conduire à un élargissement considérable de la recherche historique.

---

29) *Clausolles* (P) : «L'Algérie pittoresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours... (Paris 1843 - 2 V.).

30) *Filias* (Ach.) : L'Algérie ancienne et nouvelle. (Paris 1875 - 192 p.) «une sorte de vade-mécum pour gens cultivés».

31) *Garot* (H) : «Histoire générale de l'Algérie (Alger 1910 - 1189 p.).

32) *Vinchon* (Le Baron de) : Histoire de l'Algérie et des autres Etats barbaresques jusqu'à nos jours (Paris 1839 316 p.).

33) *Farine* (Ch.) : Deux pirates au XVI[e] siècle, histoire de Barberousse. (Paris 1869 -(377 p.).

34) Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane (Paris 1905 - 458 p.).

35) «Anecdotes africaines depuis l'origine ou la découverte des différents royaumes qui composent l'Afrique jusqu'à nos jours» (Paris 1775 - 8 T. en 1 V.).

Ces auteurs, appartenant aux différents ordres religieux (27), ont écrit en fait des ouvrages de propagande. Ils voulaient intéresser les fidèles au sort des captifs pour ramasser des sommes d'argent. L'exagération, la cruauté et l'horreur pouvaient seules rendre les cœurs plus tendres. La publication de ces écrits permettaient une plus large diffusion de ces renseignements susceptibles d'alimenter la haine contre les Musulmans et non de satisfaire la curiosité d'esprits avides de plus amples connaissances. On s'émeut sur les malheurs que les Algériens infligent à la chrétienté pour en appeler à la croisade contre l'Islam.

Les consuls européens (28) qui étaient en poste à Alger ont consigné leurs souvenirs, noté des faits, rapporté certains évènements touchant le Maghreb Central.

Certains étaient même des témoins contemporains. Ils étaient donc généralement bien informés sur quelques problèmes. Leurs correspondances et leurs rapports sont une mine de renseignements.

Mais ils sont dans l'ensemble peu favorables aux nouveaux maîtres de la Régence. D'autre part, plusieurs consuls étaient confinés dans les villes de leur résidence, ne voyageaient pas, ou très peu, et ne portaient pas une attention particulière à la vie profonde du pays.

Dans la capitale même, la société musulmane leur restait secrète. Ils ignoraient la vie des ruraux et des citadins et «partageaient les préjugés de leurs compatriotes.

A leurs yeux, les gens du Maghreb étaient la source de tous les malheurs ils étaient fourbes, paresseux, avides, ingrats, en un mot, ils avaient tous les vices».

Les livres parus après 1830 ont une autre tendance et sont d'inégale valeur. Si pour la période romaine, les auteurs ont eu recours aux sources autorisées, ils ont consulté pour l'Antiquité les textes mêmes des auteurs grecs et latins, si pour la période coloniale ils ont exploité les comptes rendus, les rapports officiels et d'autres documents, pour la période musulmane ils ont éprouvé des difficultés à étudier les textes arabes d'histoire ou de géographie qu'ils jugeaient presque toujours «jamais précis et laissant une grande part à l'hypothèse...» Les noms de famille leur paraissaient rébutants, et les évènements des «revirements constants d'une histoire qui se fait et se défait sans cesse» (G. Marçais). Rares sont les historiens qui lisaient couramment l'arabe et en comprenaient les finesses, les tournures ou les images.

---

27) *Godard* (l'Abbé) : (ancien curé de Laghouat). «Les soirées algériennes. Corsaires esclaves et martyrs de Barbarie» (Tours 1857 - 236 p.) : c'est une suite de récits sur la période Turque Maures expulsés d'Espagne, les Turcs, les Corsaires, les prises, les rénégats, la fuite des esclaves martyrs, le rachat. Les Lazaristes.
Godefron, Gornelin et la Motte (les pères) : «Etat des royaumes de Barbarie, Tripoli, Tunis et Alger, contenant l'histoire naturelle et politique de ces pays, la manière ou les Turcs y traitent les esclaves comme on les rachète et diverses aventures curieuses» (Rouen 1731 - 263 p.).
(«L'Etat chrétien politique du royaume d'Alger description de Bône séjour à Alger (1700) avec la narration des pourparlers»).

28) *Grammont* (H. de) : Correspondance des consuls d'Alger (1600-1742) (Paris 1890 - 293 p.).
Plantet (E) : Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France (1577-1830) (Paris 1893-1894 - 2 V. 654-784).
Arvieux (Chevalier d') : Mémoires... (Paris 6 V.) (La narration de son voyage à Alger se trouve dans le T. V. ; il y séjourna en 1674).
Berbrugger : Un consul à Alger au XVIII[e] (R.A. 1862) (il s'agit de Bruce, consul d'Angleterre).
Devoulx (A) : Les archives du consulat général de France à Alger (S.D. 152 p.).

Quelques chercheurs, après 1830, ont eu le mérite de traduire des rapports officiels et d'exploiter nombres de documents originaux, solides et d'importance (21). Certains ont abordé des sujets très techniques et très utils (22).

Cependant ces qualités ne sauraient faire oublier l'aspect négatif de la **plupart de** ces œuvres.

L'importance de ces sources et de ces livres, pour la période ottomane, est loin de faire l'unanimité des chercheurs. «Pour la période turque, écrit Rinn, *Il y a pénurie de bons documents*, et si ceux que nous sont parfois sincères, curieux et instructifs, ils ne disent presque rien de l'histoire des Arabes et des Berbères ayant vécu en dehors de l'oligarchie, maîtresse du pays» (23).

Quand on examine les écrits des XVIII• et XIXe siècles, français notamment, on remarque que dans le cycle barbaresque, la plus grande place est réservée, en effet à la course, à «la piraterie», à l'esclavage chrétien, au séjour des Européens captifs à Alger, «à leur misère, leurs souffrances, leurs tourments, aux rachats des captifs et aux ordres de rédemption (24), à la vie des commerçants (25), des missionnaires, à la précarité de leur sécurité, au rôle des pères trinitaires et lazaristes «précurseurs du Cardinal Lavigerie».

Le titre choisi par le père Dan à son livre est significatif : «Histoire de Barbarie et de ses corsaires, le royaume et les villes d'Alger, de Tunis et de Salé de Tripoli où il est traité de leur gouvernement, de leurs mœurs, de leur cruauté, de leurs brigandages, de leurs sortilèges et de plusieurs autres particularités remarquables par le Père Dan, bachelier en théologie et supérieur du couvent de la Sainte Trinité pour la Rédemption des captifs» (26).

L'auteur qui a séjourné à Alger entre 1634 et 1635, consacre la plus grande partie de son livre à la façon d'armer en course, aux particularités des rénégats «aux peines et aux misères que les Turcs et les Barbares font endurer aux Chrétiens qui les tiennent esclaves et enfin à l'ordre de la Sainte-Trinité».

L'objectivité n'est pas la qualité maîtresse de ces œuvres. Les interprétations sont souvent tendancieuses, les omissions volontaires et les informations erronées.

---

21) *Berbrugger* : La prise de Mers El-Kebir par les Espagnols en 1505.
Elie de la Primaudaie : Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique, 1506-1574. (R.A. 1875-1877).
Ricard (R) : Textes espagnols sur la Berbérie (XVe-XVIe et XVIIe siècles) (R.A. 1945).

22) *Devoulx* (A) : Un exploit des Algériens en 1802 (R A **1865**).
Devoulx (A) : La marine de la Régence d'Alger (R **A. 1869)**.
Lacour (A) : La marine de la Régence d'Alger avant la conquête (Alger 1835).
Lacoste (L) : La marine algérienne sous les Turcs (l'Amirauté d'Alger à travers l'histoire) (R. Maritime 1931).

23) *Rinn* : Bulletin de la société de géographie d'Alger 1903.

24) *Aranda* (Emmanuel d') : Relation de la captivité (Paris 1657, 2 parties).
Berbrugger : Voies et moyens du rachat des captifs chrétiens dans les Etats barbaresques (R.A. 1867).
Busnot (le père Dominique) : La tradition de l'Église dans le soulagement et le rachat des esclaves (Rouen 1714 - 278 p.).
Pavy : La piraterie barbaresque (R.A. 1857).

25) *Blavin* : «La condition de la vie des français dans la Régence d'Alger». (Alger 1899, 104 p.).

26) Paris 1637.

du Maroc (16). Si nous connaissons la vie de plusieurs soufi, professeurs ou commentateurs du XVI[e] siècle, nous ignorons par contre celle des hommes qui furent mêlés à la vie politique du pays, et les dirigeants turcs étaient trop peu soucieux de voir relater leurs exploits.

L'histoire proprement dite, est représentée elle aussi parmi les écrits d'auteurs musulmans de la Berbérie, à partir du XVII[e] siècle, par des œuvres qui ne sont pas sans valeur, mais l'on n'y trouve plus la hauteur de vue des grands historiens du Moyen Age, et notamment du plus grand de tous : Ibn Khaldûn. Les historiens des temps modernes et de l'époque contemporaine sont marqués par l'ambiance dans laquelle ils ont vécu : Chez eux, la tolérance relative des historiens du Moyen Age est remplacée par la haine du non-musulman dont ils accompagnent le nom d'une malédiction ou de quelque qualificatif méprisant (17). Ainsi, ces écrivains reflètent l'état d'esprit de leur époque, et nous apportent par là confirmation de ce grand changement... (18).

Les études religieuses ont, dès l'aurore des temps modernes, tenu une grande place au cœur des populations du Maghreb.

«En dehors des disciplines auxiliaires des études religieuses comme la grammaire et la langue arabe dont on apprend tout juste ce qui est indispensable à la compréhension des textes juridico-religieux, de la métrique et de la prosodie pour les poèmes didactiques et la poésie mystique, de la rhétorique et la logique pour les sermons d'édification et la théologie, des rudiments de calcul nécessaires au partage des successions et de l'astronomie servant à la fixation des temps canoniques pour les exercices culturels, toutes les autres activités intellectuelles n'ayant trait qu'aux choses terrestres sans rapport avec la religion et les choses divines sont délaissées comme inutiles, ou tout juste bonnes, comme la philosophie, à troubler les esprits» (19).

Dans l'ensemble, le travail fourni par les historiens français est énorme, la recherche est patiente, le labeur consciencieux et les divisions nettes. Ces remarques sont les qualités majeures des travaux d'un Mercier, d'un Grammont ou d'un Masson qui ont été la base de récents livres d'histoire en langue Arabe.

Plusieurs auteurs ont séjourné à Alger, ou parcouru le pays, ou servi dans l'entourage des Deys et des Beys (20). Leurs observations sont directes et les renseignements qu'ils donnent sont très précieux.

---

16) On ne peut citer que le «Bustân» d'Ibn Mariam ; d'une sécheresse et d'une monotonie désespérante, on n'y trouve généralement que le nom du personnage, celui de ses professeurs, la liste des ouvrages qu'il a étudiés, et la date de sa mort, rien sur la vie intime du personnage, de son état d'esprit, rien sur les évènements auxquels il a pu être mêlé...

17) Les occidentaux ont accusé les sources musulmanes de partialité. La partialité est-elle le fait des seuls musulmans ? Il n'y a pas lontemps qu'ont été définies en Europe les règles critiques de la méthode historique. (Voir les cas de Haëdo, Dan, etc...).

18) A. Bel : La religion musulmane en Berbérie, Paris 1938, p. 376.

19) A. Bel : La religion musulmane en Berbérie, Paris 1938, p. 374.

20) *Shaw :* «Voyage dans la Régence d'Alger» édité en 1775.
Thédénat : Les aventures de Thédénat esclave et ministre du Bey de Mascara. (Mohamed al Kebir, mémoire rédigé en 1785) publié par M. Emerit (R.A. 1948).
Venture de Paradis ; Alger au XVIII[e] siècle (R.A. 1895-1896-1897).

Cette classification des œuvres est faite d'après leur objet principal ; mais les livres sur l'Algérie ne sont pas dans la plupart du temps tenus sévèrement dans les limites d'un sujet arrêté avec précision.

VALEUR DOCUMENTAIRE DE CES ŒUVRES.

Ces récits, malgré les nombreuses lacunes et les graves préjugés, que nous relèverons plus loin, restent indispensables à l'histoire de notre pays car les sources musulmanes *sont à cette époque rares et souvent de valeurs médiocres* (11).

Les sources turques dont on attendait beaucoup remontent au 17e siècle seulement.

Celles qui sont susceptibles d'aider l'historien datent seulement du XVIIIe siècle. Une partie des documents d'archives turcs a été publiées à Tunis, Istambul et Venise. Quelques documents turcs relatifs à l'Afrique du Nord ont été publiés dans l'ouvrage de Aziz Samih Ilter «Simali Africa da Türkler» (les Turcs en Afrique du Nord) (12) et dans de rares articles de la revue de la société d'histoire turque, *Belletin*. Elles consistent pour l'essentiel en registres de comptabilité postérieurs à 1650. Leur exploration n'apporte guère de lumière nouvelle sur les évènements et la vie dans le Maghreb Central car le soldat et l'officier de l'oudjac insouciants ou illettrés se sont peu préoccupés de consacrer le souvenir des évènements auxquels ils ont pris part.

Les sources arabes connues jusqu'à ce jour, ne peuvent servir seules de base à l'étude de la période qui nous préoccupe. Les textes sont rares et souvent de valeur médiocre (13). Les genres voisins de l'histoire ont émigré vers Tunis et Fès dès l'arrivée des Turcs.

L'historiographie est inexistante en Algérie à cette époque. En effet, ce genre s'épanouit à l'ombre des dynasties. Or, le trône des Ziyanides était chancelant dès le début du siècle. Par contre, il fleurit encore à Tunis et à Fès (14), ce qui nous renseigne parfois, indirectement surtout, sur certains évènements du Maghreb Central.

Les monographies historiques sont à lire avec beaucoup de prudence, car elles sont écrites la plupart du temps pour ménager les souverains Hafcides ou Sa'adiens, naturellement hostiles aux Turcs d'Alger.

Les relations de voyages (Rihla-s), riches en biographies de saints, sont très pauvres en renseignements sur l'état du pays, et en tout cas très postérieures à la première moitié du XVIème siècle (15).

La littérature biographique émerge cependant de cet amas de productions littéraires dans le Maghreb Central. Certes, elle est loin de connaître un essor comparable à celui

11) *Montran* (R) : Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie. (Annales de l'Afrique du Nord 1962 - p. 243-248).

12) 2 V. Istambul 1936-1937.

13) *R. Montran :* Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie (Annales de l'Afrique du Nord 1962, p. 243-248).

14) *Voir L. Provençal* : «Les historiens des Chorfas», Paris 1922.

15) Les principales sont celles de Tamagroûtî (fin XVIe siècle) ; de Al Ayyâchî (XVIIe), de Al Warthilâni (XVIIIe).

d'histoire générale (2) ou partielle, des souvenirs, monographies (3), biographies (4). Signalons également les études sur la politique algérienne de l'époque. Plusieurs problèmes y sont abordés : organisation administrative (5), régime turc (6), peuplement, religion (7), confréries, tribus (8), Juifs (9) et Chrétiens en Algérie, relations avec les puissances étrangères (10).

---

2) Parmi les ouvrages généraux citons :
Bardon (X) «Histoire nationale de l'Algérie» (Paris 1886, 428 p.)
I - de l'Algérie en général son passé, son climat, les animaux, les habitants, divisions administratives, religion, impôts, mœurs.
II - les français en Algérie.
III - avenir de l'Algérie.
Berbrugger « Les époques militaires de la Grande Kabylie» (Alger 1857).
Cat (E) «Petite histoire de l'Algérie, Tunisie, Maroc». (Alger 2V. 1888-1891).
Clausolles (P) «L'Algérie pittorresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours...» (Paris 1843 2V.).
Galibert (L) «L'Algérie ancienne et moderne (Paris 1844).
De la page 1-249 : l'Algérie depuis l'antiquité à 1830 ; les 2/3 sur la domination française et les progrès de la colonisation...
Garrot (H) «Histoire générale de l'Algérie» (Alger 1910).
(Sorte de répertoire, une compilation...).
Mercier (E) «Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés à la conquête française (1830)».
(Paris 1888-1890 3V.).
Faure Biguet (le général) «Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane»
(Paris 1905 - 458 p.).

3) *Peste Maldjoglon :* Mers Al Kebir, historique et description... (R.A. 1942).
Troussel : Kalaa des Beni Rached (B.S.G.O. 1927).
Mac Carty : Constantine.
Leclerc : Koukou, ancienne capitale de la Kabylie (R.A. 1857).
Féraud : Documents pour servir à l'histoire de Bône (R.A. T. XVII).
Galland (Ch. A.) : Bougie 1895.
Féraud (Ch.) : Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Djidjelli, Philippeville, Bône, Tougourt... (Constantine 1864-1888).
Bel (A) : Histoire de Tlemcen.

4) *Devoulx* (A) : La Raïs Hamidou. Notice biographique sur le plus célèbre corsaire Algérien du XVIII[e] siècle (Alger 1852).
ibid : Le Raïs Hadj Mbarek. (R.A. 1876).

5) *Devoulx* (A) : Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger. (Alger 1852 99 p.).

6) *Rocqueville* (Le sieur de) : Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger (Paris 1675 112 p.).
(Description de la ville d'Alger, cérémonies du mariage, gouvernement des Turcs, genres de supplices infligés aux captifs, prières, Ramadan...).

7) *Bel* (A) : La religion Musulmane en Berbérie T.I. (Paris 1938).
Boyer (P) : La politique religieuse des Turcs (Revue de l'Occident musulman et de la méditerranée n° 1 1966).

8) *Gourgeot :* Les Béni Amer (R.A. 1857).
Féraud : Notice sur les tribus de la Province de Constantine.
Noël : Documents pour servir à l'histoire des Hmiyan B.S.G.A.O. 1915-1916-1917.

9) *Eisenbeth* (M) : Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque 1516-1830 (R.A. 1952).
Cahen (Ab) : Les Juifs de l'Afrique septentrionale (R.N.S.A. de Constantine 1867).

10) *Cour* (A) : L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger (1509-1830) Paris 1904.
Dupuy (E) : Américains et Barbaresques 1776-1824 (Paris 1910).
Watbled (E) : La France et les Barbaresques au XVII[e] siècle (Nouvelle revue 1893 T. 84 - p. 368-388).
Grammont (H. de) : Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVII[e] siècle (R.A. 1879).
Playfair (R.L.) : Episode de l'histoire des relations de la Grande Bretagne avec les Etats barbaresques avant la conquête française (R.A. 1879-1880).

Les Historiens Français et l'Algérie à l'Epoque Ottomane

Moulay BELHAMISSI
Professeur d'Histoire
Faculté des Lettres - Alger

On a souvent écrit que l'histoire de l'Algérie turque est faite à partir des sources européennes et on a pensé, qu'à l'inverse de l'histoire du Moyen Age Maghrébin, celle de l'Algérie du XVIème au XIXème siècle, doit être étudiée surtout à travers les relations d'observateurs occidentaux et aux moyens de pièces d'archives.

Avec le XVIème siècle, le Maghreb Central — l'Algérie plus tard — entre dans une phase nouvelle de son histoire. Pendant plus de trois siècles, le pays a été une possession turque, à la suite de l'action espagnole contre les principales villes côtières (Mers Al Kâbir, Oran, Bidjâya...). Le Turc devient l'ennemi majeur des Espagnols, son intervention empèche «les Maures» de se soumettre aux lois catholiques. Le pays possède dès lors un gouvernement central à Alger, une administration régionale, des frontières à l'Est et à l'Ouest, une marine et surtout un poids dans les rapports internationaux. Les conflits avec l'Europe sont de plus en plus nombreux.

Cette période turque intrigue l'Europe et éveille chez les Espagnols surtout, un intérêt grandissant. Elle est parmi celles qui ont fait couler beaucoup d'encre en Espagne, en France, en Italie et ailleurs.

En effet, les guerres, le commerce, l'espionnage, la diplomatie, le rachat des captifs et le goût de l'aventure ont donné aux gens de l'autre côté de la Méditerranée, d'innombrables occasions de connaître ou d'écrire sur le Maghreb Central ou d'en relater tel ou tel évènement qui s'y est produit.

C'est pourquoi les ouvrages sur la littérature et sur les sciences sociales et politiques sont très nombreux et très variés.

Nous nous limiterons, dans cette brève étude, aux sources françaises seules.

A côté d'ouvrages descriptifs, (1) géographie générale et régionale du pays, guides, itinéraires, récits de voyage, narrations de navigation, descriptions des contrées traversées, des villes visitées, mœurs et coutumes des populations, il faut ajouter des travaux

1) *Ch. Taillard :* L'Algérie dans la littérature française, essai de bibliographie méthodique et raisonné jusqu'en 1924 Paris 1925 pp. 79-160.

France». Et s'il désigna le Sahel d'Alger comme la première région à coloniser, ce fut pour d'évidentes raisons de sécurité et de salubrité, quoi qu'on en ait dit, l'insalubrité de la Mitidja n'était pas une légende puisque 968 militaires moururent de «fièvres pernicieuses dues à l'exhalaison des marais» en 1831 et 1415 en 1832.

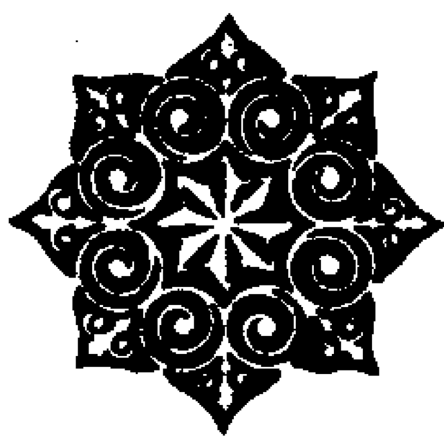
«Montrer quelque sympathie pour les Arabes c'est presque une trahison» notait Pellissier de Reynaud qui condamnait quant à lui cette formule. Telle fut la véritable raison pour laquelle certains pseudo-historiens de l'Algérie Française se sont acharnés sur la mémoire de ce général intérimaire qui définissait son «système» comme fondé sur l'équité vis à vis des Maures et des Arabes. Dix mois de gouvernement ne lui permirent pas d'appliquer sa politique ou plutôt le parti «coloniste» le fit rappeler pour qu'il n'en eut point le temps.

Plaçant son action sous le patronage du général Desaix — «le sultan juste» de l'expédition d'Egypte —. Berthezène notait en 1834 pour expliquer son rappel que «ce système, le seul digne du nom français et qui paraissait à la fois le plus politique et le plus utile, blessait trop d'intérêts, éveillait trop de craintes et renversait trop de projet pour ne pas soulever de violentes oppositions». Ajoutons les haines durables.

Il aura fallu attendre la décolonisation pour qu'on pût rendre hommage à ce colonisateur *malgré lui*, à ce général courageux qui osait condamner «les violences à la turque» des militaires français et «les violences matérielles et morales, les fraudes, les humiliations» imposées par les premiers colons «ce rébut de ce que les rives de la Méditerrannée avaient de plus misérable et de plus immoral».

Le cas de ce général pourrait paraître de peu d'intérêt s'il n'était exemplaire. *Abuno omne disces.* Et l'on voit assez par cet exemple ce que put être la malfaisance des pseudo-historiens de l'Algérie Française. Finalement la décolonisation de l'histoire de l'Algérie importe autant aux Français qu'aux Algériens.

Charles Robert AGERON.



On s'explique mieux d'ailleurs, que ce publiciste officieux ait été finalement récompensé de ses loyaux services par le gouvernement général de l'Algérie. Cette administration désespérant de le faire élire au Collège de France, le fit nommer comme chargé d'un cours sur l'Afrique du Nord, poste dont la charge financière revint au budget de l'Algérie. Les choses étaient ainsi plus claires, du moins, pour ceux qui connurent le fait.

Après une condamnation aussi sommaire et peu sereine de la personnalité du général Berthezène par un pseudo-savant, j'ai pensé qu'il importait en m'aidant d'ailleurs de nouveaux documents et en m'appuyant aussi sur les 121 pièces d'archives publiées par V. Demontès de reprendre complètement le sujet. Ce n'est point ici le lieu de dire les résultats détaillés de mon enquête. Quant aux conclusions concernant le personnage du général Berthezène que je n'ai pas hésité à appeler un gouverneur indigénophile, elles sont tout à l'honneur de cet honnête homme, si longtemps méconnu.

L'honnêteté farouche de «l'incorruptible général Berthezène», comme l'appelait le commissaire d'Aubignosc, le conduisit tout naturellement à prendre la défense des Algériens. Le vainqueur de la bataille de Staouéli avait certes été séduit par l'Algérie «le plus beau pays que j'ai vu et l'Italie et bien loin de le valoir» mais, il entendait surtout assurer par une stricte justice le renom de la France auprès des Algériens.

Cet ancien général d'Empire, qui commandait les grenadiers de la garde impériale pendant la Campagne de Russie, n'hésita pas à traîter avec le marabout de Koléa Sidi Ali M'Barek. Ce fait qui scandalisait V. Demontès, s'explique pourtant tout naturellement : Le général Berthezène pensait qu'il n'était pas possible de «faire administrer une ville musulmane par un européen qui n'en connait ni les lois, ni les mœurs, ni le langage, ni les intérêts, ni les besoins», il estimait qu'il était à plus forte raison nécessaire, pour administrer des tribus inconnues, d'avoir des intermédiaires pris dans la population. A vrai dire, le marabout de Koléa n'entendait pas servir la France, mais ramener la paix et il n'accepta la charge d'aghâ des Arabes que parce que le général Berthezène l'assura qu'il n'y aurait plus d'expéditions contre les tribus. De part et d'autre, les engagements furent respectés et la paix rétablie.

Cependant le général français entendait par une «politique des égards» faire oublier les violences de son prédécesseur. Considérant comme «infâme et inique, la proposition qu'on avait osé lui faire d'obliger les habitants à déserter le pays», Berthezène s'efforça tout au contraire de rassurer les «notabilités maures» d'Alger ; par exemple, il donna ordre de lever le sequestre établi sur les biens des Turcs et ceux des fondations pieuses. Inversement, il fit savoir à tous ceux à qui «il fallait, disait-il, une justice partiale et des moyens pris en dehors de la civilisation, à ceux dont la maxime est : malheur aux vaincus» que telle n'était point sa politique.

Certes, lorsque le maréchal Soult lui ordonna de reprendre l'idée de colonisation dans un pays que la France n'entendait plus abandonner, il s'exécuta. Mais ce fut sans conviction car il notait dans ses papiers peersonnels : «les colonies n'ajoutent rien à la force des Etats. Ajoutent-elles à leur richessrsonnels : «les colonies n'ajoutent rien à la

Ce postulat presque inconscient, V. Demontès le partageait sans doute avec beaucoup de Français de son temps, mais plus encore avec la totalité des Européens de l'Algérie. Quiconque au début de ce siècle prétendait mesurer les louanges ou les crédits à la colonisation agricole, était tenu par les Européens d'Algérie pour traîtres à la France. Quiconque croyait pouvoir dire ou écrire un mot en faveur des Musulmans algériens, passaient pour avoir subi "l'enveloppement du burnous". Edouard Cat qui publia entre 1889 et 1891 une *Petite Histoire de l'Algérie* en deux volumes, dont V. Demontès et Augustin Bernard se sont beaucoup servie, avait déjà formulé sur Berthezène les mêmes jugements au nom du même postulat : " Par son ineptie, écrivait Cat, il avait rendu plus difficile l'œuvre ultérieure de la conquête." Et Cat de lui reprocher encore sa faiblesse (il n'avait pas su agir vis-à-vis des indigènes avec la vigueur nécessaire) et sa crédulité (il aurait ajouté foi aux "conseils intéressés" des Maures d'Alger, notamment Abou Darbah et Hamdân Ben Othman Khodja).

Précisément, V. Demontès reprit ces accusations pour étayer sa thèse malveillante : si Berthezène renonça à l'idée de coloniser ce qu'on appelait alors "l'infecte Mitidja", «ces marais pontins de l'Algérie», ce ne pouvait être que pour «discréditer son prédécesseur Clauzel» et à l'instigation des Maures «grands propriétaires en Mitidja» : «c'est sur les conseils intéressés des Maures d'Alger que le Général Berthezène s'employa à détourner le courant d'immigration qui se dirigeait de ce côté» écrit V. Demontès sans donner la moindre preuve de cette affirmation gratuite. Quant a vouloir discréditer Clauzel ce devait être par avance sans doute puisque Clauzel ne publia son plan de colonisation de la Mitidja qu'en 1833. Mais le vrai crime de Berthezène selon Demontès et son prédécesseur Ed. Cat était de s'être prononcé «d'après les propos des Maures sur le caractère insalubre de la Mitidja qu'accepta la crédulité de Berthezène».

Dès lors apparait nettement un autre critère plus inavouable encore pour un savant prétendûment objectif, Berthezène était condamné parce qu'il n'hésitait pas à consulter des notables algériens ,parce qu'il faisait profession de les respecter, parce qu'il n'hésitait pas à «croire à la bonne foi des indigènes». Bref, en cet érudit grondant la passion du colon, son livre à prétention critique visait moins à faire la lumière sur le personnage et le gouvernement de Berthezène qu'à démontrer une fois encore, et plus spécialement en ces années 1917-1918 où les autorités métropolitaines s'apprêtaient à accorder aux Algériens des réformes promises en 1914, la nécessité de la fermeté vis à vis des *jeunes Algériens.*

Ce professeur eut toujours quelque tendance à se croire mobilisé au service de l'Algérie française : Historien, il pratiqua sa vie durant cette conception de l'Histoire, que Fustel de Coulanges avait baptisée : *Ad. Profandum,* conception qui la ravale au rang d'une propagande. V. Demontès défendit comme journaliste et chroniqueur dans le bulletin du *Comité de l'Afrique Française* le point de vue des colons algériens avec l'exclusivisme le plus passionné - cela est bien connu. Mais il était moins connu que jusque dans un travail scientifique, il n'ait pas hésité à faire œuvre de propagandiste. Aux yeux des historiens, cela devrait le disqualifier à jamais.

Simple note en faveur de la décolonisation de l'Histoire Algérienne à propos d'un pseudo-historien de l'Algérie française

Charles Robert AGERON
ancien Professeur d'Histoire
à la Faculté des Lettres d'Alger

Les Algériens se plaignent à bon droit que leur histoire ait été parfois étudiée avec peu d'impartialité par des étrangers malveillants ou ignorants. Les préjugés colonialistes ont même pu dans certains cas, infecter littéralement quelques historiens ou pseudo-historiens, et la décolonisation de l'histoire algérienne s'impose donc à tous ceux qui ont en commun le souci de la vérité historique, qu'ils soient Européens ou Maghrébins.

Parce que j'ai consacré un travail universitaire demeuré jusqu'ici inédit à décoloniser *l'histoire du gouvernement du Général Berthezène à Alger en 1831*, je me permettrai de citer l'exemple d'un pseudo-historien de cette année 1831, dont les jugements ont cependant fait autorité pendant longtemps, j'ai nommé Victor Demontès dont je n'entends examiner ici qu'un ouvrage à prétention scientifique, sa thèse complémentaire de doctorat ès lettres intitulée, *les prétentions du Général Berthezène contre la colonisation de l'Algérie*, Alger 1918, 311 pages.

Dans ce livre, Victor Demontès ne cachait pas ses propres préventions à l'égard du Général Berthezène, gouverneur intérimaire et commandant en chef du corps d'occupation français d'Alger. Mieux encore, il donnait à son travail le caractère d'une charge violente contre un homme qu'il qualifiait, pour le mieux accabler, «d'anticolonisateur», «d'adversaire passionné de la colonisation algérienne». Il stigmatisait sa politique «toute de complaisance envers les indigènes, toute de défiance envers les Européens» et le désignant comme «l'autorité responsable de dix années de retard dans la colonisation algérienne».

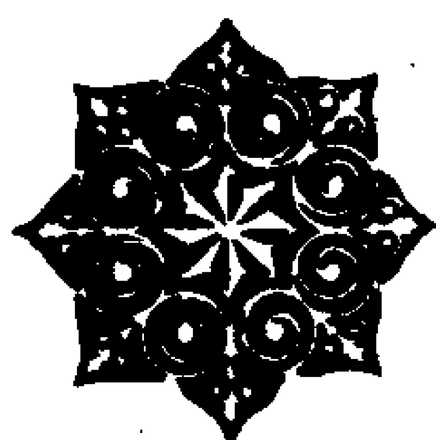
A cet anticolonisateur, il opposait dans un face à face saisissant son héros préféré le Général Clauzel «un colonisateur» «il ne s'agissait pas seulement de deux hommes, écrivait-il, il s'agit de deux systèmes».

Ces jugements manichéens, cette manière d'écrire l'histoire en noir et blanc sont choquants en eux-mêmes : tout historien sérieux sait bien qu'on ne peut parvenir qu'à une vérité approchée, que le mode du jugement historique est la probabilité, et qu'on doit donc s'abstenir de jugements aussi tranchés. Mais plus inquiétant encore est le critère sous-jacent retenu par ce pseudo-historien : les "colonistes" comme on disait alors en 1831, les partisans d'une politique de peuplement de l'Algérie, étaient aux yeux de l'Oranais Demontès les seuls patriotes français, ceux qui y répugnaient, fût-ce pour des raisons patriotiques, étaient désignés comme des traîtres.

res parallèles colonialistes ou anti-colonialistes sont-elles des monologues et le prolongement d'une ségrégation réciproque, le reflet, sinon le retour à la situation coloniale. On pourrait en quelque sorte les dire nostalgiques. Si la situation coloniale entravait la véritable connaissance, on peut espérer qu'enfin l'indépendance en soit la promotion.

C'est ici que l'initiative d'El-Açalah prend toute sa valeur et qu'il faut lui en savoir infiniment gré. La revue qu'édite le Ministère des Affaires Religieuses donne l'exemple. Elle propose une étude sur les historiens étrangers, non pas comme un combat, mais sous forme de dialogue, incitant chacun à l'introspection, ouvrant largement ses colonnes aux remarques de tous. Qu'il me soit permis de la remercier pour m'avoir associée à son effort.

Y. Turin



suite... On a essayé de montrer que..." L'intention du sociologue n'est donc pas la connaissance, mais la justification. La science devient alors vassale de l'idéologie (12) - pour éviter un mot plus cru.

Révélatrice aussi l'attitude à l'égard de cette masse du monde colonisé dont le refus et l'isolement culturel s'est effectivement maintenu pendant toute la période coloniale et qui s'exprime aujourd'hui dans cette revue même, ou bien par des manifestations, dont les moins importantes ne sont pas ces semaines de la Pensée Islamique qui surprennent parce qu'elles dérangent la théorie et gênent la démonstration. Que faire dans un système qui soumet la réalité à l'idéologie de comportements culturels non prévus et non conformes aux schémas préparés ? Il est certain, en tout cas, que l'existence de "résidus" aussi importants "montrent" les limites d'affirmations trop rapides et de procédés scientifiques discutables. A savoir avant même d'entreprendre la recherche on risque de laisser échapper l'inconnu qui est, justement, ce que l'on cherchait.

Je laisse de côté dans cet article l'histoire ou la sociologie qui relèveraient de ce qu'on pourrait appeler l'histoire courtisane. Quelques uns croient encore que la flatterie peut remplacer la science (13). C'est là aussi le prolongement d'une attitude coloniale portée à croire qu'une science d'illusion suffit à ceux que l'on traite en enfants.

Nous avons essayé de traiter au fond le problème de l'histoire et de sa nationalité, l'infléchissant peu à peu vers les questions posées par l'histoire particulière de l'Algérie. El-Açalah proposait "les historiens étrangers", nous avons analysé l'histoire formulée par des étrangers et la nature des intentions historiques effectivement manifestées par eux, essayant de déjouer les apparences et de désamorçer l'illusion des mots, nous efforçant de montrer surtout que l'Indépendance trace dans l'historiographie comme ailleurs une ligne de feu. Plus rien de ce qui était avant ne peut être encore après, même s'il s'agissait de "très bonnes" intentions.

Quittant alors le plan de l'analyse et de la dissection pour entrer nous-mêmes dans le débat — en le disant — et pour conclure, nous nous interrogeons. Historiens et sociologues étrangers traitant de l'histoire d'Algérie doivent-ils être comme l'armée française dont on a coutume de dire qu'elle est toujours en retard d'une guerre ? Doivent-ils penser avant alors que nous sommes après, incapables de faire succéder la connaissance au temps des affrontements ? Car l'avant quoiqu'on en pense et quelle que soient là aussi, les apparences n'apprit que très peu aux antagonistes sur chacun d'eux. Rien n'est plus évident pour l'étranger qui débarque en Afrique du Nord après les indépendances : rares sont les leçons trouvées auprès des siens qui peuvent lui être de quelque utilité, mais rares également les Algériens par lesquels il se sente vraiment connu - même s'il arrive à ceux-ci de manier sa langue mieux que lui-même (14). Ainsi ces histoi-

---

12) Il n'est pas étonnant de rattacher à cette tendance toute l'école marxiste et les travaux de R. Gallissot, Y. Lacoste, M. Prenont,

13) Ce sont souvent ceux qui, ayant vécu dans les pays colonisés comme *Ch. Sournoi, voient dans l'anti*-colonialisme flatteur une manière de compensation.

14) Il faut ici distinguer encore une fois : la linguistique, surtout structurale, a eu tendance à confondre les mots qui parlent et ce dont parlent les mots, la langue et ce que l'on dit grâce à elle. Or il semble manifeste, dans la pratique, que si la langue peut être une occasion d'identification, elle peut aussi servir à exprimer tout autre chose.

rences, avec les idéologies racistes du XIX[e] siècle. Une histoire et une sociologie des savants qui les utilisent seraient aussi, sans doute, fort instructives pour en mieux comprendre l'origine. La notion d'impureté qui chemine tout au long de la notion d'acculturation et qui la culpabilise est, en tout cas, ici, une notion d'origine européenne et, le plus souvent, d'impureté des autres. Car où commencerait pour le Français ou le Parisien du XX[e] siècle l'état d'impureté ? Difficile problème ! Aurait-il, ce Parisien, si irrémédiablement perdu sa virginité culturelle qu'il ne soit plus possible d'en retrouver la trace, ou bien faudrait-il croire qu'elle est, cette virginité, d'une constitution telle qu'elle soit, pour lui, impérissable ? Car, enfin, où donc les influences sont-elles plus nombreuses, la tyrannie des modes, même intellectuelles, plus violentes, leur effet de domination plus fréquent, la difficulté de retrouver une pensée originelle plus grande ?

Cette remarque permet d'aborder un autre aspect de notre réflexion, dédiée, grâce à El Açalah, au rôle de l'étranger dans l'évolution des tendances post-coloniales des sciences historiques et sociologiques.

L'acculturation est, en principe, définie comme le résultat de la relation entre culture dominante et culture dominée. Dans cette optique, l'histoire ou la sociologie anti-colonialistes considèrent comme synonymes et concordantes domination politique et culture dominante, soumission politique et culture dominée. Ces équivalences sont-elles exactes ? Historiquement non. L'histoire enseigne qu'il n'y a pas de lien NECESSAIRE entre domination politique et domination culturelle, entre soumission politique et soumission culturelle.

Cela ne veut pas dire qu'il n'y ait jamais de rapports, cela veut dire que si une domination peut en favoriser une autre, les lois qui régissent la vie culturelle sont différentes, sont distinctes, de celles qui conduisent les évènements politiques. Cela veut dire que l'effet culturel n'est pas un surproduit de l'acte politique. Prenons un exemple, le plus connu, le plus évident : la Grèce conquise par Rome, le libre citoyen grec devint sujet romain. Rome gouvernait Athènes par son Sénat. Mais Athènes gouverna Rome par sa culture. Les Barbares conquirent l'Empire, mais la culture romaine à son tour les domina. Il faut donc étudier les faits culturels, non pas en ignorant la politique — ce qui serait absurde, un excès ne peut en compenser un autre — mais en évitant de tourner en système ce qui n'en est pas un. Même lorsque la domination politique se double d'un rapport culturel parallèlement défavorable, il n'est pas d'exemple d'une certaine revanche de la culture dominée. Les habitudes culinaires des "pieds-noirs", certaines formes de vie familiale des "petits blancs", d'autres habitudes encore que l'on découvrirait sans doute si l'on entreprenait, sous cet aspect, une étude de la communauté européenne repliée en France, en sont la preuve.

Ainsi, l'histoire et la sociologie anti-colonialistes postérieures à l'Indépendance travaillent-elles souvent sur des modèles stéréotypés, appliquant à la science une méthode anti-scientifique qui consiste à commencer par énoncer le résultat, à affirmer les conclusions avant même d'aborder la recherche qui n'a d'autre but que de s'y conformer. Quelques phrases comme celles-ci sont révélatrices à ce sujet : "Le terrain devenait favorable à la *démonstration* envisagée : *Il s'agissait de montrer... Il fallait montrer en-*

cun des pays dominés, mais qu'une fois encore l'Europe ou l'Amérique suggèrent ce qu'il faut dire, qu'elles élaborent les modes de pensée convenable, notions élaborées pour les autres d'abord, même si leur usage s'est depuis quelque peu élargi. Ce sont les anciens maîtres qui soufflent aux anciens sujets ce qu'ils doivent continuer à penser d'eux-mêmes. Ce sont eux qui diffusent, d'autant plus facilement qu'elle leur paraît défavorable, leur réflexion. Ils obtiennent, pour ce faire — c'est bien là le paradoxe ! — l'aide de leurs anciens subordonnés. Maîtres d'une culture dominante, ils ont ainsi découvert le moyen le plus subtil d'en éviter le partage ; éteindre le désir en le rendant coupable.

Car ce monde étranger, ce savant étranger et qui se veut tel, se sent-il lui aussi concerné par ses découvertes. Les théories qu'il élabore, éveillent-elles sa propre inquiétude ? Les menaces qui côtoient ses sujets d'observation ont-elles aussi une réalité dans son monde à lui ? Rien n'est moins certain. Il semble que les normes soient autres dans cet ailleurs préservé.

Il peut cet étranger, grâce à son intelligence sûre, à sa formation encyclopédique et adulte, à son expérience culturelle universelle et avertie, s'exposer à tous les vents, respirer au grand large, exercer sa curiosité d'esthète ou simplement d'homme auprès de tous les mondes qui éveillent son intérêt, il peut s'émerveiller et s'enchanter de la multiciplité des cultures, ou très prosaïquement en extraire l'utile sans que jamais l'acculturation, ou pire la déculturation ne le guette. Aucun effet de domination ne peut jamais s'exercer sur lui. Il n'est jamais assimilé, il assimile ce qui — est-il besoin d'y insister ? — est exactement le contraire. A son contact, les influences étrangères ne produisent pas l'acculturation, mais si on ose ce néologisme affreux : « la culturation ! » Lui s'enrichit, s'affine, se renouvelle — tel Picasso cherchant l'inspiration auprès de l'art nègre ou bien japonais. Pour tout dire, il vit. Mais cette vie qui est mouvement, changement, recherche — a-t-on jamais vu la vie immobilisée ? — il la refuse à d'autres pour qui elle devient reniement et risque de décomposition. Il sème dans un monde supérieur, dominant, il appartient en tout cas à une aristocratie dont les quartiers sont tacites mais rigides et dont les portes sont définitivement closes sous peine «d'acculturation» par celui qui les franchirait.

Ainsi pourra-t-il jouir en paix de ce Paradis dont la pomme défendue conduirait celui qui la mangerait l'autre, au néant. Il y a ainsi deux mondes ; celui où l'on vit et celui où l'on doit tourner en rond, sous peine de «domination». Le concept, et son vocabulaire propre, sont alors, totalement inversé. Le même mot désigne désormais, l'effet contraire, et l'ancien colonisateur peut vivre en paix.

Européennes, occidentales ces «idéologies» le sont encore d'une autre manière. Elles reposent sur une notion de pureté des cultures, elles suggèrent la référence à un état premier, non contaminé, qui s'inspire des théories élaborées et appliquées par les tendances les plus réactionnaires de la pensée en Europe au XIX[e] et au XX[e] siècle : les notions de pureté de sang ou de pureté de race, dont la «pureté» des cultures n'est qu'une variété.

Ce n'est donc sans doute pas un hasard si les théories maniées par les anti-colonialistes ont été inventées sous ces cieux occidentaux. Une étude fort intéressante serait à faire à ce sujet pour préciser leurs rapports, leurs ressemblances et leurs diffé-

Histoire, sociologie anti-colonialiste n'y a-t-il pas là, en effet, une attitude, une «idéologie» vieillie en même temps que la colonisation elle-même et que l'histoire colonialiste, son antithèse ? Et si tel était le cas, pourquoi ?

Disons d'une façon très générale ; parce que cette attitude prolonge la mentalité coloniale. qu'elle lui reste liée, qu'elle maintient ce qui était le fondement du principe dominateur lui-même : l'isolement du colonisé, son état d'être séparé du reste des hommes, de par son nature même en quelque sorte. Il reste ainsi celui dont on ne peut parler, traiter, qu'on ne peut «étudier» que comme un dissemblable. Quelqu'un d'un autre monde et qui doit y rester sous peine d'évanouissement. Dans le cas contraire, le savant étranger se verrait obliger de chercher l'objet de son étude à la loupe ou, qui sait, de perdre sa proie.

Cette "idéologie" bien pensante se révèle ainsi être une des formes les plus subtiles de la conscience supérieure qui animait "avant" l'Européen-colonisateur. Elle réussit ce tour de force qui, sous couleur de critique et même d'hypercritique à l'égard de soi-même, parvient à maintenir les distances et les différences, à désigner du doigt le colonisé à la curiosité universelle au lieu de le considérer comme à sa place dans le monde de tous, dans la communauté des hommes. Elle est fondée sur une dualité conservée, le monde qui comprend et celui qui est compris et, souvent même le monde qui juge et celui qui est jugé, *car ces adeptes d'eux-mêmes s'ils jugent au nom de l'absolu qu'ils créent l'ancien colonisateur*, n'hésitent pas, grâce à leur critère infaillible, à *savoir mieux* que l'ancien colonisé lui-même ce que celui-ci aurait dû faire ou ne pas faire, hier comme aujourd'hui. La situation coloniale, dominant dominé, celui qui sait celui qui est su, renait alors sous le couvert de l'anti-colonialisme.

Un bon exemple de cette attitude est fourni par une étude récente "Les instituteurs algériens formés à l'Ecole Normale de Bouzaréah 1883-1939". Des phrases comme celle-ci : l'Ecole Normale "à laquelle ils disent qu'ils doivent tout, *parce qu'on leur a sans cesse répété qu'ils lui doivent tout*" (11) exprime bien l'état d'esprit qui anime l'enquêteur face à l'intituteur qu'il interroge et qui se livre à lui de bonne foi. Cet homme malgré son expérience, malgré l'effort d'intropection qu'il réalise, vu du tribunal du savant "culturé" n'est même pas considéré comme capable d'une pensée personnelle, il est rangé parmi les perroquets. De quel droit s'attribuerait-il, en effet, une idéologie propre ? Il n'y en a point d'autre possible, pour lui, que celle dont la pureté nécessaire prend racine dans la qualité supérieure de celui qui le toise. Ainsi la notion d'acculturation maniée par l'enquêteur maintient-elle l'objet de son enquête en état définitif d'infériorité. Le principe colonial est rétabli.

Ce phénomène n'est qu'apparemment paradoxal. S'il s'est manifesté plus largement parmi les sociologues intéressés par l'Algérie que parmi les historiens, c'est que, seul, le mauvais historien s'érige en juge, "se prend pour Dieu", comme dit H. Marrou. Si l'on observe plus attentivement, en effet, l'origine des notions mises à la mode par cette "idéologie" dominante de l'ère post-coloniale, la théorie de l'acculturation en est une expression, on remarque en effet que ces notions ne prennent leur source dans au-

11) F. Colonna. Thèse du 3° cycle, dactylographiée, 1971, p. 293.

L'un est l'autre, sous des jours opposés, font l'histoire de la colonisation, des colonisateurs beaucoup plus que du peuple colonisé qui reste, lui, l'objet d'une autre entreprise, disponible pour une autre écriture. Il y a, à ce sujet, un contraste entre le titre et le sous-titre de l'ouvrage de Ch. A. Julien : Histoire de l'Algérie contemporaine. T. I : La conquête et les débuts de la colonisation, 1827 - 1871. Seul le sous-titre correspond bien à la réalité historique du texte quiest, lui, l'histoire de la colonisation (8). Il est, donc, d'une extrême importance de ne pas confondre : histoire anti-colonialiste de l'Algérie et l'histoire de l'Algérie tout court. Seule la seconde est un effort pour échapper à l'ancienne vision. Tout comme sa campagne détestée mais inséparable, l'histoire anti-colonialiste reste un regard du peuple dominant sur lui-même, même si ce coup d'œil déshabille ses concitoyens pour en révéler les plaies, même si "l'idéologie", pour parler comme certains sociologues européens actuels d'Algérie, qui l'habite est bien pensante, regard clos, cependant sur des semblables s'il s'agit d'un historien français, et non pas vision intime de l'autre, dont le rythme et l'heure pouvaient ne pas être ceux du colonisateur.

Il ne suffit donc pas à une histoire d'être anti-colonialiste pour être vraie, au sens que prend ce mot dans cette science, non plus que pour être algérienne.

Mais poussant plus à fond l'analyse de ce concept d'histoire ou de sociologie anti-colonialistes, de cette "idéologie" vénérée par certains comme une panacée, peut-on réellement lui vouer la confiance qu'il appelle, et n'a-t-il pas, ce concept, quelques replis sournois qui, derrière le sourire cachent la grimace ?

Là encore, il semble bon de distinguer dans le temps, l'indépendance servant de charnière et de critère de référence. Avant l'indépendance, comme l'histoire colonialiste, l'histoire ou la sociologie anti-colonialistes entrent ou peuvent entrer dans le jeu politique. Elles sont, qu'on le veuille ou non, un élément de la lutte à qui il leur arrive de fournir des arguments contradictoires. Encore que certains de ces ouvrages qui, en leur temps, parurent iconoclastes, comme *l'Afrique du Nord en marche* de Ch. A Julien (9), apparaissent singulièrement calmes aujourd'hui à travers une relecture contemporaine — ce qui prouve, d'ailleurs, à quel point le climat scientifique lui-même était, alors, détérioré par les réactions passionnelles. Mais la question qui se pose est celle-ci : la même «idéologie» garde-t-elle après l'indépendance la même signification ou bien se change-t-elle peu à peu en son contraire ? Et ceux qui continuent de s'y référer ouvertement comme certains sociologues ou certains commentateurs de l'Annuaire de l'Afrique du Nord notamment (10) — les historiens ont été plus discrets, sauf ceux d'origine marxiste dont plusieurs ne sont d'ailleurs que des historiens d'occasion, Y. Lacoste ou M. Prenant par exemple, M. Gallissot qui est lui, un historien de métier, font-ils l'œuvre qu'ils ont l'air de dire ? L'affiche correspond-elle au produit ?

---

8) P.U.F., 1964.

9) Paris, Julliard, 1952.

10) Ch. Souriau en particulier et de ceux-là qui l'utilise comme un étendard.

L'histoire coloniale, si elle n'est et ne doit finir par être qu'un élément de l'histoire universelle, n'en a pas moins gardé, jusqu'à la fin de la colonisation surtout, des caractères particuliers. "Les prises de positions des historiens étrangers", dit El Açalah. C'est là une façon discrète de désigner surtout les historiens français, les plus nombreux à traîter du sujet, même si Anglais, Italiens et Espagnols, ont aussi participer à cette élaboration. Historiens étrangers, en effet, mais de quel étranger ? La situation coloniale avait cela de particulier qu'elle liait deux peuples dans la même histoire, de sorte que les Français sont ici un étranger qui n'acceptait pas de l'être et qui, d'une certaine manière ne l'était pas. Dans l'histoire qu'il composait ainsi le Français devenait partie prenante, il lui fallait se mettre en cause lui-même et se représenter. L'histoire coloniale rejoignait alors dans son élaboration les problèmes propres à l'histoire des relations internationales, aggravés même par la disproportion des partenaires et l'absence momentanée d'hypothèses contradictoires.

Car, on peut, en effet, distinguer dans l'histoire coloniale de l'Algérie, ou d'ailleurs deux périodes : les ouvrages écrits avant l'indépendance, alors que l'histoire du pays colonisé n'a pas encore trouvé sa solution et sa fin, que le geste décrit reste en quelque sorte incorporée à la lutte — une partie des publications du centenaire sont révélatrices à ce sujet — et celle qui commence à s'élaborer après la libération. Est-ce à dire que tout ce qui s'est dit avant est noir et que tout ce qui s'écrit après est blanc. Pareil contraste relève, évidemment, de l'absurde. Il y a de vrais savants avant et après, il y a des courtisans après comme avant, et il ne suffit pas à un texte d'être anti-colonialiste pour être scientifique ! Les Algériens le savent bien. Mais, c'est alors à l'historiographie particulière de reprendre ses droits et de suivre pas à pas l'état des publications spécialisées. Nous avons seulement voulu marquer, quant à nous, ce qui de la nature des rapports historiques contemporains peut rejaillir sur la relation entre l'historien et sa nationalité, et comment le fait essentiel de l'indépendance doit aussi décoloniser l'histoire, c'est-à-dire l'arracher au cycle colonial dont les manifestations anti-colonialistes n'en restent pas moins coloniales, par définition même et quel que soit le complément politique qu'elles se font à elles-mêmes.

Le temps de l'indépendance est encore aujourd'hui bien court, il est trop tôt pour en définir les caractères. Préciser la notion d'histoire coloniale permet, au contraire, de voir plus clair dans les courants qui restent aujourd'hui dominants non seulement en histoire mais — ajoutons-le — en sociologie, car les analyses se rejoingnent ici et la sociologie actuelle européenne, même si elle est d'origine locale, se donne volontiers des couleurs historiques qui, pour mélanger les genres, n'en augmente que plus la confusion — ces sociologues, pseudo-historiens, confondant souvent l'histoire et les convictions journalistiques. Certains travaux récents qui se présentent cependant, comme des thèses, n'échappent pas à cette attitude.

L'histoire coloniale, que ce soit avant ou après l'indépendance, pouvait et peut avoir deux aspects : colonialiste, synonyme d'histoire partisane, d'histoire engagée comme on dirait aujourd'hui, et anti-colonialiste qui, pour l'être d'une autre manière, peut-être tout aussi partisane et tout aussi engagée et qui, SURTOUT, N'EN EST PAS MOINS COLONIALE. La rubrique histoire coloniale comprend, en effet, deux volets : colonialiste et anti-colonialiste, mais tous rivés à LA MEME OPTIQUE COLONIALE.

dustrialisation (2). Ou bien encore, l'histoire du libéralisme rhénan a été écrite par un français, J. Droz, qui est resté un spécialiste de l'histoire allemande (3). Française, moi-même, je n'ai jamais travailler sur l'histoire de France, mais sur ce qu'on a coutume d'appeler l'histoire des idées en Espagne ou en Algérie (4). Bien des Américains s'intéressent aujourd'hui au Moyen-Age français et européen. On pourrait multiplier les exemples à l'infini. Cette diversité est-elle un avantage ? Est-elle un inconvénient ? Faut-il ressembler à quelqu'un pour le comprendre ? Ou faut-il au contraire en différer pour lui découvrir ce qu'il peut difficilement dire de lui-même ? Les deux attitudes peuvent fort bien cohabiter, et se compléter, à condition qu'elles relèvent toutes les deux de cette manière de "sympathie" dont parle H. Marrou dans sa *Connaissance de l'histoire* (5), sympathie qui n'est pas tendance à la partialité — non plus qu'à l'apologie, aussi injurieuse scientifiquement que moralement — , mais goût du silence attentif et effacement conscient de soi-même.

Il peut y avoir une richesse à ce que d'autres que soi vous regardent. Seul un Américain par exemple, pouvait écrire ce *Village du Vaucluse* (6), critique mais amical aussi dans son observation amusée et stricte de la vie quotidienne d'une petite communauté provençale. Seul un non-Anglais pouvait surprendre *Les silences du Colonel Bramble* qui, sous forme de roman, étaient aussi une peinture de l'homme anglais, silences qui firent la gloire d'André Maurois en même temps que du fameux Colonel. Pour en revenir à l'Afrique, ne fallait-il pas quelque maître du rêve et du temps sans contrainte, quelques Africains, pour brosser cette satire impitoyable mais combien évocatrice et qui, soudain, révèle l'Européen à lui-même devenu brusquement, dans son besoin de tout exploiter «ce grand nègre robuste» prêt à féconder les veuves «pour ne rien laisser d'improductif» (7). Des regards convergents, mais dissemblables, révèlent mieux l'homme à lui-même qu'un simple miroir.

C'était là quelques mots sur le problème général.

---

2) F. Crouzet. L'Economie Britannique et le blocus continental. 1806 - 1813. Paris, P.U.F. 1958.

3) J. Droz. Le Libéralisme RHENAN 1815 - 1848. Contribution à l'étude du libéralisme allemand. Paris, Sorlot, 1940.

4) Ed. Seuil, 1954.

5) L'Education et l'école en Espagne de 1874 à 1902. Libéralisme et tradition. P.U.F. 1959. Miguel de Unamuno Universitaire. Bibliothèque Générale de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes. Paris, SVEPEN, 1964.

6) Laurence Wylie. *Un Village du Vaucluse*. Paris, Gallimard, 1968. L'ouvrage qui a été présenté comme thèse de sociologie avait été rédigé en anglais, en 1960, mais traduit partiellement de peur d'offusquer les habitants du Vaucluse. C'est, finalement, le maire de la petite cité décrite qui en a demandé la traduction intégrale pensant que la critique saine pouvait être plus louangeuse que la flatterie.

7) Y. Turin. Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, Maxpéro, 1971, p. 387.

Les difficultés où s'affrontent les hommes laissent toujours un résidu, réfractaire à l'explication absolue. C'est ce résidu qui est l'enjeu des querelles d'historiens et c'est lui qui permet à l'interprétation de s'immiscer dans le raisonnement historique. Passer du peut-être au sûrement, c'est alors franchir une frontière où chacun peut légitimement pénétrer par des portes différentes à condition, toutefois, que cette variété n'aille pas jusqu'à la fantaisie délibérée ou, encore, jusqu'au truquage.

Dans ces domaines controversés, l'histoire coloniale, et plus largement l'histoire des pays colonisés à sa place, et nous rejoignons ainsi la question posée par El Açalah.

Mais, cette question déborde les difficultés propres à l'historiographie classique : il est intéressant, évidemment, de découvrir comment les problèmes du moment ont pu conduire certains esprits étrangers, par ailleurs, rigoureux, à des interprétations rapides, comment l'autosatisfaction trop manifeste a engendré l'aveuglement et de quelle manière l'engagement politique s'est reflété dans une «histoire engagée» qu'il serait plus juste d'appeler polémique, sinon même quelquefois fabriquée. Mais toutes ces possibilités ne sont que des manifestations du problème fondamental que voici et que la curiosité d'El Açalah oblige à analyser en priorité : existe-t-il réellement un *problème de l'historien et de sa nationalité* face à l'histoire qu'il écrit ? Y-a-t-il, dans le cas particulier de l'Algérie, une difficulté propre à cette relation de l'historien avec lui-même lorsqu'il est étranger ?

Essayons d'éclairer quelque peu la première question — d'une formulation universelle — pour glisser lentement jusqu'à la seconde qui nous intéresse plus particulièrement ici.

Une remarque tout d'abord : il n'est pas d'historiens sans nationalité, et lorsque les nationalités n'étaient pas durcies comme elles le sont aujourd'hui, considérées en quelque sorte comme source d'une seconde nature — «Je suis homme d'abord et Français par hasard» de Montesquieu semble si loin... — lorsque les chroniqueurs racontaient le geste de leur roi, ils n'en appartenaient pas moins à une communauté dont les contours étaient moins nets, mais les exigences conceptuelles aussi certaines. Il n'est donc pas d'historiens qui puissent échapper au problème qu'il écrive ou non l'histoire de son propre pays. La question peut alors être formulée ainsi : est-il préférable d'écrire sa propre histoire, ou vaut-il mieux au contraire "être étranger" au monde que l'on engendre pour soi et pour les autres, à la connaissance ?

Il est certain, tout d'abord, que plus d'Anglais ont écrit l'histoire d'Angleterre ou d'Italiens celle d'Italie, que de Français n'ont raconté celle d'Allemagne ou d'Amérique. Mais cette fréquence du lien entre l'historien et son pays d'origine tient surtout aux conditions et aux commodités du travail scientifique. La langue d'abord, la localisation des documents ensuite plus nombreux en Chine sur l'histoire de Chine que nulle part ailleurs, c'est trop évident, surtout si l'on complète la documentation écrite par celle qui ne l'est pas. Ceci n'empêche que certains ouvrages anglais ou américains font aujourd'hui autorité en France pour l'histoire du Second Empire, par exemple (1), et inversement que certaines thèses françaises ont révélé aux Anglais les premiers pas de leur in-

1) V. Wright, Le Conseil d'Etat sous le Second Empire. Colin, Travaux et recherches de Sciences Politiques, 1972.
J. Rothney. Bonapartism after Sedan, Cornell Univ. Press, Ithaca, N.Y., 1969.

L'Histoire et sa Nationalité

Yvonne TURIN,
Professeur d'Histoire
à la Faculté des Lettres d'Alger.

En prenant connaissance du sujet choisi pour le numéro spécial d'El Açalah : «L'histoire de l'Algérie à travers les siècles et les prises de positions des historiens étrangers», bien des questions me vinrent à l'esprit, mais celle-ci d'abord : historienne étrangère moi-même, il m'appartenait ainsi de devenir mon propre juge, d'être à la fois juge et partie. Difficile entreprise... J'ai donc hésité. Je me suis laissée convaincre par le geste de la revue elle-même et par la confiance qu'il exprime à l'égard de ces mêmes étrangers. Dès lors, comment ne pas répondre pour que soit dit le remerciement, même si l'engrenage est dangereux...

Le problème énoncé par El Açalah est de ceux qu'analyse l'historiographie, cette science de l'histoire. Toutes les histoires et surtout les problèmes difficiles ont une historiographie. L'histoire religieuse, l'histoire des relations internationales sont parmi celles dont la présentation a le plus varié.

La première parce que les relations entre la religion et la société, entre les formes religieuses elles-mêmes, ont beaucoup évolué en Occident notamment, la seconde parce que la vie internationale met en cause plusieurs parties, souvent antagoniste qui ont sur leur politique des points de vue non moins opposés : l'histoire de la première guerre mondiale peut être un exemple type de ces divergences et toutes les rencontres d'historiens franco-allemands n'ont pas réussies à éliminer totalement les désaccords. L'important étant, d'ailleurs, moins peut-être de les supprimer que de les situer et de les exposer clairement, la science historique n'ayant pas d'abord pour but l'expression d'une vérité intangible, mais la connaissance des opinions différentes et leur confrontation.

Ces discordances ont d'ailleurs un sens profond. J'irai jusqu'à dire qu'elles sont rassurantes. Elles sont essentielles, sinon l'essentiel de l'histoire, elles en sont la gloire! Paradoxe ? Non pas. Quoi donc alors ? Elles prouvent, ces divergences, que les problèmes historiques ne sont pas du même ordre que les comptes arithmétiques, sinon la variété des solutions proposées serait inconcevable. Elles affirment que les êtres humains que l'on cherche à connaître ne sont pas de simples unités de compte, qu'ils échappent toujours un peu, pour leur plus grande sécurité, à l'ordinateur.

Revue d'Histoire Maghrébine

Cher Professeur et Collègue,

C'est un grand plaisir de vous annoncer le projet de la création d'une nouvelle revue d'histoire moderne et contemporaine intitulée : *Revue d'Histoire Maghrébine.*

En effet la nécessité d'une telle revue sur le Maghreb se fait sentir ; celle-ci, dont nous voulons faire un lieu de rencontre utile pour tous les spécialistes du Maghreb tant Maghrebins qu'étrangers, se veut une revue à vocation scientifique. Des Universitaires de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Tunis, d'Alger et de Rabat vont assumer cette responsabilité et invitent leurs collègues et amis étrangers à accorder leur collaboration pour la réussite de ce projet.

Notre tâche consiste à promouvoir un mouvement en faveur de la recherche concernant l'Histoire du Maghreb, dans une perspective objective et scientifique afin de contribuer à la formation d'une conscience historique chez les Maghrébins, pour enrichir leur présent par une meilleure connaissance de leur passé, surtout que les pays du Maghreb ont connu une solidarité et une communauté de destin dans leur évolution historique.

La Revue se propose d'utiliser l'arabe, le français et l'anglais. Pour assurer une meilleure utilisation de la Revue, nous jugeons utile d'accompagner toute étude par un résumé traduit dans une deuxième langue. Le résumé en question peut être soit directement rédigé par l'auteur soit traduit par nos soins sur un original présenté par l'auteur.

Le Comité de Rédaction de la Revue a jugé nécessaire de publier des documents inédits de préférence en langue arabe, française ou anglaise et nous tâcherons de traduire les documents rédigés dans d'autres langues ; nous insistons dans ce domaine sur les sources d'archives arabes et turques négligées jusqu'à ces derniers temps.

En vous écrivant, nous vous invitons à collaborer avec nous, à seconder et enrichir notre activité ; nous croyons, en effet, à l'ouverture, au dialogue et au progrès.

La Revue paraîtra à raison de deux ou trois numéros par an que nous nous chargerons de vous faire parvenir.

Voici notre adresse provisoire : Prof. Abdeljelil TEMIMI. — 21, Rue Souville, La Cagna - Tunis, Tunisie.

Nous espérons pouvoir compter sur votre participation et nous vous prions d'agréer, cher Professeur et Collègue, l'expression de nos sentiments les meilleurs.

Le Comité de Rédaction

cings, qui empoisonnent les gens jusque dans leurs domiciles par leur tapage nocturne, favorisent la promiscuité, la corruption, les divorces, la délinquance juvénile, nuisent à toute la société et à la nation et donnent à notre capitale l'aspect de Changhai d'antan, que la Chine Populaire a supprimé radicalement, ainsi d'ailleurs que l'ont fait chez elles la République Démocratique du Vietnam, la R.P.D. de Corée et Cuba, entre autres.

Nous pensons fermement d'ailleurs que, parallèlement à toutes ces mesures plus que nécessaires d'assainissement et de sauvegarde, le Service National, par sa discipline et son effort éducatif, constituera pour la jeunesse une école exemplaire de sens civique et moral et contribuera à éliminer tous ces comportements qui jurent avec nos traditions et notre génie national.

Toute bonne éducation est faite de persuasion et de rigueur. L'Islam n'a jamais été une religion de privation ni d'ascétisme. Et s'il est la religion de l'au-delà, il est également et avant tout religion d'ici-bas et code de civilisation.

C'est le Prophète qui, en réponse à un des premiers croyants lequel se vantait de s'être imposé la pratique du jeûne durant toute l'année, la prière toute la nuit sans repos et le célibat, lui dit : «Moi, Prophète de Dieu, je me nourris, me repose et suis marié. Ce que tu fais, toi, n'est pas dans le sens de l'Islam».

Et c'est le second Khalife Omar, surnommé le Juste, qui, surprenant un jour dans une mosquée des fidèles psalmodiant encore après la prière obligatoire, aurait fait usage de sa canne en leur disant : Sortez, au travail, il ne pleut pas d'argent, encore moins d'or ! ».

Mais c'est lui aussi, un jour que passait devant lui un jeune homme à la démarche dandinante et à l'allure efféminée, qui aurait encore fait usage de sa canne, lui criant : «Pourquoi fais-tu ainsi le mort dans ta démarche ! Vous nous avez tué notre religion, que Dieu vous donne la mort ! ».

Quant à ceux qui invoquent la liberté individuelle, nous leur rappelons simplement que toute liberté a ses limites, et que celle des uns finit justement où doit commencer celle des autres. Liberté n'a jamais signifié libertinage, licence, indécence, désordre et anarchie.

Hélas ! il faut bien rappeler à ceux qui prennent tout d'une façon nonchalante, et même calculée et criminelle, et qui pensent ainsi avoir leur part de cette danse macabre, que toutes les civilisations et grandes nations ont sombré en minimisant la portée de leurs premiers pas vers la décadence. Qu'il nous suffise de rappeler l'exemple de la Grèce, de Rome et de l'Andalousie.

La sonnette d'alarme devait être tirée. Nous lançons cet appel à la Société, à l'Etat et à la Nation toute entière. Nous avons peut-être écorché un peu tout le monde au passage. Nous nous attendons à la réaction que nous savons, mais nous sommes, en tant que citoyen, conscient de nos responsabilités. C'est un gigantesque haut-parleur qu'il faudrait utiliser, et qui doit rugir en permanence, celui-là.

Mouloud KASSIM

choses belles en elles-mêmes mais que ces missionnaires du diable et révolutionnaires professionnels, en «détachement» chez nous, utilisent à des fins beaucoup moins belles, poussant ces jeunes âmes à des comportements immoraux pour démontrer cette «ouverture sur le monde» !

Et ceci alors que les pays de ces ressortissants étrangers font tout pour se ressaisir chez eux et sauvegarder leurs fondements.

Récemment encore, nous avons reçu de grands intellectuels d'une confession chrétienne d'un pays qui pratique depuis des siècles la séparation de l'Eglise et de l'Etat. Ceux-ci ont essayé de nous persuader du sens anachronique de l'enseignement religieux chez nous, et ce, au moment même où, conscients qu'ils sont de l'impact de l'éducation morale et religieuse sur la jeunesse et, partant, de son importance pour la nation, ils viennent de décider chez eux, en accord avec l'Etat, des mesures pour encourager cet enseignement religieux, appelé «enseignement libre» à tous les niveaux. C'est aussi le *moment* où ces «conseilleurs» étendent *leur système d'enseignement missionnaire* jusque chez nous et jusqu'à Kerala, et font tout pour le maintenir, et même, si possible — c'est le but de leurs «conseils» — de lui assurer l'exclusivité !

Certains autres «conseilleurs» ne diffèrent guère de ces hordes sionistes qui, par une certaine presse et des Cohen-Bendit interposés, stigmatisent tout rappel aux bonnes mœurs, les taxent d'étroitesse d'esprit, crient à l'anachronisme et au fanatisme et incitent partout à travers le monde au désordre, à la contestation et au rejet de toutes les valeurs morales. Excepté en Israël, bien sûr, où la morale est de rigueur parce que «constituant le fondement de l'Etat et la sauvegarde de l'âme du peuple élu», où l'on interdit le porc, impose le cachir, même aux non-juifs, et même dans les bateaux navigant au loin où l'on a refusé à la petite fille de Ben Gourion le droit d'épouser un officier supérieur de l'armée sioniste, parce que sa mère, en l'occurrence la bru de Ben Gourion, n'était pas juive de naissance, mais seulement convertie ; où l'on observe chaque samedi le Sabbat de la manière la plus officielle et solennelle et où l'on fixe un délai-limite de six mois à tout nouvel immigrant pour apprendre et utiliser l'hébreu, langue morte depuis plus de deux mille ans et ressuscitée en tant que lien sacré entre les juifs dans le monde et en tant que langue des sciences et de la vie quotidienne.

Pour revenir à l'Algérie, et avant de clore ces mots, nous voudrions souligner un point important pour l'ordre public et pour la morale de la jeunesse : nos services compétents, s'ils doivent redoubler d'efforts afin d'enrayer, de supprimer cette maladie masculine que l'on appelle «dragage» et qui empoisonne nos rues et nos plages, il est non moins nécessaire qu'ils sévissent contre une certaine gent *féminine qui contribue à la progression* des divorces et déshonore nos villes et notre pays.

Pour les paysans traditionnalistes et «retardataires» que nous sommes, il est devenu presque impossible de nous trouver ensemble avec des parents ou avec des amis âgés dans certains carrefours et artères de nos grandes villes, à cause de toutes sortes de spectacles désagréables que l'Espagne, par exemple, pourtant très attachée au tourisme, interdit même sur les plages les plus osées.

Dans le même ordre d'idées, nous voudrions insister sur la nécessité impérieuse de rappeler au moins à l'ordre, sinon de fermer, toutes sortes de bars, cabarets et autres boîtes de nuit et dan-

«Vertrauen ist gut, Kontrolle ist besser !» (La confiance est une bonne chose, mais le contrôle est meilleur !).

D'autres écervelées, qui du temps de Schopenhauer avaient «les cheveux longs et les idées courtes» et qui, maintenant, ont tout en court : idées, cheveux et habits, pratiquent, sans sortir même hors de nos frontières, et préconisent publiquement, comme le dénonçait «El-Moudjahid» dans une toute récente enquête, ce qu'elles appellent effrontément les «unions libres»! Là également nous connaissons des cas spécifiques, même ou surtout dans certaines castes dites «chorfa» et «haute société» de grandes villes, et dont se vantent bon nombre de nos hôtes étrangers qui vivent en concubinage avec des algériennes ! Si de tels cas ont existé et existent encore, et de plus en plus, dans la plupart des pays industrialisés, et même dans certains pays frères, nous croyions, quant à nous, dans notre naïveté peut-être, que notre pays était exempt d'une telle tare ! Et c'était effectivement ainsi jusqu'au recouvrement de l'indépendance. Certes, ce ne sont encore, heureusement, que des accidents relativement rares, mais il faut remarquer que les mauvais exemples sont suivis bien plus souvent que les bons, car, et c'est la nature — il est banal peut-être de le rappeler — la pente est toujours plus facile... «la pente qui entraîne et perd» !

D'où viennent tous ces maux sinon d'une certaine promiscuité, fausse conception de la liberté et de l'émancipation de la femme, bref ! d'une certaine démission des parents et des maris qui doivent se ressaisir ? Démission coupable, abdication criminelle, aussi bien à l'égard de leurs enfants que de la Nation ! Pendant les années passées en Europe, il nous a été donné de constater tout le contraire, de voir même des professeurs d'université en France, Tchécoslovaquie, Allemagne Fédérale, Autriche, Suède, Suisse, attendre leurs filles à la sortie des lycées et des facultés.

Dans ce contexte, il faut souligner le fait que certains étrangers résidant en Algérie se sont assigné ou se sont laissé assigner la tâche de miner les fondements de la famille algérienne. Il y a des cas innombrables et flagrants qui dénotent une démarche systématique, réfléchie et planifiée. Je ne pourrais citer, dans le cadre de ces mots, que deux exemples révoltants qui résument tout et qui sont connus de certaines de nos autorités : celui d'un professeur d'éducation physique dans une petite ville près d'Alger, qui a ruiné l'avenir de sept de ses élèves-filles, et celui d'un autre coopérant à Alger qui a détruit le foyer de trois familles algériennes !

Sans parler d'une certaine activité de gens qui se disent missionnaires de Dieu... mais qui le sont du diable ! Ceux qui se sont faits les auxiliaires zélés de la pénétration coloniale et luttaient pour sa pérennité, veulent détruire d'une main ce qu'il n'ont pu garder de l'autre ! Nous sommes au courant de ces activités destructrices portant sur notre jeunesse : telles des soirées dites «d'études» et des «sorties de week-end» pour jeunes filles et garçons... !

D'autres idéologues, d'un autre bord ceux-là, mais procédant de la même manière et poursuivant le même objectif — celui de la destruction systématique de notre cellule familiale et des fondements de notre société, tels le sens familial, le sens civique, le sens national tout court, le sens de l'honneur et de la dignité humaine —, vont jusqu'à inciter des étudiantes et étudiants à prouver leur manque de «fanatisme», leur «ouverture sur le monde», leur «émancipation» et autres

les pays dits du Tiers-Monde, ni encore moins par certains des nôtres qui demeurent encore mentalement colonisés. C'est que la femme, à notre avis comme de l'avis de tous, est la gardienne des traditions et la colonne vertébrale de la famille, cellule de base de la société. Et toute vie morale ou dissolue dans la famille et la société est déterminée en premier lieu par le comportement de la femme. Son rôle est donc capital.

Or, — et là encore nous ressassons peut-être des banalités mais qu'il faut malheureusement sans cesse rappeler — le ressort moral de toute nation est son premier et principal capital, même pour les pays socialistes qui ont chacun leur code moral, leur livre révélé ou mûrement réfléchi, blanc, noir, ou rouge. Il ne servirait à rien de multiplier des Hadja si l'on ne cimente pas en même temps la vie sociale. Une prospérité matérielle sans âme ne ferait de nous, comme de toute autre société, qu'un colosse aux pieds d'argile.

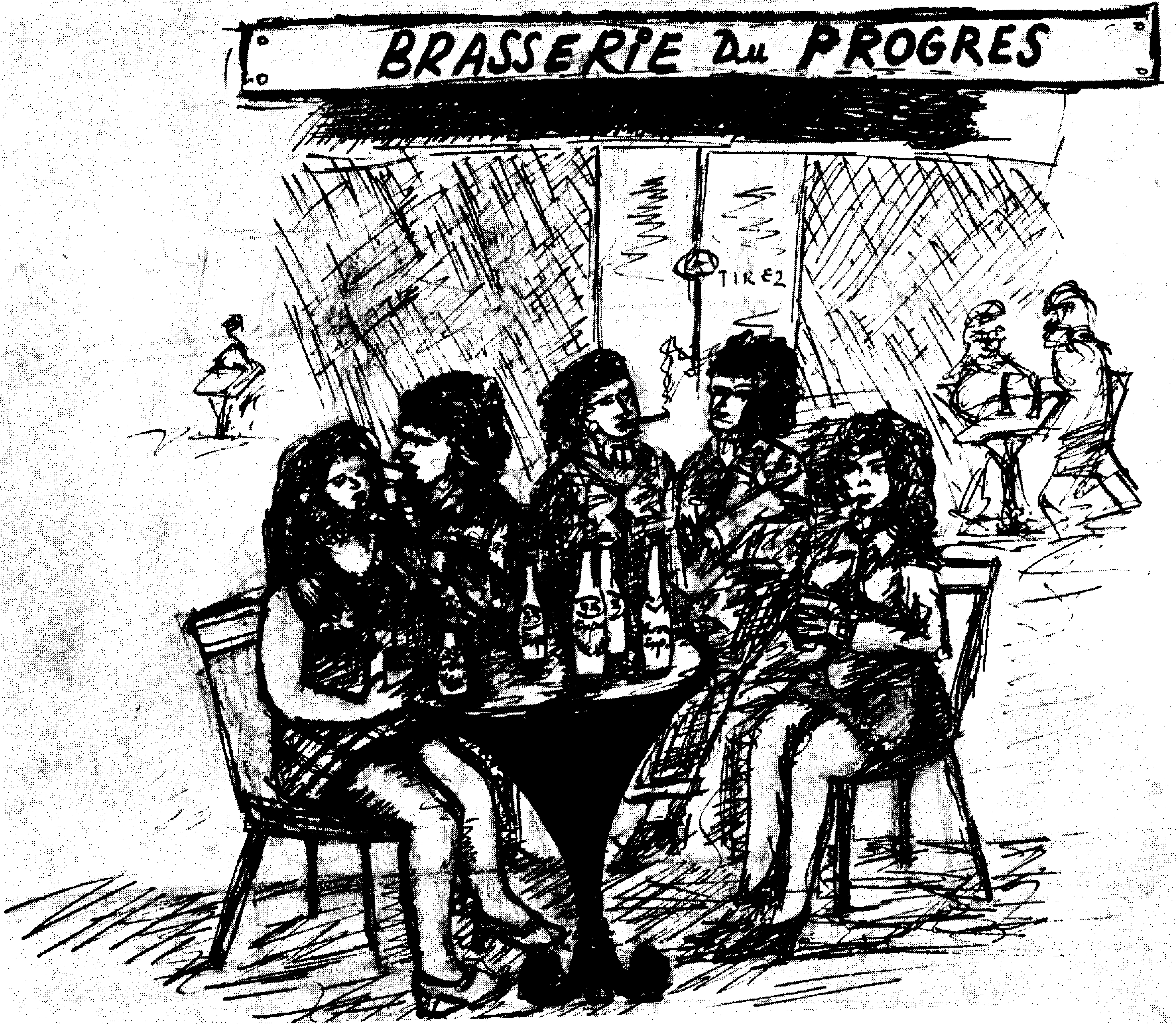
Aussi nous faut-il rectifier les fausses conceptions et réfuter les argumentations spécieuses et fallacieuses sur la fameuse émancipation de la femme. Avant l'Islam aussi bien que depuis, la femme n'a jamis été chez nous esclave comme ce fut le cas en Europe, où certaines hautes, très hautes, autorités écclésiastiques se sont posé la question de savoir si elle avait une âme, et où certains rois lui ont interdit de toucher aux Livres Saints qu'elle «profanait», et même de s'instruire !

Dans notre histoire, surtout pendant les moments décisifs, nous avons eu plusieurs grandes dames qui ont même mené les hommes à la résistance. Il nous suffit de rappeler un seul exemple, celui de la célèbre Lalla Fatma N'Soummer qui a dirigé les fameux moussebeline contre les généraux de l'armée d'invasion française dans les montagnes de Kabylie. Et l'histoire de l'Islam en général est riche de tels exemples.

L'Islam est contre tout excès. Mais, de l'état de «sans âme» à la «liberté» des cabarets, à la promiscuité des boîtes de nuit, et même jusqu'au «droit» de se prostituer, qui sont les corrolaires de cette «émancipation» que l'on nous vante d'outre-mer, il y a pour la femme plus que de l'écart et que des excès !

S'il est nécessaire, tel que le recommandait, voire l'imposait, le Prophète, il y a quatorze siècles, d'envoyer les filles comme les garçons sur les bancs des lycées et des facultés («s'instruire est un devoir pour chaque musulman et musulmane»), il est coupable, par contre, de les abandonner à elles-mêmes, de leur lâcher la bride et de ne pas surveiller leurs sorties et leurs rentrées à la maison. Il est encore plus condamnable de les accompagner, comme le font certains, jusqu'à Dar-El-Beïda, munies de passeports et d'argent ; ou même de leur libérer de somptueux appartements et villas sur les hauts d'Alger pour y «fêter Noël et la Saint-Sylvestre», seules avec leurs amis accourus d'outre-mer pour la circonstance, comme l'a fait telle famille algéroise très «civilisée» et très «ouverte sur le monde» !

Il est vrai que sans la confiance l'on ne peut rien garantir, mais il est encore plus vrai que la confiance à elle seule, et même doublée d'une bonne éducation, ne suffit nullement. Il ne faut pas tenter le diable en nous tous. Et Lénine avait, dans un autre contexte mais valable dans ce sens également, une devise que les allemands affectionnent et citent souvent :



انفتاح وانبطاح... والشباب عماد المستقبل!

33 خبَّاطة!

de passage dans d'autres petits villages et villes : Tiaret, Djelfa, Miliana, sans parler d'Alger, d'Oran et d'Annaba, il nous est arrivé de ne pas trouver de boissons non-alcoolisées : «pas d'eau minérale» ; *quant au café : «la machine* est en panne ! ». Il ne nous restait plus que la «33» et en abondance, celle-ci !

Toynbee écrivait qu'il fallait mettre à l'acquit de l'Islam d'avoir liquidé notamment l'alcoolisme. Cet Islam-là n'est-il plus valable ou ne serions-nous plus musulmans ?

Il y a un autre fait à signaler, qui illustre cette imitation aveugle de l'étranger, c'est celui de l'habit féminin. Des cervelles superficielles peuvent penser que c'est superficiel de «s'abaisser» jusqu'à parler de mini-jupes qui, elles, sont effectivement très « élevées », redeviennent «maxi», pour remonter peut-être très bientôt plus haut encore qu'elles n'étaient auparavant !

Si l'habit ne fait pas le moine, il est néanmoins l'un des signes de toute civilisation à travers les siècles. L'on a toujours dit et écrit en Occident que ce sont les primitifs et sauvages qui se dénudent. Devons-nous suivre l'Occident dans toutes ses turpitudes et acrobaties et adopter le semi-nudisme simplement parce qu'il nous vient de lui ? Et comme par hasard, nous ne le suivons presque toujours, et très vite, que dans ses mauvais côtés !

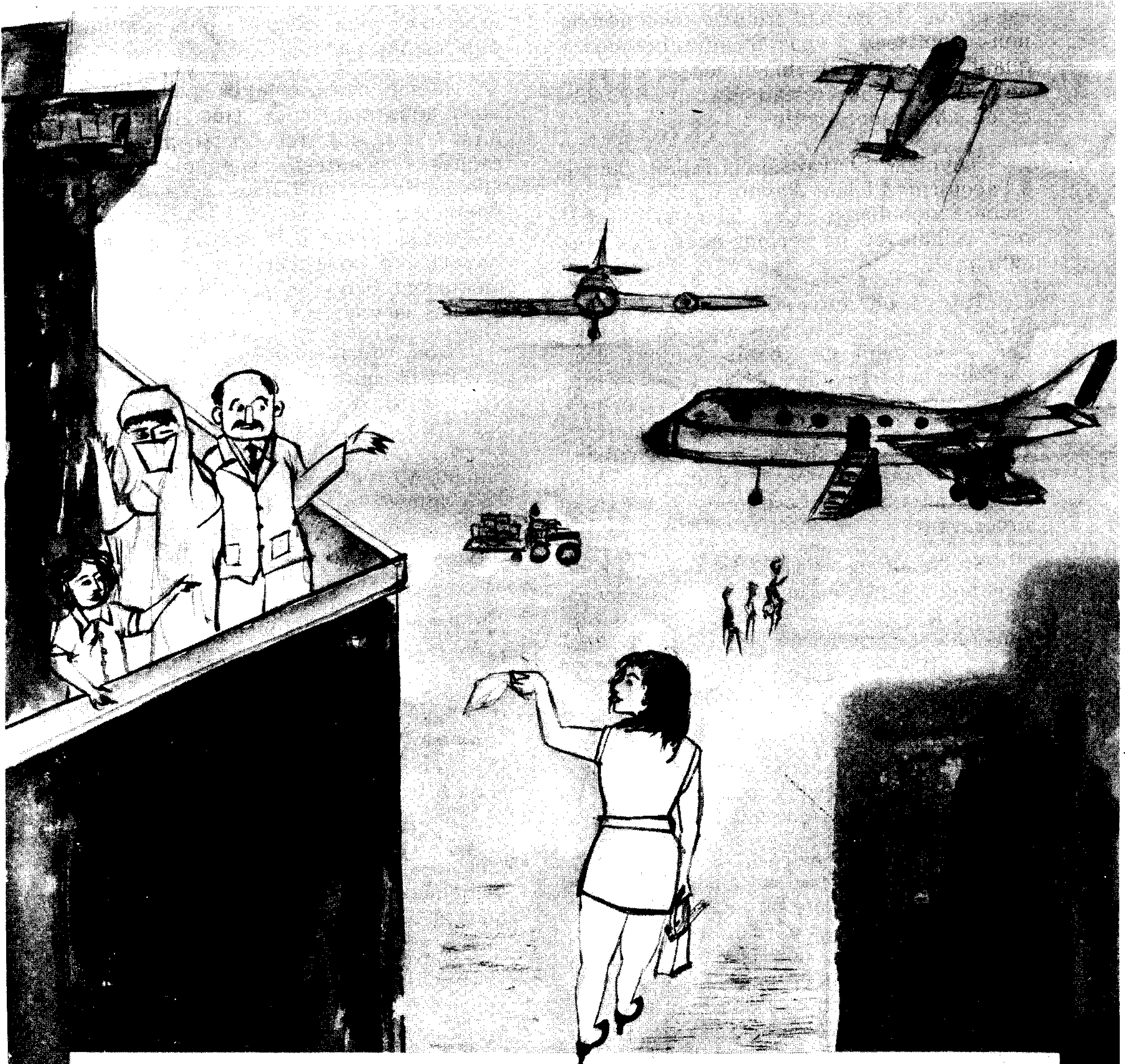
Si nos traditions les plus respectables de décence et de pudeur auraient dû interdire à toute femme ou jeune fille jouissant de ses facultés de s'offrir en spectacle à ses parents, ses frères et sœurs, comment se fait-il que ceux-ci tolèrent de telles scènes insolites et obscènes ? Outre les règles les plus élémentaires de décence et de respect de soi et des autres, il aurait dû y avoir également le respect du bon goût, celui de l'esthétique la plus élémentaire. Or, tous les bons goûts s'accordent pour dire que l'habit long est plus gracieux, plus élégant plus féminin et plus esthétique !

Même cette «maxi» que nous trouvons nous «paysans», très jolie, et que nous avons admirée portée par nos paysannes et d'autres, espagnoles, tchèques, allemandes ou suédoises, certaines de nos femmes, celles des villes évidemment, ne se sont décidées à la mettre qu'une fois importée d'outre-mer, alors qu'elles s'en moquaient il n'y a pas longtemps, lorsqu'elles la voyaient sur nos sœurs !

Non, décidément, il faudrait prendre un chemin détourné, et d'abord convaincre l'Occident que certaines choses sont bonnes, ou nous paraissent telles, pour qu'elles soient adoptées chez nous par les écervelées ! celles-ci sont toujours là à singer... au gré de l'esprit mercantile de certains «modistes» fourbes qui exploitent le manque de cervelle chez nombre de femmes, lesquelles changent de costume et de coiffure du jour au lendemain selon la fantaisie, pas toujours inspirée et encore moins désintéressée, de ces mauvais prestidigitateurs.

Heureusement que ce ne sont pas nos «pauvres paysannes» de Tamanrasset, de l'Ouarsenis, de Kabylie ou des Aurès qui sont prises de telles fantaisies favorisant la corruption. Ces mêmes fantaisies demeurent encore l'apanage de certaines marquises de grandes villes dont on se demande comment leurs maris et... elles-mêmes s'en procurent les moyens !

Certains s'étonneront que l'on accorde tant d'importance à des points qui leur paraissent futiles, concernant la femme. Mais nous ne nous laisseront complexer ni par ces «conseilleurs professionnels» d'outre-mer qui veulent toujours couver



مساواة ! وحرية ! وتفتح على العالم الأوسع !

Egalité !... Emancipation ! Ouverture sur le Monde, le Vaste Monde

durant les premières années du recouvrement de l'indépendance, favorisés par le snobisme de certains responsables de l'époque — qui étaient conseillés de l'extérieur par des spécialistes de la désintégration des peuples et du pourrissement des sociétés, pour les dépouiller de leur immunité, les mettre en condition et les préparer à subir ou même à réclamer des changements étudiés et planifiés hors des frontières de leur pays — tout cela, joint à une certaine démission criminelle des parents et une abdication lâche et honteuse des maris, a entrainé les débuts de cette érosion que nous connaissons maintenant dans les grandes villes. Cette situation menace, si elle n'est jugulée à temps, de s'étendre au reste du pays dans le sillage de la vague du bestialisme, du sexualisme, de l'alcoolisme, de la délinquance junénile, des divorces, des femmes et enfants abandonnés, et de déboucher sur la dislocation familiale et, partant de la société ainsi que de toutes les valeurs humaines sur lesquelles repose toute civilisation.

D'abord insoupçonné, puis minimisé, ce mal du siècle, qui envahit le monde et qui constitue une crise de civilisation, est de plus en plus pris au sérieux aussi bien en Europe qu'en Amérique, ainsi que dans bon nombre de pays du Tiers-Monde, et particulièrement en Afrique centrale et australe.

L'on n'a qu'à observer de près les campagnes organisées à différents niveaux en Europe occidentale, aux USA et en URSS, pour ne rien dire de la République Populaire de Chine, de la RPD de Corée et de la République Démocratique du Vietnam qui elles, ont enrayé tous ces maux, tout en travaillant d'arrache-pied pour l'édification du socialisme.

Tout récemment encore, une telle campagne a été déclenchée en URSS, particulièrement dans l'organe des Jeunesses Communistes «Komsomolsqaia Pravda», contre une certaine jeunesse dévoyée et notamment contre certaines femmes à l'affût du luxe et de l'étranger. Une autre campagne, en URSS également, a été, il y a peu de temps, consacrée à la lutte contre l'alcoolisme : elle conduisit à limiter strictement la consommation des boissons alcoolisées à certaines heures de la journée, en l'occurrence entre 11 h et 20 h, et à l'interdire totalement et sévèrement à proximité des établissements scolaires et universitaires, des usines, des théâtres, des cinémas et tous lieux publics, car ces boissons, stipulaient les textes de cette campagne anti-alcoolique «droguent le peuple et nuisent à la production du pays». En URSS, où les soins sont gratuits pour tous, les ivrognes ramassés dans la rue sont conduits de force dans les hôpitaux où ils sont soignés à leurs frais. Ils règlent même la dépense de leur transport à l'hôpital quand il est fait en taxi.

Chez nous, et des lettres de citoyennes, mères de famille, sont là, entre autres, pour en témoigner, l'alcoolisme, avec la promiscuité qu'il favorise, est l'une des principales causes des nombreux divorces qui sont en passe de devenir une mode et qui livrent les femmes et leurs enfants à la rue, poussant parfois les malheureuses abandonnées au plus vieux métier du monde et jetant les enfants dans l'école de la criminalité, comme y contribue également la fameuse loi portant le nom de la non moins fameuse Mlle Sid Cara, qui confère toujours le droit de garde à la mère, à tort ou à raison !

Nous avions cité, tout récemment dans un entretien avec «El Moudjahid», le cas de Sidi Aïch qui a vu proliférer le nombre de ses buvettes. Avec des amis,

"Tirer la Sonnette d'Alarme"

par Mouloud KASSIM,
Ministre de l'Enseignement Originel
et des Affaires Religieuses.

En prenant l'heureuse initiative de cette table ronde sur les mœurs, sur la femme, la famille et la jeunesse dans la Nation, «El-Moudjahid» ne fait qu'être fidèle à lui-même. Il fait œuvre de continuité et honneur à son glorieux passé d'organe de la lutte de libération, cette libération qui n'a fait que commencer avec le recouvrement de l'indépendance politique et de la souveraineté.

Une autre bataille, non moins importante, est celle que doit mener et que mène notre Algérie socialiste et musulmane sur les plans économique, social et culturel. La libération des cerveaux et des cœurs n'est pas la moindre, car elle détermine et conditionne toutes les autres. Nous pensons donc que, tandis qu'il accomplit sa tâche de réveiller les consciences et participe ainsi très efficacement à l'achèvement de notre indépendance et à la récupération de tous nos biens moraux, après celle de nos richesses matérielles, c'est un grand honneur que nous fait notre quotidien national que de nous donner cette possibilité de prendre part à la campagne nationale d'assainissement. Tout en le remerciant vivement, encore une fois, et en nous permettant la prétention de recommander à nos autres organes en arabe et en français, ainsi qu'à la R.T.A., de suivre ce bon exemple, nous devons, dans ce contexte, saisir ici l'occasion de remercier également certains de nos services de souveraineté d'avoir agi sur le terrain et d'avoir contribué directement à l'œuvre de salubrité nationale.

La société algérienne est, dans son ensemble, encore très saine. Mais il faut se dire que la situation dans les grandes villes commence à connaitre de grands changements et que notre société subit actuellement les débuts d'une certaine érosion. En effet, nos grandes cités accusent présentement des signes alarmants, alors qu'elles offraient, jusqu'à la veille de la reprise de la lutte pour la libération nationale, le visage d'une vie exemplaire.

La population citadine (car il ne sera nullement question ici de nos campagnes qui demeurent encore, Dieu merci, intactes et fidèles à elles-mêmes), mue par les principes de base de notre religion, de son corollaire moral et de nos traditions ancestrales, et transposant les fondements de la vie familiale sur le plan national, avait fait échec à tous les procédés diaboliques de dépersonnalisation et de dénationalisation mobilisés par le colonialisme.

Mais la dislocation de plusieurs familles pendant la guerre de libération, un incontestable désordre et cosmopolitisme

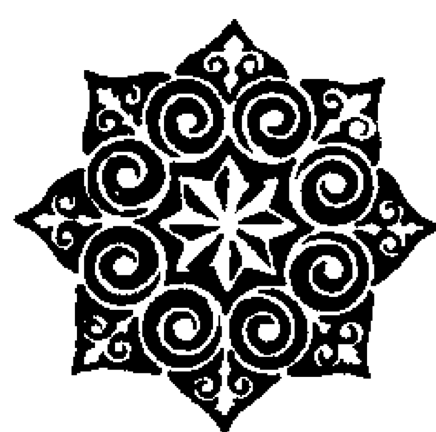
Etant donné que le mal est général pour les différents pays musulmans, qu'ils en souffrent à des degrés divers - et l'occasion est propice de le rappeler à l'occasion de ce séminaire pour la connaissance de la pensée islamique -, que ces pays y trouvent un avertissement et une mise en garde, un appel et rappel, car nous sommes tous logés à la même enseigne !

Même si ces modèles n'apparaissent pas dans certains pays musulmans, c'est ainsi que nous avons vu leurs fils et leurs filles à l'extérieur.

L'édification matérielle, s'il n'existe pas un sentiment aigu de l'honneur, ne pourra être qu'un géant aux pieds d'argile !

Ainsi ont sombré des nations avant nous, et le même mal a causé notre perte en Andalousie. "Le rappel est certes utile aux croyants !" comme le dit le verset coranique.

Mouloud Kassim NAIT BELKACEM,



H 173

"Il n'est pas de Nations..."

L'Algérie a célébré depuis quelques semaines le onzième anniversaire de son indépendance et du recouvrement de sa souveraineté après une longue lutte.

Elle consacre aujourd'hui ses efforts à la reconstruction et à la résorption du retard accumulé pendant les siècles de léthargie et de stagnation auxquels ont succédé 125 ans de colonialisme basé sur la trilogie néfaste définie par Aristote depuis plus de deux millénaires : la misère, l'ignorance et la maladie.

Si l'Algérie a reconquis sa liberté et ses richesses matérielles, si elle est aujourd'hui en voie de vaincre cette néfaste trilogie, il est cependant un seul domaine où elle n'a pas encore parachevé sa libération et son affranchissement, domaine qui n'est pas moins important que celui de l'édification, à savoir les valeurs morales et spirituelles qui sont le ciment spirituel des sociétés et des nations.

Car ce sont ces valeurs qui renforcent et même garantissent leur unité et leur cohésion et qui leur permettent de se libérer des mauvaises habitudes importées, de se fortifier contre les tentatives de conquête intellectuelle qui visent à reprendre d'une main ce qui a été cédé de l'autre sous la contrainte.

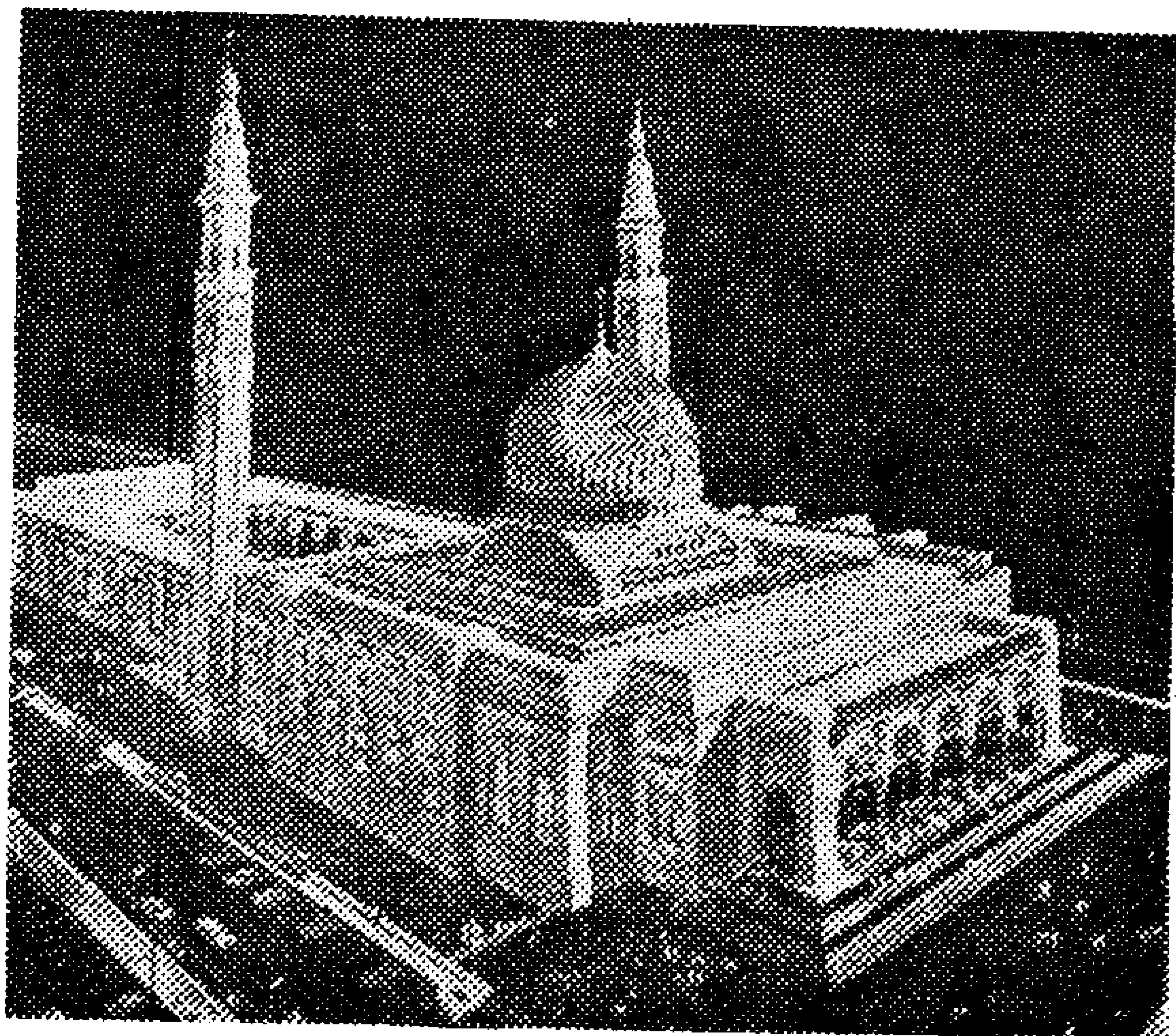
L'Algérie n'est pas - sur ce plan là - un cas isolé, un cas unique parmi ses sœurs. Mais ceci ne constitue évidemment pas un réconfort ni une atténuation de ses craintes et de ses appréhensions, tant elle redoute que ne s'applique à son endroit - de près ou de loin - ce vers connu du poète chawki :

"Il n'est pas de nations sans valeurs morales.

Que disparaissent ces valeurs et les nations s'en iront à leur tour".

Je me suis longuement exprimé sur ce point dans le quotidien national de langue française "El-Moudjahid" en date du 29 septembre 1970, sous le titre : "Tirer la sonnette d'alarme !" et le lecteur trouvera dans ce numéro cet article dans sa langue d'origine (résumé par deux tableaux d'un fils de chahid orphelin de mère). Il faut parler aux gens le langage qu'ils comprennent !

مسجــد الامــير عبد القــادر
بقسنطينــة



ابعثــــوا بتبــرعـــاتكم لبنــــاء
مسجــد الامــير عبد القــادر
بقسنطينــة

الى العنوان التالى :

C.P.A. Constantine
C.C.B. 30141. 1291